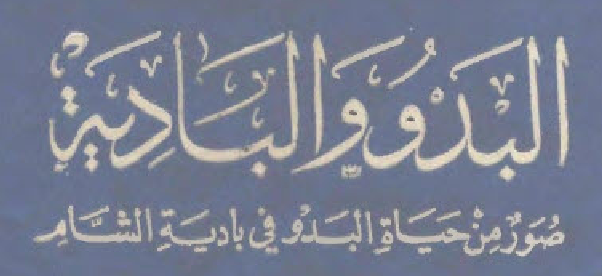


تأليف

الدكتور جبرائيل سليمان جبور

أشرف على تحريره

الدكتور سهيل جبرائيل جبور

دار العلم للملايين


مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com


البدو والبادية
صور من حياة البدو في بادية الشام

البدو والبادية

صور من حياة البدو في بادية الشام

تأليف

الدكتور جبرائيل سليمان جبّور

أستاذ شرف في دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى
الجامعة الأميركية في بيروت

أشرف على تحريره

الدكتور سهيل جبرائيل جبّور

أستاذ في علم العصب والدماغ
الجامعة الأميركية في بيروت

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

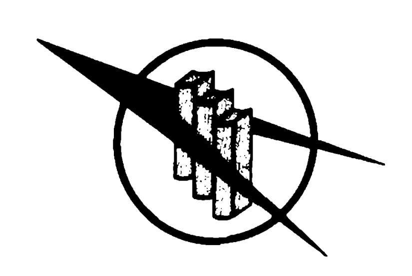
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان





الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨

الإهداء

إلى بلدتي على ضِفافِ الباديةِ التي فيها وُلِدْتُ ونَشَأْتُ وعرفت البدوَ، وليس يَعْدِلُهَـا عندهم منتجع آخر في الأرض.

وإلى روح أخي توفيق الذي تُوُفِّيَ في الأيَّامِ الأخيرة ودُفِنَ فيها.

أُهْدِي هذا الكتاب ذِكْرَى عَهْدٍ حُلْوٍ قَضَيْتُهُ معه في صِبَايَ هناك.

المقدمة

حين نقلت كتاب المرشدات إلى العربية وأنا طالب في سنتي الجامعية الأخيرة أذكر أني استشرت زميلي سعيد تقي الدين في أمر اختيار أديب كبير لكتابة المقدمة، وكان سعيد نفسه قد فرغ من تأليف روايته الأولى «لولا المحامي» والتمس من الشاعر الكبير خليل مطران أن يكتب له مقدمة الرواية، ففعل، ولم ترقه، فقال لي سعيد: إني أنصحك أن تكتب المقدمة أنت نفسك فأنت أولى من غيرك بالتعريف بالكتاب، وأنت تعلم أنك طالب مثلي فليس غريباً أن يكتب عنك الأديب الذي تختاره لكتابة المقدمة إنك لا تزال طالباً ناشئاً كما كتب عني دون أن يكون بالفعل قد قرأ كل ما كتبت وقدَرَه حق قدره. وقبلت نصحه وكتبت المقدمة، وكانت أول مقدمة وضعتها لكتاب من كل الكتب التي أسهمت في وضعها أو تحقيقها ونشرها. ولم أطلب بعدها من أحد أن يكتب لي مقدمة لكتاب أؤلفه.

وكان من عادتي بعد ذلك العهد أن أعرض الكثير مما أكتب على بعض زملائي في الجامعة الأميركية قبل دفعه إلى المطبعة لإبداء ملاحظتهم. وبالفعل عرضت بعض فصول هذا الكتاب على أستاذي وصديقي المرحوم الدكتور فؤاد صروف فسُرّ بما قرأ وقال لي وددت لو كان المقتطف بإدارتي كعهده السابق لأنشر فيه بعض ما في هذا الكتاب. فقلت له: ما رأيك في أن تكتب له المقدمة حين يصدر فابتسم وأشار برأسه راضياً. وكم كنت أود في هذه اللحظة لو كان حياً فأعهد إليه بكتابة المقدمة وأخرج عن قاعدتي المألوفة.

لقد كتبت ما أريد أن أقوله عن صلتي بهذا البحث منذ نحو ستين سنة ودراستي للبدو والبداوة وذلك في الباب الذي عنونته بالمدخل وأود أن أشير هنا إلى أني راعيت في

ترتيب أقسام الكتاب المبدأ الذي تقوم على أساسه حياة البداوة، فبعد أن أتيت في المدخل على ما حفزني إلى دراسة البداوة والبداة واستعراض أهم المؤلفات التي صدرت عن العلماء من عرب وأجانب في هذا الصدد، قسّمت الكتاب إلى أربعة أقسام رئيسية هي في نظري الأركان الأربعة التي يقوم عليها بناء البداوة ـ ألا وهي بادية وخيمة وجمل وبدوي حوى بعضها فصولاً متعددة غير أني جعلت فصول الكتاب هذه متتابعة من أول الأقسام إلى آخرها، وألحقتها جميعاً بملحق عن الوثائق التي وقعت عليها في ملفات وزارة الخارجية البريطانية أيام كنت في لندن. ثم وضعت بعد ذلك جدولاً بالمآخذ التي ذكرتها في هوامش الكتاب وفهرساً للأعلام على أنواعها. وبقي علي الآن قبل كل شيء أن أذكر أن الفضل الأكبر في دفعي إلى إنجازه وتقديمه إلى النشر ومساعدتي في قراءة نصه الكامل عند طبعه على الآلة الكاتبة وعند مراجعته في شكله النهائي قبل أن يخرج من دار النشر يعود إلى ابني الدكتور سهيل استاذ علم الأعصاب في كلية الطب، من الجامعة الأمريكية في بيروت.

كذلك لا أرى بدأ من الشكر للدكتور شارل أبو شعر أُستاذ علم العقاقير في الجامعة الذي تكرم فراجع جدول النباتات التي جمعت أسماءها كما عرفها البدو وصحح بعض أسمائها في اللاتينية، ولشركة أرامكو التي جمعت لي بعض نماذج منها مما ينبت في منطقة الأحساء وكتبت لي أسماءها. وللدكتور لاري كونراد أحد أساتذة دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية سابقاً وهو حالياً الأستاذ المسؤول عن القسم العربي الإسلامي في مؤسسة وَلْكَمْ في تاريخ الطب Wellcome Institute for the History of Medicine London, الذي قرأ الكتاب وأبدى بعض الملاحظات فيما يتعلق ببعض المراجع ويقوم الآن بنقله إلى اللغة الإنجليزية وللسيد مصطفى القصاص الذي قرأ مسودات الطبع ونقحها ولدار العلم للملايين التي تبنّت نشر الكتاب في مؤسستها الراقية التي أسهمت ولا تزال تسهم في ازدهار الحركة الأدبية والعلمية في لبنان برغم ما عاناه ويعانيه من مشقة في مدى سني المحنة الأخيرة.

ولست بناسٍ المؤسسات التي نشرت لي قبل تركي الجامعة فرصاً كثيرة لزيارة بادية الشام غير مرة وبادية الأردن وبادية منطقة الأحساء، ولا أنسى العطف الذي لاقيته من زعماء هذه المناطق والدول سواءٌ أكانوا ملوكاً أم رؤساء جمهورية أم أمراء أم شيوخ قبائل، وأذكر من الأمراء الأمير نايف الشعلان الذي تكرّم غير مرة فاستقبلني في خيمته الكبرى في عدره وفي مزرعته على ضفاف البادية التي كانت بحيرة زمن الرومان، فقد سمح لي بتصوير العطفة وهي المركب أو الهودج المقدّس عند عرب الرولة، وأخذ رسمه ورسم الأمراء أبناء الأمير فواز وتصوير ما شئت من مظاهر الحياة في البادية. وأشكر بهذه المناسبة

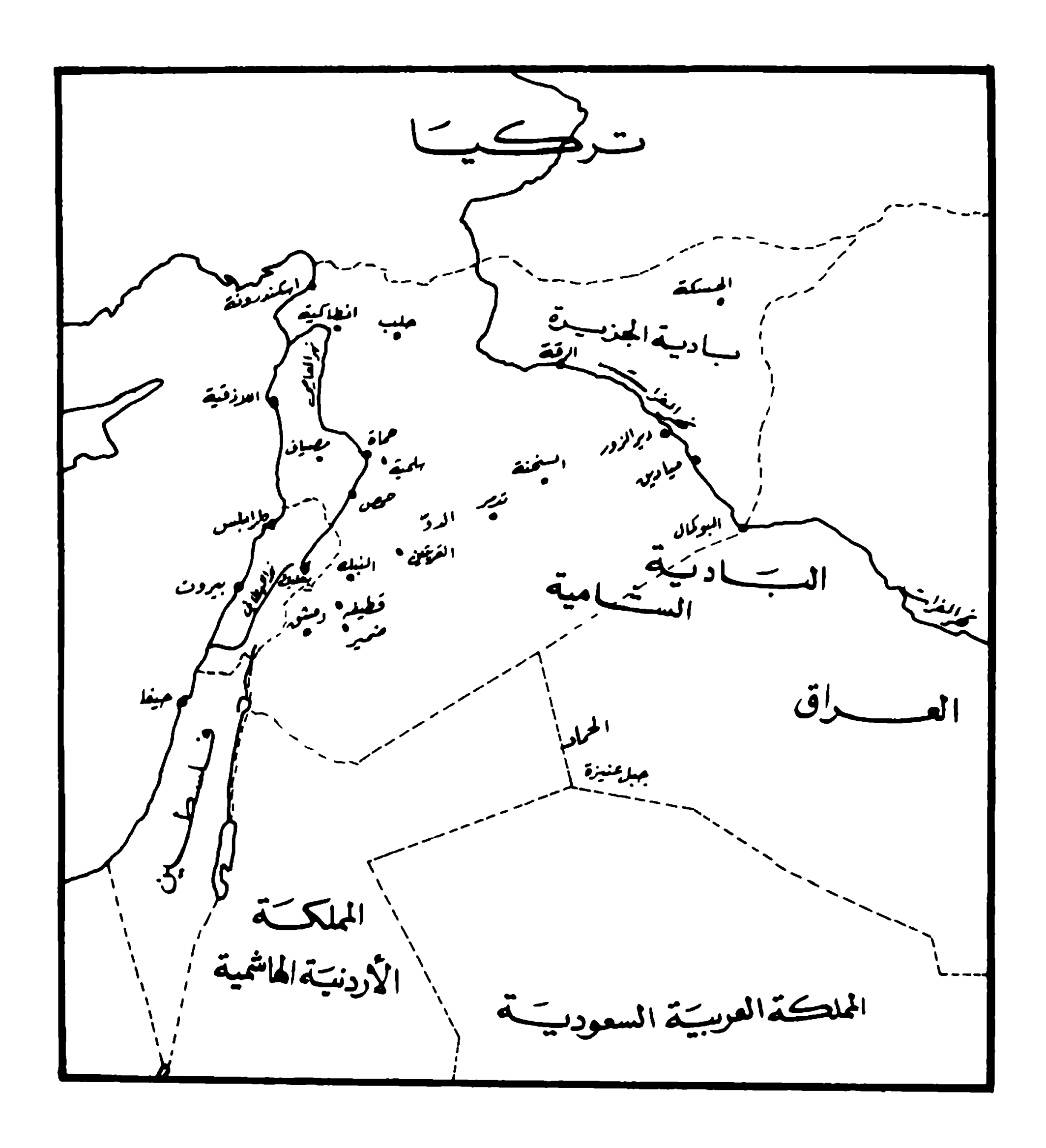
الصديق المصوّر «مـانـوج» (Manoug) الذي رافقني في إحدى رحلاتي إلى البادية وأسهم في إغناء هذا الكتاب بالكثير من الصور التي نشرت فيه.

بقي أن أشير هنا إلى أني كتبت اسم ابن في هذا الكتاب بالألف في جميع أحـوال وقوعها متبعاً القاعدة الأصلية في الكتابة العربية وهي أن ترسم الكلمة باعتبار أنها مبدوءٌ بها موقوف عليها، كما فعلت في كتاب الكواكب السائرة في مناقب أعيان المئة العاشرة وكما أشرت في مقال لي في مجلة المقتطف ج ٨٧ (١٩٣٥) ص ٦٣٣ موضوعه «في همـزة ابن» وإني أغتنمها فرصة أخرى أدعو فيها جميع الكتّاب إلى متابعتي في هذا السبيـل إذ لست أرى معنىً الآن لحذفها قبل بعض الأسماء وإثباتها قبل البعض الآخر.

ولست أزعم في ختام هذه المقدمة أني ألممت بموضوع البدو والبداوة من كل جوانبه في هذا الكتاب برغم كبر حجمه فهناك نواحٍ خاصة قصر عليها بعض المؤلفين كتباً خاصة في اللغات الأجنبية، لم أعرض لها بالتفصيل، ولا سيما تلك التي تتعلق بعلم الاجتماع والتطور الحضاري وبالإنسان الأول وهل كان بدويّاً أو مزارعاً أو صيـاداً، ولكني أشعر بشيء من الغبطة والثقة في أني عالجت البحث بشكل موضوعي إثر اختبار خاص في مدى نحو نصف قرن من الزمن وبعد الرجوع إلى ما يزيد عن مئتي مصدر من الكتب العربية والأجنبية. وكشفت فيه عن نواحٍ جديدة اختلف العلماء بشأنها من قبل فيما يتعلق بنشأة بعض القبائل الخاصة - المعروفة بصلَيْبْ - التي زعم الكثيـرون أنها من بقايـا الصليبيين لجأوا إلى البادية. ونشرت ملحقات هامة لنباتـات الباديـة بأسمـائها البـدوية والـلاتينية ووصفها ولوثـائق عن البدو في البادية السورية تعرض لأول مرة في اللغـة العربيـة وقد ترجمتها من الملفّات الخاصة لوزارة الخارجية البريطانية التي سمح للعلماء بالاطلاع عليها في السنين الأخيرة بعد الحرب الكبرى الثانية. وكشفت كذلك عن الناحيـة الطيّبـة من خلق البدوي الذي لم ينصفه الكثيرون ممن كتبـوا عنه. وإني أرجـو أن أكون وفقت إلى تحليل حياة البداة وإيضاحها ووصف بعض صور حياة البادية ولا سيما تلك التي أخذت تندثر تدريجياً مع الزمن، وإلى سرد تاريخ وفود القبائل إلى بادية سوريا، وآمل أن تسهم دراستي هذه في مساعدة المسؤولين في البلاد العربية على اجتياز بعض العقبات في حـلّ هذه المشكلة الاجتماعية الكبرى والسلام.

في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٧

جبرائيل جبور


تركيا
الحسكة
بادية الجزيرة
الرقة
حلب
انطاكية
اسكندرونة
اللاذقية
حماة
مصياف
السلمية
السخنة
دير الزور
الميادين
حمص
تدمر
طرابلس
البوكمال
البادية الشامية
القريتين
النبك
بيروت
قطيفة
دمشق
ضمير
حيفا
فلسطين
العراق
الحماد
جبل عنيزة
المملكة الأردنية الهاشمية
المملكة العربية السعودية

المدخل

البادية والبداوة من وجهة شخصية

رأت عيناي النور لأوّل مرّة في بيئة قروية يعيش أهلها بالأكثر على الزراعة. وكانت القرية التي ولدت ونشأت فيها ملاصقة للبادية، تقع على حدودها، فكان منظر البدو، ويسمّيهم أهل القرية «العرب» مألوفاً لديّ، أراهم وهم يتردّدون إلى القرية، ويشترون حوائجهم منها، ويبيعون فيها بعض ما يملكون من إبل وغنم وسمن ووبر وصوف. وكنّا معشر الصبية نتهامس فيما بيننا أن هؤلاء «العرب» الودعاء في القرية هم أغلظ الناس قلوباً، وأشدّهم ميلاً للنهب والسلب والقتل. فكنّا جميعاً نشارك بيئتنا القروية في الخوف من البدو والكره لهم. بل كنّا نحسبهم شرّ مخلوقات على الأرض، ولعلّ هذا الخوف وهذا الكره قد تأصّلا بنفوس القرويين من أزمان بعيدة، منذ أخذت حياة الزراعة والاستقرار تنفصل وتستقلّ عن حياة التبدّي والتنقّل. وكان أكثر ما يخيفني ويخيف أغلب الصبية في قريتنا أن نذهب إلى البرّية بعيداً عن مساكن القرية ومزارعها فنصبح عرضة لتشليح[1] «العرب» لنا كما كان الكبار يزعمون حين يخيفوننا منهم.

وأذكر أنّي كنت مرّة وأنا صبيّ لم أبلغ العاشرة من العمر في بستان لنا يفصله عن المساكن في القرية أرض متّسعة أخذت القرية تمتّد باتجاهها، وأخذ البعض ينشئون دوراً جديدة فيها، وعند عودتي من بستان الكرم إلى البيت قبل الغروب لم أشعر وأنا أقطع هذه الأرض إلاّ وورائي جيش[2] كبير من الغزاة فيه أكثر من مئة بدوي على هجنهم مشرعين رماحهم في العلاء وقد ربطوا خيولهم بأرسانها إلى جوانبهم واندفعوا نحو القرية ليحلّوا ضيوفاً على أهلها، وهم ينشدون أناشيد الظفر والحرب، فكدت أصعق من الخوف، وتطلّعت حولي فلم أر أنّ باستطاعتي أن أسبقهم جرياً بحيث أصل إلى القرية قبلهم،

فرميت بنفسي إلى حفرة مستديرة واسعة عميقة كان قد شرع بحفرها في ضاحية القرية أحد القرويين في جانب الطريق لبنشيء بئراً في دار يريد أن يشرع في بنائها حين يظهر الماء في البئر. ولذت بظلّ حائط الحفرة الغربي الذي يلي الطريق. ولا أزال أذكر أنيّ وأنا أسمع وجيب قلبي من الخوف كنت أرى ظلال الرماح وهي تجوز حائط الحفرة الشرقي. وشعرت كأنّما كنت في تلك اللحظة اعدّ الثواني القليلة التي تفصلني عن الموت. ومرّ الغزاة (أو الغزو كما كنّا نسمّيهم) وجازوا كلّهم إلى البلدة ليحلّوا ضيوفاً فيها، ولم يلتفت أحد منهم نحوي، بل لم يهمّهم أن يلتفتوا إليّ، حتّى إذا هدأ روعي، وأمنت غائلتهم، نهضت وتسلّلت وراءهم من بعيد حتّى بلغت بيتنا في أوّل القرية وأنا لا أكاد أصدّق أنيّ سالم صحيح.

وكان أن أنهيت دراستي الابتدائية صغيراً على والدي، فأرسلني مع أخي الأكبر إلى مدرسة داخليّة في حمص، هي كليّة حمص الوطنية الانجيلية، وكان يفصل قريتنا عن حمص مفازة عرضها نحو خمسة وثمانين من الكيلومترات، وكان الطريق عبرها موحشاً خطراً تعبث في جانبيه عشائر من البدو وشراذم من الغزاة من قبائل مختلفة، برغم انتشار بعض القرى الصغيرة أو المزارع على الطريق، فلا يكاد المسافر يسلم من الخطر في ديرة عشيرة ومن شرّ أهلها حتّى يدخل ديرة عشيرة أخرى ويتعرّض لشرّ قوم آخرين. ولا أزال أذكر كم من مرّة سطا الغزو في السنوات الأربع التي درست في أثنائها في حمص على القافلة التي كنّا فيها، وأخذوا منها ما شاءت لهم نفوسهم أن يأخذوه ممّا كان في حمولتها من زاد أو فاكهة أو متاع أو مال. وأذكر أننا فوجئنا مرّة بالبدو قرب مزرعة تعرف بأمّ دولاب ولم يكن والدي معنا فلم أشعر إلاّ وأفراد القافلة يصيحون «العرب! العرب!» وقد أحاط هؤلاء البدو بالقافلة من كلّ جهة، وأخذ بعضهم يقترب ويصيح: «إشلح يا ولد! إشلح يا ولد!» فلجأ أخي من الفزع إلى البكاء فرقّ قلب العقيد ـ وهو قائد الغزو بلغة البدو ـ وأخذ يطوف بجواده حول الحمار الذي كنّا نركبه مانعاً رفاقه من سلبنا أو الوصول إلينا، ولم يسلم من السلب في ذلك اليوم غيرنا، بينما كان أفراد القافلة يسلبون ممّا حملت القافلة ويجرّد بعضهم من ثيابهم الجديدة ويعطيهم بعض البدو الغزاة من ثيابهم ما يسترهم.

وهكذا فقد نشأت وأنا أخاف هؤلاء البدو، وأكره البادية وأبغض أهلها، ونشأ أكثر الصبية في قريتنا وواحدهم يسمع أمه تخيفه بقولها: «غداً أبيعك للعرب» أو «غداً أسلّمك للغزو»، بل كان واحدنا إذا أراد أن يتصدّى لرفيقه مداعباً انتحل صفة البدوي وبادر رفيقه بقوله: «إشلح يا ولد».

وكانت قريتنا ـ شأن كل القرى على ضفاف البادية ـ عرضة في بعض الفصول لهجمات بعض القبائل المعادية أو «القوم»[٣] ـ كما يسمّونهم ـ فتمرّس شبّانها على ردّ الغزو ومحاربة البدو، واستطاعوا بقوتهم وكثرة عددهم من الوقوف حائلاً دون سيطرة البادية، فلم يجرؤ أحد من غزاة البدو أن يدخل القرية عنوة لينهب شيئاً منها أو يبلغ ضواحيها القريبة. ولكن لأهل القرية ماشية كثيرة من البقر والحمير والغنم والماعز، وكان رعاة هذه الماشية يسيمونها أحياناً مراعي بعيدة عن القرية، فكان البدو من القبائل المعادية يغزون منطقتنا ويسطون على بعض هذه الماشية ويسوقونها نهباً أمامهم إلى البادية، فينفر الأهلون حين يبلغهم الخبر ويهرعون لاسترداد ماشيتهم من القوم، وقد يصحبهم بعض الجند أحياناً، وتنشب المعارك حين يلتقي النفير بالغزاة، وكثيراً ما كان أهل القرية يبدون من البسالة والشجاعة ما يدفع إلى سقوط بعض القتلى في مثل تلك اللقاءات، سواء أأفلح النفير بردّ الحلال المسلوب أم لم يفلح، بل قد بلغ بزعيم هذه القرية المرحوم فيّاض آغا الفارس في أواخر القرن التاسع عشر ـ فيما أخبرت ـ وكان أجداده من شيوخ العرب في الجوف، أن عمد إلى تجنيد بعض الفتيان من أهلها ومدّهم بالسلاح وأخذ هو يوجّه الغارات على أهل البادية أنفسهم لردعهم وتأديبهم. وقد قدّرت له السلطة التركية هذه المكانة.

وقد أدرك أهل البادية السورية بعد اختبار طويل أن أهل هذه القرية واسمها «القريتين»[٤] ـ ولعلّها كانت قديماً قريتين اتصلتا فسمّيتا بالقريتين ـ قوم أشدّاء، ليسوا كغيرهم من أهل بعض القرى الداخلية، فأخذوا يحالفونهم خشية انتقامهم ويحترمونهم وقد أسموهم «عيال مجنونة» يشيرون بذلك إلى أنهم جنّ في القتال.

ومع أنّ البدوي بحكم بداوته يحتقر الحضارة والمدن والقرى وكلّ ما يمّت إليها بصلة، فإنّه محالفاً وخصماً، صديقاً و «قوماً» يستثني أهل القريتين، فيما ذُكِر لي، ويعتبرهم كأنّهم من أهل البادية، بل إن بعض القبائل البدوية كانت تجيز لبناتها الزواج من فتيانها. ولعلّ مردّ ذلك أيضاً إلى أنّ كثيرين من أهل القريتين يتحدّرون من أصل بدوي.

وكان أن توفي هذا الزعيم الذي أشرت إليه في السنين الأولى من مطلع هذا القرن وضعفت سلطة الدولة العثمانية، فعاد البدو سيرتهم الأولى من غزو الأراضي المتاخمة للبادية، ولم ينقطعوا عن غزو منطقة القريتين إلاّ بعد أن اتّفق بعض شيوخهم مع أهل القرية على «خوّة» يدفعها الفلاّحون لهم، وكانت هذه الخوّة تعطى لشيخ القبيلة فيتعهّد بدوره أن يحمي أهل القريتين حين يسيرون في البادية ومشارفها من رجال قبيلته لقاء ذلك

الجعل المعلوم (الخوّة). وأصبحت الخوّة ضريبة معيّنة لهؤلاء الشيوخ يفرضونها على أهالي القرى القريبة من البادية، فتدفع كما تدفع الضرائب للدولة، ولكنها كانت بالفعل تحمي الأهلين في أغلب الأحيان وتوجد بينهم وبين بعض البدو ما ترمز إليه من أخوّة وصداقة[٥].

ووقعت الحرب الكبرى الأولى، فأخذت الدولة العثمانية تخشى هجوماً على حدود سورية من جهة البادية الشامية، فشرعت تتألف قلوب شيوخ البدو، وتستميلهم إليها بالعطاء، ليكونوا معها عوناً على إخماد حركة الشريف حسين. وقامت في الوقت نفسه بإنشاء مركز للجند في القريتين لحراسة حدود العمران، فأضحت قريتنا مضافاً لكثير من رجال القبائل الحليفة الذين كانوا يوزعون على الأهلين، وقد أصاب بيتنا منهم عدد لا أزال أحفظ من أخبار غزواتهم وأحاديثهم ومسامراتهم الشيء الكثير.

وكانت القريتين في الوقت نفسه سوقاً عامّة لكثير من القبائل الموالية يتردّدون إليها ـ كما لا يزالون يفعلون حتى اليوم ـ عند التشريق إلى البادية وعند التغريب منها، ويشترون من حوانيتها المختلفة ما طاب لهم من السلع والمؤن اللازمة، وأصبحت التجارة مع البدو من مقومات الحياة الاقتصادية لهذه البلدة ومورد رزق للكثيرين من أهلها.

ولم يكن والدي تاجراً ولكنّه أمدّ تاجرين من أهل القرية بالمال، وأصبح شريكاً لهما، فكنت أتردّد إلى حانوتيْ هذين التاجرين ـ سليمان العطالله وموسى الابراهيم ـ أساعدهما في الصيف، وكنت أشاهدهما يبيعان البدو، بل كثيراً ما كنت أنوب عنهما في جمع أرقام المبيعات والقبض من المشترين. وهكذا فقد تحدثت مع البدو وخالطتهم، وحذقت لغتهم، واختبرت سذاجتهم وطيب نفوسهم. ولم أعد أخشى هؤلاء الذين كانت كل قرويّة تخيف ابنها منهم، بل بلغ الأمر بي مرّة وأنا حدث أن أبديت رغبتي في زيارتهم في منازلهم والإقامة ولو لبضعة أيام في بيوت الشعر، فسألت والدي أن يسمح لي بالذهاب مع بدوي عميل لشريكينا اسمه «بطيّن» إلى منازل أهله البدو الذين لا أذكر اسم قبيلتهم لشراء بعض الإبل ـ كما كان يفعل بعض تجار القرية ـ فسمح لي[٦] وقضيت مع البدو أياماً لا يزال أثرها عالقاً في نفسي إلى اليوم. وقد عهد إليّ في صيف تلك السنة نفسها أن أتولّى العمل في التجارة بالإبل اشتراكاً مع أربعة من أهل القرية كنت مدوّن الحسابات فيها فكنّا نتردّد إلى مضارب البدو، وننتقي الابل التي نرغب في شرائها، ونساوم أصحابها في أثمانها، ونشتريها ثم نبيعها من تجار يفدون من المدن لشرائها.

وفي القريتين عيون ماء غزيرة تبعد عن أحياء السكن نحو ميل واحد تنبثق من أسفل جبل صغير قرب تلّ اصطناعي كبير لعلّه بقايا قرية أو قرى متعاقبة قديمة. وتتجمّع المياه المتدفقة من هذه العيون في بحيرة صغيرة ثم تندفع نهراً يسمّونه نهر وادي العين، وكان الأولى أن يسمّى وادي العيون[٧]، يروي مزارع الأهلين التي تمتدّ على طول نحو خمسة كيلومترات، فكانت هذه العيون والنهر الذي يجري منها، حتّى بعد منتصف هذا القرن، منتجع البدو من أطراف البادية عند تغريبهم وتشريقهم، يردون مياهها عند وصولهم العمران من البادية، وعند رجوعهم اليها، وقد يستقرّون حولها أياماً وأسابيع. ففيها أغزر مياه يمكن أن ترد منها ألوف الجمال في يوم واحد، في بقعة واحدة على ضفاف البادية. وقد سمّاها البدو «أمّ القلائد»[٨] وتحدّثوا بعذوبة مائها وكثرته وصفائه وتغنّوا بها بشعرهم البدوي، واعتبروها موردهم الذي لا يعادله مورد. فلم ينقطع نزول القبائل الموالية عند هذه العيون في التشريق والتغريب منذ ذلك العهد إلى أواخر الستّينات من هذا القرن بحيث يسّر لي كل صيف أن أتردّد إليهم وأخالطهم متى شئت.

وبلغت الشباب وأخذت أتعرّف إلى أبناء قريتي حين كنت أعود من مدرستي الثانوية في فصل الصيف، فألفيت أنّ نفراً منهم قد تحدّروا بالفعل من أصل بدوي من قبائل نجدية، وأنّ بعضهم لا يزال يعتزّ بهذا النسب البدوي، وبخاصة ابناء زعيمها الذين ارتبطت بيني وبينهم صلة الودّ والصداقة، فصرت أشعر بفضل الانتساب إلى البادية وإن لم أكن بدويّاً في نسبي. ولا أزال أذكر أنّي حين دخلت الجامعة الأميركية سنة ١٩٢١ كان أوّل إنشاء كتبته لأستاذ العربية يدور على حياة البادية وقد نشرته مجلة «المورد الصافي» التي كان يحرّرها في العام نفسه.

وبعد أن تخرّجت من الجامعة أقمت سنة في حمص أُعلّم في المعهد الذي درست فيه أيّام حداثتي، وكانت تلك السنة سنة ١٩٢٥ ـ ٢٦ سنة الثورة السورية المعروفة، فأخذت أراسل جريدة الأحرار بامضاء مستعار استقيته من الحياة التي الفت وأحببت، أي حياة البادية فكنت أوقّع رسائلي بامضاء فتى البادية[٩].

«وَمَنْ تَكُنِ ٱلحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيَّ رِجالٍ بَادِيَةٍ تَرانا»[١٠]

وقد يسّر لي في تلك السنة ان أتعرّف إلى شيخ عرب الحسنة الشيخ طراد الملحم الذي كان في ذلك العهد من ألمع شيوخ البدو وأحكمهم.

وكان أن عدت إلى الجامعة الأميركية في سنة ١٩٢٦، فلم تبرح حياة البادية من فكري، ولم أنقطع عن التردّد إلى بعض نواحيها، ولم أحرم الاحتكاك ببعض أهليها في

صيف كل سنة، وقد صار لي من بعض شيوخها أصدقاء أوفياء لا أزال إلى هذه الساعة أذكرهم بالخير وأعتزّ مفاخراً بصداقتهم، وأخصّ بالذكر منهم الآن الأمير نايف الشعلان والمرحوم الأمير فوّاز الشعلان حفيدي الأمير نوري الشعلان - كما أذكر الأمير متعب واخوته أولاد الأمير فوّاز والشيخ هايل الزيد.

وفي الجامعة قرأت ما كتبه بركهارت وبلجريف وفالين ودوتي وموزل ودكسن وكثيرون غيرهم وأسعدني الحظ في أن قابلت في الأربعينات من هذا القرن وبعدها أول رائدين غامرا وقطعا الربع الخالي هما برترام توماس وسنت جون فلبي وأعجبت بما كتباه، وكنت ضيف الأول مرة بضعة أيام في أثناء توليه إدارة معهد تعليم اللغة العربية لبعض أفراد الجيش الإنكليزي في القدس، وكنت زميلاً للثاني حين كلفته هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية إلقاء سلسلة من المحاضرات عن الجزيرة العربية وأهداني بعض كتبه التي ألفها. ثم تعرفت على الرائد الثالث الذي تبعهما في ارتياد الربع الخالي ولفرد ثيسجر في كتابيه «رمال عربية». و «صحراء وسبخة وجبل» وقرأت وصفه الرائع في كيف قام بمغامرته فكنت كأني أرافقه حين كان يجوز تلك الرمال الفضية الذهبية التي لم تكن غريبة عني فقد مشيت على رؤوس كثبان الرمل في صحراء الدهناء التي تتصل بالربع الخالي وشعرت بمثل تلك الرعشة التي كان يشعر بها حين بلغ قمة الرمال في منطقة «عروق الشيباء»[١١] وأدركت ما تركته تلك البوادي في نفسه من الأثر العميق حين قال في مقدمة كتابه «رمال عربية»:

«لقد ارتحلت منذ تركت الجزيرة العربية بين أقوام الكاراكورام والكوش الهنود وترددت إلى جبال كردستان وأراضي العراق السبخة ونفذت إلى بقاع لاتصلها السيارات حيث لا تزال ماثلة فيها بعض مظاهر الحياة القديمة، ورأيت بعضاً من المشاهد الرائعة في العالم وعشت بين قبائل يتوق أن يطلع على أحوالها العالم الذي لا يعرف إلا القليل عنها. ولكن لم يكن هناك موضع من كل هذه المواضع استطاع أن يهزني كما هزتني بوادي الجزيرة العربية»[١٢].

وهكذا فقد استهوتني دراسة البادية وحياة البدو فيها، وملكتني رغبة في مطالعة ما كتبه عنها وعنهم روّاد البادية والسيّاح، فأخذت أقرأ ما وقعت عليه يدي من كتب العرب والمستعربين في هذا السبيل. وأخذت أعجب بما قام به بعض هؤلاء الروّاد من مغامرات، وما كتبوه عن البادية من كتب شيّقة نافعة وأعجب في الوقت نفسه كيف أجاز آخرون من الفرنجة لأنفسهم أن يكتبوا ما كتبوه عن البدو دون أن يكون فيه أثر للتحقيق

العلمي. وقد استطعت بعد اطّلاعي على أكثر ما كتبه هؤلاء الناس أن أميّز الغثّ من السمين والكاذب من الصادق، وأدركت أنّ منهم علماء مخلصين وضعوا لنا أسساً صحيحة لدراسة البادية وحياة أهلها، وانّ منهم في الوقت نفسه جماعة لم يعرفوا من حياة البادية الصحيحة إلاّ القليل ممّا سمعوه من بعض الرواة السذّج أو من بعض الشيوخ الذين نزلوا عندهم. ولقد تحقّق لي هذا حين سألت الشيخ فوّاز الشعلان عن بعض هؤلاء الروّاد المتأخّرين فإذا بشهادته عنهم تؤيّد ما استنتجته عن أمرهم. وليس غريباً أن يكون بين هؤلاء الكتّاب من الفرنجة قوم مخلصون صادقون ولكنّهم جهلوا اللغة التي يتكلّمها البدو ولم يختلطوا كثيراً بحياتهم الخاصة فلم يستطيعوا أن ينفذوا إلى صميم الحياة البدوية وأخطأوا المرمى وضلّوا السبيل.

بقي شيء آخر وهو الذي أخذ يلحّ عليّ في درس البداوة وحياة أهلها منذ باشرت عملي في قسم اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت. ذلك أنّ اللغة العربية والأدب العربي القديم اللّذين كنت أعنى بهما وبتدريسهما في الجامعة المذكورة انبثقا أوّل ما انبثقا كما يعلم الجميع من بيئة بدوية صرفة كانت هي الأساس للحياة العربية الحضرية، وكانت هي العامل الرئيسي الذي أكسب الحياة العربية كثيراً من مميّزاتها البدوية. وصرت أرى من المحتّم على دارس اللغة العربية وخصائصها والأدب العربي القديم ومميّزاته أن يلمّ بحياة البادية ويطّلع على شؤون البداوة. فشعرت بالحاجة إلى الرجوع إلى الأساس والورود من النبع. ومن المؤسف أن ليس بين مؤرّخي أدبنا القديم وطلاب أدبنا القديم اليوم من يعرفون عن البادية كثيراً، أو يعرفون حياة أهلها تمام المعرفة.

ومن حسن حظّ الباحثين أنّ أكثر البوادي العربية لا تزال هي هي وأنّ حياة أهلها البدو لا تزال هي هي، وأنّ البدو بمختلف قبائلهم لا يزالون يتكلّمون لهجات شديدة الصلة بتلك التي كان أجدادهم القدامى يتكلّمونها، وأنهم لا يزالون إلى اليوم يحفظون كثيراً من المفردات العربية الفصيحة التي نطق بها أجدادهم القدامى، بل لا تزال طرق تعبيرهم كما كانت منذ نحو ألف وخمسمئة سنة. وذلك لا يعني - كما يمكن أن يتوهّم البعض - أن البدو يتكلّمون الفصحى التي نكتبها اليوم، أو أنهم كانوا يتكلّمون الفصحى، بل يعني أن كثيراً من تراكيب العبارات وصور الكلام وضروب البيان من مجازات وتشابيه واستعارات ممّا نألفه في اللغة الأدبية اليوم، وكثيراً من المفردات نفسها التي نقرأها في أدبنا، إنّما هي مستمدّة من حياة البادية وأنها لا تزال مألوفة إلى حدّ كبير في بيئة البادية، ولا يمكن أن تفهم تمام الفهم أو تدرك على وجهها الصحيح في كتب الأدب ودواوين الشعر دون التعرّف إلى حياة البادية والالمام بطبيعة أهلها ونباتها وحيوانها.

ولقد رأيت بعد الاختبار في دراستي للأدب العربي القديم من جاهلي وأموي أنّ الحياة التي عاشها أصحابه من العرب من أهل الوبر لا يزال يحياها إلى اليوم أحفادهم أهل الوبر، ولا يزال أدب هؤلاء الأحفاد يعبّر عنها كما كان يعبّر عنها أدب أجدادهم. فهؤلاء البدو يعيشون اليوم في خيام كالتي عرفها أجدادهم منذ ألفي سنة وأزيد ـ بيوت سود من شعر المعزى كخيام قيدار التي ذكرتها التوراة ـ تضرب في جوانبها الأوتاد، وقد شدّت إليها الأطناب، وتقوم على أعمدة من الخشب، ثم توقد فيها النيران لقرى الضيفان، وتعقد في أفنيتها مجالس الحديث والسمر. فإذا قلّ الكلأ في المراعي، أو انقطع الماء في الأودية أو الغدران، دعا داعي النجعة أهل القبيل إلى الرحيل، فحلّت الأطناب واقتلعت الأوتاد، وقوّضت الخيام، وهيئت الهوادج، وحمّلت الأحمال، وعلت الضوضاء، فمن مناد ينادي ومن خيل تصهل ومن إبل ترغو.

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيلٍ فَلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُم ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ ... تَصْهالِ خَيْلٍ خِلَالَ ذَاكَ رُغَاءُ(١٣)

حتّى إذا جلوا عن منازلهم، وخلّفوا الطلول وراءهم، كان هناك من يمرّ على تلك الطلول فيقف عليها يستنطقها، ويوقف رفيقه فيتصفحان الآثار ويستعرضانها، بل قل يقرآنها كما لو كانت كتاباً مسطوراً في رقّ منشور. فمنازلهم وما تخلّف فيها، حين انتجعوا أرضاً أخرى، من آثار الأوتاد، وأواري الخيل، والآناء التي حفرت حول الخيمة، ومرابض الإبل في أعطانها، وما نثر في باحات الطلول من بقايا الصوف والعهن والوبر لا تختلف عن تلك التي وصفها أدب الشعراء القدامى، وهي كالطلول في الشعر القديم إذا أقوت وطال عليها الأمد تردّدت الغزلان(١٤) إليها وانتثر بعرها في عرصاتها كما وصف امرؤ القيس طلل حبيبته حيث قال:

تَرَى بَعَرَ الآرامِ فِي عَرَصاتِها ... وَقِيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلفُلِ(١٥)

ورأيت أيضاً أنّ الشاعر البدوي اليوم يصف الحياة البدوية كما كان يصفها زميله في العصر الجاهلي أو الأموي، ولا يقصّر في وصف ناقته الذلول الكريمة الشرارية عن زملائه القدامى، فهي الناقة المرقال، المفتولة الساعدين، المؤلّلة الأذنين، الماويّة العينين، المزيّنة بالرحال الجدد قد تدلّت من جوانبها نسائل الابريسم، وربطت رؤوسها بالأرسان الجميلة. ولا تختلف عن نياق زملائه الشعراء القدماء أمثال طرفة ولبيد والراعي وذي الرمّة، ويصل الشاعر البدوي اليوم إلى ممدوحه، بعد أن يصف المفازات التي قطعها وما لاقاه من مشقّة وعناء كما كان يفعل هؤلاء الشعراء القدماء.

والفيت فوق ذلك أن هذه النباتات والأشجار المختلفة المألوفة في الشعر القديم من شيح وقيصوم وأثل وقتاد وسَمح وطلح وخزامي وحَوْذان وغضا، لا تـزال معروفـة في البادية إلى اليوم. ولا يمكن إدراك صحيح معانيها في شعر القدامى إذا لم تشاهد بالفعل في مواطنها اليوم، وعند مشاهدتها تفهم أمثال اقوالهم: كثير الرماد ورفيع العماد، وأحرّ من جمـر الغضاء، ودونه خرط القتـاد في الليلة الـظلماء، وأطيب من ريـح الخـزامي، وعشرات التعابير الأخرى. وكذلك قل شأن حيوانات البادية وطيورها وخبراتها وكثبانها وأوديتها وغدرانها.

لقد حداني هذا كلّه إلى أن أتوسّع في درس البادية. وأن أضع في حياة البدو علمّة وحياة بدو سوريا وقبيلة صليب بنوع خاص دراسة متواضعة أبنيها على اختباري الخاصّ وعلى ما استفدته من العلماء الباحثين والروّاد وتبيّنت أنّه صحيـح. وكان أن يسّـرت لي هيئة الدراسات العربية الفرصة لمتابعة هذا البحث فسلخت بضع سنوات درست خلال الفرص التي هيئت لي فيها الموضوع من جديد متردّداً إلى مضارب البدو في أطراف سوريا والأردن ومتنقّلاً في المنطقة الصحراوية في الأحساء على الخليج العربي. ثم قيّض لي أن زرت انجلترا سنة ١٩٦٠ واطّلعت في مكتبة السجلّات العـامّة عـلى الوثـائق التي كان يبعث بهـا القناصـل الانكليـز في بغـداد وحلب ودمشق وغيـرهـا إلى وزارة الخـارجيـة البريطانيـة عن أحوال التجـارة والمواصـلات في الباديـة وعن غيرهـا من شؤون البدو، وتنقلاتهم وغزواتهم وأنسابهم طيلة السنين السبعين الأخيرة من القرن التاسع عشر وقبلها وبعض السنين الأولى من القرن العشرين. وكانت كلّها تقارير سرّية لم يسمح للباحثين بالاطلاع عليها قبل آخر الحرب الكبرى الأخيرة.

وشفعت هذه الدراسة بما أخذت من صور فوتوغرافية وببعض ما أخذه صـديقي المصوّر السيد مانوج (Manoug) حين استصحبته في أحد الأعوام معي إلى البادية.

وحاولت أن أصل في هذا البحث إلى وضع صـورة حقيقية للبـداوة والاشارة إلى أهمّ من كتب عنها من العرب والفرنجة. وإني أرجو أن أكون وفقت إلى تحليل حياة البداة وإيضاحها ووصف بعض صور حياة البادية ولا سيّما تلك التي أخذت تندثر تدريجياً مع الزمن، وإلى سرد تاريخ وفود القبائل إلى بادية سوريـا، وآمل أن تسـاعد دراستي هـذه المسؤولين في البلاد العربية على اجتياز بعض العقبات في حل هذه المشكلة الاجتماعيـة الكبرى والسلام.

الحواشي :

(١) من عادة غزاة البدوحين يهاجون أحداً من الحضر في البادية أن يفاجئوه بالقول : «اشلح يا ولد»، إشارة إلى أنهم يريدون سلب ثيابه.

(٢) يطلق البدو على الجماعة الكبيرة من الغزاة كلمة «جيش».

(٣) إن أوّل كلمة تسمعها ممن تلاقيه في البادية هي سؤاله : «قوم ولاّ صاحب؟» يعني أعدو أم صديق؟ ولكلمة «قوم» معنى آخر عند البدو وهو «جماعة» فيقال هو من قوم الشعلان مثلاً أي من جماعة الشعلان.

(٤) أنظر رسماً لمزارع هذه البلدة كما رآها أوبنهايم في أواخر القرن التاسع عشر قبالة ص ٢٦٨ (جزء أول) من كتابه :

Max F. von Oppenheim, **Vom Mittelmeer zum Persischen Golf,** 2 volumes, (Berlin, 1899 - 1900).

(٥) كان على أهل القريتين أن يدفعوا خوّة للبدو في ذلك العصر أي بعد موت فيّاض إلى أول الحرب الكبرى الأولى للرولة ٧٠ مجيدياً ولولد علي ٣٠ وللحسنة ٣٠ وللغياث ٢٠ وللسبعة ١٦ وللفدعان ٢٠ وللعمارات ٣٠ يقبضها شيخ القبيلة ويتعهّد بدوره أن يردّ لأهل البلدة ما تنهبه منها قبيلته .Alois Musil, **Palmyrena**. (New York, 1928), p. 100

(٦) يروى عن طاغور شاعر الهند الشهير أنه في أثناء زيارته للعراق أيام حكم الملك فيصل الأول حقّق مثل هذه الأمنية فقضى يوماً في بيت شعر عند البدو وكان قد أعرب عنها أيّام شبابه بقصيدة بدأها بقوله : «يا ليتني كنت بدويّاً».

(٧) وهي أوسع عيون في القرى التي على ضفاف البادية. ذكرت التوراة البلد التي هي فيها باسم «حصر عينان»، وأشار إليها بعض علماء التاريخ المحدثين بأنها البلدة التي احتملت أن ينزل عند مياهها جيش كبير كجيش زنوبيا حين خرجت لملاقاة أورليانوس، واحتملت بعد ذلك حين ارتدّت زنوبيا إلى عاصمتها تدمر أن ينزل مياهها جيش آخر عظيم هو جيش قاهرها الامبراطور أورليانوس نفسه. أنظر قاموس الكتاب المقدس، بيروت ١٩٦٤، تحت حصر عينان، وانظر:

William Wright, **Palmyra and Zenobia** (London, 1895), p. 141.

كذلك انظر كتاب أوبنهايم **Vom Mittelmeer zum Persischen Golf** (جزء أول) ص ٢٧١ حيث ذكر أسماء ١٦ عيناً لا تزال أكثرها معروفة حتى اليوم بهذه الأسماء نفسها وهي: رأس العين، قناة قاسم العساف، قناة العواصي، عيناته، عين السخنة، عين حقل مهنا، عين المحمدية، عين الصغيرة، جبّ قطاش ، عين شيحه، عين عصام، عين أبو جدار، قناة الجفتلك، قناة النصارى، عين دير مار اليان، عين جدية.

(٨) لعلّهم يقصدون أنها منتجع النياق التي في أعناقها القلائد أو القطعان التي تأتيها وتحيط بها احاطة القلائد بالعنق.

(٩) وضعت أكثر هذه الرسائل التي استطعت جمعها مما كان لدي من جريدة الأحرار بين تشرين الأول سنة ١٩٢٥ وأيلول ١٩٢٦ وأهديته إلى مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

(١٠) للشاعر القطامي في ديوان الحماسة لأبي تمّام، جزءان، القاهرة ١٣٣٥ هـ، ١ : ١٣٥.

(١١) Wilfred Thesiger, **Arabian Sands** (London and Colchester, 1959), p. XIV .

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(١٣) من معلّقة الحارث ابن حلّزة. انظر كتاب شرح القصائد العشر للتبريزي، تحقيق كارلس يعقوب لايل (Charles J. Lyall) ، كلكتة ١٨٩٤، ص ١٢٩.

(١٤) لقد شاهدت هذا بالفعل في الثلاثينات من هذا القرن. أمّا الآن فقد انقطعت أو كادت تنقطع الغزلان من الجزء الشمالي في البادية السورية.

(١٥) انظر معلّقته في شرح القصائد العشر، ص ٣.

الكتب والبحوث
التي وضعت عن شؤون البادية

من الخير قبل أن نعرض للبداوة والبداة أن نلاحظ أنّ الدارسين لحياة البدو والبادية الذين وضعوا في ذلك كتباً أو بحوثاً في اللغة العربية منذ مطلع عصر النهضة حتّى اليوم هم أقلّ بكثير ممن كتبوا بغير العربية. وقليل من هؤلاء المؤلّفين العرب من نفذ بالفعل إلى قلب الجزيرة العربية وعاش مع بداتها كما فعل الروّاد من علماء الفرنجة، حتّى الذين اضطرّوا بحكم وظائفهم في مختلف الأقطار العربية إلى أن يتّصلوا بالبيئات البدوية فإنّهم لم يعيشوا في البادية مع البداة ولم يخالطوا البدو مخالطة بعض الروّاد الفرنجة لهم. ومع ذلك فيجب الاعتراف بأنّه قد ظهر في اللغة العربية في القرن العشرين كتب قيّمة وإن تكن قليلة خصّصت في الأغلب من مضمونها للبحث عن البداة والبداوة ودرس أحوال البداوة في بعض الأقطار. هذا عدا عشرات المقالات التي ظهرت في الصحف والمجلّات العلمية، وعدا ما نثر في تضاعيف كثير من كتب الأدباء والعلماء، من رجال السياسة والأدب الذين ألّفوا في تاريخ الدول العربية وأحوال الجزيرة ككتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة (القاهرة، ١٩٢٥) ،وكـ «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة (القاهرة، ١٩٣٣)، وكتاب «خطط الشام» لمحمد كرد علي (دمشق ، ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨) وكتاب «ملوك العرب» لأمين الريحاني (بيروت، ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥) وغيرها.

أمّا الكتب الأخرى التي قصرها أصحابها على حياة البداة بوجه عام أو في قطر خاصّ فمن أسبقها ظهوراً كتيّب صغير موضوعه «البدوي» لاسكندر يوسف الحايك طبع

في بيروت وهو مهمل التاريخ ولعلّه وضع في أوائل هذا القرن كما يظهر من أخباره. وهو يدور على بدو سيناء ـ أخلاقهم وعاداتهم وأشعارهم وأمثالهم ـ، ويظهر أنه جمعه من مقالات كان نشرها في جريدة «مرآة الغرب». ثمّ كتابان لخير الدين الزركلي هما «ما رأيت وما سمعت» (القاهرة، ١٩٢٣) و «عامان في عمّان» (القاهرة، ١٩٢٥). وكتاب الأرشمندريت بولس سلمان «خمسة أعوام في شرقي الأردن» (حريصا، ١٩٢٩) عرض فيه لقضاء البدو في الأردن وذكر عشائرهم وآدابهم. وكتاب عودة القسوس «كتاب القضاء البدوي» (عمان، ١٩٢٩). وثلاثة كتب للأستاذ عارف العارف قائمقام غزّة أيام الانتداب البريطاني «القضاء بين البدو» (القدس، ١٩٣٣) و «تاريخ بئر السبع وقبائلها» (القدس، ١٩٣٤) و «الحبّ والشريعة والتقاليد عند البدو» (القدس، ١٩٤٤). وتتميّز كتب الأستاذ عارف بالدقّة والنهج العلمي وقد رجع فيها إلى كثير من الوثائق والاحصاءات الرسميّة التي استطاع أن يصل إليها عن القبائل حول بئر السبع. ثمّ جاء بعده المحامي عبّاس العَزّاوي فوضع كتاباً من جزءين عن عشائر العراق (بغداد، ١٩٣٧) بحث في الأوّل منها عن القبائل البدوية القديمة والحالية، وفي الثاني عن العشائر الكردية (بغداد، ١٩٤٧). وفي الأوّل تفصيل عن العشائر البدوية في العراق ودرس وافٍ أصبح مرجعاً لمن كتبوا بعده وبحث في أنسابها وفروعها وعاداتها. وفيه فصل خاصّ عن عشيرة صليب لنا عودة إليه ثم عاد فأتبع كتابه بأجزاء أخرى بلغت أخيراً أربعة. (بغداد ١٩٥٦).

ثمّ ظهر كتاب الأستاذ أحمد وصفي زكريا «عشائر الشام» (دمشق، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) في جزءين، وسأعرض له بشيء من التفصيل بعد قليل لأنّه في اعتقادي أوسع الكتب العربية حتّى الآن فيما يتعلّق بعشائر القطر السوري وحياة البادية[1].

وبعد ذلك صدر كتاب للأستاذ عبد الجبّار الراوي اسمه «البادية» طبع طبعة أولى وبعدها ثانية مع زيادات كثيرة (بغداد، ١٩٤٩). وكان الأستاذ عبد الجبّار مديراً للبادية في العراق منذ سنة ١٩٣٠، ثم أصبح مديراً للشرطة سنة ١٩٤٥، وضع في آخرها كتابه المذكور. وتدور أبحاث الكتاب على البادية الشمالية التي تجاور العراق وسوريا والأردن والعربية السعودية، وهو في ثمانية فصول رئيسية. غنيّ بالفوائد ولا سيّما في الأبواب التي لها علاقة ببدو العراق وفي الوثائق والنصوص التي تتعلّق بالمعاهدات والاتفاقات. ومن الغريب انه لم يعرض لعشيرة صليب أبداً مع أنها عشيرة لها فروع في العراق ولها مميّزات خاصّة استرعت انتباه اكثر الباحثين.

وبعده كتاب «البدو والعشائر في البلاد العربية» لعبد الجليل الطاهر (القاهرة،

١٩٥٥) وهو محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية العالية. ثمّ ظهر بعد ذلك رسالة في العشائر السورية وتحضيرها ألفها الأستاذ أحمد العكّام سنة ١٩٥١ تحت إشراف الدكتور عدنان العجلاني ووافقت عليها كلّية الحقوق في الجامعة السورية بدمشق وأجازت طبعها. ثمّ أصدرها مؤلّفها بشكل أتمّ وأوسع في عهد متأخر وفيها احصاءات هامّة ووثائق وجداول ببعض المراسيم المتعلّقة بالاتفاقات التي عقدت بين زعماء العشائر والسلطات المحلّية منذ عهد الانتداب إلى زمن المؤلف. وعرض موفّق للتشكيلات الداخلية للعشائر الرحّالة في مختلف نواحي البادية الشامية وللنظام العشائري ولأسماء القبائل الرئيسيّة. ويعرض للجرائم المختلفة وأصول المحاكمات عندهم فيها. وفي الكتاب جدول كبير بأسماء الآبار في المناطق المختلفة التي ترد منها مواشي القبائل والدعوة إلى اصلاحها. وآخر بالمراسيم التي أصدرتها حكومة سورية عند انتقال مصلحة العشائر إليها شكلاً ابتداءً من سنة ١٩٤٤ وفيه أيضاً مشروع قانون العشائر بالتفصيل.

وظهر أيضاً كتاب للأستاذ مكي الجميل اسمه «البدو والقبائل الرحّالة في العراق» (بغداد، ١٩٥٦) وكان السيد مكي مديراً لتحريرات الموصل سنة ١٩٣١ ثمّ مديراً لبعض النواحي في العراق ثمّ مسؤولاً عن شؤون التموين للعشائر سنة ١٩٤٤، ثمّ موظفاً إدارياً في الدولة حتّى ١٩٥٠. وقد أوحت له اختباراته كما قال أن يدوّن ملاحظاته بحيث ظهرت آخر الأمر في كتاب يتناول الموضوعات التي قررت حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية في الدورة الرابعة درسها، وهي: البدو والعشائر وتأثّر حياتهم بتطوّرات الحياة، ثمّ توطينهم، ثمّ الخدمات الاجتماعية والصحيّة لهم، وأخيراً تنظيم الرعاية الاجتماعية بينهم. وبعده ظهر كتابه الآخر «البداوة والبدو في البلاد العربية» (سرس الليان، ١٩٦٢).

ومن المتأخّرين الأب جورج سابا والاستاذ روكز ابن زائد العزيزي في كتابهما «صفحات من التاريخ الأردني ومن حياة البادية» (عمان، ١٩٦١) حيث نرى في الباب الثاني بحثاً مطوّلاً في شؤون البادية وحياة الأسرة والحياة الاجتماعية عند أهل البادية بوجه عام والأدب البدوي من أمثال وشعر. والسيد مؤيّد الكيلاني في كتابه «محافظة حماة» (دمشق، ١٩٦٤) حيث أشار إلى القبائل البدوية التي تنزل في أراضي تلك المحافظة وإلى بعض الحيوانات البريّة فيها . وأخيراً كتاب «البدو والبداوة» تأليف الدكتور محيي الدين صابر والدكتور لويس كامل مليكة (سرس الليان، ١٩٦٦). وتدور فصوله على عوامل التغيّر الحضاري في نمط الحياة البدوية ومشروعات التوطين والمجتمعات المستحدثة، والشخصية البدوية، ومشكلات البحوث النفسية والاجتماعية في ميدان البداوة العربية.

وقد عولجت هذه المواضيع بوجه عام بطريقة علميّة حديثة ولكن بدا في بعضها تحامل على أكثر الذين ألّفوا عن البدو والبداة من غير العرب وإهمال لذكر كثيرين ممّن كانوا روّاداً في درس حياة البادية والشخصية البدوية. فقد جعل الدكتور مليكة المؤلّفين ثلاث فئات؛ الأولى هي فئة المستشرقين والروّاد من الأجانب وزعم انّهم يستهدفون غايات استعمارية وإن كانوا يتحدثون حديثاً عاطفيّاً عن صداقتهم للبدو ومنهم كما يقول: لورنس وجارفيس وراصوان وثيسجر ودكسن ويذكر أنّ معظم كتبهم تدور حول نمط الحياة البدوية والبناء القبلي وبناء السلطة في القبيلة وعادات الزواج والتغذية واتّجاهاتهم نحو عدد كبير من الموضوعات مثل الجمال والمرأة والحياة في الصحراء والغارات على قوافل التجار والحجّاج وموقفهم إزاء الحكومات الخ. ومع انّه سلّم أنّ ذلك لا يعني أنّ كلّ ما كتبوا لا نفع فيه ولا جدوى منه وانّ بعض ما كتب يدلّ على بصر ثاقب وخبرة متعمقة عاد فقال: «ولكنّ المهمّ في تقدير ما كتبوا انه مبني على اتّصالات مباشرة بينهم وبين البدو وهي علاقة كما أوضحنا بين مُسْتَعمِرٍ ومُستعمَرْ» (ص ١٢٤ ـ ١٢٥) وأشعر أنّ الدكتور مليكة اشتّط في حكمه على الذين جعلهم من الفئة الأولى، ولست أقصد أن أدافع عن لورنس أو ثيسجر أو دكسن أو جارفيس الذين جعلهم مثلاً من رجال الفئة الأولى ولكن هل كان كلّ الروّاد الأجانب الذين درسوا أمور البادية قاموا بعملهم في سبيل الاستعمار ـ وهل كانت غاية ألوس موزل التشيكوسلوفاكي في كتبه التي كتبها خدمة الاستعمار؟ ومثله دوتي الذي أبت القنصلية الانجليزية في الشام أن تسمح له بالقيام في مغامرته لدرس حياة البداوة فخاطر بنفسه وخلّف لنا أعظم أثر كتب عنها ـ ومثله سنت جون فلبي وجورج أوغست فالين الفنلندي. أمّا أفراد الفئة الثانية والفئة الثالثة الذين ذكرهم وسمّاهم فمع تقديري لهم، لا أعتقد أنهم يرضون أن يقدّموا على من ذكرت في اظهار الشخصية البدوية على حقيقتها. وكان يجب ألاّ يصدر مثل هذا التعميم وألاّ يسلك سبيل المجاملات.

بقي كتاب «عشائر الشام» الذي أشرت إليه سابقاً، وهو أوسع هذه الكتب، بحث فيه المؤلف جغرافية بادية الشام، وتاريخها، وعمرانها، والأخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي، وأنساب العشائر وأخبارها في كل محافظة وقضاء. وهو في جزءين، سرد فيه أسماء كثيرين من المؤلفين العرب القدامى الذين وضعوا بحوثاً عن البدو بوجه عام أو عن تاريخهم وأنسابهم وقبائلهم. ولم يفته أن يذكر أسماء بعض الروّاد من علماء الفرنجة وأن يشير إلى فضلهم وسبقهم في هذا المضمار، فقال في مقدّمته الطويلة ما يلي:

«قد صرنا الآن حتّى في هذه الموضوعات المتعلّقة بنا عالة على روّاد

الافرنج ومستشرقيهم، لأنّ هؤلاء ما برحوا يتجشّمون ويختلفون ويحادثون، ويتتبعون هذه الأخبار والوقائع والنوادر، ناهيك الأبحاث الطبوغرافية والأثرية والاجتماعية والاثنوغرافية وغيرها التي برعوا بها أيّ براعة. فهم لم يغادروا أي بادية من بوادينا إلّا اخترقوها، ولا عشيرة من عشائرنا إلّا وزاروها، ولا خربة من خربنا إلّا ورأوها، ولا علوماً ولا أخباراً ولا قصائد وأشعاراً عن البداوة والبداة إلّا التقطوها وفسّروها وشرحوها. كلّ ذلك بنشاط واهتمام يثيران الاعجاب والاكبار. وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث والتدقيق، حريصون على التأليف والتدوين، أسخياء بالبثّ والنشر وإفادة الغير. فقد دوّن أولئك الروّاد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات الأوروبية سنذكر أسماءها في حينه، نقرأها بكثير من التفكير والتقدير. ولو جئت أعدّد أسماء هؤلاء الأفاضل وأذكر الأماكن التي ولجوها وجاسوها في فيافي الجزيرة العربية وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها حتّى الربع الخالي، وأنقل المشاقّ والأخطار التي قاسوها في الأوغار والرمال والحرّ والقرّ والجوع والعطش، والمؤلّفات التي وضعوها مزيّنة بالرسوم والخرائط والأرقام. ناهيك جودة الوصف ودقّة الشرح اللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً، قلت لو جئت أعدّد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب»[٢].

. وفي قوله كثير من الانصاف والتقدير لخدمات هؤلاء الروّاد برغم ما جنح إليه من المبالغة التي اقتضاها أسلوبه الفنّي العاطفي لا سيّما فيما يتعلّق بأمر القصائد والأشعار البدوية والتقاطها وتفسيرها وشرحها ممّا لم أجد منه أثراً كبيراً في أكثر كتبهم التي خلّفوها، وقد خصّ المؤلّف بالذكر نفراً من هؤلاء الروّاد في مقدّمة كتابه هم: اللّيدي ألن بلنت الانجليزية وزوجها ولفرد بلنت، والآنسة جرترود بل، وألوس موزل التشيكوسلوفاكي. ومونتاني الافرنسي، والبارون أوبنهايم الألماني، والمقدمّ مولر الافرنسي، والرئيس رينو، والملازم بوشمان والراهبان جوسن وسافينياق الدومينيكيّان، والراهبان بواديبار وهنري شارل اليسوعيان[٣]. ثمّ عاد ففصّل في باب خاص أخبار هذا النفر واحداً واحداً، وزاد عليهم الرحّالة السويسري بركهارت، الذي كان يجب أن يذكره أوّلاً لأنه أسبقهم جميعاً[٤]. وعلى ما في قوله من التقدير لأعمال هؤلاء الروّاد من علماء الفرنجة والاقرار بسبقهم وفضلهم فقد فاته ذكر كثيرين غيرهم. ولعلّه لم يطّلع على كتبهم أو لم يصل إليه علم عنها. وربّما كان هنا خير موضع لذكر أهمّ الذين فاته

ذكرهم، فمن أعظمهم وهو في رأي الكثيرين أشهر من كتب عن البداوة على الاطلاق وقد سبق أكثر هؤلاء، الرائد الأعظم تشارلز دوتي. ويعدّ كتابه الكبير «أسفار في العربية الصحراوية» في مجلّدين في نحو ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير أفضل ما كتب عن الحياة البدوية حتّى اليوم. وقد صدر منه حتّى الآن برغم كبره وغلاء ثمنه أكثر من أربع عشرة طبعة. وقال فيه لورنس: «إنّه كتاب الحياة البدوية المقدّس. درست فيه عشر سنوات ولا أظنّ أنّ هناك كتاباً يعدله. وإنّك مهما يزد علمك عن الجزيرة العربية لواجد فيه علماً فوق ذلك، إنّه الجزيرة العربية نفسها بخيرها وشرها، بعجرها وبُجرها، بنبلها وحريتها وقد بلغ فيه دوتي منتهى الكمال»[٥].

كذلك من هؤلاء الذين فاته أن يذكرهم في كتابه ـ وهو الآخر من الروّاد السابقين ـ و ج. بالجريف فقد كتب كتابا اسمه «خبر رحلة سنة في الجزيرة العربية ـ الوسطى والشرقيّة» تناقلت أخبارهما كثير من الصحف الأجنبية في زمنه وجرى نقاش بشأن بعض الأمور التي ذكرها فيه. وكارستن نيبوهر مؤلّف «رحلة في الجزيرة العربية» في مجلدين. ثمّ د. ج هوغارث مؤلّف «اختراق الجزيرة العربية»، وبرترام توماس مؤلّف كتاب «الربع الخالي» وكتب أخرى، ودي غوري مؤلّف «رحلة عربية وسفرات أخرى عبر الصحراء»، والكولونيل ت. ا. لورنس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» و. ر. هـ. كيرنان في كتابه «الكشف عن الجزيرة العربية»، والميجر جارفز في كتابه «اختراق الجزيرة العربية» وكريستينا غرانت في كتابها «الصحراء السورية» وكارلو جوارماني في كتابه بالايطالية وترجمته إلى الانجليزية «نجد الشمالية» وروبرت تشيزمان في كتابه «في الجزيرة العربية المجهولة» ودوغلاس كاروثرز في كتابه «مغامرة في الجزيرة العربية إلى النفود العظمى»، ورتشرد برتون في كتابه «حجّة للمدينة ومكة» في ثلاثة أجزاء في طبعته الأولى، ووليم ريت في كتابه «تدمر وزنوبيا» الذي عرض فيه لكثير من شؤون البدو وأخبارهم،وكارل راصوان في كتبه ومقالاته وغيرهم ممّن سآتي على ذكرهم في متن هذا البحث وفي جدول مراجع هذا الكتاب حيث يجد القارىء ذكراً لتاريخ طبع كلّ منها والبلد الذي طبع فيه. ويلاحظ أن كل هذه الكتب التي ذكرت وضعت باللّغة الانكليزية ويظهر أن الاستاذ وصفي زكريا يجهل تلك اللغة فلم ييسّر له الاطّلاع على الكتب التي وضعت بها في موضع البداوة. ولكن يجب التنبيه إلى أنّ حضرته شعر بهذا فقال في آخر بحثه عن مكتبة البدو: «ولعلّ هنالك كتباً ورسائل أخرى لم أطّلع عليها فاكتفيت بذكر ما علمت وما رجعت إليه». ويجب أن نشير كذلك إلى أنّه ذكر أسماء عدد كبير من الكتب والمقالات التي وضعت باللغة العربية منذ أوّل عهود التأليف عند العرب حتّى زمنه.

بقي أن نذكر أيضاً أنّ هناك روّاداً آخرين وعلماء متخصّصين في علم الحيوان والنبات والاجتماع كتبوا بعد عهد الأستاذ وصفي عن الحياة في البادية نذكر منهم ديفد ل. هاريسون، وهارولد بترك دكسن، وسنت جون فلبي المعروف عند العرب بالحاج عبدالله فلبي، ووليم لانكستر ولفرد ثيسجر. وهناك عسكريون كانوا على صلة وثيقة بأحوال البدو ألّفوا كتباً ووضعوا تقارير خاصة مثل ميجر جلب وميجر جارفز اللذين ذكرنا من قبل، وبيك باشا وغيرهم.

زد على هذا كلّه عشرات المقالات الهامّة التي كتبها باحثون اخصائيون زاروا البوادي ونشروا دراساتهم في مجلّات علميّة مشهورة أجنبية ووطنيّة عدا المقالات التي أشار إليها الأستاذ وصفي زكريا كمقالات كارل راصوان وهنري فيلد في مجلّات أجنبية وكمقالات صائغ وقساطلي ومكاريوس والريحاني وعز الدين وغيرهم في المقتطف وغيره، ومثلها رسائل خطيّة قدّمت لنيل شهادات التخصّص أو الدراسات العليا من بعض الجامعات في سورية ولبنان وغيرهما من الأقطار العربية، وتقارير خطية سريّة كان رفعها قناصل بعض الدول الأجنبية في الشرق العربي في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، وأخصّ بالذكر تلك التي كان يرفعها قناصل انكلترا في الشرق العربي إلى وزارة الخارجية الانكليزية وقد سمح للباحثين بمطالعتها منذ سنين، وهي في قسم الوثائق العامّة في تشانسلي رود بلندن، وأخيراً وليس آخراً الكتاب الذي وضعته القيادة الانكليزية مدّة الحرب الأخيرة ليكون مرشداً لرجال حملتها العسكريين الذين أخرجوا الفرنسيين الفيشيين من سورية ولبنان لا يستعمله سواهم، وفيه معلومات هامّة دقيقة عن قبائل البدو في سورية، أخذ بعضها فيما رأيت عن الكتاب الذي وضعته السلطة الافرنسيّة أيام الانتداب وأشار إليه الأستاذ زكريا. وفي الكتاب الانكليزي مقدّمة هامّة لعلّها من قلم الكولونيل جلب نفسه المعروف عند البدو بأبي حنيك.

ولا بدّ لي في ختام هذا الفصل أن أنوّه بسبق هؤلاء الرواد والعلماء وبفضلهم، وأن أكرّر الثناء لهم على جهودهم التي بذلوها والمشاقّ التي لاقوها في سبيل هذه الأعمال التي اقترنت بالمغامرات فيها وبالهوايات وبحب العلم والبحث فخلّفت هذه الآثار. وأخصّ بالاعجاب اثنين هما شارلز دوتي الذي عرفه البدو باسم خليل النصراني وألوس موزل (الشيخ موسى الرويلي) فإنّ كتبهما هي خير ما وضع في موضوع البادية دون منازع. بقي أن أشير إلى ما كتبه في كتبه كارل راصوان أو رضوان الرويلي كما شاء أن يسمّي نفسه ولاسيّما في كتابه «خيام الجزيرة العربية السود» ففيه كثير من الخلط والخيال والتضليل وكثير من أخباره لا تستند إلى الحقيقة وقد نقل بعض أخباره الأخرى عمّن



تشارلز دوتي (خليل النصراني) صاحب أعظم مؤلّف عن البدو بوجه عام



المستشرق الشيخ موسى الرويلي (ألوس موزل) النمساوي الأصل وصاحب
المؤلفات الكثيرة عن البدو وشمالي الجزيرة العربية

سبقوه ونسبها إلى نفسه. وقد لاحظت ذلك حين صدر الكتاب وسألت الأمير فوّاز الشعلان عن بعض ما ورد فيه عنه وعلاقتهما معاً فأنكر كلّ ما زعمه رضوان بشأن الأخوّة بينهما وبشأن الأخبار التي أوردها عن مغازيه معه. هذا عدا تلك القصّة الخيالية عن حبّ فارس الشمري إلى فتاته الحسناء طعيمة فهي أخبار تصلح لأن تكون في القصص والروايات. ويكفي أن أذكر هنا مثلاً قوله إنه كان للأمير نوري الشعلان ٨٢ ولداً ماتوا كلّهم ما عدا واحداً، وإن فتاة اسمها طعيمة كانت تصيد الغزلان وأن فوّاز غزا عرب السبعة وأسر خيلاً منهم ثم أعادها إليهم لأنّهم لم يكونوا معتدين ولم ينبههم بغزوه لهم. وإن الأمير فواز يستشير أصحاب الفال قبل الصيد، وان أم فارس تلبس ثياباً من كشمير وأن نهر تدمر يتفرّع من النبع إلى مئات الفروع والجنائن والبساتين، وأن البدوي يستطيع وهو على ظهر جواده أن يرمي الطائر بحجر من مقلاعه فيصيبه، أحسن ممّا يصيب بالبارودة. فهذه كلّها غير صحيحة .هذا عدا جهله لمعاني الألفاظ القليلة من لغة البدو التي ذكرها مثل حبّني وزعم أنّ معناها يا حبيبي بينما معناها بلغة البدو قبّلني. وقال كلمة «قوّة»(٦) هي تحية البدوي ويقصد «كوّك» أي قوّاك. كذلك زعم أنّ والد الأمير فوّاز قتل وهو الأمير نايف والواقع أنّه مات في بلدة القريتين من مرض لازمه مدّة طويلة وَدفن فيها وقد أدركته وهو مريض قبل وفاته. وقد نقل جثمانه فيما بعد منها. ومن الغريب أنه ذكر في موضع آخر أنه مات بغتة بشكل غريب تحقيقاً لنبوءة امرأة عنه. وكنت بغنى عن الاشارة إلى كتب هذا الرجل لولا أنيّ رأيت بعض الباحثين المحدثين في أمور البادية يرجعون إلى كتبه ويستشهدون ببعض ما فيها. ولا بدّ من الاشارة إلى أن الأمير فواز حين أنكر أخبار راصوان أثنى كلّ الثناء على الشيخ موسى الرويلي ولم يكتف بهذا بل بعث وراء خاله سطام لكي يحدثني عن علم الشيخ موسى بأمور البدو وصدقه.

كذلك أود أن أشير أيضاً إلى كتاب هنري دكسن فانه على ما فيه من فوائد عن حياة البدو وما بذله صاحبه من جهد في تحقيق ما وصل إليه تنقصه الدقة في ضبط الأقوال العربية المشهورة التي نقلها دكسن عن أفواه الرواة وسجلها بحرف لاتيني بحيث حرفها عن لفظها ودل على أنه يجهل ما ينقل(٧). كذلك أخطأ دكسن حين زعم أن صبايا البدو في الكويت حين يسقط المطر في تشرين الثاني في الخريف يندفعن إلى البرية لاقتلاع الكمأة(٨) وسنرى في بحثنا أن الكمأة لا تظهر قبل شباط.

بقي وليم لانكستر في كتابه الذي ظهر حديثاً عن عرب الروله اليوم فقد تعرض هو الآخر إلى ارتكاب بعض الأخطاء في نقله عن البدو بعض الأخبار، كالخبر الذي زعم أنه رواه له صقر ابن مجحم الشعلان عن الخوة وأنها كانت تصل إلى المذكور لأنه كان يملك قطعة من بلدة القريتين(٩). فالخوة أولاً لا تدفع لقاء ملك في قرية بل لقاء حماية لأبناء

قرية أوعشيرة. والقريتين بلد أكبر من أن يملك قطعة منها شيخ أياً كان من شيوخ البدو ـ وأنا أطمئنه حين تساءل لمن باع صقر قطعة من القريتين أن القريتين لم تكن في تاريخها متاعاً يباع.

هذه كلمة عجلى في أهمّ الأصول والمراجع التي عرضت لحياة البدو في الجزيرة العربية وبخاصّة في الشمال. وهناك كتب رحلات لموظفين في الشركات الأجنبية التجارية ذكرت أخباراً هامّة عن تاريخ البدو وحياتهم منذ القرن السادس عشر وذلك بمناسبة النزاع الذي كان قائماً بين هولندا وايطاليا وانجلترا وفرنسا على امتلاك الخطوط التجارية إلى الهند واحتكار التجارة مع الشرق. نذكر منهم على سبيل المثال فقط أربعة من الرحّالة الانكليز وصفوا رحلاتهم بين حلب والبصرة بين ١٧٤٥ و ١٧٥١ في منتصف القرن الثامن عشر في رسائل مطوّلة طبعت ونشرت هم: وليم بيويز سنة ١٧٤٥ وجيلارد روبرتس سنة ١٧٤٨ وبرثولوميو بليستد ١٧٥٠ وجون كرميكل ١٧٥١[١٠].

ولعل هنا خير موضع نشير فيه إلى سبب التفات الغربيين إلى الجزيرة العربية وباديتها ولاسيما الرواد الانجليز منهم وهو أنه لما اخذت دول الغرب تتنافس فيما بينها في سبيل فتح الطرق التجارية إلى الشرق حين رأت ما فيه من كنوز وحاصلات، أخذت انجلترا تبعث رسلها لاكتشاف طرق عبر الجزيرة العربية إلى الهند ولم تكن قناة السويس قد فتحت فكان لا بد من الاعتماد على طريق بري يساعد أو يستعاض به عن الطريق البحري الطويل عبر رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا.

الحواشي:

(١) كان الأستاذ أحمد وصفي زكريا مديراً للمدرسة الزراعية التي أسّسها في سلمية من أعمال حمص سبع سنوات قيّض له في أثنائها أن يتّصل بحياة البداة عن كثب وبخاصة عرب الموالي والحديديين، وتجوّل بعدها مدّة تسع سنوات في أملاك الدولة على سيف البادية وأكثر من المطالعة في كتب الروّاد الفرنجة ولا سيّما الفرنسيين. وله كتاب «الريف السوري»، جزءان، دمشق، ١٣٧٤ ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧، عرض فيه أيضاً للدرس بعض القبائل البدويّة.

(٢) عشائر الشام لأحمد وصفي زكريا، جزءان، دمشق ١٣٦٣ ـ ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧، ١: ٥ ـ ٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١ ـ ١٥.

(٥) أنظر Charles M. Doughty, **Travels in Arabia Deserta**, 2 volumes, new ed., (London. 1936)، ١: ١٧، وبقية مقدمة لورنس، ص ١٨ ـ ٢٨.

(٦) الواقع أنها التحية التي يستعملها البعض في منطقة الاحساء، أما بدو سورية فيستعملون كوّك.

(٧) انظر H.R.P. Dickson, **The Arab of The Desert** (London, 1949), pp. 337 - 38.

(٨) انظر المصدر نفسه، صفحة ٦٠ في موضعين من تلك الصفحة.

(٩) انظر William Lancaster, **The Rwala Bedouin Today** (Cambridge, 1981), p. 122.

(١٠) انظر نص هذه الرحلات في Douglas Carruthers (ed.), **The Desert Route to India** (London, 1929).

تحديد البداوة وطبيعتها

ترجع كلمة البداوة في العربية إلى جذر بدو فيقال: بدا القوم بدواً أي خرجوا إلى البادية، وفي الحديث «من بدا جـفا» أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب. وتبدّى الرجل أقام بالبادية وصار من أهلها. وتبادى تشبّه بأهل البـادية. والبـادية الصحـراء، وهي أيضاً خلاف الحضر، فتقول قوم بادية أي أعراب غير حضر. والبداوة بفتح الياء وكسرها البادية والاقامة بالبادية، وهي خلاف الحضارة . والبدو هم القوم البادية، أي خلاف الحضر، والنسبة إلى البدو بَدْوي بتسكين الدال، وندر تحريكها بالفتح. ولم يرد من مشتقّات هذا الجذر في القرآن بمعنى البادية سوى كلمتين الأولى في سورة يوسف (١٢)، الآية ١٠٠، حيث جاء قـول يوسف: ﴿ . . . إذ أخـرجني من السّجن وجاء بكم من البدو﴾، والثانية في سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٢٠، حيث جاء: ﴿ . . . وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب﴾. وكلمة الأعراب هذه بمعنى البدو ذكرت في القرآن عشر مرّات.

وتقتضي البداوة، أو العيش في البادية والاقامة فيها، كثيراً من التنقّل من مكـان إلى مكان وراء الماء والكلأ. وتقوم حياة البدو فيها على تربية المواشي وحمايتهـا. وكانت تقوم في الأزمان السالفة على هذه الأمور وعلى الغزو والسلب.

ومسرح البداوة هو البادية، ثم ما يليها من أطراف الأقاليم المجاورة. وقد فرضت حياة البادية وتربية الماشية فيها على البدو حياة خاصّة، وأكسبتهم عادات ومميّزات خاصّة يجب فهمها لفهم مشاكلهم الخاصّة المختلفة. ومن هنا فقد اختلفت حياة العربي البدوي

عن حياة أخيه العربي الحضري برغم ما بينهما من روابط وصلات. بل إن هناك تفاوتاً في سبل الحياة وفي بعض العادات بين البدو من أصحاب الإبل والبدو من أصحاب الشياه. فأصحاب الإبل لا يمكن لإبلهم أن تعيش وتنتج على أحسن وجه إلاّ في النجعة البعيدة وارتياد المراعي في البادية في فصل الشتاء، بينما لا ينتجع أصحاب الشياه قلب البادية هم ومواشيهم إلاّ في النادر، وذلك حين تجدب الأراضي المحيطة بالمعمورة ولا يبقى فيها كلأ للماشية - حتّى في هذه الحالة فإن البدوي لا ينفذ مع غنمه كثيراً في البادية، بل يظلّ قريباً من حواشيها.

أنواع البداوة

تتدرجّ البداوة في سلّم طويل أوّله يلامس الحياة الحضرية ويتصّل بها بين الفينة والفينة اتّصالاً مباشراً متيناً، وآخره ثابت في الصحراء لا تكاد تزعزعه من موطنه قوّة ما. ومع أن الدارس لحياة البداوة يستطيع أن يتبينّ لها كثيراً من الألوان، فإنّ أنواع البداوة الرئيسيّة ثلاثة: أولاها في أسفل السلّم، وهي عريقة ثابتة تقوم على تربية الإبل وحسب، وأصحابها سريعو التنقّل بين أنحاء البادية وأطراف البقاع المعمورة. ولعلّ هذه الطبقة هي التي تأنف من الخضوع للسلطة والنظام، وهي التي تأبى الجنوح إلى التحضرّ إلاّ مرغمة محرجة[1]، وهي التي عناها ابن خلدون في بحثه عن أطوار البداوة وطبائع الناس فزعم أنّ أبناءها بطبيعة التوحّش الذي فيهم هم «أهل انتهاب وعبث، ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرّون إلى منتجعهم بالقفر»[2]. ثمّ اعتبر هذه الطبيعة فيهم منافية للعمران ومناقضة للاستقرار فقال: «فغاية الأحوال العادية كلّها عندهم الرحلة والتغلّب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران، ومناف له. فالحجر مثلاً إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافيّ القدر، فينقلونه من المباني ويخرّبونها عليه ويعدّونه لذلك، والخشب أيضاً إنّما حاجتهم إليه ليعمّروا به خيامهم، ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخرّبون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران، هذا في حالهم على العموم، وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وإنّ رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه، بل كلّما امتدّت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه»[3].

والثانية بداوة تطوّرت من الأولى لسبب من الأسباب، فهي متوسّطة بين البداوة العريقة والبداوة نصف الحضريّة، ويستعين أهلها على عيشهم بالإبل والغنم، ولهذا فهم أقلّ حركة وانتقالاً من أصحابهم أهل البداوة العريقة المذكورين.

والثالثة البداوة نصف الحضرية، وتقوم على تربية الماشية من غنم ومَاعز وقليل من الإبل. ولأهلها علاقات وثيقة مع الأهلين في القرى المعمورة وفي المدن. ومن أبنائها من أصبحوا أنصاف بداة يسهل تحضيرهم، أو إن شئت فقل أنصاف حضريين أخذوا يرون الخير في الحياة الحضرية. وأخذوا يجنحون إلى الدعة والسكون والترف الذي في الحضر، بل أخذوا بالفعل يحاولون الاندماج في الحياة الحضرية بحيث لا ينقضي جيل أو جيلان إلّا وقد دخل أبناؤهم في الحضر وأصبحوا في عداد الحضريين. ومن هذه الطبقة من البداوة تبدأ عملية التحضير الطبيعية. وقد أصبح أبناء هذه الطبقة على شيء من المعرفة بالأمور الزراعية، وأخذ بعضهم يقتني الأراضي الزراعية ويستثمرها مستعيناً بالمزارعين من أهل القرى أوّل الأمر، ثمّ ببعض البدو من قبيلته فيما بعد. وبين أبناء هذه الطبقة قوم من شيوخ الطبقات الأخرى أقطعتهم الحكومات في عهودها المختلفة أراضي وآباراً على حدود البادية، فأخذوا يستغلونها اليوم بواسطة الزراعة. وقد كانت هذه الأراضي والآبار في الأزمان السالفة مزارع قضت عليها هجمات الغزاة. ويلاحظ أنّ شيوخ القبائل كلّها هم على العموم أقرب البدو إلى التحضرّ، وذلك لامتلاكهم بعض الأراضي الزراعية والآبار والعيون، ولاختلاطهم بالحواضر وعيشهم فيها ولو إلى حين، ولا سيّما من يمثّل منهم قبيلته في مجلس من مجالس الحكومات النيابية أو له علاقات زراعية مع الحكومة ومختلف دوائرها.

أهميّة البداوة من الناحيتين القومية والاجتماعية

للحياة العربية جذور قويّة في البداوة، بل لا تزال العقلية العربية الحضرية شديدة الاتصال بالعقلية العربية البدويّة، ومن هنا كان من اللّازم على من يحاول درس واقع العالم العربي، وفهم خصائص العقلية العربية، ومميّزات الحياة العربية أن يرجع إلى أصول هذه الخصائص والميّزات في البادية وفي الحياة البدويّة. وإنّ العربي ليجهل نفسه وفهم خصائصه ومدى طاقته على التطور إن كان يجهل أنّ جذور حياته هي في البادية. فالروح القبليّة ومنها التكتّل العائلي والتزعّم العشائري والنزعة الفردية والمنازعات في سبيل التزعّم والرئاسة، كلّ هذه وغيرها ترجع بأصولها إلى النظام القبلي وأثر الحياة البدوية. كذلك يرجع الكثير من العادات والأخلاق العربية إلى أصول معروفة مألوفة عند البدو ولا تزال مرعيّة حتّى اليوم، ومنها قضايا الثأر والعرض والجيرة والفخر والذمّ والكرم وحماية الدخيل والفروسية والإقدام.

بل إنّ كثيراً من العرب المستقرّين في القرى المحيطة بالبادية يرجعون بأنسابهم إلى قبائل بدويّة معروفة، وقد نقل آباؤهم معهم إلى القرى التي أُلجئوا أو أُحرجوا إلى السكنى

فيها لسبب من الأسباب كثيراً من عاداتهم وأخلاقهم وشيئاً من لهجاتهم البدوية. وقد استدعت طبيعة البداوة في الزمن السابق أن تضغط بعض العناصر البدويّة الجديدة القادمة من البادية على العناصر البدوية القديمة الملازمة للأرض العامرة فترغمها على الاستقرار واللّجوء إلى التحضّر. ومن هنا فإنّ دخول كثير من البدو في الحياة الحضرية عمليّة مستمرّة لا تعرف الانقطاع، وأثر هؤلاء الداخلين في حياة أهل الحضر مستمرّ لا يعرف الانقطاع.

ومع أن الاسلام أوّل ظهوره لم ينظر إلى الأعراب (البدو) نظرة استحسان[٤] فإنّ خلفاء الإسلام الأول وزعماء الأحزاب استندوا إليهم كثيراً في فتوحاتهم، وأدمجوا بعضهم في الحياة العربية المدنيّة وأصبحوا عنصراً هامّاً في المجموعة العربية القديمة. وقد نسب إلى الخليفة عمر ابن الخطّاب انه أوصى خلفه بهم فقال: «أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله والمهاجرين الأوّلين.. وأوصيه بالأعراب خيراً فإنّهم أصل العرب ومادّة الإسلام»[٥]. وقد شكّلوا بالفعل جزءاً هامّاً من جيوش الفاتحين ومن جيوش الثائرين على الخلفاء كالخوارج وغيرهم.

والبدو من ناحية ثانية لم يندمجوا كلّياً في الحياة الحضرية، ولا يزالون في أكثر البقاع العربية إلى يومنا هذا يشكلّون أقليّة اجتماعية كبيرة العدد يجب أن يحسب لها حساب حين تدرس الحياة العربية والأوضاع الراهنة فيها والمشاكل التي تعترض تقدّمها. وكانت هذه الأقليّة الاجتماعية في بعض الأقطار إلى عهد قريب تضارع ربع السكان عدداً أو أكثر من الربع. ولا يمكن للمرء أن يتجاهل مثل هذه الأقليّة التي تبلغ مثل هذه الكثرة في بعض الأقطار حين يحاول درس المشاكل الاجتماعية والسياسية في دنيا العرب. ومع أن عدد البدو فيما يظهر لا يزداد إذا قيس بالنسبة إلى ازدياد السكّان في البلاد العربية، فإنّه لا يستبعد أن تزداد العناية بالأطفال ويقلّ فتك الأمراض المختلفة بهم فتزداد نسبة عدد البدو عن قبل، لاسيّما وأن الدول العربية نفسها أخذت تعتني جدّياً بمكافحة بعض الأمراض التي تفتك بأهل القرى والبوادي، كالملاريا مثلاً التي ينقلها نوع من البعوض يتوالد في المستنقعات التي يتردّد إليها البدو في فصل الصيف، فإذا أزيلت أسباب هذا المرض وغيره من الأمراض أنقذ الكثيرون من أبناء البدو وازداد عددهم.

كذلك أخذ البدو أنفسهم يلتفتون إلى أمر الوقاية من الجدري، فيلقّحون أبناءهم في القرى أو عند متمرّنين يطوفون بمضاربهم للقيام بهذا الأمر، بل إن كثيراً من مرضى البدو أخذوا يتردّدون إلى الحواضر للاستشفاء في مستشفياتها. وقد بلغت نسبتهم في بعض المستشفيات القريبة منهم درجة كبيرة تكاد تقارب ثلث المرضى في المستشفى

كـله[٦]. ومهما يكن من أمر عددهم فإنّهم يشكّلون نسبـة ليست قليلة في كـل الـدول العربية، ولا يمكن الالتفات إلى مناهج الاصلاح والاعمار والتقدّم في دنيا العرب دون أن يحسب حساب لهذه الأقلية الاجتماعية الهامّة، ودون أن تدرس الدرس الوافي العميم، فتفهم طبيعة حياتهم وتلاحظ التطوّرات التي تدخل على هذه الحياة وطريقة استجابتهم للنزعات الجديدة والتيّارات الغربية التي تظهر في سبل الحياة، وأثر هذه الحياة الجـديدة فيهم.



منظر عام لمضرب من مضارب البدو فيه سوق من خيم بيض لحضريين منفرد عن بقية الخيام

أهمية البداوة من الوجهة الاقتصادية

يستهلك الحضريون كثيراً من لحوم الماشية التي يربّيها البدو، وكان باستطاعة أهل القرى أن يقوموا بتربية جميع أنواع الماشية التي يحتاجها اقتصادهم لـو كان حقّق لهم في الأجيال السابقة الأمن المطلق والمياه في المواضع المجاورة للبادية. ولكن البـدو على كـلّ

حال أقدر من أهل القرى على الانتجاع وارتياد مواطن الماء والكلأ. ولمّا كانت بعض هذه المواشي من العناصر الهامّة للغذاء عند أهل الحواضر كان لحياة البادية أثر هامّ في الحياة الاقتصادية العامّة.

فاللّحوم التي يأكلها أهل الحواضر هي بالأكثر من الماشية التي يربّيها أهل البادية، لاسيّما لحم الضأن والماعز ويليها لحم الجمل الذي لا يزال حتّى اليوم جزءاً هامّاً من غذاء القروي في بعض أجزاء سوريا وغيرها من البلدان العربية. ومع أنه من العسير أن نلمّ هنا بمقدار ما تصدره البادية من ماشية للحواضر في كلّ بلد عربي، فإنّه ليس من شك في أنه جزء كبير ممّا تستهلكه الحواضر. ولولا البدو وماشيتهم لكان على كلّ البلاد العربية أن تستورد اللّحم من البلاد الأخرى، بل إن بعض البلاد العربية برغم انتاجها للماشية وبرغم ما تستورده من الماشية من غيرها من البلاد العربية لا تزال تستورد فوق ذلك الكثير من الأقطار المجاورة كتركيا وغيرها من البلدان، هذا عدا ما تستورده من أنواع اللحم المعلّب أو المجلّد من مختلف الأقطار الأجنبية.

وقد أخذت وسائل النقل الحديثة تقلّل من أهمّيّة الجمل للحمل أو للحراثة أو للدراسة، ولكنّه لا يزال عنصراً هامّاً في الحياة الزراعية في البيئات القروية البعيدة. ولا يزال لحمه حتّى اليوم مادّة مطلوبة في بعض الأوساط العربيّة. وقد حدّدت أثمانه كغيره من لحم الماشية من ضأن وماعز في جداول الأسعار التي تفرضها البلديّات على الجزّارين حتّى في بعض أمّهات المدن العربية.

ولأوبار الإبل شيء من المنفعة ولكنّها ليست من الأهمّيّة بحيث يحسب لها حساب من الناحية الاقتصادية، فإن ما يجمع منها في بوادي سورية قليل يستهلك البدو بعضه لصنع أروقة البيت (الخيمة) ويباع الجيّد منه للتجار في القرى حيث ينظّف ويغزل ويحاك عباءات وبريّة جميلة.

ولجلود الإبل سوق رائجة، وقد يذبح من الإبل أعداد كثيرة في عيد الأضحى فيأخذ البدو من جلودها ما يحتاجونه لصنع القرب أو الروايا الكبيرة والظروف والدلاء، ويباع ما تبقّى إلى تجّار القرى والمدن ليدبغ وتصنع منه الأحذية القويّة.

أمّا الغنم فتشكّل عنصراً هامّاً من الوجهة الاقتصادية. أوّلاً من حيث لحومها ولحوم خرافها التي ترد إلى المدن وتذبح بأعداد كبيرة. ثانياً من حيث أصوافها التي تجزّ كلّ سنة وتغسل ويصدّر أكثرها إلى الخارج[٧]. وثالثاً من حيث ألبانها التي تباع لبناً رائباً في القرى المجاورة، وجبناً في بعض الأحيان وزبدة مذابة (سمناً) في أغلب الأحيان. وإن

الكثيرين من الأهلين في سوريا ولبنان والعراق يعتمدون على السمن البدوي في أطعمتهم المطبوخة. وهكذا فإنّ للبداوة أهميّة من الوجهة الاقتصادية من حيث أنّها توفّر للحضريين كثيراً من اللّحوم والألبان التي يحتاجونها في أطعمتهم. وقد زاد استهلاك اللّحوم في أكثر الأقاليم العربيّة بحيث أصبح من الضروري زيادة الانتاج في الماشية لسدّ الطلب.

أمّا الخيل فقد قلّت تربيتها الآن في البادية[٨] برغم حرص البدو على أنسابها وأصولها واقتناء بعض البدو للكرام منها. وقد انتقلت تربية الخيل إلى ديار أنصاف البداة وإلى بعض الحواضر التي تلي البادية حيث تسهل تغذيتها. وهناك عاملان أساسيّان في قلّة اكتراث البدو من أهل الإبل الآن بتربية الخيل. أولهما هو امتناع الغزو الذي كان يستدعي اقتناءها، والثاني هو تكاليف تغذيتها في سني المحل، وذلك لارتفاع أسعار الحبوب، والشعير بنوع خاص، الذي لا بدّ منه أحياناً لتكملة غذائها، بخلاف الإبل التي تكتفي بما ترعى من الكلأ في البريّة.

ويخطىء من يظنّ أنّ الماعز هي من الماشية التي تعيش وتكثر في البادية مع أن بعض البدو يربّونها، وأنّ بعض رعاة الماعز يتردّدون إلى أطراف البادية. فالماعز ماشية جبليّة وأصحابها في الغالب قرويون أو أنصاف بداة ممّن لهم مع القرى صلات وروابط - كما نرى في قرى سوريا ونجد، وسواء أعددنا الماعز من ماشية البادية أم لم نعددها، فإنّ لها أثراً كبيراً في حياة البادية، لأنّ من شعرها تحاك الشقق التي تخاط خياماً للبدو. وهناك قرى على حدود البادية، وأخرى في داخل المعمورة، قوام حياتها الاقتصادية الحياكة وبنوع خاصّ حياكة شعر الماعز شققاً يشتريها البدو ويخيطونها خياماً. هذا عدا الصوف الذي يتّخذ من الغنم ويحاك عباءات ويصدر للبادية.

وهناك الكمأة، النبات الفطري الذي ينمو في البادية وحواشيها ويجمعه البدو ويبيعونه من أهالي القرى والمدن المجاورة، وقد تكثر في بعض المواسم بحيث تباع في كل المدن العربيّة وتشحن أو تعلّب وتدخل في صناعة المعلّبات.

أهميّة البداوة من الناحية الحربية والسياسية

بقي شيء واحد في أمر البداوة لم أعرض له وهو البداوة من الناحية الحربية والسياسية اليوم. فقد كان لها شأن عظيم في تاريخ البلاد العربية من هاتين الناحيتين ولا سيّما في عصور الاسلام الأولى حيث كانت السلطة في العهود الأولى تستعين بالبداة ثم اضطرّت في العصر الأموي إلى اصطناعهم في نزاعها مع القائمين عليها في الأقطار الأخرى وإلى استمالتهم إليها للدفاع عن حوزتها أو إلى محاربتهم وإخضاعهم إلى

سلطانها ونفوذها. ومن هنا كان للبادية وللبداة أهميّة من هذه الناحية. وسنرى حين نعرض لتاريخ القبائل التي وفدت إلى الهلال الخصيب أن النزاع بين البدو وذوي السلطان من أهل العمران لم ينقطع طيلة العصور الإسلامية حتّى الثلث الأول من القرن العشرين. وقبل العصور الإسلامية أرسل امبراطور الرومان أوغسطس قيصر جيشاً بقيادة أوليوس جالوس مؤلفاً من أحد عشر ألف محارب من الرومان وحلفائهم لإخضاع البدو، واجتاح الجزيرة كلّها حتّى نجران، ولم يكن لدى البدو من السلاح سوى الآلات البدائية ولكن بواديهم برمالها وسهولها وحزونها وحرّها وبردها وسهولة تنقّل أصحابها أمام جيوشه حين كانت تضطرّ إلى الفرار - كل هذه أرغمت الجيوش الرومانية على التخلّي عن البقاء طويلاً في الجزيرة والعودة في خيبة وفشل. حتى في العصر الأخير في القرن التاسع عشر حين حاول ابراهيم باشا اخضاع البادية ورجالها، دام نزاعه معهم نحو عشرين سنة دون طائل. إنّها البادية التي لم تكن تغلب.

أمّا اليوم فقد فقدت البادية سيطرتها أمام السيّارة والطائرة وزالت أهميّة البداوة من الناحيتين الحربية والسياسية اللّهم إلاّ إذا استعين بالبداة المنضمّين إلى السلطات في مختلف الأقطار العربية في تأمين طرق المواصلات بينها وفي حماية حيوانات البادية التي كادت تنقرض كالمها والغزلان وذلك بإنشاء مخافر لمجنّدين من البدو أنفسهم يتنقّلون على حدود البادية وفي قلبها منعاً للصيّادين، وحراسة للحدود التي تعارفت عليها القبائل لمراعيها وتنقّلاتها ضمن أراضيها.

أركان البداوة

وإذن فالبداوة الخالصة العريقة هي التي تعوّل على تربية الإبل وتقوم هذه البداوة على أركان أربعة رئيسيّة، إذا انهدم أحدها تزعزع بناء البداوة واختلّ نظامها. أمّا هذه الأركان فهي:

أوّلاً: بادية أو صحراء - وأنا أؤثر هنا لفظة بادية على صحراء لمجانستها لكلمة بدوي - يتردّد في أرجائها البدوي وراء الكلأ والماء.

وثانياً: إبل أي جمال[٩] ونياق ينتقل البدوي عليها هو وأهله وتحمل له خيمته وأثاثها، أو يسوقها من منتجع إلى آخر وراء الماء والكلأ، ويتغذّى بلبنها ولحمها ويستدفىء بنار رجيعها حين ينشف وييبس وهي نار القرى التي يؤمّها الضيفان.

ثالثا: بيت حيك نسيجه من شعر الماعز يستكنُّ فيه البدوي فيقيه برد الشتاء وحرُّ القيظ.

رابعاً: بدوي ترتبط حياته ارتباطاً وثيقاً بالأركان الثلاثة الأولى أي البادية والإبل والبيت ويستغلّها للانتفاع بها.

ولا يمكن أن تكون هناك حياة بدوية صحيحة دون أن تؤمّن هذه الأركان الأربعة معاً. وهناك من يزعم أنه كان يمكن أن يستغني عن الجمل ويستعان بالحمار. ولكنّ البدو الخلّص في بادية الشام يعيشون في الغالب على حليب النياق، فهو قوتهم الأساسي، والجمل فوق ذلك أصبر على العطش في البادية من الحمار وأسهل تنقّلاً في الأرض الرمليّة منه. وإن يكن الحمار اشتهر عند العرب بصبره وتحمّله للشدائد. إن هذه الأركان الأربعة الرئيسيّة هي التي يقوم عليها بناء البداوة. ومن هنا فقد رأيت أن أجعل بحثي في هذا الكتاب يدور على هذه الأركان فأتناولها واحداً واحداً.

الحواشي:

(١) لقد أصاب جلوب باشا في كتابه Peace in the Holy Land (London, 1971), p 23 في تخطئة الكثيرين من المؤرخين المعاصرين ومفسري الكتاب المقدس حين يرون أن أعز أمنية بنفس كل بدوي هي الحصول على قطعة أرض يستقر فيها. إذ هذا كل الخطأ لأن البداوة منهج عميق الجذور في حياة هؤلاء الناس حتى في وقتنا الحالي فقد حاولت كثير من الحكومات تحضير البدو ولكنها جوبهت بصد عنيف.

(٢) مقدّمة ابن خلدون، بيروت، د. ت، ص ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٤) سورة التوبة (٩)، الآيات ٩٧ - ٩٨، ١٠١؛ وسورة الفتح (٤٨)، الآيتان ١١ - ١٢.

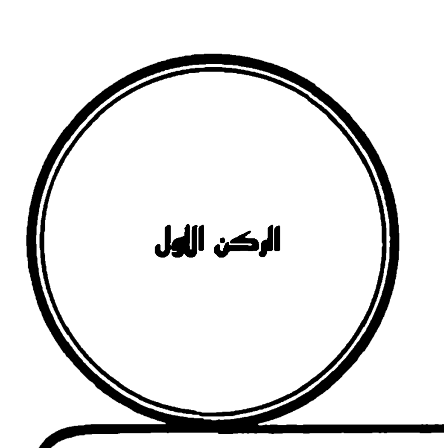
(٥) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، ٩ أجزاء، تحقيق أدوارد سخو(Edward Sachau) وزملائه، ليدن ولندن ١٩٠٤ - ١٩٤٠، ج ٣، ق ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٦. وانظر أيضاً البيان والتبيين للجاحظ، ٣ أجزاء، تحقيق حسن السندوبي، القاهرة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢، ٢: ٣٥.

(٦) من سجلات المستشفى الخطّية في البنك - محافظة دمشق، سورية للسنوات ١٩٥٣ - ١٩٥٥ وذلك حين كان تحت إدارة الارسالية الدنمركية.

(٧) لقد ظهر لي بشكل واضح من تقارير القناصل الانكليز لسفيرهم في الأستانة ولوزارة الخارجية في لندن أن همّهم الأول في منتصف القرن التاسع عشر من أمور البدو هو أوّلاً تحقيق الأمن في البوادي العربية محافظة على الخط التجاري إلى الهند وثانياً تيسير شراء الأصواف على التّجار الوطنيين وهؤلاء يبيعونها من سماسرة لتجار الجوخ في بريطانيا، وتيسير شراء الخيول العربية الأصيلة.

(٨) يستدّل من تقارير القناصل أنّ الخيل كانت كثيرة عند البدو في القرن التاسع عشر فهي أهمّ وسيلة تساعدهم على الغزو والنهب وعلى اللُحاق بمن يغزوهم أو ينهبهم لتخليص ما يمكن أن يكون سلبهم من إبل أو أغنام. وكانت قوى البدو تقاس بالأكثر بعدد فرسانها. وكان عدد الخيل عند بعض القبائل كما جاء في بعض هذه التقارير لا يقل عن ٥٠٠ رأس.

(٩) «جمال» جمع «جمل» ولفظة جمل تفيد الذكر من هذا النوع من الحيوان - وقد تطلق شذوذاً على الأنثى، وقد ورد شربت لبن جملي (محيط المحيط مادة جمل) وسيلاحظ القارىء اطلاقها في بعض المواضع من هذا الكتاب على الجنس بوجه عام، ومثلها جمعها «جمال» مع أن الجمال هي في الأصل للذكور فقط والنياق للإناث. أمّا لفظة إبل فهي اسم جمع لا واحد له من لفظه ويجيء بمعنى اسم جنس.



البادية

إِحـدى بُنَيّاتِ عَمّي دُونَ مَنْـزِلِـها   أَرْضٌ بِقِيعـانِها القَيْصُـومُ والشِّيـحُ

عمر ابن أبي ربيعة

الفصل الأول

موطن البداوة



الدوّ وهو جزء من البادية السورية ترعى فيه فرس مقيدة ومهرتها معها

تحديد معنى البادية وصفتها

لا أظنّ المعاجم العربيّة تنفعنا كثيراً في تحديد معنى البادية للتمييز بينها وبين الصحراء كما ذكرنا قبلاً. ففي لسان العرب تحت بدا: «قيل للبادية بادية لبروزها وظهورها. وقيل للبريّة بادية لأنّها ظاهرة بارزة». وتحت صحر: «يقال أصحر المكان

اتّسـع، وأصحر القـوم إذا برزوا إلى فضـاء لا يـواريهم شيء. والصحـراء من الأرض المستوية في لـين وغلظ دون القفّ» (أي ما ارتفـع من الأرض) «وإذا خرج النـاس من الحضر إلى المـراعي في الصحارى قيـل بدوا». يتبيَّن من هذا أن لا كبير اختـلاف بـين اللفظين بل أن بعض المعاجم لا تشير إلى أيّ اختلاف فنجد فيها «البادية هي الصحراء والصحراء هي البادية»[1].

وحين تذكر واحدة من هاتين الكلمتين يتبادر إلى ذهن السامع العـربي متّسع من الأراضي القاحلة المقفرة تتقلّب رمالها تحت حـرارة الشمس المحرقـة فتؤلّف أمواجـاً أو كُثباناً تمتدّ على مئات الأميال. وهناك بالفعل صحارى واسعـة في الجزيـرة العربيـة وفي افريقيا وغيرهما ليس فيها إلاّ ما ندر من آثار الحياة. ولم يصل إلى مجاهلها إلاّ بعض البداة الذين قضت ظروف الحياة عليهم أن يعيشوا فيها، وبعض الروّاد المغامرين. وهناك من ناحية أخرى بَوَادٍ لم تخل من الرمال والكثبان ولكنّها ليست مقفرة من البشر والحيوان ولا هي قاحلة بل فيها نبات وأشجار، وفي ضفافها واحات فيها من الخضرة والحياة ما يبهر الإنسان.

وقد راق كثيراً من الناس الذين يطلبون العلم، أو يحبّون المغامـرات، ما في بعض هذه البوادي والصحارى من إغراءات ومفاتن تستهوي الروّاد من أمثالهم والمتخصّصين في علم البشر والبوادي والحيوان والنبات، فغامـروا وخاطـروا بحياتهم، ورادوا مجـاهل الكثير منها، فهلك منهم من هلك ونجا منهم من نجا. فدوّنت المذكرات وكتبت الكتب بحيث أصبح من العسير أن يلمّ الباحث اليوم بجميع ما كتب في القرنين الأخيرين عن بعض البوادي الخاصّة وعن الحياة فيها.

وأصبحت البوادي أو الصحارى اليوم محطّ أنظار العالم لغناهـا أولاً بمادّة النفط أو الزيت ومشتقّاتـه، ولاتساع رقعتهـا التي تبلغ بحسب بعض الإحصاءات العلميـة نحو ثمانية ملايين ميل مربع، أي نحو سبع مساحة اليابسـة على سـطح الكرة. فـإذا أمكن استصلاح بعضها أسكنت مئات الملايين من البشر الذين ستضيق الأرض بهم بعد قليل من السنين، ولاسيّما حين يصبح باستطاعـة الإنسان أن يستخـرج المياه الحلوة من ميـاه البحار المالحة، وتحويل بعض مياه البحار القريبة من البوادي إلى مياه عذبة ترويها. ومن الممتع أن نلاحظ أنّ أكثر البوادي الكبرى تقع على شواطىء البحار كما نرى في صحراء شمـال أفريقيـا والربـع الخـالي والـدهناء وصحـراء أوستراليـا. ومن الغـريب أنّ أكـثر الصحارى على سطح الأرض لا تقع على خطّ الاستواء بل إلى شماله وجنوبه على خطّي

السرطان والجدي وما وراءهما إن جاز هذا التعبير. وأكثر هذه الصحارى هي في الدول العربية.

وأعود إلى كلمتي بادية وصحراء فأشير إلى أنّي سأخرج عن التحديد المعجمي في هذا البحث، وأقصر استعمال كلمة البادية على البراري التي ليست كلها رمليّة والتي تصلح تربتها في كثير من بقاعها لإنماء النبات لو يسّرت لها المياه. وأقصر الصحراء على البراري الرملية الغنيّة بالكثبان التي يندر أن ينمو العشب فيها، وإذا وجد شيء من النبات فهو من الشجر الشائك الذي يعيش في السهوب والمنحدرات. ومن هنا فالبادية بحسب هذا الاصطلاح الجديد هي السهول أو السهوب المستوية المتّسعة اللّينة التربة، وقد تتخلّلها بعض الهضاب والآكام، ويخالط التربة فيها أحياناً بعض الرمال بحيث تغطّي أديمها. وليس في مثل هذه الأرض أنهار جارية ولا خضرة ممتدّة واسعة، ولا أثر للحضر والعمران من مدن وقرى سوى ما نجد في واحاتها المنعزلة هنا وهناك. ولكن هذا لا يمنع أن يكون في أرض البادية هذه نفسها تربة طيّبة ينبت فيها الشجر بحيث يعلو ويصبح ملجأ يستظلّ به بعض الحيوان، وينمو فيه النبت فإذا به في بعض الفصول كلأ صالح يعيش عليه الجمل وكثير غيره من الحيوان، ولاسيّما البرّي منه، كالمها والنعام والغزلان والفراء. بل أن بعض النباتات تنمو حتّى في الأراضي الرمليّة في البوادي ومنها ما يعلو كالشجيرات الصغيرة.

وقد ذكر الميجر جارفز في كتابه «الصحارى الثلاث»[٢] أنه كان يملك قرب جنينة بيته في العريش ثلاثة أفدنة من الأرض الرمليّة الصحراوية، وقد صوّنها بسور، وحماها مدّة أربع عشرة سنة من الماعز والجمال، فانتشر على أديم تلك الأرض مجموعة من الشجيرات البريّة طول بعضها نحو ثمانية أقدام وقطرها نحو عشرين ، وأصبح التراب تحتها وبين شجيراتها مكسوّاً بطبقة من الأوراق المهترئة بحيث أصبح الرمل ثابتاً في الأرض لا تحرّكه أشدّ العواصف، ثم قال: «ومن هنا يستطيع المرء أن يتصوّر كيف كانت بريّة سيناء قبل أن تطأها القبائل العربية بمواشيها». ثم يقول: «وليس من شكّ في أنّ امتداد كثبان الرمل نحو ميل في عرض ١٢٠ ميلاً مدّة بقائي في شبة الجزيرة العربية مردّه إلى ذلك الحيوان اللّعين «العنز»، يساعدها رفيقها البطّاش «الجمل» بالتواطؤ مع صاحبها البدوي».

ومن الطبيعي المألوف في البادية أن يندر المطر فلا يقع إلاّ في بعض الأيّام في فصول السنة وذلك في فصل الشتاء. ولكنّ ذلك لا يمنع أن يروي هذا القليل الساقط من المطر ما ظهر من نبت أو شجر، أو ينمي ما انتثر في ترابها من بذور فترى الخضرة منتشرة مشرقة

السناء على أديم تلك التربة اللّينة. بل ليس غريباً أن يكوّن ما يسيل من ذلك المطر سيولاً تجري في مجاريها، ثمّ تخلّف وراءها في المنعرجات والمنخفضات ببطون الأودية بعض الغدران من الماء. أو تفيض السيول إلى منبطحات واسعة محجوزة في بعض بقاعها تتجمّع فيها المياه في ما يسمّونه بالخبرات فينزل البدو حول هذه الخبرات وتلك الغدران يستقون منها هم وإبلهم وما يقتنون من حيوان.

والهواء في البادية جاف في النهار ناشف حارّ، تتدنّى رطوبته أحياناً فتصل إلى نحو سبعة بالمئة، ثمّ ترتفع النسبة في اللّيل فيتقطّر البخار ندًى تراه بعد الفجر وقد بلّل الأرض وأحيى العشب بحيث تكاد الحشائش أن تروي عطشها من الندى المتجمّع على أوراقها، وبحيث تعمد بعض النساء فيجمعن من خميلة العشب في فصل الربيع ماء الندى في أسقيتهنّ، وقد تستغني الماشية التي ترعى العشب عن ورود الماء ولو إلى حين كما سنرى حين نعرض لحيوانات البادية وطيورها. وزعم بعض الباحثين في أمر هذا الندى المتقطّر على أديم الأرض وأوراق النبات أنّه يبلغ في بعض البوادي ما يقرب من هطول خمسة وعشرين سنتمتراً من الماء في السنة[٣].

والحرارة في البادية شديدة ترتفع درجتها أحياناً في الصيف إلى ما فوق الخمسين في الظلّ بمقياس سنتيغراد، وتهبط ليلاً إلى نحو العشرين، بحيث فرض هذا الجفاف في الهواء، وهذا الارتفاع والاضطراب في الحرارة في فصل الصيف، على الشجر والنبت أن يكون من أنواعٍ خاصّة شوكيّة أو شبة شوكيّة (إذا جازت لي هذه التسمية) ليس لأوراقها كبير سطح يتبخّر منه الماء عند اشتداد الحرّ في الربيع والصيف. وفرض على الحيوان أن يكون من أنواع خاصّة تستطيع أن تعيش على هذا النبت أخضره ويابسه، وأن تصبر عن الماء وقتاً أطول ممّا يحتمله غيرها من الحيوان.

وفرضت هذه الطبيعة القاسية في البادية على الحيوان أو الطير الذي يعيش في كنفها أن يتطوّر ويكيّف نفسه مع الزمن الطويل حتّى من حيث لون جلده أو ريشه ليصبح بلون التربة التي تحيط به فيخفى الضعيف عن القوي حفاظاً على الجنس أو حرصاً على بقاء النوعِ فلون الظبية ولون القطاة ولون النعامة مثلاً كلون التراب الذي في البادية حماية لها. حتّى الحيوانات المفترسة التي تهلك في البادية إذا لم يتيسّر لها طعامها، فقد تطوّرت ألوانها لتمكينها من افتراس ما يكفل لها البقاء واستمرار العيش في البوادي.

وبرغم طبيعة البادية القاسية وشقاء العيش فيها، فإنّ مناخها بوجه عامّ صحّي. روى المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة، ١٣٢٤)،

١ : ٧٩ قال: «وقد روى عمر ابن الخطّاب (رض). انه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكّانها فقال: إن الله تعالى لمّا خلق الأشياء جعل كلّ شيء لشيء فقال العقل: أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر فقال الذلّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت الصحّة: وأنا معك». وكان الخلفاء في العصر الأموي إذا ظهر وباء في المدينة يرسلون بأبنائهم إلى البادية. وهكذا فقد اضطرّ البدوي نفسه بحكم هذه الطبيعة القاسية في البادية إلى أن يكيّف حياته بحيث تتفق مع ما يحيط بها فأثرت هذه البادية في عاداته وأخلاقه كما سنرى حين نعرض لأمره في هذا الكتاب.

بوادي الجزيرة العربية وصحاراها

لقد حُقّق للبدوي في الجزيرة العربية بواد كثيرة اقترنت حياته بها وعرف اسمه منها. ولعلّ الأولى أن نطلق على بعضها كما أسلفنا اسم صحارى. أكبرها الربع الخالي، وهو الصحراء المعروفة في جنوبي الجزيرة ممّا يلي عُمان شرقاً حتى حدود اليمن غرباً ونجد شمالاً. وتبلغ مساحتها نحو ضعفي مساحة فرنسا كلّها. ولا يزال الكثير من بقاعها مجهولاً برغم ما كتبه عنها الروّاد الأجانب، وبنوع خاص برترام توماس وسنت جون فلبي وولفرد ثيسجر(*). وهي تتّصل شمالاً بالدهناء، الصحراء الثانية التي تقع غربي منطقة الاحساء موازية لها وللخليج العربي، وتصل بين الربع الخالي وصحراء النفود. وبعض الجغرافيين يحسب الدهناء جزءاً من الربع الخالي. والثالثة هي صحراء النفود الواقعة شمالي الحجاز حتّى خليج العقبة. وفي هذه الصحارى في المملكة السعودية وحدها من الرمال كما قدّره بعضهم ما يكفي لأن يلفّ حول الكرة الأرضية بكاملها بعرض تسعة أمتار وعمق متر. ثمّ صحراء سيناء إلى شمالي العقبة، وأخيراً الصحراء الشمالية أو بادية الشام على التغليب وهي ليست كالصحارى الأربع الأولى برغم ما فيها من بقاع رملية متّسعة هنا وهناك. ولكنها ذات تربة جيّدة في كثير من أجزائها. وينبت فيها من أنواع الكلأ أكثر ممّا ينبت بالصحارى الأخرى، فهي فردوس البداوة مناخاً وكلأً، وتمتدّ بشكل مثلّث كبير زاوية في قاعدته فوق مدينة البصرة على الخليج العربي في العراق، وزاوية تقابلها فوق خليج العقبة على البحر الأحمر يصل بينهما خطّ وهميّ يقطع

(*) وقديماً جاء في وصف هولها ما قاله الشاعر المرار ابن سعيد الفقعسي:

كأنَّ قلوب أدِلاَّئِهَا مُعَلَّقَةٌ بقُرُون الظِّبَاءِ

(انظر متخير الألفاظ لأحمد ابن فارس، حققه هلال ناجي، بغداد ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠، ص ١٤٤ وفيه تقول العرب للشيء لا يستقر: هو على رجل طائر وبين مخالب طائر وعلى قرن ظبي).

العراق والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية، وزاوية ثالثة كبيرة (بشكل قنطرة) غربي تدمر في سوريا وقرب حدود الفرات في الجزيرة الشامية، والأولى أن تسمّى هذه الصحراء بادية كما أسلفنا تمييزاً لها عن بقيّة الصحارى التي ذكرنا. وهي بدورها مقسّمة بعرف العرب إلى بواد ثلاث: بادية الشام في سوريه الجنوبية، وبادية الجزيرة الشامية مما يلي تركيا في سوريا الشمالية. وبادية العراق في جنوبي العراق وغربيه. والأمطار في هذه البوادي الثلاث قليلة لا يتجاوز المعدّل السنوي فيها بضعة سنتيمترات، وهي أغزر في الشمال منها في الجنوب، ولا تسقط إلاّ في الشتاء، وقد يسقط بعضها أحياناً في الخريف أو في أوائل الربيع. أمّا الرياح التي تساعد على الأمطار فهي الرياح الشرقية الجنوبية والغربية الجنوبية، فإذا تحوّلت الريح إلى شمالية انقشعت الغيوم وانقطع المطر.

وكلّ هذه البوادي شديدة الحرّ في الصيف تبلغ الحرارة فيها أحياناً حدود الخمسين درجة بمقياس سنتيغراد، وباردة في الشتاء تنزل الحرارة فيها إلى حدود الصفر[٤] لاسيّما في الشمال حيث ينزل الثلج ويغطي أديم قسم منها في بعض السنين. وقد ذكر موزل أنه شاهد الثلج يسقط في البادية في أوّل كانون الأول[٥] وقد عرفت من اختباراتي أنّ الثلج أهلك في إحدى سني الستينات من هذا القرن كثيراً من الماشية التي كانت بعيدة عن مضارب أصحابها. وتتفاوت الحرارة في الفصل الواحد بين اللّيل والنهار لاسيّما في الربيع بحيث يبلغ الفرق نحو ثلاثين درجة. أمّا الليالي في الصيف فمعتدلة الحرارة ومنعشة الهواء.

وقد تهبّ في فصل الصيف وأواخر الربيع في بعض هذه البوادي عواصف واعصار تذري هباء يكاد يعمي الأبصار، وتكون أحياناً زوابع لولبية ترتفع عموداً من الأرض إلى علوّ شاهق يجري بسرعة وهو يلفّ بثناياه ما يكنسه من الأرض من أعشاب وتراب. وقد شاهدت بالفعل كثيراً منها ولكنّها لم تكن بمثل تلك القوّة التي وصفها الاستاذ وصفي زكريا أبلغ وصف حيث قال:

«أما الأعصار والزوابع الرملية التي تثور في البادية بين السماء والأرض وتستدير كأنّها عمود شاهق الارتفاع وتهيج الغبار والتراب فهي حقّاً ظاهرة جوّية مزعجة ومن أروع مشاهد الطبيعة التي تقض المضاجع. تراها مقبلة من جوف الصحراء أو قلب البوادي وتكاد تشبه بادىء ذي بدء الخطّ المرسوم في الأفق، ثمّ ترتفع في الجو وتتضخّم، ويشتدّ دفعها فتعصف ما مرّت به من تراب وغبار، وتديره في الأرض

وتصعده في الهواء، وتلتوي في هبوبها فتحمل حلزونات عظيمة تختلف ألوانها حسب لون التراب والبقاع التي صدرت عنها. وهي تحصبها وترفعها من عشرات الكيلومترات. وتظهر كأنّها الجدار السامي إلى عنان السماء، تعلو وتتحرّك وتتقدّم وبعد برهة وفجأة تكتنفك وتغرقك في سحابة سوداء، حمراء قتماء مكفهرّة مضيئة لا حيلة لك وأنت في ذلك العراء أن تتجنّب هولها وويلها. وتسمع وقتئذ خشخشة حبّات الرمل وصدى احتكاكها باستمرار وهياج. وتبصر ذرّات التراب الناعمة يناطح بعضها بعضاً ويموج، وتلطم هذه الحبّات والذرّات الوجوه لطم السياط، وتجفّف الحلوق وتزهق النفوس، ويعمي الغبار المتصاعد العيون، وتهيم الحيوانات على وجهها»... ثم يقول «ومن أقام في دير الزور وأمثالها من بلدان الفرات يعرف قدر هذه الزوابع والعواصف بعلائمها وأفاعيلها»[٦].

وأذكر أنّي أقلعت مرّة بالطائرة من بغداد وكانت تغمرها عاصفة رملية حجبت المدينة عن أنظارنا فلم نَرَ سوى سحابة من الرمال. وقد زعم د. ج هوجارت أن البادية امتدّت إلى العمران حتّى إنها تلحس أسوار بغداد نفسها[٧].

أمّا البادية الشامية فهي كما ذكرت أخصب البوادي أرضاً وأغناها نبتاً وأفضلها مناخاً وأكثرها أهلاً. وفيها واحات كثيرة في الشمال حيث تتّصل بأراضي الهلال الخصيب العامرة، وقرى تعرف بقرى المناظر. وقد كانت هذه الواحات قرى عامرة أو مدناً صغيرة زال بعضها واندثرت معالمه ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم كالقريتين التي كان يسكنها في مطلع هذا القرن نحو أربعة الآف نفس وفيها اليوم ما يقرب من عشرين ألف نفس وكالسخنة وأرك. ومنها ما ازدهر في قديم الزمن بحيث أصبح عاصمة لمملكة عظيمة كالبتراء في عهد الأنباط، وتدمر في عهد أذينة وزنوبيا، ولولا هذا النزاع المستمرّ بين البداوة والحضارة، وعبث البداة المستمرّ في القرون السالفة، وتهديدهم للأمن والاستقرار، ونهبهم للمزارع والقرى وافقار أهلها وتهجيرهم لكان نشأ في قسم كبير من هذه البادية عمران زراعي شبيه ببعض عمران الهلال الخصيب نفسه. وقد استغلّ الرومان بالفعل أقساماً من هذه البادية في سبيل امبراطوريّتهم ومجدها، وجاراهم بذلك خلفاء بني أميّة في الشام ولا تزال آثار منشآتهم ماثلة للعيان إلى اليوم.

فهنا طريق روماني ـ ستراتا = صراط ـ يصل بين خان الشامات والرصافة ويعرف اليوم بطريق الرصيف، ولا تزال بعض حجارته المرصوفة ظاهرة في مواضع كثيرة وتمتدّ

إلى مسافات طويلة. وهذا طريق آخر يصل بين دمشق وتدمر بني في عهد ديوكليشيان. وهذا طريق آخر يقطع خطّ الأنابيب شمالي بلدة الغنثر بين محطتي الفرقلس وتيفور (T 4). وهناك سدّ روماني يبعد عن القريتين شرقاً نحو ستّين كيلومتراً يصل بين جبلي الباردة والنقنقيّة، وكان يحجز الماء المتحدر منها ومن الهضاب وراءهما وهو يرتفع نحو ١٨ متراً عن الأرض بعرض ١٨,٥ متراً عند قاعدته في أسفل الوادي بعرض نحو سبعة أمتار في أعلاه بحيث يمكن أن تسير سيّارتان على سطحة، ويمتدّ على طول نحو ٣٢٠ متراً بين الجبلين بحيث كان يحبس المياه السائلة من الجبال والسهول فتبلغ اذا امتلأت البحيرة ملايين الأمتار المكعّبة[٨] لا مئة وأربعين ألف متر مكعب فقط كما ذكر أحمد وصفي زكريا ص ٦٥ ، وكان يستعان بهذه المياه في الربيع والصيف والخريف لإرواء الأراضي والبساتين التي استقرّت تحته في الدوّ الفسيح قرب قصر الحير الغربي. ولا تزال آثار الأقنية ظاهرة إلى اليوم. وهناك آثار أقنية أخرى في مواضع أخرى، زعموا أنّ بعضها كان يتّصل بنهر العاصي، ويتجّه إلى إرواء بعض المناطق في القفر الشرقي. بل ليس غريباً أن يكون بعض القدماء قد سكنوا واستقرّوا ببعض أجزاء هذه البادية الشاميّة. ومنهم من حفروا تلك الحفر في قلب المنخفضات (الخبرات) التي نراها اليوم في البادية حيث تتجمّع مياه الأمطار والسيول ويقصدها البدو لسقي الماشية في الأشهر التي تنقطع فيها الأمطار آخر الربيع.

وتشمل هذه البادية الشامية الواسعة أقساماً مختلفة في تربتها ومناخها وطبيعتها. وليس هنا مجال التفصيل في جغرافيتها وذكر خصائص كلّ قسم منها وقد سبق الرائد الأستاذ الوس موزل ففصّل ذاك في كتبه المختلفة عنها، ولم يفته أن يسجّل حتّى الحرارة في أكثر الأيّام التي قضاها في ربوعها أيّام الصيف والشتاء. وكذلك عرض لوصفها بوجه عام الأستاذ وصفي زكريا في كتابه عن عشائر الشام. ولكنيّ لا أرى بدّاً من الاشارة هنا ولو بصورة عجلى، إلى أنّ الجزيرة الفراتية الواقعة إلى ضفّة الفرات اليسرى شرقي حلب، وقد كانت جزءاً هاماً من هذه البادية، وظلّت إلى عهد قريب مسرحاً للبدو وميداناً للمغازي، وكانت القبائل المختلفة من عنزة وشمر وغيرهما تتنازع في أرضها بحيث أقفرت أو كادت من سكّانها في العهود القديمة، أن هذه الجزيرة الفراتية أخذت اليوم تنشىء الزراعات الحديثة وتنتج أغنى المحاصيل التي جعلت سوريا في مقدّمة الدول المنتجة للحبوب في الشرق العربي. وكذلك قل عن منطقة المناظر حول الواحات الشرقية ـ أرك والسخنة وتدمر والقريتين ـ فقد أخذ القرويون يوسّعون زراعاتهم في مفاوضات الأودية ومسيل السيول وأخذت تظهر بعض المنشآت الصناعية للدولة كاستخراج

الفوسفات من الجبال الشرقية المشرفة على البادية قرب عين الباردة، وينشأ قربها مزارع وقرى.

ومن أقسام هذه البادية الرئيسية وادي سرحان الممتدّ حتّى بلدة الجوف في السعودية، والحماد وهو قلب هذه البادية ومنتجع القبائل في فصل الشتاء، فتراهم يؤمّونه من جميع أطرافها التي ذكرنا، ثمّ يرجعون منه في الصيف حين تنقطع الأمطار وتجفّ الخبرات وتأتي المواشي على ما في بعض بقاعه من نبات.

وتربة البادية الشاميّة في الأغلب كلسيّة تصلح لنمو الأعشاب والأشجار برغم ما يمازج بعضها من رمل في بعض البقاع. وقد رأيت بالفعل في بعض أرجائها أنواعاً من الزهر في فصل الربيع ما كنت أظنّ قبل تردّدي إلى البادية أن أرى مثلها في تلك الأرض، وشاهدت نباتاً في الدوّ الذي تنحدر اليه مياه السيول من الجبال المشرفة على البادية في فصل الربيع في قدر المتر ارتفاعاً ولا سيّما في البطاح التي كثر فيها السماد الذي جرفته السيول. وفي سفوح بعض هذه المرتفعات كجبل غطّوس وجبل كحلة وجبل الطوال وجبل خنيزير وجبل قناص وعين الوعول أنواع من الزهر كثيرة منها ضرب من السوسن يزعم بعض علماء النبات أن ليس مثله في أي بقعة أخرى في العالم. ولم يفت بعض الروّاد من الافرنج الذين زاروا تلك البقاع أن يشيروا إلى كثرة أنواع النباتات فيها وأن يدوّنوا أسماءها في مؤلّفاتهم وقد استندت إلى نفر منهم في وضع جدول بأسماء ما أمكنني ذكره منها. وهناك من اكتشف أنواعاً لم تعرف عند علماء الغرب فسمّاها بأسماء جديدة.

وكان الدكتور جورج بوست، أحد أساتذة الكلّية السورية الانجيلية في بيروت ـ المعروفة اليوم بالجامعة الأميركية في بيروت ـ قد وضع في أواخر القرن الماضي كتاباً في مجلّدين عن نبات سورية وفلسطين وسيناء، نقّحة وجدّد طبعه الأستاذ جون ديمور سنة ١٩٣٢ فيه نحو أربعة آلاف ومئتي نوع من النباتات من نحو ألف فصيلة. منها كثير ذكر المؤلّف أنّها توجد في البادية الشامية، ناهيك ما ذكره بعدهما كثير من الروّاد والعلماء عن النباتات والزهور التي تنمو في هذه البادية. وقد شاهدت بنفسي نوعاً من الخزامى شبيهاً بما نسمّيه اللاونده في لبنان، وشاهدت شقائق النعمان منتشرة في بعض البقاع كبساط احمر، بل أن في بعض الهضاب التي تشرف على البادية وتتّصل بها قرب تدمر حرجاً من شجر البطم في جبل البلعاس لا تزال بعض أشجاره نامية حتّى اليوم برغم ما اقتطعه منه البدو والحضر في القرون الأخيرة.

وهناك مواضع في أطراف هذه البادية يستدلّ من أسمائها اليوم على أنّها كانت



سد خربقة

أرض البحيرة حين سُدّت منافذ السد وامتلأت البحيرة بالتراب المترسب من المياه



البحيرة وقد زرعت قطناً بعد أن امتلأت أرضها بالتراب

منابت لكثير من الأشجار، فالبطميّات والخضريّات ووادي التين كلّها تشير إلى وجود شجر فيها قبل هذا الزمن ـ وهناك من يزعم أن الكمأة التي تنمو بعد مطر الخريف في بادية الشام لا تظهر إلاّ في أرض كانت مشجّرة في قديم الزمن، وهي الآن تعيش طفيليّة على بقايا جذور الأشجار المفتّتة المنحلّة.

وقد قضى على عمران البادية الشامية فيما نرى ما عانته من نكبات وويلات في حروب الفرس والروم، وما تلاها من هجمات البدو على حدود العمران في العهود اللاّحقة حين لم يكن باستطاعة السلطة الحاكمة أيّاً كانت ردّهم أو ردعهم فاستباحوا هذه الأماكن البعيدة عن العواصم والثغور والمدن الكبرى واكتسحوها بحيث لم يبق منها اليوم سوى أسماء لغير مسمّيات. فهذه قرية البصيري التي يزعم الوس موزل[٩] أنها دنابى في الكتب العربية القديمة، والتي يحدّثك عنها وعن زراعتها منذ مئة سنة فقط بعض أهالي القرى الداخلية، قد زالت من الوجود، ولم يبق منها اليوم سوى آثار كنيسة قديمة أصبحت كالطلل الدارس، وبئر ماء. وقد ذُكر لي اسم رجل من آل حبيب حنّه كانت له زراعة فيها وأذكر أنّي أدركته وأنا صبيّ. وكذلك قل في البخراء[١٠] قرب تدمر[١١] التي كانت عامرة حين لجأ إليها الوليد ابن يزيد وقتل فيها فإنّها اليوم خربة خالية. وهناك الجباة والكمكوم وحمّامات الحمّى (قرب الغنثر)، ومئات الخرب الخاوية منتشرة في حدود البادية، كانت كلها مواطن زراعة وعمران. حتّى تدمر نفسها وهي بلدة عامرة اليوم كانت[١٢] أو كادت تكون في أواخر القرن الثامن عشر خالية من السكان. وقد كانت، وهي في قلب البادية الشاميّة، عاصمة لمملكة اتسعت رقعتها وامتدّ سلطانها بحيث اخضعت مصر وجعلتها تابعة لها. ثم أُديل من سلطان تدمر حين قهر ملكتها زنوبيا الامبراطور أورليانوس.

وتتالت الحروب بين الفرس والروم، وكانت ساحاتها في الأغلب سوريا وما يحيط بها، وغُلبت الروم ثم غُلبت الفرس والبلاد تعاني ما تعاني من نكبات الحروب وويلاتها ومن ضرائب الغالبين، حتّى كان الفتح العربي وقوي شأن البدو وصارت لهم السيطرة على البادية فزال العمران. ومع أنّ كثيراً من هذه المراكز في ضواحي البوادي قد فتحت صلحاً، وعقدت عهوداً مع الفاتحين حفاظاً على كيانها[١٣]، فإن الروح البدوية التي تمجّد الغزو والفروسية لم تكن تشجّع كثيراً الاستقرار في المزارع والاعتماد على الزراعة وما إليها من الشؤون الحضرية. زد على هذا أنّ الفتن التي نشبت في صدر الإسلام في آخر عهد عثمان ابن عفان، وبعد مقتله، واستقلال معاوية بولاية الشام، واختلاف القبائل العربية فيما بينها، وانقسامها إلى قيسيّة ويمنيّة، والحملات التي كانت تشنّها بعضها على

بعض في بوادي سوريا، والتفات السلطات الحاكمة إلى تهدئة الفتن داخل البلاد، وتمكين الفتح خارج البلاد، وحاجة الدولة إلى جنود كانوا بالأكثر من رجال القبائل العربية، ثمّ انتقال الخلافة إلى بغداد ونفوذ العناصر الفارسية في الدولة العباسية كل هذه صرفت الأنظار عن حماية أطراف البادية، فقوي سلطان البدو، ولكنّه لم يكن من القوّة بحيث يمحو معالم الحضارة في أطراف البادية طيلة عهد بني أميّة وبعض عهد بني العبّاس[١٤]. ولكن حين أخذت الدولة في التجزؤ، نسمع من المتنبّي نفسه في زمن الحمدانيين كيف طارد سيف الدولة فلول البدو الغزاة وأوقع بهم في المناطق بين الفرقلس وتدمر وعند الجفار والجباة كما سيمرّ معنا[١٥]، ومنذ ذلك العهد إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى والبدو هم أصحاب السلطان في البادية وضواحيها، يشنّون منها الغارات على القرى، وينهبون المزارع النائية، ويستبيحون طرق الحجيج، ويغزو بعضهم بعضاً كما كان شأنهم في الجاهلية كما قال شاعرهم:

«أَغَرْنَ من الضِّبابِ على حِلالٍ ... وضَبَّةَ إنَّهُ مَنْ حانَ حَانا
وأَحْياناً على بَكْرٍ أَخِينا ... إذا مَا لَمْ نَجِدْ إلَّا أَخانا»[١٦]

وهنا أخذت رقعة البادية تتّسع على حساب الأرض المعمورة[١٧]، وصارت بعض الأراضي الزراعية الصالحة جزءاً من البادية الشاميّة. ومن هنا ما يقال عن جودة المراعي فيها حتى في قلبها، فإنّه غنيّ في كثير من أجزائه بأنواع الكلأ الذي تعيش عليه الإبل والغنم. وقد قابلت في صيف سنة ١٩٥٤ بدواً من قبائل نجد أمحلت أرضهم فقصدوا الأراضي السورية منتجعين يطلبون الكلأ والماء. وسمحت لهم الحكومة السوريّة فقضوا في أراضيها نحو شهرين.

ومع أن رقعة البادية السوريّة تختلف في بعض أجزائها عمّا هي في البعض الآخر، فإنّها بوجه عام ذات تربة جيّدة، لا سيّما في المناطق البركانية حول حوران، وفي ضواحي القريتين وتدمر والجزيرة الشامية وفي قلب الحماد. وقد شهدت مفاضات للسيول يستغلّها بعض الأهلين في الزراعة فتغلّ لهم أحسن ممّا تغلّ أيّ أرض من أراضي السقي في أجود البقاع الزراعية. وقد تردّدت إلى بعض أطراف البادية في الربيع في بعض سني الخير فكان العشب في بعض المفاضات إلى ركب الخيل. وكان يمكن في مثل هذه السنين الخيّرة أن يعمد أصحاب الأغنام إلى جمّه وخزنه في مخازن في البادية تنشئها الدولة لسني المحل ـ ولا أظنّ المياه معدومة في جوف الأرض لو نقّب الخبراء عنها، بل أكاد أقطع نظراً لانحدار البادية نحو الشرق والجنوب أنه من السهل ايجاد المياه ارتوازياً كما تمّ بالفعل في مواضع كثيرة.

أمّا قلب البادية السوريّة فهو على جودة تربته في كثير من البقاع لمن أجفّ البوادي وأقلّها ماء في الصيف. ومن هنا فإنّه يصعب جدّاً بل يكاد يستحيل على أيّ قبيلة أن تظلّ في جوف البادية في الصيف كلّه، حتىّ بعض الحيوانات البريّة في قلب البادية فإنّها تضطرّ إلى الهجرة إلى أراضي المعمورة أو على الأقلّ إلى أطرافها كما ذكرنا.

الحواشي :

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، ١٥ مجلداً، بيروت، ١٣٧٤ - ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٥ - ١٩٥٦، تحت مادتي «بدو» و «صحر».

(٢) C.S.Jarvis, **Three Deserts**, cheap ed. (London, 1941), pp. 152 - 53.

(٣) A. Starker Leopold, **The Desert** (New York, 1961), p. 102.

(٤) يزعم دكسن أنّ الحرارة تبلغ في بادية الكويت ١٧٠ درجة فارنهيت أي فوق ٧٦ درجة سنتيغراد (ص ٣٥٨) وفي الظل ١٢٠ أي نحو ٤٩ سنتيغراد (ص ٢٥٨).

(٥) Alois Musil, **In The Arabian Desert** (New York, 1931), p. 20.

(٦) عشائر الشام، ١ : ٣١ - ٣٢. وقد حدث أن عاصفة من هذا النوع أسقطت طائرة داكوتا سورية جنوبي حلب وفيها نحو ١٢ راكباً في منتصف هذا القرن هلكوا جيعاً وكان منهم شاب ابن صديق لي من بلدة النبك.

(٧) D.G.Hogarth, **The Nearer East** (New York, 1915), p. 260

(٨) انظر بحثاً مفصلاً عن هذا السد في كتاب :

A. Poidebard, **La Trace de Rome dans le desert de Syrie** (Paris, 1934), pp. 188 - 89.

ويملك اليوم تلك الأرض والسدّ الأمير نايف الشعلان حفيد الأمير نوري الشعلان وقد كانت حين تملّكها أرضاً خراباً تسمّى «خربقة» فقد مرّ عليها عهد سُدّت فيه منافذ السدّ فامتلأت أرض البحيرة بالتراب المتراكم المترسّب وأخذت المياه تفيض من فوق السدّ، ثمّ حدث أن حفرت فجوة في أسفل السدّ فصارت المياه تتسرّب من حائط السد وتنفذ منه وتجرف معها تدريجياً شيئاً من التراب المترسّب بحيث كونت مجرى في أسفل البحيرة المملوءة تراباً كثير التعاريج والشقوق فسمّي «خربقة» وليس هربقة كما ذكر أحمد وصفي زكريا ١ : ٦٤. واتسع المجرى من أسفل التراب المترسب إلى سطحه بحيث أصبح كواد يمتدّ من السدّ إلى مسافة نحو مئتي متر أو أكثر يحفّه من جانبيه ركام مستو من التراب بارتفاع عمق البحيرة أي ١٨ متراً كثير الشقوق والشعاب والتعاريج (مخربقاً) ومنه تسمية البدو لذلك الموضع بخربقة أي الأرض المشققة. وقد شاهدته وهو في تلك الحالة ورأيت في أسفل السدّ من الداخل نفقاً من عهد الرومان ومجرى في قاع البحيرة محكم السقف لماء عذب يجري من عين لعلها المعروفة اليوم بعين «الباردة» عند أول المزرعة. وكان الأمير نايف قد عهد إلى بعض القرويين بزرع القسم الذي لم تصل إليه الشقوق، وهو غني التربة، فجنى منه أحسن الغلال من قطن وغيره، فبدا له أن يستغلّ أيضاً القسم الذي جرف التراب منه فسدّ منفذ السدّ وبعد سنوات أخذت الأرض تمتلىء ثانية بالتراب الذي تجرفه السيول من السهول والهضاب. وقد شاهدت موضع البحيرة بعد ذاك وقد امتلأ تراباً جفّ في الصيف فتشقّق سطحه بأشكال هندسية جميلة، وارتأيت على الأمير أن يسعى مع وزارة الزراعة في سوريا لإعادة حالة السدّ والبحيرة كما كانت في عهد الرومان وعهد هشام ابن عبد الملك لريّ الأرض التي تحيط بقصر الحير الغربي الذي كشفه الأثري الفرنسي شلومبرجه وذلك بفتح منافذ كبيرة لجرف التراب المترسب كله وتنظيف البحيرة منها عند مسيل السيول ثم يعمد إلى إغلاقها ووضع منافذ محكمة فيها لجرّ المياه منها في الصيف إلى السهول الواسعة تحتها. وهو مشروع جدير باهتمام الدولة. بل هناك مجال فيما أرى لبناء سدود أخرى في مواضع بين الجبال

الشرقية في سوريا لحفظ مياه السيول في الشتاء والاستعانة بها في الصيف لري الأراضي في السهول القريبة. ومن الممتع أن نلاحظ أن القدماء، استعانوا بأمثال هذه السدود حتى في قلب الحجاز فقد ذكر توتشل أنه رأى سداً قرب الطائف لا يزال بشكل حسن وقد بني في عهد معاوية وابنه يزيد وفيه نقش كوفي تاريخ ٥٨ للهجرة. K.S. Twitchell, **Saudi Arabia** (Princeton, 1947), p. 38. ومثله فلبي ذكر وجود سدّين وصفهما وصور أحدهما في كتابه **The Land of Midian** (London, 1957), pp. 22 - 29 وقبالة ص ٢٦٢ هما سدّ حَسيد وسدّ قصر البنت بين الجبال القريبة من خيبر على بعد نحو ١٦٥ كيلومتراً من المدينة المنورة.

(٩) Alois Musil, **Palmyrena**, p. 129.

(١٠) أخطأ أكثر الرواد الفرنجة بتهجئة اسم هذه البلدة القديمة، وذلك لنقلهم اللفظ عن كلام البدو الذين يسكنون الباء ويفتحون الخاء بحيث اشتطّ بعضهم فكتبها بُخاري.

(١١) أخطأ السرجون باجوت جلوب في كتابه امبراطورية العرب، تعريب خيري حمّاد، بيروت ١٩٦٦، ص ٣٨١ - ٣٨٢، حين زعم أن الوليد ابن يزيد حوصر وقتل في إحدى قرى دمشق.

(١٢) Lady Anne Blunt, **Bedouin Tribes of the Euphrates** (New York, 1879), p. 207.

(١٣) نقل إليّ الشيخ نايف الشعلان أنهم حين كانوا يحفرون بين ركام الرَّدْم في موقع كنيسة في مزرعة البصيري في البادية عثروا على عظم كتف يكاد يتفتت وقد بقي مكتوباً فيه بعض الكلمات العربية قرىء منها اسم الخليفة عمر ابن الخطاب وكلمة عهد ولعله عهد من عمر إلى أهل بصيري المسيحيين كان محفوظاً في كنيستهم التي اندثرت حين اقفرت القرية كلها كما ذكر لي بعضهم. والعظم أعطي إلى السيد إحسان الحصني النائب في المجلس السوري سنة ١٩٥٤.

(١٤) يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، ٢٤ جزءاً، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٧٨، ١٠ : ٢١٥ - ٢١٦، كيف كانت الأعراب تقطع القوافل في البادية.

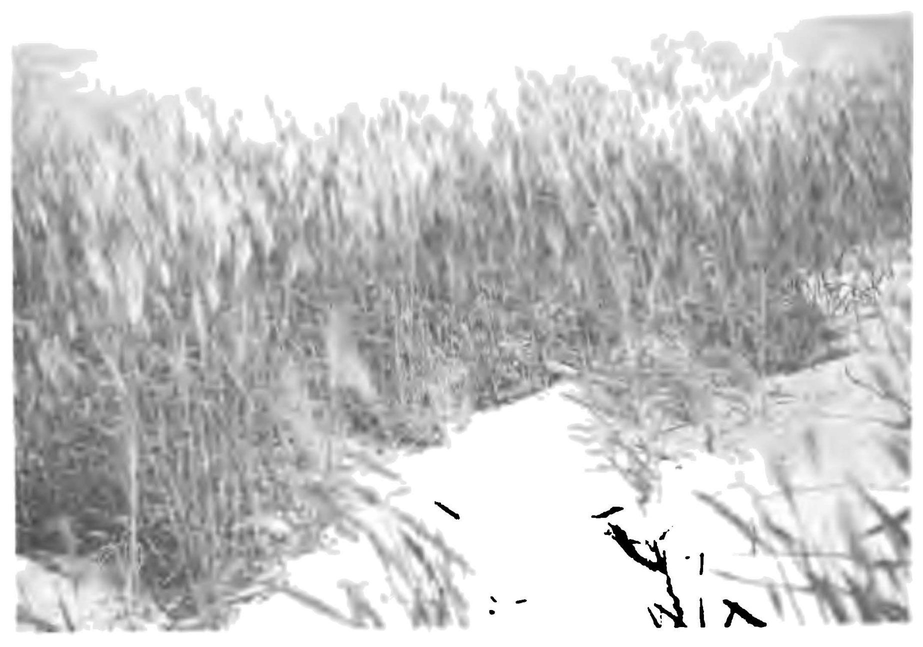
(١٥) انظر رائية المتنبّي: «طِوالُ قَنَى تُطاعِنُها قِصارُ» ص ٤١٨ من ديوانه، تحقيق ناصيف اليازجي، بيروت ١٨٨٧.

(١٦) ديوان الحماسة، ١ : ١٣٦.

(١٧) وهناك من يقول على سبيل المبالغة أن البادية ليست هي التي تنشىء البدو بل البدو هم الذين ينشئون البادية ويوسعون حدودها.

الفصل الثاني

شجر البادية ونباتها



نبات في بعض الأودية

ليس هنا مجال وضع دراسة دقيقة في مختلف النباتات والأشجار التي تعرفها البادية، ولكن الذي يهمنا في هذا البحث هو ما تعرفه منها الجزيرة العربيّة وبادية الشام بنوع خاصّ، وما له صلة منها بحياة البدوي وحياة ما يراه أو يألفه من نبات وحيوان.

الأشجار المثمرة

أمّا الأشجار المثمرة فأهمّها النخل، وهو شجر ينبت في الواحات في قلب البادية أو في قلب الصحراء الرملية وفي القرى التي تحيط بالبادية أو الصحراء. ويعدّ هذا الشجر رمزاً الآن لا للبداوة فحسب بل للعروبة بوجه عام. فهو رمز لشعار الشرف والنبالة في الجيش العراقي حيث تجد رسم أغصانه الملتفة. وهو رمز في المملكة العربية السعوديّة في كثير من مصنوعاتها ومنتوجاتها ووكالات أنبائها وهدايا ملوكها وأُمرائها. وهو جدير أن يكون كذلك لشدَة صلته بحياة العرب في الجزيرة كلّها. وقد حدّثوا عن النبي العربي انه قال: «أكرموا عمّتكم النخلة فإنّها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم»[1]. ويكاد يكون ثمر النخل «التمر» أطيب حلو في فم البدوي. وقديماً كانت أهمّ أمانيه أن يحصل على الأسودين ـ التمر والماء، ولا يكاد يخلو بيت بدوي من بعض التمر، فهو المادّة الثانية لغذائه بعد حليب نياقه ـ ويشتري البدو التمر من هذه الواحات التي أشرنا إليها، أو من القرى التي تحيط بالبادية، أو مصدَراً من العراق أو الاحساء، معبّأ في زنابيل من الخوص، أو في أوعية من الجلد، أو في مغلّفات السيلوفان، أو في علب من الكرتون كما يجري في هذاالعصر. وليس بعيداً أن تكون شجرة النخل قد نقلت إلى البادية وواحاتها المختلفة من أرض بابل حيث كانت شجرة النخل أعظم العوامل التي اجتذبت الإنسان القديم للتوطّن هناك[2]. وليس هناك بلد في العالم ينمو فيه النخل بمثل هذه الكثرة كما ينمو في الجزيرة العربية، وخاصّة في العراق حيث يوجد ما يقرب من ٣٠ مليون نخلة[3].

ويظهر أن النخل من أقدم النبات تاريخاً، وقد عثر أخيراً على بقايا متحجّرة من ورق النخيل في ولاية كولورادو من الولايات المتّحدة الأميركية يرجع عهدها فيما يزعم العلماء في المؤسسة السمشسونية إلى نحو مئة وستّين مليون سنة[4]. ولعلّ أعظم واحة للنخيل في الجزيرة العربية هي واحة الهفوف، هذا إذا لم تعتبر البصرة واحة، وتمر الهفوف المعروف بالخالصي هو أطيب تمر في عرف العرب.

ولقد كان للمكانة التي احتلتها شجرة النخيل وثمرها في الحياة العربية أن استعارت العرب كلمة النخلة لكثير من الشجر، وجعلت لثمرها كثيراً من الأسماء، فتجد في القاموس اليوم: أوّل التمر طلع، ثم خلال، ثمّ بلح، ثم بسر، ثمّ رطب، ثمّ تمر[5].

ويلي النخيل في الأهميّة عند البدوي شجر ليس صحراوياً ولكنّه ينبت في القرى

على حدود البادية وفي بعض الواحات، وهو شجر الكرم، فمنه يجنى العنب أطيب فاكهة عند البدوي. وينضج العنب في الصيف في أوائل آب في أكثر البقاع المتاخمة للبادية. ويكون البدو في مثل هذا الوقت من السنة قد جاوروا الأرض المعمورة ونزلوا قرب القرى التي تنبت فيها أشجار الكرم، فيبيعهم أصحاب الكروم من أثمارها. ولكنّ البدويّ يرغب أكثر ما يكون في الزبيب وهو العنب المجفّف بطريقة خاصّة. ثمّ في الدبس المصنوع من الزبيب، فالدبس والتمر هما الحلوى المفضّلة عند البدو. وليس هنا مجال البحث في كيف يصنع الزبيب من العنب ثمّ الدبس من الزبيب ولكن لا بدّ من أن نشير هنا إلى أنّ تجفيف العنب يجري بتغطيسه بمحلول من ماء القلو (القلي alkali) وزيت الزيتون. أمّا القلو فيستخرج من رماد نبات صحراوي حمضي هو الأشنان بعد أن يجمع هذا النبات أكواماً ويحرق وهو أخضر. فإذا نقع الرماد بالماء طويلاً معرّضاً لحرارة الشمس وصفّي الماء يضاف إليه شيء من زيت الزيتون فيصبح صالحاً لأن يغطّس به العنب للتجفيف. وبعد أن يغطس العنب بهذا المحلول يوضع على تراب خشن في العراء ليجفّ في الشمس في مدى أسبوع من الزمن.

وكذلك ينمو في القرى المجاورة للبادية وفي الواحات شجر الرمّان، وفي كثير من الأحيان يكون الرمّان محيطاً بالكرم من جهاته الأربع، ويرغب البدو في قشر الرمّان للصبغ والدباغة. ويلي الرمّان التين ويأكله البدو في موسمه في الصيف حين يجاورون الأرض المعمورة ويشترونه من أصحاب المزارع، والغالب أن تسير القرويّات إلى مضارب البدو لبيع هذه الأثمار. ولا يختزن البدو التين اليابس كما يختزنون الزبيب والتمر.

الأشجار غير المثمرة

وتوجد في البادية وواحاتها أنواع من الشجر الصحراوي الشائك الذي له أرومة، ويعلو علوّ الأشجار المثمرة الكبيرة كشجر الجوز والمشمش ويعيش سنينَ كثيرة وتسمّى أشهر طائفة بشجر «العِضاه»، ومنه فروع كثيرة لعلّ أشهرها « الأَثل»، فهو أعمّها وأكثرها انتشاراً، وينمو وارفاً في أكثر المناطق، وقد يستعين به أهل الواحات لحماية نخيلهم أو مزارعهم من أن تغمرها الرمال فينصبونه حواجز تقي مزاوعهم شرّ الرمال الزاحفة، ويجعلونه في خطوط متوازية حول المزرعة يبعد الواحد عن الآخر بضعة أمتار بحيث إذا تجاوزت الرمال الخطّ الواحد وقف الخطّ الثاني في سبيلها، وهكذا حتّى يصبح من العسير أن تتجاوز الخطّ الرابع إلاّ نادراً. والأَثل يشبه الطرفاء وله خشب تصنع قبيلة صليب وبعض العرب منه القصاع والجفان، وتسوّى من عيدانه السهامُ الصفر الجياد، ومن خشبة اتخذ منبر الرسول العربي في مسجد المدينة[٦]. ولارتفاع الأَثلة واستوائها

وحسن اعتدالها شبّة الشعراء المرأة إذا تمّ قوامها واستوى خلقها بها، قال كثيّر:

«وإنْ هِـيَ قَـامـت فَـما أَثْـلَةٌ بـعـلـيـا تُـنـاوِحُ ريحـاً أصـيـلا
بِـأحـسـنَ مِـنْـهـا وإنْ أَدْبَـرَتْ فـأرخٌ بجبَّـةَ تقْـرُو خَمِيـلا»[٧]

وحبذا لو تعمم زراعة هذا الشجر في جميع مناطق البادية حيث يمكن نموها فهي خير حاجز للرمال.

ويلي الأثل «السّدر» ، وهو من العضاه أيضاً ، وله ورق عريض مدوّر وهو نوعان: عبري وينبت على شطوط الأنهار، وضال وهو برّي. وللضال شوك وقد يعلو بحيث يستظلّ به الإنسان والحيوان، ورائحته طيّبة ويتّخذ خشبه وقوداً.

ثمّ «الأَرطَى» وهو شجر ينبت في البادية عصيّاً من أصل واحد، وله نَور مثل نور الخلاف، ورائحته طيّبة، ويعلو بحيث يلوذ به الحيوان ويستظلّ أو يحتمي من المطر والبرد. قال أبو ذؤيب في مرثاته لبنيه عن الثور الوحشي:

«وَيَلُوذُ بِـالأَرطى إذا مـا شَـفَّـهُ قَـطْرٌ وراحَتْـه بَلِيـلٌ زَعْـزَعُ»[٨]

ثمّ «الغَضَا»[٩] وهو شجر مألوف بنجد وفي صحراء النفود والدهناء والربع الخالي، صلب الجذع والأغصان بحيث يمكن أن يستخرج من عيدانه فحم كفحم السنديان. ومن هنا فهو أجود الوقود عند العرب. وقد ضرب بجمره المثل، فقيل: «أحرّ من جمر الغضا» وقد قال الشاعر:

«عـلى رُؤوسِهِم حُمّـاضُ مَحْنِيَـةٍ وفي صُدُورهِم جَمْرُ الغَضَا يَقِد»[١٠]

ومن العِضَاه «الطَّرْفَاء» وهو شجر هدبه مثل هدب الأثل، ويقال إنه أنواع وأن الأثل واحد من أنواعه، وليس له خشب، وإنّما يخرج عصياً سمحة في السماء وقد تتحمض به الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره، وزعم البعض أنه من الحمض.

ومن العِضَاه «السَّلَم» وواحدته السَّلَمة، وهي شجرة ذات شوك تدبغ الجلود بورقها وحبّها وقشرها، ويسمّى ورقها وحبّها القرظ. وقد اشتهر موضع بذي سَلَم فذكره الشيخ محمد البوصيري في قصيدته المشهورة بمدح النبي فقال:

أمن تـذكـرّ جيـران بـذي سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

لها زهرة صفراء فيها حبّة خضراء طيّبة الرائحة، وإذا دبغ الأديم بورق السلم أو بحبّها قيل فيه مقروظ، وإذا دبغ بقشر السلم فهو مسلوم. ويقال أن أصل التقريظ بمعنى

الشناء مأخوذ من دبغ الأديم، لأنّ المقرظ يزيّن نديمه كما يحسّن القارظ أديمه. وفي تاريخ الأدب العربي قصّة عن قارظ أو قارظين من قبيلة عنزة ذهبا لاجتناء القرظ فلم يعودا، فضرب بهما المثل لكلّ غائب لا يرجى إيابه فقالوا «لا آتيك» أو «يؤوب القارظ». ومنه قول أبي ذؤيب:

«وَحَتّى يَؤوبَ القارظان كلاهما ... ويُنْشَرَ في القَتْلَى كليبٌ لِوائِلِ»[11]

ويقطعه البدو حطباًويخزنونه. ومنهم من يصدّره إلى أهلِ القرى في الحواضر ويباع في الأسواق. وله شروش تنزل إلى تحت الرمال طلباً للرطوبة والماء وقد يوقف تحرك الكثبان الرملية كما يجري في أكثر الصحارى.

ومن العِضاه «الطَّلْح» وهو مألوف في بوادي الجزيرة وبالأخصّ في أرض الحجاز له شوك أحجن ضخم، طويل وورق قليل شديد الخضرة، غير أنّ ساقه طويلة وأغصانه عظيمة، وقد تكبر الساق بحيث لا تكاد تلتقي حولها يدا الرجل. تأكل الإبل من ورقه أكلاً كثيراً وتستظلّ به الإبل والوحش والناس ويستخرج منه الصمغ العربي المشهور (Gum Arabica).

ومن العِضاه «القَتَاد» وبعضهم لا يحسبه منه. وهو شجرٌ شاكٍ صلب ينبت بنجد وتهامة والنفود، وتأكل من ورقه الغنم ولا تأكله الإبل كثيراً. منه الضخم ومنه الذي لا يتجاوز قعدة الإنسان. وهو قضبان مجتمعة كلّ قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً، وتنمو بعض أغصانه إلى ثخانة أصابع اليد. وليس أعسر على الإبل أو أكره إليها من أن تعبر أرضاً في اللّيل فيها قتاد، فإنّه كما يقول البدو يشرّط أيديها وأرجلها تشريطاً. ومن هنا المثل المشهور في اللغة العربية «من دون ذلك خرط القتاد».

أعشاب برّية

ليست الأشجار التي ذكرنا هي قوام ما تأكل من النباتات، بل ليست هي النبت المألوف في مختلف أجزاء البادية، فأكثرها من الأشجار العظام وليست نباتاً للرعي وإن أكلته الإبل، أمّا المرعى الرئيسي للإبل ولكثير من الماشية غيرها فهو ما يسمّى عند العرب بالخُلّة والحمض. ويقول البدو: المرعى كلّه حمض وخُلّة. وكلّ من هذين القسمين ليس نبتاً خاصّاً بعينه وإنّما هو طائفة من النباتات. وقد قالوا في الخُلّة إنّها كلّ نبت حلو ليس بحمض ولا من الشجر العظام. وقالوا: الخلّة خبز الإبل والحمض فاكهتها. ولعلّ أشهر الخلة الشيح والعرفج والخلة والقيصوم.



نبات الحَمض

أمّا «الشِّيح» فيكاد يكون أعمّ نبات في البادية، ويكثر في الهضاب والتلال والرياض والسهول والقيعان، ترعاه الإبل والخيل والحمير والنعم على أنواعها، وتحبّه كثيراً لا سيّما حين يكون رطباً طريّاً. وهو شوكي الشكل مرّ الطعم ولكنّه زكيّ الرائحة، وقد ذكره القدماء كثيراً في أشعارهم وقرنوه في الغالب إلى الغضا والقيصوم وهو من أعمّ النباتات في الأودية والحزون وأكثرها انتشاراً، فقال شاعرهم:

«إحْدى بُنَيَّاتِ عَمِّي دَوْنَ مَنْزِلها أَرْضٌ بِقِيعانِها القَيْصُومُ والشِّيحُ»(١٢)

والشيح إذا يبس أصبح وقوداً ممتازاً يلتهب كالكبريت. ويستعمله سكان القرى وقوداً ومساعداً على إشعال النار في المواقد البيتيّة والتنانير التي يخبزون فيها. وربّما اتّخذ من بعضه مكانس كالتي تستعمل لتكنيس الشوارع في بعض المدن العربية. وكان القرويون إلى عهد قريب يحتطبونه من البريّة المحيطة بهم ويرزمونه أحمالاً على دوابهم كما ترزم أحمال القشّ.

وأمّا «العَرْفج» فهو نبت لينّ أغبر يميل إلى الخضرة، طيّب الريح كالشيح وله زهرة صفراء، وأصله في الأرض واسع، تنبت منه قضبان كثيرة، وورقه عيدان دقاق كورق

الأشنان، وفي أطرافها زمع يظهر في رؤوسها شيء كالزغب أصفر. والإبل تأكله رطباً ويابساً، وكذلك الغنم. والبدو يجمعونه يابساً للوقود. ولهبه شديد الحمرة بحيث يقال في من لحيته حمراء كأن لحيته ضرام عرفجة(١٣).

وأمّا «الخُلّة» فهي شجرة شاكة أصغر من القتادة ومن العوسجة، ويسميها أهل البادية الشبرق، وتنبت في الحصباء وفيما غلظ من الأرض، وإذا أكلتها الإبل كثرت ألبانها(١٤).

بقي «القَيْصوم» وهو من نبات السهل والقيعان، ينهض على ساق طريّ ناضر الخضرة حين يكون رطباً أو حين يظهر على سطح الأرض في أول موسمه، وورقة له هُدب كورق الزيتون الصغير، ولكنّه أدقّ منه. له نور زكي الرائحة أصفر اللّون وهو من النباتات التي تحبّها الإبل، ويذكر غالباً مقروناً إلى الشيح والغضا، فقالوا في وصف بعض المناطق العربية:

«بلادٌ بها القَيْصوُم والشِّيحُ والغَضَا».

أمّا «الحَمْض» فهو طائفة أخرى يقع تحتها كلّ نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له. وتكون ورقته غالباً حيّة إذا غمزتها انفقأت بماء، وإذا أكلته الإبل شربت عليه. وقد ذكرنا أن العرب تقول الخلة خبز الإبل والحمض فاكهتها، ويقال لحمها، وأكبر الحمض بحجم قعدة الإنسان، ولا يتجاوز أصغرها قبضة اليد. ولعلّ أشهر الحمض وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً على سطح البادية، «الرِمْث»، وهو نبت يشبه الغضا له هدب طوال دقاق ترتعيه الإبل والغنم. والعرب تقول: «ما شجرة أعلم لجبل ولا أضيع لسابلة ولا أبدن ولا أرتع من الرِّمثة»، وذلك أن الابل إذا ملّت الـخُلّة اشتهت الحمض، فإن أصابت طيب المرعى مثل الرُّغل والرِّمث مشقت منها حاجتها، ثم عادت إلى الخلّة فحسن رتعها واستمرأت رعيها، فإن فقدت الحمض ساء رعيها وهزلت، فكأن الرمث من المقبلات. وهو إذا يبس يوقد حطباً، وللمتنبّي في وصف ناقته التي أوصلته إلى ابن العميد:

«تَرَكَتْ دُخَانَ الرِمْثِ في أَوطانها   طلباً لِقَوْمٍ يُوقِدونَ العَنْبَرا»

أي تركت بلاد العرب حيث يستعملون الرمث حطباً وقصدت ابن العميد الذي يوقد العنبر(١٥).

ومن الحمض «الرُّغْل» وهو كالرمث نبت ينفرش وورقه مفتول، وكالرمث ترعاه

الإبل بعد الخلّة، فتتحمّض به لتعود قـابليّتها للرعي، وهـو ينفقىء ماء حين يجسّ أو يغمز، وحبيبات زهره تلمع كالبلور للماء الذي فيها. وقد قال الشاعر فيه:

«نَـرْعَى مِنَ الصمّانِ روضـاً آرِجَا ورُغُـلا بـاتَتْ بـهِ لـواهِجـا»[١٦]

ومن الحمض أيضـاً «الأراك» وهي شجرة طـويلة خضراء نـاعمة كثيـرة الـورق والأغصان تنبت بالوهاد والأغوار، ويتّخذ من أعوادها المساويك. ومن هنا فإنّ بعضهم يسمّونها شجرة السواك، ولا يعتبرونها من الحمض، وقد زعموا أنّ عودها أفضل عود من الشجر يستاك به، قال الفرزدق في فائيّته المشهورة:

«وإنْ نَبَّهَتْهُنَّ الـولائِـدُ بعَـدَمـا تَصَعَّدَ يَوْمُ الصيفِ أو كادَ يَنْصُفُ
دَعَـوْنَ بِقُضْبـانِ الأراكِ التي جَنى لها الركبُ مِن نعْمانَ أيَّامَ عَرَّفُوا»[١٧]

وأوراقها أطيب ما رعته الماشية من حيث أثره في طعم لبنها. ترعاه الظباء وتذكـر بالشعر القديم مقرونة به. وللأراك ثمر كعناقيد العنب يسمّى المَرد وأحياناً البرير. للحبّة الواحدة منه عجمة مدوّرة صغيرة صلبـة أكبر من حبّـة الحمض قليلاً، قـال طرفـة ابن العبد:

«وفي الحيِّ أَحْوى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ مُـظاهِـرُ سِمْـطَيْ لُؤلُؤٍ وَزَبْـرجَـدِ
خَـذولٌ تُـراعي رَبْـرَبـاً في خَمِيلَةٍ تَناولُ أطرافَ البريرِ وتَرْتَدي»[١٨]

ويشبه الأراك «البَشام». وهو شجر طيّب الرائحة والطعم ذو ساق وأفنان وورق. وورقه صغير أصغر من ورق الزيتون وأكبر من ورق الصعتر. وترعاه الغنم، وإذا قطعت ورقته أو قصـف غصنه سالت منه مادّة لزجة بيضاء كاللّبن. وورقه ييبس ويـدقّ وينقع ويخلط بالحنّاء للتسويد. ويتّخذ من أعواده مساويك كمساويك الأراك. قال جرير:

«أَتَـذْكرُ يـومَ تَصْقُـلُ عَـارِضَيْهـا بِفَـرْعِ بَشامـةٍ سُقِيَ البَشـامُ»[١٩]

بقي «السمح» وهونبت ينمو بكثرة في المناطق الشمالية من البادية الشامية وفي برية تيماء، وله حبوب تطحن ويصنع من الطحين خبز يستعاض به عن الخبز من القمح وقـد روى فلبي أنه أكل منه واستطابه وأن لونـه اسمر وأن البـدو يجمعون الحبـوب في فصل الصيـف حين تنضج[٢٠].

وتعرف البادية أيضاً نبتاً أو شجراً صغيراً اسمه «الأشنان» يبلغ كبيره قعدة الإنسان. وينمـو هذا النبت في مسيـل الأودية ومفـاضاتهـا وفي السهول المنخفضـة التي تحيط بهـا

الحزون. وهو نبت قلوي أوراقه هدب مفتولة كأكثر أوراق النباتات الحمضية. فهي عيدان خضر دقاق رطبة ليّنة في فصل الربيع غير محدّدة الرؤوس، تيبس في الصيف، وينبت في الموسم الثاني غيرها من جديد. ولا ترعى الإبل[٢١] ولا غيرها من الماشية هذا النبت، ولكن البدو والأهلين في القرى يستعينون به للتنظيف، فهم يجمّون هذه الأوراق أو العيدان الدقاق، ثمّ ييبسونها ويطحنونها أو يدقونها، ويستعملونها لتنظيف أجسامهم وثيابهم. وقد كان الاسرائيليون القدماء يستعملونه للغرض نفسه منذ أقدم الأزمان. وقد ضرب المثل بقوته على التنظيف، فجاء في التوراة قول الله لأورشليم على لسان ارميا[٢٢]: «إنّك وإن اغتسلت بالنطرون واستكثرت من الأشنان لا تزالين ملطّخة بإثمك أمامي يقول السيّد الرب». والنبات مألوف ليس في البادية فحسب، بل في كلّ المناطق التي



نبات الأشنان

تجاورها. ومن هنا فإن كثيراً من أهالي القرى المنتشرة على حدود البادية يشاركون البدو في جمع هذا النبات والاستعانة به على التنظيف، بل كان من الأهالي من يصدره إلى داخل البلاد المعمورة ويستورد بدله الحبوب من القمح والشعير. فكنت ترى هؤلاء القرويين الذين لا أرض لهم يستثمرونها يعمدون إلى قطع الأشنان وتيبيسه ودقّة وتحميله على دواب إلى القرى الداخلية لإبداله بالحبوب فإذا سار القرويّ في مهمّته هذه قالوا فيه «راح يبدل أشنان».

والأشنان حين ييبس يصبح أصفر الشكل، وهو يكسب الثياب شيئاً قليلاً من هذه الصفرة حين تنظّف به. وكذلك يقتلع القرويون هذا النبت من جذوره ثم يحرقونه في البرّية وهو لا يزال رطباً فيكون منه القلو الذي كان يصدّر إلى طرابلس الشام ونابلس وغيرهما ويستعمل في صناعة الصابون قبل استيراد القطرون ـ الكوستيك الأجنبي. وليس غريباً أن تكون بعض المصابن لا تزال تستعمل القلو بدل الكوستيك. ويستعان بهذا القلو إلى اليوم في تجفيف الزبيب كما ذكرنا، فإنّ الكرّامين يغسلون العنب بماء القلو المحلول الممزوج بالزيت، ثمّ ينشرونه على الأرض ليجفّ مدّة أسبوع أو أكثر، فيساعد ماء القلو على تنظيف العنب وامتصاص الماء منه فيجفّ ويصبح زبيباً يخزن إلى الحول الثاني أو يدرس ويصنع منه الدبس الزبيبي.

النباتات الفطريّة

ويعرف في البادية طائفة من النباتات الفطرية وليس لهذه النباتات سوق أو عروق أو أغصان أو ورق. وهي على أجناس: جنس يسمّى الكَمْأَة، والبدو يسمّون الواحدة «فَقْعَة» و «كِمَاية». والكمأة فطر كروي الشكل كثمرة البطاطا يتراوح قطر الواحدة منه بين القيراط والخمسة، وربّما تجاوز ذاك، وللكمأة صرّة في أسفلها لها خيوط دقيقة تستمد بواسطتها الغذاء والماء من التراب. وهي على أنواع فمنها البيضاء الزبيديّة، ومنها الحمراء، ومنها السوداء. ولعلّ النوعين الأخيرين هما نوع واحد فهما متشابهان من حيث الحجم والشكل واللّون وتماسك مادّة اللّب. فالكمأة سمراء عسليّة متماسكة مستديرة كتقريصة العجين في كليهما. أمّا البيضاء فقشرتها ولبّها أبيضان، ولبّها ألين وأقل تماسكاً واستدارة وأكبر حجماً. والكبير منها يسميّه البدو شيخاً أو شويخاً، والبنت البدوية تغني وهي تجتني الكمأة: «يمّا كماية حمرا يمّا شويخ أبيض». وقد رأيت أنا شخصيّاً «شيخاً أبيض» في وادي البطميّات شرقي القريتين جنوباً اقتلعته من الأرض بيدي، وبلغ أكثر من ١٢٠٠ غرام وقطره ٢٤ سنتيمتراً وقد حسبته عن بعد حجراً كبيراً لأنّه كان ظاهراً على وجه الأرض وهكذا تظهر للعيان في الغالب الكمأة البيضاء عند تمام نضجها.

تبدأ الكمأة بالنمو تحت سطح الأرض إثر أمطار الخريف من ذرات البذور أو البوغ

الدقيقة ذوات الخليّة الواحدة المنتشرة وسط التراب وعلى سطحه. ويزعم الناس خطأ أنه لا بدّ من حدوث الرعد لتشقيق الأرض. ولعلّ البرق والرعد يعملان على إيصال عنصر النتروجين إلى الأرض بكثرة وذلك يساعد على إنماء النباتات الفطرية. ومتى أخذت الأرض بالدفء في أواخر الشتاء تزايدت هذه الخليّة وأصبحت بحجم عجمة المشمش، وأخذت تحدث في سطح الأرض فوق مستقرّها ارتفاعاً يسيراً يتخلّله تشقّق أو ارتخاء في التربة لا يكاد يبين إلاّ للخبير الذي ألف اجتناء الكمأة، وذلك في أوائل شهر شباط وليس في الخريف كما توهم دكسن في وصفه الجميل الذي عنونه بدرس للخريف في أوائل تشرين الثاني[٢٣] وفي هذا الطور يستعين الخبير بعود طويل صلب، أو مجسّ ذي رأس حديدي (حفّار)، يغمز به هذا الموضع الذي يرى به ما يشبه الارتفاع أو الارتخاء، فإذا وجد ارتخاء في الأرض تحقّق من وجود الكمأة وسط ذلك المرتفع الخفيّ، وحفر عنها بحفّاره أو فأسه واستخرجها صغيرة. أما إذا تركت الكمأة لتكبر لا يلبث هذا المرتفع الناهد الصغير أن يكبر معها، وتتسع الشقوق في سطحه، بحيث يصبح قبّة صغيرة منبسطة جليّة للعيان. ولا تحتاج الكماة عندئذ إلى خبير كي يكتشفها. وتسبق الكمأة البيضاء في النمو والظهور أختيها الحمراء والسوداء، فهما تتأخران في الظهور حتّى شهر شباط. وإذا لم تجتن الكمأة اندفعت في نموّها تحت الأرض حتّى تشقّ الأرض وتظهر على وجهها وربّما تدحرجت حين تبلغ غايتها في النمو - من فوهة بركانها الصغير وقد أخذت قشرتها تتخدد قليلاً بظهورها للشمس. وإذا أمطرت الأرض المطر الوسمي في الخريف ونبتت الكمأة في آخر الشتاء، انتشر البدو وأبناء القرى المجاورة للبادية على أديم البقاع التي تكون قد نمت الكمأة منها فيجتنونها بفؤوسهم أو «حفافيرهم» من أوائل شباط حتى أواخر نيسان (أوائل الحصاد) ومن هنا المثل عن الكمأة: «أولها شباطية وآخرها حصادية» وتراهم وقد علّقوا بأكتافهم علائق يضعون الكمأة فيها، وترى رؤوسهم تلازم الأرض حتّى لا تفوتهم رؤيتها وهم يطوفون من بقعة إلى بقعة. وقد يقع الواحد تارة على الفقعة الواحدة وهي لا تبعد عن اختها محطّ قدم بينما لا يرى تارة أخرى فقعة ثانية أقرب من عشرة أمتار. والغريب أن المجتني يعود إلى الأرض نفسها التي اجتنى منها قبل ساعة فيرى من جديد كمأة كانت قد فاتته رؤيتها قبلاً، ومن هنا فترى الخبيرين من مجتني الكمأة يكادون لا يتحوّلون بعيداً عن البقع التي كانوا قد وجدوا فيها كمأة قبل حين. وطريقة اقتلاعها هي أن يحفر عن جانبيها ثم تقتلع بالفأس من تحت سرّتها، أو يحفر عن جانب ثم يغرس الحفّار أو الفأس في الجانب الآخر، ويدفع التراب الذي يحتويها إلى الجانب المحفور فتخرج سليمة غير مجروحة أو مكسورة. وإذا اقتلعت وبقيت سرتها أو الخيوط التي تتصل بها ثمّ أمطرت حالاً نبتت في حفرتها كمأة جديدة بعد مدّة وجيزة لا

تزيد عن عشرين يوماً. ومن هنا فإن الخبيرين باجتنائها يبحثون عنها بعد المطر في مقالعها. ويقولون: «اطلبوها في مقالعها».

والبدو والقروبون يعيشون على الكمأة في موسمها بالرغم من أن المادّة الغذائية التي فيها ليست ذات بال. وهم يصدّرونها إلى المدن حيث تباع بأثمان جيّدة. وينظّفون ما يريدون أكله منها من التراب أو الطين العالق بها، ثمّ يغسلونها ويشوونها أو يسلقونها ويأكلونها مملّحة. وأحياناً يقطّعونها رقائق وييبّسونها ويدّخرونها لأشهر الخريف المقبل ويبيعونها ميبّسة وهناك معامل في دمشق أخذت بتعليب الكمأة كما يُعَلَّب الفطر في علب مختومة.

أمّا الكمأة التي نمت ولم يرها مجتن، فهي إمّا تنشف وتيبس تحت الأرض أو فوق سطحها وتملأ الأرض التي حولها من ذرّات بذورها الصغيرة التي لا ترى بالعين المجرّدة. وهذه الذرات (spores) هي البذور التي تتكوّن منها الكمأة في السنة التالية إذا أمطرت مطر الوسمي في فصل الخريف، وإلاّ فإنها تظلّ صالحة للنمو بعد سنوات كثيرة. وهي لخفّتها تذروها الرياح على سطح الأرض مسافات بعيدة.

وكذلك تعرف البادية الفِطْر، وهو من فصيلة الكمأة لكنّه يختلف عنها في أن شكله ليس كرويّاً أو مثل البطاطا، بل هو قرص أشبه بالمظلّة الصغيرة، وله جيوب كثيرة من الداخل تحتوي الذرّات «السبورات» التي تؤمن استمرار حياة النبات في الموسم التالي. وللفطر ساق من مادّته قصير. ويختلف الفطر عن الكمأة في أنه سريع النمو ويظهر حالاً على سطح الأرض ولا يجتنى إلاّ وقد ظهر كلّه على سطح الأرض ويتراوح قطر قرصه بين القيراط والأربعة. وهذا الفطر يشبه الفطر السام الذي ينبت في المزارع تحت الأشجار وفي الديم، إلاّ أن ساقه أقصر وجسمه أثخن وهو غير سامّ.

وهناك نبت فطريّ آخر يسمّونه الهَوْبَر وهو كالكمأة لكنّه أصغر بكثير ويتراوح قطره بين السنتيمتر والأربعة. وجلدته سوداء تماماً، ويسبق ظهوره ظهور الكمأة. ولا يدوم موسمه طويلاً. ولا يعيرونه كثيراً من الاهتمام كما يفعلون بشأن الكمأة. ولكنّهم يستبشرون بظهورة لأنّ الكمأة غالباً تتبعه. ويرافق هذه النباتات الفطرية كلّها نبت صغير غير فطرّي يظهر غالباً قبلها أو مع الهوبر يسمّونه «الوسم» لا ينتفعون به ولكنّهم يتّخذونه دليلاً على إمكان ظهور الكمأة في الأرض نفسها في ذلك الموسم. وله ورق صغير مثل ورق الصعتر. ويتراوح طول النبتة الواحدة منه بين السبعة والاثني عشر سنتمتراً. وهي

تشبه عود الريحان. والظاهر أن أمطار الخريف التي تساعد على ظهور هذه النباتات الفطرية هي التي تساعد أيضاً على ظهور نبت الوسم المذكور.

زهور البادية

بقيت طائفة من الزهور المعروفة في البادية منها «الشقائق النعمانية»، وهي مشهورة ومعروفة، وقد تغطّي أحياناً بقعة كبيرة فتصبح كالبساط الأحمر. ومنها «الخزامى» أو خزام العروس كما يسمّونها، وهي من فصيلة الريحان، ورقها صغير، ولزهرها رائحة عطرة يحملها النسيم فيعطّر بها الأرجاء. قال امرؤ القيس:

«كَأَنَّ المُدَامَ وصَوْبَ الغَمَامِ وريحَ الخُزَامَى ونَشْرَ القَطْرْ»[٢٤]

وينبت بكثرة في بعض البقاع، فترى الأرض أصبحت بنفسجيّة اللّون كأنّما ترتدي ثوباً من أرجوان. ويزعم البعض أنّ الخزامي أصل نبات اللافندر (Lavender) المدجّن الذي يستخرج منه عطر اللاوندة. وهناك طوائف من الزنبق لا سيّما السوسن (Iris) وقد عرفت منه فصيلة في الأجزاء الجنوبية الغربية من بادية الشام حول جبال غطوس وكحلة والباردة وقرب الجباة هي الوحيدة من نوعها، فيما يظهر، كما ذكر لي أحد هواة تربية الزنابق الافرنج حين استحضرت له نماذج منها إلى بيروت سنة ١٩٤٨. وكذلك يظهر على أديم التلال المحيطة بالبادية من الجنوب والغرب عشرات الأنواع من النباتات والزهور التي تحتاج إلى دراسات مفصّلة لتبيان أشكالها وألوانها وفصائلها ومنافعها. وبين بعضها كما لاحظت في الحزون القريبة من البادية، ما له تحت الأرض ثمر أو الأولى أن يقال إنّ قسماً من جذعه يؤكل، وإذا شُق سال من قشرة جذعه المدفون مادّة لزجة بيضاء، وإذا شويت هذه القشرة ومُضغت تحوّلت وماؤها الأبيض علكاً ليس علك أطرى ولا أكثر مطّاً أو تمغطاً منه. ولا أشكّ في أنّ هذا النبات إذا دجّن كان من أغنى النباتات في مادّة المطاط التي فيه. أمّا النبات الذي يرعى منه الغنم فيكاد لا يحصر. وقد ذكر وصفي زكريا أسماء نحو عشرين نوعاً ولكنّه لم يعرض لوصفها أو تبيان فصائلها[٢٥]. أمّا موزل فقد عرض لذكر طائفة كبيرة من النباتات التي ترعى منها الإبل في تضاعيف كتبه. وقد رأيت نظراً لفائدتها وشمولها أن أجمع شمل ما استطعت جمعه من كتبه المتفرّقة وغيرها وأرتّب منها جدولاً ذاكراً أسماءها بلغة البدو وباللاتينية وأجعله ملحقاً في آخر الكتاب ليسهل الرجوع إليه.

الحواشي :

(١) حسن المحاضرة للسيوطي، القاهرة ١٣٢١ هـ، ٢ : ٢٥٥.

(٢) انظر تاريخ العرب، لفيليب حتى، وأدورد جرجي وجبرائيل جبور، طبعة جديدة منقحة، بيروت ١٩٦٥، ص ٤٧.

(٣) **Kingdom of Iraq,** by A Committee of Officials (Baltimore, 1946), p. 46.

(٤) **News Review,** Beirut, Vol. VII, No. 32, p. 5.

(٥) انظر مادة «بلح» في لسان العرب، ومادة «نخل». ومع أن شجر النخيل يظهر كأنه كله سواء فإن الخبراء يزعمون أن منه في العراق نحو ٣٥٠ نوعاً مختلفاً غير أن الأنواع المشهورة التي تصدّر أثمارها هي خمسة فقط وهي الحلاوي والخضراوي والساير والخستاوي والزهدي(**Kingdom of Iraq,** p. 47).

(٦) انظر لسان العرب، مادة «أثل».

(٧) ديوان كثيّر عزّة، تحقيق احسان عبّاس، بيروت ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١، ص ٣٩١.

(٨) ديوان الهذليّين، تحقيق دار الكتب المصرية، ٣ أقسام، القاهرة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥، ١ : ١١.

(٩) تكتب الغضا بألف طويلة ويجوز بألف مقصورة.

(١٠) انظر لسان العرب، مادة «غضى»، وقد رأيت في أسواق بعض الواحات في منطقة الاحساء أكواماً من حطب الغضا احتطبها البدو من الربع الخالي وأتوا بها في سيارات الشحن للأسواق في قرى الاحساء لبيعها حطباً للأهلين.

(١١) ديوان الهذليّين، ١ : ١٤٥.

(١٢) شعر عمر ابن أبي ربيعة، تحقيق Paul Schwarz، ٣ مجلدات، ليبسك ١٣١٨ - ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٩، ٢ : ٢٣٠.

(١٣) انظر لسان العرب، مادة «عرفج».

(١٤) انظر لسان العرب، مادة «خلة».

(١٥) ديوان المتنبي، ، ص ٥٦٩.

(١٦) انظر لسان العرب، مادة «رغل».

(١٧) انظر ديوانه، جزءان، تحقيق عبد الله الصاوي، القاهرة ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٦، ٢ : ٥٥٣.

(١٨) شرح القصائد العشر، ص ٣١.

(١٩) ديوان جرير، جزءان، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧١، ١ : ٢٧٩.

(٢٠) **Land of Midian,** p. 102.

(٢١) إلاّ مضطرة جائعة أو حين تتفكه به أو تتملّح.

(٢٢) نبوءة ارمياء ٢ : ٢٢ الترجمة الكاثوليكية.

(٢٣) Dickson, p. 60

(٢٤) ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٥٧.

(٢٥) عشائر الشام، ١ : ٤١، حيث قال: «أما النباتات السنوية التي تسمى (العشب) فهي القبا الذي تحبه الغنم كثيراً والضمة والخافور والعادان والبخاتري والعظم والكريطة والشكارة والحمضان والديدجان والمحروت والشلوة والخميمة والحريق والقورب والربيان والنصي والجرجير وغيرها مما يطول شرحه».

الفصل الثالث

الحيوانات البريّة في البادية من أكلة اللحوم

لعلّ بادية الشام أغنى بوادي الجزيرة بالحيوانات. ففيها من أنواع الحيوان المختلفة ما يصعب حصره في هذا البحث الخاص. وقد التفت أكثر الروّاد الذين رادوا الجـزيرة العربية إلى أمر الحيوان فيها، وأشاروا إلى أنه كان فيها حيوانات كثيرة انقـرضت ويسير بعضها الآخر في طريق الانقراض.

الأسد

ليس للأسد الذي كثر ذكره في أشعار العرب منذ العهد الجاهلي وصدر الإسـلام وجودٌ في البادية اليوم وقد ذُكر أن بعضهم رآه فوصفه للخليفة عثمان ابن عفان، فزجره لأنّه كاد يخيف الحاضرين بـوصفه لـه[١]. وقد صـوّره الفنّانـون بالفسيفسـاء في القصر المنسوب إلى هشام ابن عبد الملك (خربة المفجر اليوم) كما ترى في المرجع في أدناه[٢].

ووصفه المتنبّي وصفاً رائعاً في مدحه لبدر ابن عمار، حين واجهه الأسد ووثب إلى كفل فرسه، فاعجله عن استلال سيفه، فضربه عندئذ بسوطه وعفّره[٣]. وذكره اسامة ابن منقذ أيام الصليبيين قريباً من بلدة حماة على جسر قرب قلعة شيزر، ورآه وقد ربض على حرف النهر يهدر ويضرب الأرض بصدره فحمل عليه وقتله[٤]. وظلّ ذكره يتردّد في الكتب وتتردّد الاشارات إلى وجوده في أكثر انحاء الجزيرة وبخاصّة في المناطق التي تكثر الأدغال فيها في الشمال حتّى القرن التاسع عشر، حيث ذكر جورج أوغست فالين الرائد الفنلندي أنه صادف أسداً في الصحراء على مسيرة يومـين من مشهد عـلي[٥]. وذكرت اللايدي آن بلنت في أخبار رحلتها في القرن نفسه عن أسد فتك ببدويّ اسمه بوزان من عرب الخرصة من قبيلة عنزة[٦].

وتذكر غرانت أن الأسد كان من الحيوانات البريّة الشائعة في الجزيرة العربية كلّها وبخاصة في الهلال الخصيب ويقول موزل ان هناك من يزعم ان الاسود لم تكن معروفة فيها قبل عهد الامبراطور الروماني ديكيوس Decius وأنه هو الذي أوجدها. ذلك أنه قبض على عدد من الأسود واللبؤات من أفريقيا وأطلقها في حدود فلسطين والجزيرة العربية ليخيف المشارقة العرب (البدو)[٧].

ويجب أن نلاحظ هنا أن ذكر الأسد ورد في الكتاب المقدّس كثيراً، وفي بعض الآيات إشارة إلى وجوده في عهد شمشون، كما جاء في خبره لمّا التقى به وقتله، وفي قصّة دانيال حين ألقي في جبّ الأسود[٨]. وفي سفر أيّوب حيث يقول: زمجرة الأسد وصوت الزئير وأنياب الأشبال تكسّرت[٩]، وفي سفر ارميا حيث نرى: هوذا يصعد كأسد من كبرياء الأردن إلى مرعى دائم[١٠] وربّما كان هنا خير موضوع نذكر فيه أن الكتاب المقدس هو من أقدم المصادر وأوسعها ذكراً للحيوانات البرية في الجزء الشمالي من الجزيرة ومنها البادية الشامية وسيناء والمناطق المجاورة للبادية. وكان من أحبّ الأمكنة لسكنى الأسود الغابات والأحراج على ضفاف الأردن والعاصي وقرب بحيرة طبرية والاحراج القريبة من الفرات وفي البرية الشرقية كلّها.

ومهما يكن من أمره في العصور السالفة فقد انقرض تماماً في القرن العشرين. ولعلّ سبب انقراضه شقّ قناة السويس، واستحداث الأسلحة النارية الحديثة، وزوال كثير من الاحراج.

الذئب

لعلّ الذئب هو أعم آكلة اللحوم بين الحيوانات اللبونة في البادية وأشْرَهِهَا. وهو لم ينقرض من الجزيرة كما ظنّ بعضهم، بل لا يزال في مناطق كثيرة يجوب سهولها وهضابها ليلاً وراء الصيد من ماشية داجنة وغيرها برية. وهو يأوي غالباً إلى بعض الأوكار في الجبال والآكام في النهار، ويبيت في المغاور المهجورة وشقوق الصخور، وفيها تلد الذئبة أجريتها حين يدنو وقت ولادتها. وهو على ألوان، أسمر أسحم في المنطقة البركانية من بادية الحماد، وأسمر مخضر فاتح اللون في منطقة النفود، وأشهب رمادي في السهوب والسهول على حدود البادية. وهو دون شك أبطش الحيوانات بالماشية وأكثرها فتكاً لها وضرراً. ومن هنا فإن رعاة الأغنام من البدو يخشون شرّه كثيراً، ولذلك فهم يسهرون على ماشيتهم ليلاً، ويقتنون كلاباً خاصة لحمايتها. وقديماً قال الشاعر العربي:

«تعدو الذئابُ على من لا كلاب له وتَتّقي صولَةَ المستأسِدِ الضاري»[١١]

وكذلك يفعل رعاة الماعز من القرويين المجاورين للبادية. وبرغم هذه الاحتياطات فإن الذئاب كثيراً ما تغافل الكلاب وتفترس الماشية، وقد تبلغ ببعض الذئاب الجرأة أو يبلغ بها الجوع أن تتسلّل أحياناً إلى البيوت المتطرّفة في القرى وتباغت الماشية ليلاً وهي في زرائبها.

«وَمَنْ رَعى غَنَماً في أَرضٍ مَسْبَعَةٍ   ولم يَصُنْها تَولّى رَعْيها الذِّيبُ»[١٢]

وإذا هاجم الذئب قطيعاً من الغنم أو الماعز في البرية، أمسك بعنق النعجة أو العنز بفمه وجرى بها، فتنطلق مشدوهة معه بسرعة فائقة، إلا إذا أدركته الكلاب، ويزعمون أنه كثيراً ما يفتك بالنعجة بعد الأخرى دون أن يتوقّف لأكلها، فتسمع مثلاً بحادثة سطا فيها الذئب على قطيع من الغنم أو الماعز ففتك بنحو عشرين منها أو «نيّب» كما يقولون نحو عشرين وتركها كلّها ميتة أو نصف ميتة. ولكنّ أبحاث الذين تخصّصوا بدرس الذئاب تنفي هذا الزعم وتذهب إلى أن الذئب لا يفتك إلاّ بما يريد افتراسه وأكله.

والظاهر أن الذئب لا يقوى على افتراس الجمل أو الحصان، ولكنّه يستطيع أن يفترس الحوار والمهر الصغير، وقد يفتك حتّى بالحمار والبقرة إذا استفرد أيّاً منها في البرية. ومن هنا فإن البدو والفلاحين إذا فقدوا بهيمة في البريّة وخشوا عليها الذئب عمدوا إلى التعاويذ يتّقون بها شرّه. ومن هذه التعاويذ أنهم يحاولون لجم الذئب كما يزعمون، وذلك بتلاوة عبارات مسجعة أو آيات من بعض كتب الدين يقرأونها وفي أيديهم مدية مفتوحة أو موسى، ثم يطبقون المدية عند انتهاء القراءة ويعتقدون أن الذئب عند ذاك لا يستطيع افتراس البهيمة. وكم من مرّة حُدثت عن بهيمة فقدها صاحبها فلجم الذئب على الطريقة المذكورة، أو ذهب إلى خبير يلجمه له، ثم أخذ يسعى بالبحث عنها، فلما رآها وجد الذئب يدور حولها ولا يستطيع الاقتراب منها: حديث خرافة يا أم عمرو!

ويعيش الذئب أيضاً على ما يفترسه من أكلة العشب من حيوانات البادية من غزال وأرنب، فتراه يختبىء أحياناً وراء بعض شجيرات النبات التي يسرح بينها الغزلان ثم يباغت أحدها مباغتة من الخلف ويفترسه. وترى الغزال في الليالي المقمرة يتجنّب الرعي في أرض فيها نبت يُخْفي الذئب، لأن الذئب المختبىء يرى الغزال، والغزال لا يراه. ومن هنا فإنّه من النادر أن يفتك الذئب بالغزال لأنه لا يستطيع اللحاق به ـ والذي أباد الغزال من البادية أو يكاد يبيده، هو الإنسان.

كـذلك يـزعم البدو أن الـذئب يطلب مسـارح الغزلان في الأراضي الـرملية في النهار، ويتبع آثارها مواجهاً الريح، بحيث يستطيع أن يشمّ أثر الغزلان ولا تصل رائحته إليها. وينتظر حتّى ترعى الغزلان وتشبع فيفاجئها، فإن لم ينجح بافتراس واحد منها عند المباغتة، ظـلّ مطارداً القـطيع حتّى تتعب أنثى الغـزال في القطيـع وتقف لتبول، فيقف الفحل وراءها، ويستطيع الذئب في هذه الحالة أن يبلغ الفحل ويفتك به. ومن هنا فإن أكثر ما يفترسه الذئب من الغزلان في مثل هذه الحالة هي الذكور فيما يزعمون.

وإذا قضى الذئب ليله ولم يلق صيدا ظلّ إلى الصباح يطلب رزقه، وأخـذ يعوي عواء خاصّاً يعرف البدوي منه أن صاحبه جائع قليل الغنى، كما أدرك امرؤ القيس من قبل حين قال عن الذئب:

«فقُلْتُ له لّما عَوى إنَّ شَأْننا قَلِيلَ الغِنَى إنْ كُنْتَ لّما تَمَوّلِ»[١٣]

وإذا يُسِّر للذئب فـريسة يفتـك بها أكـل وشبـع، وأوى إلى كهف فنـام بـه حتّى العصر، ثمّ نهض بعد العصر يبحث عن صيد جديد. وهو يخاف الإنسان ويهرب منه إلاّ في حالات الجوع الشـديد في الشتاء البارد.

وكثيراً ما شاهدته في الهضاب المجاورة للبادية في فصل الصيف وكان يهرب حينما يستشعر أحداً من البشر. ومن الغريب أن بعض البدو يأكلون لحمه ويزعمون انه يشفي من بعض الأمراض الجلدية[١٤]. وأمّا جلده فيستعمل للربـاب ويستعمله أهل القـرى للدف والطبل الصغير.

الضّبع

وتعرف البادية عند ضفافها الضباع وهي تسكن المغاور والكهوف في الجبال التي تحيط بالبادية أو تجاور القرى التي تقع على حدودهـا. ويطلقـون خطأ كلمـة ضبع عـلى الذكر بينـما هذا الاسم في المعـاجم هو لـلأنثى واسم الذكـر ضبعان. وهـو ضرب من الحيوان جبان في النهار لا يجرؤ على الخروج من جحره. بل يزعم الكثيرون أنه قد يبلغ ببعض الفتيان الشجعان من البدو والفلاّحين أن يقصدوه نهاراً في مغارته فيدخل أحدهم عليه زحفاً بعد أن يسدّ مدخلها وراءه بعبـاءة أو عدل ويـربط عنقه بـرسن أو حبل لـه أنشوطة ثم يكمّه بكمّامة ويخرج ثم يسـحبه هو ورفاقه مجروراً من جحره ذليلاً مهاناً يقاد كما يقاد البعير. وقد رأيت بالفعل بعض الضبـاع الحيّة مكمـومة عنـد بعض الصيّادين ومقيّدة بسلسلة إلى حجر أو عمود وهو يعرضها لقاء رسم يدفعه المشاهد له. ولكن هذا

الحيوان جريء في الليل ومفترس وشَرِهٌ ولاسيّما في فصل الشتاء فتراه يقتحم القرى المتطرفة ويعبث بالقبور ويحفرها ويخرج جثث الموتى ليأكلها. وهو مولع بأكل الجيف آيّاً كانت ويسمّيه القرويّون في بعض المناطق «أبا الفُطْس» أي آكل الجيف المنتنة. وترى الصيادين منهم ينصبون له الفخاخ الكبيرة حول جيفة حيوان فيأتي ليلاً لأكل الجيفة التي يندر أن تفوتَهُ رائحتها فيقع في الفخ ويكون الفخّ مثبتاً بسلاسل من حديد وبأثقال حديدية في الأرض فيأتي الصيّادون صباحاً ويلقون القبض عليه ويكمونه بكمّامة من حديد ويقودونه بسلسلة إلى القرية. وقد تلد الضبع ثلاثة أو أربعة من الأجرية.

ولا تزال الضباع توجد بكثرة في بقاع من الجزيرة العربية معروفة بأنها مضابع من قديم الأزمنة كجبل الطوال شرقي القريتين وقد رأيت بعضاً منها أثناء تنقلاتي في المناطق المجاورة للبادية وشهدت أحدها مرّة وأنا في رحلة صيد يسير في البرية وقد اقتلع فخّاً كان قد علق به في الليل الفائت وكان يجرّ الفخ وراءه فلمّا تبعته على الجواد انطلق يعدو والسلاسل والأثقال تجلجل وراءه، وكانت الحصا والحجارة تتطاير وتتناثر خلفه حتى إذا أصبح على مرمى الرصاص منّي لاذ بواد موعر جرى فيه وجازه إلى الجانب الآخر ولشدّ ما كانت دهشتي حين رأيته وقد ابتعد وخلّى وراءه الفخّ والأثقال وقسماً من رجله اليمنى التي علقت بالفخ واستمرّ هارباً يحجل مسرعاً على الثلاث الباقية من قوائمه.

وكثيراً ما تتردّد الضباع إلى المناطق التي يكثر فيها الغزال بحثاً عن غزال ميت قد صاده الصيادون وفقدوا مكانه، أو نقل بعد إصابته ثم مات، أو عن غزال جريح تخلّف عن باقي القطيع. وقد حَدَثَ لنا بالفعل أنا وبعض الرفاق أن رمينا ثلاثة غزلان من الفحول من قطيع فيه ستة فحول وأنثى وتبعنا الثلاثة الباقيه دون أن نتوقّف لنحمل ما رمينا، فلمّا عدنا بعد ربع ساعة وجدنا أن ضبعاً قد تسلّلت تشاركنا في صيدنا، وقد اختطفت شلو واحد من الظباء وانطلقت تعدو به بعد أن أكلت فخذيه، فلما أدركتها سيارتنا ألقت بالشلو إلى الأرض وجرت تعدو فأدركناها وقتلناها. وجلد الضبع كامد اللون مخطط بخطوط قاتمة تقاطع طولها على زاوية قائمة وعلوّ جسمها عند كتفيها نحو ٣ أقدام وعند كفلها قدمان ونصف ولها عرف في عنقها إلى ذيلها ينتصب إذا هاجت.

والضباع على شرّها ونتنها نافعة من بعض النواحي. فهي من العناصر التي تساعد على تنظيف أرض البادية وهوائها من جيف الحيوانات وروائحها الخبيثة. وتتفق في ذلك مع الثعالب والنسور والرخم والشمس. إذ لا يكاد يموت جمل مثلاً في البادية أو حمار ويلقى بجثته في العراء حتى ترى الضباع وبنات آوى قد تألبت حول الجيفة ليلاً تلتهمها التهاماً، ثم ترى طيور الرخم والنسور وقد وفدت نهاراً لتلتهم ما تركته لها الضباع

والثعالب. وتقضي حرارة الشمس بدورها على ما تبقّى من حطام الجثة فلا يمر اسبوع إلاّ وكأن الجثّة لم تكن. وهكذا لا يبقى سوى ما تبعثر من عظامها هنا وهناك.

وكما يأكل بعض البدو لحم الذئب فإن بعضهم أيضاً وبعض أهل القرى المجاورة للبادية كانوا يأكلون لحم الضباع. ولعلّهم قد توقفوا عن ذلك في السنين الأخيرة. ويتّخذ البدو من أسنان الضباع قلائد لصغارهم لحمايتهم من بعض الأمراض. ويزعمون أن في صفراء مرارة الضباع حين تمزج بالماء وتشرب ما يلطّف الحمى ويخفف من حِدّتها.

الشيب

ويتحدثون في البادية وفي القرى التي على ضفافها عن حيوان يدعونه بالشيب. ويزعمون أن الذئب والضبعة يتزاوجان فينتج منهما هذا الحيوان الغريب. قال بعضهم تكون الضبعة في وقت هياجها حين تطلب السفاد، فيصادفها ذئب فينزو عليها فتلد الشيب. وقال آخرون بل الشيب نتاج الكلب والذئبة. ومهما يكن شأن هذا الحيوان الغريب الذي لم أره فالظاهر أنه من فصيلة الذئاب، أو هو ضرب خاص من الذئاب الجارحة. فهو في عرف أهل البادية شرّ من الضبع وأسوأ من الذئب. وفيه فيما يزعمون بسالة الذئب وجرأته، وشَرَه الضبع وقَرَمُهُ. والقصص التي يتناقلونها عن أذاه وشرّه كثيرة بحيث يقال أنه لا يُقَاوَمُ، ولا يردّ. وقد ذكره موزل في بعض كتبه وسمّاه السِّيب بالسين المهملة، ولم يشك بأمره، وقال إنه من نتاج الذئب والضبعة، وأن المنطقة التي يوجد فيها هي قرب بئر الشقيق (الشجيج)، وزعم أنه يهاجم الإنسان دون أن يُستفزّ أو يُثار[١٥]. ويظهر لي أنه إذا كان حقاً مهجّناً فإن هذا هو الذي يفسّر ندورة وجوده في البادية فهو كالبغل لا ينتج.

الظِّربان

ويعيش في البادية حيوان أكبر من الهر وأصغر من الكلب يسميّة البدو الظربول. وهو الظربان المعروف في الكتب العربية بنتن رائحته. قال عنه الدميري: «له صماخان بغير أذنين، قصير اليدين وفيهما براثن حداد، ليس لظهره فقار، ولا فيه مفصل بل عظم واحد، من مفصل الرأس إلى مفصل الذنب. وربّما ظفر به الناس فيضربونه بالسيوف فلا تعمل فيه، حتى تُصيب أنفه لأن جلده مثل القدّ في الصلابة»[١٦]. وهو أرمد الظهر، أصفره، أسود البطن، طويل الذنب، ويعيش على لحم اليرابيع والضِّباب وبعض الزحافات الأخرى. ويزعم العرب في أمر اصطياده الضباب، أنه يدنو من جحر الضب فيفسو فيه، فيخرج إليه الضَّب فيسدر من خبث رائحته فيقع فريسته. ويزعمون أنه

يفسو في ثوب أحدهم فلا تذهب الرائحة من الثوب حتى يبلى. وبرغم نتنه فإن بعض البدو يقتلونه ويأكلون لحمه. وقد انكر دوتي وجود مثل هذا الحيوان في الجزيرة حين حدّثوه عنه، وزعم أنه حيواني خرافي(١٧). غير أن موزل وصفه وصفاً دقيقاً وقال إن أسنانه تشبه أسنان الإنسان وله ذنب طويل(١٨). ويقال إنه يسمّى في بعض المناطق الغرير أو الغريري وفي الجزيرة الشامية عند الفرات يسمّى حفّار القبور.

الثعلب وابن آوى

كذلك يعيش في البادية وضفافها أنواع من فصيلة الثعلب أشهرها الثعلب العادي. ويسميّه البدو أحياناً «أبو الحصين». وهو منتشر في كل أرجاء البادية المتاخمة للعمران. ويأكل البدو لحمه. أما جلده فيباع في أكثر القرى حين يصاد في فصل الشتاء، ويكون صوفه طويلاً. وهو أيضاً نتن الرائحة في الصيف كما اختبرت حين اصطدته في إحدى رحلاتي . والمهم في أمره ما يتناقله البدو من القصص والأخبار عن حيله، وما يزعمونه من الأساطير عنه مما سنعرض لبعضه حين نذكر أمر الخرافات الشائعة في البادية(١٩). وهو وابن آوى الذي يشابهه في كثر من صفاته يعيشان على الجيف، وعلى ما قد يفترسانه من الأرانب والطيور، وعلى ما قد يحظيان به من نصيب في فريسة قتلها أحد الحيوانات القويّة الجارحة فشاركاه بالأكل منها.

القريطة (الهر البرّي)

وهناك أيضاً حيوان كالهرّ، ولكنه أكبر منه، وهو شرس وخفيف الحركة . ويسميه البدو القرطة أو القريطة، وتسمّيه الكتب العربيّة «عناق الأرض» وتقول عنه إنّه كالفهد خفّة وضراوة، وهو رملي اللّون، قاتمه، غير مرقّط في الأراضي القاحلة الجرداء وفي الأراضي المعشبة اليابسة يعيش بين شجيرات الشوك والحمض بحيث يتيّسر له أن يكمن وراء هذه الشجيرات، ويفاجىء الطيور من قطا ودرّج وحبارى، ويصطادها. بل قد يباغت الأرانب والغزلان كما تفعل الذئاب ويفترسها.

ويظهر أن هناك ثلاثة أنواع من هذا الحيوان أو الهرّ البرّي. الواحد صغير ولونه زبتي، ويألف الغابات والأراضي المشجّرة ، وهو أكبر بقليل من الهرّ الأليف، ويفترس الطيور. والثاني كبير الجسم، لونه رملي اللون قاتمه كما ذكرنا وأذناه سوداوان في أطرافهما شعر طويل، وهو النوع الذي تسمّيه البدو القريطة أو القرطة. والثالث أقرب إلى الفهد من حيث اللون والتنقيط وليس غريباً أنّ القدماء كانوا يدجنونه ويستعينون به على الصيد. وتنتج الأنثى من كلّ هذه الأنواع بين الاثنين والخمسة كالهرّة البيتيّة(٢٠).

الفهد

بقي الفهد ويجب أن نذكر هنا أن الكثيرين يطلقون على الفهد اسم النمر، بل بعض المعاجم العربية تشتط فتقول عنه بعد أن تصفه: قيل هو متولّد من الأسد والنمر، والذي نقصده بالفهد ليس النمر الافريقي الذي يشبه الفهد بترقيطه، بل فهد الجزيرة العربية. وهو أصغر من النمر الافريقي بكثير، وأكبر من الهرّ البريّ، أي أكبر من القريطة، وهو أبيض رمادي منقّط ببقع سوداء كبيرة. وقد كان موجوداً إلى عهد قريب بكثرة في أكثر الأحراج على حدود البادية، وفي بعض الأودية التي كان فيها شجر. وليس غريباً أن يكون منه بقايا حتّى اليوم في بعض مناطق الجزيرة الشامية حول الفرات، وفي جبل البلعاس الذي يكثر فيه شجر البطم شرقي محافظة حمص. وقد ذكر لي كثيرون أنهم رأوه في بعض هذه المواضع، وفي وادي موسى بفلسطين، وفي الحراج في جبال العلويين. وقد رأيت في صباي صيّاداً قتل فهدين عند غدير العوينة شمالي القريتين، وكان مرابطاً في مخبأ (نوجة) لاصطياد الغزلان ليلاً في الصيف عند ورودها، فإذا به يفاجأ بورود حيوانين غريبين قتلهما بطلقين فإذا هما فهد وفهدة.

وكان الفهد قديماً يقبض عليه صغيراً، ويربّى ويعلّم الصيد، ويدرّبه فهّادون اخصّاء، فيستعان به في صيد الغزال والمهى وحمر الوحش (الفرا). وقد ذكرت كتب العرب أن أول من اصطاد بالفهد من العرب كليب ابن وائل في الجاهلية، ثمّ تبعه يزيد ابن معاوية في الإسلام[٢١]. وظلّ الأمراء والملوك من بني أميّة ممن أُغرموا بالصيد يعتنون بتربية الفهود، ثمّ تبعهم العبّاسيّون في ذلك حتّى زمن الصليبيين. وفي ديوان أبي نواس في باب الطرد ارجوزة له في نعت الفهد الذي يستعين به الصيّادون لصيد الغزال وغيره[٢٢] وخمس ارجوزات أخرى منسوبة اليه وكلّها في نعت الفهد يقول في واحدة مطلعها:

«قد أغتدي والشمس في حجابها ... مستورة لم تبد من جلبابها»

واصفاً الفهدة التي تصيد له:

«سَقْياً لها ولِلَّذي غَدا بِها ... راكبةً تختالُ في رِكابها
كأنّها بعضُ ليوثِ غابِها ... ترنو بِعَينٍ خِلْتُ من أثقَابِها
ضرامَ نارٍ طارَ من لهابِها ... كأنّما النمرةُ في اقْترابها
رقمُ دبابيجٍ على أثوابِها ... مُخْطَفَةُ الكَشْحين في اضْطرابها
كَأَنَّها القناةُ في انْتِصابها ... والحَيَّةُ الرقطاء في انْسِيابها
وسُرْعةُ العِقاب في انْصِبابِها ... وَتَارَةً كالليثِ في وِثابِها

فَـأَبْصَـرتْ من حيثُ يَمَّمْنـا بهـا عُفْـرَ الـظِّبـاء وهيَ في أسرابِهـا
فَـذَهَـبَتْ تَـنْسَـلُ في طِـلابِهـا تـأكلُ وَجْـهَ الأرضِ في ذَهـابِهـا،

إلى أن يقول:

«فنحنُ في عَيْشٍ من اكتِسـابِهـا ولـذَّةٍ ونـعْـمـةٍ نُـغْـنَى بهـا
من فضلِ ما تُجدي على أصحابِها»[٢٣]

وفي كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ أخبار طوال عن الصيد بواسطة الفهود ووصف مسهب لفراهتها وجريها وتقدّمها على الكلاب السلوقية وغيرها[٢٤].

ويظهر أن أمر تربيتها ظلّ معروفاً حتّى العصور الأخيرة. فقد ذكر دوتي أن بعضهم روى له عن واحد من شيوخ البدو كان يربّي فهداً للصيد[٢٥]، وجاء جوارماني بعد دوتي فذكر في أخبار رحلته التي قام بها سنة ١٨٦٤ أنه رأى الفهد في الجبال القريبة من بادية الشام، وأن البدو كانوا يصيدونه على ظهور الخيل، وأنه بالفعل طرد واحداً على ظهر جواده حتّى أعياه فوقف يلهث فاصطاده[٢٦]. ولكنّه لم يذكر أنه رأى أحداً من شيوخ البدو يربّيه للصيد. وكذلك فعل موزل فأشار إلى وجود الفهد في أوائل القرن العشرين في الهضاب شمال شرقي وادي سرحان وفي مواضع أخرى[٢٧]. وذكر رضوان أن أحدهم صاد فهداً في أوائل هذا القرن وأورد بالفعل صورته في كتابه «خيام الجزيرة العربية السود»[٢٨].

وقد بحثت مع كثير من البدو وشيوخهم فلم أر أحداً منه يربّي الفهود في هذا العصر للصيد عليها أو لغيره. بل لعلّها أخذت هي الأخرى تنقرض تدريجيّاً من أكثر أرجاء الجزيرة. ولا بدّ من الاشارة في الختام إلى أنّ الفهد هو غير الهرّ البرّي الذي وصفنا، وإنه يختلف كثيراً عن النمر الذي يجب أن يكون قد انقرض قبل عهدنا بأجيال. وزعم العرب القدماء عن الفهد أنه حيوان حذور، لا ينام إلاّ بعين وتبقى الأخرى ساهرة يتقّي بها اعداءه وقد قال حميد ابن ثور الهلالي في ذلك:

«ونمتُ كنومِ الفَهدِ عَنْ ذي حَفِيظَةٍ أَكَلْتُ طَعـامـاً دونَـه وهْـوَ جـائِـعُ
يَنـامُ بـإِحْـدى مُقْلتيـه ويَتَّقِـي بأُخرى الأعادي فهو يَقْظانُ هَاجِعُ[٢٩]

الحواشي :

(١) انظر وصف السبع أيضاً في كتاب حياة الحيوان الكبرى للشيخ كمال الدين الدميري ، جزءان ، طبعة محمد علي صبيح عن نسخة المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٤ هـ، ٢ : ٢١ - ٢٢.

(٢) R.W. Hamilton, **Khirbat Al - Mafjar** (Oxford, 1959), Plate LXXXIX.

(٣) ديوان المتنبي، ص ١٤٥.

(٤) كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ ، تحقيق فيليب حتّي، برنستون ١٩٣٠، ص ١٠٤.

(٥) صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر لجورج أوغست فالين، تعريب سمير سليم شبلي، بيروت ١٩٧١، ص ١١٢.

(٦) Blunt, p. 77.

(٧) Musil, **Palmyrena**, p. 247 وانظر Christina Phelps Grant, **The Syrian Desert** (New York, 1938), p. 15 وتشير اللايدي آن بلنت إلى أنّ البدو يخافون من الأسد كثيراً.

(٨) ملوك الأول ١٣ : ٢٤؛ ودانيال ٦:٧.

(٩) أيّوب ٤ : ١٠.

(١٠) إرميا ٤٩ : ١٩.

(١١) وفي بعض الروايات «الحامي» بدل الضاري وهو منسوب للنابغة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ٢٠ جزءاً، طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٥ هـ، ١ : ٣٧، ٦٥.

(١٢) مسبعة تعني أرض تعيش فيها السباع.

(١٣) شرح القصائد العشر، ص ٢١.

(١٤) Doughty, I, 372.

(١٥) Alois Musil, **The Manners and Customs of the Rwala Bedouins** (New York, 1928), p. 22. وفي الأغاني (دار الكتب)، ٣ : ١٥٢ : الديسم ولد الذئب من الكلبة. . والعسبار ولد الضبع من الذئب، والسمع ولد الذئب من الضبع.

(١٦) حياة الحيوان، ٢ : ١٥٣.

(١٧) Doughty, II, 164 . ومن الغريب أنه حين ذكره في الجزء الأول من كتابه (١ : ٣٧١) وسماه ظربان Thurban قال: لست أعلم إذا كان هذا الحيوان حيواناً حقيقياً أو خرافياً. وفي الجزء الثاني ذكر أن البدو وصفوه له بالسواد وأنه أكبر من الثعلب ولكنّه مع ذلك اعتبره خرافياً وسماه eth - thurramban .

(١٨) Musil, **Manners and Customs**, p. 22.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢٠) David L. Harrison, **The Mammals of Arabia**, 3 volumes, (London, 1964 - 72), II, 279 - 95.

(٢١) مروج الذهب للمسعودي، ٧ أجزاء، تحقيق شارل بلا (Charles Pellat)، بيروت ١٩٦٦ - ١٩٧٩، ٥ : ١٥٦، وحياة الحيوان، ٢ : ٣١٧. وقد زعموا أنه علمها الركوب على الخيل.

(٢٢) ديوان أبي نواس، جزءان، تحقيق ايفالد فاغنر (Ewald Wagner)، بيروت ١٣٧٨ - ١٣٩٢ هـ/ ١٩٥٨ - ١٩٧٢، ٢ : ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ٢ : ٢٨٥ - ٢٩٠.

(٢٤) كتاب الاعتبار، ص ٢٠٦ - ٢٠٨، ٢١٢.

(٢٥) Doughty, I, 373.

(٢٦) Carlo Guarmani, **Northern Najd**. trans. Lady Capel - Cure, with introduction and notes by Douglas Carruthers (London, 1938), p. 15.

(٢٧) Musil, **Manners and Customs**, p. 20.

(٢٨) Carl R. Raswan, **Black Tents of Arabia** (Boston, 1935), opp. p. 50

(٢٩) ديوان حميد ابن ثور الهلالي، القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١، ص ١٠٥.
والبيت الثاني كما يرويه أكثر الناس يورد كلمة المنايا بدل الأعادي.

الفصل الرابع

الحيوانات البريّة في البادية
من أكلة العشب

وفي البادية حيوانات برّية لا تأكل سوى العشب وينعم عيشها في البادية إذا كانت الأرض مخصبة فتتوالد وتتكاثر، وتهزل ويقلّ انتاجها إذا أجدبت البادية وانقطعت الأمطار فيها.



غزال يرتع قرب الخيمة ورفيقه قرب مدخل الخيمة

الغزال

أمّا أشهرها وأعمّها فالغزال أو الظبي كما يسمّيه البدو وهو عند العرب من أجمل المخلوقات. وقديماً كان لهذا المخلوق الوديع دوره في أدب العرب وفي شعرهم بنوع خاص، بحيث كان مضرب المثل في الجمال عند الشعراء. به يشبّهون الفتاة رشاقة ولفتة وعيناً وجيداً:

«فَمَا مِن مُغْزِلٍ أدماءَ (م) تُزجي شادِناً خَرِقاً
بأحسنَ مقلةً منها إذا بَرَزت ولا عُنُقا»[1]

ومع ذاك فقد كان العرب يصطادونه كما لا يزالون يفعلون إلى اليوم، ويستطيبون لحمه، ويرونه من أفخر اللحوم وألذّها، ولاسيّما مشويّاً فإنّه لا يكاد يعادله شيء من اللحوم.

يقضي الغزال فصلي الشتاء والربيع في البادية، ثمّ يأخذ الهجرة منها حين تنقطع المياه فيها وتجفّ الغدران والخبرات ويقلّ الكلأ، فيقصد الأراضي العامرة على ضفاف البادية طلباً للماء والكلأ. ولو كان الماء والكلأ يدومان في البادية على طول السنة لما كان هناك داع إلى أن يهجر الغزال باديته، وليس صحيحاً أن الغزال يستطيع أن يعيش في الصيف دون ماء. فقد رأيت بعض الصيّادين في القريتين يكمنون لصيده عند بعض غدران المياه. ويظلّ الغزال في البقاع التي تحيط بالقرى إلى آخر الصيف. وعند ذاك يرقب المطر ليبدأ بالعودة. فهو من هذه الناحية لا يختلف عن البدوي من حيث السكنى في البادية والتنقّل في أرجائها والهجرة منها وإليها.

وتسير الظباء قطعاناً، وقد رأيت في القطيع الواحد منها في سنوات الحرب الأولى في السهول ما بين القريتين وحمص ما قارب المئتين عدّاً. وظلّت بعض القطعان حتّى أوائل الحرب الثانية تبلغ أحياناً ما يقارب الأربعين. ويكون لكلّ قطيع منها كبر نجود تقوده، وهي في الغالب عنز (ظبية) مكتملة شديدة التنبّه والحذر، يقظة، قليلة اللّحم، خفيفة، دائمة التلفّت والاستطلاع. فإذا كان القطيع يسرح في روضة أو واد، فهي تسرح قربه في ما ارتفع من أرض حول البقعة التي يسرح فيها القطيع لكي تكون على حذر وتتّقي أي مباغتة أو مفاجأة، وإذا فوجئت ضربت بأقدامها الأرض وأطلقت صوتاً غريباً، وانطلقت تجري مذعورة في الجهة التي ترى باب النجاة منها، وعندها يجري القطيع وراءها بسرعة بحيث لا تمرّ لحظة حتى ترى القطيع كلّه خطّاً واحداً وراءها، كأنّما هو وسط البادية حبّات عاج انتظمت في قلادة لم نضمّ طرفاها. وتظلّ النجود في مقدّمة

القطيع وهو يجري وراءها بانتظام، يميل معها كيفما مالت، وينحدر أينما انحدرت، حتّى تبتعد به عمّا كانت تخافه من خطر عليه وعليها. وإذا حدث أن قتلت النجود أخذت مكانها أخرى تكون في الغالب التالية لها عند الهرب أو الجري، أو أخذ مكانها الظبي الذي يليها.

والظباء في بوادي الجزيرة على أنواع. فمنها نوع يسمّى الغزال منه ريماً. وهو أملح كثير البياض، وهو مألوف في البادية الشامية. ومن الغزال ما يسمّى بالعفري، وهو قصير العنق أصفر الظهر بلون التراب وأبيض البطن. ومنه ما يسمّى بالحمري، وهو عسلي قرنفلي اللّون وجلده جميل. ومنه نوع يعرف بالجازي، ويزعمون أنّه يقيم كلّ وقته في البادية ولا يهجرها مع غيره من الظباء في فصل الصيف إلاّ في النادر، وذلك لأنه يصبر عن الماء فيما يزعمون، أو يجوز عن الماء كما يقولون، فلا يرد الماء ولا يطلبه. ومن يدري فلعلّه يكتفي بالقليل منه الذي يكون في النبات أو بماء الندى الذي يسقط على العشب في أواخر الليل ويظلّ حتّى طلوع الشمس، فيستغني به وهو يرعى العشب عن الماء. ومن البدو من يزعم أن العفري هو الجازي أو أنه كالجازي لا يشرب ماء. ومنهم من يجعلها على ثلاثة أنواع آرام، وعفر، وأدم ويصف الغزالة الأدماء بأنها طويلة العنق بخلاف العفراء وقوائمها طويلة وبطنها أبيض[٢].

ويذكر أسامة ابن منقذ النوع الأخير وقال عنه إنّه كبير الحجم وسمّاه الغزال الإدمي، وصاد واحداً منه قرب شيزر، وقد ميّزه عن الظباء البيض الصغيرة التي كانت الفهدة التي معهم تصيدها وتحسبها كأنها خشوف صغيرة[٣]. وذكر هذا النوع أيضاً «هارسن» في كتابه عن الحيوانات اللبونة في الجزيرة العربية، وقال عنه إنّه يسكن الجبال وسفوح التلال والسهول التي على الشواطىء الجنوبية والغربيّة منها، وإنه يعيش في المناطق التي يكثر فيها شجر السنط أو الصمغ العربي. وهو جميل ورشيق، خفيف الحركة، يقفز قفزاً رشيقاً فوق الأرض المتخدّدة، ويصبر طويلاً عن الماء مكتفياً بما هناك من الرطوبة في النباتات التي يرعاها، وهو لعوب إذا دجّن، وقد ربّى هو نفسه ظبية في واحة البريمي سنة ١٩٥٩ فكانت مصدر تسلية وبهجة لهم، تلعب مع الهرّة، وتخفي نفسها عنها، ثم تعود فتظهر لها. وكانت تلحس العرق عن أيديهم وأرجلهم عند اشتداد الحرّ نظراً لملوحته، وتحبّ ألواناً منوعة من الطعام. فكانت تأكل المقانق والفاصوليا والبطاطا والدرّاقن والخبز البلدي، وتحبّ بشكل خاص الشاي والقهوة بل كانت تأكل أحياناً السجاير والورق[٤].

وليس من شكّ في أن الظبي يألف التدجين، وكان كثير من البدو يربّونه، وقد

رأيت غزالاً يسرح مع الماعز في إحدى القرى في البرية ويعود معها إلى بيت صاحبها. ورأيت امرأة من صُليب تأتي إلى القرية ووراءها خشف يتبعها أنّى سارت في أزقتها كالكلب الذي يتبع صاحبه. وزعم فالين أن بعض الغزلان في أراضي شُمَّر كانت تختلط بقطعان الخراف وترعى معها وتألفها تدريجياً وتتبعها وتعايشها[٥].

وتتوالد الظباء في النفود وفي الحماد في أواخر فصل الشتاء، فلا تغدو إلى ضفاف البادية في أوائل الصيف إلّا وقد كبرت أخشافها الصغيرة. وقد تنتج في سنوات الخير مرّتين وتتئم أحياناً. وتخشى الظبية المطفلة على خشفها في يومه الأول، فإذا بلغ يومه الثالث أصبح من العسير إدراكه حين يجري. أمّا زمن اللّقاح فهو أواخر الصيف وأوائل الخريف كالماعز الداجنة. وللذكر ويسمّى تيساً في فصل اللقاح صوت وجعجعة كيعار تيس الماعز. وأكثر هياجه للنزو يكون ليلاً. ولا أزال أذكر أنّي في إحدى رحلاتي إلى البادية بتّ ليلة في العراء، وكان أوّل الخريف، وكنّا جماعة فلم نشعر ونحن نيام إلّا بصوت يوقظنا ولم يكن ذلك الصوت سوى صوت تيس من الغزال أو أكثر يبعر وقد استمرّت تلك الجعجعة أو اليعار برهة طويلة في ذلك الليل.

ويتميّز الذكر من الأنثى بطول قرنيه وكبر حجمه، فقرنا الظبية صغيران ومعقوفان عند رأسيها. وسنعرض لطرق صيده في موضع آخر من هذا الكتاب، ولكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الغزال يكاد أن ينقطع في هذه الأيام من البادية الشامية، وذلك بسبب مطاردة القنّاصين والرعيان والبداة وصليب له بالسلاح الحديث، وتقصير السلطات الحاكمة في ملاحقتهم وعقابهم. ولعلّ مجيء البدو بكثرة إلى البادية الشمالية دفع بما تبقّى من الظباء إلى اللجوء إلى مناطق أخرى في الجنوب[٦]، وهي مناطق لا تساعد كثيراً على إكثار عدده. وليس من شكّ في أنه لو امتنع عن صيده بضع سنوات فقط، وروعي المنع بدقّة، لعادت الظباء بشيء من الكثرة التي كنّا نألفها.

الوعل (البدن)

ويلي الغزال بين الحيوانات اللّبونة التي تأكل العشب حيوان يشبهه هو الوعل، ويسمّيه البدو «البدن»، ولكنّه يختلف عن الغزال في أنّه أكبر منه حجماً، وقرناه ثخينان معقوفان كقرون الماعز تقريباً، منحنيان نحو ظهره، ويعيش في الجبال في بادية الشام وعلى ضفافها، وفي جبال سيناء، فتراه يعتصم في الجبال ولا ينزل إلى السهول إلّا مضطرّاً، وذلك حين يطرده الصيّادون من جبله ويرغمونه على الالتجاء إلى جبل آخر قريب منه. ومن هنا فهناك من يسمّيه تيس الجبل. وقد ذكره الكتاب المقدّس هو والفراء

(حمر الوحش) في مواضع كثيرة، وهذا يشير إلى أن الوعل وحمر الوحش كانت كثيرة في الجبال والبراري والبوادي التي عرفها الاسرائيليون فجاء في سفر أيوب: «أتعرف وقت ولادة وعول الصخور أو تلاحظ مخاض الأيائل» . . . «من سرح الفراء حراً ومن فك ربط حمار الوحش؟»[٧] وجاء في المزامير: «الجبال العالية للوعول»[٨]. وقد عرف العرب الوعل منذ قديم الزمن، ونعتوه بالأعصم، وضربوا الأمثال بامتناعه واعتصامه بالجبال، فقال كثيّر في صاحبته عزّة مشيراً إلى اعتصامها وامتناعها:

«كَـأَنِّي أُنـادي صَخْـرةً حِـينَ أَعْــرَضَتْ من الصمّ لو تَمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ»[٩]

ويسكن الوعل في الجبال التي تلي البادية كما ذكرنا، كجبل طبيق، وهو الجبل الذي اكتشفت فيه نقوش يرجع تاريخها إلى العهد الحجري، وفي واحد منها رسم جمل، ووراءه في الفضاء البعيد رسم وعل، وهو أمر يشير إلى أنّ الوعل قد استوطن هذا الجبل منذ العصر الحجري[١٠]. وكجبل عاد، وجبل رماح إلى الجنوب من تدمر، وكان الوعل إلى عهد قريب يسكن الجبال القريبة من القريتين. وقد أدركت كثيرين صادوا وعولاً في جبال غطوس، والكحلة، والباردة، وعند عين الوعول وهو يألف المرتفعات التي يكون فيها عيون ماء صغيرة أو ينابيع يرد منها حين يشتد عطشه إلى الماء.

وللوعل لحية طويلة كلحية تيس الماعز، وذيل قصير كذيل الغزال، وقرنان اسمران طويلان[١١] ثخينان مقوّسان إلى الوراء على هيئة نصف دائرة بموازاة جبهته، وفي سطحهما العلوي المقدّم نتوءات من الأمام، مربّعة أو مستطيلة الأشكال. وكثيراً ما يبدو قرناه حين يحاول أن يستتر خلف بعض الصخور كغصنين منفرجين متفرّعين من شجرة يابسة. وليس لأنثاة قرون. ويقال إن عمر التيس يقاس بعدد الحلقات في قرنه.

ويفهم من أقوال الصيّادين الذين قابلتهم في تلك المناطق أن الوعل ضعيف البصر، ولكن حاستي السمع والشمّ قويتان فيه. وهو يعيش على الأعشاب وأوراق الأشجار الجبليّة. ولحمه كلحم الغزال ولكنّه أغلظ منه وربّما عسر هضمه. ويقصده الصيّادون إلى الجبال، ويكمنون له في الممّرات التي ألف المرور بها، فترى فريقاً يكمن بمضيق برأس الجبل، وآخر يطرد الصيد باتّجاه الفريق الأول وباتّجاه الريح. وقد كان الأمير يوسف كمال المصري يفد من مصر إلى سوريا في السنين التي تلت الحرب الكبرى الأولى ومعه حشم وخدم وطبيب وممرّضة وأصدقاء ورتل من السيّارات قاصداً صيد الوعول في منطقة «الباردة» وعين الوعول التي ذكرتها، فيبني سرادقه قرب عين «الباردة»، أو في تدمر نفسها، ويقيم نحو عشرة أيام أو أسبوعين يكمن في كلّ يوم منها في موضع في

تلك الجبال، بينما يطرد له الوعول صيادون استؤجروا خصّيصاً لهذا الأمر حتّى يسنح له وعل ذكر فيصيده. وترى الصيّادين قد ألفوا الطرق التي يسلكها الوعل في الجبال، وعرفوا من آثاره وبعره عن وجوده واتّجاه سيره، فأصبحوا خبراء بطرده بحيث يحتالون عليه ويدفعونه على أن يمرّ قرب الكمين فيصيده. ويكمن الصيّاد إمّا وراء صخرة، أو في منخفض من الأرض، أو يخفي نفسه ببعض الأعشاب اليابسة.

وكان الوعل موجوداً بكثرة في جبل الشيخ، وجبال فلسطين، بل كان موجوداً في أكثر جبال سوريا المتاخمة للبادية حتّى القرن الأخير. ويذكر جوارماني في أخبار رحلته من القدس إلى عنيزة أنه عند رجوعه نزل بجبل فوق وادي الغور، وبات ليلته، وما كاد ينام ساعة حتّى أيقظه صوت الحجارة المتساقطة من المرتفع حوله، فتطلّع وإذا بقطيع من الوعول (البدن) يمرّ في رأس الجبل فوقه[١٢].

أمّا اليوم فيخشى على هذا الحيوان أن ينقرض من الجبال المحيطة بالبادية الشامية، ولا سيّما الشمالية منها، لأنّ رعاة الماعز من أهل القرى الداخلية الذين ينتجعون الكلأ أحياناً لماشيتهم في هذه الجبال، والبدو النازلين في البادية قرب تلك الجبال، وقبيلة صليب بنوع خاصّ، يلاحقون الوعل في سبيل اصطياده من جبل إلى جبل. فتراه الآن يلجأ إلى أبعد الجبال الجنوبية عند طُبيْق موطنه القديم أو إلى جبل سيناء. وليست هذه الجبال بحامية له، ولا يستطيع أن يعتصم بها في هذا العصر من السلاح الحديث إذا لم تكن هناك نظم لحمايته، وقوم يتقيّدون بها، ويدركون قيمة المحافظة على نسل ما تبقّى من هذه الحيوانات النادرة. ومن المهتع أن نذكر أن الوعل قد يدجّن أو على الأقل لا يهرب إلى البريّة ثانية حين يقبض عليه صغيراً، ويتعوّد على العيش مع الماعز أو مع ما يشابهها من البهائم الداجنة. وقد ذكر دوتي أنه رأى وعلاً يتبع صاحبه في مزرعة من النخيل إلى القهوة (المقهى) في إحدى قرى الواحات دون خوف كما تفعل الظباء حين تدجّن[١٣].

الفرا (حمار الوحش)

ومن حيوانات البادية أكلة العشب التي تسير في طريق الانقراض إن لم تكن قد انقرضت كلّياً حمار الوحش. وهو الذي تدعوه الكتب العربية «الفرا» ويزعم بعضهم بشيء كثير من المغالاة أنه يعمّر مئتي سنة وأكثر[١٤]. ويضرب به المثل فيقال: «كلّ الصيد في جوف الفرا» اشارة إلى أهمية هذا الحيوان عند الصيّادين، وإلى أنّه لا يدانيه صيد مهما كان عظيماً. وقد ذكرت التوراة وجوده في البادية منذ زمن داود النبي حين أشار إليه

في مزاميره فقال: «المفجّر عيوناً في الأودية بين الجبال تجري، تسقي كل حيوان البر، تكسر الفراء ظمأها»[١٥]. وذكره ارميا النبي عند وصفه القحط وانقطاع الكلأ فقال: «الفراء وقفت على الهضاب تستنشق الريح مثل بنات آوى، كلّت عيونها لأنه ليس عشب»[١٦]. وذكره دانيال حين تكلّم عن نبوخذ نصر وزوال ملكه وعيشه طريداً فقال: «وكانت سكناه مع الحمير الوحشية، فأطعموه العشب كالثيران»[١٧]. وذكره اشعيا في نبوءته عن مصير الأرض فقال: «الأكمة والبرج صارا مغاير إلى الأبد، مراحاً لحمير الوحش، مرعى للقطعان»[١٨]. كذلك ذكره أيوب فقال: «ها هم كالفراء في القفر. . . البادية لهم خبز لاولادهم»[١٩]. وليس في كل هذه المواضع ما يفيدنا عن حمار الوحش أكثر من أنه يعيش في القفر وينتقل كالبدوي وراء الكلأ والماء ولا يستطيع العيش دونهما.

وإذا أتينا إلى المصادر العربية نجد الطبري يذكر أن الأمير الفارس بهرام ركب جواده مرة ليصطاد حمر الوحش، فرمى واحداً وتبعه، ثم رأى أسداً يفترس آخر فقتله. فَصَوَّر ما كان منه في أمر هذه الحادثة في بعض مجالسه[٢٠]. ثمّ نجد أن لبيد ابن ربيعة العامري من أصحاب المعلقات قد تصدّى لذكره ووصفه، وشبّه ناقته به، ثم شبّهها بالمهاة[٢١]. ثم نجد بعده أبا ذؤيب الهذلي في قصيدته التي رثى بها أولاده يتأسّى على فقدهم بثلاثة مشاهد انتزعها من حياة البدوي. الأوّل منها مشهد حمار وحشي مع اناثه وصغاره، كانت ترتع كلّها مطمئنة في أرض معشبة، ترعى الكلأ الجميم وترد مياه الغدران الصافية، فإذا بأحد الصيادين يفاجئها ويوزع عليها حتوفها:

«فَأَبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فَظَالِعٌ   بذمائه أو ساقِطٌ مُتَجَعْجِعُ»[٢٢]

وهنا أيضاً يقرن الحمار الوحشي ببقر الوحش (المها)، فيجعل البقر موضوع المشهد الثاني، ويتأسّى بهلاكه بسهم من الصيّاد.

وقد كان الحمار الوحشي ـ الفرا ـ هو والمهاة، أعظم صيد يطلبه الصيادون في البادية منذ عرف الصيد عند العرب، بل ربّما كان الحمار أعظم الاثنين كما لاحظنا في المثل المأثور «كلّ الصيد في جوف الفرا».

وكانت الفراء ترى في أكثر بقاع الجزيرة العربية، ولا سيّما في الهضبات التي تجاوز البادية ويكثر فيها الكلأ والماء. ومن هنا كان شمالي البادية السورية من حدود دمشق حتّى الجزيرة الفراتية أغنى المناطق بالحمر الوحشية. وتذكر الكتب العربية أن يزيد ابن معاوية كان يقصد منطقة جرود[٢٣] بين الشام والقريتين لصيد حمر الوحش والوعول،

والهضاب هناك غنيّة بالكلأ وليست بعيدة عن بعض العيون والغدران ولا يزال يعثر فيها إلى اليوم على بقايا بعض السهام التي كان يطلقها الصيّادون على الطرائد أيام كانت السهام السلاح الفاتك الوحيد الذي يصيدونها به(٢٤)

ويظهر من بعض الرسوم التي خلّفها الأمويون زمن الوليد ابن عبد الملك في قصير عمرة في شرقي الأردن أن حمر الوحش كانت من الكثرة بحيث تسير قطعاناً، وأن الصيّادين كانوا يطردونها حتى يلجئوها إلى أمكنة مطوّقة بحيث يكمن الصيّادون لصيدها بالحراب أو الرماح، ومنهم من كان يطردها على الخيل حتّى يدركها فيرميها إمّا برمحه أو بالسهام(٢٥).

وظلّت حمر الوحش كثيرة حتّى في المواطن التي تقرب من المزارع والقرى ولاسيما في الجزيرة الشامية، وفي جهات حماة وشيزر قرب نهر العاصي. وقد أشار أسامة ابن منقذ في مذكراته التي دوّنها في القرن الثاني عشر للميلاد، في باب أخبار الصيد، إلى وجود الفراء بكثرة في البادية السورية حولهم. وروى أنه خرج مرّة هو وأبوه لصيد الغزال وهو صغير «فوصل وادي القناطر وإذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق فأخذهم [أبوه] وكتّفهم وسلّمهم إلى قوم من غلمانه يوصلونهم إلى الحبس بشيزر» قال: «فأخذت أنا خشتاً [حربة] من بعضهم وسرنا في الصيد وإذا عانَةُ حَمير وحش، فقلت للوالد: يا مولاي ما أبصرتُ حمير الوحش قبل اليوم، عن أمرك، اركض أبصرهم. فقال: افعل! وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحراميّة، فصرت وسط العانة فأفردت منها حماراً وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يصل فيه شيئاً لضعف يدي وقلّة مضاء الحربة. فرددت الحمار حتّى رددته إلى أصحابي فأخذوه وعجب الوالد ومن معه من عَدْو تلك الفرس»(٢٦).

والظاهر أن الفرا قد أخذ في الانقراض من البادية السورية منذ أواخر القرن التاسع عشر، لأن قليلاً من الرحّالة الأوروبيين من ذكر أنه شاهده فبالجريف الذي دخل قلب الجزيرة العربية سنة ١٨٦٢ - ١٨٦٣ لم يشر أبداً - ولو بإشارة عابرة - إلى هذا الحيوان، وكذلك دوتي. أمّا جوارماني وقد قام برحلته إلى قلب الجزيرة سنة ١٨٦٤، فقد ذكر بالملحق رقم ١٤ الذي وضعه لأخبار رحلته، إنه عند انقضاء الشتاء يعبر الكثيرون من قبيلة صليب الفرات ، لصيد حمار الوحش في ما بين النهرين، لأنها لم تعد توجد في الحماد (بادية الشام). ثم يقول إن صليباً تقبض على بعض هذه الحمر حيّة وتربّيها لتهجين حميرهم(٢٧). أمّا الذكور من النتاج فتخصى، وتباع متى أتمّت سنتين من عمرها بمقدار مئتي ريال نمساوي الواحد(٢٨). غير أن موزل وهو من أقرب الرحّالة عهداً إلينا،

أشار في واحد من كتبه إلى أنّ دليله في منطقة الفرات الوسطى أخبره أنه شاهد مرة قطيعاً كبيراً يبلغ نحو ستين حماراً وحشياً وأنه صاد واحداً منها قريباً من الخابور في الجزيرة[٢٩]. ولقد سألت كثيرين من البدو فلم يصرّح أحد منهم أنه رأى حماراً وحشيّاً في حياته وكذلك سألت آخرين من أهل الجزيرة والعاملين فيها فذكر لي بعضهم أنه لم ير الحمار الوحشي، ولكنّه سمّى أناساً شيوخاً رأوه في أواخر القرن التاسع عشر، ولا يستغربون أن يكون منه بقايا حتى زمننا هذا. وذكر لي أحد الرعاة الشيوخ أنه أرسل إلى فياض آغا زعيم القريتين في أواخر القرن التاسع عشر حمار وحش، فأرسله بدوره هديّة إلى والي الشام أحمد باشا الشمعة. وقد صِيدَ الحمار من المنطقة التي تحيط بقربة الفرقلس قريباً من خطّ الأنابيب اليوم.

ويذكر دوغلاس كاروثرز أن الحمر انقطعت من الحماد في القرن التاسع عشر عند ظهور البندقية الحديثة بأيدي البدو وصليب ولجأت إلى منطقة الفرات ولهذا فإن كثيرين من بدو الصليب يقطعون الفرات في الشتاء للقبض على بعضها لتلقيح أتنهم[٢٩].

وتزعم العرب أن الفرأ يعمر طويلاً .ويذكر كشاجم أن الحمر لا تنزو إلّا إذا اجتمع لها من العمر ثلاثون شهراً، ولا تلقح الأنثى قبل أن يتمّ لها ثلاث سنين، وأنها كانت تدجّن بحيث قيل إنّ ما دجّن من حمر الوحش أحمد لحماً من البرّي[٣٠]. وفي حياة الحيوان للدميري أن ابن خلكان رأى رأس حمار وحشي صاده بعضهم فوجد على أذنه وشماً يرجع إلى زمن بهرام جور من ملوك الفرس[٣١]. وهو أمر في منتهى الغرابة، ولعلّه من اختلاق الرواة.

المها أو البقر الوحشي (الوُضيحي)

ومن هذه الحيوانات البريّة البقر الوحشي أو المها كما تسمّيها الكتب والأشعار العربيّة. ويسمّي البدو هذا الحيوان «الوضيحي» لبياضه. وقد كان موجوداً إلى زمن ليس ببعيد في كلّ بوادي الجزيرة حتّى البادية الشامية. وقد أشار جوارماني[٣٢] إلى وجوده في البادية الشامية في منتصف القرن التاسع عشر. ونقل هارسن عن مصدر أنه رُئي في الخريف بعد الحرب الكبرى الأولى في التلال القريبة من بلدة جرود[٣٣] التي لا تبعد عن دمشق أكثر من ستين كيلومتراً. ويحتفظ متحف الجامعة الأميركية في بيروت بنموذج منه مصبّر يرجع عهده إلى أواخر القرن التاسع عشر. بل أن كاروثرز أشار سنة ١٩٣٨ إلى البقر الوحشي حين علّق على رحلة جوارماني المذكور، وذكر أن بقر الوحش لا يزال موجوداً في منطقة طبيق، وهي فيما قال آخر ملجأ له في شمال الجزيرة العربية[٣٣] أمّا دوتي فقد أشار إلى وجوده في ديار الشرارات على طريق الحج، وذكر أن بعضهم كان قد ربّى



المها أو البقر الوحشي

بقرة أمسكها البدو وقد أرسلت بالفعل إلى دمشق ومنها إلى الاستانة[٣٤]. وقال أنه رأى بقرة وثوراً في أواخر القرن التاسع عشر عند آخرين في حائل[٣٥]. وإن قرون البقر شيء مألوف في تيماء يأتي بها البدو من عرب الشرارات ويهدونها أهل تيماء فيستعملونها لفت التمر حين يتلاصق في أوعيته. وإن بدو صليب يستعملونها أحياناً أوتاداً لخيامهم. وذكر كذلك أن الجلود تستعمل لنعال الأحذية[٣٦]. وأشار موزل وهو من الروّاد في مطلع هذا القرن إلى وجود المها وتردّدها في منطقة النفود صيفاً ولا سّيما حين لا يكون هناك كثير من البدو فيها بحيث تشاهد وهي ترعى حتّى في النهار. أمّا في أشهر المطر فهي لا تسرح إلاّ ليلاً لخوفها[٣٧].

وهكذا فإنّها حين أخذ الصيّادون يفتكون بها بفضل السلاح الحديث لجأ ما تبقّى منها إلى الربع الخالي، بحيث زعم ولفرد تيسجر انه رأى عند اجتيازه الربع الخالي سنة ١٩٤٨ مرة قطيعاً من ٢٨ بقرة وحشية عدا ما كان رآه قبلاً[٣٨]. وكانت شركة أرامكو تحتفظ بثور وبقرة في حديقة أقامتها بالأحساء ثم قدّمتها إلى حديقة الملك السعودي. وأخيراً قام أمير في قطر، هو الأمير قاسم بن حمد آل ثاني فأنشأ حديقة صغيرة خاصّة لتربية المها، جمع فيها قطيعاً من نحو عشرين مهاة كان اصطادها كما ذكر من الربع

الحالي. ويظهر من بعض الصور التي أخذت لها في تلك الحديقة أنها تتوالد في الأسر وأن صغارها مثل صغار البقر تماماً. كذلك أنشىء في شرقي الأردن حديقة خاصة للحيوانات استجلبوا لها عدداً من بقر الوحش وأخذت تنتج في الأسر.

والبقر الوحشي مثل الوعل حجماً، بل أكبر منه، ولكنّه يتميّز عنه بشكل رأسه ويلون جلده وبقرنيه. فالوعل كالغزال رملي اللون، ولكنّ البقر الوحشي أبيض الجلد عاجيّه، وله بقعة سوداء في وجهه. فهو أبقع الوجه، ذو ظلف كظلف البقر، وذيل كذيل البقر، وقرنا كلّ من الثور والبقرة طويلان يبلغ واحدهما احياناً قدمين أو أكثر. وهما مستقيمان تقريباً، دقيقان مضلّعان عند القاعدة إلى نحو ثلث الطول وأملسان إلى أعلاه. وطرف القرن رفيع مستدق محدّد كرأس السفّود الذي يشك به اللّحم عند الشواء. ويستعين البقر الوحشي بقرنيه، فيحمي نفسه من كلاب الصيد وغيرها من الحيوانات التي يمكن أن تهاجمه. ولعلّ النابغة لم يبالغ حين وصف قرن بقرة وحشيّة خارجاً من خاصرة كلب وَزَعَهُ صيّاد عليه فقال:

«شَكَّ الفَرِيصَةَ بالمِدرى فأَنْفَذَهَا ... شَكَّ المُبَيْطِرِ إذ يَشفِي من العضَد
كأنَّهُ خارجاً من جنب صَفحتِه ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوْهُ عِنْدَ مُفْتَأَدِ»(٣٩)

وليس من شكّ في أن المها هي التي ذكرت في الكتاب المقدّس بلفظة «رئم» بالعبرانية وهي اللفظة التي تطلق على الغزال بالعربيّة، وترجمت خطأً في سفر التثنية ١٤ : ٥ وفي سفر عدد ٢٣ : ٢٢ و ٢٤ : ٨ باللفظة نفسها. أمّا في سفر أيّوب ٣٩ : ٩ - ١٢ فقد ترجمت بالثور الوحشي، وقد أخطأ كاتب المادة عن رئم في قاموس الكتاب المقدس (بيروت، ١٩٦٤) ص ٣٩١ حيث زعم أنه انقرض من العالم وظن أنه هو الأوروخس ففي بَرَكَة يعقوب في سفر التثنية ليوسف يقول وقرناه قرنا رئم. وفي سفر أيوب خلصني من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش. ومن الممتع أن نلاحظ في ذلك الاصحاح أسماء أكثر حيوانات البادية وطيورها من الوعول والفراء وبقر الوحش والنعام والعقبان والنسور والغربان، حتّى اللبوة والخيل. ويقال إنّ لحم الفرا من أطيب لحم الصيد وأنّه أفضل من لحم الوعل (البدن). وللمهاة عينان واسعتان أعجب بهما الشعراء العرب فشبّهوا فتاة شعرهم بالمهاة، وعيونها بعيونها فقال علي ابن الجهم:

عُيونُ المَها بينَ الرُّصافةِ والجِسرِ ... جَلَبْنَ الهوى من حيثُ أَدْري ولا أدري(٤٠)

وتكون عينا المهاة أجمل وأوقع أثراً في النفس حين تكون مُطفلة تحنو على صغيرها، وتحاول أن تظلّ متنبّهة للدفاع عنه. كما قال ابن أبي ربيعة مشبّهاً فتاته بمثلها:

«وعَيْنَي مَهاةٍ في النَّخيلةِ مُطفلٍ   مُكَحَّلةٍ تَبغِي مُراداً لجُوْذُرِ»[٤١]

ويظهر أن ما تبقّى من بقر الوحش في الجزيرة كلّها يلجأ الآن إلى منطقة الربع الخالي. وليس غريباً أن ينقطع وجوده إذا لم تتدارك السلطات المعنيّة أمره وتحميه، ولو في بقعة من بقاع الربع الخالي. لأنّه ليس طبيعيّاً أن يتوالد بكثرة في الأسر. مهما كانت العناية به، مثلما يتوالد في بيئته الطبيعية. وكان أحد علماء البيئة الأميركيين واسمه «لي مريم تالبوت» Lee Merriam Talbot قد كتب في مجلّة تيم Time الأميركية عدد ٢١ تشرين الثاني ١٩٥٥ ص ٣٢ أن بقر الوحش في طريق الانقراض من الجزيرة، وذكر أن الأمراء العرب يصطادونه بشتّى الطرق. وقال انه ربّما يوجد الآن في الربع الخالي نحو مئة بقرة على الأكثر.

وكانت قبل هذا العهد بدو الصلبة أفتك الصيّادين للمها. وكان باستطاعة الصيّاد منهم، وهو يرتدي ثياباً بيضاً أو رمليّة اللون أو كساء من جلد الغزال، أن يدنو من البقرة الوحشية وراء حماره الأبيض إلى مرمى الرصاص، دون أن تراه أو تشعر به، شرط أن يكون الريح متّجهاً منها إليه. ولكنّها إذا استشعرت به فرّت وقد تجري لخوفها عشرات الأميال قبل أن تقف أو تشعر بالأمان. ولكن لا سبيل إلى النجاة أو الأمان في السنين الأخيرة حين يكون باستطاعة الصيّادين أن يطردوا المها بالسيّارات أو الطيّارات إذا لزم الأمر. والجناية الكبرى في إبادة المها العربية أنه ليس هناك مثلها من فصيلتها في أي بلد آخر. وقد أخبرني أحد الإخوان السودانيين من أهل الجنوب أن المها لا تزال توجد في السودان ولكنّ قرونها تختلف عن قرون مها الجزيرة العربية إذا أنها تنحني إلى الوراء لأنها تعيش في مناطقّ حرجيّة كأنّ الطبيعة أو البيئة أثّرت في تكوينها.

اليحمور

لا يعرف البدو اليوم حيواناً في البادية يعرف بهذا الاسم، ويذكر اسامة ابن منقذ في مذكراته أنه كان يصيد اليحامير قرب بانياس ممّا يدلّ على أنها تعيش في أراض كثيفة الشجر والعشب، وقد أوضح ذلك في قوله : «ورأيت الصيد في دمشق أيام شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك للطيز والغزلان وحمر الوحش واليحامير. فرأيته يوماً وقد خرجنا إلى شَعْراء بانياس ، وفي الأرض عشب عظيم فتصيّدنا كثيراً من اليحامير. وضربت الخيام حلقة، ونزلنا فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب، فأخذ في وسط الخيام»[٤٢]. وظاهر من كلامه أن اليحامير هي غير حمر الوحش ويظهر أنها دابة تشبه العنز كما جاء في القاموس[٤٣] أو نوع من الوعول أو الأيائل يختلف عن وعول الجبال القريبة

من البادية. والذي يقرأ كتاب مورسن عن الحيوانات اللّبونة في الجزيرة العربية يدرك أن هناك أنواعاً من الماعز البريّة ربّما كان اليحمور واحداً منها.

الخنزير البرّي

ومن الحيوانات آكلة العشب في البادية السوريّة الخنزير البرّي، وهو يكثر في وادي سرحان حيث يكثر الكلأ والماء، وفي الجبال الغربية التي تقع على ضفاف البادية في منطقة تدمر من حدود جرود حتى الجزيرة في الشمال وفي المناطق المشجّرة قرب الفرات. ويعيش الخنزير على جذور بعض النباتات البرية وعلى سوقها وجذورها التي تحت التراب كالتمّير والقفعرور وما إليهما. وقد يسطو أحياناً على بعض المزارع المتطرّفة، ويأكل الذرة الصفراء منها ويتلف للفلّاحين بعض موارد رزقهم. ولحمه محرّم كما هو معروف عند المسلمين فلا يأكله من أهل القرى سوى المسيحيين، بل إن بعض المسيحيين يجارون المسلمين في الامتناع عن أكل لحمه. أما في البادية فقد لا يجد بعض البدو باساً في أكل لحمه، تدفعهم إلى ذلك حاجتهم وفقرهم وجهلهم بأمور دينهم بل إنهم يداوون جروحهم وجروح خيلهم وإبلهم بدهنه.

وهو حيوان مخيف شرس لاسيّما إذا جرح أو أحرج. له نابان حادّان أعكفان يستطيع أن يؤذي بهما، بل قد يمكنه أن يقضي بطعنة منهما على الانسان إذا لم يعرف كيف يتقي شرهما. وقد عرفت صيّاداً طعنه خنزير بأليته وفخذه فظلّ نحو ستة أشهر طريح الفراش بسبب تلك الجروح إلى أن شفي تماماً.

ويحب الخنزير المستنقعات والأراضي الغنيّة بالأشجار، ومن هنا فإنّه يكثر الآن في أراضي العراق قرب المياه. ويسمّي عرب الروله الذكر من هذا الحيوان شَحْلاً والأنثى شيبةً والصغير قرنوصاً[٤٤]، ويتشاءمون من رؤية الخنزير إذا كانوا قد شرعوا في الانتقال (الظعن) من موضع إلى آخر، أو كانوا في طريقهم إلى غزوة ما يريدون القيام بها.

النيص

وهناك حيوان صغير يشبه الخنزير شكلاً، ولكنّه في الواقع بعيد عن فصيلته، وهو النيص. ويعيش في الحزون والجبال الصخرية حيث يتّخذ لنفسه أوكارا من الحفر الطبيعيّة فيها. كما أنه يحفر لنفسه كما تفعل الأرنب إذا لم يجد له وكراً طبيعياً. وهو طويل الأنف أو الخرطوم، صغير الأذنين وبحجم الهرّ، غير أنه أعلى منه ارتفاعاً وأثخن حجماً. شعره مثل شعر الخنزير، ولكنّه أقرب إلى القنفذ من حيث أنه مكسوّ الظهر بنوع من الشوك الطويل. وهو شوك أطول من شوك القنفذ وأثخن منه، وقد يبلغ طول الواحدة

منه نحو ثلاثين سنتيمتراً، ويبلغ قطرها عند أصلها نحو سنتيمتر وأكثر، وتستدقّ عند رأسها بحيث تصبح كالمسلّة الحادّة. وهذه الأشواك فارغة الجوف مخطّطة بحلقات عراض سود وبيض، وكنّا نستعملها ونحن طلبة في القرى مقابض لريش الأقلام. ويزعمون في القرى وفي البادية أن النيص حين يجرح وهو في البرّية، أو حين يحرج أو يرى ما يخافه، ينقبض على نفسه أو ينتفض، فيقف شوكه ويحدث صوتاً مخيفاً، ثم يدير ظهره إلى خصمه ويندفع نحوه بحيث إذا قرب منه علقت به بعض هذه الأشواك ونفذت في جسمه كالنبال(٤٥).

وللنيص أظافر مثل المخالب في كفّ ككفّ الولد الصغير. وهو يعضّ ويخمش حين تدنو منه، أو حين يحرج. وهو كذلك مغرم بالعظام يعرقها بأنيابه. وإذا صيد النيص فلا يسلخ جلده، بل يكشط كشطاً من ريشه، ويؤكل ما تبقّى من الجلد مع لحمه. إذ أن الجلد طبقة دهنيّة جلاتينيّة أو هي شيء يشبه جلد الخنزير.

ويعيش النيص على النباتات، ويأكل فيما يزعمون نوعاً مرّاً من اليقطين البرّي يقال إنه يحدث لمن يأكل ورقة منه إسهالاً شديداً(٤٦). ويأكل كذلك اللفت والبطاطا والبصل والجزر هذا إذا كانت مزارع هذه الخضار قريبة من أوكاره.

ويكثر في منطقة «القعرة» في البادية الشامية، حيث تكثر الجحور والأوكار والصخور المجوّفة، ويكثر كذلك في المناطق التي على ضفاف البادية وبخاصة في الأودية الكبيرة والحزون والجبال التي يعلو سطحها مغاور وكهوف. وهناك واد يعرف بوادي النياصة بين الغنثر والقريتين. وقد حدّثني من صاد أكثر من نيص واحد فيه قال: إن أفضل طريقة لصيد النيص هي أن تُقصد ليلاً المغاور أو شقوق الصخور التي يأوي اليها في النهار، لأنه يسرح في الليل ويغادرها، فيجمع الصيّاد شيئاً من النباتات الشائكة كالقتاد أو غيره، ويضعه على باب المغارة الضيّقة أو الشقّ بحيث يسدّ المنفذ على النيص عند رجوعه في آخر الليل. وعندما يعود النيص من مسارحه إلى المغارة يرى الشوك في مدخلها، فيحاول الدخول ولا يستطيع، لأن وجهه لا يتحمّل أذى الشوك. ويظلّ واقفاً حائراً في بابها. وعند الفجر يفاجئه الصيّادون ويقتلونه بالعصي إذا شاؤوا لأنه لا يستطيع الهرب في النهار.

الوبر (الوبار)

وهناك حيوان غريب نادر يسكن في أوكار بين الصخور في الجبال ذكره داوود في مزاميره فقال: «الصخور ملجأ الوبار»(٤٧). وهو بحجم الأرنب الصغير ويشبه الأرنب

شكلاً ويأكل العشب الطري الذي ينبت في الجبال الرملية الصخر عند آخر حدود البادية الشامية، وورق السنط وهو الشجر الذي يستخرج منه الصمغ العربي، وباستطاعته التسلّق عليه بسهولة. وهو رماديّ اللون أبرش قريب من لون الصخور التي يعيش فيها، ناعم الجلد له أقدام كأقدام الأرنب وفي المتقدّمة منها أربع أصابع وفي المتأخرة ثلاث. وهو يجترّ أو بالأحرى يحرّك فكه السفلي كالحيوانات المجترّة، ولكنّه غير مشقوق الظلف. ولهذا حرّم على اليهود أكله. والبدو تأكل لحمه المدهن وتحبّه. ولأصابعه أظافر مدوّرة بعضها كالمخلب الحادّ. وله أسنان حادّة يعضّ بها من يحاول القبض عليه عضّاً مؤذياً. ويعيش جماعات صغيرة يزعمون أنها تجعل لها حارساً يحرسها في مكان مرتفع لتعطي إنذاراً إذا أحسّت بشيء من الخطر[٤٨]. وقد زعم دوتي[٤٩] انه رأى الوبار يعيش أزواجاً إما اثنين أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو عشرة. وهو حادّ النظر والسمع والشّم وذكوره في موسم اللقاح في الربيع تحبّ القتال. وتدوم مدّة الحبل بين ٧ و ٨ أشهر وتلد الأنثى ثلاثة أو أربعة في البطن الواحد[٥٠]. وقد وصفه سليمان الحكيم بالحكمة فقال: «أربعة هي الأصغر في الأرض ولكنّها حكيمة جداً: النمل طائفة غير قويّة ولكنّه يعدّ طعامه في الصيف ، الوبار طائفة ضعيفة ولكنّها تضع بيوتها في الصخر، الجراد ليس له ملك ولكنه يخرج كلّه فرقاً فرقاً، العنكبوت تمسك بيديها وهي في قصور الملوك»[٥١].

القنفذ

أمّا القنفذ فهو حيوان صغير مألوف في البادية وفي القرى، ويعرف «بأمّ الشوك»، ولعلّه أكثر من نوع واحد، يختلف الواحد عن الآخر بالنسبة للمنطقة التي يعيش فيها. وأكثر ما يظهر في اللّيل حين يسير في طلب طعامه. وهو بحجم الجرذ الكبير، ويستطيع أن يخفي نفسه في جلده الشوكي فلا يبدو شيء من أعضائه. ويصبح عند ذاك كرة مشكوكة بالشوك لا تتحرّك. وهو يجنح إلى اخفاء نفسه كلّما أحرج ولم يجد متّسعاً للهرب، وحين يراه البدوي يضع عصاه عند بطنه الذي يكون قد غطّي بالجلد الشائك، فيضطرّ القنفذ إلى أن يظهر رأسه وأطرافه وبطنه. وبعض البدو يذبحونه ويأكلون لحمه مشويّاً ويستطيبونه. ويتّخذون من جلده تعويذة تربط مدّة شهر أو أقل حول عنق الناقة التي تخاف أو تجفل من أي شيء فيذهب عنها الخوف فيما يزعمون.

الجربوع (أو اليربوع)

وهناك في البادية السورية، وعلى ضفافها في البراري التي تحيط بقراها وبخاصة حول القريتين وتدمر، وفي الجزيرة الشامية، نوع من الحيوان الصغير غريب الشكل،

وليس غريباً أن يكون موجوداً في غير البادية السورية أيضاً يسميه البدو والحضر جربوعاً، وتسميّه المعاجم العربية يربوعاً. وهو بشكل الجرذ وبحجمه تقريباً، غير أن يديه قصيرتان جدّاً إذا قيستا بالنسبة إلى رجليه، إذ لا تبلغ الواحدة أكثر من خمسة سنتيمترات، بينما تبلغ الرجل نحو عشرة، وهو يشبه الكانكارو من هذه الناحية. وهو على نوعين، واحد له ذنب طويل يرفعه صعداً حين يركض كما يرفع السنجاب ذيله، وفي طرف ذنبه كتلة من الشعر شبه النوارة (الشرابة)، وأذناه طويلتان، ولونه كلون جلد الغزال أو الأرنب البرّي، ووبره ناعم كوبر الأرنب، ورأسه يشبه رأس الارنب؛ والنوع الآخر مثله، ولكن ليس لذيله كتلة من الشعر. ويزعم بعض البدو أن هناك نوعاً ثالثاً يسمّونه الجردي وهو مثل الأول ولكنّه أكبر منه، وله خمسة عقد أو أصابع في رجله[٥٢].

يتّخذ الجربوع أوكاره تحت سطح الأرض في السهول الترابية والرملية حيث يحفر فيها حفراً داخلية عميقة، ويحدث بين هذه الحفر منافذ يستطيع أن يسدّها متى شاء. وهو يفعل ذلك حتّى لا تنفذ إلى مخابئه في الأوكار مياه المطر في الشتاء. ويزعم البدو أن الجربوع لا يشرب أبداً، ولا يحتاج إلى ماء، وهم يأكلون لحمه ويستطيبونه، ولحمه أبيض أشبه بلحم صدر الدجاج. كذلك يظهر أن طير الصقر يحبّ لحم الجرابيع، ولهذا فهو يسطو عليها حين تخرج من أوكارها، وإنّ الصيادين يتخذون لحم الجرابيع طعماً في شباكهم حين يحاولون القبض على الصقور الكبيرة.

ومن أساطير البادية أن الجربوع افتخر فقال: «أنا الجربوع ابن المربوع، معشي عشرة مع عشرة، ومقاسمي على سجره، ولو أيديّ طول رجلّي ما تلحقني كل عبيّة[٥٣]» أما الجردي فقد افتخر في أنه يستطيع أن يردي أعظم فارس عن جواده بفضل الحفر التي يتّخذها، فتعثر بها الخيل، وتردي فرسانها. ومن تقاليد البدو أن جربوعاً مسنّاً نصح صغيره قائلاً:

«فُـزْ بنفسَـك إنْ شُفـتْ ضيـماً	وخِـلِّ الـدارْ تِنعي لِمَنْ بَنـاهـا
الـدارْ تَجِـدْ أَخَـيْر مِـنهـا	ورُوحَك لَمْ تجدْ رُوحاً سِواها»[٥٤]

الأرنب

أما الأرنب فهو حيوان معروف، ومنه نوع برّي يوجد في كلّ أرجاء البادية الشامية من النفود، حتّى السهول التي تفصل بين القرى السورية. وهو على أنواع وألوان تبعاً للبيئة التي يعيش فيها. والبدو يطلبونه ويصيدونه بواسطة الصقر، ويتفاءلون برؤيته فيقولون حين يرونه: «عرضتنا للخير وعرضناك للطير»، وسنعرض لطرق صيده حين نبحث طرق الصيد.

الحواشي :

(١) شعر عمر ابن أبي ربيعة، ١ : ١٩٢ ، وعمر ابن أبي ربيعة لجبرائيل جبور، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٣٥ - ١٩٧١، ٣ : ٤٠٩.

(٢) حياة الحيوان، ٢ : ١٤٥.

(٣) كتاب الاعتبار، ص ٢٠٧.

(٤) **Mammals of Arabia**, II, 356.

(٥) صور من شمالي جزيرة العرب، ص ١١١.

(٦) وحتّى في الجنوب كاد ينقطع فقد ذكر فلبي في كتابه «أربعون سنة في البريّة» أنه أصبح نادراً بعد أن كان بالألوف وبعد أن كانت قطعانه تضم المئات منه

H. St. John Philby, **Forty Years in the Widerness** (London, 1957), p. 200.

(٧) أيوب ٣٩ : ١، ٥.

(٨) مزامير ١٠٤ : ١٨.

(٩) الأغاني (بولاق)، ٨ : ٣٨ - ٣٩.

(١٠) Philip K. Hitti, **History of Syria** (London, 1951), p. 52.

(١١) ذكر دوتي، ٢ : ١٦٤، أنه حدّث عن قرني وعل طول الواحد أكثر من قدمين.

(١٢) Guarmani, p. 9 . وقد أخطأ كاروثرز في تعليقه في هامش الصفحة على هذا الخبر حين زعم أن الوعل في تلك المنطقة قد بلغ آخر حدوده الشمالية، إذ أن بعضه كان لا يزال يعيش حتى السنوات الأخيرة في الجبال التي تجاور القريتين وتدمر. وهذه الجبال تبعد أكثر من مئتي كيلومتر شمالي طبيق. وفيها موضع اسمه عين الوعول ذكرته المصادر العربية منذ زمن، وذكره الرواد بذلك الاسم في الزمن نفسه الذي ذكره جوارماني. انظر: Wright ، ص ٤٠، ١٤١، ٢٠٠ وأخبرني والدي أنه صاد وعلا في الجبل الذي فيه عين الوعول وذلك في مطلع القرن العشرين.

(١٣) Doughty, I, 665.

(١٤) حياة الحيوان، ١ : ٣٧٦.

(١٥) مزامير ١٠٤ : ١٠ - ١١.

(١٦) ارميا ١٤ : ٦.

(١٧) دانيال ٥ : ٢١.

(١٨) اشعيا ٣٢ : ١٤.

(١٩) أيوب ٢٤ : ٥.

(٢٠) تاريخ الرسل والملوك للطبري، تحقيق م. ي. دي خويه (M. J. de Goeje) وزملائه، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١، ١ : ٨٥٧.

(٢١) شرح القصائد العشر، ص ٧٣، ٧٦.

(٢٢) ديوان الهذليين، ١ : ٩.

(٢٣) حياة الحيوان، ١ : ٣٧٦، وعن وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق احسان عبّاس، بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢، ٦ : ٣٥٤.

(٢٤) يؤيّد هذا ما ذكره دوتي، ١ : ٦١٣.

(٢٥) قصير عمرة لمارتيه الماغرو ولويس كاباليرو وخوان شوشايا وانطونيو الماغرو، مدريد ١٩٧٥، ص ١٧٠ - ١٧٣، ١٧٦ - ١٧٨، ١٨٠.

(٢٦) كتاب الاعتبار، ص ٢٢٠.

(٢٧) لم أجد بين من سألتهم عن هذا الأمر من قرويين أو صليب من يؤيّده غير أن حسين بك ابش وهو من أشهر السوريين بهواية الصيد في النصف الأول من هذا القرن كتب إليّ أن بعض صليب يدّعي هذا وهو

ليس متأكداً من صحته، إنما يلاحظ أن كثيراً من الحمر الأهلية الأليفة لا تزال تظهر في جلودها خطوط سوداء كالخطوط التي تتميّز بها حمر الوحش. فترى أحياناً على الفخذ وأحياناً على الأكتاف وأحياناً عند العنق أو عند الذيل.

(٢٨) Guarmani, p. 120 وقد علق في هامش الصفحة كاروثرز على الخبر السابق أنه صحيح بخلاف ما يزعمه بعض الكتاب المتأخرين، ثم يقول إن الحمار الوحشي قد انقرض من حماد سوريا، ولكنه لا يزال يوجد في البادية شمالي الفرات في جوار جبل سنجار. وكذلك ذكرت اللايدي آن بلنت Blunt, p. 240، أن اليزيدية يأكلون لحم حمار الوحش الذي يوجد بكثرة في بلادهم.

(٢٩) انظر Alois Musil, **The Middle Euphrates** (New York, 1927), pp. 74, 156 وقد ورد الخبر نفسه في موضعين ولكن الرواية تختلف في الموضع الواحد عنها في الموضع الآخر وليس غريباً أن تكون مختلقة لفقها الدليل، ولا سيما وأن موزل لم يظهر أنه متأكد من صحتها.

(٢٩ أ) Douglas Carruthers, **Arabian Adventure** (London, 1935), p. 149

(٣٠) المصايد والمطارد لأبي الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم، تحقيق محمد أسعد طلس، بغداد ١٩٥٤، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣١) حياة الحيوان، ١: ٣٧٦، عن وفيات الأعيان، ٦: ٣٥٤.

(٣٢) Guarmani, p. 74.

(٣٣) Harrison, II, 346.

(٣٣ أ) **Arabian Adventure**, p. 149.

(٣٤) Doughty, I, 98.

(٣٥) المصدر نفسه، ١: ٣٧٢، ٦٤٤.

(٣٦) المصدر نفسه، ١: ٦١٣.

(٣٧) Musil, **Manners and Customs**, p. 26

(٣٨) Wilfred Thesiger, **Desert, Marsh and Mountain** (London, 1979), p. 54.

(٣٩) شرح القصائد العشر، ص ١٥٤.

(٤٠) نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار، جمعه عبد الرحمن ابن عبد الله ابن درهم، ٣ أجزاء، بيروت ١٣٤٥ هـ، ٢: ٤٠٥.

(٤١) شعر عمر ابن أبي ربيعة، ١: ٥، وعمر ابن أبي ربيعة، ٣: ٤٠٩.

(٤٢) كتاب الاعتبار، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٤٣) لسان العرب، تحت مادة «حمر».

(٤٤) Musil, **Manners and Customs**, p. 28.

(٤٥) يزعم دوتي، ١: ١٧٣، أن هذا من خرافات العرب وأساطيرهم ولكن يظهر أن النيص يفعل ذلك كما فهمت من كثيرين ممن شاهدوه عياناً وصادوه. وبعض هذا الشوك ويسميه البدو «ريشاً» يقع غالباً عند أيسر انتفاضة يبديها النيص ولكن ليس معنى ذلك أنه يرميها كالسهام. وكثيراً ما شوهد شوكه منتشراً عند مداخل بعض الأوكار في الجبال المجاورة للقريتين حيث يكثر النيص. وقد كتب إليّ المرحوم السيد حسين إبش، وكان من أشهر الصيادين الهواة في الشرق، أن كلاب الصيد عنده كثيراً ما كانت تعود بعد مطاردة النيص ليلاً وبعض ريش النيص لا يزال عالقاً في أجسامها.

(٤٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٧) مزامير ١٠٤: ١٨.

(٤٨) قاموس الكتاب المقدس، بيروت ١٩٦٤، ص ١٠١٦.

(٤٩) Doughty, I, 371.

(٥٠) Harrison, II, 320.

(٥١) أمثال ٣٠: ٢٤ ـ ٢٨.
(٥٢) راجع بشأن أنواعه وانتشاره Harrison, III, 408
(٥٣) يعني فرساً أصيلاً من نوع العبيه Musil, **Manners and Customs**, p. 29 .
(٥٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الخامس

طيور البادية

تعرف البادية أنواعاً كثيرة من الطيور ليس هنا مجال درسها أو التوسّع في ذكر فصائلها أو أنواعها. ففي الشتاء تتردّد إلى رحابها وخبراتها في الحماد كثير من الطيور المائية وغيرها، كالإوز والبطّ وكالحمام واليمام والحجل والأنوق والدرّاج والبجع وأبي سعد والغربان والهدهد والورور والقبّرة والصفّر والحباري وكالقطا بأنواعه المختلفة. وكذلك ترى فيها كثيراً من الطيور الكاسرة، كالعقاب والنسر والصقر والباز والباشق والشاهين والرخم. وقد توسّع في ذكر الطيور التي عرفها العرب في البوادي عامة الشاعر المعروف بكشاجم أبو الفتح محمود ابن الحسين في كتابه «المصايد والمطارد»، وهو من رجال القرن العاشر للميلاد، فذكر منها ما لا يقلّ عن سبعين نوعاً، هذا عدا ما ذكرته في أعلاه اجتناباً للتكرار، وقد وصف بعضها وصفاً دقيقاً لا تجده في أوسع معاجم الطيور[1].

غير أنه لم تظهر فيها أعلم حتّى الآن دراسة صحيحة علمية في اللغة العربية لطيور البادية وبخاصة طيور بادية الشام الغنيّة بالواحات والخبرات. وقديماً كانت الجامعة العبرية ترسل بعثات لجمع نماذج من طيور البادية ومن بيضها وتودعها متحفها بالقدس. ولعلّ الجامعة المذكورة تحرز أحسن مجموعة من هذه الطيور مصبّرة. وكان متحف الجامعة الأميركية في بيروت يحوي شيئاً من ذلك منذ عهد مؤسّسي الكلية. أمّا اليوم فليس هناك فيها من يقوم بمتابعة هذا الأمر ولا أستغرب أن تكون البادية تعرف أنواعاً أخرى من الطيور التي لم يذكرها كشاجم والتي ربّما يندر أن توجد في مواضع أخرى.

ولقد ذكرت التوراة لنا الطيور التي حرّم أكلها، وهي النسر والأنوق والعقاب

والحدأة والباشق على أجناسه والغراب على أجناسه والنعام والسأف والباز على أجناسه والبوم والغواص والكركي والبجع والقوق والرخم واللقلق والببغا على أجناسه والهدهد والخفّاش. ولمّا كان الغرض من هذه الدراسة الالمام بما له مساس في حياة البادية بشكل خاص فسأعرض للطيور التي لها علاقة بالبدو وحياة البادية ممّا حُرّم أو لم يُحَرّم.

القطا

أمّا طير القطا فهو أشهر طير في البادية وأكثر طير عدداً فيها ويطير أسراباً كبيرة، ولولا أن التوراة سبقت فذكرت أن السلوى هي الطير الذي اقتات بنو اسرائيل بلحمه في برّية سيناء لقلت إنّه القطا، فهو يفد بكثرة لا يبلغها طائر آخر فيما أعلم، حتّى ولا السمّن. وهو فوق ذلك طير الشعر العربي القديم، فقد ذكره الشعراء أكثر ممّا ذكروا أي طائر آخر. وخلّد ذكره مجنون ليلى حين قال:

«بَكَيتُ عَلى سِرْبِ القَطَا إذْ مَرَرْنَ بي ... وقلتُ ومِثْلي بـالبكـاء جَـديـرُ
أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ ... لَعَلّي إلى مَنْ قَدْ هَوِيتُ أَطيرُ»[٢]

وذكره الشنفري في لاميّته المشهورة حين زعم أنه يرد الماء من الغدران قبل أن تصل أسراب القطا المبكرة اليه فتشرب بقيّة ما ترك لها وقال:

«وتَشْرَبُ أَسْآري القَطَا الكُدْرُ بَعْدَما ... سَرَتْ قَرَباً أَحْناؤها تَتَصَلْصَلُ»[٣]

وذكرها المعرّي في مرثاته لأبيه حين ذكر بؤس عيشها وأنها لا ترغب في الموت:

«فما رَغِبتْ في الموتِ كُدْرٌ مَسِيرُهَا ... إلى الوردِ خمسٌ ثُمَّ يَشْرَبْنَ مِنْ أَجْنِ
يُصادِفْن صَقْراً كُلَّ يَومٍ ولَيْلَةٍ ... ويَلْقينَ شَرّاً مِن مَخَالِبِه الحُجْنِ»[٤]

وقد سمّي هذا الطائر قطا، لأنه يصيح «قطا قطا» فاشتقّ اسمه من صياحه «ومن هنا المثل العربي «أصدق من قطاة» لأنها تلفظ اسمها حين تصيح. وقد قال النابغة:

«تدعو قَطَا وبهِ تُدعى إذا آنتسبت ... يا صِدقَها حِينَ تلقاها فتَنْتَسِبُ»[٥]

والقطا على أنواع، منه العادي، ويعرف عند الكثيرين اليوم بالصيّاح، وهو الذي يصيح «قطا قطا»، ويشبه الحجل لوناً، ولكنّه أصغر منه، فهو بحجم الحمام. ويكثر هذا النوع من القطا بحيث تملأ أسرابه الفضاء، ولا سيّما في فصل الصيف حين يفد من البادية مغرّباً، ويغادر مفاحصه إلى المياه التي على ضفافها في الأنهار والغدران التي تجاور منطقة المناظر، وقد شاهدت بعض فراخه حين تأتي للورد مع كبار القطا وهي عطشى ترد الماء للمرة الأولى فتنغطس فيها لازدحامها عليه، ويبتل ريشها فلا يقوى بعضها على

الطيران قبل أن يجف ريشها. وللذكر طوق حول عنقه وريشه ملوّن أكثر من أنثاه.

ومنه نوع يعرف بالحَرّي وهو بلون الرمل ولا يلغط كثيراً كالصيّاح، ولكنّه يصوّت باسمه أحياناً. ونوع يسمّى السكتي ولعلّه النوع الذي سمّاه موزل قروان[٦]، لأنه لا يصيح، ونوع رابع يسمّى الكُدريّ هو أكبر أنواع القطا حجماً، ويضارع حجم الحجل، ولحمه أطيب أنواعها، وهو أغبر اللّون، أرقش البطن والظهر، وأسود بطن الجناح والقوادم، وأصفر الحلق، في ذيله ريشة طويلة ولا يصيح. ويتميّز عن سائر القطا بوروده الماء باكراً جدّاً بحيث ضرب المثل في تبكيره، فتراه يترك مفاحصه عند شقّ الفجر، ويرد المناهل، ويعود إلى أفراخه ومسارحه قبل بزوغ الشمس. وكنّا نكمن قرب بعض الغدران لصيده عند الفجر عند وروده بخلاف القطا الصيّاح الذي كان يستمرّ وروده من طلوع الشمس إلى آخر الضحى في النهار. ويزعم الدميري أن هناك نوعاً يسميّه الجوني وأنه يسبق القطا الكدري في الورود إلى الماء ويذكر قول الشاعر مفتخراً بتبكيره إلى الماء قبل الجوني:

«وأَنْتِ التي كَلَّفْتِني دَلَجَ السُّرى وجونُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ»[٧]

ومن عادة طيور القطا الصيّاح، إذا كانت في موسم تناوبها حضن بيضها، أن الذكر منها يرد الماء قبل الظهر، والأنثى بعد الظهر. وتطير قبل موسم البيض أزواجاً ذكراً وأنثى وعندها يستدلّ أن الموعد الذي تبيض فيه الإناث قد دنا، وأنها ترتاد الأراضي بحثاً عن مواضع فيها أعشاب، وفيها حبوب النباتات اليابسة، لتضع بيضها فيها، ليكون من تلك الحبوب ما يؤمّن لفراخها قوتاً. وقد تكثر المفاحص في بقعة ما بحيث يجمع البدو من البيض أعداداً كبيرة ويأكلونه[٨].

والقطاة ثقيلة المشي قريبة الخطو، فتراها إذا خطت قرب مورد ماء، أخذت تتثاقل في خطوها، ويتدافع السرب كلّه ببطء، إلى أن يصل إلى الماء. وقد شبّه العرب مشية النساء الخفرات بمشية القطاة. فقال المنخل ابن الحارث اليشكري:

«الكاعِبُ الحَسناءُ تَرْفُلُ (م) في الدِّمَقْسِ وفي الحَرِيرِ
فَدَفَعْتُها فَتَدَافَعَتْ مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ»[٩]

ومن عادة طيور القطا ولا سيّما الصيّاح منها إذا طلبت الورود من الماء طارت من مفاحصها أسراباً وحطّت قرب الماء، ثمّ مشت تتدافع ووردت، فإذا غبّت من الماء لم تكتف بالورد مرّة بل أقامت حول الماء ووردت عللاً، أو طارت وحامت حول الماء هنيهة وعادت تغبّ ثانية، وتطير وتعود، وهي تصيح وتلغط وتضجّ، حتّى إذا خلا لها الماء مدّة

طويلة تجمعت عشرات الأسراب منها حول ذلك الماء، وعلى حواشيه، بحيث تصبح الأرض مغطاة بالطيور كما لو كان على أديمها رجل جراد، أو كبساط ملوّن، وتصبح الجلبة من أصواتها كضوضاء قوم من البدو حين ينزلون عطاشاً هم ونياقهم على ماء. كما قال الشنفرى في وصفها:

«كأنَّ وَغاها حَجْرَتَيْهِ وحَوْلَه أَضاميمُ مِن سَفْرِ القَبائِلِ نُزَّلُ
تَوافَيْنَ مِنْ شَتّى إلَيْه فَضَمَّها كما ضَمَّ أذْوادَ الأَصاريمِ مَنْهَلُ
فَعَبَّتْ غِشاشاً ثُمَّ[١٠] مَرَّت كَأَنَّها مَعَ الصُّبحِ رَكْبٌ مِن أُحاظَةَ مُجفِلُ»[١١]

ولكثرتها يسهل على صبية البدو أن يقتلوا من أسرابها بعض القطا بمقاليعهم. وتبيض القطاة في الربيع، وتضع ثلاث بيضات منقطة بالسواد، وفي بعض الأحيان أربعاً، ومن هنا سمّاها العرب بأمّ ثلاث. وتختار لمفاحصها أرضاً مستوية ذات حصباء في الحزون والهضاب، فتحتضن البيض ولا تنهض عن مفحصها إلا إذا اقترب منها الإنسان أو الراكب، فتطير بغتة ضاربة عشها برجليها بشيء قليل من العنف ربما كي تخفي معالمه. ويشبّه البدوي نهد حبيبته ببيضة الكدري.

والغريب أن القطاة تستطيع الاستدلال على مفحصها برغم المسافات التي تقطعها حين تطلب الماء، وتعرف فراخها حين يفقس البيض، وتزقّها الماء الذي تختزنه بحواصلها، وحوصل القطاة في مقدم صدرها يتّسع لحفنة من الحبوب أو الماء، وينتزعه صبية البدو من القطاة حين تصاد وينفخونه، ويربطون طرفيه، فإذا به طابة هوائية بحجم البرتقالة.

وقد ضرب العرب الأمثال بقوة استدلال القطا، فقالوا: «أدل من قطاة» وقالوا: «أهدى من القطا» وقال الشاعر الطرماح يهجو تميماً:

«تَميمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ القَطا وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ المكارِمِ ضَلَّتِ»[١٢]

وللبدو أقاصيص يروونها عن قوّة الاستدلال عند القطا يخرج بعضها عن المعقول. منها أن أحدهم نزل ليلاً في هضبة كان ينزل فيها بعض القطا، فأزعج قطاة عن أفحوصها وهو لا يشعر، وبنى خيمته، وركّز رمحه أمام الخيمة، وبعد ساعة من الزمن، سمع رفرفة، فنهض يبحث عن مصدر الصوت ، فإذا بقطاة معلّقة بسنان الرمح، ونظر إلى أسفل الرمح حيث ركّز فإذا به يرى عشّ قطاة فيه ثلاثة أفراخ صغار لم تستطع أمها أن تفارقها طويلاً حين ازعجت عنها، فعادت ليلاً تطلبها ولم تر سنان الرمح لشدّة الظلام فنفذ بصدرها وقتلت.

وفي سنوات القحط والجدب تهجر القطا البادية قبل الصيف وتؤمّ مزارع القرى على ضفاف البادية لترعى من حقولها بعد الحصاد ويتشاءم أهل القرى من ذلك ويقولون «سنة القطابيع الغطا» كما يتشاءم البدو منها ويقولون: «جانا الكطا، له فركطا لا بارك الله بالكطا».

وللبدو وأهل القرى المجاورة للبادية في صيد القطا طرق وأفانين نبحثها في باب الصيد عند البدو.

النعام

بقي علينا أن نذكر النعام وهو طائر لا يبرح البادية وقد قرنته التوراة بها في كثير من المواضع التي ذكرتها فقال أيوب: «صرت أخاً للذئاب وصاحباً لرئال النعام»[١٣]. وقال النبي اشعياء «... تمجّدني حيوان الصحراء الذئاب وبنات النعام»[١٤] وقال: «وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش»[١٥]. وهو لا يقلّ أهميّة بنظر البدو اليوم ومكانة عن الغزال. فمن ريش النعامة الناعم تزيّن عطفة شيخ الرولة كلّها. وكان البدو وأبناء عشيرة صليب إلى عهد قريب يبيعون ريش النعام للتجّار في مدن سوريا كلّها ومنها تباع إلى أقطار أخرى. وفي صيد النعامة متعة ولذة للفرسان لا تدانيها لذة صيد ما، وهم يذكرونها في أدبهم وأحاديثهم. كما كان يذكرها القدماء كعنترة والحارث ابن حلزة وغيرهما، فيضربون بخفّتها وسرعتها الأمثال، ويشبهون كرائم هجنهم بها، وهم يعرفون من طباعها ما عرفه العرب القدامى من قوّة حاسّة في الشمّ والبصر، ومن جبن وهزيمة فقالوا: «أشم من هيق»، و «أصم من نعامة»، و «أعدى من نعامة» و «شالت نعامتهم»، وقال الشاعر: «أشم من هيق وأهدى من حجل»، وقال:

«أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحروبِ نَعامَةٌ　　رَبْداءُ تُجْفِلُ مِنْ صَفيرِ الصَّافِرِ»[١٦]

ويقولون أيضاً «أشرد من نعامة» لأنها فيما يزعمون تترك بيضها أحياناً وتحضن بيض غيرها. و«أجفى من النعامة» لأنها وحشيّة للغاية، وفي سفر مراثي أرميا: «أمّا بنت شعبي فجافية كالنعام في البريّة»[١٧]. وليس للنعامة أذنان ظاهرتان، ويزعمون أنها ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها، فجاءت بلا أذنين، ومنها المثل للذي يرجع خائباً: «جاء كالنعامة».

وهم يصفون أجسام حبيباتهم بالنعومة كبيض النعام، كما كان يفعل الشعراء العرب قديماً. ولهم قصص كثيرة يتسامرون بها عن النعام وصيده وسرعة جريه.

أمّا الذكر فيسمّى «ظليماً»، وذلك لسواد ريشه، وأمّا الأنثى فتسمّى ربداء،

ويسمّى الصغير ريلان، وتضع النعامة بين العشر والثلاثين بيضة في الموسم الواحد عند أول الربيع، وتختار لها أدحيًّا (عشاً) في الرمل، وتبدأ حضن البيض عند وضع أول بيضة. وتزعم الرولة أنها تتناوب مع الظليم حضن البيض، فهو يرقبه في النهار، ويتركه معرضاً لحرارة الشمس، بينما تسرح الأنثى وترعى، وفي اللّيل تعود إلى أدحيّها، فيذهب بدوره وراء طعامه. وهي في الليل تحتضن البيض وتدفئه بحرارة جسمها ما عدا ثلاثاً أو أربعاً تقصيها بعيداً عن الأدحي، حتى إذا فقس البيض بعد واحد وعشرين يوماً نقر الظليم بمنقاره واحدة من البيض الذي أقصي، ودفعت هي بأفراخها إليه لتأكل محتوياتها ثم ينقر الأخرى حين تؤكل الأولى وتظلّ كذلك حتى تأتي الأفراخ عليها كلّها، وعندئذ تأخذها أمّها إلى المرعى فتسير قطيعاً صغيراً تقوده الأم، ويحميه الظليم من الوراء، فيردّ عنه ما يمكن أن يهاجمه من ضبع أو ذئب أو نسر[١٨].

وتزعم العرب عن النعامة أنها ربّما تركت بيضها وحضنت بيضاً سواه وأنشدوا لبعض الشعراء:

«كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا بِالعَرَاءِ ۝ وَمُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحا»[١٩]

ولّما كان النعام يعيش في البادية حتى في أيّام الصيف فقد يعجب المرء في أمر صبره عن الماء عند انقطاع سقوط المطر فيها. وزعم بعضهم أن النعام يشرب من قطرات الندى المتجمعة على الأعشاب في الصباح، وهذا ما يفسّر في رأيهم ظاهرة التقاط النعام بمناقيرها كلّ حبّة تلمع[٢٠].

وكانت البادية الشامية مسرحاً لأسراب كثيرة من النعام في القرون الأربعة الأخيرة. فقد ذكر بليستد في خبر رحلته من البصرة إلى حلب سنة ١٧٥٠ انّه رأى نعامة تجتاز الطريق أمامهم فتبعها جماعة من رجال القافلة ولكنّها كانت أسرع منهم فلم يدركوها. وعلّق كروثرز على هذا الخبر بأنه ممتع جداً، ثم أخذ يذكر أسماء من رأوا النعام قبل بليستد وبعده فأشار إلى أن تايكسيرا رأى بيض النعام سنة ١٦٠٤ على مسيرة يومين من البصرة. وذكر الجنرال كوت وقال عنه أنه شاهد في سنة ١٧٧١ بعض النعام على مسافة يومين من تدمر. ثم أيلس إرون الذي عثر على أدحيّ سنة ١٧٨١ في منتصف الطريق بين تدمر والفرات. ثم جون تايلر الذي رأى قطيعاً من النعام ورأى أدحيًّا قريباً من الموضع الذي رأى النعامة فيه بليستد ثمّ أوليفيه الذي دوّن أنه رأى النعام سنة ١٧٩٧ جنوبي دير الزور. وذكر كاروثرز أيضاً أن أبراهام بارسنز حصل على ١٥ بيضة من بقعة لعلّها أبعد موطن للنعام في شمالي البادية الشامية[٢١]. ثمّ جاء بالجريف بعد ذلك بنحو

ستّين سنة أي في حدود ١٨٦٢ فذكر أنه شاهد قطيعاً حول الجوف، وقال أنه لم يشاهد في حياته طيراً أجبن من النعام، ويصعب جداً الاقتراب منه، فقد أجفل القطيع من بعيد وجرى خطّاً واحداً طويلاً الواحدة خلف الأخرى[٢٢]. وذكر جوارماني أن النعام موجود حول جبل شمر[٢٣]. وذكر دي جوري أنه شاهد النعام، ولكنّها أصبحت نادرة، ولكنّه عاد فقال: يذكرون أنّ هناك نحو عشرين نعامة في منطقة بركانية شرقي وادي سرحان وأشار إلى أنه هو نفسه رأى أربعاً في موضع ليس بعيداً عن تلك المنطقة وأنه أُهدي اليه بعض البيض[٢٤]. أمّا دوتي فقد ذكر أن البدو جلبوا له بيضة نعام كسروها وقلوها «عجة» بالطحين والسمن فكانت طعاماً لذيذاً[٢٥] وزعم أنّ الصيّادين من البدو يأكلون صدرها، ويحفظون دهنها ويبيعونه دواء لكثير من الأمراض[٢٦].

ومن متأخري روّاد البادية الشامية ألوس موزل، وهو يذكر في كتابه عن الروَلَة أن النعام كان لا يزال يوجد في البادية في شمالي الجزيرة حتّى أوائل القرن العشرين، وأنه أكثر ما يوجد في منطقة النفود وبنوعٍ أخصّ في الشمال الغربي منه، وقد ينتقل في فصل الصيف إلى الشمال كما تفعل الظباء، وكما يفعل البدو أنفسهم فتبلغ حدود منطقة تدمر[٢٧].

ولم يفت رضوان الرويلي (كما شاء أن يسمّي نفسه) أن يذكر صيده للنعام، شأنه في أكثر مبالغاته، فأشار إلى مسيره هو ورهط من أصحابه للصيد، وذكر كيف صادوا فهدة وصغارها، وكيف أن أحد الصيادين شقّها واقتلع قلبها ومصّ دمّه، لكي تزداد قوته، ثمّ ذكر كيف صادوا نعامة وأخذوا ثلاثة من صغارها، وفاته أن يذكر لنا في كتابه صورة لها أو لصغارها، والنعام نادر وجميل مع أن كتابه يحتوي على ٧٢ صفحة كاملة من الصور[٢٨]. وأخشى أنه حاول أن لا يخلو كتابه من كلّ ما له علاقة بالبادية من حيوان.

وقد أخبرني السيد جرجس الخليل أحد الصيادين المشهورين في بلدة القريتين من أعمال محافظة حمص في النصف الأول من هذا القرن، أن الجامعة العبرية استطاعت بعد الحرب الكبرى الأولى أن تحصل على نعامتين من بادية الشام، واحدة حيّة، والأخرى قتلت وصبّرت، وكتب إليّ حسين بك إبش من الهيجانة في غوطة دمشق أنه رأى النعامة التي اصطادها بعض أبناء الشعلان رأي العين، ولعلّها واحدة من النعامتين المذكورتين. كذلك سمعت من بعض من زعم أنه رأى صليبياً صاد نعامة في مطلع هذا القرن. وذكر الميجر تشيزمان، وهو عالم من علماء الحيوان في كتابه «في الجزيرة العربية المجهولة» المنشور سنة ١٩٢٦، أن سلطان نجد ولم يسمّه أهدى إلى السر برسي كوكس نعامتين[٢٩].

وأخيراً ليس غريباً أن يكون النعام هو الآخر كالمها أخذ يلجأ إلى الربع الخالي في

سبيل الحفاظ على الجنس. وقديماً كان صيد النعام ضرباً من المهارة أو حقّ الفروسية لا سيما بأيدي بدو الشرارات أو صليب الذين لا يطاردونه الامشاة ولا يصطادونه إلا بالحيلة والكمين. أمّا اليوم فليس من فخر في مطاردة النعام بـالطائـرة أو غيرهـا من الأساليب القتّالة الحديثة(٣٠). ولعلّ لنا عودة إلى هذا الموضوع حين نبحث أمر الصيد.

البازي (الأجدل)

وكما أن الأسد هو أنبل الحيوانات الضارية وأقـواها كـذلك يعتبـر البازي أقـوى الطيور وأنبلها وفي هذا يقول الشاعر ايليا أبو ماضي:

«إِنْ تَكُنْ فِي الوَحْشِ كُنْ لَيْثَ الشَّرى أَوْ تَكُنْ فِي الطَّيْرِ كُنْ كَالأَجْدَلِ»(٣١)

ومن فضيلة البازي أنهم قالوا:

«أحسن صور ثلاث اجتمعت باز على يد رجل على ظهر فرس»(٣٢).

وقـال عمر ابن أبي ربيعـة الشاعـر الأموي مفتخـراً بنفسـه يـذكـر زيـارة لبعض صواحبه:

«فَلَمْ يَـرُعْهُنَّ إِلاَّ العِيسُ طـالِعَـةً يَحْمِلْنَ بـالنُّغْفِ رُكّـابـاً وأَكْـوارَا
وفـارِسٌ مَعَـهُ البـازي فَقُلْنَ لهـا هَا هُمْ أولاءِ وما أَكْثَرْنَ إِكْثارا»(٣٣)

وتذكر بعض الكتب العربية أن بطليموس الذي تلا الاسكندر كان أوّل من اقتنى البزاة ولعب بها وضرّاها، ثم لعب بعده ملوك الأمم من اليونان والعرب والعجم(٣٤). ويقال إن أوّل من ضرّى الصقور من العرب الحارث ابن معاوية ابن ثور ابن كندة فإنه وقف يوماً يقانص وقد نصب حبـالة للعصـافير، فـانقضّ اكدر (نـوع من الصقر) عـلى عصفور منها، وقد علق، فعلق الأكدر، فجعل يأكل العصفور والملك يعجب، فأتى به وقد اندق جناحه، فرمى به في كسر بيت فرآه وقد دجن فلا يبرح ولا ينفر، وإذا رمى اليه طعامه أكله، وإذا رأى لحماً نهض إلى يد صاحبه، حتى دُعي فأجاب، واطعم على اليد، فكانوا يتلهون بحمله حتّى رأى يوماً حمامة فطار عن يد حامله إليها فأكلهـا فأمـر الملك باتّخاذه والتصيّد به، فبينا هو يسير يوماً إذ لاحت أرنب فطار الصقر إليها فأخذها، فطلب حينئذ به الطير والأرنب واتّخذه العرب بعدها(٣٥).

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فالظاهر أن العرب قد عـرفوا الصيـد بواسـطة البزاة منذ جاهليتهم. وقد روي عن حمزة عم النبي محمد أنه رجع مرّة من صيده وذلك قبل إسلامه وعلى يده صقر، فقالت له امرأة: لو رأيت ما صنع أبـو الحكم اليوم بـابن

أخيك ـ تشير إلى ما نال الرسول من أذى أبي جهل. فمضى حمزة على حاله حتى أتى أبا جهل فعلا رأسه بقوسه فشجّه وأعلن أنه على دين محمد[٣٦].

وتصنّف العرب البازي في خمسة أصناف البازي والزرّق والباشق والبيدق والصقر[٣٧]. وهناك من يضيف اليها الشواهين. والبدو اليوم لا يهمهم من هذه الأنواع إلاّ ما يسمّونه بالصقر ولعلّهم يطلقون هذا الاسم على غير واحد من هذه الأصناف.

لقد أخذت العرب تلتفت إلى تربية الطيور الكواسر للصيد عليها بشكل واسع بعد الفتوحات، وبعد احتكاكهم بالفرس والروم، وأصبح ذكر البازي في العصر الأموي مقروناً في الغالب إلى حياة البذخ واللهو عند الشعراء والأمراء والأغنياء كما رأينا في شعر ابن أبي ربيعة حين أطلّ على صواحبه يركب جواده ويحمل بازيه. وهذا يزيد ابن معاوية يقتني الفهود والكلاب والصقور ويصطاد عليها بحيث قيل فيه يزيد الفهود والصقور. حتى إذا بلغنا زمن هشام ابن عبد الملك رأينا لهذا الخليفة صاحب صيد قرن عمله إلى الباز «بازيار» يقال له غطريف بن قدامة الغساني. أمّا الفرزدق الشاعر معاصر هشام فقد سبق عمر الخيام حين تمنّى من ربّه أن يكون في القفر منفرداً هو وحبيبته وليس معهما سوى سلافة جفن، ولكنّه زاد على ذلك، في أنه تمنّى أن يكون لديهما ماء بارد وأشلاء من لحم حباري يصيدها صقر ربّياه مدرّب متألف:

«ولا زادَ إلاّ فَضْلتانِ سُلاَفَةٌ ... وأبيضُ من ماءِ الغمامةِ قَرْقَفُ
واشلاءُ لَحْمٍ من حَبَارَى يَصيدُها ... إذا نَحْنُ شِئْنا صاحِبٌ مُتَألِّفُ»[٣٨]

وما كاد الحكم يتحوّل من دمشق إلى بغداد، وما كاد خلفاء بني العبّاس ينعمون بهذا الارث الجديد حتى أخذوا يقلّدون ملوك الفرس القدماء وأصبح الصيد أمراً على غاية ما يكون من التنظيم والإدارة والأهمية، وأصبحت تربية الصقور فنّاً خاصّاً يعرف بالبيزُرة أو البزيرة وصار صاحب الصيد يعرف بالبازيار كما ذكرنا. ولم ينقطع البدوي الفقير عن الصيد، ولكنّه لم يكن بوسعه أن يتكلّف في سبيل لذته أو كسب عيشه ما كان يتكلّفه الملك أو الأمير، وإن اتفق كلاهما بالتنعّم بلذة الظفر. ومع أن البدو يحسنون اليوم تدريب الطيور والصيد عليها، فإنهم لا يعرفون من أمر معالجتها إذا مرضت ما كان يعرفه رجال البيزرة مما نرى أثره في بعض كتب البيزرة التي خلفها هؤلاء، بل لا يقتني عامة البدو من الطيور الكواسر سوى الصقور ويسمّون الصقر أحياناً «الطير» ويسمّون الجيّد منه بالحرّ ويكون لونه إمّا أشقر أشهب أو أحمر أسمر ـ أدبس ـ وكذلك يسمّون المتميّز من الصقور بالنّداوي ـ نسبة إلى الندى فيما زعموا ـ لأن النّداوي يصيد في الصباح الباكر ويكتشف طريدته ولو كانت مختبئة أو مختفية تحت العشب الندي. بينما لا يلتمس الصيد غيره من

الطيور إلّا بعد أن يتبخّر الندى وتترك الطريدة مخبأها. كذلك يسمّون أكبر أفراخ الصقر في العش الواحد «زين النادر»، ويزعمون أنه يكون غالباً أحسن الأفراخ وأفرهها. ويليه في القوة الفرخ الثاني ثم الثالث ويسمّى النجل (بالجيم المصرية) ويسمّون الذكور من الصقور شبوطاً، والأنثى شيهانة. وتقضي الصقور شتاءها في البادية وتغرّب كما يقولون في الصيف وتحبّ لحم الجرابيع ومن هنا يلاحظ أنه يطول مكثها في المناطق التي تكثر فيها الجرابيع وتفترسها في النهار بل إن البدو يصيدون الجرابيع للصقور التي يربّونها ويطعمونها إيّاها. وإذا حدث أن انكسرت ريشة من جناح الصقر فإنهم يقتلعونها لينبت مكانها واحدة صحيحة.

من أين يؤتى بالصقور وكيف تربى؟

يشتري البدو الصقور من الحضر من أهل القرى المجاورة للبادية في سوريا(٣٩) ونجد والحجاز والكويت وكذلك يفعل الأمراء والشيوخ في أكثر الإمارات العربية. ففي المرتفعات والجبال الصخرية توجد أوكار الصقور، فترى الخبراء يتدلّون على الحبال من رؤوس الصخور حتى يصلوا إلى أعشاشها، أو يتسلّقون الشير الذي يرون فيه وكر صقر لالتقاط فراخه وهي صغيرة، وأغلب ما يكون في العش الواحد ثلاثة أفراخ. فيقبضون عليها قبل أن تخرج من عشّها للطيران.

وقد يصيدون الصقر أحياناً حيّاً وهو كبير. ذلك أنهم ينصبون له شبكة في المواضع التي يتردّد اليها بين الصخور، ويختفي الصيّاد وراء صخرة تحجبه. ويحمل معه غراباً حيّاً مربوطاً بخيط قويّ، وقبضة من ريش وحمامة داجنة. أمّا الغراب فيوضع على صخرة قرب الشبكة، ويوضع له طعام فإذا استشعر وجود الصقر وهو يحوم فوقه أخذ ينعب، فيسحبه الصيّاد اليه، ويرمي بالحماية مربوطة إلى تحت الشبكة، فينقض عليها الصقر حتى إذا قبض عليها شدّ الصياد خيطاً قد ربط إلى الشبكة فيعلق الصقر في الشبكة، فيأخذه الصيّاد ويخيط جفنيه، ويبقيه كذلك ثلاثة أيام أو أربعة حتى يذلّ ويألف، فيفك القطب عن عينيه، ويسمح له برؤية النور وهو مربوط. ثم يأخذ بتدريبه تدريجيّاً برغم كبره حتّى يألف صاحبه، ويتعوّد على الرجوع اليه حين يطلق. وهناك طريقة أخرى تقرب من هذه وهي أنهم يحفرون حفرة بعمق نحو نصف متر في منطقة الصقور تتسع لشخص جالس أو شخصين ويبنون حولها حائطاً من الحجارة الصغيرة بارتفاع نحو نصف متر يترك فيه نوافذ للرؤية وتغطى بشيء من الأغصان والحشائش ويربط غراب قد أمسك إلى حبل رفيع على بعد نحو مئة متر ويحرّك فإذا تحرّك وكان في الجو صقر ظنّ الصقر أن الغراب يفترس حمامة فينقضّ عليه لانتزاع الحمامة منه فينعب الغراب من الخوف فتطلق عندئذ حمامة مربوطة أيضاً بخيط قويّ وفي جناحيها وظهرها



الصقر

خيوط من النيلون معقودة أنشوطات فيحاول الصقر القبض عليها فتعلق مخالبه في أنشوطة ويلقط حيًّا(٤٠) وحين يصاد الصقر كبيراً تخاط عيناه كما ذكرنا ويبقى رهن التربية اربعين يوماً أو نحوها وتفتق القطب ويعوّد على البقاء في الخيمة، وقد يفلتونه بعد ان ينتهي فصل الصيد فيعود إلى حريته وقد يصاد هو نفسه ثانية في بعض الأحيان.

ويستطيع الصقر أن يصيد أكثر أنواع الطيور كالحمام والحجل والدرّاج والقطا وما أشبهها، ولكن أعظم صيد يصيده من الطيور هو الحبارى. كذلك يصيد الأرانب على أنواعها، بل يذهب بعض البدو إلى أنّ الصقر يصيد الغزال. والواقع أنه يساعد أحياناً على صيد الغزال إذا درّب على ذلك، فترى الصيّاد يثيره حين يرى الكلاب السلوقية تطرد غزالاً، فيطير فوق الغزال وينقضّ على رأسه وهو يجري أمام الكلاب فيسدّ منافذ النور أمام عينيه بطيرانه أمامه، أو يحط على رأسه ويضربه بمنقاره بحيث يعيقه عن

الجري، فتدركه الكلاب وتصيده[٤١].

وفي بعض الحالات يمكن لصقر واحد أن يشبع أهل فريق من البدو يضمّ سبعة أو ثمانية من البيوت. ذلك أن الصقر الواحد قد يصيد نحو عشر حبارى في يوم واحد، هذا إذا كانت الحبارى كثيرة في المنطقة التي ينزلها البدو أو قد يصيد نحو عشرة أرانب. وقد ذكر عن بعض الصقور أنها صادت أكثر من ذلك في يوم واحد[٤٢].

ولا يقتصر أمر اقتناء الصقور والصيد بواسطتها على عامّة البدو أو فقرائهم بل نرى الكثير من الشيوخ يفعلون ذلك، ولكنهم في الغالب يستعينون بعبيدهم أو خدمهم على تربيتها وتدريبها، ويصطحبون العبيد معهم إلى الصيد، وترى صاحب الصيد قد هيّأ لنفسه قفّازاً خاصّاً يضعه على يده ليقف عليه الصقر، أو هيّأ للصقر خشبة، أو كما يسميها البدو مركباً أو مركبة يركبه عليها، وتكون هذه الخشبة قد كسيت بالجلد الصلب، أو بشيء خشن قاس كالجلد اليابس، وثبتت إلى قضيب من حديد مروّس يغرز في الأرض، فترتفع الخشبة نحو ثلث متر فوق الأرض، ويجلس عليها الصقر وقد ربطت رجلاه بسلسلة ممتدّة إلى الأرض بحيث يستطيع إذا شاء أن يثب إلى الأرض ويعود إلى خشبته. ويتّخذون للصقر برقعاً من جلد يغطّي قسماً من رأسه بحيث يستر عينيه إذا أرادوا منع النور عنهما. وقد يقرنص الصقر ـ كما يقولون ـ أي يأخذ بعض ريشه بالسقوط، فإذا منعه ذلك عن الصيد حجر عليه، واعتني به إلى أن يطلع ريشه من جديد.

وللبدو عن الصقور وصيدها أقاصيص يكاد يخرج بعضها عن نطاق المعقول. فقد روى لي بعضهم عن صقر أطلقه صاحبه على أرنبة، فحلّق في الفضاء يرقبها حتّى رآها تلجأ إلى شجرة عوسج صغيرة اختفت في ظلّها. فانقضّ عليها من الفضاء وضرب بمخلب احدى رجليه حيث كمنت فعلقت رجله بالأرنبة وبعود من شجرة العوسج الثابتة واندفع بقوّته طائراً في الفضاء، محاولاً حمل ما علقت رجله به من جلد الأرنبة، فإذا به يطير برجل واحدة. وهم يقصّون عليك كيف ينقضّ الصقر على الأرنبة انقضاضة واحدة، فيسلخ بمخلبه ظهرها من الذيل حتى الرأس. ومع ذلك فالبدو يزعمون ـ وهم على حقّ فيما يزعمون ـ أن صيد الأرانب على الصقر في الأراضي المعشبة أصعب عموماً من صيد الحبارى، لأنّ الأرنبة تستطيع في كثير من الأحيان أن تراوغه وتختبىء وتخفى عن ناظرية. والصقر من أسرع الطيور وقد تبلغ سرعة طيرانه أكثر من مئتي ميل في الساعة.

وكما تمنّى الفرزدق أن يكون هو وحبيبته وكأسه وصقر يصيد لهما حبارى يأكلان من أشلاء لحمها، فإنّ الشاعر الرويلي تمنّى أن يكون لديه صقر وجروة يطلقهما للصيد وهو

قريب من الغانيات وهنّ ظاعنات، وقال:

«يا لَيْتْ لِي جَرْو ويا لَيْتْ لي طَيْرْ وقْعيُدِنْ يِنْسِفْ عليهِ الشّدَادِ
نِجِي ما بَيْنْ السَّلَفْ والمَظَاهِيرْ ونْشَلِّي الجَرْوةْ والطَّيْرْ غَادِي»

أي يتمنّى أن يكون لديه جرو صيد وطير صيد (صقر) وقعود صغير (هجين) يشدّ عليه شداده ثم يطلب الصيد بين الطلائع والظعون، فيدعو الجروة ويطلقها بينما يكون الصقر قد غدا على الطريدة. ولقد قصد الشاعر أن يكون قريباً من المظاهير أي الفتيات الظاعنات في الهوادج لكي يرى الحبيبة بينهنّ. وهكذا فإنّ هذا البدوي هو الآخر لم يختلف عن زميله القديم الشاعر الأموي (الفرزدق) ولا عن زميله الفارسي الشاعر الآخر عمر الخيّام.

العُقاب والنسر

ولعلّ هنا خير موضع نذكر فيه أكبر طائرين في عرف العرب وأقواهما فيما نرى في كتبهم ومؤلّفاتهم وقد لاحظ امين المعلوف أن الكتّاب والمؤلّفين المحدثين لا يفرقون بين النسر والعقاب. فالعقاب من الجوارح يصيد، والنسر لا يصيد، بل يأكل الجيف ومع ذلك فهو صاحب الحظوة عندهم[٤٣]. وقد أدرك القدماء هذا واصطادوا على العقاب تلك الحيوانات التي يصعب على البازي صيدها. وذكر كشاجم أن العقاب «تصيد للناس، يربّونها وهي تدجن وتبلّد، وربّما صادت حمر الوحش»[٤٤]. وزعم ولعلّه اشتطّ في زعمه «انها تنظر إلى الحمار فترمي نفسها في الماء حتى يبتلّ جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحتمل منه من رمل ثمّ تطير طيراناً ثقيلاً حتّى تقع على هامة الحمار فتصفق عينيه بجناحيها فتمتلئان تراباً فلا يبصر حتى يؤخذ»[٤٥]. ومهما يكن من أمر خبره هذا فإنّ العقاب كان يصاد عليه كما يصاد على البازي؛ ولكني لم أعلم أو أقرأ عن أحد يصيد على العقاب في البادية في هذا العصر. وفضل النسر على البادية أنه يطهّرها من الجيف كما ذكرنا حين يلتهمها مشتركاً مع غيره من الطير والسباع. ويُتّخذ من قوادمه ريش للضرب على أعواد الطرب. وعنقه أجرد خال من الريش.

ويقال للعقاب لقوة لسعة أشداقها وخدارية لسواد لونها وصومعة لأنّها أبداً مرتفعة على أشرف مكان تقدر عليه. ويقال في صفة المستحبّ منها: إنّها وثيقة الخلق، ثابتة الأركان، حمراء اللّون، غائرة العين، عجزاء، صقعاء، سفعاء، بقعاء[٤٦]. ويزعمون أنها إن جاعت لم يمتنع عليها الذئب. وقد ترقب الصقور من مرقب عال فإذا رأتها تصيد شيئاً انقضّت عليها وأخذت الصيد منها وتهرب الصقور. وقال الشاعر:

«كَلِقْوةِ مِرقَبٍ تَرعى صُقُوراً لِتَاخُذَ ما حَوَتْ أيدي الصُّقُورِ»[٤٧]

الحُبارى

إذا كان القطا أعمّ طير في البادية، وكانت النعامة أعظم طير وأشهره حتّى زعم البدو أنها تستطيع أن تدّعي أنها أيضاً جمل، فإن هناك طيراً أصغر من النعامة وأكبر من القطا هو منية الصيادين ولحمه أفخر من لحميهما واسمه الحبارى، وتجمع على حباريّ وحباريات. والحبارى لفظ يطلق على المذكر والمؤنث والجمع أيضاً وهي طير بحجم ديك الحبش الصغير(٤٨) ولحمها مستطاب كلحمه، وتوجد في أكثر بقاع الجزيرة العربية من الكويت حتى وادي سرحان في الأردن وتكثر في منطقة الدوّ المحيطة بتدمر وقرى المناظر، وتعيش على الأعشاب والبذور التي تسقط منها. «ويقال إنها من أشد الطير طيراناً، وأبعدها شوطاً، وذلك أنها تصاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبّة الخضراء من البطم ومنابتها تخوم بلاد الشام ولذلك قالوا في المثل «أطلب من الحبارى»(٤٩). لونها جميل وبخاصة لون الذكر منها شأن الطيور التي من فصيلتها، فقد حباها الله ريشاً ملوّناً جميلاً، ولكنّها لم تأمن شرّ الصقر ولا شرّ الإنسان.

تطير الحباري لثقلها قريباً من سطح الأرض، فلا ترتفع كثيراً عنه، وهي كذلك لا تبعد في طيرانها حتى تزعج من مكانها، فتراها تطير لتحطّ في موضع آخر، وتدرج على الأرض حين تحطّ مسافة طويلة، ومن هنا يصعب الاقتراب منها، ولا يسهل إدراكها إلاّ على الصقر الذي لا يكاد يراها في الفضاء حتّى يحلّق ثمّ ينقضّ عليها، فإمّا أن يجرحها وهي في الفضاء، فترتمي إلى الأرض، أو تحطّ على الأرض خوفاً منه فيهبط عليها منقضّاً ويقتلها وهي جاثمة، ويظلّ قربها حتّى يأتي صاحبه الصيّاد، أو يجثم عليها ويجرحها بمنسره وأظافره. فإذا دنا الصيّاد منها دفع الصقر عنها وذبحها وحملها، وقد يعطيه الصيّاد القروي شيئاً منها، أمّا البدوي فلا يعطي الصقر منها نصيباً إلاّ في الخيمة.

وقد خصّ الله الحبارى بوسيلة للدفاع عن نفسها. ذلك أنها تراوغ الصقر أحياناً وهي طائرة في الفضاء حتى تصبح أمامه، فإذا أحسّت أنه أصبح خلفها تماماً، وقد كاد يدنو منها، سلحت عليه سلحاً سائلاً يبلله بحيث يرجع عنها حالاً، وقد لا يتمكن من الطيران من شر ذلك السلح يومه كله، فتنجو وينجو غيرها من شرّه في ذلك اليوم. وكذلك تفعل وهي على الأرض إذا استطاعت. ولعلّ ما تفعله هو من الخوف، وقد سلّحتها الطبيعة بهذا الأمر لكي تستعين به على حماية نفسها وجنسها فهو السبيل الوحيد لمنجاتها من الصقر، وإن يكن مُسبّباً عن الخوف. وقد قال الشاعر العربي معيّراً خصمه بالجبن والهزيمة:

«وَهُمْ تَـرَكُـوكَ أَسْلَحَ من حُبـارَى   رَأَتْ صَقْراً وأَشْرَدَ مِنْ نَعَـامِ»[٥٠]

ويزعمون بشأنها أنها مضرب المثل في البلاهة والحمق فيقال أبله من الحبارى لأنها إذا تركت عشّها ذهلته وحضنت بيض غيرها كما تفعل النعامة أحياناً.

الدرّاج

وهناك طير الدرّاج، ولا يزال يوجد في مواضع كثيرة على حدود البادية ولاسيما في الأزوار على الفرات، ويصيده البدو بواسطة الصقر أيضاً، وقد ألف العرب صيده منذ زمن قديم، وذكره أسامة ابن منقذ في مذكراته في مواضع كثيرة، وأشار إلى رغبة الصيّادين في صيده. وهو بحجم الحمام جميل المنظر ملوّن الريش طويل الساق، مستقيم المنقار، يدرج في سيره على الأرض بسرعة ومن هنا اسمه. ولحمه شهيّ لذيذ. ويسمّى الذكر منه الحيقطان.

الكراكي والمكّاء

ومن الطيور التي تمرّ عبر البادية وتتردّد إلى ضفافها الكراكي، وهو طير كبير الحجم يقرب من الوزّ، ابتر الذنب، رماديّ اللون، في خدّه لمعات سود. والواحد منه يسمّى كركيّ. أمّا المكّاء، فطائر أبيض له صفير كالأنين ويسكن الحجاز ولعمر ابن أبي ربيعة فيه:

«وَمَجْلِسُ أَصْحَـابِي كَـأَنَّ أَنِينَهُـم   أَنِينُ مَكاكٍ فَارَقَتْ بَلَداً خَصْبا»[٥١]

أبو سعد

ومن أكبر الطيور التي تمرّ في البادية وتشتو في أرجاء الجزيرة كلّها طائر يعرفه البدو باسم «أبو سعد»، أي جالب الحظّ، وتسميّه الكتب العربية «اللقلق» وفي كثير من الأقطار العربية «حج لجلج» (لكلك) من لقلقة صوته كما يسمّى القطا قطا من صوته، وتعدّه طائراً أعجمياً، وكنيته عند أهل العراق أبو حديج، وهو يأكل الحيّات وكثيراً من الحشرات، وبخاصّة الجراد، ويستبشر أهل القرى برؤيته حين تجتاح مزارعهم أسراب الجراد، لأنه يلتهم الجراد ويفتك بأسرابه وصغاره وهي على الأرض. وكذلك يفعل طير السمرمر، وله منقار طويل مستقيم وريشه أبيض وجناحاه أسودان. ويعبر هذا الطائر إلى شمالي أوروبا في الصيف فيصطاف ثمّ يعود في أول الشتاء. ويطير أسراباً كبيرة تحلّق في الجو عالياً. وتقوم ببعض الدورات في الجوّ قبل اندفاعها في رحلتها الطويلة شرقاً أو غرباً. ويعشّش في سقوف البيوت في أوروبا. وقبل أن يبدأ موسم الأمطار يترك الأقطار

الشمالية فيصل في أول الخريف إلى أراضي بـادية الشـام في طريقـه إلى الجنوب، ومتى غامت السماء وسمع صوت الرعد هبّ جنوباً حيث يقلّ المطر والبرد، وترى صبية البدو عندها ينشدون:

«يـا بُــو سَـعْــدْ طَقّ الـرَّعْــد   يا بو طِيزْ مُدَوّدَهْ». إشارة إلى رحيله.

طيور أخرى

وهناك طيور أخرى كثيرة كالقندرة وهو طائر زهريّ اللّون بحجم الـدجاجـة ولا يوجد إلاّ في النفود وبخاصة في بعض منحدرات الوهاد. وكالغراب وهو طائـر معروف ومنه ثلاثة أنواع: نوع يتبع الجمال ليأكـل القراد عنهـا. وكالصبـري ويأكـل الحشرات وصغار اليرابيع. وكالبومة وكالقاق وهو طائر مائي. وكالقطرة وهي أكبر من الحبارى ولا تطير كثيراً فإذا هاجمها الصقر انقلبت على قفاها وأخذت تدفعه بمخالبها. وكالطرشي وهو بحجم البطة الصغيرة، ويعيش أزواجـاً كالحمام. وكالبوّة وهي بحجم الحجلة تقريبـاً ولعلّهـا ضرب من القـطا شبيه بالكدري. وكـالحجل الـذي يألف الجبـال والمرتفعـات ومنحدرات وادي سرحان ويعيش أسراباً. وكالسمكمك ويعيش قرب المياه على الأسماك. ناهيك بالطيور المتنقلة غير أبي سعد الذي ذكرنا ومنها الإوز العراقي وأنواع من البّط التي تتردّد إلى الخبرات وبرك المياه الواسعة في الواحات، هذا عدا طائفة كبيرة من العصافير الصغيرة والمتوسطة الحجم كالهدهد ويسميه البدو ذبّاح أمه وأبوه ويسميه بعض القرويين على حدود البادية الشُبُبْ. والصفّر والورور والسمرمر وملهيّـة الرعيـان، والفسيسة والـزرزور والسنـونـو والجـرجـرة وأم طـويق والقبّـة وأمّ فْكَـيْرْ وأم سـالم والـدهـينّ وغيرها(٥٢).

الحواشي:

(١) المصايد والمطارد، ص ٢٦٥ ـ ٢٨٦.
(٢) انظر ديوان مجنون ليلى، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج، القاهرة د. ت، ص ١٣٧ وفيه شكوت بدل بكيت ومعير بدل يعير.
(٣) اعجب العجب في شرح لاميّة العرب للزمخشري، القاهرة ١٣٠٠ هـ، ص ٥٠.
(٤) شرح التنوير على سقط الزند لأبي العلاء المعري، جزءان، القاهرة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٤، ص ٢٦٠.
(٥) انظر ديوان النابغة الذبياني، تحقيق شكري فيصل، بيروت ١٩٦٨، ص ١٧٧.
(٦) Musil, Manners and Customs, p. 40.
(٧) انظر حياة الحيوان، ٢: ٣٥٨؛ والأغاني (بولاق)، ١٥: ١٥٥. في الدميري يذكر أن الشاعر هو عنترة والصواب ابن اللعينة كما في الأغاني.
(٨) ذكر موزل أنه يوجد في بعض الأودية أكثر من ألف عش منها، انظر Manners and Customs, p. 39.
(٩) ديوان الحماسة، ١: ٢١٠.

(١٠) شربت على عجل.
(١١) أعجب العجب، ص ٥٢ ـ ٥٣.
(١٢) ديوان الطرمّاح، تحقيق ف. كرانكاف (F. Krenkow)، لندن ١٩٢٧، ص ١٣٢. وانظر أيضاً حياة الحيوان، ٢: ٣٥٨؛ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، القاهرة ١٣٥٩ ـ ١٣٦٩ هـ/ ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠، ٢: ٤٦٨.
(١٣) أيوب ٣٠: ٢٩.
(١٤) أشعياء ٤٣: ٢٠.
(١٥) اشعياء ١٣: ٢١.
(١٦) الأغاني (بولاق)، ١٦: ١٥٥.
(١٧) مراثي ارميا ٤: ٣.
(١٨) Musil, **Manners and Customs,** p. 38.
(١٩) المصايد والمطارد، ص ٢٢٢، وحياة الحيوان، ٢: ٥٠٢.
(٢٠) R.E. Cheesman, **In Unknown Arabia** (London, 1926), p. 341.
(٢١) **The Desert Route to India,** p. 81. n. 4.
(٢٢) William Gifford Palgrave, **Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia, 1862 - 63,** 2 volumes, 3rd ed. (London and Cambridge, 1866), I, 43.
(٢٣) Guarmani, p. 92.
(٢٤) Gerald de Guary, **Arabian Journey and Other Desert Travels** (London, 1950), p. 23.
(٢٥) Doughty, I, 173.
(٢٦) المصدر نفسه، ١: ١٧٤.
(٢٧) Musil, **Manners and Customs,** p. 38.
(٢٨) **Black Tents of Arabia,** pp. 38 - 42.
(٢٩) Cheesman, p. 341.
(٣٠) انظر Musil, **Manners and Customs,** pp. 38 - 39 بينما يذكر فلبي في السنة ١٩٥٥ نفسها أن النعام اختفى بالكلية من بوادي الجزيرة العربية في الشمال وأن السيارة كانت الأداة لإفنائه على أيدي الصيادين عديمي الرحمة.
H. St. John Philby, «The land of Midian» in **The Middle East Journal,** vol. 9 no. 2, 1955, p. 125.
(٣١) ديوان أبي ماضي، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٦٢.
(٣٢) المصايد والمطارد، ص ٥١.
(٣٣) شعر عمر ابن أبي ربيعة، ١: ١٣.
(٣٤) كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢، ص ٤.
(٣٥) المصايد والمطارد، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٣٦) البيزرة، ص ٤٠. ومن الغريب أن ابن هشام يذكر هذه الرواية ولكنّه لم يشر إلى الصقر على يد حمزة؛ انظر كتابه سيرة رسول الله، تحقيق فرديناند فستنفلد (Ferdinand Wüstenfeld)، ٣ أجزاء، غوتنجن ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠، ج ١، ق ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٣٧) المصايد والمطارد، ص ٧٣، ٧٨؛ وحياة الحيوان ١: ١٦٠. أما البدو فمنهم من يميّز الصقور بألوانها فيقولون: الأشهب والأحمر والأصفر والأخضر.
(٣٨) من قصيدة الفرزدق الشهيرة التي مطلعها «عزفت بأعشاش وما كدت تعزف» في ديوانه، ٢: ٥٥٥.
(٣٩) اشتهرت بلدة الرحيبة بين دمشق والقريتين في تربية الصقور وبيعها للصيادين من شيوخ البدو وأمرائهم.
(٤٠) ذكر أسامة ابن منقذ في مذكراته (الاعتبار، ص ٢٠٠) كيف كان يمسك الصقر حيّاً في زمنه وهي طريقة لا تختلف

كثيراً عما شرحنا. ويظهر أنها لا تزال تمارس في جبال العلويين حتى اليوم، ذلك أنه تُبْنَىٰ بين الصخور حجرة صغيرة من الحجارة العادية تتسع لرجل يجلس فيها، ثم تسقف بعيدان وتستر بقش وحشيش، ويجعل للحجرة الصغيرة نافذة، ثم يعمد الرجل الجالس في الحجرة إلى طير حما، ، يجمع رجليه على قضيب، ويشدها إليه، ويخرجه من تلك النافذة، ثم يحرك العود فيتحرك طير الحمام ويفتح أجنحته، فيراه البازي وينزل عليه ليأخذه، فإذا أحسّ به الصيّاد، جذب القضيب إلى النافذة، ومدّ يده فقبض على البازي وأنزله إليه وخيّط عينيه.

(٤١) كتاب الاعتبار، ص ٢٢٥؛ والبيزرة، ص ٩٩. وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا القزويني، بيروت ١٩٧٨، ص ٤٥٣.
وأراني مضطراً إلى التعقيب في هذه الحاشية بالاشارة إلى جهل أحد المؤلفين الذين ذكروا الصقر من الكتاب المحدثين في سوريا في بحث عن أمور البادية فزعم قائلاً: «إن رجال القبائل البدوية لا زالوا يستخدمون طير الصقر لصيد الطيور الأخرى وخاصة الداجنة التي تؤكل لحومها ثم يقول: فيقضي عليه بمنقاره الحاد حيث يستخدمه في قطع العرق الدموي الموجود في العنق بما يشبه عملية الذبح لها بالسكين تماماً وبعد ذلك يحمل الصقر فريسته هذه إلى صاحبه وينطلق ثانية ليعيد الكرة». محافظة حماة لمؤيد الكيلاني، دمشق ١٩٦٤، ص ٨٥ ويظهر أن صاحبنا يجهل معنى كلمة داجنة. وغالى كثيراً في زعمه أن الصقر يحمل فريسته إلى صاحبه ليعيد الكرة، هذا عدا عن أخطائه ص ٨٨ في أن الرولة تفرعوا من عرب الموالي. وص ٨٧ أن البدو يتخذون لسكناهم المضارب والخيام التي ينسجونها من أصواف أغنامهم. وص ٨٣ أن هناك نموراً في منطقة الحفة يصادفها الإنسان بين الفترة والأخرى وأن بعضها تهجم على الأماكن المأهولة حين يشتد بها الجوع.

(٤٢) Musil, **Manners and Customs**, p. 34; Dickson, pp. 35, 367 ويزعم ديكسن أن الصقر قد يصيد عشرين أرنباً في اليوم.

(٤٣) معجم الحيوان لأمين المعلوف، القاهرة ١٩٣٢، ص ٩٣؛ وانظر المصايد والمطارد ص ٩٣ - ٩٤.

(٤٤) المصايد والمطارد، ص ٩٥.

(٤٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٦) العجزاء: التي على لونها بياض، والصقعاء: ما كان على رأسها بياض، والسفعاء: السوداء، والبقعاء: ما خالط لونها لون آخر أو اختلط بياضها وسوادها - ويلاحظ أنها كلّها نعوت متشابهة.

(٤٧) المصايد والمطارد، ص ٩٧.

(٤٨) لم يفت رصوان أن يذكر صيد الحبارى في كتابه **Black Tents of Arabia** ص ١٤٩ - ١٥٣، وأن يجندّ لصيد طائر واحد منها اثني عشر عبداً من عبيد الأمير فواز ورهط من الأمراء ومثني فارس وثلاثمئة هجان في فصل عن الصقر. وكانت العبيد كلها تحمل صقوراً. فصادوا حبارى واحدة، ثم ذكر أيضاً أنه صاد هو ورفاقه نعامة وأمسكوا ثلاثة من صغارها احتفظ بها الشيخ. والدميري قبل رصوان مغرم بسرد الأخبار الغريبة وأحياناً تلك التي تخرج عن المعقول.

(٤٩) حياة الحيوان، ١: ٣٣٤.

(٥٠) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٥١) شعر عمر ابن أبي ربيعة، ١: ١٧٣.

(٥٢) راجع Musil, **Manners and Customs**, pp. 39 - 41

الفصل السادس

زحافات البادية

تعرف البادية أنواعاً كثيرة من الزحافات ، ومنها ضروب من الأفاعي، غير أن أكثر الأفاعي في شمالي الجزيرة العربية غير سامّة، والعقارب شرّ منها، ولكن لدغة العقرب لا تميت، وندر أن تجد قروياً أو بدوياً لم يختبر لدغة العقرب ولو مرّة واحدة، وأذكر أني شاهدت في يوم واحد في البادية، في بقعة لا تزيد مساحتها عن ميل مربّع، في أواخر فصل الربيع، ما لا يقلّ عن مئة عقرب، كلّها في الغالب كانت مختبئة تحت زبل الإبل في العراء، فلا تكاد تقلب سقطاً في الأرض إلاّ وتجد تحته عقرباً كبيرة تتحرّك وأحياناً مجموعة من العقارب الصغيرة. وتكثر الأفاعي في المناطق الحارة البركانية التربة. وكذلك تكثر السقّايات والسليمانيات من الزحّافات ذوات الأرجل. وهذه على أنواع عديدة أشهرها عند البدو الضبّ. وهو أكثر الزحافات صلة بحياة البدوي لأنّ لحمه شهيّ عند البدوي.

الضب

يشبه الضبّ التمساح، ولكنّه أصغر منه، وهو برّي بالطبع، له ذنب طويل كذنب التمساح، معقّد ضرب به المثل، فقالوا: «أعقد من ذنب الضب» في كل مشكلة معقدة. ويبلغ طول الضبّ من رأسه إلى آخر ذنبه نحو ٧٠ سنتيمتراً فيه أكثر من عشرين حلقة أو عقدة. وله ظهر مائل إلى السواد مبقّع ببقع خضر، وبطن مائل إلى الصفرة مسطح عريض. ويعيش في أوكار أو ثقوب يحفرها في الأرض حيث يكنّ طيلة أشهر الشتاء وإذا كثر الضبّ في أرض بالبادية قالوا فيها: أرض ضببة أو مضبة، كما يقولون: أرض مأسدة أو مسبعة أو مذأبة أو مربعة أي ذات أسود أو سباع أو ذئاب أو يرابيع. وتزعم العرب أن الضبّ أصبر الحيوان على الجوع ، وأجبنها، وأخدعها، وأبلهها، ولذلك ضربوا به كثيراً

من الأمثال فقالوا «أضلّ من الضبّ»، و «أعقّ من الضبّ»، لأنه فيما يزعمون يأكل ولده من الجوع. وقالوا «أجن من ضب» و «أبله من ضب»، و «أخدع من ضب» ولعلّ ذاك لأنه يتلوّن كما ذكروا ألواناً بحر الشمس كما تتلوّن الحرباء[1]. ويزعمون أنه إذا خرج من جحره صعب عليه الاهتداء اليه فيأوي إلى جحر آخر. وهو يعيش على ما يستسيغه أو يطيب له من نبات، وبخاصة نبات العرفج الزكي الرائحة، وربّما أكل بعض الحشرات كالجنادب وغيرها. ويسمّيه البدو مازحين «الشيخ حامد»، ويقولون إنه بشري أو كالبشري (مثل الزلمة)، لأن يده تشبه اليد البشرية فيها خمس أصابع. وتبيض الضبة نحو سبعين بيضة فيما زعموا: ويقال للصغير حين يخرج من البيضة حسل[2]. ويزعمون أن الضبّ لا يرد الماء، ومنه المثل: «لا أفعله حتى يرد الضبّ»[3]. ويقال إنه يبول في كل أربعين يوماً قطرة[4].

ويحرص البدو على صيده، ويأكلون لحمه مشوياً بالنار. فتراهم حين يرون ضباً دخل في وكر عمدوا إلى الماء، إذا كانوا قريباً من غدير ماء، فغمروا الوكر به فيخرج الضبّ فيصطادونه. وإن لم يكن لديهم ماء، ادخلوا إلى وكره قصبة طويلة برأسها سنان له سنّارة، فيسحبونه من وكره، ثم يذبحونه ويسلخونه، ويضعونه إمّا على جمر الحطب، أو على الرمل، ويوقدون النار فوقه حتى ينضج، فيأكلوه دون يديه ودون ذنبه. امّا جلده فيصنع الرعاة منه ظرفاً صغيراً لحليب النياق. وقد ذكر الدميري فوائد كثيرة لجلد الضب ولشحمه هي الى الأساطير أقرب منها إلى الحقيقة[5]. ولعلّ هذا من الأسباب التي تدعو بعض البسطاء من أهل القرى والمدن إلى تعليق جلده محشواً بالقشّ في دكاكينهم كما لاحظت في كثير من الأحيان.

الجراد

وتعرف البادية كثيراً من الحشرات غير التي ذكرنا ولكن أهم هذه الحشرات الجراد، وهي أكثرها أثراً في حياة البدو وأهل القرى المجاورة للبادية. ويسمّى الجراد إذا خرج من البيضة «القمّص»، ثم إذا أخذ يزحف «الدبا» ويسمّيه أهل القرى والبدو «الزحّاف» فإذا طلعت اجنحته وكبرت فهو «الغوغاء»، وإذا بدت فيه الألوان واكتمل فعندها يسمى «الجراد». وهو أنواع، وبعضه يختلف في الجزيرة العربية عمّا هو في شمالي افريقيا، وقد جاء ذكره في الكتاب المقدس في مواضع كثيرة، بعضها تشبيهاً بكثرته، وبعضها إشارة إلى ضرره كما جاء في اشعياء ٣٣: ٤ «ويجني سلبكم جني الجراد» أو في سفر الخروج ١٠: ٤ «أجيء غدا بجراد على تخومك». وهناك فصل خاصّ في يوئيل ٢: ١ ـ ١١ لم يذكر فيه لفظة الجراد ولكنّه في رأيي يرمز إلى الجراد الذي يظهر أن الله

أرسله على بني اسرائيل لتأديبهم، يصف فيه الزحّاف من الجراد كجيش لا يقهر يقول فيه:

«. . . ليرتعد جميع سكان الأرض لأنّ يوم الربّ قادم لأنّه قريب، يوم ظلام وقتام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتداً على الجبال. شعب كثير وقويّ لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون أيضاً بعده إلى سني دور فدور. قدّامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق. الأرض قدّامه كجنّة عدن وخلفه قفر خرب ولا تكون منه نجاة. كمنظر الخيل منظره ومثل الأفراس يركضون. كصريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون. كزفير لهيب نار تأكل قشّاً. كقوم أقوياء مصطفّين للقتال. منه ترتعد الشعوب. كلّ الوجوه تجمع حمرة. يجرون كأبطال. يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كلّ واحد في طريقه ولا يغيّرون سبلهم. ولا يزاحم بعضهم بعضاً يمشون كلّ واحد في سبيله وبين الأسلحة يقعون ولا ينكسرون. يتراكضون في المدينة يجرون على السور يصعدون إلى البيوت يدخلون من الكوى كاللص. قدّامه ترتعد الأرض وترجف السماء. الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها». وبرغم ما في هذا الوصف من مبالغة جنح إليها خيال يوئيل فإن ظهور الجراد حقاً مخيف وقد شاهدت الطيار منه أيام الحرب الكبرى الأولى يكاد يحجب السماء وشاهدت الزحاف وقد أتى على كل الخضرة التي في الحقول ثم أخذ يزحف في الأزقة كبساط أسود ليس له حدود. تسلق الجدران وبات على مزاريب الخشب فأكل من خشبها حين لم يجد ما يأكله.

وقد زعم العرب القدامى أن الله خلق الجرادة وجعل لها مع ضعفها وصغرها وحقارتها خلقة عشرة من جبابرة الحيوان، فوجهها كوجه الفرس، وعيناها كعيني الفيل، وعنقها كعنق الثور، وقرناها كقرني الإيُل، وصدرها كصدر الأسد، وبطنها كبطن العقرب، وجناحاها كجناحي النسر، وفخذاها كفخذي الجمل، ورجلاها كرجلي النعامة، وذنبها كذنب الحيّة.

وقال القاضي محيي الدين الشهرزوري في صفتها:

«لَها فَخذا بَكرٍ وساقا نَعامَةٍ وقادمتا نَسرٍ وجُؤْجُؤُ ضَيْغَمِ
حَبَتْها أفاعِي الأَرْضِ بَطْناً وأَنْعَمَتْ عَلَيْها جِيادُ الخَيْلِ بالرَّأْسِ والفَمِ»[٦]

ومنشأ الجراد البادية، وهو يفد منها إلى الأراضي المعمورة في بعض السنين فيقضي على مزروعاتها ولا يبقي ولا يذر. وأحياناً يفد في سنين متتالية، ولا صحة للزعم القائل أنه لا يفد إلّا مرّة كل سبع سنين. والظاهر أنه لا يهجر البادية بأسراب كثيرة

ملموسة إلّا حين تضيق البادية عن استيعابه، أو حين لا يكفي نباتها وخضرة واحاتها لتغذيته، فيتحوّل إلى أسراب أو جماعات، ويشرع في الهجرة معاً في طلب الرزق. وتجري موجات الهجرة في وقت الجفاف، وفي أيام الحرّ الناشفة، فترتفع حرارة الجراد، فيطير، وبطيرانه وتحريك عضلاته تزيد حرارته فيندفع في طيرانه دون توقّف، وقد يقطع في الرحلة الواحدة مئات الأميال. وقد شوهدت بعض أرجال الجراد طائرة فوق البحار على بعد ألف ومئتي ميل من أقرب الشواطىء إلى تلك النقطة. فإذا برد الجوّ أو سقط المطر أو دنا اللّيل توقّف الجراد عن الطيران، ونزل إلى الأرض، وكثيراً ما يكون نزوله في البحر فيفنى.

وقد تحتشد أسرابه في الفضاء بحيث تشغل مساحة نحو ألفيْ ميل مربّع كما جرى سنة ١٨٨٩ حين جازت البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية حسب شهادة بعض الخبراء(٧).

وقد يبيض في بعض المناطق التي يحلّها، وينقف بيضه بعد نحو عشرين يوماً(٨). فلا يكاد يظهر الجراد الصغير ـ الزحاف ـ حتّى يغطّي الأرض ويبدأ بما حوله من عشب فيلحسه لحساً، ولا يبقي على شيء من الخضرة أو النبات في الأرض، ثمّ يستمرّ بزحفه مهاجماً ما جاور أرضه من مزارع، فيلتهم كلّ خضرة فيها من شجر وكرم وزرع. وآفة الجراد الطبيعية البرد، وطائر اسمه السمرمر، وترى أهل القرى حين يحاولون طرد الجراد الطيّار من مزارعهم بقعقعة التنك وغيره من الآنية الرنّانة يصيحون:

«ارحل ارحل يا جراد! جاك السمرمر والبراد!».

وقد رأيت السمرمر ينقضّ على الجراد، فلا يكاد السرب الصغير من عشر سمرمرات أو دونها يصل إلى سرب جراد حتّى يفنيه أو يقصيه عن محلّه، وكثيراً ما كنت أشاهد الجرادة الطائرة تسقط عاجزة عند سماع صياح السمرمر قبل أن يصلها، وإذا باغت الجراد الزحّاف على الأرض أخذ يلتهمه أو ينقره بمنقاره فيميته، فلا تمضي هنيهة حتّى ترى كأنّ الجراد قد تبخّر من تلك البقعة. كذلك يتلف الجراد طائر آخر ذكرناه فيما سبق يعرف بأبي سعد، وهو من الطيور القواطع الكبيرة، ويحبّ الحشرات وبنوع خاصّ الجراد، فيأكل منه في العشيّات والأصباح كثيراً، ولكنّه لا يخيفه كما يخيفه السمرمر.

ومع أن الجراد ينازع ماشية البدو على كلإها ويحرمها منه فإنّه في الوقت نفسه طعام للبدوي يعيش عليه في بعض الفصول، ويطعمه خيله فتسمن عليه، فهو من هذه الناحية بلاء ورزق.

أمّا الذي يحبّه البدوي من الجراد فهو الأنثى من نوع خاص يسمّى النجدي، وفي

طور خاص من حياتها، وذلك قبل أن تضع بيضها في الأرض. والواقع هو أن الذي يؤكل من الجرادة إنّما هو جراب البيض الذي في مؤخّرتها، وما يحيط به من غلاف رقيق، وصدرها. أمّا رأس الجرادة وجناحاها وجوفها وأطرافها فترمى كلّها، وقد يأكل بعض البدو أحياناً الرأس أيضاً.

والبدو يشوون الجراد شياً، أو يسلقونه سلقاً بالماء، ثمّ يتركون المسلوق حتّى ينشف وييبس، فينتزعوا أطرافه ورأسه وجوفه، ويأكلوا ما تبقّى منه. وقد ذقت طعمه مشويّاً ومسلوقاً فلم أجده يختلف كثيراً عن طعم بعض أنواع السمك.

ويجمع الجراد عادة في الصباح الباكر، وذلك عندما يكون قد بات ليله على شجيرات النبت الصغيرة في البادية، واحتشد على أوراقها مقروراً لا يستطيع الحركة، فيلتقطه الحواشون ويضعونه بأكياس يكمّون أفواهها حتّى لا يطير عند اشتداد الحر، ثمّ يلقونه بأوعية كبيرة يغلي فيها الماء على النار. وقد رأيته عند البدو والقرويين مسلوقاً ميبّساً مخزوناً بأكياس كما تخزن الحبوب. ويباع الجراد كما أُخبرت في أسواق بعض القرى في شمالي إفريقيا كما تباع الحبوب.

أمّا الجرادة فتختار لبيضها غالباً أرضاً رطبة وتحفر بها متّسعاً لجراب البيض الذي تبيضه متلاصقاً بمادّة لزجة، فتدخل مؤخّرتها في الحفرة الضيّقة التي حفرتها بعمق نحو ١٠ سنتيمترات؛ ويزعم البعض جهلاً أنّها تظلّ متّصلة بكيس البيض حتّى تقضي، بينما يذهب علماء الحشرات أنها لا تموت، ويزعمون أن الذكر من بعض أنواع الجراد يأكل أنثاه وهي في الحفرة ولا أظنّ أن لهذا الزعم ما يبرّره. ويبيض الجراد جماعات، ومن هنا سهل على مكافحيه جمع بيضه وإتلافه.

والجراد يعرف البدو ينقاد لرئيس أو رؤساء، يظعن إذا ظعن الرئيس وينزل إذا نزل، كما يفعل البدو حين يرتحلون. وقد يبدو هذا الأمر غريباً وليس من بيّنة عليه؛ولكنّي رأيت أسراباً من الجراد كانت كلّها نازلة في بقعة من الأرض فما كاد يبدأ بعضها بالطيران حتى أخذ الكلّ يتبعه دون تمهّل أو تردّد. ولعلّ من غريزته أن يسير أسراباً وينزل أسراباً. بل ربّما تعليل طيرانه معاً أنّه يبلغ درجة حرارة معيّنة لا يستطيع معها البقاء على الأرض المحرقة فيطير أسراباً. وهو لا يطير إلاّ في النهار وحين يشتدّ الحرّ. ومن هنا فإنّ أهل القرى والمزارع يرحبّون بأيّام الحرّ حين يستضيفهم الجراد لكي يسهل عليهم طرده وإزعاجه من أراضيهم بواسطة الصياح والجلبة وقعقعة التنك أملاً منهم أن يطير ولا يعود.

أمّا الزحّاف من الجراد فلا شيء يردّه أو يصدّه فتراه كبساط أسود ممدود على الأرض، وهو يمحو ما يجده في طريقه من خضرة فلا يترك لها أثراً، وقديماً كانوا يكافحونه بحفر الخنادق أمامه، ونصب صفائح التنك والزنك الملساء على الحافة المقابلة، فلا يكاد يجوز الخندق ويأخذ بتسلّق جدار الصفائح حتّى يزلق ويسقط في الخندق ويتكوّم، فيهال عليه التراب أو يدعس دعساً أو يفرك بالأيدي فركاً فيقضى عليه. أمّا اليوم فترشّ له السموم في الأرض التي ينقف فيها، فإذا سلم منه شيء بعد أكله السمّ تناولته قاذفات اللّهب وأبادته. وإذا باض في أرض قريبة من العمران جمعوا البيض أو حرثوا الأرض، فيتعرّض البيض لحرارة الشمس والبرد والهواء، ويتلف أكثره. ويبلغ حجم البيضة الواحدة حجم حبّة القمح الرقيقة المسفوحة. ويحتوي جراب البيض في الجراد النجدي على عدد يتراوح بين ستّين وثمانين بيضة. ولعلّ هناك أنواعاً من الجراد تبيض عدداً أكبر، وقد ذكر بعض الروّاد أنّ هناك جراداً تبيض أنثاه نحو مئتي بيضة. وينقف البيض في مدى واحد وعشرين يوماً أو أقلّ، أمّا الجراد المراكشي المعروف بالزبلي فتبيض انثاه قليلاً ولعلّه لا يتجاوز عدد الأربعين.

الحواشي

(١) حياة الحيوان، ٢: ١١٠.
(٢) المصايد والمطارد، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، وحياة الحيوان، ٢: ١١٠.
(٣) المصايد والمطارد، ص ٢٤٢، وحياة الحيوان، ٢: ١٠٩.
(٤) حياة الحيوان، ٢: ١١٠.
(٥) المصدر نفسه، ٢: ١١٤.
(٦) المصدر نفسه، ١: ٢٧٨.
(٧) انظر المادة «Locust» في **Encyclopaedia Britannica**, 15th ed., Chicago, 1978, Micropaedia, VI, p. 293.
(٨) هذه هي المدّة التي ينقف فيها بيض الجراد النجدي أمّا الجراد الزبلي المراكشي فإنّه يبيض غالباً عند هجرته إلى البادية السورية والأقطار المجاورة لها في أوائل حزيران ويظلّ بيضه مدفوناً تحت التراب حتّى أواخر آذار من العام الثاني وهذا الجراد يفرز على البيض مادة تقيه من الفساد.

الفصل السابع

الحيوانات الداجنة في البادية



فارس بدوي على فرسه الحمراء

ليس من شك في أن أشهر الحيوانات الداجنة عند البدو، الجمل، فقد اقترن اسمهم به في التاريخ، وفي كثير من النقوش التي أتت على ذكرهم، بحيث لم يذكر البدوي إلّا وذكر الجمل معه، غير أنه لما كان الجمل في بحثنا قد عدّ ركناً من أركان البداوة، فقد رأينا أن نفرد له فصلاً خاصّاً، ونعرض هنا للحيوانات الداجنة الأخرى التي لها صلة بحياة البدوي.

ونبدأ بتلك التي هي بعد الجمل أشدّ حيوان صلة به، وقبل الجمل أعزّ شيء لديه، ألا وهي الخيل التي اقترن اسمها بالعرب فقيل فيها الخيل العراب، وكانت شديدة الأثر في حياة العرب عامّة والبدو خاصّة، وفي الفتوحات التي حقّقها العرب في تاريخهم الطويل. وإذا كانت الإبل كما سنرى عماد حياة البدو، فإن الخيل هي التي يقدّرها البدو والحضر من العرب، ويذكرون فضلها ونفعها وقوتّها وولاءها، وتراهم يولونها جزيل عنايتهم، ويمنحونها عظيم حبّهم بحيث عدّت أحبّ حيوان إلى البدوي، فقالوا «ظهورها حرزٌ وبطونُها كنز». وكانت كذلك قبل الإسلام وفي الإسلام منذ عهد النبي العربي. ذكر الدميري أن أعرابياً وفد على النبي فقال: «إنّي أحب الخيل فهل في الجنّة خيل؟»[1] ويزعمون أنه بلغ من تعلّق العرب بالخيل أنهم ما كانوا يهنئون إلاّ بغلام يولد، أو فرس ينتج، أو شاعر ينبغ، وجعلوا مرابطها قريبة خلال البيوت، وسمّوها بالمقربات، وقال شاعرهم مهلهل الطائي المعروف بزيد الخيل في فرسه الهطّال:

«أقـرِّبُ مـربَطَ الهـطّالِ منّي	أرى حـربـاً تلقّـحُ عن حيـالِ
أواسيـه بعـروةَ إن شَـتْـونـا	وأوثِـرُه عـلى أمِّ الـعِيـالِ[2]»

وقال ابن عبّاس:

«أحبّوا الخيلَ واصطبروا عليها	فـإنّ الـعـزَّ فيـهـا والجَـمـالا
إذا مـا الخيـلُ ضيّعهـا أنـاسٌ	رَبَـطْنـاهـا فـأشْـركتِ العِيـالا
نُقـاسمهـا المعيشـةَ كـلَّ يـومٍ	ونكسـوها البـراقـعَ والجِـلالا»[3]

ويكفي للدلالة على أهمّيتها الآية الواردة في القرآن الكريم «واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدوَّ الله وعدوكم»[4]. بل زعم الدميري انه يكفي في شرف الخيل أن الله تعالى أقسم بها في كتابه فقال: «والعاديات ضبحاً»، «وهي خيل الغزو التي تعدو فتضبح أي تصوّت بأجوافها»[5]. وروى أيضاً «أن الملائكة لا تحضر من اللّهو شيئاً إلاّ ثلاثة، لهو الرجل مع امرأته، وإجراء الخيل، والنضال»[6] وأن النبي نفسه سابق بينها[7]. وفي حديث النبي: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة»[8]. بل لقد التفت العرب إلى أنساب خيولهم، وحافظوا على أصولها (أو ارسانها كما يقول البدو)، وبالغوا في الحرص على أن لا تختلط الخيول الأصيلة بغير الأصيلة، لتظلّ أنسابها صافية خالصة، لا تشوبها شائبة، وتراهم إذا تحدّثوا عن خيولهم احترزوا في القول كما يحترزون في التحدّث

عن الأعراض، فلا يقولون عن الخيل ما يمسّ أصولها، ويبرأون إلى الله ممّن يذكر نسب فرس ما بسوء إن لم يكن كلامه حقيقة معروفة.

والتفت المؤلفون القدماء من العرب إلى أهميّة الخيل ومكانتها، فوضعوا عنها الكتب بحيث لا نكاد نرى مؤلّفاً مشهوراً عرف بكثرة التآليف إلاّ وله كتاب في الخيل. وقد ذكر ابن النديم وهو من علماء القرن الرابع للهجرة أسماء كثيرين من علماء القرن الثالث ممّن ألّفوا عن الخيل، منهم معمر ابن المثنى المعروف بأبي عبيدة، وله ثلاثة كتب واحد في الخيل، رجعنا اليه، وآخر في خَصْيِ الخيل، وثالث في أسماء الخيل[٩]. ومنهم الأصمعي، وله كتاب الخيل[١٠]. ومنهم ابن دريد، وله كتابان الأول كتاب الخيل الكبير، والثاني كتاب الخيل الصغير[١١]. ومنهم القاسم ابن مَعِن، وله كتاب في الخيل[١٢]. ومنهم ابن قتيبة، وله كتاب في الخيل[١٣]. ومنهم هشام الكلبي، وله كتاب في الخيل لعلّه كتاب أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها الذي حقّقه ونشره المرحوم أحمد زكي باشا[١٤]. ومنهم المدائني وله كتاب الخيل وكتاب الخيل والرهان[١٥]. ومنهم الرياشي، وله كتاب الخيل[١٦]. ومنهم النضر ابن شميل، وله كتاب في خُلُق الفرس[١٧]. ومنهم أبو عمرو الشيباني، وله كتاب الخيل[١٨]. ومنهم محمد ابن حبيب، وله كتاب الخيل[١٩]. حتّى ابن سلاّم المشهور بكتابه «طبقات الشعراء» فقد ذكر له ابن النديم كتاباً اسمه كتاب الحلاب واجراء الخيل[٢٠]. وذكر للريحاني علي ابن عبيدة كتاباً في صفة الفرس[٢١]، وذكر للعتبي الشاعر كتاباً في الخيل[٢٢].

وليس غريباً أن تكون بعض محتويات هذه الكتب التي فقد أكثرها قد تحدّرت إلينا في بعض كتب المتأخرين كما نرى في كتاب تاريخ الخيول العربية الذي رجعنا إليه في أوّل هذا الفصل، ومؤلّفه من رجال القرن السابع للهجرة، ففيه ذكر لأنواع الخيل، وألوانها، وأسمائها، والأشعار والأحاديث التي قيلت فيها. وفيه أرجوزة كاملة في الخيل. وهو لا يكتفي حين يصف ألوانها مثلاً بذكر اللّون العادي المشهور كالأحمر مثلاً، أو الأشقر، أو الأدهم، ولكنّه يفصل كلّ لون بفروع كثيرة، كأن يقول: والكمتة «ثمانية أجناس تفريعاً».. والأصل «أربعة ألوان، الكميت المدمّى، والكميت الأحمر، والكميت المحلفة، والكميت المذهّب». ويلحق بها أربعة هي على صفتها... فأوّلها يقال أحمر أحمّ، وكميت أكلف، وهو ما علا حمرته السواد.. الخ[٢٣]. وفي الأصفر يقول: أصفر أعفر، وأصفر ناصع، وأصفر فاقع[٢٤]، حتّى صهيلها جعلوه أنواعاً[٢٥].

وقد اشتهرت الخيول العربية في العالم كلّه منذ زمن بعيد، وأخذ مربو الخيل في كثير من الأقطار الأجنبية يستوردونها ويربّونها ويسعون إلى تهجين نسل خيولهم بها، بحيث

أصبح من النادر الآن أن تجد خيلاً جياداً جميلة لم يخالطها دم الجواد العربي. وفي تقارير القناصل الإنكليز إلى وزارة الخارجية في القرن التاسع عشر، وفي كتب الروّاد والمغامرين الذين سلكوا الطريق البرّي عبر سوريا والعراق إلى الهند والخليج العربي من حلب إلى البصرة ما يؤكد حرص الفرنجة وبخاصّة الانكليز على شراء الخيل العربية من البلاد العربيّة ونقلها إلى بلادهم، بل إن بعض هذه الرحلات كانت لتلك الغاية وحسب[٢٦]. وأخذت الولايات المتّحدة في السنين الأخيرة تقيم سباقات طويلة الأمد للخيول العربية. ويقدّر العارفون عدد الخيول العربية الأصيلة فيها بعشرة آلاف، ويظهر أن الطلب عليها لا يزال بازدياد[٢٧].

وأدرك العرب منذ زمن بعيد نفعها وأثرها وفضلها على الهجن في الكرّ والفرّ عند الغارات التي تقتضي السرعة والمباغتة في كلّ مغازيهم، ولا سيّما عند الالتحام في المعارك، حتّى إذا توسّعوا في فتوحاتهم في الإسلام كانت الخيل معواناً لهم، فحققت لهم من الانتصارات ما حققت، ونشرت نفوذهم في تلك الرقعة الواسعة من الأرض في القارات الثلاث. ولصعصعة ابن معاوية السعدي مفتخراً باقتناء الخيل وبالبداوة ومندّداً بحياة الفلّاحين أهل الزراعة والكروم والبساتين:

«ما كنتُ أجعل مالي فرعَ داليةٍ — في رأسِ جذعٍ يصبُّ الماءَ في الطينِ
بناتُ أعوجَ تَردَى في أعِنّتِها — أعلى خَراجاً من القِثّاءِ والتِينِ
الخيلُ من زينةٍ أوصى النبيُّ بها — ولم يُعرِّضْ بغَرسٍ في البساتينِ
كم مِنْ مدينةِ جبّارٍ أطفنَ بها — حتّى تركن ذُراها كالميادينِ»[٢٨]

وليس هناك صورة للدلالة على العزّة العربيّة أجمل من صورة عربي على جواد. بل أن كلمة الفروسية في اللغة العربية وما يقترن بها من معنى الشهامة والنبل والقوّة والبأس، إنّما هي مشتقة من الفرس وفارسها، وأصبحت كلمة فارس تعني بطلاً. فقال شاعرهم:

«إنْ تكُنْ فارِساً فكُنْ كَعليٍّ — أو تكنْ شاعراً فكنْ كابنِ هاني»[٢٩]

ورووا أنه تجوز الصلاة على ظهورها في حال الحرب ويجوز أن يسعى عليها في الحجّ وأن يوقف عليها في المواقف[٣٠].

وقد زعمت العرب أن من أخلاق الخيل الزهو والخيلاء والسرور بنفسها، والمحبّة لصاحبها، وانها لا تأكل بقيّة علف غيرها[٣١]. وغالى العرجي في وصف الخيلاء في جواده ومداراته له حين يلقي الجلال عن ظهره فزعم كأنّه يداري ملكاً فقال:

«كأنا نداري حين نسرو جلالَه   بِهِ مَلِكاً من عزّةٍ يتخيّلُ»[٣٢]

وكانوا ولا يزالون يفضلون الإناث من الخيل عند البيات والغارات لقلّة صهيلها[٣٣].

أصل الخيل

يزعم سمبسن في كتابه عن الحصان[٣٤] أنه ظهر عند نشأة الإنسان الأوّل، وأن علاقة الإنسان به في العصر الحجري الأوّل لم تختلف عن علاقته بالحيوانات الأخرى التي كان يصطادها ليأكل لحمها. ولم يكن الحصان سعيداً بهذه الرابطة التي كان ضحيّتها. وقد كشف المنقّبون في سولتري من أعمال فرنسا عن كثير من عظام الخيل بين مخلّفات الإنسان الحجري فيها، وهو أمر لا يترك مجالاً للشكّ في أن الخيل كانت تصاد فيؤكل لحمها كما كانت تؤكل لحوم الماشية البريّة الأخرى من غزال وأرنب ووعل وبقر وحش[٣٥].

وليس غريباً أن تكون أول خيل دجّنت إنما دجّنت للغرض نفسه الذي تدجّن له البقر والغنم والمعز اليوم، أي لتسمينها وذبحها وأكل لحومها. وقد كانت العرب في أوّل عهدها بالخيل تأكل لحومها، كما نلاحظ من قصصهم عن نحر خيولهم لضيوفهم. بل هناك ما يفيد أنهم ظلّوا يأكلون لحومها حتّى زمن النبي[٣٦]. ويظهر أنّ مدجّنيها القدامى قد أدركوا منافعها الأخرى، وهي قوّتها على الحمل. وسرعتها في الجري، وأُلفتها، وأمانتها، وحبّها العيش مع الإنسان، فأخذوا يبقون عليها ويستغلّون هذه الفوائد منها. بل ليس غريباً أن تكون المناوشات والحروب الأولى بين جماعات البشر هي التي أظهرت هذه الناحية من فضائل الخيل ومنافعها، فصار يستعان بها على الهرب وعلى الهجوم. ومهما يكن من سبب لتدجينها فالظاهر أن تاريخ التدجين لم يكن بعيداً جدّاً ولعلّه لم يسبق كثيراً سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. والأرجح أنه تمّ أوّلاً على نطاق واسع في آسيا الوسطى ربّما على يد بعض البداة الذين ادركوا تفوّق الفارس على الراجل في الغزوات وفي ارتياد مواطن الكلأ والماء.

ولم يكن من العسير على الإنسان تدجين الخيل. فليس هناك أكثر من أن يمسك حصان وفرس ثم يروّضان ويدجّنان ويتركان في زريبة واسعة للتوالد، أو أن يمسك مهر ومهرة صغيران ويربيا حتّى يكبرا ويتوالدا. وقد ذهب بعض علماء الحيوان إلى أن أقرب نظرية إلى أمر تدجين الخيل هي أن يكون أوّل من دجّنها صبي اتخذ مهراً كلعبة يلهو بها كما اتخذ غيره جرو الكلب، فلمّا كبر المهر أخذ يركبه، فإذا به أحسن مركوب وأسرعه وأطوعه وأنبله، فعمّت الفكرة وأخذت الناس تدجّن الخيل وتقتنيها، وأخذت الخيل

تتوالد عند أصحابها وتكثر. وليس غريباً أن يكون هذا الأمر قد تمّ في بقاع مختلفة من العالم في عصر واحد، بحيث دجنت كثير من الخيل المختلفة الأنواع في أمكنة مختلفة من الأرض في عصر واحد. ومنذ ذلك العهد أخذ التدجين يعمّ وأخذت هذه الأنواع المختلفة تتباين ويبرز كلّ نوع منها بخصائصه ومّيزاته.

ويظهر أن الإنسان أخذ يستغلّ هذا الحيوان السريع القوي في نزاعه وحروبه مع أخيه الإنسان المستقرّ في منطقة أخرى، بحيث أصبحت الخيل ذات أثر كبير في تاريخ الحروب. ولعلّ ميدانها الأكبر بعد آسيا الوسطى كان بلاد الشرق الأدنى حيث تصارعت الحضارات القديمة وحيث وقعت أهمّ المواقع الحربية بين جنود الأمم المختلفة. واستعين بها في المعارك في جرّ المركبات الحربية أو في الغزوات التي اقترن ذكرها بها في الكتاب المقدّس في كثير من الأخبار، وفي الصيد كما نرى في بعض الآثار المنقوشة والمصوّرة المتخلّفة عن المصريين والآشوريين، وفي سفر أيوب حيث يشير إلى النعامة فيقول: «عندما تحوذ نفسها إلى العلاء تضحك على الفرس وعلى راكبه»[٣٧].

ويلوح أن الخيل العربية الأولى التي اقتناها عرب الجزيرة لم تكن من الجزيرة أصلاً، بل كانت على الأرجح من الهلال الخصيب. وكانت قد تحدّرت إليه مع أهل الشمال، إمّا من ايران وآسيا الوسطى، أو من وراء آسيا الصغرى من بعض المناطق المجاورة لبحر قزوين. وهذه الخيل الأسيوية هي أصل الخيول العربية والتركية والافريقية كلّها. وهي أصل أكثر الخيول الأوروبية. وقد انتقلت إلى أوروبا إما مباشرة من الشرق أو عن طريق اسبانيا فيما بعد. ولا يستبعد أن تكون هناك خيول أوروبية لها أصول أخرى. أمّا التقليد العربي فيذهب إلى أنّ الخيل كانت وحشية، وأن أوّل من ركبها اسماعيل، ولذلك سمّيت بالخيل العراب. ويذكرون عن النبي حديثاً يقول فيه: «اركبوا الخيل فإنّها ميراث أبيكم اسماعيل»[٣٨]. واقتنى النبيّ، أفراساً اختلفوا في عددها وأسمائها منها واحد اسمه السكب اشتراه من الأعراب وهو أول فرس غزا عليه. ومنها سبحة والمرتجز والزار واللحيف والورد، ويقال إن الأخير اهداه له تميم الداري[٣٩].

ولعلّ أول ذكر للخيل في الهلال الخصيب يرجع إلى البابليين الذين استعملوها في المركبات وغيرها قبل الميلاد بنحو ألفي سنة. وكانوا يستعملون الأتن قبلاً لجرّ المركبات[٤٠]. وقد عرفوا الخيل كما ذكرنا من أهل الشمال الذين استعملوها لجرّ المركبات. ومن هنا فقد رمزوا اليها بأتن جبلية لأنّها تحدّرت اليهم مع أهل الجبال.

وأوّل ذكر ورد لها في التوراة هو في سفر القضاة ٤: ٢ ـ ١٨ و ٥: ٢٢ ـ ٢٨.

ويعود إلى زمن يابين ملك كنعان وسيسرا رئيس جيشه الذي زعموا أنه كان له تسع مئة مركبة من حديد دمّرها أعداؤه. ثم في سفر صموئيل الثاني ٨ : ٣ ـ ٤ حيث جاء في أخبار حرب داود النبي مع هدد عزر ملك صوبة أن داود أخذ منه عند نهر الفرات ألفاً وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل، وعرقب داود جميع خيل المركبات، وأبقى منها مئة مركبة فقط. ثمّ أخذ سليمان يقتني الخيل بعد أبيه فكان له فيما يذكر الكتاب أربعون ألف مذود لخيل مركباته، واثنا عشر ألف فارس فيما يزعمون. وكانوا يأتون بتبن وشعير للجياد[٤١]. وقد أشار القرآن إلى خيل سليمان في سورة ص (٣٨)، الآيات ٢٩ ـ ٣٢، وذكر كيف عرضت عليه الصافنات الجياد فألهته عن الصلاة فحزن وغضب وقام ينحي على رقابها وسوقها يمسحها مسحاً. وفي سفر أيوب وصف دقيق للجواد وبأسه وشجاعته وكيف يثب كالجرادة ولا يرتاع عند اللقاء[٤٢]. ولكنّ أيوبَ نفسه لم يكن فيما يظهر من خبره يملك خيلاً، ولم تذكر الخيل بين أنواع المواشي التي ذكر أنه فقدها[٤٣]. وإذا صحّ أن أيوب عربي فإن الخيل لم تكن من مقتنياته. بل لم تذكر الخيل حتى بين الهدايا التي وفدت بها ملكة سبأ على سليمان. فقد أتت بموكب عظيم جداً ولكن ليس في هذا الموكب فيما تنصّ التوراة ذكر للخيل، بينما ذكرت فيه الجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جدّاً[٤٤]. ولعلّ هذا يشير إلى أن جنوبي الجزيرة لم يعرف الخيل في هذا العهد.

ونرى من ناحية ثانية أن الخيل كانت معروفة في مصر حتّى قبل نزوح بني إسرائيل عنها. ففي أخبار يوسف أن المصريين جاءوابمواشيهم إليه حين كان وكيلاً لفرعون مصر، فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير[٤٥]. وفي ملوك الثاني إشارة إلى أنّ بني اسرائيل حاولوا الاتكال على مصر لأجل إمدادهم بمركبات وفرسان لصدّ ملك أشور. وحين قهرهم ملك أشور وأراد عقد صلح مع حزقيال ملك يهوذا عرض عليه ألفي فرس إن كان يجد لها فرساناً[٤٦]. ويذهب بعض المؤرّخين إلى أنه حتّى في مصر لم تعرف الخيل قبل القرن الثامن عشر قبل الميلاد[٤٧]. ويزعم البعض أن الملوك الرعاة العرب (الهكسوس) هم الذين أدخلوها إلى مصر حين احتلوا مصر السفلى في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك على أثر دخول الآريين من إيران، وأهل أناطوليا من آسيا الصغرى، إلى سوريا الشمالية وما بين النهرين، ودفعهم بالسكان الساميين ومنهم الملوك الرعاة إلى الجنوب بحيث بلغ هؤلاء مصر. وبرغم ذلك فهناك من يزعم أن مصر عرفت الخيل قبل عهد الهكسوس وأن بعثة للتنقيب كشفت عن هيكل حصان يرجع عهده إلى المملكة المتوسطة[٤٨].

ومهما يكن من أمر فإن الملوك الرعاة أول عرب عرفوا الخيل، وليس غريباً أن تكون

في الوقت الذي تحدّرت معهم به إلى مصر تحدّرت مع عرب غيرهم إلى الجنوب في الجزيرة العربية. ولكن الجغرافي اليوناني سترابو أنكر وجود الخيل في الجزيرة العربية قبل القرن الأول ق. م. معتمداً في ذلك فيما يظهر على أقوال القائد الروماني إيليوس غالوس الذي غزا الجزيرة عام ٢٤ ق. م.[٤٩]. وإذا عدنا إلى المصادر العربية فإن أول ذكر للخيل عند العرب ورد في أشعار الجاهليين كما نرى مثلاً في معلّقة امرىء القيس:

«وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطّهُ السيلُ من علِ
كُمَيْتٍ يزلُّ اللِّبدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زلّتِ الصَّفواءُ بالمُتنزّلِ»[٥٠]

وفي معلّقة عنترة:

«يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهمِ
ما زلتُ أرميهمْ بثُغرةِ نَحْرِهِ ولَبانِهِ حتّى تَسَرْبلَ بالدمِ
فازورَّ من وَقْعِ القَنا بلَبانه وشكا إليّ بعَبرة وتَحَمْحُمِ
لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولكانَ لو علمَ الكلامَ مُكلِّمي»[٥١]

وفي قصيدة لخالد ابن جعفر ابن كلاب يذكر فرسه ويشير إلى عنايته بها وتوصيته راعييه في أن يؤثراها باللّبن:

«أُسَوِّمُها بنفسي أو بجُزءٍ وأُلحِفُها ردائي في الجليدِ
أمرتُ الراعيينِ ليُؤثراها لها لبنَ الخليّةِ والصَّعودِ[٥٢]
لعلَّ الله يُمكِنُني عليها جهاراً من زهيرٍ أو أسيدِ»[٥٣]

بل إن الشاعر الأعرج المعني عاتب امرأته إذ عابت عليه ايثاره فرسه «وَرْد» بلبن الناقة عليها فقال:

«أرى أمَّ سهلٍ ما تزالُ تَفَجَّعُ تلومُ وما أدري علامَ تَوجَّعُ
تلوم على أن أمنحَ الوردَ لقحةً وما تستوي والوردَ ساعةَ تَفْزع»[٥٤]

ويقال إن ملكاً طمع في فرسٍ لرجل من بني تميم يقال لها سكاب فضنّ بها على الملك صاحبها لكرمها وقال:

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباعُ
مغذاة مكرمةُ علينا يجاعُ لها العيال ولا تجاعُ»[٥٥]

وللخيول ذكر أيضاً في أخبار المهلهل والحارث ابن عبّاد في حرب البسوس حين أرسل الحارث ابنه إلى المهلهل لكي يكون قَوَداً في كليب الذي قتله جسّاس، فقتله المهلهل وهو يقول: «بؤ بشسع نعل كليب». فلمّا بلغ خبره إلى الحارث دعا بفرسه النعامة، فجز ناصيتها وحذف ذنبها. وكان أول من فعل ذلك من العرب، فاتّخذته العرب سنّة إذا قتل لأحدهم عزيز، وسار لقتال المهلهل. وفي قصة المهلهل هذه اشارة إلى عقر الخيول وتكسير الرماح. وفي شعر المهلهل ذكر كثير للخيل[٥٦]. وكذلك نرى أن الحرب التي نشبت بين عبس وذبيان إنّما نشبت فيما يروى بسبب اختلافهم في أمر سباق جرى بين فرسين هما داحس والغبراء.

وليس من شكّ في أنّ الخيل قد أخذت تنتشر في أكثر بقاع الجزيرة قبل الإسلام. وأن العرب أخذوا يستعينون بها في غزواتهم وفي أيامهم المشهورة. وكان للخيل مكانتها عندهم في فتوحاتهم ومغازيهم. قال أبو عبيدة: لم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ولا تكرمه صيانتها الخيل وإكرامها لها، لما كان لهم فيها من العزّ والمنعة والقوّة على عدوّهم، حتّى أن كان الرجل من العرب ليبيت طاوياً ويشبع فرسه، ويؤثره على نفسه وأهله وولده، فيسقيه المخض ويشربون الماء القراح، ويعيّر بعضهم بعضاً بإذالة الخيل وهزالها وسوء صيانتها، ويذكرون ذلك في أشعارهم[٥٧]. ولمّا جاء الإسلام حثّ القرآن على اتّخاذها وإعدادها لجهاد العدّو وحضّ النبي المسلمين على ارتباطها بل كان هو نفسه من أرغب الناس فيها وأصونهم لها وأشدّهم إكراماً لها وحبّاً وعجباً بها. وكان يسابق بينها. وكان يمسح وجه فرسه بثوبه. وأسهم للفرس سهمين وللرجل سهماً واحداً من المغانم[٥٨]. ولا تزال كما ذكرنا شعار العزّة والبأس والنبل والمنعة والجمال عند العرب. وقد استعانوا بها كذلك في الصيد منذ أول عهودهم كما فعل غيرهم وطردوا عليها الغزلان والمهى والفرا والنعام.

أحبّوها غاية الحبّ، وزعموا أنها توسّلت إلى الله، حين سخّرها لابن آدم وجعل رزقها في يده، أن يجعلها أحبّ اليه من أهله وولده فاستجاب دعاءها[٥٩]. واعتنوا بها وعلّموها ودرّبوها فقال الكميت:

«نُعَلِّمها هَبِي وهَلاَ وأرحِبْ وفي أبياتِنا ولنا ٱفْتُلِينا»[٦٠]

وكان أوّل رجل اشتهر بها عند العرب فيما زعموا زيد ابن مهلهل الطائي فكان كثير الخيل، ولم يكن لأحد من قومه مثل ما له فسمي زيد الخيل. وقد أدرك الإسلام

ووفد على النبي فسمّاه زيد الخير. وكان له الخيل الكثيرة منها الهطّال والكميت والورد والكامل ولاحق[٦١].

أمّا البدو فقد ظلّوا إلى عهد قريب من أشدّ الناس عناية بالخيل وتكريماً لها. وهم يقولون: «الخيل ظهورها عزّ وبطونها كنز». ولعل قولهم مقتبس من حديث نبوي «عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حرز وبطونها كنز»[٦٢]. فقد كان عليها اعتمادهم في الغارات المفاجئة والغزوات الهامّة. وكان البدوي لا يضنّ بشيء في سبيل المحافظة على فرسه وصحّتها وراحتها. ولم يكن غريباً أن نراه يحرم أبناءه أحياناً من حليب ناقته إذا كانت فرسه بحاجة إلى ذلك الحليب، أو يحرم نفسه أو امرأته أو ابنه من شربة ماء إذا كانت فرسه عطشى إلى ذلك الماء[٦٣]. وكانت عرب الرولة حين يغربون في القيظ قاصدين البقاع المعمورة يهتمون بأن تعين للفرس ناقة مطفلة تشرب حليبها، بل إنهم يزعمون أن الخيل كانت تفنى لولا عنايتهم بها أكثر من عنايتهم بأولادهم الأخصاء. وهم يحافظون على أصولها وأنسابها فلا يسمحون للكرائم من خيولهم أن تنتج لهم من غير الجياد الكرام. وهكذا فقد أحسنوا تربيتها وتأصيلها فظهرت عندهم خيول كريمة خفيفة سباقة صبورة على التعب متحمّلة للمشاق. بل زعموا أن منها ما لا يبول أو يروث ما دام راكبه عليه، ومنها ما يعرف صاحبه فلا يمكّن غيره من الركوب عليه. وقد قرنت بالعرب الخيول الكرام كما ذكرنا فقيل فيها الخيل العراب، ولديهم منها الآن فروع أصيلة مشهورة أهمّها عندهم خمسة وهي الكحيلان والعبيّان والسقلاوي (الصقلاوي) والحمداني والهدبان وتؤنّث فتقول الكحيلة والعبيّة والسقلاوية والحمدانية والهدبة ولدى بعض القبائل فروع أخرى تعدّ أصيلة كأم عرقوب والمعنقية والخلفة وغيرها. وتتفرّع هذه الفروع بدورها إلى فروع أخرى فهناك مثلاً كحيلة الخرس وكحيلة العجوز وهلمّ جرّا[٦٤].

وتذكر اللايدي آن بلنت الأنواع الخمسة الأصيلة فتقول عن الكحيلان «إنه أكثر الخيول الأصيلة عدداً وقيمة عند البدو، فهو أسرعها مع أنه ليس أشدّها، وهو أقربها إلى الخيول الانكليزية الأصيلة لأنّ له صلة بها. منه فروع كثيرة، منها كحيلان العجوز وكحيلان النواق وكحيلان أبو عرقوب وأبو جنوب ورأس الفداوي.

«أمّا السقلاوي فمنه الجدران وهو أحسن الخيل في البادية، ومنها شهرته في البادية ولكنه قليل الوجود ولا يوجد منه سوى عدد قليل وذلك عند عنزة. أمّا شمّر فلديها عدد من السقلاوي ولكن ليس لديها من نوع الجدران. أمّا فروع السقلاوي الأخرى فهي

عبيران وأُرحبي والعبد وكلّها أخوات من أمّهات سقلاوية وقد تزاوجت هذه الفروع مع فروع كحيلان.

«أمّا العبيّان فهو أجمل هذه الخيول ولكنه صغير الحجم نوعاً ما بالنسبة إلى غيره وهو أقلّ شبهاً منها بالانكليزي الأصيل. والعبيّان الشرّاق أفضل الفروع. وهو عند القمصة قرب حلب وعند أحد بيوت الجلاس».

وتقول:

«أمّا الحمداني فليس معروفاً بكثرة لا عند عنزة ولا عند شمرّ، وأكثر الخيل من هذا النوع التي رأيتُها بيض». وقد أصابت في قولها، فإن الخيل الحمدانية التي رأيتها كانت بيضاً. وكان عندنا فرس حمدانية بيضاء قتلت تحت أخي في سباق ضمن أزقّة القرية وكانت من أكرم الخيل وأسبقها. وتقول: «ولكني رأيت حصاناً جميلاً أسمر عند القمصة وهو حمداني سمري. وهو الوحيد الذي يصلح للهدّ بين فروع الحمداني».

«والهدبان خامس هذه الأنواع الأصيلة ليس كثيراً عند عنزة. وكانت أحسن فروعه عند الرولة وهو الهدبان الأنزيجي». وقد وصفت الـلايدي آن فرساً من هـذا الفرع في الدير شديدة النشاط ترفع ذيلها وزعمت أنها أقرب إلى خيل السبق. أما الفرعان الآخران فهما المشيطب والفرض وهما ليسا كالانزيجي قدراً. وذكرت أخيراً «أن هناك عدا هذه الأنواع الخمسة ستة عشر نوعاً ولها فروع. وكلّها تصلح للهدّ أي لتلقيح الإناث[٦٥]».

صفات الخيل

ويرى البدو أن أجود هذه الفروع ما تميّز بصفات خاصّة يعددونها تتناول أكثر أعضائها الظاهرة. ولعلّ أبرز هذه الصفات أن يكون للفرس نجمة بيضاء في جبينها بل غرّة تتحدّر حتّى شفتها العليا ـ فتشرب معها كما يقولون ـ وأن تكون قوائمها محجلة بالبياض ما عدا يدها اليمنى فيقولون فيها: «محجلة الثلاث مطلوقة اليمين». ولا يرغبون في مطلوقة اليسار. وأن تكون أيضاً طويلة الآذان والقوائم والعنق، كبيرة الأنف والعيون، واسعة ما بين الذراعين، بارزة الجبين عريضته، مقنطرة الصدر، ثخينة الذيل وشعر العنق، شنوفاً ترفع رأسها إلى العلاء، مشمّرة ترفع بذيلها وهي تجري. والخيل العراب على ألوان مختلفة، فمنها الحمراء والصفراء والزرقاء والدهماء والوضحاء وهلم جرًّا. وهم يغالون بأثمانها، وقد كانت تباع الواحدة من الخيل الأصائل بما لا يقل عن مئة



فرس أصيل حامل

جمل. والواقع أن الخيل العربية هي اليوم أفضل أنواع الخيل الشرقية وأجودها وأكثرها أثراً في أصول غيرها من الخيول. ولعلّ أبرز ما فيها رؤوسها التي تطالعك منها نباهة بل شخصية ظاهرة، وتنتزع إعجابك.

ومن المألوف عند البدو أن يكون أهل البيت كلّهم في خدمة الفرس. فالمرأة تجمع لها العشب أن عزّ العشب حول المضارب، وتجلب لها الماء من الآبار أو الغدران البعيدة إن لم يكن الماء قريباً. والولد يأخذها إلى المراعي القريبة ويرعاها ويحرسها. وربّ البيت يلتفت إلى أن تدثّر في الليل وقت البرد، أو حين تعرق، وإلى أن تنظّف ويعلّق لها العليق حين تحتاج إلى ذلك. بل قد يحجز لها حليب ناقة إذا امتنع الماء لإرواء عطشها(٦٦). ولولا شدة اعتناء البدو لهلك كثير من خيلهم.

ولا يزال البدوي في أكثر بقاع الجزيرة يحبّ الخيل ويرغب في اقتنائها، ولكن الأمن الذي استتبّ بفضل الحكومات القائمة منذ انتهاء الحرب الأولى إلى اليوم، والاستقرار السياسي الذي حقّقته وثبّتته السلطات حين أخذت تحول بين البدو والغزو وتضرب على

أيدي الخارجين على القانون، وغلاء الحبوب لإطعام الخيل منذ الحرب الثانية إلى اليوم(٦٧)، واستحداث الآلات الحربيّة الحديثة التي تقضي على الخيل فيها لو أُجيز الغزو، وقلّة الطلب لها في الأسواق العالمية ـ كلّ هذه كانت عاملاً قلّل من شأن الخيل وأهميّتها عند البدو ودعت إلى إهمال تربيتها إذ لم تعد نافعة للبدوي إلّا للهو والصيد. وليس البدوي منعمّاً مترفاً ليقتني الخيل في سبيل اللّهو والصيد، فأخذ البدو يبيعون خيلهم ويمتنعون عن استحداث غيرها. ومن هنا فإنّ هذه الأعداد الضخمة التي كنّا نسمع بها عند البدو أو نقرأ عنها في كتب الرحّالين(٦٨) قد نقصت كثيراً إن لم تكن قد زالت. وإنّنا نجد اليوم قبائل معروفة ليس عندها من الخيل ما يفوق أصابع اليدين عدّا. وإذا استثنينا بعض بيوت الشيوخ فإنّ مضارب البدو اليوم تخلو تدريجيّاً من الخيل. وسوف لا يمرّ وقت طويل حتّى نرى أن البدو كلّهم قد تخلّوا عن تربية الخيل وتركوا ذلك لبعض الأثرياء من أهل القرى والمزارع.

ومن أغرب الروايات التي أوردها بعض روّاد الفرنجة عن عدد رؤوس الخيل عند بعض البدو ما ذكره فارتيما حين زار سورية وبعض بقاع الجزيرة منذ أكثر من أربعمئة سنة، فقد زعم أن عدد ما يملك بعض الأمراء قرب مزيريب بلغ أربعين ألف فرس، وعشرة آلاف حصان، وثلاثمئة ألف جمل. وهي أرقام مبالغ فيها دون شك، ولكنّها تشير إلى كثرة ما كان عند بعض الأمراء من مثل هذه الحيوانات في ذلك الزمن(٦٩) وقد ذكر بركهارت أن غنى الجزيرة العربية بالخيول امر مبالغ فيه فهي تقل كثيراً في الجنوب عما هي في الأراضي الشمالية الغنية بالمياه(٧٠).

ومهما يكن من أمر فإنه لا يزال للخيل دورٌ هام في حياة البدوي وفي القصص التي يقصّها سواء أكانت تلك القصص عن الغارات والغزوات القديمة التي يسردون أخبارها، أم عن أخلاق الخيل وطبائعها وعاداتها في علاقاتها مع أصحابها الذين ربّوها. فهي توصف بالأمانة والصبر والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الصفات التي يعرفها الكثيرون في الكلب. وقد قصّ بعض الروّاد الغربيين أخباراً عن الخيل العربية يصعب أن تصدُقَ على غيرها. من ذلك ما رواه دكسن أن فرساً سارت مئة وستين ميلاً عبر الصحراء في فصل الصيف دون أن تذوق الماء(٧١). ومن القصص المشهورة التي أودعت كتب الصغار للقراءة أن فارساً سقط في المعركة عن فرسه فأسر، وأخذت منه فرسه غنيمة. وذات ليلة سمعت الفرس أنين فارسها في الخباء فقطعت رسنها بفمها، ودنت منه فإذا به مكبّل بالقيود، فحملته بفمها إلى خارج المضارب دون أن يشعر بها أحد، وانطلقت به حتّى بلغت به مضارب أهله.

ولم يفت بالجريف أن يصف الخيل العربية فقصر في كتابه نحو ثلاث صفحات على ذلك قال في آخرها بأسلوبه الرائع إن مظهر الخيل العربية لتبرّر كلّ ما قيل في شهرتها وفي أثمانها وفي الأشعار التي نظمت عنها(٧٢).

ومن أروع ما قرأت عن صبر خيل البدو واحتمالها ما ورد في مذكّرات الأمير أسامة ابن منقذ، وقد لاحظ دارسو آثاره أنه واقعي لا يبالغ ولا يتعمّد الكذب، قال:

«ومن حسن صبر الخيل أن طراد بن وهيب النميري حضر القتال بين بني نمير وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقّة وملكها، والحرب بينهم وبين أخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له قيمة كبيرة، فطعن في خاصرته، فخرجت مصارينه، فشدّها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها. وقاتل حتّى انقضى القتال فدخل به إلى الرقّة فمات»(٧٣).

وقال أسامة عن اختباراته بالخيل هو نفسه: «وجرح تحتي حصان في قتال عند حمص، شقّت الطعنة قلبه وأصابه عدّة سهام، فأخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالعزلتين (يقصد العزلا وهو مصب الماء من الراوية) وما أنكرت منه شيئاً، وبعد وصولي إلى أصحابي مات»(٧٤).

وقال أيضاً: «وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح، وأنا أقاتل عليه، ولا أعلم والله أنه قد جرح لأنّي ما أنكرت منه شيئاً»(٧٥).

ـ وقال تحت باب الخيول العربية والبراذين عن والده:

«وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر فصرع منها خمسة أو ستة على فرس له دهماء تسمّى «فرس خرجي» باسم صاحبها الذي باعها. كان اشتراها الوالد منه بثلاثماية وعشرين ديناراً. فطرد آخر اليحامير. فوقعت يدها في حفرة ممّا يحفر للخنازير. فانقلبت عليه كسرت ترقوته ثمّ قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح، ثمّ عادت وقفت عند رأسه تنحب وتصهل حتّى قام وجاءه الغلمان أركبوه، فهذا فعل الخيل العربية»(٧٦).

ومن عادات البدو المتعلّقة بالخيل أنهم إذا قتل أحد فرسانهم في الغزو فارساً من قبيلة أخرى معادية، واستخلص فرسه، جزّ قطعة من ناصيتها وعلّقها في عمود خيمته

افتخاراً. وهم يضمّرون خيلهم قبل الغزو لتكون أقوى على احتمال المشاق وأشدّ جرياً عند الالتحام والكرّ والفرّ. ولا يسمحون للخيل أن تلقح قبل الغزو لكي تظلّ قويّة. وإذا كانت قد انتجت حديثاً لا يغزون عليها إلاّ مضطرين وعندها قد يهلكون صغارها.

ويتفاءل بدو الرولة بالخيل البيض[٧٧] التي لا يخالط بياضها أيّ ظلّ من الألوان، ويسمّونها «صفراء»، وهي عندهم مركوب الأمراء. ويقولون: «الصفر مركوب الامارى للنظارة». ولا يستعينون بها للغزو لأنّها واضحة في النهار وفي الليل. ويرون أن الخيل الشقر أسرع الخيل في الحلبات القصيرة. ولا يفضّلون خيلاً على خيلهم. ولا يستعملون اللجام إلا في الغارات[٧٨]. ويزعم بعض البدو أن الخيل خلقت من ريح الجنوب ويسميها بعضهم بنات الريح. وفي كتاب تاريخ الخيول العربية ص ٦ أن أهل التاريخ اجمعوا أن الله تعالى خلق الخيل من الريح، بينما يذهب البعض أنها خلقت كما خلق غيرها من الحيوانات، وأنها كانت عند الحضر وأن البدو انتزعوها من الحضر[٧٩]. ويتشاءمون بالخيل التي تعود من القتال ملطّخة بدماء أصحابها، فتراهم يبيعونها. وإذا أسرت فرس في معركة لم يعرف قاتل صاحبها كانت حصة العقيد. وإذا عرف قاتل صاحبها فهي له لا يشاركه فيها أحد. وإذا استطاع أحدهم أن يقتل فارساً ويستخلص فرسه فهو بطل. وتسمّى الفرس في هذه الحالة «قلاعة». ونساء البدو يعيّرون الفتيان إذا لم تعرف لهم بسالة في الغزو بقولهنّ: «عُمْرِكْ ما جِبتْ قِلاعهْ ولا البيض إحْمِدِنَّكْ». يعني لم تأت في حياتك كلّها بفرس قتلت صاحبها ولا النساء حمدت لكِ فعلاً.

والفرس تلقّح في كلّ الفصول، ولكنّها تطلب الفحل مرّة كلّ شهر، فتعرض عليه حالاً عند ذاك، فينزو عليها مرّة في الصباح ومرّة في المساء لقاء أجر يتقاضاه صاحب الحصان. وقد يكتفي بنزوة واحدة. والمهر الذي ينتج بعد سنة من اللّقاح يلحق بأمّه. فأصله تابع لأصلها، وإن يكون أبوه أحياناً أكرم أصلاً من أمّه. وقد يشين المهر أبوه إن كان الأب غير أصيل. ولا يطبّع (يروّض) الحصان عادة قبل أن يتمّ الثانية من عمره. ويظلّ قوياً إلى العشرين وقد يعمّر إلى ما فوق العشرين.

ومن الخير أن نذكر في ختام هذا الفصل أن أجود الخيل العربية اليوم توجد في الغرب. في أوروبا وأميركا وفي الحواضر العربية لا في البوادي، فقد أخذ هواة الخيل الأغنياء يستوردونها بأغلى الاثمان، وأنشأوا لها اصطبلات خاصّة حيث تربّى وتروّض لإشراكها في السبق الذي يجري في ميادين السبق في المدن وفي بيروت بنوع خاص. ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً ما يقتنيه من الخيل الجياد في ربوع نجد وغيرها البيت الملكي السعودي وبعض السلاطين والأمراء والشيوخ في الجزيرة العربية.

الحمار

ومن الحيوانات الداجنة الأخرى الحمار. وهناك من يزعم أن العرب في بوادي الجزيرة العربية عرفوا الحمار قبل أن يعرفوا الجمل، وأنهم كانوا يعتمدون عليه في بداوتهم الأولى[٨٠]. أمّا اليوم فيقتني الحمير في الغالب من البدو «عرب الشوايا» أي البدو الذين يربون الغنم والمعز ولا يبتعدون كثيراً في قلب البادية. فترى عند كلّ راع حماراً يحمل عليه زاده، ويركبه أمام القطيع من موضع إلى موضع. وربّما حمل عليه نعجة ظالعة أو مريضة أو طلياً (خروفاً) ولدته أمّه في البريّة ولا يستطيع السير معها. كذلك يقتني الحمير في أطراف البادية طوائف من النور وهم ليسوا بدواً ولا عرباً ولكنهم قوم من الغجر يمتهنون الرقص والغناء وبعض الحرف اليدوية ويتنقّلون بين القرى المجاورة للبادية على حميرهم.

غير أنّ هناك نوعاً من الحمير عند قبيلة صليب هي الحمر الصليبية لا تزال مركوبهم إلى اليوم. وليس غريباً أن تكون بعض عشائر هذه القبيلة قد احتفظت بمبدأ الاعتماد على الحمير للتنقّل بين أرجاء البادية مستغنية عن الإبل التي استعانت بها القبائل الأخرى. وهذه الحمر الصليبية حمر خاصّة أشهرها بيضاء اللّون وهي فارهة نشيطة قويّة تختلف عن حمر المزارعين ورعاة العرب الشوايا والنور وهي تشبه حمر منطقة الحسا[٨١]. ولكنّها فيما لاحظت أقوى وأفره وتسمّى عندهم «شهارة» والواحد منها شهري. ويذهب البعض في أمرها إلى أنها اكتسبت هذه القوّة بالتهجين، فيزعمون أنها نتاج الاتن الأهلية والحمر الوحشية. قالوا إنّ بعض الأتن عند صليب تترك في الخلاء أيام سفادها فيأتيها ليلاً الحمار الوحشي ويسفدها[٨٢]. وسنعرض لهذا بشيء من التفصيل عند البحث عن قبيلة صليب. وهناك نوع آخر يسمّى «حقارة» والواحد منها حقري وهي تشبه الحمير البلدية المعروفة عند الفلاّحين ولكنّها أقوى وأنشط. وقد كان أبناء هذه القبيلة في العهود السابقة يربّون الحمر البيض ويبيعون الذكور منها وبعض الأتن لبعض الأغنياء في القرى والحواضر فتتناسل عندهم. وكان من يقتنيها في الحواضر والقرى يفتخر ويعتزّ باقتنائها كاعتزاز البدو باقتناء الخيل.

ولها سير خاص ليس بالجري ولا العدو، ولعلّه أقرب ما يكون إلى ما يعرف عند راكبي الخيل بالهذب، وقد تعدو أحياناً فتجري جري الخبب كالخيل، ولكن سرعتها تتجلّى في سيرها العادي حيث تكاد لا ترى قوائمها وهي تسير لسرعة تنقّلها. وللبدو في أخبار سرعتها قصص غريبة سنأتي على بعضها في بحثنا عن صليب.

أمّا الحمر الأخرى فهي حمر الرعيان التي ذكرنا وهي التي ضرب في ذلّها المثل فقيل: «لا يصبر على الضيم سوى عير الحي والوتد».

كلاب الحراسة

ويقتني رعاة الغنم والمعز كلاباً لحراسة ماشيتهم من الذئاب. وهذه الكلاب هي من النوع العادي المعروف عند البدو بكلب رعي. وتجد مع كلّ قطيع كلبين أو ثلاثة. وكذلك يقتني البدو الكلاب لحراسة البيوت ـ بيوت الشعر ـ سواء أكان أصحابها من أهل الغنم أم من أهل الإبل. ويندر أن نمرّ بفريق من البدو نازلين في أرض ما مهما قلّ عددهم



بدوية تخبز على الصاج وأمامها كلبان: سلوقي للصيد، وعادي للحراسة

دون أن ترى عندهم كلاباً من هذا النوع. بل لعلّنا لا نغالي إذا قلنا ان ليس هناك من بيت لبدوي دون كلب. وترى هذه الكلاب إذا دنا غريب من البيت انطلقت من مرابضها أمام البيت تجري نحو الغريب وهي تنبح، فإذا دنت منه وقفت قريبة حتى يدعوها أصحابها فتسكت وينقطع عواؤها أو هريرها، لا سيّما إذا رأت الغريب يدنو من خيمة أصحابها ليكون ضيفاً عندهم كما قال حسّان ابن ثابت:

«يُغْشَوْنَ حتّى ما تهِرُّ كلابُهم   لا يسألون عن السوادِ المُقبِلِ»[٨٣]

فهي إذن الحرس اللّيلي لمضارب البدو، تسهر ليلاً حين ينام أصحابها، وتختلس بعض الساعات في النهار تنام فيها عند الظهيرة. وتنتقل هذه الكلاب مع أهلها حين يظعنون فتسير مع الظعن بظل الجمال في الأيام الحارّة، حتى إذا تعبت أو حميت من شدّة الحرّ ورأت شجيرة من النبت في طريقها توقّفت عن المسير، واستظلّت بها قليلاً وهي تلهث للتخفيف من وطأة الحرّ ثمّ تعود فتتبع الظعن وتساير مواكب الظاعنين، كلّ كلب مع ظعن أهله حتى ينزل الركب. فإذا أخذ أهل البيت بضرب الأوتاد ونصب الخيام عمد الكلب إلى بقعة بجانب الخيمة فاقعى بها بعد أن يجلي عن وجهها التراب الحارّ محاولاً تبريد جسمه.

ولعلّه ليس بين المخلوقات في البادية ما هو أتعس حظّاً من كلب الحي هذا. فهو منبوذ لا يسمح له باللّجوء إلى داخل الخيمة حتّى في أيام البرد أو أيام الحرّ. وهو قذر نجس لا يسمح له بالولوغ من الماء في آنية أهله. وهو محروم لا يأكل إلاّ من فضلات طعامهم. وقد لا تزيد عن كُسيرات من الخبز إذا خبزوا أو عظام يتعرقها إذا ذبحوا.

الكلب السلوقي

ويقتني البدوي الذي يألف الصيد كلباً سلوقياً يستعين به على صيد الغزلان والأرانب. ويزعمون في أصل الكلاب السلوقية انها من بلدة سلوق أو سلوقية في اليمن. وقد قال ياقوت عن هذه البلدة أن اليها تنسب الدروع السلوقية وكذلك الكلاب السلوقية. وقد عرفت هذه الكلاب في الصيد منذ عهد الشاعر القطامي في العصر الأموي فذكرها في شعره وقال:

«معهم ضوارٍ من سلوقٍ كأنّها   حُصُنٌ تجولُ تُجرِّرُ الأرسانا»[٨٤]

بل قد ذكرها زيد الخيل حين وفد على النبي وسأله عمّا يرى في صيدها. فنزلت الآية ٦ من سورة المائدة:

﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم، قل أحِلّ لكم الطيّبات وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلمونهن ما علّمكم الله﴾. وتعني كلمة مكلبين معلّمي الكلاب[٨٥] وفي الآثار التي خُلّفت عن الأمويين في قصير عمرة رسوم لكلاب سلوقية وهي تطارد حمر الوحش في مشاهد مختلفة[٨٦].

وهكذا فقد كان الكلب السلوقي عنصراً هاماً في صيد الغزال والفرا والمهاة والأرنب. ويشبّه بالجواد كما نرى في شعر القطامي. بل إن العرب تزعم أن ما يستحسن بالجواد من محاسن في أعضاء جسمه يستحسن أيضاً في الكلاب السلوقية. وبلغ بهم أن أخذوا ينسبونها كما تنسب الخيل ويصفون بعضها بأنسابها وأسمائها[٨٧] وقالوا:

«سحامٌ وبقلاءُ القنيص وسلهبٌ   وحدلاءُ والسِّرحانُ والمتناوَلُ
بنات سلوقيين كانا حياتَه   فماتا فأودى شخصُه فهو خايلُ»[٨٨]

وهي نحيفة رشيقة جميلة وقد تسبق الغزال جرياً.

فإذا رأى الصيّاد طريدة أطلق على الطريدة كلابه السلوقية فسدّت عليها فروجها وأعاقتها حتّى يقترب الصيّاد منها بحيث يستطيع اصطيادها. وإذا رأت الكلاب أن الطريدة بعيدة أتتها من جانب بحيث تجعل جريها في دائرة تدنيها آخر الأمر من الصيّاد الذي يكمن في الموضع الذي كانت الكلاب أطلقت منه. هذا إذا لم تستطع الكلاب اصطياد الطريدة بنفسها.

وقد كانت الكلاب السلوقية معواناً للصيادين القدماء على صيد بقر الوحش الذي تكاد تخلو منه البادية الشامية اليوم. والشعر العربي القديم يعجُّ بأوصاف هذه الكلاب عند طردها لبقر الوحش وما تتعرض له من خطر وهلاك حين ينحو لها بقرنيه الحادين فينفذ القرن بفريصة الكلب كما ينفذ السيخ من قطعة اللحم حين تشك به. وقد قال النابغة:

«كأنَّهُ خارجاً من جنبِ صفحتِهِ   سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوْهُ عندَ مُفْتَأَدِ»[٨٩]

وكان الصيّاد قديماً يركب جواده ليدرك الصيد حين تحوشه الكلاب أو تعيقه الصقور ويحمل قوسه وأسهمه، وكان يفتخر بجري جواده حين يبلغه القطيع من بقر الوحش أو من الظباء فيصيد من القطيع ما يشاء ويلتذ وأصحابه بأطيب الشواء:

«فعادى عِداءً بين ثَورٍ ونعجةٍ   دِراكاً ولم ينضحْ بماءٍ فيغسلِ
فظلّ طُهاةُ اللّحمِ من بين مُنضجٍ   صفيفَ شواءٍ أوقديرٍ معجلِ»[٩٠]

وتجد أكثر هواة الصيد يقتنون السلوقي من الكلاب الذي يصلح كما قلنا لصيد الأرانب والغزلان. أمّا الكلاب التي تساعد الصيّادين على صيد الطيور كالحجل وغيرها فليست مألوفة في البادية ولم أر أحداً يقتنيها لذلك الغرض.

وأكثر من يقتني الكلاب السلوقية من البدو هم الصيادون من أمراء وغيرهم ومن قبيلة صليب التي ألمحنا إليها غير مرّة في هذا الكتاب. ويعنى الصيادون في القرى المجاورة للبادية بتربية الكلاب السلوقية ومنها ما يباع للهواة في البادية من أمراء وغيرهم.

وإناث الكلاب السلوقية أفره من ذكورها، وأسرع تعلّماً وأنبه وأطول أعماراً، وتعيش نحو عشرين سنة، وأكثر ما تضع ثمانية أجرية وهو نادر، وربمّا وضعت جرواً واحداً فقط، وحملها نحو ستين يوماً. ويظلّ الجرو أعمى نحو اثني عشر يوماً. ومن أمارات الفراهة في الكلاب السلوقية طول ما بين اليدين والرجلين، وقصر الظهر، وطول العنق وغلظها، وغضف الاذنين وبعد ما بينهما، وزرقة العينين، وضخامة المقلتين، ونتوء الحدقة، وطول مقدمة الأنف، وسعة الشدق، ونتوء الجبهة، وقصر اليدين مع طول الرجلين، وطول الصدر وغلظه وقربه من الأرض، ونتوء الزور، وغلظ العضدين، واستقامة اليدين، وانضمام الأظفار حتى لا يدخل بينها تراب ولا طين، وعرض ما بين مفاصل الأعطاف، وعرض ما بين عطفي أصل الفخذ، وطولها وشدّة لحمها ورزانة المحمل، ودقّة الوسط، وطول الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، واستقامة الرِّجلين من غير أن تنحني الركبتان، وقصر الساقين، وقصر الذنب ورقّته حتى يكون كأنّه خشبة من صلابته، ولين الشعر وهو يستحب على الجملة في ذوات الجوانح والقوائم[٩١].
وتزعم العرب أن الجراء تؤخذ وهي صغار لم تقم قوائمها فتلقى في مكان ندٍ فأيها مشى على أربع ولم يكثر سقوطه فهو الأفره وسيكون أقواها. ولا تقلّ الكلاب السلوقية عن غيرها من الكلاب تعلّقاً بأصحابها وحاسّة لمعرفة الطريق إلى منازلهم حين تفصل عنهم. وقد حدّثني منير آغا فيّاض من شيوخ القريتين أنه أهدى كلباً سلوقيّاً إلى ضابط فرنسي أيام الانتداب كان مستشاراً في جبل الدروز في بلدة السويداء، فربط بعنقه طوقاً، وأخذه معه إلى السويداء في جبل الدروز وبعد مدة هرب الكلب ووصل إلى القريتين إلى بيت صاحبه الشيخ هزيلاً ناحلاً بعد أن قطع نحو مئتي كيلومتر، وكان في طريقه أكثر من عشر قرى منها ثلاث في غوطة دمشق.

الغنم والمعز والبقر

إن الغنم والمعز والبقر لمن البهائم المألوفة ولا داعي إلى التحدّث عنها بشيء من



قطيع غنم لبدو الشوايا النازلين قرب الماء



قطيع غنم وراع في المقدمة وآخر في المؤخرة

التفصيل. غير أنه لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الغنم في الجزيرة العربية هـو من النوع المتميّز بكبر الإلية ونعومة صوفه، وله أثر كما ذكرنا في اقتصاديات البلاد من حيث السمن المستخرج من لبنه واللّحم من خرفانه. وقدّر عدد الغنم في سوريا وحدها سنة ١٩٥٣ بنحو مليونين وثمانمئة ألف نعجة، والمعز بنحو مليون ومئتين ألف عنز(٩٢).

أمّا المعز فمن شعرها تغزل الخيوط التي يحاك منها قماش الخيام السود التي اقترن اسم العـرب بها، وهي مـا يسمّونـه بيوت الشّعـر، ومن هنا أهميّتهـا العظيمـة في حياة البادية، ويستنتج من أقوال العلماء الذين درسوا تاريخ تدجين الحيوانات أن المعز كانت من أسبقهـا. ولعلّ الإنسـان دجّنها منـذ نحو عشـرة آلاف سنة. وإن مـواطن أصولهـا وتدجينها كانت في الجبال في سوريا ولبنان وفلسطين. ولا يزال هناك معز بريّة في جبال الأناضول. أمّا الأهلية فمنتشرة في كل البلاد العربية في آسيا وأفريقيا.

ولا يعرف البدو الأصيلون البقر، ولكن أنصاف المتحضّـرين منهم الذين أخـذوا يستقرّون في بعض فصول السنة في القرى والمزارع يربّون البقر ويعرفون بالعرب البقّارة تمييزاً لهم عن البدو الآخرين. ويبلغ عدد البقـر في سوريـا وحدهـا نحو أربعمئـة ألف رأس(٩٣). أحسنها البقر المعروف بالشامي ويكثر في منطقة الغـوطة حـول دمشق. وقد أخذت سوريا تستورد في أواخـر النصف الأول من هذا القـرن أبقاراً من الـدنمرك من الأنواع الغنية في ألبانها بحيث يمكن أن تعمّ وتتحسّن أنواع البقر الحلوب في ذلك القطر.

وبهذا نختم بحثنا عن البادية ونباتها وحيوانها وحشراتهـا ما عـدا الجمل ـ الـركن التالي من أركان البداوة وسنقصر له فيما يلي فصلاً خاصّاً به.

الحواشي

(١) مسند أحمد ابن حنبل، القاهرة ١٣١١ ـ ١٣١٣ هـ، ٥: ٣٥٢؛ وحياة الحيوان، ١: ٤٦٣.
(٢) تاريخ الخيول العربية، لعبد الله ابن حمزة وشرح ابنه أحمد، صنعاء ١٩٧٩، ص ٣٣.
(٣) حياة الحيوان، ١: ٤٦١.
(٤) سورة الأنفال (٨)، الآية ٦٠.
(٥) حياة الحيوان، ١: ٤٥٩.
(٦) المصدر نفسه، ١: ٤٦٣.
(٧) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٨) الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق لودلف كريل (Ludolf Krehl) وت. ف يوينبـل (T.W. Juynboll)، ليدن ١٨٦٢ ـ ١٩٠٨، ٢: ٢١٣، جهاد ٤٣ ـ ٤٤؛ وكتاب انساب الخيل في الجاهلية والاسلام واخبارها لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٤٦، ص ٩.
(٩) الفهرست لابن النديم، تحقيق غوستاف فلوغل (Gustav Flügel)، جزءان، ليبزغ ١٨٧١ ـ ١٨٧٢، ١: ٥٣ ـ ٥٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٥٥.
(١١) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٩٦، وانظر كتاب أنساب الخيل في الجاهلية.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٠٣ - ١٠٤.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(١٩) المصدر نفسه، ص ١٠٦.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١١٣.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١١٩.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(٢٣) تاريخ الخيول العربية، ص ١٣٢.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٤٨.
(٢٦) راجع: **The Desert Route to India**
(٢٧) **News Review,** October 15, 1959, vol. X, no. 42, p. 4.
(٢٨) تاريخ الخيول العربية، ص ٣٠.
(٢٩) هذا بيت مشهور ولكني لم أهتد لمعرفة صاحبه، أو لمرجع يذكره.
(٣٠) تاريخ الخيول العربية، ص ١٦.
(٣١) حياة الحيوان، ٢ : ٢٩٩.
(٣٢) ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، بغداد ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦، ص ١٧.
(٣٣) حياة الحيوان، ٢ : ٢٩٩.
(٣٤) G.G. Simpson, **Horses** (London, 1951), p. 24
(٣٥) ومع أن أتم البقايا المتحجّرة من هياكل الخيل قد وجدت في أميركا الشمالية فالظاهر من أقوال العلماء أن أصل الخيل كان في آسيا وقد نزح منها موجات متتالية إلى أميركا الشمالية فعاش الحصان فيها طيلة العصر البليوستيسيني ثم انقرض بعد ذلك ولم يعرف حتى الفتح الأسباني. راجع: A.W. Podhajsky, «Horse» in **Encyclopaedia Britannica,** 15 th ed. (Chicago, 1978), Macropaedia, VIII, 1088.
(٣٦) كتاب الخيل لأبي عبيدة، حيدر آباد ١٣٥٨ هـ، ص ٨؛ وحياة الحيوان، ١ : ٤٦٨ و ٢ : ٣٠٧.
(٣٧) أيوب ٣٩ : ١٨. ومعنى تحوذ تضمّ.
(٣٨) حياة الحيوان، ١ : ٤٦٣. وهناك اسطورة زعم بعضهم أنها تروى عن قبائل بادية الشام بشأن الخيول الأصيلة وأنها كانت وحشية هامت بعد انفجار سدّ مأرب فاحتال خمسة من البدو بالقبض عليها وسمّيت الجياد الخمسة الشهيرة بأسمائها - انظر جريدة بريد الشرق - كولونيا ١٠ شباط ١٩٦٩ ولكني لم اسمع هذه الأسطورة من بدوي ما حين سألت الكثيرين عنها.
(٣٩) المصدر نفسه، ٢ : ٣٠٨ - ٣٠٩.
(٤٠) H. R. Hall, **The Ancient History of the Near East** (London, 1952), p. 213.
(٤١) ملوك الأول ٤ : ٢٦ - ٢٨.
(٤٢) أيوب ٣٩ : ١٩ - ٢٥.
(٤٣) المصدر نفسه، ١ : ١ - ٢٢.
(٤٤) ملوك الأول ١٠ : ٢.
(٤٥) تكوين ٤٧ : ١٧.

(٤٦) ملوك الثاني ١٨ : ٢٣ - ٢٤.

(٤٧) E. D. Brickwood, «Horse: History», in **Encyclopaedia Britannica,** 11th ed. (Cambridge, 1910 - 11), XIII, 717 - 23.

(٤٨) مجلة العالم (لندن، أيار ١٩٥٩)، ص ٣ - ٤ في مقال عن قلعة مصرية بنيت قبل ٤٠٠٠ سنة.

(٤٩) راجع تاريخ العرب، ص ٤٨.

(٥٠) شرح القصائد العشر، ص ٢١ - ٢٢.

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٥٢) الخلية الناقة التي تخلّ للكلب. والصعود الناقة التي تلقي ولدها قبل أوانه ولكنّها كثيرة اللبن.

(٥٣) كتاب الخيل، ص ١٠. وكان قد قتل أبوه فأخذ أخوته ووالدته وباعوا فرس أبيهم فلما شبّ اتخذ الخيل وأدرك بثأر أبيه.

(٥٤) ديوان الحماسة، ١ : ١٣٦ - ١٣٧. واللقحة هي الناقة التي بها لبن.

(٥٥) المصدر نفسه، ١ : ٧٤.

(٥٦) أنظر خبر المهلهل في الأغاني (بولاق)، ٤ : ١٤٣ - ١٤٧.

(٥٧) كتاب الخيل، ص ٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٤.

(٥٩) حياة الحيوان، ٢ : ٢٩٧، بل زعموا أن أبوالها وأرواثها يوم القيامة كزكي المسك.

(٦٠) شعر الكميت، ٣ أجزاء، تحقيق داود سلّوم، بغداد ١٩٦٩ - ١٩٧٠، ج ٢، ق ١، ص ١٢٨.

(٦١) حياة الحيوان، ١ : ٣٢٧ وكذلك أنظر الأخبار التي سجّلها لنا أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (بولاق) ٤ : ١٤٣ - ١٤٧.

(٦٢) عيون الأخبار لابن قتيبة، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٤٣ - ١٣٤٩ هـ/ ١٩٢٥ - ١٩٣٠، ١ : ١٥٣.

(٦٣) كتاب الخيل، ص ٢؛ وتاريخ العرب، ص ٤٨. وقد ذكر دوتي (١ : ٣٠٤) أن البدو كانت تخصص لكلّ فرس ناقة حلوباً تشرب لبنها وذلك لقلّة الحبوب، وتخصّ الخيل بعناية خاصّة.

(٦٤) Musil, **Manners and Customs,** p. 371 - 73

(٦٥) Blunt, pp. 437 - 40 وفيه ذكر اسماء الستة عشر المشار إليها في أعلاه من معنقي ومُعْدان ودغمان وشومان وغيرها. ووصف مطوّل لكلّ نوع من الأنواع الخمسة المذكورة في أعلاه. انظر أيضاً ما ذكره بهذا الصدد دوتي (١ : ٢٥٢ - ٢٥٣). ونقله عنه كثير من المتأخرين. وانظر كتاب الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك لنبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٧٦، ففيه ص ٢٠ - ٢٣ وصف مسهب للعلامات الدالّة على جودة الفرس عند العرب كما استقاها من مخطوط في الفروسية والبيطرة في علامات الخيل وعلاجها لأبي خزام بن يعقوب الخيلي وفي ص ٣٤ - ٣٦ ذكر لأصنافها وفي ص ٣٧ - ٤٧ ذكر لألوانها. وليس في الكتاب ذكر للأنواع الأصيلة التي يعرفها البدو بالأسماء التي ذكرتها اللايدي آن بلنت. وأنظر أيضاً:

William R. Brown, **The Horse of the Desert** (New York, 1929), pp. 95 — 117.

(٦٦) Doughty, I, 304; Musil, **Manners and Customs,** p. 374.

(٦٧) يزعم ولفرد بلنت كما يذكر Kiernan أن منطقة النفود حلّت له لغز تربية الخيل في قلب الجزيرة العربية ففي الصحراء القاسية ليس هناك من أعشاب تأكلها الخيل. ولكن النفود غنيّة بالمرعى وأشجار النبت.

R. H. Kiernan, **The Unveiling of Arabia** (London, 1937), p. 281.

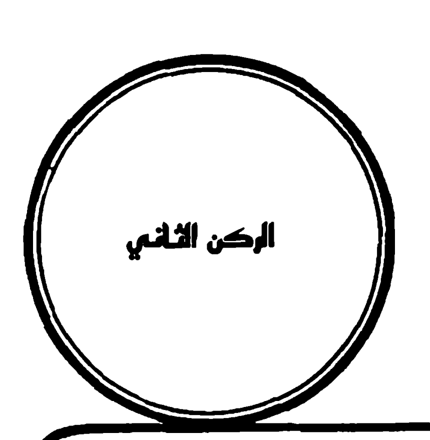
(٦٨) Guarmani, pp. 32, 39, 40, 42 . أمّا بالجريف فيذكر (٢ : ٩٢ - ٩٣) أنه رأى في اسطبل واحد عند فيصل ابن عبد الرحمن السعودي نحو ٣٠٠ رأس ومثل هذا العدد في المرعى، وقد قدّر (٢ : ٩٥) أن خيل نجد كلّها لا تبلغ أكثر من ٥٠٠٠ رأس.

(٦٩) Kiernan, p. 56.

(٧٠) John Lewis Burckhardt, **Notes on the Bedouins and Wahábys,** 2 volumes, (London, 1831), pp. 50 - 53.

(٧١) Dickson, p. 360.

(٧٢) Palgrave, II, 94 - 97.
(٧٣) كتاب الاعتبار، ص ٩٨ - ٩٩.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٧٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٧٦) المصدر نفسه، ص ٢١٤.
(٧٧) قابل رؤيا يوحنّا اللاّهوتي ١٩: ١١، ١٤ حيث نرى: ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب، والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزّاً أبيض ونقيّاً.
(٧٨) انظر Guarmani, p. 13 .
(٧٩) حياة الحيوان، ١: ٤٦٧؛ Musil, **Manners and Customs**, p. 371.
(٨٠) William Foxwell Albright, **From the Stone Age to Christianity** (Baltimore, 1940), pp. 120 - 21 وقد استقينا هذه الاشارة من Hitti, **History of Syria**, p. 66 .
(٨١) لعلّها أغنى منطقة بالحمر البيض في كل الجزيرة العربية وهي غالية الثمن اليوم ويستخدمونها لحاجاتهم المختلفة، ويصبغون بعض قوائمها وأعضائها بالحنّاء.
(٨٢) Guarmani, Appendix XIV; Musil, **Manners and Customs**, p. 197.
(٨٣) ديوان حسّان ابن ثابت، تحقيق وليد عرفات، لندن ١٩٧١، ١: ٧٤.
(٨٤) ديوان القطامي، تحقيق يعقوب بارث (Jacob Barth)، ليدن ١٩٠٢، ص ١٧.
(٨٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ٣٠ جزأ، القاهرة، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤، ٦: ٨٨ - ٨٩.
(٨٦) قصير عمرة، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٨٧) البيزرة، ص ١٤٠.
(٨٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها والمصايد والمطارد، ص ١٣١.
(٨٩) شرح القصائد العشر، ص ١٥٤.
(٩٠) المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٥، من معلّقة امرىء القيس.
(٩١) المصايد والمطارد، ص ١٣٦ - ١٣٧.
(٩٢) راجع تقرير لمنير الشريف في جريدة الحياة سنة ١٩٥٣، عدد ٢٠٩٤.
(٩٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.



الجمل

طُـرُوقاً وَجِلْبُ الرَّحْلِ مَشْدُودَةٌ بِهِ   سَفِينَـةُ بَرٍّ تَحْتَ خَـدِّي زِمَـامُهـا

ذو الرمّة

الفصل الثامن

الجمل [1]



تمثال بطل عربي في عهد مملكة تدمر وخلفه هجين. تلطف بإرسالها لي مدير متحف كوبنهاغن. وهكذا اقترن العربي بالجمل منذ زمن قديم

أصل الجمل ومواطنه

يقصّ عرب الرولة في بادية الشام عن أصل الجمل أسطورة غريبة تذهب إلى أنّ البدو لم يقتنوا الجمال في قديم الزمان بل كان يقتنيها اليهود. وكان اليهود يسكنون جبال الحجاز بينما كان البدو يسكنون في البوادي. وكان البدو يقتنون الخيل ويركبونها في

مغازيهم، ولكنّهم كانوا يتجنّبون ارتقاء الجبال خوفاً من أن يضيعوا في شعابها ومنعرجاتها أو يسقطوا وخيلهم في مهاويها. ولأمر ما اضطر البدو إلى غزو اليهود في الجبال فاستصحبوا دليلاً زعم أنه يعرف كل طود ومنحى في تلك المنطقة وما إن توغلوا فيها حتى تاه الدليل عن الطريق ولم يعد يدري كيف يرشدهم، فأخذوا يسيرون على غير هدى من شِعب إلى شِعب، ومن مضيق إلى مضيق حتّى ضاقت عليهم السبل وجاعوا ونحروا بعض خيولهم، ثم أفضى بهم التنقّل بين تلك الجبال إلى شعب صادفوا فيه مسافراً فسألوه عن مضارب اليهود فقادهم بين المنعرجات ليلاً إلى سهل تحيط به تلال انتشرت فيها خيام اليهود، وإذا أمام الخيام حيوانات غريبة لم يروا مثلها من قبل هي الجمال (الإبل). فكمن البدو في المرتفعات حتّى بزوغ الفجر ثم تحدّروا بخيلهم وفاجأوا اليهود بغارة وهم في السهل فهرب هؤلاء في كلّ سبيل وهربت معهم النياق من إبلهم (ويسمّيها البدو المغاتير)، ولم يبق أمام الخيام سوى الجمال الزرق وهي التي يخالط بياضها بعض السواد فلم تهرب، فانتهبها البدو وعجبوا من أمرها كيف لم تهرب مع أصحابها، وكرهوا أن يقتنوها، وقال زعيمهم: «لا يبارك بك»! وأمر رجاله بنحرها لأنها تخلّفت عن أصحابها. وأخذ البدو منذ ذلك العهد ينحرون الحوار (ولد الناقة) الأزرق. ثم اندفع البدو وراء اليهود الهاربين فأدركوهم وغلبوهم وسلبوهم ونهبوا جمالهم البيض المغاتير كلها، ولم يبق لليهود بعدها جمال يربّونها بل أصبحوا مزارعين أو رعاة غنم ومعيز. ولكنّهم ما زالوا يرقبون عودة جمالهم إليهم، ولهذا تذهب الأسطورة إلى أنهم كل يوم جمعة قبل المساء يهيئون الماء في الأوعية وينتظرون أن تعود الإبل فترد منها. ولكنها لم تعد ولن تعود. ومن هنا المثل البدوي لما لا يرجى نيله أو تحقيقه «رجو اليهود من البل»[٢].

ومهما يكن من أمر هذه الأسطورة فإن علماء الحيوان اليوم يؤيّدون بعض ما تذهب إليه من أن الجمل ليس عربي الأصل برغم صلته وأثره في الحياة العربية. وهم يزعمون أن الجزيرة العربية كلها لم تعرفه في عهوده الأولى قبل التدجين[٣] وأن موطنه الأصلي كان أميركا[٤] حيث عرفت في العهد البليوسيني حيوانات بريّة من فصيلة الجمل المعروفة اليوم لها ما يشبه المناسم تحدر منها الجمل. وسار الجمل من أميركا قبل التاريخ بعهود متطاولة عبر برّ الاسكا الذي كان متّصلاً بآسيا في العصر البليستوسني[٥]. ومن طرف آسيا الشمالي الشرقي سار الجمل إلى أجزائها الأخرى ومنها إلى أفريقيا وأوروبا.

ولسبب لسنا نعرفه انقرض الجمل من أميركا وبقي أخوه اللاما في أميركا الجنوبية. ولقد كشفت بقايا متحجّرة من هيكل الجمل العظمي في تلول السوالك في الهند وفي كشمير ترجع إلى العهد الميوسيني. كذلك كشفت بقايا أخرى في الجزائر في أفريقيا الشمالية ترجع إلى العهد نفسه[٦].

وقد ذكر العلماء أن أقدم رسم معروف للجمل يرجع إلى العصر الحجري. وقد وجد في نقشين في موضع من جبل طبيق اسمه كلوة في أطراف شرقي الأردن. ويظهر الجمل في أحد النقشين واضحاً في الفضاء وراء وعل. وهو ذو سنام واحد من الفصيلة نفسها التي تعرف اليوم بالجمل العربي(٧).

تدجينه وذكره في المدوّنات القديمة

ولسنا نعلم متى أخذ الانسان بتدجينه، ويختلف العلماء بشأن ذلك فبعضهم يزعم أن التدجين بدأ منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وآخرون يذهبون إلى أن التدجين لم يبدأ قبل الألف الثاني، ويدلون على رأيهم بأن الجمل لم يذكر أبداً في كل النصوص الأشورية التي تبلغ عشرات الألوف من الرسائل والأخبار الاقتصادية التي يرجع عهدها إلى ما بين ١٨٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد(٨). ولكنّنا نرى من ناحية ثانية أن هناك إشارة إلى التدجين في صورة هجين على ظهرها راكب وجدت في خرائب تل حَلَف في العراق ويرجع عهدها إلى ما بين ٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق. م(٩). وكذلك وجدت تماثيل صغيرة مصرية للجمل في جبيل (من أعمال لبنان) ترجع إلى حوالي ٢٥٠٠ ق. م. وتثبت أن الجمل كان حيواناً داجناً في ذلك العهد.

ولعلّ أقدم خبر عن الجمل في الكتب المدوّنة هو ما ورد عن إبراهيم في التوراة حين كان في مصر هو وامرأته سارة حيث جاء: «فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال»(١٠). ويلاحظ هنا أن الجمال ذكرت في آخر هذا الجدول وهو أمر دعا البعض إلى أن يزعموا أنها أضيفت إلى النص فيما بعد، غير أننا نرى أنه لما عاد إبراهيم إلى كنعان سيَّر عبداً من عبيده إلى أرام النهرين، فأخذ عشرة من جمال مولاه، ومضى إلى ارام إلى مدينة ناحور ليخطب لإسحاق ابن مولاه، فأناخ الجمال خارج المدينة على بئر ماء عند المساء وقت خروج المستقيّات، وهناك صادف رفقة التي خطبها لابن سيده(١١).

ونعود فنرى ذكراً للإبل في أخبار يعقوب ابن إسحاق، وانه كان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير وأن راحيل امرأته أخذت الأصنام حين ارتحلوا ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها(١٢). ثم في قصة يوسف وقافلة الاسماعيليين (أي العرب) التي كانت جمالهم تحمل كثيراً، وبلساناً ولاذناً إلى مصر(١٣). وبعدها نقرأ عن الإبل أن لحمها حرّم على اليهود لأنها لا تشق ظلفاً(١٤).

ويبرز بعدها ذكر الجمل في الأخبار الحربية في التوراة. فنسمع بالمديانيين والعمالقة وبني المشرق حالّين في الوادي كالجراد في الكثرة وجمالهم لا عدد لها كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة(١٥). ونقرأ عن جدعون كيف قتل زعيمين من زعماء المشارقة

وأخذ الأهلة التي في أعناق جمالها[١٦]. ونرى في موضع آخر أن جمال هؤلاء المشارقة كانت في أعناقها القلائد[١٧].

ويظهر أن هؤلاء العرب البدو كانوا يهاجمون الاسرائيليين المزارعين بأعداد كثيرة بحيث قيل فيهم ليس لهم ولجمالهم عدد. ولا ينقطع ذكر الجمال في التوراة بعد هذه العهود فتذكر في أكثر المناسبات التي يذكر فيها أهل المشرق أو العرب وعند ذكر ملكة سبأ وذكر أيوب الذي كان عنده ثلاثة آلاف منها قبل نكبته[١٨]، وستة آلاف بعدها[١٩]. وتذكر التوراة أن سبط رأوبين والجاديين ونصف سبط منسّى نهبوا من بني هاجر خمسين ألف جمل[٢٠].

والذي يهمّنا من أمر الجمل أنه أصبح مقروناً بالعرب ملازماً للعربي البدوي. أو الأولى أن نقول إن البدوي كان ملازماً للجمل منذ زمن قديم. ومن بديع الاتفاق أن أقدم نقش فيه اشارة إلى العرب ذكر الجمل فيه مقروناً بهم. وقد تخلّف هذا النقش عن الملك الأشوري شلمناصر الثالث وفيه وصف لحملته على سوريا واصطدامه بجيوش ملوكها في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٥ ق. م. ثم يعدّد ما أسره أو دمّره لأعدائه ويقول: «عشرة الاف جمل لجندب العربي»[٢١]. والظاهر أن الجزيرة العربية كانت منذ زمن قديم من أصلح المواطن لتدجين الجمل وتربيته ولعلّها اليوم أشهر بقاع العالم بتربية الجمال[٢١] ولا سيما الهجن الكريمة وإن لم تكن أغناها من حيث الكثرة في العدد.

الجمل ركن هام من أركان البداوة

ومهما يكن من أمر الجمل وموطنه الأصلي فإنّه ركن خطير من أركان الحياة البدوية في الجزيرة العربية. فالبوادي المقفرة فيها هي كالبحر لا يعبر دون مركب. فكان الجمل مركبها وقديماً دعا الشاعر العربي ناقته سفينة البرّ. فقال ذو الرمّة في ناقته صيدح:

«سَفينةُ بَرٍّ تَحتَ خَدِّي زِمامُها»[٢٢].

ولولا الجمل لامتنع على البدوي العيش في البادية والتنقّل بين أرجائها. إنه يحمل له بيته بشقّقه وأعمدته وأطنابه وأوتاده وما فيه من أمتعة ومؤونة وفراش. وتستطيع المرأة البدوية أن تركب في هودج على ظهره تجعل له سقفاً من قماش يقيها الحرّ في الصيف فيمشي الجمل بها وكأنّها في خيمتها. وقد قرنت الإبل في القرآن الكريم مع المراكب حيث جاء فيه: ﴿وإن لكم من الأنعام لعبرة نسقيكم مّما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون﴾[٢٣].



الظعن يسير مع الإبل (الحلال) منتجعاً أرضـاً جديدة. وفي الهـودج امـرأة وصغيرها وشيء من أثاث الخيمة

وقد خصّ هذا الحيوان بالصبر على العطش وقتاً طويلاً، وبالقناعة بالخشن الشائك من العشب طعاماً، بحيث سهل عليه احتمال العيش في البادية. وقيّض له من اتّسـاع المناسم في أرجله ودقّة تركيب قوائمها ما يسّر له السير في أرجائها ذات التربة الرملية أو الكلسية الليّنة. وكذلك هُيِّىء له من مشفر يكسوه الشعر الخشن القاسي لجسّ النباتات الشائكة واقتلاعها أو قطعها، ومن فم ذي تركيب خاصّ لمضغها واجترارهـا، ما جعله يعتمد على تلك الأنواع من النباتـات التي تعيش في البوادي والأراضي المقفـرة ويكتفي بها. وهو فوق ذلك يكتفي بالقليل من الماء إذا قيس بما يحاج إليه حيوان في مثل حجمه وجد في مثل مناخ البادية الحارّ.

وإذاً فالجمل هو الذي مكّن للبدوي العيش في الباديـة، بل لعلّه هـو الذي دعـا البدوي إلى العيش في البادية. أنه أبو البداوة العريقة الحقيقية وسبب استمرارهـا وانها لتتلاشى وتنتهي إذا حرمته. لقد أصبح البدوي عـالة عـلى الجمل فهـو يعيش على لبن النياق حين تنتج، بل إنه أحياناً لا يجد غذاء أو شراباً سوى ذلك اللبن. وقد زعم بعض

العلماء[٢٤] أن البدوي كان يعيش في البادية قبل أن عرف الجمل مدجّناً في رحابها، وأنه كان يستعين بحيوان آخر لعلّه الحمار. فإذا صحّ هذا فإنّنا نزعم أن البدوي في تلك الحالة كان يعتمد على حليب الأُتن[٢٥]، وإلاّ فقد كان مضطّراً إلى أن يقتني الغنم ليعيش على لبنها. وفي كلتا الحالتين لا نظنّ أن نجعته إلى البادية كانت بعيدة أو نافذة كما هي اليوم عند أرباب الإبل.

أنواعه

والجمل اليوم يتفرع إلى فصيلتين رئيسيتين، البقطريانية (الدهامج) وهي فصيلة الجمال ذوات السنامين المعروفة باللاتينية Camelus bactrianus والعربية وهي فصيلة الجمال ذوات السنام الواحد Camelus dromedarius. ولا تعرف الجزيرة العربية وشمالي أفريقية سوى الفصيلة الأخيرة المعروفة بفصيلة الجمل العربي تمييزاً له عن الجمل البقطرياني. وقد ينتج إذا لقحت ناقة من ذكر من النوع الآخر نسل مهجن له سنامان متصلان وقد زال الانخفاض بينهما فظهرا كسنام واحد مديد له قبّتان صغيرتان[٢٦].

ويتفرّع الجمل العربي بدوره إلى فرعين: فرع عادي وهو يؤلف القطعان الكثيرة التي تربى للحومها ولحمل الأحمال عليها، وفرع كريم أصيل.

ومع أن اللّون الغالب في الجمل العربي هو الأسمر العسلي فإن هناك كثيراً من الجمال البيض وتسمّيها الرولة المغاتير[٢٧] والجمال السود في كلا النوعين العادي والكريم الأصيل. ولو شئنا التعميم على الطريقة البدوية لذكرنا كثيراً من الألوان. ومن المألوف عند البدو أن يسمّوا هجنهم بألوانها المتباينة فنسمع بالملحاء والحمراء والشهباء والوضحاء والزرقاء والدخناء والغبشاء والبيضاء والشقحاء، ويلفظونها مخففة دون همز، وأحياناً مصغرة، فيقولون البويضا والحميرا والغبيشا وهلم جرّا أو يسمّونها بصفاتها، فيقولون عجلى وعوجا وطيّاحة وشرها وعليا وجريدة وغير ذلك. ومن أمثالهم «أسامي البل (الإبل) بوجوهها»[٢٨]. أمّا اسماء أعضاء الجمل الرئيسية عند البدو فهي كما يلي: سنام = قبّة الظهر؛ صلب = الظهر؛ غارب = الكتف؛ عضد = ما فوق الركبة؛ فرسن = القدم؛ خفّ = أسفل القدم؛ عرنون = قصبة الأنف؛ خشم = الأنف؛ برطم = مشفر؛ حجاج = ما فوق العين؛ منحر = أسفل العنق؛ ضرع = الثدي؛ شبيب = رأس الذيل؛ حلمة = رأس الثدي[٢٩].

صفات الجمل

من أهم صفات الجمل كما ذكرنا صبره على العطش، أو الأولى أن نقول صبره عن

الماء، فهو قد يستطيع أن يبقى نحو خمسين يوماً في الشتاء لا يرد أثناءها. وقد يبقى نحو خمسة أيام في الصيف دون ماء[٣٠]. ذلك أنه يرعى في الشتاء كثيراً من العشب الأخضر فتغنيه الرطوبة التي فيه عن الماء. ولعلّ الأمر ليس اختيارياً عنده كما وَهَمَ بعض الناس[٣١]. فالواقع أن البادية أو بيئة الصحراء وأهلها التي تحيط به هي التي فرضت عليه هذا، وهو لو ترك لطبيعته لورد كلّ يوم في الصيف وربّما كلّ أسبوع في الشتاء. وأن وروده إلى الماء حين يعطش لخير الأوقات عنده. وقد رأيته حين يفد من مرعاه وارداً بعد ثلاثة أيام من وروده السابق، وقد شعر بوجود الماء، يندفع من بعد نحو مئة متر كالمحموم للورد. فإذا بلغ حوض الماء وحيل بينه وبينه عارك وجاهد حتّى ليكاد يرمي بنفسه إلى الإناء أو البئر الذي يستقي منه؛ ومتى ورد واكتفى ظهرت على وجهه علامات الاكتفاء والرضى. وليس لديّ شكّ أنه إذا أعطي الماء كلّ يوم في الصيف ورد وكان سعيداً بل ربّما شرب عللاً المرّة بعد المرة، وقديماً قال البحتري:

«وَبَعِيدٌ ما بينَ واردِ رِفْهٍ عَلَلٌ شُرْبُهُ ووارِدِ خِمْسٍ»[٣٢]

ومع أنه يدرك من شعر البحتري هذا أن الإبل إذا كانت عازبة في المراعي ترد الماء مرّة كل خمسة أيام في الصيف، فإن المألوف اليوم عند أكثر البدو الذين يقتنون الإبل، ومنهم قبيلة الرولة، أن يوردوا إبلهم مرّة كلّ ثلاثة أيام في الصيف. وهم في الغالب يأتون بها من مراعيها عصراً فترد المياه التي ينزلون عندها وتبيت الجمال ليلتها عند أهلها أمام الخيام، وتسمّى «خميس»، ثم ترد في صباح اليوم الثاني وتنطلق بعد ورودها إلى مراعيها البعيدة لتعود بعد ثلاثة أيام.

أمّا إذا كان أهلها بعيدين عن موطن الماء، فإن الرعاة يوردونها ثم يصدرونها لترعى نحو ساعة، ثم يعيدونها إلى الورد فترد ثانية ويصدرونها إلى مراعيها البعيدة التي ترعى منها.

وحين تكون الإبل عازبة وبعيدة عن المياه فإنها تعطش إذا طال عليها أمد الورد، فتدمع عيونها وتمتنع عن المرعى وتأخذ بالحنين، وتراها قلقة تحاول أن تبول بين الفينة والفينة، وعند ذاك يصبح من المحتّم على الراعي أن يسير بها إلى الورد. وقد لاحظ بعض العلماء أن بولها في تلك الحالة هو قليل مكثّف وأن الجمل يضمر في عطشه ويخفّ الماء من جسمه بحيث يخسر نحو ربع وزنه ولكنّه يظلّ حيّاً يمكنه السير من موضع إلى موضع ولا يخسر من ماء دمه سوى العشر بينما يخسر الإنسان في مثل تلك الحالة نحو ثلث الماء في دمه فترتفع حرارته ويموت[٣٣].



إبل عطشى عند أول ورودها راجعة من المرعى

ويشرب الجمل حين يعطش نحو ثمانين لتراً من الماء في الورد الواحد وقد يكملها إلى المئة أو أكثر حين يرد في اليوم التالي. وليست المياه التي تردها الإبل في البادية مياهاً جارية وإنّما هي مياه متجمّعة في خبرات أو غدران أو آبار. وقد لاحظت مؤلفتا كتاب عن الجمل أن الجمل يمكن أن يشرب في الدقيقة الواحدة، إذا كان ظامئاً بين العشرة والعشرين لتراً من الماء، وأن جملاً واحداً شرب مرّة ٢٧ لتراً في الدقيقة(٣٤). ومن الغريب انهما ذكرتا أن الإبل تمتنع كلّياً عن الماء مدّة أشهر الشتاء الستة أو السبعة حتّى ولو قدّمت لها(٣٥) وأخشى أن تكونا قد خدعتا في قبول مثل هذه الرواية من فم بعض البداة.

أمّا ماء الخبرات في البادية فهو ماء المطر المتجمّع في بعض بطاح البادية في الشتاء. ومن هذه الخبرات في البادية السوريّة ما يتّسع لورود عشرات القطعان في أوائل الربيع في وقت واحد. وتجفّ في الصيف تماماً. أمّا الغدران فهي الماء المتجمّع في مجرى السيل بعد انقطاعه وهي قريبة من الأرض المعمورة. ونرى في أكثرها أن الماء ينخفض عن سطح الأرض بحيث يصبح من المحتّم انتشاله من الغدير لسقي الإبل. وهنا ترى السقاة وقد

شمرّوا عن سواعدهم وأرجلهم وخلعوا شمـلائهم[٣٦] وأخذوا ينتشلون المـاء بأسقيتهم ويضعونه في أحواض من الجلد أو غيره وشرع كلّ راع ينادي إبله إلى حوضه بنداء تعرفه فتأتي اليه وترد. وعند ورودها تسمع صوت الساقي يردّد «طرّ طرّ طرّ» أو تسمعه يتناوب مع رفيق له بإنشاد مقطوعات من الشعر البدوي (حـداوي) ممّا يـردّده البدو عنـد ورود الإبل لتشرب وترتوي وتطمئن.

وقد كان يزعم البعض أن للجمل جراباً خاصّاً أو معدة خامسة خاصّـة لاختزان الماء. وأن هذا هو الذي كان يدفع البداة أو غيرهم من العرب إلى ذبحه حين يعطشون



الإبل وردت وارتوت . وعلامة الاكتفاء في وجوهها

ليشربوا من جوفه. ولكن العلم الحديث أثبت أن ليس للجمل معدة خامسة، وقد اختبرت هذا بنفسي حين كنت أشاهد الجزارين في القريتين والمضحّين من البدو في الأضحى يذبحون الإبل ويسلخونها ولم أشاهد حين كانت تفرّغ أكراشها أن هناك كرشاً خاصاً لاحتواء الماء. ويؤيد ذلك دارسو فسيولوجية الجمل من العلماء في السنين الأخيرة(٣٧). ولعلّ الأمر لا يعدو أن هناك في معدتيه الأولى والثانية بعض الخلايا أو الجيوب التي يمكن أن يُحتجز فيها شيء من الماء لا يخالطه كثير من الطعام كما في غير الجمل من المجترات إذ ينفذ أكثر الطعام رأساً بممر إلى المعدة الثالثة. ويذكر المؤرخون عن أشور بانيبال أنه قال عن العرب في بعض المناسبات إنهم يشقون بطون رواحلهم لاستخراج الماء وإطفاء عطشهم(٣٨). وهناك إشارة صريحة في تاريخ الفتوحات الإسلامية إلى أن خالد ابن الوليد لما أمره أبو بكر أن يسير من العراق إلى سوريا لنجدة جيوش المسلمين فيها انطلق حتى بلغ سوى، فخشي أن يهلك جيشه من العطش عند اجتيازه البادية، فعمد إلى الرواحل التي معه فأعطشها، ثمّ سقاها الماء وقطع مشافرها كي لا تجتر، وسار، فكان ينحر هذه الرواحل راحلة راحلة كما يقول البلاذري ويشرب وأصحابه الماء من أكراشها(٣٩). وقد أنكر الكثيرون أن يكون هذا صحيحاً. والواقع أنه ممكن وليس ما يمنع صحته وقد تحدّثت عن الأمر مع الكثيرين من أهل بادية الشام فذكروا لي أنه مألوف في البادية بل زعم بعضهم أنهم شربوا الماء غير مرة من كرش بعير مذبوح حين أحوجهم العطش إلى ذلك. وكذلك لاحظ الأمر نفسه المستشرق الرحّالة ألوس موزل كما ذكر في كتابيه «الصحراء العربية» و «عادات الرولة»(٤٠).

كذلك ذكر سنت جون فلبي المعروف عند العرب بالحاج عبد الله فلبي، في كتابه عن الربع الخالي أنه سأل أحد رفاقه البدو وهو يسير معه في البادية وقد نفد الماء: هل يمكن للإنسان حين يعطش كثيراً أن يشرب بول الإبل ليطفىء ظمأه؟ فقال البدوي: لا! ولكنّنا نستحصل على الماء من الجمل بطريقة أخرى، ذلك أننا نستخرج الطعام الذي لم يهضم من فم الجمل ونعصره لاستخراج الماء منه(٤١).

ولا بدّ لي أن ألاحظ هنا وقد رأيت هذا الماء ـ أنا نفسي ـ أنه ليس ماء صافياً كما يمكن أن يتوهّم البعض وإنّما هو ماء قذر بنيّ اللّون ولا يشرب إلاّ إذا صفّي ببعض القماش المحكم النسج أو بعد أن يترك في أناء ليركد وترسب الأقذار التي فيه.

وقد دلّ البحث الذي قام به شمت نيلسن في صحارى أفريقيا عن الجمل وصبره عن الماء ونشره في مقال خاصّ أن الجمل يحتفظ بالرطوبة في جسمه أكثر ممّا تحتفظ الحيوانات الأخرى الثديية الكبيرة، ولا تتبخر من جلده بالعرق بمقدار ما تتبخر في

الحيوانات الأخرى، وأن فيه خاصة لتغيير حرارته في الصيف بمقدار ١٢ درجة بمقياس فارنهيت بحيث تسقط دون المعدل في الليل إلى ٩٣ وترتفع في النهار إلى ١٠٥ ، وحين ترتفع يصبح الفرق بين حرارته والحرارة التي تحيط به أقل، فلا يتبخر بالعرق كثير من الماء بل يبقى أكثره في الجسم، هذا إذا لم يتسنّ له أن يرد متى شاء. وقد رأى شمت نيلسن فوق ذلك أن وبر الجمل يساعده على حفظ الرطوبة في جسمه فلا يعرق كما يعرق لو كان جزّ الوبر من جلده(٤٢). ولعلّ هذا يفسّر لبس البدو للثياب الصوفية حتى في الصيف. زد على هذا أن الجمل حين يعطش يذوب قسم من سَنَمِهِ فيتحرر قسم من الهيدورجين الذي في الدهن ويتحد بالأوكسجين الذي يستنشقه الجمل فيتكون منهما ماءً يعوّض عما يحتاجه الجمل عند عطشه(٤٣).

تغذية الجمل

ومن مميّزات الجمل أنه لا يحتاج وهو في حمى البادية إلى شيء من الغذاء غير ما يخرج له سطحها من نبات. ومن هنا فالجمل لا يكلف البدوي غير رعايته والسير به إلى



الجمال بعد ورودها وقد انتشرت على أديم الأرض ترعى الكلأ

الأرض التي فيها كلأ وماء. ولكن الابل لا تعرف مواطن الكلأ كما تعرفها الحيوانات البرية. ومن هنا فضل البدوي في اختيار المراعي الخصبة لإبله، وفضل المرتاد الذي يخبر الأرض قبل الانتجاع فيعرف الصالح منها لإبله وينتجعه ويظعن إليه.

وللإبل في رعيها شؤون فبعضها يحب نباتاً خاصّاً دون غيره كالحمض فتراه يتتبع مواضع هذا النبت من بقعة إلى بقعة على غير هدى بحيث يضلّ أحياناً عن القطيع، وآخر لا يكاد يأكل شيئاً من الحمض حتّى تراه قد شبع منه ومال إلى نبات آخر من نبات الخلة الذي يتميّز عن الحمض. وقد تسرح الإبل في المراعي قطعاناً صغيرة لا يزيد الواحد منها عن العشرة من الجمال أو قطعاناً كبيرة يبلغ القطيع منها فوق المئة. ولكلّ قطيع راع يرعاه ويتقاضى أجوره من مالك الإبل - إذا لم يكن هو مالكها - ويكاد يصبح فرداً من عائلة سيّده. انه يلازم الابل في مراعيها وينيخها ليلاً في مرابضها في البرّية حتى الصباح. وإذا كان أهلها قريبين أنامها في مرابضها عند أهلها. وقد يعقلها بعد أن ينيخها، وفي الصباح يفكّ العقالات ويسلّمها إلى سيّده وينطلق بالإبل إلى مراعيها. وأحسن نبت ترعاه الابل الحمض ويذكر البدو من أنواعه الأرطى والارينبة والحنوة والرغل والرمث والروثة والزريقة والشعران والطحمة والضمران والعجرم والعراد والغضراف وغيرها.

وإذا اشتدّ الحرّ في الصيف أحسّت بعض الابل المحرورة بحاجة إلى التمرّغ في التراب. فإذا مرّت ببقعة من الأرض ذات تراب ناعم بركت بها وأخذت تتمرّغ على ظهورها ذات اليمين وذات الشمال. وقد يبدأ التمرغ جمل واحد فلا يكاد ينهض حتى يحلّ محلّه آخر. وقد تصبح تلك البقعة مراغة كبيرة يتمرّغ بها كثير من الجمال التي تمرّ بها وهي ترعى في البادية، فترى الجمل حين يمرّ قربها يدنو منها ثمّ يشمّ ترابها ويبرك في الأرض ويأخذ بالتقلّب على قفاه وعنقه، ويداه ورجلاه في الفضاء، كأنّما يحاول أن يستحم بالتراب عند اشتداد الحرّ. وكثيراً ما تتزاحم الإبل على المراغة الواحدة وتتسع رقعتها بحيث يبلغ قطرها أحياناً أكثر من مئة متر. ويزعم البدو أن هذا التمريغ يقوّي المفاصل ويريحها ويكسب جسم الجمل شيئاً من البرودة والراحة.

احتماله وقوّته في السير

ويمتاز الجمل بقوّته على قطع المسافات البعيدة واحتماله السير مدّة طويلة. فالعادي منه يجتاز الفيافي الغامرة وراء الكلأ والماء، وينتقل من إقليم إلى إقليم، ومن منطقة إلى منطقة في الموسم الواحد من مواسم السنة إذا لم يحقق له في اقليمه أو منطقته الكلأ والماء.



ذلول من الهجن الكريمة وقطيع من الإبل العادية

وقد شاهدت في صيف ١٩٥٤ عشائر تنتقل بـإبلها من نجد إلى أراضي القريتين من أعمال حمص في سوريا وتبقى في نجعتها هذه نحو شهر أو أكثر ثمّ تعود إلى بلادها[٤٤]. وإن القبائل البدوية من أرباب الإبل في سوريا تنتقل بإبلها مرّة كلّ سنة إلى البادية في الخريف وتعود إلى العمران في الصيف. بل إنهم وهم في البادية لا يكـادون يقيمون في البقاع التي ينزلونها أكثر من أسبوع أو أسبوعين حتّى ينتجعوا موضعاً آخر ينتقلون إليه، فترى جمالهم في سير دائم حتى في مراعيها فإنها لا تنال ما يكفيها من الكلأ إلاّ إذا انتقلت من مكان إلى مكان. وتمتاز الأنثى عموماً عن الذكر بصبرها وجلدها وقوّتها واحتمالها لمشقّة السير الطويل.

الهجن الكريمة

قلنا أن الجمل العربي يتفرع إلى فرعين، عاديّ وكريم، ويتميّز الثاني عن الأول في أصالته وتحدّره من فروع عريقة معروفة ومن أقاليم معروفة وتستولد في الوقت نفسه عند أكثر القبائل البدوية. وتسمّى هذه النياق بالهجن والمهاري وتسمّى الواحدة أيضاً ذلولاً.

وتستولد اليوم عند كثير من القبائل البدوية غير أن أشهرها عمانية الأصل في هذه المنطقة التي تجاور الخليج العربي في الجنوب، وقطرية من قطر، ومهريّة من مهرة في جنوبي الجزيرة العربية واليها تنسب الهجن المهاري ـ ومن هذه الكلمة اشتقّ الفرنسيّون كلمة Meharistes بمعنى الهجانة. وقديماً عرفت عند العرب الهجن المهرية والعمانية بكرم الأصل. وهناك أيضاً هجن كريمة شرارية وهتيمية وتيهيّة منسوبة إلى قبائل الشرارات وهتيم وتياها، وهي لا تقلّ سرعة وقوّة عن المهرية والقطرية والعمانية. ويسمّي بعض البدو الهجن الشرارية ببنات وضيحان. أمّا ما يزعمه البعض من أنّ الهجن الكريمة هي نتاج الناقة العاديّة وقد تركها راعيها رابضة في الخلاء فأتاها جمل وحشي غير داجن ولقّحها فليس له أساس من الصحة وإنما هو وهم من الأوهام الشائعة. فليس في بوادي الجزيرة العربية جمال بريّة أو وحشيّة إلا تلك الداجنة التي تهيج وتهرب من قطعانها وهي تهلك في عامها إذا لم يقبض عليها. وعلى مثل الهجن الكريمة اعتمد البدو في غزواتهم كما اعتمد عليها العرب قديماً في فتوحاتهم العظيمة وفي انتصاراتهم الباهرة على الفرس والروم. بل لعلّها هي التي يسّرت لهم التفوّق في كثير من تلك المغازي والحروب، وبخاصة أيام الصيف. وعلى الهجن كانت توجّه الرسل في المهمّات من الأمور. وهي التي توصف اليوم في القصائد البدوية كما كانت توصف قديماً في شعر المعلّقات وغيرها من قصائد القدماء.

وإذا كان البدوي مادّة الإسلام كما أثر في حديث نقل عن الخليفة عمر ابن الخطّاب فإن ناقة البدوي الكريمة وفرسه كانا فيما أرى مادّة الفتوحات، ولولا تفوّق العربي بمطيّته التي لم يكن لأعدائه مثلها، وخفّته وهو على ظهرها في التنقّل، واستعانته بها حتّى حين كان يستصحب الخيل في غزواته، وقدرته على مباغتة أعدائه وعلى الانسحاب إذا استدعى الأمر انسحابه، وصبر ناقته على البقاء طويلاً دون ماء، واكتفاؤها بما تلقاه من العشب في طريقها وهي في البرية للغذاء، وقدرتها على اجتياز المفاوز والقفار لما تمّت فتوحاته بمثل تلك السهولة التي تمّت بها. ولست أدري لِمَ لا يلتفت مؤرّخو الفتوحات العربية اليوم إلى أثر الهجن في تحقيق هذه الفتوحات. ومع أن الهجن الكريمة قد فقدت قيمتها الحربية اليوم فإنها لا تزال نافعة في بعض الأقاليم التي تقرب من البادية للمراقبة والحراسة كما نرى في فرق الهجّانة في بعض الأقطار العربية. وقد كانت الهجن حتّى الربع الأول من القرن العشرين أهم ما يعتمد عليه البدوي في الغزو وفي المحافظة على شيء من الحكم الذاتي له. وكثيراً ما كان الغزاة يركبون هجنهم مردوفة ـ على ظهرها محاربان، أو يركبونها ويجنبون إليها الخيل للاستعانة بها عند الغارة الأخيرة.

وللبدو في أمر سرعة ركائبهم اخبار وأحاديث. فهم يقصّون عليك أخباراً غريبة عن هجين قطعت أكثر من مئتي كيلومتر بيوم واحد وأخرى حملت رسولاً بكتاب إلى ناحية وعادت بحاملها إلى الأمير الذي أرسله فلم يصدّق الأمير حتّى ناوله الرسول كتاباً من صديقه في تلك الناحية بعينها(٤٥)، وثالثة لم تطعم ولم تشرب حتّى كانت قد قطعت أكثر من مئة كيلومتر وهي مردوفة. وقد ملأت هذه القصص كتب الروّاد والرحّالة من المغامرين. وهي إن لم تصح بحرفها فإن ما تنطوي عليه من مغزى لصحيح. ذلك أن الهجن الكريمة لا يسبقها حيوان من الحيوانات الداجنة في الأشواط البعيدة، ولا يضارعها أي حيوان ـ مهما درّب ـ في الصبر عن الماء والطعام واحتمال الحرّ في القيظ. وقد اختبر هذه الميزة بجمل عاديّ شمت نيلسن فأعطشه ثمانية أيام في فصل الحرّ ففقد نحو ربع وزنه وضمر بطنه وهزل وتقلّصت عضلاته ولكنّه لم يمت ولم ينقطع عن الحركة فلمّا أن عرض عليه الماء شرب وعاد إليه نشاطه ووزنه(٤٦).

أوصاف الهجن الكريمة

ويلتفت البدو إلى أمر الحفاظ على أصل هجنهم الكريمة فلا يقربونها من غير الفحول الأصيلة. وتراهم يستشهدون بالشهود على تلقيح هجنهم بالأصيل من الذكور ويسمّون الكريم منها بالحر. ويجب أن يكون أبواه من أصل كريم، أمّا إذا كان الأب كريماً والأم ليست كريمة فلا يسمّى الحوار حرّاً إذا كان انثى إلاّ بعد أربعة أجيال تلقح الاناث منها من ذكر حرّ. وإذا كان ذكراً فلا يسمّى حرّاً إلا في الجيل التاسع. ومن أوصاف الناقة الكريمة أن تكون مؤلّلة الأذنين حادّتها، متقدة العينين لامعتهما، مفتولة العضدين، منتصبة العنق، صغيرة المناسم والزور، بارزة المنكبين، واسعة الصدر، ملتفة الفخذين، ضامرة الصلب، وأن يكون سنامها على ضموره مركوزاً فوق جسمها باعتدال واتّزان.

أمّا ما يقال عن قوّة حاسّة الجمل على البصر والشمّ ـ سواء الكريم من فصيلته أو غير الكريم ـ فإنّي أخشى أنه مبالغ فيه. بل لعلّ حاسّة الشمّ والبصر في الجمل هي أضعف ممّا هي في كثير غيره من الحيوانات الداجنة. وقد رأيته بالفعل في حالات متعدّدة قريباً من المياه دون أن يشعر بوجودها، وشاهدته يشرف على بقاع فيها إبل كثيرة فلم يظهر أدنى حركة تشير إلى رؤيته ما كنّا نراه. ومع أن المياه في بعض الينابيع التي رأيته يرد منها ـ وهو ظامىء ـ تفوح برائحة الكبريت التي تشمّ من بعيد، فإنّي لم أره يبدي أي شعور أو إدراك لاقترابه من الماء قبل أن يصبح على بعد نحو مئتي متر عنها. وقد حدّثني

البداة أن الجمل قد ينقطع في مرعاه عن قطيعه كأن يدخل في واد يرى فيه عشباً أو نبتاً يروقه فيأخذ في رعيه منحدراً مع الوادي أو صاعداً فيه ولا يشعر إلا وقد تخلّف عن القطيع فيضلّ سبيلة ولا يهتدي إلى كيف يتبع قطيعه حتّى يطلبه الراعي ويجده فيعيده إلى القطيع.

منافع الجمل

لعلّ أهمّ منافع الجمل هي أنه أصلح الحيوانات للسير في الرمال وفي المفاوز الخالية والصبر عن الماء ومن هنا فقد يسّر للبدوي السكنى في البادية والتنقّل في أرجائها من مكان إلى مكان. ولولا ذلك لما كان له أن يكون ركناً هاماً من أركان البداوة فهو متفرّد بهذا الأمر بين الحيوانات الداجنة المعروفة ولا يقابله من الحيوانات غير الداجنة سوى النعامة التي لا تعيش إلّا في الأراضي الصحراوية. وقد استعان به البدوي على اجتياز البادية فهو يحمل أولاده وامرأته يوم يظعن على ظهور ابله ويضع أثقاله عليها وهي تحمل خيمته وأعمدتها وما لديه من متاع وأغذية وتسير به إلى المنتجع الذي يسيرّها اليه. ولولا الهجن التي تقطع المسافات البعيدة لما أمكن للبدوي ارتياد المنتجعات قبل الرحيل. فإنّ من عادة البدو أن يبعثوا روّاداً على الهجن يرودون أرجاء الأرض في البادية بحثاً عن الماء أو الكلأ حتى إذا وجدوهما في بقعة عادوا إلى قومهم وأشاروا عليهم بالرحيل اليها. كذلك يرسل البدو رسلهم في البادية مزوّدين على هجن سريعة قويّة فتقوم مقام ناقلات البريد. وقد جاء في سورة النحل (١٦) الآيات ٥ ـ ٧: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾[٤٧]. وجاء في سورة الزخرف (٤٣)، الآيتان ١٢ ـ ١٣: ﴿والذي خلق الأزواج كلّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين﴾. وجاء في سورة غافر (٤٠)، الآية ٧٨: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾.

ومن منافعه أيضاً أنه يسّر للبدوي الغذاء الأساسي الذي يعيش عليه وهو اللّبن، بل إن هذا اللّبن نفسه يغني البدوي إلى حدّ كبير عن الماء الذي يحتاج إليه لإرواء عطشه. وتحلب الناقة اللبون مرّة في المساء. ولولا لبن النياق لاحتاج البدوي إلى أضعاف أضعاف ما يشرب من الماء. وإن بعض البدو يذبحون حوار الناقة عمداً لتعيش صغارهم وفرسهم على لبنها فإذا لم تستدر أتى بحوارٍ لغيرها فتستدر به، وربما جمعوا ثلاثاً أو أربعاً

ظعن راحل ينتجع أرضاً جديدة



الطريقة التي تركب فيها المرأة على الجمل

من النياق على فصيل واحد يستدرون به. وإذا لم يذبحوا الحوار شاركوه في اللبن، فتركوا له شطر ضرعها وحلبوا الشطر الآخر. ويجري حلب الناقة بطرق مختلفة، إمّا بالكف كلها ويسمى هذا النوع من الحلب بالضفّ، وأما بالإبهام والأصابع كلّها ملتفةً عليه ويسمّى الضبّ، أو بطرف الإبهام ومفصل السبّابة ويسمى البزم، أو بطرف الابهام وطرف السبّابة ويسمّي الفطر. وقد لاحظ الذين درسوا لبن النياق انه يحتوي على نسبة من الفيتامين C أكثر ممّا في حليب البقر، وعلى نسبة من الدهن والبروتين والمواد المعدنية أكثر ممّا في حليب البقر أو في حليب المعز[٤٨]. ومع أنه من الممكن أن يصنع من كل حليب زبدة أو جبن فإنه من غير المألوف كما يظن البعض أن يصنع البدو زبدة من حليب نياقهم، ولم أعرف أحداً ذكر لي أنه أكل زبدة من لبن النياق. ويجب أن نلاحظ هنا أن ما يصنعه البدو أحياناً من كتل تشبه الجبن اليابس فإنه غالباً يصنع من لبن الغنم والماعز ومن النادر أن يصنع من حليب النياق. وإن اللبن الرائب له خميرة خاصة وهو غير الحليب المحمض كما يظن البعض. وقد أشار ولسن في دراسته للجمل إلى كميّة الدهن والمواد الأخرى في حليب النياق بالنسبة لغيرها في البشر وبعض البهائم فلتراجع هناك[٤٩].

ولقد اخطأ فولني حين زعم أن الجمل يؤمن للبدوي الزبدة[٥٠]، وقد ضلل الكثيرين من الذين نقلوا عنه، فالزبدة عند البدو تصنع من لبن الغنم ولبن المعيز وليس من حليب النياق.

كذلك ييسّر الجمل للعرب - بدوهم وحضرهم - اللّحم، ويسمّى في الحواضر العربية لحم الجزور. ويحدّد سعره كما تحدّد أسعار اللحوم الأخرى، ويسجّل في قائمة الأسعار التي تنشرها البلديّات وتعمّمها على الجزارين ليتقيّدوا بها. ولا يختلف لحم الجزور في الطعم كثيراً عن لحم البقر لاسيما اذا كان لحم فصيل[٥١]. وذكرت داغ وزميلتها جوشير- بلتزر أن في لحم الجمل من البروتين نسبة أعلى ممّا في لحم البقر، وفيه من الدهن أقلّ مما في البقر. وأشارتا إلى أنه لما كان العالم اليوم مهدّداً بالجوع في المستقبل فإن العلماء أخذوا يوسعون بحوثهم عن مواد للتغذية بحيث شملت لحم الجمل[٥٢]. ولا بدّ من الاشارة هنا إلى أنّ الجزور لفظ يطلق على الذكر والانثى من الإبل التي لم تحمل الأثقال ومن هنا فإنّ لحمها ليس قاسياً كلحم الجمل الذي يعيش في القرى ويستخدم في الزراعة والحصاد والنقل وحمل الأثقال وغيرها من أمور الحضر. وإن أعظم ما يقوم به البدوي لضيفه إذا همّ إلى إكرامه هو أن ينحر له جزورًا. والشعر العربي مترع بالفخر في التسابق إلى قرى الضيفان ونحر الإبل تكريماً لهم. ويحتفظ البدو حين ينحرون الجزر

بشحم أسنمتها التي تقبّب ظهور الجمال حين تخصب الأرض ويكثر المرعى . وترى البدو من أهل الإبل يذيبون الشحم ويحفظونه دهناً لطعامهم فيقوم مقام السمن عند الحضر أو عند البدو من أرباب الغنم .



شاب تتدلى جدائل شعره وقربه حوار كبير عُقِل ليذبح

وينحر البدو كثيراً من الإبل في عيد الأضحى وذلك ذكرى لمن مات منهم وتضحية لهم . فالبيت الذي يفقد منه بعض أفراده الأعزاء يضحى فيه بجمل في عيد الأضحى الأول بعد وفاة الفقيد ، أو في أي أضحى يليه . فترى ربّ البيت في أحد أيام العيد[٥٣] يهيّء الجمل للتضحية فيعقله ثم ينيخه وينحره . وقد يضع عليه أحياناً خرجاً فيه زاد من طحين وماء وخيزرانة ليستعملها الفقيد لسوق الجمل يوم القيامة . ويفرق لحم الضحية

على الفقراء من أهل القبيل وغيرهم ويحتفظ أهل البيت بالسنام. وهم يعتقدون أن هذه الضحية هي التي سيركبها الفقيد إلى الجنّة يوم القيامة ـ ومن هنا التزويد بالزاد والخيزرانة. وبعد أن يذكر اسم الله عند ذبحها يقول المضحي مخاطباً الفقيد: دونك ضحيتك يا فلان. وليس غريباً حين تمرّ بمضرب من مضارب القبائل الكبيرة في اليوم الثاني من أيّام العيد أو الثالث أن ترى القبيلة قد ضحّت نحو خمسين ضحيّة في سبيل الذين فقدوا منها. وإذا اتّفق أن نزل البدو قرب بعض القرى في موسم الأضحى فإن أهالي القرية القريبة هذه يشبعون لحماً ـ دون مقابل ـ في ذلك الموسم من لحم الأضاحي الذي يوزّع عليهم حين يحضرون النحر في العيد، وقد يختزن البدو بعض اللحم بعد أن يطبخ ويذاب الشحم عنه أو يقطعونه شرائح تقدّد وتحفظ لوقت طويل. أمّا القبائل التي تقتني الغنم فإنها تضحّي من أغنامها.

ويصنع البدوي من جلد الجمل رواء يحفظ فيه الماء، أو سفاء ينشل به الماء من الآبار والغدران، أو حوضاً يملأه ماء لتشرب منه الإبل حين ينتشل الماء من الآبار، ويصنع كذلك من الجلد حذاء له ينتعله حين تحفي قدميه الرمال، أو حين تلجئه الرمضاء المحرقة إلى لبس الحذاء، ويشقّ منه سيوراً لذلك الحذاء. وقد يتّخذ من مناسم الجمل خفين له أو نعلين لحذائه. بل إنه يصنع من جلد الجمل كثيراً من لوازمه وأثاث بيته. ويستعمل بعض البدو في جنوبي الجزيرة العربية جلود الجمال لسقف الخيام.

ويستعان بوبر الجمل في حياكة بعض الأكياس التي تختزن فيها الحبوب أو الطحين أو في صنع بعض الشقق للأروقة في الخيام أو في صنع عباءة لرب البيت أو غطاء لسرج فرسه. ولا يجزّ الوبر عند الرولة وعرب بادية الشام في موسم معينّ كما يجزّ صوف الغنم مثلاً، وإنّما يأخذ الوبر في السقوط عن أجسام الإبل في الصيف فتجمعه النساء قبل أن يسقط وكثيراً ما يعمد بعضهن إلى إخفاء بعضه عن رجالهنّ وبيعه سرّاً لشراء شيء من الحلي الرخيصة.

ويتّخذ البدوي من أبعار الجمل وقوداً لناره التي يصطلي عليها في الشتاء، وللنار التي يطبخ عليها ما يحتاج أن يطبخ في قدره من طعام أو في أباريقه من شراب، أو يخبز عليها ما يريده من خبز. وقد كان روث الإبل ولا يزال الوقود الرئيسي ليس في البادية وحسب بل عند أهل بعض القرى المجاورة للبادية. وإن في أكثر بيوت الفلاحين حتى في القرى البعلية المجاورة للمدن غرفاً خاصّة لخزن روث الإبل أو الأغنام أو المعز أو البقر لاستعماله وقوداً على مدار السنة. وإذا نزل البدو بأراض زراعية أغنتها إبلهم عن السماد وذلك بفضل روثها وبولها. فهما غنيّان بأملاح النشادر. ولعلّ هذه الأملاح هي



جمل ينحر في عيد الأضحى ويشق جلده عند السنام

الجمل بعد نحره وقد انتُزع سنامه

التي تدفع بكثير من بنات البدو ونسائهم إلى غسل شعورهن بماء الإبل فإنه يقيها شرّ الحشرات، ويكسبها لون الشقرة. بل إن من البدو من يشرب هذا الماء أحياناً دواء للشفاء من بعض الأمراض.

وفوق هذا كلّه يتّخذ البدوي على ظهر جمله ـ وهو ظاعن ـ هودجاً يجعله بيتاً تقعد امرأته فيه ومعها شيء من طعامها وشرابها وملبوسها ووسائدها وحشاياها كأنها في خيمتها، وتتّخذ لهذا الهودج الكبير سقفاً ويستظلّ الأطفال فيه ويمشي الجمل بكلّ هذا راضياً صبوراً.

وقد نفذ الجمل إلى صميم حياة البدوي الاقتصادية فهو أساس الثروة عنده. وكان كلّ شيء في البادية ـ منذ زمن قصير ـ يثمّن بالنسبة إلى هذه الوحدة أي قيمة الجمل. فالديّة وهي ثمن القتيل لا تزال إلى اليوم تدفع بعدد من الإبل كما كانت تدفع زمن الجاهلية فتعفى بها الكلوم وتعقل القتلى كما قال زهير ابن أبي سلمى:

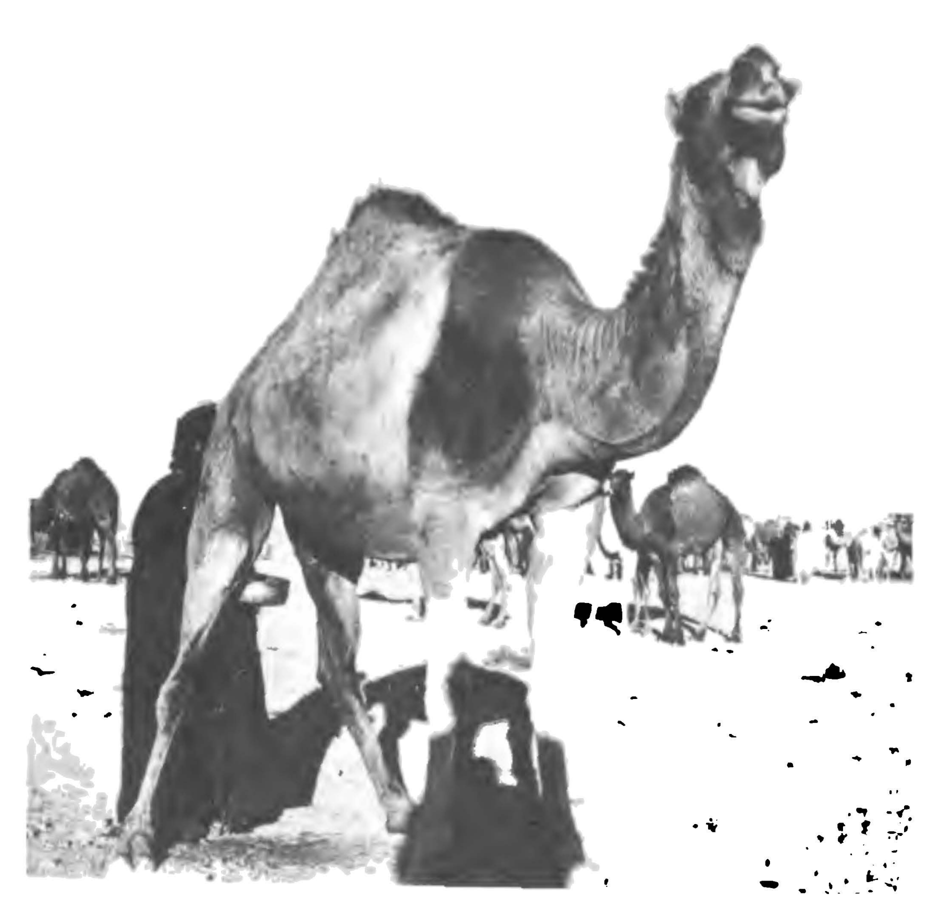
فكـلاً أراهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَـه   صَحيحاتِ مالٍ طالعاتٍ بِمَخْرَمِ (٥٤)

فالمهر وهو صداق العروس يدفع بعدد معلوم من الجمال تبعاً لمكانة العروس وأهلها أو قدرة العريس. ومن الأقوال المأثورة التي نسبها بعضهم إلى النبي (٥٥) «لا تسبّوا الإبل فإنّ فيها رقوء الدم ومهر الكريمة» أي أنها تعطى في الديّات فتحقن بها الدماء فلا تراق وتكون مهراً للنساء. حتّى الخيل فإنّها تثمن أحياناً بعدد من الجمال. ولقد شاهدت وأنا فتى وفداً من قبل الشيخ عوده أبي تايه، صاحب لورنس الشهير، يعرض على بعضهم ثلاثة من الإبل ثمناً لمنظار يعرفه عنده.

والبدوي يقدّر ثروته وغناه بما عنده من الحلال، أي من الإبل، إن كان من أهل الإبل. فهم يقولون: فلان يملك كذا من الإبل. ولكنّك لا تسمع أحداً يقول: إنّ فلاناً يملك ما يساوي كذا من النقود.

وإن الضرائب التي تستوفيها الدولة من البدوي الذي يعيش ضمن حدودها اليوم، والزكاة التي كان يدفعها في صدر الإسلام وزمن الأمويين، إنّما كانت على رؤوس الإبل. وقد كانت شيوخ القبائل لوقت قريب تجمعها وتؤدّي شيئاً عنها معلوماً للدولة. أمّا الآن فإن جباة الدولة هم الذين يجمعون هذه الضرائب من البدو وعلى أساس عدد الإبل التي يحوزها كلّ فرد من القبيلة، ويؤدّى عن ذلك بدل نقدي. ومن منافعه أخيراً أنه يباع للحضر إمّا للذبح أو للحمل والنقل. وبثمنه يستطيع أن يشتري البدوي ما يشاء من متاع وعتاد وغذاء. إن الإبل عزّ لأهلها.

وقد حاول بعض الذين درسوا الجمل لمقارنته بالعجلة التي تجرّها الخيل عند غير البدو في تاريخ الحضارة فرأوا أنه يفضلها ويفضُل الحيوانات الأخرى التي يمكن أن تجرها كالثور والبغل والحمار في أكثر الأمور ومن هنا مكانته في تاريخ النقل. وقد أجمل أحدهم فضل الجمل على الثيران التي تجر العربات بنقاط أهمها أن الجمل يحمل أو يجر ضعفي ما يقوم به الثور الواحد، وأنه أسرع منه، ويسير في اليوم الواحد مسافة أطول مما يسير ذاك، وأنه يستطيع أن يقطع دون توقف نحو خمسة وعشرين ميلاً ويقوم بعدد أكبر من الرحلات في السنة الواحدة ويعيش ويعمل أربعة أضعاف ما يعيش ويعمل الثور. ويستطيع أن يعبر في أرض تغرز فيها العربة، ويخوض نهراً لا يمكن للعربة أن تخوضه، وله قوة على



بدوية تجمع بول الإبل لتغسل شعرها

احتمال المشاق والصبر عن الطعام والماء أكثر مما يصبر أي حيوان آخر من حيوانات النقل[٥٦].

مضار الجمل

أمّا مضار الجمل فتكاد تنحصر في شيئين. أولّها أنه ركن من أركان البداوة. ومن هنا فإنّه يحول دون تحضير البدو. وهم مضطرّون بحكم تربيتهم له إلى أن يسيروا به إلى البادية ويبقوا بداة لا يتحضّرون. ولا يمكن أن يستغلّ الجمل في الفلاحة والزراعة كما تستغلّ البقرة لأنه يكلّف أكثر ممّا ينتج، بينما لا يكلّف وهو في البادية سوى أجرة الراعي الذي يوكل بقطيع كبير. وثانيهما أنه حين يقترب من أراضي المناطق المعمورة في فصل الصيف يرعى كلّ ما في أراضيها من كلأ يصلح لماشية الفلاّحين ويطأ ما تبقّى من الأعشاب الصغيرة بمناسمه فيميتها أو يوقف نمّوها.

ومن الغريب أن مؤلّفي كتاب الجمل الغنيّ بالفوائد والمعلومات الفسيولوجية وغيرها تزعمان أن النبت ينمو أكثر حين ترعاه الجمال وأن الجمل لا يسيء إلى النباتات في البادية بل إنه بالفعل يحفظها. ثمّ تقولان: قد تبيّن لإحدانا أنّ الخضرة نمت في بقعة رعت الجمال فيها أكثر ممّا نمت في بقعة مثلها منعت الجمال أن تسرح فيها[٥٧]. بينما زعم جارفز كما مرّ معنا في بحثنا عن البادية أن الجمل والعنز هما عدوّا النباتات في البادية وأنه حمى قطعة من الأرض في بريّة سيناء منهما فازدهرت النباتات فيها ونمت منها شجيرات طويلة وأصبحت تربيتها أصلح بسبب ما سقط فيها من الأوراق اليابسة المهترئة[٥٨].

أنا لا أنكر أن الضرر قليل حين تسرح الجمال في البوادي الواسعة بعيداً الواحد عن الأخر، ولكن هل يمكن أن تكون نافعة في رعيها للنبات. وما الذي يتمّ لو كانت الجمال ترعى بكثرة في البقعة الواحدة؟

طبع الجمل

إن الجمل قبل كلّ شيء حيوان يؤثر العيش مع جماعة من جنسه ومن هنا فهو يسير قطعاناً كالغنم والمعز. وتراه إذا أفرد لسبب ما كان أوّل همّه أن يلتحق بجماعته التي انفرد عنها. وإذا اردت أن تعبر نهراً أو ممرّاً أو مزلقاً خطراً أنت وقطيع من الإبل، أو أنت وقطار من الإبل، وامتنع عليك القطيع أو القطار، فليس عليك إلاّ أن ترغم واحداً على المرور، فترى البقيّة تلحقه بسهولة. حتى الجمل الذي يكون قد امتنع أولاً عن اجتياز الممر فإنّه إذا رأى بقية القطيع تجوز جاز هو بدوره وراءها ليلتحق بها ويكون معها.

وهو بعد حيوان وديع برغم كلّ ما يقال فيه. إلّا في بعض الحالات في موسم اللقاح وحين يحمّل. فليس من طبعه الجفاء والانتقام كما يتوهّم الكثيرون ولا يبدأ بالعداء لأحد. وهو أنيس أليف لمن يؤالفه ويؤانسه ويرعاه. وقد رأيت كثيراً من صبية البدو وكبارهم يداعبون بعض الجمال ويلاطفونها فتأنس الجمال بمداعبتهم وملاطفتهم. وشاهدت ولداً يداعب ناقة لأهله ويحكّ عنقها وهي ترفع رأسها عالياً مرتاحة منشرحة. ثمّ سمعته يقول لها: «حبّة» أي قبلة، فتدني برأسها إلى وجه الصبي وتقبّله بمشفريها الغليظين ويقبّلها هو بدوره. وقد أعاد هذا العمل مراراً أمامي وكانت الناقة مرتاحة لهذه المداعبة. ولعلّ بعض الذين ذكروا خشونة الجمل وجفاءه لم يعرفوا سوى الجمل المبلد الذي أذله السير في القوافل والعمل المرهق في المزارع فتنكّد عيشه، ولم يعرفوا الجمل الحرّ الطليق الذي ينشأ مع البدو، ولا الهجين الحرّ من كرائم الإبل المروّضة التي ألفت السير بأصحابها في المفاوز والغارات في المغازي، وأجاد وصفها الشعراء القدامى كلبيد وطرفة والراعي وذي الرمّة وغيرهم، والتي لا يزال يستعان بأمثالها في كتائب الهجانة في قوى البادية في كثير من البلاد العربية إلى اليوم(٥٩).

والجمل سهل الانقياد إلى درجة البلادة وهو لهذا أكثر الحيوانات عرضة للوقوع في المزالق والمآزق، ولا يمكن تعليمه كما يعلّم الحمار أو الكلب أو الحصان لأنّه أقلّ نباهة منها، ومن هنا فهو يساق إلى الأمر سوقاً أو يقاد قوداً بأنفه كما يقولون وقديماً كانوا يخزمون أنفه بحيث يصبح من اليسير على أي ولد أن يربط حبلاً إلى أنف جمله المخزوم ويقوده بالحبل. وأدركت العرب سهولة انقياده فجاء في رسالة بعث بها معاوية ابن أبي سفيان إلى علي ابن أبي طالب يقول فيها بعد كلام طويل: «وأنت في كلّ ذلك تقاد كما يقاد البعير المخشوش»(٦٠).

وقديماً ذكر أبو تمّام(٦١) في ديوان الحماسة ٢ : ١٦ شعراً لعبّاس ابن مرداس في أبيات كثيرة عن خضوع الجمل وضعفه برغم كبر جسمه مطلعها:

«تَرى الرجلَ النحيفَ فَتَزْدَرِيهِ — وفي أثوابِه أَسَدٌ مِزيرُ(٦٢)

يقول فيها:

«وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ — فلم يستغنِ بالعِظَمِ البَعيرُ
يُصَرِّفُه الصبيُّ بِكُلِّ وَجْهٍ — ويَحْبِسُه على الخَسْفِ الجَريرُ(٦٣)
وتضرِبُه الوليدَةُ بالهَراوى — فلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نَكِيرُ(٦٤)

وهو حيوان جبان ليس بين الحيوانات الضخمة ما هو أجبن منه. ولو جاز لي أن

أضع نظرية بشأن تدجينه لزعمت أن أمر تدجينه لم يكن بيد الإنسان القديم نفسه، كأن نتصوّر مثلاً أن أحد الصيّادين عثر على حوار بريّ صغير، فأتى به إلى ولده، فربّاه ودجّنه، بل كان من الجمل نفسه في سبيل المحافظة على سلامته من الوحوش المفترسة. فهو أضعف الحيوانات الضخمة وأجبنها. ولم تساعده الطبيعة على حماية نفسه فلجأ إلى البادية يحتمي بجفافها وجدبها من الوحوش المفترسة التي تألف الأدغال ولا تستطيع أن تصبر عن الماء مثله، ثمّ لجأ إلى الإنسان حين لم تؤمن له البادية السلامة التي طلبها فحماه الإنسان واستغلّه. وكان من نتيجة هذه الحماية أن أصبح حاميه طفيلياً يعيش عليه. وليس غريباً إن صحّت هذه النظرية ـ أو شيء منها ـ أن يكون الجمل هو الذي قاد الإنسان إلى البوادي الرملية والعيش في أرجائها. ومن الممتع هنا أن نلاحظ كيف أن واضع قصّة كليلة ودمنة لم ير بين الحيوانات التي يمكن أن يفترسها الأسد ما هو أكثر مسكنة وضعفاً وجبناً من الجمل فجعله مثال التضحية في القصّة. ولعلّ اشارة الحجاج ابن يوسف، في خطبته الشهيرة إلى بأسه وشجاعته حين قال: «وإنّي والله ما يقعقع لي بالشنان» تـؤيّد ما نذهب اليه من أن الجمل جبان. فالجمل عند البدو إذا أريد ازعاجه أو اخافته قعقع له بالشنان أي بما خلق ويبس من الأسقية المدبوغة المصنوعة من الجلد فيهرب من صوتها. وأكثر ما تخاف الناقة هو حين تكون مطفلة فتراها قلقة مضطربة لا سيما إذا انقطعت عن القطيع أو شعرت بانفرادها وهي سارحة ترعى. وقد يحدث أحياناً أن يبدو للجمل، وهو يسرح مع قطيع، أمر يخيفه كأن يباغته ذئب أو ضبع من وجار في واد أو حيوان آخر مخيف أو يطير سرب جراد على الأرض بغتة أمامه(٦٥) فيهرب الجمل مذعوراً ويتبعه القطيع ثم تتبعه قطعان أخرى قريبة. فترى القطعان هاربة في البادية وقد خلّفت وراءها أعمدة من الغبار. ولا يهدأ روعها أو تستقرّ حتّى تكون قد تعبت من الجري أو أدركها رعاتها على ظهور الخيل.

وقد تخيف الفحول من الإبل في حالات خاصّة وذلك عند هيجانها حين تطلب الأنثى فترى هذه الفحول تشيل برؤوسها إلى العلاء ويعلو رغاؤها ويظهر زبد في أفواهها وقد تُخرج شِقْشِقةً منها وهي جلدة حمراء بحجم البرتقالة منفوخة، ويشتدّ هيجانها حين تتنافس فيما بينها. ويقلّ أكلها(٦٦).

وأمّا الناقة فهي بعرف البدو أكثر الحيوانات حنواً وعطفاً على صغيرها وأشدّها حزناً عليه حين تفقده بحيث ضرب بحنينها المثل. وأن الشعر العربي القديم ومثله البدوي الحديث ليعجّ بوصف عطف الناقة على صغيرها وشوقها إليه إذا ابتعدت عنه وجزعها عليه إذا فقدته.



الجمل الأبيض محبب عند البدو هو والأسود

«هَوَى ناقتِي خَلفي وقُدّامِيَ الهوى وإنّي وإيّاها لَمُختَلِفان
متى تَجْمعي شَوقي وشوقَك تَظْلَعي وما لكِ بالعِبءِ الثقيلِ يَدانِ»(٦٧)

وقد ألف العرب أن يخففوا على الناقة حزنها حين تفقد صغيرها إذا نحروه، وذلك بأن يملأوا جلده بهشيم يابس أو تبن ويضعوه أمامها لتشمّه وتتسلّى برائحة جلده. ويسمّونه «البوّ». أو يعمدون إلى رضيع ناقة أخرى ويدفعونه اليها لتتسلّى به عن رضيعها فيشترك في العطف على الرضيع مرضعتان فإذا فقد هذا الرضيع الثاني بدوره أو نحر حزنت عليه الناقتان أمه الأولى وأمه الثانية(٦٨). وقد يدوم حنين الناقة الثكلى وأنينها شهراً، وقديماً قال عمرو ابن كلثوم :

«فيما وَجَدَتْ كَوَجْدي أمُّ سَقْبٍ أضَلَّتْه وَرَجَّعَتِ الحَنِينا»(٦٩)

ويزعم دوتي أن الناقة حين تفقد حوارها عند الولادة تظلّ حزينة نحو عشرة أيام ثمّ تنسى وتعطي حليبها كلّه لأهل البيت(٧٠).

وعلى ما عرف من عطف النياق وحنينها فإن العرب تزعم أيضاً أن الجمل غليظ الكبد ولكنّهم يقولون إنه برغم غلاظة كبده يحب الألحان والنغم ويصغي إلى صوت صاحبه حين يغنّي أو يحدو له، وروي أنه كان هناك رجل من حداة العرب يضرب به المثل في حسن الحداء اسمه سلّام، قيل «إنهم كانوا يعطشون الإبل أياماً ثم يوردونها الماء، ويقف سلّام من ورائها يحدو لها فتنصرف عن الماء اليه»(٧١). ولم يفت شعراءهم أن يذكروا هذا فقد رووا عن أحدهم أنه قال مشيراً إلى أن صوت الحادي قد يذهل الإبل عن شرب الماء بعد أن تكون شرعت في الورد:

«إن كنتَ تُنكِرُ أنَّ في الألحانِ فائِدةً ونَفْعَا
فانظرْ إلى الإبلِ التي لا شكَّ أغلظُ منك طبعا



حب الناقة لحوارها وحنوها وتعلق الحوار بها

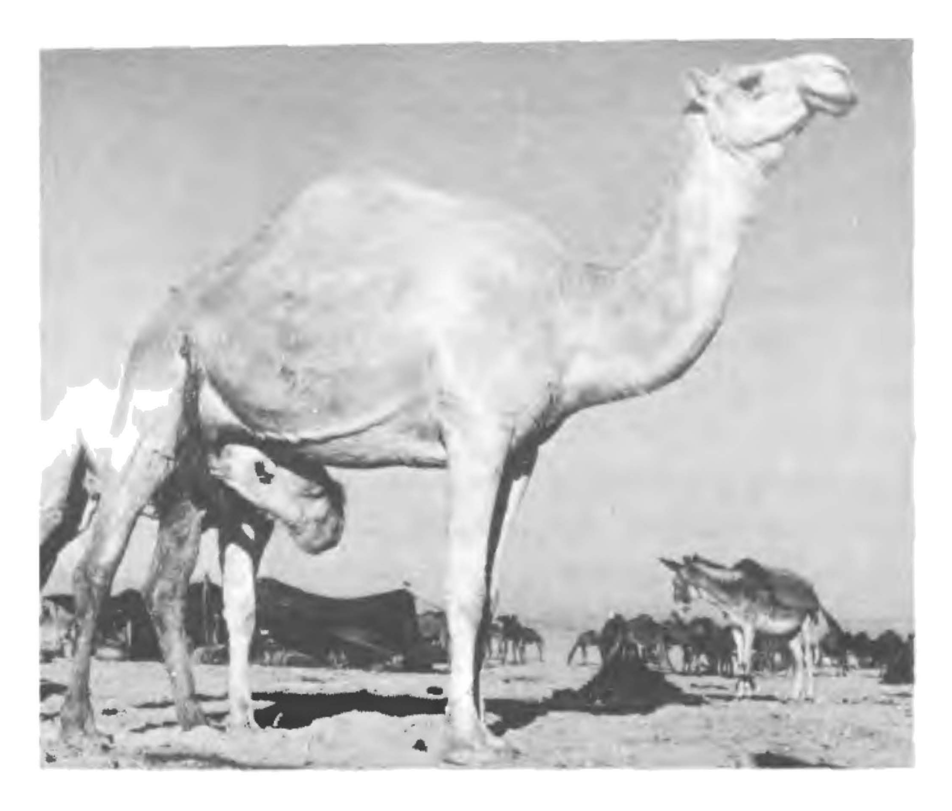
تُـصـغـي لأصـواتِ الحُـداةِ فـتـقـطعُ الـفـلواتِ قـطعـا
ومـن الـعـجـائـبِ أنّهم يُـظْمـونها خمسـاً وربـعـا
فـإذا تـورّدتِ الحـيـاض وشـارفـتْ في المـاءِ كَـرْعـا
وتـشـوّقـتْ لـلصـوتِ مـن حـادٍ تُصيـخُ اليـه سَمعـا
ذهـلتْ عـن المـاءِ الـذي تـلتـذُّهُ بـرداً ونَـقـعـا
شـوقـاً إلى الـنَّـغَـمِ الـتي اطـرَبْنَهـا لحنـاً وسَمعـا(٧٢)

تلقيح النياق

يبدأ تلقيح النياق في فصل الشتاء وربّما سبق بعضها فلقّحت في أواخر الخريف ويطول حملها سنة كاملة. وتتحاشى الإبل الناس أحياناً عند اللقاح، فيبتعد الذكر والأنثى عن المضارب ولكنّها لا يتحاشيان الراعي أو صاحبهما. ويكون أحسن موسم اللقاح ما بين اوائل كانون الأول وأواخر كانون الثاني. ويوصف الذكر حين يهيج بالهَدور، فتراه يرغو ويزبد ويهدر رافعاً رأسه إلى فوق، ويأخذ بملاحقة الناقة ومداعبتها، ويحاول إناختها حتّى تهيج وتشتهي فتركع وتنوخ وتفسح ما بين رجليها الخلفيتين (تفحّج) وتبول، فيجثم فوقها رامياً نفسه عليها مادّاً ساقيه الأماميتين على جانبي بطنها. وتعرض في اليوم السابع على الفحل ثانية فإذا أبت أن تركع أو ترفع ذيلها عرف أنّها عشّرت، وفي عشارها يمنعها البدو عن أكل نبات الكرب لأنه يدعو فيما يزعمون إلى أن تطرح. ومتى لقّحت الناقة أصبحت في عرف البدو من العشار. وبعد شهرين تدعى من النياق اللقح. ولا تتئم الإبل إلاّ في النادر، وقد حدثت عن إتآمها ولكنّي لم أر ناقة متئمة. ويكفي جمل واحد في الموسم لتلقيح قطيع من نحو عشرين ناقة. وقد ينقضي على الناقة سنتان أو ثلاث قبل أن تلد ولداً آخر.

صغير الجمل في أطوار حياته

تأخذ الناقة حين تشعر بآلام الوضع بالرغاء، وتحاول وهي في المرعى أن تلتجىء إلى واد أو منحدر وراء أكمة تلد فيه، ولكن راعيها يتبعها ليكون قريباً منها، أو يعيدها إلى جوار المضارب إن كانت المضارب قريبة لتضع هناك. ثمّ لا تلبث حين يدنو وقت الوضع أن تبرك في الأرض، فإذا آن خروج طفلها بدت يداه أوّلاً ثم الرأس والأكتاف(٧٣)، حتّى إذا سقط كلّه إلى الأرض نهضت من مجثمها ومالت إليه ترأمه وتشمّه وتمسحه، وقد تقطع حبل المشيمة بأسنانها إذا لم ينقطع تلقائيّاً أو إذا لم يقطعه الراعي. وبعد ساعتين أو نحوهما ينهض الصغير على رجليه. ويعلّمه البدوي الرضاعة من أصبعه إذ يدهنه بالزبدة



حوار يرضع من أمه برغم الحاجز الذي وُضع على ضرعها لمنعه

أو السمن أو الحليب ويدنيه من فمه ليمصّه ومتى تعوّد مصّ الإصبع أدناه من ضرع أمّه ليمصّه ثمّ تركه وأمّه. ويظلّ الحوار الصغير طليقاً يرضع من أمه متى شاء ثلاثة أشهر، ثم يمنع عن أمّه فلا يرضع سوى ثلاث مرّات في اليوم، ويتعوّد رعي الأعشاب الصغيرة. ويظلّ كذلك حتّى يبلغ سنة أو سنة ونصف أخرى في بعض الأحيان، وعند ذلك يفطم عنها ويصبح فصيلاً، ويكون في الوقت نفسه قد تعوّد رعي مختلف الأعشاب والأشجار التي تأكل منها الإبل. ولضرع الناقة أربع حلمات يربط عادة اثنتان منها بعودين ليحفظ حليبهما إلى المساء فيشربه أهل البيت وتترك اثنتان طليقتين للحوار كي يرضع منهما.

وينمو الحوار وهو في كلّ حول من عمره يكتسب عند البدو اسماً جديداً فهو حوار حين يكون ابن سنة، ثم لبني وهو في الثانية، ثم حجّ وهو في الثالثة، ثمّ جذع في الرابعة، وثني في الخامسة وذلك حين يأخذ بتغيير ثناياه أي أسنانه، وربعي في السادسة، وهنا يكمل نموّه ويصبح جملاً وتصبح الأنثى ناقة وتسمّى «ربعاً» ويمكن أن تلقح وتنتج، وسداس في السابعة، وشقّ الناب في الثامنة، وقارح في التاسعة، ومفطر أو فاطر في

العاشرة. ويسمّى الجمل حتى السادسة قعوداً، وبعد السادسة جملاً، وأمّا الأنثى فهي بكرة حتى السادسة، وفاطر حتّى العاشرة، وقد تتغيّر هذه الأسماء التي تطلق على الجمل بين الثالثة والعاشرة(٧٤) عند بعض القبائل.

ويحسن أن نختتم هذا البحث عن الجمل في أنه ليس هناك من حيوان نال من عناية علماء اللّغة أو حلّ مكانة في معاجم اللّغة وآدابها مثل ما نال الجمل من علماء العرب وحلّ في لغتهم وآدابهم. فقد تعدّدت أسماؤه وصفاته بحيث بلغت المئات. وتوسّع في وصفه الشعراء القدامى ودارت حوله كثير من التشابيه والاستعارات والأمثال، وقرنوه بما هو خير وجميل. فذهبت معاجم اللّغة أن اسمه مشتق من الجمال لأن العرب يحسبون الجمل



الجَمال في الجَمل. والجَمال في العربية مشتق من الجمل فيقال امرأة جملاء، وصبر جميل

جمالاً وزينة وفي حديث «جاء بناقة حسناء جملاء» وفي حديث آخر «ثم عرضت له امرأة حسناء جملاء»[٧٥]. ومن يدري فلعلّ كلمة الجمال نفسها اشتقت من الجمل لأنه مصدر الخير والحياة للبدوي، لأن حياة البادية قد فرضت على البدوية أن تكون نحيفة الجسم لكثرة حركتها وتنقلها وعملها فكان ينقصها شيء من الامتلاء والسمنة فإذا امتلأ جسمها وكانت منعمة كما يمتلىء جسم الجمل عندما يسمن قالوا عنها جميلة وجملاء.

قال الكسائي، الجملاء هي الجميلة وأنشد:

«فهي جملاءُ كَبَدْرٍ طالِعٍ   بذَّتِ الخلقَ جميعاً بالجَمال»[٧٦]

أمّا وصف النياق في الشعر العربي القديم لاسيّما الكريمة منها فيكاد يطغى على كلّ شيء ويستأثر بمعظم القصيدة في كثير من الأحيان كما نرى في شعر طرفة ولبيد والراعي وذي الرمة وغيرهم، ومن هنا الأهمية التي نعلّقها على دراسة البداوة وفهمها فهي الوسيلة الكبرى التي تيسّر على الطلبة فهم الأدب القديم على وجهه الصحيح.

الحواشي:

(١) ظهرت أكثر موادّ هذا الفصل سنة ١٩٦٧ في مقال لي نشر في كتاب العيد، تحقيق جبرائيل جبّور (بيروت، ١٩٦٧) وذلك قبل أن تظهر أيّ دراسة وافية عن الجمل من حيث علاقته بالبداوة. وظهر بعد ذلك العهد كتب كثيرة أهمّها اثنان بالانجليزية، الأوّل ظهر سنة ١٩٧٥ وموضوعه «الجمل والعجلة»: Richard W. Bulliet, **The Camel and the Wheel** (Cambridge, Mass., 1975) والآخر وموضوعه «الجمل»: Hilda Gauthier - Pilters and Anne Innis Dagg, **The Camel** (Chicago and London, 1981) أمّا الأوّل فيعالج العلاقة بين الجمل والعربة كوسيلة للنقل، ومن هنا فإنّه لم يتصدّ كثيراً لعلاقة الجمل بالبداوة في البلاد العربية. ولكنّه غني بالمعلومات عن تاريخ الجمل بفرعيه العربي والبقطرياني، وعن تاريخ العجلة، وغني بالصور للنقوش القديمة لكليهما. وأمّا الثاني فقد اقتصر أو كاد يقتصر على الجمل في بعض المناطق في أفريقيا الشمالية. وهو الآخر علمي يعرض لفسيولوجية الجمل وحياته وما يتّصل بها من جميع النواحي. وسأشير إلى كلّ منهما حين أعرض لهما في هذا الفصل.
كذلك ظهر ثلاث مقالات بقلم Michael Ripinsky في مجلة **Archaeology** vol. 36 No. 3 عدد أيار وحزيران ١٩٨٣ ص ٢١ - ٢٧، ومجلة **Antiquity** مجلد ٤٩، ١٩٧٥، عدد ١٩٦، ص ٢٩٥ - ٩٨، و **Antiquity** مجلد ٥٦، ١٩٨٢، عدد ٢١٦، ص ٤٨ - ٥٠. فيها بحث وافر عن أصل الجمل وتدجينه في مصر وصحارى أفريقيا وفي الجزيرة العربية.

(٢) Musil, **Manners and Customs**, pp. 329 - 30

(٣) غير أن أكثر الدراسات الحديثة تذهب إلى أنّ الجزيرة العربيّة عرفت الجمل البريّ قبل تدجينه، وأن العرب كانوا أسبق الناس إلى تدجينه. انظر Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, p. 115.
وكذلك يزعم Albright, **From the Stone Age to Christianity**, p. 120 أنه أصبح من المؤكد عند العلماء أن الجمل البريّ كان معروفاً في الجزيرة العربية قبل تدجينه.

(٤) تاريخ العرب، ص ٥٠.

(٥) Alfred Sherwood Romer, **Vertebrate Paleontology**, 2 nd ed. (Chicago, 1945), p. 459.

(٦) Arthur G. Leonard, **The Camel** (London and New York, 1894), p. 2.

(٧) Hitti, **History of Sryia**, p. 52. وفيه أشارة إلى المصدر الذي نقل عنه هذا الخبر.

(٨) Harold A. Mc Clure, **The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations** (Miami, 1971), p. 49
انظر أيضاً. Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, pp. 115 - 16.

(٩) M. F. von Oppenheim, **Der Tell Halaf** (Leipzig, 1931), p. 140 وقد استفدناه من Hitti, **History of Syria**, pp. 52 - 53.

(١٠) تكوين ١٢ : ١٦.

(١١) المصدر نفسه، ٢٤ : ١٠ - ١١.

(١٢) المصدر نفسه، ٣٠، ٤٣، ٣١ : ٣٤.

(١٣) المصدر نفسه، ٣٧ : ٢٥.

(١٤) لاويين ١١ : ٤.

(١٥) قضاة ٧ : ١٢.

(١٦) المصدر نفسه، ـ ٨ : ٢١.

(١٧) المصدر نفسه، ٨ : ٢٦.

(١٨) أيوب ١ : ٣.

(١٩) المصدر نفسه، ٤٢ : ١٢.

(٢٠) أخبار الأيام الأول ٥ : ١٨ - ٢١.

(٢١) تاريخ العرب، ص ٦٦.

(٢١ أ) أنظر **Arabia** by the Foreign Office No. 61, London, 1920, pp. 72 - 73.

(٢٢) ديوان ذي الرمّة، تحقيق كارليل هنري هيس مكارثني(Carlile Henry Hayes Macarthney)، كمبردج ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩، ص ٦٣٨، وحياة الحيوان، ١ : ٢١ تحت «ابل».

(٢٣) سورة المؤمنون (٢٣)، الأيتان ٢١ - ٢٢.

(٢٤) **From the Stone Age to Christianity**, pp. 120 - 21

(٢٥) لا بدّ من الاشارة هنا إلى أن قبيلة صليب التي سنعرض لها في فصل خاصّ تقتني الحمير في البادية ولكنّها لا تشرب لبنها بل تقتني الغنم وتعيش على لبنها وعلى الصيد الذي أصبح مهنة لأكثر رجالها.

(٢٦) أنظر: Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, Plate 50 .

(٢٧) Musil, **Manners and Customs**, p. 335

(٢٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٣٠) وقد تبقى أطول مما ذكرنا أنظر Knut Schmidt - Nielsen, «The Physiology of the Camel» **Scientific American**, 201, No. 6, Dec, 1959, pp. 140 - 51

(٣١) ذكر شمت نيلسن في مقالته المذكورة في المصدر اعلاه أنه رأى جمالاً في صحارى أفريقيا لم تشرب ماء طيلة شهرين ولمّا عرض عليها الماء لم ترد لأنها لم تكن عطشى، ونخشى أن روايته مبالغ فيها فقد يكون خدعه بعض الرعاة أو لعلّه لم يختبر الأمر بنفسه بل استند إلى قول أصحاب الإبل.

(٣٢) ديوان البحتري، ٤ أجزاء، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٤، ٢ : ١١٥٣.

(٣٣) Schmidt - Nielsen, p. 141

(٣٤) Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, p. 57

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٣٦) ومنه قول الشاعر العربي حين لا يحسن الساقي ايراد الإبل:

«أوْرَدَهـا سَعْـدٌ وَسَعْـدٌ مُشْتَمِل   مَا هكَذا تُوردُ يَا سَعْـدُ الإبِلْ»

وسعد هو سعد ابن زيد مناة أخو مالك، وكان مالك آبل أهل زمانه ثم أنه تزوّج وبنى بامرأته فأورد أخوه سعد الإبل فلم يحسن القيام عليها والرفق بها فقال مالك هذا البيت؛ أنظر العقد الفريد، ٣: ١٠٨.

(٣٧) Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, pp. 69 - 71.

وأنظر أيضاً: Leopold, **The Desert**, p. 98 حيث ترى أن Pliny هو أول من ظنّ أن للجمل معدة زائدة للماء. ونقل عنه المتأخرون.

(٣٨) Daniel D. Luckenbill, **Ancient Records of Assyria and Babylonia** (Chicago, 1927), II, 317 - 18, no. 827. ، وقد استفدناه من تاريخ العرب، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ في الهامش.

(٣٩) انظر فتوح البلدان للبلاذري. تحقيق م. ي. دي خوية(M.J. de Goeje) ، ليدن ١٨٦٦، ص ١١٠؛ وعيون الأخبار، ١: ١٤٢؛ وتاريخ الطبري، ١: ٢١١١ - ٢١١٣.

(٤٠) Alois Musil, **Arabia Deserta** (New York, 1927), p. 570 and **Manners and Customs**, pp. 94, 95, 368 وقد ذكر في كتابه عن عادات الرولة (ص ٩٤ - ٩٥) أن دليله منديل القطعي قد شرب هذا النوع من الماء ثماني مرّات في حياته وأنه (ص ٣٦٨) يندر أن تجد رويلياً متقدّماً في العمر لم يشرب من هذا الماء مرّة على الأقلّ في حياته. وأن محجم ابن جندل هاجم عرب الشرارات في منطقة خنفة وسلب قطعاناً كثيرة عائدة من المراعي، ولّما خاف أن تسبقه الشرارات إلى الآبار في طريقه عمد إلى نحو ٥٠ جملاً ممتلئة البطون فذبحها وملأ القرب بالماء المستخرج من كروشها، وتجنّب طريق الآبار وعاد إلى قومه في النقرة جنوبي دمشق على بعد ١٠٠ كيلومتر من الخنفة دون أن يخسر شيئاً.

(٤١) H. St. J. B. Philby, **The Empty Quarter** (New York, 1933), p. 306.

(٤٢) Schmidt - Nielsen, pp. 140 - 51.

(٤٣) Leopold, p. 98.

(٤٤) تستأذن في مثل هذه الحالة حكومة القبيلة المنتجعة حكومة البلاد المجاورة للسماح للقبيلة بالدخول إلى المراعي في أراضيها.

(٤٥) Alois Musil, **Northern Negd** (New York, 1928), p. 145.

(٤٦) Schmidt - Nielsen, p. 141.

(٤٧) وانظر أيضاً سورة النحل (١٦)، الآية ٨٠.

(٤٨) Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, p. 164.

(٤٩) R.T. Wilson, **The Camel** (London and New York, 1984), pp. 154 - 58.

(٥٠) M.C. - F. Volney, **Travels Through Syria and Egypt, 1783 - 1785**, translated from French in 2 volumes (London, 1787), I, 390.

(٥١) لاحظ جوارماني (ص ١٥) أن لحم الجمل ليس مذقاً او غير لذيذ كما يتوهّم الكثيرون ومثله دوتي (١: ٤٩٩) فقد قال عنه إنّه طيّب وطري ولا يختلف كثيراً عن لحم العجل وبخاصة إذا كان اللحم لحم حوار صغير.

بينما نرى موزل يقول عنه (**Northen Negd**, p.10) إنه صلب خال من الدهن ولهذا فهو ليس جيّداً للأكل.

(٥٢) Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, p. 163.

(٥٣) تجري التضحيات في الأغلب عند أكثر الرولة ثاني يوم من أيام العيد أو ثالث يوم حين يكون البدوي قد تحقّق من وقوع العيد، أما في المناطق التي يعرف فيها أول العيد فيضحّي في اليوم الأول.

(٥٤) شرح المعلّقات السبع للزوزني، بيروت ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣، ص ٨٥.

(٥٥) حياة الحيوان، ١: ٢١، مادة إبل؛ وفيه أنه جاء في الحديث «لا تسبّوا الإبل... الخ». ولكن هذا الحديث لم يرد في أي من الكتب الستة.

(٥٦) **The Camel and The Wheel**, pp. 22 - 27.

(٥٧) Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel**, p. 33.

(٥٨) **Three Deserts**, pp. 152 - 53.

(٥٩) راجع ما كتبته اللايدي آن بلنت، ص ٣٥٥ - ٣٥٧. ففيه شرح طويل لخصائص الجمل وطبعه واشارة إلى أنه يفضل في السفر على الجواد الكريم، لا من حيث السرعة بل من حيث صبره وتحمّله المشاق، وعدم ضجره، وتقول عن رغائه وجعجعته حين يشدّون الجمال عليه أن ذلك وسيلة عن التعبير كيف يجب أن يحمّل ثم تقول برغم محبتي الكبرى للخيل فإني أراها أقل قدراً من الجمال من هذه النواحي.

(٦٠) العقد الفريد، ٤: ٣٣٥، ويقال: خشّشت البعير إذا جعلت في أنفه خشاشاً ولا يزال أكثر بدو أفريقيا الشمالية يخزمون جمالهم.

(٦١) ديوان الحماسة، ٢: ١٥.

(٦٢) المزير هو العاقل الحازم.

(٦٣) الجرير هو الحبل.

(٦٤) نسبت الأبيات الثلاثة الأخيرة في زهر الآداب للحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣، ١: ٣٥٥، إلى الشاعر كثيّر مع شيء من الاختلاف في نصّها ووردت في ديوان كثير، ص ٥٣٠، وفيها اختلاف في البيتين الأخيرين حيث نرى:

«يُنــوخُ ثمّ يُضربُ بالهراوى فلا عُرفٌ لديهِ ولا نكيرُ
يقــوده الصبــيّ بكلّ أرضٍ وينحــرهُ على التُّــرب الصغيرُ»

(٦٥) وقد زعم بلجريف (٢: ١٣٨) أنه ليس بين المخلوقات الجبانة ما يماثل مركب الصحراء في جبانته وانظر: Musil, **Palmyrena**, pp. 26 - 27, 183.

(٦٦) حياة الحيوان ١: ٢٢. وانظر صور الفحول في حالة هياجها في Gauthier - Pilters and Dagg, **The Camel** بين صفحتي ٨٤ و ٨٥.

(٦٧) ديوان عروة ابن حزام العذري، مخطوطة في حوزة المؤلف.

(٦٨) Musil, **Manners and Customs**, pp. 194 - 95, 209

(٦٩) شرح القصائد العشر، ص ١١١.

(٧٠) Doughty, I, 369.

(٧١) انظر مادة «سلم» في محيط المحيط، لبطرس البستاني، بيروت ١٨٦٧ - ١٨٧٠، ١: ٩٨٨.

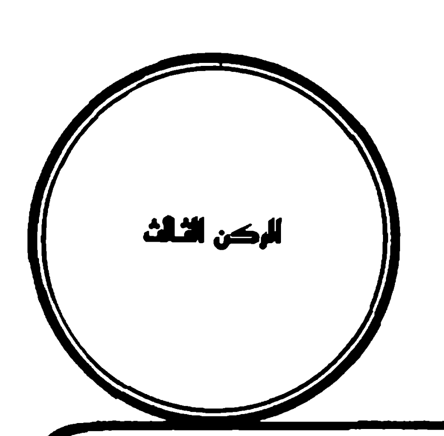
(٧٢) ديوان كشاجم، تحقيق خيرية محمد محفوظ، بغداد ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠، ص ٣٢٤-٣٢٥؛ وأدب النديم لكشاجم، القاهرة ١٢٩٨ هـ/، ص ٢١؛ والبصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيدي، تحقيق وداد القاضي، بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤، ٢: ١١٠ - ١١١.

(٧٣) ويزعم دوتي (١: ٣٦٩) أن الناقة حين تبرك ترتمي على جانبها دون صوت أو رغاء وحين تبدو يد الحوار يسحبه الراعي بقوة ويضعه شبه ميت أمامها، فتشمّه، ثم تنهض على قوائمها وتأخذ بلحسه، ويمسكه الراعي بزوره واضعاً كفّه تحت الزور فينتعش ويحاول الوقوف مستقلاً وهو يهتزّ، ويسقط وينهض، وبعد ثلاث ساعات فقط من هذه المحاولات يستطيع الوقوف والوصول إلى ضرع أمه دون مساعدة وفي اليوم الثاني يستطيع أن يتبع أمه إلى المرعى. وجلده عند الولادة ناعم كالحرير وصوته ضعيف. وتدوم مدة رضاعته ١٢ شهراً، ولكنّه يستطيع أن يرعى من رؤوس الأعشاب الطريّة بعد بضعة أسابيع من عمره.

(٧٤) Doughty, I, 401; Musil, **Manners and Customs**, pp. 333 - 35; G. Boris, **Le Chameau chez les Marâziq** (Tunis, 1951), p. 63.

(٧٥) انظر أنظر لسان العرب ومحيط المحيط، مادة «جل».

(٧٦) محيط المحيط، ١: ٢٨٩.



الخيمة

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأرْياحُ فيهِ　　أَحَبُّ إليَّ من قصرٍ مُنِيفِ

ميسون بنت بحدل

الفصل التاسع

بيت البدوي



بيت الشعر البسيط المؤلف من حجرة واحدة هي منز ل كل أفراد العائلة

أمّا الركن الثالث من حياة البداوة فهو الخيمة ـ بيت البدوي المصنوع من شعر المعز. والبدوي يسمّيها بيتاً. وليس من شكّ في أنّ منه استعيرت الكلمة للبيت المبني من اللّبن أو الحجر. ومن أعمدة بيت الشَّعر استعيرت كلمة أعمدة للهياكل، وربّما عبارة أعمدة الحكمة السبعة التي ذكرها سليمان، وجعلها القائد الشهير لورنس عنواناً لكتابه

«أعمدة الحكمة السبعة». ومن يشهد اليوم خيمة امراء الشعلان، أمراء عرب الرولة بأعمدتها السبعة الكبار ـ كما رأيتها وصوّرتها في أعلاه ـ مضروبة في ضاحية من ضواحي قرية عدرة قرب غوطة دمشق لا يخامره شكّ في أنّ صاحب الأمثال سليمان الحكيم الذي كانت حياة قومه في عهودها الأولى حياة بدوّية إنّما قصد بيت الشّعر لا هيكلاً حجرياً حين قال: «الحكمة بنت بيتها نحتت أعمدتها السبعة»[1]. وكان الأولى في نظرنا أن يستعمل المترجم كلمة اقتطعت بدل نحتت أو ما يشابهها ممّا يتّفق مع الأعمدة الخشبية ولا سيما ان سليمان عرف الخيام السود كما عرفتها العرب وتغنّى بجمالها. وفي نشيد الإنشاد الذي يعزى اليه نرى، قوله: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار كشقق سليمان»[2]. بل إن شكل حرف الباء في اللّغة العربية والعبريّة والآراميّة والحبشيّة والعربيّة الجنوبيّة والفينيقيّة والسينائية واللاتينية ـ ومنها فروعها المختلفة لا تختلف شكلاً عن شكل بيت الشّعر حين تقابله وتلفظ في أكثر هذه اللغات بلفظ يقرب من لفظة «بيت».

وشكل بيت الشعر مكعّب مستطيل سقفه وجوانبه من نسيج يصنع من شعر المعز الأسود وهو مفتوح من واجهته على طول المكعّب. ويرفع على أعمدة خشبية رئيسية بعدد الحجر التي فيه وعلى أعمدة ثانوية تسند الجوانب أي الأروقة وتسند الواجهة. ويتراوح طول البيت من أربعة إلى خمسة أمتار ـ إذا كان ذا حجرة واحدة وعمود رئيسي واحد ـ ويمتد إلى طول نحو أربعين أو خمسين متراً إذا كان ذا حجر كثيرة ويقوم على عدد كبير من الأعمدة الرئيسية[3].

تبسط شقق النسيج الشعري بعد أن تخاط معاً بشكل مستطيل ثم يرفع البيت على الأعمدة. وتمدّ الأطناب المربوطة إلى هذه الشقق حول هذا المستطيل بضعة أمتار حيث تشد إلى أوتاد تدقّ في الأرض ويثبّت البناء.

وإذن فقوام بيت البدوي ـ خيمة لازمت الأعراب وقرنت بذكرهم منذ وجدوا. وفي سفر أشعيا حين يتنبأ بخراب بابل وأنّها ستصبح قفراً يقول « ولا يخيّم هنالك أعرابي»[4]. وهي نسيج شقاق من شعر الماعز وأعمدة من خشب وحبال وأوتاد. أما الحبال فتشترى من الحواضر، من القرى القريبة من البادية أو من المدن الكبيرة وتصنع من نبت القنّب إذا كان أهل البيت على شيء من حسن الحال، وإلاّ فإنّ نساء البيت يفتلنها من شتى أنواع الخيوط والأصواف. وأمّا الأوتاد فتصنع من أي خشب قويّ وقد تصنعها الصّلبَة للبدو من خشب بعض الشجر في البادية. وقد يستعاض عن الأوتاد عند الفقراء في البيوت الصغيرة أو عند الصلبة (صلبب) بالحجارة الثقيلة وفي بعض بيوتهم



شقق الشعر قبل وصلها بالخياطة

قديماً بقرون بقر الوحش. وتتخذ الشقاق في الأغلب كما أسلفنا من شعر الماعز الأسود. وقد كانت كذلك منذ أقدم الأزمنة كما ذكرت التوراة حين أشارت إلى خيام قيدار السوداء(٥). ويصنع في قرى معيّنة معروفة سنعرض لأهمّها.

يقصّ شعر المعز في فصل الربيع، ثمّ يمشّط، ثمّ يغزل على دولاب غزل، ويحاك على نول، ويصنع منه ما يسمّى شقاقاً (مفردها شقّة) يتراوح عرض الشقّة بين ثلثيّ المتر والمتر، وطولها بين العشرة والعشرين متراً. ثم تخاط هذه الشقق من جوانبها الواحدة إلى الأخرى إلى العرض المطلوب، ويكون طولها عموماً بطول السقف المرغوب أو أكثر بقليل وتقوم بخياطتها المرأة في البيت. أمّا الأروقة فتكون غالباً من نسيج أدنى أو ربما يكون القسم الأعلى منها من شعر المعز ويكون القسم الأدنى مزيجاً محاكاً من خيوط مختلفة فيها شعر وفيها وبر وخلاف ذاك.

ويحتاج البيت المؤلّف من حجرتين إلى نحو ثماني شقق، طول الواحدة بين العشرة والاثني عشر متراً، وعرضها نحو ستّين أو سبعين سنتيمتراً. ونحتاج فوق ذلك إلى نحو اثني عشر متراً للقسم الأعلى من قفا الخيمة، ومثلها من نسيج أدنى للقسم الأسفل منه. ويحتاج جانبا (كِسْرا) الخيمة إلى نحو ثمانية أمتار أيضاً. ويكون ارتفاع الخيمة عموماً نحو مترين إلاّ عند الأغنياء حيث يكون صاحب البيت رفيع العماد. أمّا الحواشي التي تلي الأرض فتقوّى بنسيج رخيص بعرض نحو نصف متر. وقد تبطّن الخيام عند بعض البدو من مربيّ الغنم بقماش من الكتّان.



بيت من حجرتين

نسيج الخيمة

إن شعر المعز الذي يصنع منه النسيج الرئيسي لسقف الخيمة على ثلاثة أنواع: أولها نوع نقي خالص خال من الخليط يتّخذ من المعز حين تقصّ في فصل الربيع. وهو أطول شعرة وأنظف من النوعين الآخرين، وبالتالي فهو أغلى ثمناً. وقليل من البدو يشترونه، ويستورد من لبنان وسوريا والأردن والعراق.

أمّا النوع الثاني فهو مزيج من شعر مقصوص قصير الشعرة، ومن شعر جمع من مدابغ الجلود في سوريا ولبنان، أو استورد من مدابغ في تركيا أو شمالي أفريقيا. وتظلّ الشعرة في هذه المدابغ قويّة إلى حدّ ما ومن هنا فإنّ القماش المصنوع من هذا المزيج يعتبر متيناً صالحاً ولكنّه لا يعادل المصنوع من الشعر الخالص.

أمّا النوع الثالث من الشعر فهو شعر الكمبك المستورد من المدابغ في الهند أو من غيرها وهو أقصر من النوعين السابقين. ويظهر أن المدابغ هناك تستعمل كلسا وأصبغة عند دبغ الجلود فتضعف قوة الشعرة ويتغيّر لونها الطبيعي. ولهذا فإن النسيج المصنوع من هذا النوع من الشعر هو أرخص الأنواع. ويجب أن نلاحظ هنا أن الشعر يمنع تسلل المطر في الشتاء ويمنح البيت دفئاً بينما نراه يتمدد في الصيف فتطول الشقة نحو عشرة بالمئة ولكنها لا تكسب البيت برودة.

إنّ البدو الذين يستعملون النسيج المنسوج من النوع الأول هم قليلون جدّاً وإنّ أعمّ نسيج هو ذاك الذي يمزج فيه ٢٥٪ من الشعر المقصوص النظيف و ٢٥٪ من النوع الثاني و ٥٠٪ من النوع الثالث ولا يستعمل حتّى هذا النوع الممزوج إلا في سقف الخيمة.

أمّا الجدار الخلفي وتسميّه الروله (الرواق) والجانبان وتسميها (الكسرين) فيصنع نسيجها كلّها عموماً من أنواع أدنى لا يكون فيه من الشعر المقصوص النقي إلاّ القليل. بل قد يدخل النسيج المستعمل في الجدار والجانبين خيوط الوبر والصوف الرخيص، فتبدو بلون أرمد أو رملي.

أمّا تمشيط الشعر فيتّم إمّا بوساطة مشطين مستطيلين مسطّحين مساحة سطح الواحد نحو نصف قدم مربع، كلها أسنان مروسة تعلو نحو نصف قيراط (سنتيمتر)، ولكلّ واحد قبضة فيوضع الشعر بينهما ويمسك كلّ واحد بيد ويمرّر على الآخر والشعر بينهما فيتناثر الشعر ويتمشّط.

أو بواسطة مشط له صفّان طويلان من الأسنان يستند إلى لوح خشبي ويمرّر الشعر مراراً على الأسنان بواسطة اليدين معاً

أما إذا كـان الشعر من النـوع الرخيص فيمشط بـالشكل التـالي : تربط ٤ أو ٥ أمـراس طول الحبل الواحـد نحو متـرين وثخانتـه من ٥ ـ ٨ مليمترات إلى مقبض من طرف، وإلى قضيب حديد أو خشبة ثابتة في الأرض من الـطرف الآخر، ويفصـل بين الحبل والحبل مسافة ١٥ سنتيمتراً، ثمّ يوضع الشعر تحت الأمـراس على بعـد نحو ٣٠ سنتيمتراً من القضيب أو الخشبة، ويضرب بالأمراس على الشعر ويستطيـع أن يستعمل العامل مشطين من هذا النوع بوقت واحد مستعيناً بيديه الاثنتين معاً إذ ليس عليه إلاّ أن يضرب بهذه الأمراس المثبتة على الشعر فيتناثر ويمشّط ليسهل غزله.

ويغزل الشعر النساء على دواليب خاصّة وهنّ قعود كما ترى في الرسم صورة (١)، أو الرجال على دواليب مختلفة عن تلك وهم وقوف يسيرون إلى الخلف، فتدور الدواليب المرتبطة اليهم بالخيوط التي يغزلونها فتلاً بأصابع أيديهم وهم يمشون ثمّ يحاك الغزل على أنوال



امرأة قروية من يبرود تغزل شعر المعيز خيطاناً لتُحاك شققاً

يدويّة شققا بأطوال مختلفة يبلغ بعضها ٤٠ متراً، وفي عروض مختلفة يبلغ بعضها متراً. وأكثر العروض المتّفق عليها هي ٤٠ و٥٠ و٦٠ و٧٠ و١٠٠ سنتيمتر. وقد يقلّ العرض في بعض الشقق فلا يزيد عن ٢٠ سنتيمتراً، وعندها لا يسمّى شققاً بل مخلّات، ويستعمل إمّا لربط بعض الشقق أو لتقوية بعض أجزاء الخيمة.

وقد تستعمل الخيمة المصنوعة من النسيج النقيّ بين ١٥ و ٢٠ سنة قبل أن تبلى. أمّا إذا كانت مزيجاً من شعر نقي وشعر من مدابغ سوريا فتعيش بين ٧ و١٠ سنين. وإذا كانت خليطاً من كلّ الأنواع المختلفة فبين ٥ و٧ سنين. وإذا كانت كلها من شعر الكمبك فلا تعيش أكثر من ٥ سنوات. وهكذا فإن عمر الخيمة يقرّره نوع الشعر المستعمل بنسيج شققها فكلّما كثر شعر المعز النقي فيها طال عمرها وازدادت خدمتها. كذلك قد يكون لحجم الخيمة أثر في عمرها فكلّما صغرت حجماً عاشت أطول.

وشعر الماعز الأسود هو عموماً أقوى من الأبرش والأبيض. وشعر المعز التي تعيش في مناطق جبلية أو باردة هو عموماً أقوى من شعر تلك التي تعيش في مناطق سهلية أو دافئة. وشعر المعز بوجه عام هو أقوى وأدفأ في الشتاء من صوف الغنم أو وبر الجمال وهو فوق ذلك يمنع مياه المطر من اختراق النسيج فإنّ المياه تزلق عن سطحه كما لو كان مشمّعاً، ويحفظ الحرارة في فصل الشتاء ضمن الخيمة ـ أما في الصيف فتتمدّد الخيوط وتتسع الثقوب في النسيج، ولكنّ الخيمة على ذاك تظلّ أدفأ مما لو كانت مصنوعة من خيوط القطن البيضاء.

وقد يستغرب البعض عيش البدو في خيام الشعر السود في الصيف والواقع أن السبب هو فقرهم. فالشيوخ الأغنياء منهم يبدّلون أكثر أجزاء الخيمة بنسيج قطني في فصل الصيف. وكان الأمير فوّاز الشعلان يغيّر خيمته كلّها في الصيف ويضع محلّها خيمة قطنية بيضاء. لأن الخيمة المصنوعة من القطن أبرد من الصيف.

وإذا كانت من عمود واحد وحجرة واحدة وقد صنعت من نسيج وسط في الجودة ولم يدخل فيها أكثر من مئة كيلو من النسيج فإنها لا تكلّف صاحبها في هذه الأيام من أوائل الثمانينات في القرن العشرين أكثر من الف ومئتي ليرة لبنانية (نحو ٣٠٠ دولار أميركي). بينما كانت لا تكلّف في السابق أكثر من مئة وخمسين دولاراً.

ويشتري البدو الشقاق غالباً من تجار القرى التي على حدود البادية، أو من تجار معروفين يرافقون البدو ويرحلون معهم وينزلون حيث ينزلون. ويرتّب هؤلاء التجار بضائعهم التي يبيعونها من البدو في خيم بيضاء مستديرة تختلف كل الاختلاف عن بيوت

الشعر البدوية، ويجتمعون في محلّ واحد يضربون خيامهم فيه ويسمّونه السوق، إلا إذا ضربوه في مخيم الشعلان فإنّهم يسمّونه سوق الشعلان، وهو في الغالب إمّا في «عذرة» حيث للشعلان نصيب من مزرعتها، أو في القريتين خيرة المنازل عند العربان. ويوجد في هذا السوق كل أنواع البضائع التي يحتاجها البدوي من شقاق وأعمدة وأوتاد وأطناب ورحول وثياب وفؤوس وأحذية وعبي ومؤن من قهوة وشاي وسكر وغيرها. وهناك أسواق معروفة في سوريا في القرى والمدن القريبة من الصحراء كان أهمّها في صدد شرقي حمص للعبي وفي القريتين، ثمّ في حمص وحماة وفي حلب في الشمال، والحسجة وتدمر ودير الزور في الشمال الشرقي، ودمشق في الجنوب لجميع أنواع البضائع المطلوبة. وأخرى مثلها في المدن العراقية والأردنية القريبة من البادية.

وإذا كانت السنة سنة خير للبدو جدّدوا بيوتهم واشتروا بيوتاً جديدة ومؤناً جديدة، أو أصلحوا بيوتهم القديمة وسخوا على أنفسهم بالمأكل والملبس، وإلاّ فإنهم يكتفون بما لديهم ويقتّرون على أنفسهم حتّى الحول الثاني.

ولعلّ أهمّ مركز لصناعة الشقاق هو بلدة يبرود في منطقة القلمون في سوريا الجنوبية في نحو منتصف الطريق بين دمشق وحمص. فقد كان في هذه المدينة الصغيرة نحو ألفي عامل يعملون في صناعة الخيام. وفيها نحو ثلاثمئة نول وهي تموّن بدو سوريا وتصدّر إلى الأردن والعراق ونجد والكويت وشركات الزيت. ومن مميّزات يبرود أن أجرة العامل فيها كانت إلى عهد قريب رخيصة نسبيّاً وشعر المعز الخالص متيسّر لقربها من جبال القلمون أغنى الجبال بالمعز الجيّدة، وشعر المعز في المناطق الباردة أطول وأقوى. وإنّ أكثر العمّال لمن المسيحيين الذين ورثوا هذه الصناعة عن آبائهم من زمن بعيد - وليس غريباً أن يكون من عهد الخيّام بولس الرسول - وتنتج يبرود من هذا النسيج نحو مئتي طن سنويّاً أي ممّا يقارب نصف ما يستهلك في البلاد سنوياً وهو قدر يكفي لإنشاء أكثر من ألف خيمة متوسّطة جديدة. وتزدهر الصناعة في سنيّ الخصب والمطر حيث يغتني البدو حين تسمن ماشيتهم ويكثر نتاجها فيجدّدون بيوتهم.

والبلد الثاني في حياكة الشقاق هي شحيم في لبنان فوق الطريق بين بيروت وصيدا وهي تنتج نحو ١٠٪ من المستهلك. وكانت شحيم تنسج الشعر ليكون مصافي للزيت الحلو ثم أخذت تنسجه أيضاً لشقاق الخيام، وكانت تنتج حمص وحماة وحلب ودمشق والقرى التي تحيط ببعضها والكويت وبعض قرى العراق ما تبقى من المستهلك من الشقاق - ولا أستغرب أن تكون بعض الشقاق الرخيصة التي يشتريها البدو في شرقي الجزيرة العربية هي من واردات الهند، وقد ذكر فلبي أن الملك عبد العزيز في ربيع

حياكة شقق الخيمة في يبرود

بدوية تحوك الصوف شقة للرواق

١٩٤٧ كان قد نصب خيامه في بقعة من منطقة القسيم فأصبحت مدينة من الخيام وأنه أراد حين أخذت تهترىء أن يشتري خياماً جديدة من الكويت فوجدها غالية فوق الحدّ واستطاع فلبي أن يشتري له من الهند أحسن منها بنصف ثمنها[٦]. ولكنّ فلبي لم يشر إلى أنها من شعر المعز. ولعلّ هنا خير موضع نذكر فيه أن عدد الخيام في الجزيرة العربية وحدها يمكن أن يفوق مئة ألف خيمة. وقد ذكرت آن بلنت أن خيام الرولة وحدها سنة ١٨٧٩ كانت نحو اثني عشر ألف خيمة، ولا يقتصر استعمال بيوت الشعر على البدو العرب بل إنه منتشر من قلب أفغانستان شرقاً حتى شاطىء الأطلسي غرباً[٧].

وإذا كان بمكنة البدوي أن يشتري نسيجاً لخيمة جديدة فعل وإلاّ فإنّه يكتفي بشراء ما يكفي لسقف خيمته، ويستعين بالقديم من نسيجها للجانبين والرواق. وقد تقوم النساء الفقيرات من البدو بحياكة الرواق والجانبين بأيديهن على أنوال بدائية ينصبنها في البريّة حين ينزلن وتطول إقامتهنّ في المنزل الواحد كما ترى في الرسم.

ومن الخير أن نلاحظ هنا أن المرأة البدوية هي التي تنسج ما يصلح للرواق والجانبين في كثير من الأحيان، وهي التي تنصب البيت غالباً للرجل، وهي التي تدقّ الأوتاد، وترفع الأعمدة، وتضرب الأطناب كما يقولون. وليس على الرجل عند النزول إلاّ أمر اختيار البقعة التي ارتأى أن تنصب فيها خيمته.

وتنصب الخيمة في الغالب عند عرب الشمال متّجهة إلى الشرق، لاسيّما في فصل الشتاء، وذلك لكسب حرارة الشمس. ويراعى في الفصول الأخرى اتجاه الرياح وموقع الأرض ووجهة النور. وإذا كان البيت من حجرتين أو أكثر تقصر واحدة على استقبال الضيوف وصنع القهوة، وتسمّى الربعة، وتحفر فيها الحفرة التي توقد فيها النار للقهوة. وتكون الربعة في يمين الخيمة عند الرولة وشمّر أي إلى الجنوب[٨] وفي اليسار عند الفواعرة وبني خالد في سوريا وقبيلة حرب في نجد، وقد يعرف بعض الخبراء من البدو طلل مضرب الشيخ بعد ارتحاله من حفرة النار وحسب.

ويرفع الجانب الخلفي من الخيمة في الصيف لتخفيف الحرارة بالتهوية. أمّا في الشتاء فيردّ التراب على أطرافها اللاصقة بالأرض من الخلف والجوانب منعاً لتسرّب ماء المطر الشديد إليها والهواء البارد وحفظاً للحرارة.

بقي كيف تنزل القبيلة أو العشيرة في مضاربها أو كيف تنظم المضارب عند نصب البيوت فهو أمر يختلف باختلاف القبائل. فالقبيلة القويّة كالرولة مثلاً لا تتقيد بنظام ولا يهتمّ أبناؤها في كيف يكون شكل مضاربها، لأنها لا تخشى عدوّاً بين القبائل، فهي لا تتبع



المخيم في صفوف تكاد تكون متوازية

شكل الدوار حيث تصفّ البيوت بشكل أنصاف دوائر أو دوائر بيضاوية، بل تنتثر البيوت في المخيَّم بشكل عفوي إنّما يراعى فيها شيء من التنسيق صفوفاً على مسافات معلومة بين الصف والصفّ بحيث يسهل العبور بينها دون العثور بالأطناب الممتدّة من الخلف والأمام. بينما ترى بيوت هتيم قريبة الواحد من الآخر.

والمضرب الذي يكون فيه أقل من عشرة بيوت يسمّى فريقاً وإذا كان فيه ما بين العشرة والثلاثين فيسمّى نَجيعاً وما فوق ذلك يسمّى نزلاً له وتكون الخيام في خطوط متوازية تقريباً. أما بيت الشيخ فيعينّ موضعه الشيخ نفسه بل إنه هو الذي يعينّ مكان نزول القبيلة أو العشيرة حين تنتقل من منتجع إلى منتجع. وأنه عند الانتقال آخر من يرتحل وعند بلوغ المنتجع أوّل من يحلّ (٩).

ويكون وجه البيت أي الخيمة عموماً مواجهاً للشمس إلاّ حين تهبّ الريح قويّة من الشرق، ويكون قفا الخيمة مواجهاً للريح، وقد يرفع الرواق في الصيف عند شدّة الحرّ لكي يسهل مجرى الهواء، وتصبح الخيمة عندها وقفاها بشكل وجهها وينفذ منه الهواء

والنور. وتستقرّ حجرة الرجال إلى يسار الداخل إلى الخيمة ولكن ليس عند كلّ العشائر إذ هي عند البعض إلى اليمين.

ويحفر في حجرة الرجال حفرة للنار لصنع القهوة والشاي وما إليهما، ومنها يستدل الواقف على طلل الخيام فيما بعد عن كرم الشيخ ومكانته بين شيوخ القبائل، فكلما اتسعت وكثر رمادها أنبأت عن مزيد كرم وانفاق.

ولبيت البدوي حرمة خاصّة ولاسيما إذا لجأ إليه لاجىء أو دخيل فإنّ من واجب صاحب البيت أن يدافع عنه، كذلك قد يعاب على الطارق إذا كان وافداً للنزول عند أهل المخيم أن يمر ببيت دون أن ينزل ضيفاً به، إذ يعدّ ذلك انتقاصاً لشرف أهله. وأذكر أني مررت مرّة وجماعة من صحبي حين أردنا النزول عند قبيل ورأينا ناراً في بيت كبير فقصدناه للنزول ضيوفاً عنده وعبرنا أمام أوّل خيمة في الفريق دون أن نسأل صاحبتها وهي امرأة وحيدة فيها إذا كانت تقبلنا ضيوفاً. فعرضت لنا هي نفسها ووبّختنا على المرور أمام خيمتها دون أن ننزل عندها، فاعتذرنا واستأذنّا منها أن تسمح لنا بالنزول عند صاحب النار الموقدة لأنّنا لا نقصد البقاء طويلاً.



خيمة أمراء الشعلان وتظهر فيها الأعمدة السبعة

الحواشي :

(١) امثال ٩ : ١ .

(٢) نشيد الإنشاد ١ : ٥، فشقق سليمان بيوت شعر سود.

(٣) إذ يمكن أن يمتدّ إلى مسافة أطول ويقوم على أعمدة أكثر ولكن يصعب حمله ونقله. وليس غريباً أن يصل عدد الأعمدة عند بعض الشيوخ إلى ١١ كما روى لي بعضهم عن خيمة في الجزيرة الشامية. ولعلّها في مثل هذه الحالة تظلّ ثابتة على مدار السنة ولا تقوّض لأن أصحابها يظلّون في الأراضي المحيطة بالعمران.

(٤) اشعيا ١٣ : ٢٠ .

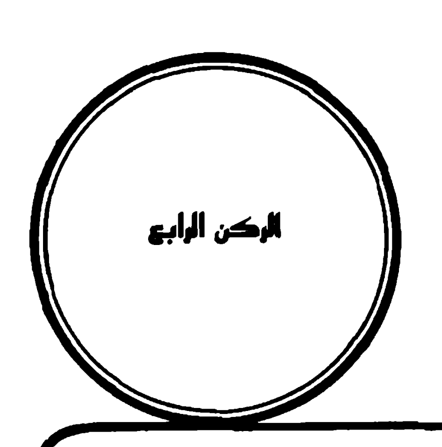
(٥) نشيد الإنشاد ١ : ٥. خروج ٢٦ : ٧ وتصنع شققاً من شعر معزى وليس من وبر الجمل كما زعم فولني ١ : ٣٩٠ إلا إذا دعت الحاجة إلى بعض قطع الرواق.

(٦) Philby, **Forty Years in the Wilderness**, p. 224.

(٧) C.G. Feilberg, **La Tente Noire** (Copenhagen, 1944).

(٨) لقد أخطأ دكسن (ص ٨٠) حين زعم أن ربعة الرجال تكون دائماً في الجانب الشرقي بقطع النظر عن الاتجاه الذي يوجه اليه البيت. بينما أصاب موزل في كتابه حين ذكر أن الربعة تكون دائماً في الجانب الأيمن من البيت، أنظر كتابه **The Northern Hegaz** (New York, 1926), p. 17 . وقد لاحظت ذلك بنفسي عند بدو سورية بوجه عام ولكنني لا أستغرب أن يختلف الأمر عند بعض قبائل الأقطار الأخرى، ومن هنا فيجب الاحتراز من التعميم.

(٩) Musil, **Manners and Customs**, p. 77.



البدوي العربي

وَمَنْ تَكُنِ الحضارَةُ أعْجَبَتْهُ ... فأيَّ رجالِ بادِيَةٍ تَرَانَا

عمير ابن شييم القطامي

الفصل العاشر

البدوي العربي
وأهم العشائر التي ينتسب اليها

من هو البدوي العربي

بقي البدوي العربي، الركن الأخير من أركان البداوة وأهم ركن فيها، وقد اشتقّ اسمه من اسمها وارتبطت حياته بها وبالإبل التي كان له من لبنها طعام وشراب، وساعدته على التنقّل بين أرجاء باديته فلم يختلط إلاّ قليلاً بغيره من الأقوام كما جرى لإخوانه العرب الآخرين من أهل الحواضر. والبدوي اليوم على أنواع: بدويّ محافظ على بداوته، بعيد النجعة في باديته لا يربّي من الماشية سوى الإبل وبعض الخيل[١]. وآخر له



بدوي وقد تأهب للسير بعيداً في مهمة

اتصال بالقرى والحواضر القريبة من البادية، وقد شرع يعتمد على تربية الغنم أكثر من اعتماده على تربية الإبل، فدفعه اعتماده على تربية الغنم إلى أن لا يبعد نجعته في البادية كزميله صاحب الابل. وثالث لزم حدود البادية والأراضي القريبة من القرى والحواضر، واقتصر تنقله على المناطق والأراضي التي تقع بين تلك القرى والحواضر المتاخمة للبادية، واعتمد تربية الغنم من الماشية لعيشه واقتنى الخيل لحماية نفسه من القبائل القوية، دون أن يلتفت كثيراً إلى تربية الإبل إلاّ ما يكفيه منها لحمل أمتعته وخيامه وأثاثه حين ينتقل من منتجع إلى منتجع ،وأنشأ في الوقت نفسه شيئاً من الصلات مع أهل الحواضر والقرى لبيع خراف أغنامه وسمنها وصوفها، وعاش أكثر أيامه قريباً من الحواضر يتردّد إليها كثيراً، وربّما بلغت صلته بأهلها إلى درجة أن عقد مع بعضهم شركة بملكيّة الأغنام، وأصبح سهلاً عليه أن يستقرّ إذا دعت الحاجة إلى أن يصبح مع الزمن من أهل الحضر.

وهناك فِرَقٌ من البدو تقع بين هذه الطبقات التي ذكرت، وتتّصل بواحدة من ناحية وبأخرى من ناحية أخرى، وأكثرها الآن في طريق التحوّل إلى اتّجاه يبعدها عن البداوة، ويدنيها من الحضارة ، كما يجري في كثير من الأقطار العربية وخاصة في شرقي الأردن وفي المملكة السعودية وفي العراق وفي بعض بقاع الجزيرة.

وثمّة عشائر أخرى في البادية، وهي موغلة في البداوة، ولكنّها ليست من نسب عريق، بحيث نجد أن القبائل الأخرى لا تعتبرها أصيلة مثلها. ومن هذه العشائر البدول في شرقي الأردن، والشرارات، والحويطات، برغم أنه عرف عن بعض هؤلاء الأخيرين أنه نشأ فيهم فرسان وأبطال غزاة كان لهم دور في النزاع بين القبائل[٢]. وهناك عشيرة خاصّة هي عشيرة صليب التي سنفرد لها فصلاً خاصّاً، وذلك لأنه اختلف في أصلها ونسبها، وحسبها البعض خطأً من بقايا الصليبيين.

وكان يمكن أن يقسم البدو بوجه عام إلى قسمين رئيسيين كما يفعل كثير من الباحثين ـ أهل الإبل وأهل الشياه (الغنم) المعروفين بعرب الشوايا ـ ولكنّي أعرف عشائر كانت إلى عهد قريب من أهل الإبل وهي اليوم تجمع بين تربية الإبل والغنم. ولهذا آثرت أن أصنّف البدو إلى ثلاث فئات رئيسية كما سبق. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن أهل الإبل هم بعرف البداة أعرق العرب بوجه عام وأشرفهم نسباً، دون أن ينكروا شرف النسب عند بعض العشائر الأخرى التي أخذت تجنح إلى تربية الغنم وتدخل تدريجياً في عداد عرب الشوايا. أمّا البدو الذين أخذوا يستقرّون في قرى ومزارع، ويلتفتون إلى الزراعة عاملين فيها هم أنفسهم فقد خرجوا من جماعة البدو، وأصبحوا في عداد الحضر المزارعين برغم احتفاظهم بكثير من أخلاق البداة وعاداتهم.

أصل البدوي العربي

البدوي العربي ساميّ الأصل من الجنس البشري الأبيض، وهو في عرف المؤرّخين العرب متحدّر من جنوبي الجزيرة العربية وشماليها، ومن هنا ارجعة النسابون عموماً إلى أصلين شمالي وجنوبي - أو عدناني وقحطاني، وقد يعمّمون هذا الانتساب أيضاً على الحضري العربي. وأما ما نراه اليوم من سحنة سوداء أو شديدة السواد في أفراد بعض العشائر، وخاصّة في الجنوب، فهو ناتج لا عن أثر البيئة وحسب، بل عن اختلاط بين العرب وسواهم من أمم آسيا الشرقية وأفريقيا. فقد تسرّب إلى الجزيرة عبر التاريخ قبل الإسلام وبعده شيء من الدم الأجنبي بواسطة التجارة والحج لا في شطئان الجزيرة وحسب، بل في الكثير من مناطقها. تسرّب من الهند، والهند الصينية وباكستان، وتسرّب من الغرب من الصومال والحبشة وارتريا والسودان ومصر، واختلط بعضه حتّى مع البدو في كثير من جهات الجزيرة. وقد لاحظ وليم شانكلن تسرّب الدم الأجنبي في مضارب الشيوخ عند عرب الرولة من العبيد السود الذين كانوا بحوزتهم، وذلك حين كان يقوم بدرس أقيسة جماجم بعض بدو الرولة ودرس دمائهم. ولاحظ البون بين دماء البدو الخلّص ودماء أولئك الذين خالطهم دم أجنبي، عدا اختلاف اللون الذي لاحظه في سحنهم[٣].

أمّا حيث امتنع الاختلاط في البيئات البدوية عند بعض بدو نجد وبدو بادية الشام، فإن البشرة بيضاء حين لا تتعرّض كثيراً للشمس كما شاهدت عند كثير من أبناء هذه القبائل وبناتها. ولم تفت هذه الظاهرة بعض الروّاد من الفرنجة الذين زاروا البادية الشامية ونجد واحتكّوا بأهلها عن كثب، فقد ذكر بركهارت أنه رأس جسم بدوية عالجها لمرض فقال: «إن جسمها لا يختلف في لون بشرته عن جسم أي انكليزية أو غيرها من الأوروبيات»[٤].

وقد شاهدت أنا نفسي بنتاً لبدوي من عرب الحديديين في مضرب على ضفاف البادية الشامية لا تختلف في هيئتها وتقاسيم وجهها وشكل أنفها وعينيها عن أي فتاة أوروبية أو حتى اسكندنافية كما ترى في الرسم على الصفحة التالية. وربّما من الخير أن أذكر هنا أن بعض الدراسات الحديثة تنكر أن تكون البداوة قد نشأت في جنوبي الجزيرة، أو انتقلت منها إلى الشمال، بل ترى أنها عرفت أوّل ما عرفت في الشمال وذلك من درس بعض العلماء للآثار والنقوش التي وقعوا عليها، ويرجعون أول ظهورها إلى الألف الثالث قبل الميلاد[٥].



فتاة بدوية (إلى اليسار) كأنها اسكنديناقية في بيت بدوي مع أختها

تعلّق البدوي واعتزازه بنسبه

وقضت على هذا البدوي ظروفه أن يشتدّ مع الزمن تعلّقه بأهله وقبيلتـه، فأخـذ يعتزّ بنسبه إليها، ويأنف من الحياة الحضرية. ومن هنا فهو لا يزال إلى يومنا هذا ينتمي إلى عشائر أو قبائل تعلّقت بأنسابها منذ أزمان قديمة، وتمسكت بها بعصبيـة قبلية حـادّة برغم تنقلها في مواطن مختلفة من بوادي الجزيرة العربيـة، وابتعاد بعضهـا عن مواطنهـا

بنات بدويات من عرب العقيدات يتوسطهن صبي

فتيان من البدو من عرب العقيدات

القديمة، وانقطاعها عن بعض إخوانها في أقطار أخرى، وبرغم انتحالها أحياناً أسماء جديدة أخذت تعرف بها لمكانة بعض شيوخها في العهود الأخيرة وشهرتهم.

وأصبح انقسام البدو إلى قبائل أو عشائر وتعلّقهم بالنسب من أعظم مميّزاتهم، وكان لهذا التعلّق أثر في حياة العرب بوجه عام، فكانوا منذ عصور جاهليتهم يعتنون بالأنساب، ويتّهمون من يجهلها، ويصفونه بفتور الهمّة والأدب. وقد حاول الإسلام أن يحدّ من تعلّق العرب بهذه العصبية القبلية والنسب العشائري. فنسب إلى النبي أنه قال: «إن مآثر الجاهلية موضوعة ألا فلتذهب نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء» وفي حديث آخر: «أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربي على أعجمي فخر إلّا بالتقوى»[٦] . ولكن الروح القبلية ظلّت سائدة وظلّ الولاء إلى العشيرة غالباً في العرب. ونرى من ناحية ثانية أنه بالرغم من دعوة الإسلام إلى نبذ العصبية القبلية فإن النبي نفسه لم يقصد فيما يظهر من أقواله الأخرى أن يجهل العرب أنسابهم، فقد روي عنه أيضاً أنه قال: «كفر بالله تبرّؤ من نسب وإن رقّ، وكفر بالله ادّعاء إلى نسب لا يعرف»، بل روي عنه أيضاً أنه قال مرّة مفتخراً بالآباء: «نحن بنو النضر ابن كنانة، ولقد جعل الله العرب بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً». وقال مرّة أخرى: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». وقال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرأة في المال، منسأة في الأجل»[٧].

وأصبحت معرفة الانساب عند العرب نوعاً من العلوم البدائية التي عرفوها. وكان من أعلم الناس في النسب في صدر الإسلام أبو بكر الصديق، وكان يذكر لحسّان ابن ثابت الأنصاري شاعر النبي أنساب القرشيين من خصوم النبي ليهجوهم. ويروى عن عمر ابن الخطاب انه قال: «تعلّموا أنسابكم تصلوا أرحامكم ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم ممّن أنت؟ قال: من قرية كذا»[٨] وقد لاحظ ابن خلدون هذه النزعة في تاريخ البشر فقال: «إن صلة الرحم طبيعي في البشر إلّا في الأقل»[٩]. والواقع أنها في العرب قوية بحيث جعلوا معرفة النسب علماً، ولعلّهم أول من سمّاه علماً. ومن أقوى الادلّة على أهميّة النسب عند العرب واهتمامهم به أن كثيراً من علمائهم القدماء وضعوا كتباً في الأنساب. وفي كتاب الفهرست لابن النديم ذكر لكثير من كتب الأنساب التي ألّفها مؤلفون كالزبير ابن بكار ص ١١١، وأبي عبد الله الجهمي ص ١١٢، وعمر ابن شبة ص ١١٣، والبلاذري ص ١١٣، ومحمد ابن سلام ص ١١٣، وأبي الحسن النسّابة ص ١١٤. وقد وصف الأخير بأنه أحد العلماء بالأنساب. وحين وضع ابن عبد ربّه الأندلسي عقده في الأخبار وأدب العرب وعلومهم جعل كتاباً خاصّاً من كتب العقد

الخمسة والعشرين للنسب، ذكر فيه أنساب القبائل العربية من عدنانية وقحطانية وفروعها المختلفة من قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وعشائر وفصائل إلى أن بلغ في بعضها إلى المشهورين من شيوخ الفصائل[١٠]، وفيه «فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس، ومن لم يعرف الناس لم يعدّ من الناس»[١١].

ومن الخير أن نلاحظ أن صلة الرحم أو النسب شيء كان له ميزة خاصة عند الشعوب الساميّة أو في البيئة الساميّة الأولى. فالتوراة تؤيد هذا في ذكرها أنساب الملوك والأنبياء والأسباط وغيرهم. وهكذا فالظاهر أن تمسّك العرب عموماً والبدو بشكل خاصّ بأمر النسب، وفخرهم بالأنساب، أمر عريق تعود أصوله إلى البيئة السامية البدوية. ولا يزال البدو حتى اليوم يراعون هذه الأوضاع. ويتعلّقون بأنسابهم ويعتزّون بأصولهم العربية، مع أن هذه النزعة قد اندثرت عند العرب من أهل الحواضر واندثرت العصبية القبلية باندثارها وبقي ذلك في البدو كما ذكر ابن خلدون[١٢].

ولا يصحّ أن يقال إن أنساب العرب أكاذيب اخترعوها وإن يكن بعضهم كان يدّعي نسباً غير صحيح. ويثبت تاريخ البداة وعاداتهم أن رابطة النسب كانت ولا تزال أقوى جامعة يتمسّك بها البدو لحفظ كيانهم برغم أنقسامهم وتفرّقهم إلى قبائل وعشائر وبطون وأفخاذ، وقديماً قال شاعرهم:

وَهَلْ أنا إلاّ مِنْ غَزِيَّـةَ إنْ غَوَتْ   غَوَيتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرشُدِ[١٣]

وقال آخر:

فَـاْحفظْ عَشيرَتَـك الأدنينَ إنَّ لَهُم   حقّاً يُفرِّقُ بَيْنَ الزَّوجِ والمَرْتِ[١٤]

وقد لاحظ أكثر روّاد الجزيرة العربية هذه الظاهرة، فحاولوا في درسهم للبداة والبادية أن يعرفوا أنساب العشائر والبطون المختلفة ويدوّنوها في ما خلّفوه من بحوث، ومن هنا نرى أن أكثرهم وضع جداول مفصّلة بأسماء القبائل المختلفة والعشائر التي تتوزّع منها، ثم البطون إذا أمكن، حتى الافخاذ والعائلات، وبالفعل صدرت جداول لأكثر القبائل البدوية في كثير من كتب الروّاد التي نشرت حتى الآن. وحاولت بدوري أن يكون في كتابي هذا جدول كامل بأسماء جميع القبائل المعروفة اليوم في الجزيرة العربية أو على الأقل في القسم الشمالي من الجزيرة واستعنت ببعض البدو أنفسهم واعتمدت على أهم الكتب التي فصّلت اسماء القبائل ككتاب ملر «البدو»، وكتاب أحمد عكام «العشائر السورية وتحضيرها»، وكتب موزل المختلفة، وكتاب فؤاد حمزة «في قلب الجزيرة»، وكتاب وصفي زكريا «عشائر الشام»، وكتاب العزاوي «عشائر العراق»، و «معجم قبائل

العرب» لرضا كحالة، وغيرها من الكتب، فوجدت أن القبائل الكبيرة تبلغ أكثر من أربعين، ومنها ما فيه أكثر من ثلاثين عشيرة، وإني آسف أن أقول إني لم أجد اتفاقاً في كثير منها حين كنت أصل إلى الفروع أي إلى العشائر أو إلى البطون والأفخاذ، فالبعض يجعل البطن عشيرة أو فخذاً والبعض يحسب العشائر مع القبائل أو مع البطون. ولم أجد في هذه الكتب اتفاقاً بالنسبة لتفريع القبائل على أساس معيّن، ويصدق الأمر نفسه على ما نقله كثيرون من العارفين بأحوال بعض البدو، وحاولت أن أجمع ما استطعت جمعه أنا بنفسي من أفواه بعض البدو الذين شهروا بمعرفتهم لأنساب القبائل من عرب سوريا. فوجدت كثيراً من الاختلاف في الروايات وربّما يصلح أن أضرب مثلاً محسوساً فهناك لعرب الحويطات ذكر لنحو أربعين عشيرة في بعض الكتب، ولخمس عشرة عشيرة في كتب أخرى. بينما لم يصل عدد العشائر في البعض الآخر إلى هذا الحدّ. وتختلف الأسماء في الجدول الواحد عمّا هي في الجدول الآخر، وكذلك قل في قبيلة طي، وبني عطية، وبني صخر، حتى عنزة نفسها التي ملأت أخبارها الكتب وكثر الباحثون بأمرها، فقد كان هناك اختلاف في جداول عشائرها وبطون هذه العشائر وأفخاذها. زد على هذا الاختلاف في الأسماء، وعدم الدقّة في ضبطها عند المؤلّفين العرب الذين أخذ بعضهم جداولهُ من كتب الروّاد الافرنج، وعند المؤلّفين الفرنجة الذين نقلوا الأسماء سماعاً عن البدو، فالجيم البدوية تكتب جيماً وهي أحياناً كاف، والظاء تكتب دالاً لأنها لفظت قريباً من مخرج الضاد، وعبّر عنها بدال منقّطة في الحرف اللاتيني، فنقلت دالاً إلى العربية وضاع معها اسم القبيلة. وهكذا قل في الحاء والخاء والهاء والعين، وعشرات الأمثلة من هذا النوع، وعلى سبيل المثال فقط أذكر اسم عشيرة المشطة من ولد علي فمنها أفخاذ كُتب واحد منها عند البعض باسم العواض وعند آخر باسم العواظ وعند ثالث باسم العواد وعشيرة أخرى كتبت مرّة باسم الطلوع وأخرى باسم الطلوح وعشرات الأمثلة الأخرى حتى «معجم قبائل العرب» فقد اعتمد واضعه على هذه المصادر التي كثرت فيها الاخطاء.

وأخيراً التغيير الذي يجري مستمرّاً بأسماء بعض العشائر من جيل إلى جيل، فقد يشتهر شيخ فتنسب العشيرة اليه، فتسمع بعرب الشعلان مثلاً وقد عرفوا قديماً بالمرعض، وهناك من يسمّي كل عرب الرولة بعرب الشعلان، مع أن الرولة تضم نحو ثلاثين عشيرة غير عشائر الشعلان، ومن هنا فقد تغيّر كثير من الأسماء القديمة لبعض القبائل أو العشائر وحلّ محلّها اسماء جديدة، وذلك برغم ما ذكرت من تعلّق العرب بالنسب وارتباطهم الاجتماعي بالعشيرة، فالمهمّ ليس الاسم بقدر ما هو الرابطة العائلية القبلية.

وبين أسماء القبائل أحياناً اسم واحد تحمله قبيلتان مختلفتان، فهناك مثلاً الجملان وهم بطن من قبيلة الحديديين يقيمون في جنوبي حلب ويملكون غنماً وجمالاً، وهناك الجملان وهم من قبائل بدوية قرب دوما ولا يذكر النسابون أصلهم. وهم الآن نصف متحضرين ولهم أراض زراعية وخيام. وهناك البو حسن ومنهم ثلاثة بطون أو أفخاذ مختلفة تعرف بهذا الاسم، وفخذان آخران يعرفان بأبي حسن، وللتمثيل على الاختلاط والفوضى في هذه الجداول عن القبائل وفروعها نذكر ما رأيناه في«معجم القبائل» لرضا كحالة، وهو معجم كبير حاول صاحبه فيه أن يجمع اسماء كل القبائل والعشائر بفروعها في ثلاثة أجزاء، فنقل كل ما استطاع أن ينقله عن كتب النسابين والرواد والرحالة وغيرهم، وبذل من الجهود والعناء ما يقدّر له غاية التقدير، ولكنّه مع ذاك لم يستطع أن يسلم من الأخطاء، ففاته ذكر اسماء كثير من القبائل أو العشائر أو البطون أو الأفخاذ، ومرد خطأه في أغلب الأحيان إلى المصادر التي استقى منها، وعلى سبيل التمثيل أذكر بدو الخرشات، وهم يعرفون بهذا الاسم، ويعرف عنهم أنهم من عشيرة الكعابنة من قبيلة بني صخر، ويتفرعون إلى تسعة بطون أو أفخاذ هي الحنيف، والقضاة، والحمد، والحماد، والتمد، والعيط، والصالح، والغدرة، والسليمان. بينما لا نرى في المعجم ذكراً إلاّ لقبيلة يسمّيها الخرشة، ولا يختلف الاسمان بعرف البدو. ولكن بطون هذه العشيرة كما وردت في المعجم هي من بدو الكرك وهي ست وليست تسعاً وأسماؤها العناتير، والسلمان، والشماعين، والمراجين، والسخان، والجيلات فإذا كانت العشيرة واحدة فليس بين بطونها سوى السلمان والسليمان متشابهين، وإذا لم تكن واحدة يكون المعجم قد أهمل ذكر الخرشات من عرب بني صخر وهو أدهى. ولكن يجب أن أذكر أن في الكتاب ما لا يقل عن عشرة آلاف اسم عشيرة أو بطن أو فخذ منذ أول ما عرف العرب إلى اليوم. كذلك يصدق الأمر نفسه لو قابلنا بين جداول بعض المؤلفين الافرنج كعشائر العمور في كتب موزل وقد جعلها احدى عشرة، بينما لم يذكر ملر منها سوى ثلاث. ومن هنا فقد دفعني هذا إلى أن لا أطيل في تفصيل الفروع وضبط أسمائها لأنه أمر يكاد يكون مستحيلاً برغم معرفتي للهجة بعض البدو في شمالي سوريا وتلفظهم الخاص لبعض الحروف.

ومع ذلك فقد رأيت ألا يخلو هذا البحث من جدول بأسماء القبائل المشهورة. وكنت أعددت مخططاً لتفصيل العشائر التي تتفرّع من هذه العشائر المشهورة فوجدت أيضاً أنه يصعب البتّ في ضبط كثير من الأسماء لاختلاف روايات الذين ذكروها، برغم صلتي ببعض بدو عنزة في البادية واعتمادي على راويتين من رواة النسب كان أحد

الشيوخ أرسلهما إلي لأنقل عنهما أسماء العشائر. وكان أن عثرت في تقرير لأحد القناصل الانجليز بين الوثائق التي سيرد ذكرها في آخر هذا الكتاب على جدول مفصّل عن أكثر هذه القبائل في بادية الشام في القرن التاسع عشر، فرأيت منعاً للتكرار أن أكتفي بما في ذلك الجدول، واذكر هنا ولو بشكل موجز شيئاً قليلاً عن كل من القبائل المشهورة وخاصة قبائل عنزة، فهي أكثر القبائل عدداً في كل الجزيرة العربية وأكثرها عشائر وبطوناً وأفخاذاً، ومن أقدمها ذكراً في كتب المؤرخين والروّاد ولا سيّما حين ثبت استقرارها في شمالي الجزيرة في البوادي التي تلي الشام والأردن والعراق وألصقها بالجمل الركن الهام في البداوة بحيث حار بعض أبناء عنزة في هل خلق الله الجمل لهم أم خلقهم للجمل. وزعم آخرون منهم أنه لو كان الله خلق عنزة قبل الإبل لكانت عنزة مثل سائر الناس، ولكن لما كان الله قد خلق الإبل قبل عنزة فقد اضطرّ إلى أن يخلق عنزة لتحمي الإبل وترعاها. ولا بدّ من التنويه هنا بأن كثيراً من اسماء العشائر أو البطون في عنزة وغيرها تغيّر مع الزمن عما هو في الجدول الذي اشرنا إليه وأن عدد البوت والفرسان المذكورة تغيّر أيضاً.

ومع هذا فقد اتفق النسابون على أن عرب عنزة ينقسمون إلى قسمين رئيسيين هما مسلم وبشر فيقال لعرب كل من هذين القسمين «ضنا» فأما أن يكون العنزي من ضنا مسلم أو من ضنا بشر. وقد تفرّع من بشر فرعان هما العمارات وعبيد، وعمّت عبيد في بادية الشام وانحسرت العمارات في بادية العراق، فصار يقال أيضاً عن العنزي إما من ضنا مسلم أو من ضنا عبيد. ويكفي للدلالة على أهمية هاتين القبيلتين الكبيرتين ـ مسلم وعبيد ـ أن نقول إنه كان يمثلهما في المجلس النيابي السوري قبل العهود الأخيرة خمسة نواب، ثلاثة من ضنا عبيد، واثنان من ضنا مسلم، وإن بعض العشائر الصغرى التي انضوت اليهما وبعض القرى التي تقع على حدود البادية كانت تدفع الخوّة ـ ضريبة الحماية ـ لشيوخ العشائر الكبرى المتفرّعة من القبيلتين.

بعض القبائل المشهورة

وسأبدأ بقبيلة العمارات الذين هم من ضنا بشر ولكنهم ليسوا بكثرة ضنا عبيد وقد جعلوا منازلهم اخيراً بادية العراق.

العمارات (من ضنا بشر)

مع أن أكثر عنزة جعلت منازلها في الأراضي السورية المجاورة للبادية فإنّ قبيلة العمارات حلّت على الحدود العراقية ومن هنا فهي تعدّ من عشائر البادية العراقية،

وامتدت منازلها من شواطيء الفرات شمالاً قرب كربلاء حتّى منطقة النفود بعيداً عن منازل شمّر، وكانت تبلغ في تنقّلها أحياناً بعض البقاع في نجد. ويختلف الرواد والباحثون في عدد بيوتها وإبلها وخيلها، ولكنّهم يتّفقون على أنها تزيد عن ثلاثة آلاف وخمسمئة بيت، وتملك نحو عشرين ألفاً من الإبل، وكثيراً من الخيل، وقد زعم عبد الجبّار الراوي في كتابه «البادية» ان في العمارات بطنين هما الدهامشة وعرب الجبل وكل بطن يقدّر عدد بيوته بأربعة آلاف[١٥].

السبعة (من ضنا عبيد ابن بشر)

ويلفظ اسم القبيلة بتسكين السين ولهذا يكتبها البعض «الإسبعة» ومنها عشيرتان كبيرتان هما العبدة بتسكين العين والقاف. ويزعم البعض أن العشيرتين هما العبدة والبطينات، وأن القمصة هي فرع من البطينات، وقد اشتهر الفرع بحيث حلّ محلّ الأصل. ولهما فروع كثيرة نزحت من شمالي الحجاز إلى البادية السورية في أوائل القرن التاسع عشر. وكانت هذه البطون تملك من الإبل حتى منتصف هذا القرن نحو عشرين ألفاً، ونحو ثلاثين ألفاً من الشياه، وكثيراً من الخيل[١٦] . وكانوا من أسبق النازحين إلى البادية السورية ومنهم من اقتصر على تربية الإبل ومنهم من جمع بين تربية الإبل والغنم. وقد وقعت بينهم وبين البدو الذين كانوا قبلهم في البادية السورية منازعات ورد ذكر بعضها في الوثائق التي سأذكرها في آخر هذا الكتاب.

الفدعان (من ضنا عبيد ابن بشر)

وهي عشيرتان ـ عشيرة الخرصة وعشيرة الولده ـ بتسكين الخاء في الأولى والواو في الثانية وفي كلتيهما نحو أربعة آلاف بيت عدا بعض البطون الأخرى التي التحقت بهما بحيث ذكر «معجم القبائل» أن الفدعان مع توابعها تبلغ نحو ستة آلاف بيت، ويقدّر عدد إبلها بنحو عشرين ألفاً وغنمها بنحو ستّين ألفاً[١٧]. ولكن هذه الأرقام تتغيّر تبعاً لسني الخصب والمحل. كذلك كان لها كثير من الخيل بحيث قدّرت بنحو ألفين ولكنّها أقلّ الآن، وتحل الفدعان في أكثر بقاع وادي الفرات، وتبلغ بعض عشائرها منطقة الحماد في الشتاء[١٨].

ضنا مسلم

أما ضنا مسلم ابن عنزة فينقسمون إلى قبيلتين كبريين ـ الجلاس وبني وهب، ولكلّ من هاتين القبيلتين فروع كثيرة. فبنو وهب ينقسمون أوّلاً إلى عشيرتين: المنبه

وولد علي، وتميّزت المنبه في أن منها عشيرة الحسنة والمساليخ الذين تحدّر منهم فيما يقال البيت السعودي.

الحسنة (من ضنا الحسين ابن المنبه من بني وهب من مسلم)

ويلفظ اسم القبيلة أيضاً بتسكين الحاء، ولهذا يكتبها البعض «الاحسنة»، وهم يعدّون مع من يلحقهم من العشائر الأخرى نحو ستمئة بيت، وقد كانوا قديماً أكثر من ذلك حيث أن بعضهم جنح إلى التحضّر، وينزلون في ضواحي حمص حوالي بحيرة قطينة. وقد أدركت شيخهم أيام الثورة السورية الشيخ طراد ابن ملحم وقابلته، وهو ذو شخصيّة وثقافة، لأنه قد تعلّم في حداثته، وكانت عشيرته تنزل عند تشريقها لأطراف الحماد في ضواحي القريتين البلد التي نشأت فيها، ولعلّ الحسنة كانوا من أسبق البدو في الحلول ببادية الشام، حيث نازعوا بعض من كان فيها من القبائل القديمة، وغلبوهم وحلّوا أخيراً في أحسن المناطق حول سلمية وحمص. واضطرّوا في الوقت نفسه إلى أن ينازعوا قبائل كثيرة أخذت تفد بعدهم من عنزة وغيرها. فخسروا كثيراً من رجالهم ونفوذهم وأخذ بعضهم يجنح كما ذكرت إلى التحضّر.

الرولة (من الجلاس من مسلم)

ويلفظ الاسم أيضاً بتسكين الراء، وقد حدا اسمها البعض إلى تغييره بتحريك الراء وزيادة ألف بحيث صارت روالة ـ وجنح البعض إلى تسميتها رلى كما نرى في مطلع قصيدة لقيصر المعلوف:

رُلَى عَـرَبٌ قُـصُـورُهُمُ الخِيـامُ ... وَمَـسْـكَـنُـهُـمْ حَمَـاةٌ والـشَّـآمُ

وأصبح الاسم مألوفاً عند البعض للإناث في بعض الحواضر العربية. والرولة هي القبيلة التي أصبح لها الزعامة بين القبائل في البادية الشامية، وذلك لكثرة عشائرها وسطوة شيوخها. وكان لشيخها نوري الشعلان في المنتصف الأول لهذا القرن من المكانة عند دول الانتداب وعند شيوخ القبائل الأخرى ما جعله كأنّه الشيخ الأوحد بين شيوخ البدو، ولألوس موزل كتاب قصره على الرولة وعاداتهم يرجع إليه أكثر الباحثين عن الرولة وأخلاقهم. وكتب أخيراً سنة ١٩٨١ وليم لانكستر كتاباً عنهم وعن تطوّر الحياة البدوية سمّاه «بدو الرولة اليوم»[١٩]. وقد توفي ابن الأمير نوري الشعلان الأمير نوّاف في حياة والده وكان يمكن أن يكون هو الشيخ بعده فانتقلت المشيخة إلى فوّاز ابن نوّاف، وبعده لابنه متعب، وكان الأمير نايف أخو فوّاز قد أصبح النائب عن القبيلة في المجلس



الأمير نايف الشعلان أحد شيوخ الرولة، وكان نائباً عن قبيلته وعشائر أخرى
في المجلس النيابي السوري

النيابي السوري حين كان متعب لا يزال يافعاً، وكانت للأمير نايف من المكانة في المجلس ما جعل أكثر نوّاب العشائر تلتفّ حوله.

واختلف الباحثون في عدد بيوت هذه القبيلة وعدد أفرادها وعدد إبلها وخيلهـا، وأذكر أنّي سألت الشيخ فوّاز مرّة عن ذلك، وعن بعض الأرقام التي قرأتها في الكتب عن



الأميران متعب وسلطان ابنا الأمير فواز الشعلان

عددهم، وعمّا في مدوّنات السلطة زمن الانتداب وبعدها، فضحك وقال إن أكثر هذه الأرقام ينقلونها عن شيوخ العشائر، وهؤلاء يمدّونهم بالأرقام التي تتفق ومصلحتهم، فإذا كان الغرض جباية الضرائب على الإبل أنقصوا العدد، ومثلها عن البشر، وإن كانت لتوزيع شيء مثلاً زادوا العدد. والواقع أنه ليس لدينا إحصاء صحيح. ومهما يكن من أمر فإنّ الرولة من أكثر القبائل عدداً وفي فروعها من البطون نحو خمسين، كل فرع يعرف باسم خاصّ كما نرى في الجداول التي دوّنها الباحثون. ويظهر أن لدى الرولة ما لا يقلّ عن مئة ألف جمل فهم أغنى العرب إبلا وخيلاً وغنماً وأكثرهم بيوتاً إذ لا تقلّ بيوتهم عن خمسة آلاف، وذكر بركهارت أن في حوزة الرولة من الخيل أكثر من أي قبيلة أخرى من قبائل عنزة، وقال: وقد تصدّوا سنة ١٨٠٩ إلى جيش نظامي أرسله عليهم باشا بغداد مؤلف من ستة آلاف جندي فقهروه (Notes pp. 6 - 7). ويتميّزون بأنهم يحتفظون بالعطفة وهي شعار عزّتهم ومجدهم، وسنفرد لها فصلاً خاصّاً. وكانت الرولة في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر كما يذكر البعض ثلاثة آلاف بيت أو أكثر بقليل. وتراهم يحلّون أوسع البقاع في بادية الشام وفي نجد، وينتجع أصحاب الإبل منهم بادية الحماد فيصلون حتى قلب البادية في فصل الشتاء. ومن هنا فهم من أبعد القبائل نجعة إلى قلب البادية، ومن أعرق البداة وأكثرهم احتفاظاً بحياة البادية وعادات أهلها.

الحديديّون

لعلّ الحديديّين أشهر العشائر عند الحضر، ذلك أن أهل سوريا بوجه عام يألفون نوعاً من المواد الدهنية في أطعمتهم يسمّى السمن، ويتّخذ من حليب الغنم بعد أن يحوّل زيدة، ثم تغلى على النار وتختزن فيمزجون بها أطعمتهم عند طبخها أو قليها. ويقال لهذا النوع من السمن: السمن الحديدي، وكان إلى عهد قريب يباع في كلّ الأسواق في سوريا الجغرافية حتى مدينة بيروت، وتفتخر معامل الحلويات العربية حين تذيع أن مصنوعاتها قد استعملت السمن الحديدي. وتقع منازل هذه القبيلة وهي قبيلة كبيرة في سوريا الشمالية مجاورة للموالي، ومن هنا كانت هناك حروب ومنازعات بينهما أعواماً عديدة لم تنقطع إلاّ منذ عهد الانتداب الافرنسي.

يعتمد الحديديّون على تربية الغنم وبعض الإبل التي يستعينون بها لتنقّلهم، وليس غريباً أن يكونوا قد أُحرجوا إلى تربية الغنم وإلى القرب من قرى العمران إثر نزاعهم مع عنزة التي كانت أقوى منهم. كما يجري في كثير من الأحوال لبعض القبائل التي لا تستطيع الثبات في مناطقها المتاخمة للبادية حين تنازعها عليها قبائل أخرى أقوى منها. ويلتحق

بالحديديين عشائر أخرى صغيرة بحيث أصبح عدد بيوت هذه القبيلة في حدود الأربعة آلاف بيتاً[٢٠].

وقد أخذ بعضهم ينشىء مزارع في ضواحي القرى ومن هنا فقد أصبح هؤلاء أنصاف بداة، وبهم تبدأ عملية التحضر، وذلك حين يجدون في الزراعة مورداً أفضل من تربية الغنم. كذلك نرى في الوقت نفسه أن بعضهم حين استقرّت الأمور وساد الأمن أخذوا في تربية الإبل ومالوا إلى التعمّق في البداوة. وصار من المحتم عليهم الابتعاد في النجعة إلى قلب البادية في فصل الشتاء.

بنو خالد

وهناك عشيرة تشبه عشيرة الحديديّين في أنها تعتني بتربية الغنم ولها صلات شديدة بالحضر وحياة الحضريين، وهي عشيرة بني خالد التي يقال إنها نزحت من منطقة الاحساء، وتقضي أيام الصيف في المنطقة التابعة لمحافظة حمص حتّى شرقي حماة، ولا تصل كلّها إلى قلب البادية البعيد في الشتاء بل تبلغ حدود تدمر وضفاف الحماد، وإذا حلّ الربيع أخذت في الرجوع إلى المناطق المعمورة لبيع ما تنتج من خراف وسمن وصوف، ولتسريح غنمها وماشيتها في الأراضي المحصودة التي لأهالي القرى بعد الاتفاق معهم وخاصة مع هؤلاء الذين قد عقدوا شركة معهم بالغنم أو بالأراضي. وهي كثيرة العدد في الأصل ولكنها تفرّقت في مناطق مختلفة ولم تكن من القبائل التي كانت تألف الغزو، لأنها كانت تكسب عيشها من تربية الغنم، ومن هنا فهي تؤثر السلم والاستقرار، ولكنها كانت في القديم مضطرّة إلى الدفاع عن نفسها ضدّ قبائل عنزة والموالي، فكانت تربّي الخيل وتنشىء أبناءها على أن يكونوا فرساناً وكان باستطاعتها أن تجنّد من أبنائها أكثر من ألفي فارس في القرن الماضي.

الفواعرة

وهناك عشيرة الفواعرة في منطقة حمص، وهي كعشيرة بني خالد تعتني بتربية الغنم، ولها صلات شديدة بأهل الحضر من أهل حمص والقرى المحيطة بها حيث لها معهم شراكة بالغنم وانتاجها، ولا يزال قسم منها يبعد في انتجاعه إلى الحماد مع عشيرة الحسنة وغيرها من بدو العشائر التي تربّي الغنم. أمّا في فصل الصيف فينتشر أفرادها حول القرى على ضفاف البادية شرقي حمص. بل إن منهم من كان ينفذ أحياناً إلى السهول غربي حمص ضمن الأراضي المعمورة في البقيعة وفي عكار. وكانت كعشيرة بني خالد مضطرة إلى الدفاع عن نفسها من هجمات البدو الآخرين حتى من جيرانها بني

خالد ومن الموالي في الشمال. وذكر صاحب «معجم قبائل العرب» أن تاريخ الفواعرة من منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، طافح بأخبار الكوارث والنكبات التي لحقت بهم فقد تحاربوا مع العشائر الآتية: «الرولة، الموالي، الحديديّين، بني خالد، الفدعان، التركي، الغياث، عشائر جبل الدروز، حويطات شرقي الأردن وعمارات العراق»[٢١].

الموالي

وهم من غير عنزة، وتعدّ قبيلتهم من أسبق القبائل التي حلّت في المنطقة الشمالية من سوريا، ويختلفون في أصل هذه القبيلة، وهي من القبائل التي كان لها دور كبير في النزاعات التي وقعت بين القبائل، وبينها وبين السلطة التركية في القرن التاسع عشر كما يظهر في الوثائق التي كتبها القناصل الانجليز. كذلك يختلف الباحثون في عدد بيوتها، وينقسمون إلى شماليين وقبليين، ومنازلهم في الصيف في سوريا الشمالية من جوار قرية سلمية حتى شمالي حلب، ويتراوح عدد البيوت في الروايات المختلفة بين ألف ومئتين وألفين، وقد تصل نجعتهم في الشتاء حتى شمالي تدمر. ولعلّ أوسع ما كتب عنهم هو ما ذكره الاستاذ وصفي زكريا في كتابه «عشائر الشام» وقد وفّق في ردّ أصلهم إلى الحياريين من آل مهنا الذين كان لهم مكانة وسطوة في بادية الشام وقراها وهم وأبناء عمهم آل الفضل منذ القرن الرابع عشر للميلاد. وقد ورد ذكرهم كثيراً في تاريخ الحقب المتلاحقة، وأخيراً برزت أخبار نزاعهم مع القبائل التي أخذت تفد إلى البادية كبني خالد مثلاً الذين نزحوا من منطقة الاحساء فردّوهم بعد أن قتلوا منهم فيما يذكرون نحو مئة فارس بينهم أربعون عريساً وكعرب مّر الذين وفدوا من نجد بعد بني خالد فصدّوهم[٢٢] إلى أن كثرت القبائل النازحة فاضطر الموالي أخيراً إلى أن يتخلّوا عن بعض المناطق الجنوبية وينسحبوا إلى الشمال. وكان من أمرائهم في أواخر القرن الثامن عشر محمد الخرفان الذي ورد ذكره كثيراً في تاريخ الأمير فخر الدين وقد أدركه السائح الفرنسي فولني لما قدم إلى جهات حماه وزعم أن مجموعة فرسانه قدّرها البعض بثلاثين ألف خيال[٢٣]. ولعلّه بالغ كثيراً في هذا العدد.

بنو صخر

بنو صخر من العشائر الكبيرة التي نزحت من بلاد الحجاز إلى بلاد الكرك حوالي أوائل القرن السادس عشر وتنازعت مع العشائر البدوية التي كانت تحلّ فيها. ثم تحوّلت إلى البلقاء وتنازعت مع عربها أيضاً وتحولت ثانية إلى جهات غزة ومنها إلى جهات أخرى

في شرقي الأردن حيث استقرت أخيراً في بادية الأردن في المناطق التي كانت تسيطر على طريق الحج. وقد ورد ذكرها في أخبار مواكب الحج في الكتب العربية حيث أشير إلى أنها عرضت للركب المصري في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة وسلبته وقتلت أميره فخرج إليهم أمير غزّة وقتل منهم عدداً كبيراً، ونهب إبلهم وخيولهم فعادوا إلى البلقاء وعقدوا حلفاً مع قبائلها وحاربوا عنزة حين خرجت من نجد[٢٤]. وزعم خير الدين الزركلي أنه كان يمكن لبني صخر أن تخرج للقتال بثلاثة آلاف مقاتل مسلّح. ومنازلها اليوم في الجنوب من عمان[٢٥].



أبناء شيخ بني صخر وهم يتعلمون الآن في مدارس الحكومة

ويظهر بعد المحاولات التي تقوم بها حكومة المملكة الأردنية أن بعض أبناء هذه القبيلة أخذوا يمتلكون بعض المزارع على حدود البادية ويبنون بعض البيوت من الحجر. ولكنهم لا يزالون بعيدين عن الركون إلى الاستقرار نهائياً فيها، مع أن أبناء الشيوخ يتعلّمون في المدارس الحكومية ويرتدون الثياب الحضرية كما لاحظت عند زيارتهم في الستينات من هذا القرن، ولهم أمتن الصلات مع العائلة المالكة ومع البيت السعودي.

شمّر

تعدّ شمّر من القبائل الكبيرة في الجزيرة العربية، وهي ليست من عرب عنزة،

وكانت في نزاع مع عنزة دام عهداً طويلاً قبل منتصف هذا القرن، وقد تفرّعت في نجد وبادية العراق وبادية الشام، وحلّ القسم الأكبر منها في بادية العراق نفسها، وكانت في العصر الأخير بزعامة آل الياور، ويقدر عدد بيوت تلك التي في العراق بما لا يقلّ عن عشرة آلاف بيت، وبيوت تلك التي في نجد بنحو خمسة آلاف، ومثلها تلك التي في بادية الشام، وكان من مشاهير شيوخ شمّر في العراق الشيخ عجيل الياور الذي حظيت بمجلس معه في بيروت في النصف الأول من هذا القرن في بيت رئيس الجامعة الأميركية. فرأيت فيه رجلاً ملمّاً بالقضايا السياسية العالمية، حسن الحديث وذا شخصية عظيمة. ثمّ كان لي الحظ أن علّمت ابنه الشيخ صفوق في الجامعة نفسها قبل أن تنتقل المشيخة إليه. وفي الوثائق التي سأذكرها في آخر هذا الكتاب ذكر لبعض أخبار شمّر بادية الشام ونزاعهم مع عرب عنزه.

العقيدات

وهي قبيلة كبرى تفرّعت إلى عشائر كثيرة وحلّت مناطق مختلفة في وادي الفرات في منطقة دير الزور وأبي كمال وفي شمالي سوريا بمحافظتي حمص وحماة وفي غوطة دمشق. وظلت هذه العشائر محتفظة باسم القبيلة وأخذ بعضها يتحضّر ويقتني المزارع وهي عموماً من أغنى القبائل بالأغنام ومن أكثرها صلة بالحياة الزراعية وذلك لاستيطانها في أغلب الفصول قرب القرى في المحافظات المختلفة التي حلّت في أراضيها. وتكاد تعد نحو عشرة آلاف بيت. أما ولاؤها القبلي فهو في الغالب للشعلان من عرب الرولة في الغوطة وللموالي في محافظة حماة.

ولد علي

وهناك قبيلة ولد علي وهي من ضنا مسلم من عنزة، وكانت من أسبق القبائل وفوداً إلى الديار الشامية وكانت تحت زعامة آل ابن سمير فلما توفي شيخها انشطرت إلى عشيرتين الواحدة بزعامة واحد من أهله والأخرى بزعامة سلطان الطيار وكان سلطان من المشهورين بين شيوخ البدو بالشجاعة والبطولة أيام الغزوات قبل الحرب الكبرى الأولى ولم يكن على علاقة طيبة مع شيخ الرولة نوري الشعلان ومن هنا فلم تكن عشيرته تتبع الرولة عند انتجاعهم إلى الحماد كالعشيرة الأخرى ـ وفقدت هذه القبيلة مع الزمن كثيراً من مكانتها وأصبحت من العشائر التابعة للرولة وتفرقت في كثير من أنحاء الجزيرة العربية في الشمال بحيث أصبح بعض أفخاذها من عرب نجد وآخرون من عرب العراق وفريق من عرب الشام. وحين عرض معجم القبائل العربية لذكرها جعلها تحت اسم علي

وهو خطأ فهي مشهورة بولد علي وذكر من أقسامها عشيراً يتجول في نجد ويدخل العراق وتقدر عدد بيوته بثمانمئة وآخر يتجول في شرقي الأردن والحجاز وثالثاً يلتحق بالحديديين ويعد مئة بيت ورابعاً يُعد خمسمئة بيت ويملك ٣٥٠٠ جملاً و ٦٠٠٠ شاة وقسمه إلى أفخاذ وذكر أن فرق ولد علي تلتحق في النجعة بالرولة حيثما ذهبت فتسير وراء ساقتها إلى جبل عنزة في الحماد أو إلى الجوف، أما في الصيف فيمكث أكثرهم في الجولان وأخيراً نقل عن عشائر الشام لوصفي زكريا أسماء أفخاذ ولد علي كما نقلها الأخير عن مصادر أخرى وفصيلة خامسة تعد ستين بيتاً وتقيم في منبج أحد أقضية حلب ويسير قسم منها في نجعته إلى جبل بشري(٢٦).

الحواشي :

(١) هؤلاء هم البدو الخُلّص، وهناك من يزعم أنه لا يكون العربي بدوياً إلاّ إذا كان من هؤلاء، وقلت بعض الخيل وذلك بالنسبة للإبل ولأحوال البدو في السنين الأخيرة ولكن الخيل كانت كثيرة في نفوذ الجزيرة في القرن التاسع عشر وقبله كما مرّ معنا في بحثنا عن الخيل بحيث زعموا أنها كانت تعدّ بالألوف.

(٢) مثل عودة أبو تايه الذي عرف ببطولته وشهر أيام الحرب الكبرى الأولى فهو من عرب الحويطات.

(٣) W.,M. Shanklin, «The Anthropology of The Rwala Bedouins» in **The Journal of the Royal Anthropological Institute,** Vol. LXV, July - December 1935, (London), p. 377.

(٤) Burckhardt I, 52 حيث يقول قد تسنى لي كطبيب أن أرى لون ذراعي إحدى نساء الشيوخ فكان أبيض مثل لون أي فتاة أوروبية جميلة.

(٥) W. Dostal, «The Evolution of Bedouin Life» in **Ancient Bedouin Society,** ed. Francesco Gabrieli (Roma, 1959), pp. 21 - 25.

(٦) العقد الفريد، ٣: ٤٠٨.

(٧) انظر العقد الفريد ٣: ٣١٢ وفي الحديث تعلّموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم.

(٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها، والمقدمة، ص ١٣٠.

(٩) المقدمة، ص ١٢٨.

(١٠) العقد الفريد، ٣: ٣١٢ - ٤١٧.

(١١) المصدر نفسه، ٣: ٣١٢.

(١٢) المقدمة ص ١٣٠.

(١٣) ديوان الحماسة. ١: ٣٤٣.

(١٤) الكامل للمبرّد، جزءان، تحقيق ويليم رايت William Wright، ليبزغ ١٨٦٤ - ١٨٩٢، ١: ٢٢٩.

(١٥) ص ١١٢ - ١١٤.

(١٦) معجم قبائل العرب، لعمر رضا كحاله، ٣ أجزاء، دمشق ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩، ١: ١٩ - ٢٠.

(١٧) المصدر نفسه، ٣: ٩١٠.

(١٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(١٩) **The Rwala Bedouin Today**

(٢٠) انظر Selah Merrill, **East of The Jordan** (London, 1881), p. 471

حيث يذكر أن عدد بيوتهم في ذلك التاريخ نحو ٣٠٠٠ أو أكثر.

(٢١) معجم قبائل العرب، ٣: ٩٣٢.

(٢٢) عشائر الشام، ١: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩. لقد أخطأ المؤلف حين جعل تاريخ زيارته ١٠٩٩ ولعلّه خطأ مطبعي.

(٢٤) معجم قبائل العرب، ٢: ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

(٢٥) المصدر نفسه في هامش ص ٦٣٤.

(٢٦) انظر معجم قبائل العرب، ٢: ٨١٣ ـ ٨١٤.

الفصل الحادي عشر

النظام القبلي

يسود البداوة نظام قبلي خاص، ومع أن صفة أرض الجزيرة العربية الطبيعية المحاطة بالبحار والرمال من جميع جهاتها إلا الشمال وهي تضم جنساً واحداً من البشر يتكلمون لغة واحدة تستدعي أن يتوحد سكانها كلهم معاً، فإن الواقع هو غير هذا، فقد كان هناك منذ القدم نزاع إقليمي بين الاقطار المختلفة، ولا يزال، ونزاع قبلي بين مختلف القبائل، وقد استمر هذا أيضاً، ومن هنا تعددت القبائل فيها والعشائر، وكثرت العداءات، وساد نظام خاص بين مختلف القبائل، فانحصرت الوحدة في القبيلة الواحدة، وأحياناً في العشيرة الواحدة المحجوزة في منطقة معينة واحدة لا تتجاوزها إلا مضطرة عند الانتجاع وراء الماء والكلأ إذا فقدا في منطقتها.

العائلة أساس النظام القبلي

وإن أساس النظام القبلي هو العائلة أو «الحمولة»، وغاية البدوي الكبرى أن يكون أباً لأبناء كثيرين يستطيع أن يقوى بهم ويعتز إذا كبروا بحيث يصبحون أسرة كبيرة هو ربُّها، ثم يتزوجون وتكبر الأسرة فيصبح الجد الأكبر رئيساً للأسرة، أو شيخاً لعشيرة صغيرة تنتمي إليه، وإذا استطاع بفضل كرمه وغناه وشجاعته في الحرب أن يكسب محبة أسر أخرى من أقربائه واحترام أفرادها أصبح شيخاً لعشيرة أكبر، ومن هنا فإن النظام القبلي عند البدو هو نظامهم السياسي ـ عرف منذ عرفت أعراب البادية ـ ينقسم فيه الشعب إلى قبائل، والقبيلة إلى عشائر، والعشيرة إلى بطون، والبطن إلى أفخاذ والفخذ إلى أسر حتى نصل إلى العائلة الواحدة وربها الواحد ـ أساس النظام القبلي.

ومع أن البدو لا يعرفون هذه التسميات التي ذكرنا من حيث البطون والأفخاذ

فإنهم ألفوا تقسيماً من هذا النوع. وتختلف الأسماء فيه باختلاف بعض القبائل، فهناك حمولة، وعشيرة، وبديدة، وقبيلة، وترى في أغلب الأحيان أن أفراد العشيرة الواحدة يعيشون معاً إذا كانوا قليلي العدد، في بقعة واحدة، يرتحلون معاً وينزلون معاً وينتجعون الماء والكلأ معاً، لهم شيخ واحد هو زعيمهم الذي يفزعون إليه عند الملمات، وقائدهم (عقيدهم) في الحروب والمغازي، وقاضيهم في كثير من الأحيان. وقد تكبر بعض القبائل وتلتف حول شيخ عظيم كما فعلت الرولة وأحلافها من قبائل عنزة حين أقرت بمشيخة نوري الشعلان أيام الحرب الكبرى الأولى.

عصبية النسب

وقد أوجب هذا النظام القبلي الخاص أن يرتبط أفراد القبيلة بعضهم ببعض برباط النسب الذي أشرنا إلى أثره في نفوسهم، ومن هنا هذه العصبية الشديدة للقبيلة، وهي عصبية فرضتها الحياة في البادية وأصبحت عندهم أساس المجتمع القبلي.

تتفرع القبيلة إلى عشائر، والعشيرة إلى بطون أو أفخاد أو بدائد كما يسميها بعضهم، حتى تصل إلى العائلة الواحدة كما ذكرنا وهي أساس المجتمع القبلي. فالبدوي يتعصب قبل كل شيء إلى عائلته، وهي صاحبة الحق الأول في ولائه وحبه، إنه لأبيه وإخوته إذا كان صغيراً، ثم لعمومته، وهو لأبنائه وإخوته إذا كان كبيراً، وبعد ولائه لعائلته يتعصب للعشيرة أو الفخذ الذي يضم أهله وعمومته وأنسباءهم، وأخيراً يتعصب للقبيلة التي تضم هؤلاء وأقرباءَهم.

وترتبط هذه العصبية أو هذا الولاء أشد الارتباط بصالح القبيلة ومنفعتها، وقد أصبح لها مدلول خلقي واجتماعي وسياسي وفلسفي، بحيث تركزت الحياة في البادية في جميع مناحيها على أسس قبلية، وتقيدت أكثر نظمهم الأخلاقية والأدبية والسياسية والاجتماعية بنظم هذه العصبية وما تفرضه على الفرد والمجتمع. وأصبح الاجتماع البدوي بكلمة مرتكزاً على النظام القبلي، وذابت إلى حد كبير في هذا النظام المصلحة الفردية وتحولت إلى مصلحة القبيلة ـ وترك للقبيلة أن تحقق للفرد مصلحته وحقه. وهكذا فإن القبيلة هي صاحبة الحقوق وعليها هي الواجبات، فإذا جنى أحدهم مثلاً على غريب وضع عشيرته أو قبيلته في موضع الجاني ـ سواء اشتركوا بالجرم أو لم يشتركوا ـ واضطرت القبيلة في مثل هذه الحالة إلى أن تتحمل المسؤولية فتدافع عنه أو تساعده في دفع الدية والغرامة. وإذا جنى أحد على فرد من القبيلة اعتبر كأن القبيلة كلها جُنِيَ عليها، وحق لها أن تهب لحفظ مكانتها والاقتصاص من المعتدين. ومتى كانت الجناية أو الجرم ضمن

القبيلة، كانت العشيرة التي جني على أحد أفرادها أو البطن أو الفخذ أو حتى العائلة هي التي تقوم بالدور نفسه بالنسبة لأفرادها، وحماية مصلحتهم ومصلحتها، ثم تسعى في الوقت نفسه للئم الجرح حتى لا تتفكك عُرى الوحدة القبلية.

وهكذا فإن هذه العصبية تتناول أولاً الولاء للعائلة، ثم للفخذ أو البطن، ثم العشيرة، ثم القبيلة. وقد تتعدى أحياناً القبيلة إلى حلف قبائل، ولكن لا يفرض الولاء في مثل هذه الحالة إلا المساعدة في حالة الحرب، أو الدفاع عن المراعي وموارد المياه.

وقد يجري أحياناً أن يحتمي بعض أفراد القبائل بقبيلة ويستجير بها، فيصبح عندئذ ولاؤه لها. وقد يستجير بفرد من أفرادها ويحميه هذا فيدين له ولأهله بالولاء دون قبيلته.

وكما أن القبيلة مسؤولة بوجه عام عن أفرادها، كذلك فإن العائلة هي مسؤولة بوجه خاص عن أبنائها، وربّ البيت هو المسؤول الأول، وهو المرجع الأعلى، وقد نشأ الأبناء في هذا النظام على التقاليد التي ورثوها من آبائهم، فهم مقلدون لهم وتفرض عليهم هذه التقاليد الاحترام لرب العائلة الذي يبلغ من المكانة في بعض القبائل أن تكون له السلطة التامة على أولاده بحيث لا يُسْأَل حتى إذا قتل واحداً منهم. وترى البدو بوجه عام يحترمون الأبوة ويقدسونها، ويجلّون الشيخوخة ويطيعون كبارهم.

منازل القبيلة (في هذا النظام)

لكل قبيلة من القبائل الكبرى في المجتمع البدوي منازل تعرف لها فلا تتعداها وإذا فعلت فقد تعرضت للقتال. وهذه المنازل قد اكتسبتها بحكم القوة وتحتفظ بها بحكم القوة، ومتى ضعفت شاركتها فيها قبيلة أقوى منها، ومن يدرس تاريخ نزوح القبائل البدوية إلى بادية الشام وبلوغ بعضها المناطق الزراعية يَرَ كيف انتزعت حقوق بعض القبائل في كثير من هذه المنازل واستولت عليها قبائل أخرى، فمنازل الموالي اليوم مثلاً لم تكن لهم من قبل، وكذلك منازل الحسنة، وكذلك منازل الرولة وهلم جرًّا. ولكن الذي يهمنا هنا أن نشير إلى أن البدو في الخمسين سنة الأخيرة على الأقل يتنقلون في أراض معروفة، وتكاد تكون محدودة، ولهم الحق في أن ينزلوا في أي بقعة فيها ليست ملكاً خاصاً لأحد ما. وبالطبع أكثر هذه البقاع هي في البوادي وإذا نزلوا في أراضي المعمورة فلا ينزلون في الأراضي الزراعية إلا برضى أصحابها وذلك إلى وقت محدود.

ومضاربهم حين ينزلون تكون في الأغلب صفوفاً كل صف يبعد عن الآخر نحو ستين متراً، ليكون هناك مجال لأطناب الخيام وممر للإبل بينها. وقد يبلغ المخيّم الواحد أحياناً نحو ثلاثمئة خيمة إذا كانت المياه تحمل مثل هذا العدد وكانت القبيلة بمثل هذه

الكثرة. وتتجه الخيام في الأغلب إلى الشرق مواجهة الشمس عند الرولة وعند الكثيرين من حلفائهم، ولكن هناك قبائل من عنزة توجه خيامها إلى الشمال.

أما في البادية فيندر أن ترى ازدحاماً كما نرى حين ينزل البدو قرب القرى في المعمورة. والأغلب أن ينزل كل فريق في بقعة. ويتألف الفريق من عائلات متقاربة في النسب، إذ من المألوف أن العائلة إذا كبرت بعدد أبنائها أخذ الأبناء يسكنون - حين ينشئون بيوتاً جديدة - قرب أهلهم في بيوت خاصة لهم في الصف نفسه، وتكون أسرة أخرى متعددة في صف آخر وهكذا حتى يكون في الفريق ستة أو سبعة صفوف أو أكثر تبعاً لحجم القبيلة.

وإذا استجار أحد بشيخ القبيلة أو بأحد أفرادها واضطر إلى أن يعيش بينهم حقبة من الزمن فإنه يطلب أن يبني خيمته قرب خيمة المجير، ويصبح جاراً له، والجار يسمى بلغة البدو قصيراً، فيقول عن نفسه: أنا قصير الشيخ فلان مثلاً.

ربّ البيت

فربُّ البيت إذن هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، وهو الأمر الناهي، وعلى الجميع إطاعته، وكان قديماً هو الذي يغزو ويكسب لاهله - وكانت مكانته تزداد بالنسبة إلى قوته وشجاعته وكرمه ونسبه. وكان على أهل البيت أن ينفذوا إرادته، وهذا لا يعني أن ربّ العائلة يحكم مستبداً، أو دون أخذ رأي أهله، فالواقع أنه إذا كانت زوجته ذات رأي استشارها في أكثر الأمور التي تصدر عنه، وكذلك إذا بلغ أولاده سن الرشد وأصبحوا رجالاً فإنهم قد يشاركونه في كثير من القرارات التي يتخذها، ولكن العرف العام أن الكلمة الأخيرة هي للكبير في العائلة إذا كان لا يزال راشداً. وهو صاحب الكلمة في تربية الصبية من أولاده فإذا قام أحدهم بأمر لا يليق فإن والده يوبخه وقلما يضربه وخاصة حين يصبح الصبي فوق العاشرة من العمر أو حين يكون أبو الصبي عجوزاً ويحتاج في أعوامه المقبلة إلى من يُعيله أو يساعده في شيخوخته.

وإذا أراد أهل القبيل الانتقال من مكان إلى مكان انتجاعاً للماء والكلأ، أو خوفاً من غازٍ قوي، اجتمعوا عند شيخهم وتشاوروا، فإذا قرروا الرحلة عينوا يوماً لها، وهنا يُنذِرُ صاحب كل بيت أهلَ بيته في أن يكونوا على استعداد للرحيل، حتى إذا دنا اليوم المعين راقبوا في صبحه خيمة الشيخ، فإذا رأوا أن أهلها بدأوا يُقَوِّضونها للرحيل أخذ أهل القبيل كلهم يقوِّضون خيامهم.



مضرب خيام قرب الناطف المعمورة

وإذا بلغوا الأرض التي سينزلونها انتظروا حتى يعين الشيخ موضع منزله، ثم انتشروا حوله، وعيّن كل ربّ بيت موضع منزله.

ربة البيت

المرأة في البيت البدوي هي صاحبة الأمر من الوجهة العملية، فهي أولاً الشخص الذي يوكل إليه أمر بناء الخيمة، فالرجل يعيّن الموضع وهي تباشر العمل وتنفذه مستقلة أحياناً هي وبناتها، وبمساعدة الراعي أو الأبناء أحياناً أخرى. تدق الأوتاد، وتربط إليها الأطناب، ثم تنشر الخيمة وترفعها على العمد، وهي التي تقوّضها حين يرتحل القوم، وهي التي تخيط الشقاق معاً لتصبح خيمة. ومن واجباتها كذلك أن تجمع الحطب من رجيع (زبل) الإبل وغيره، وتهيّىء الطعام، وتقوم بما تتطلبه خدمة البيت من نسج قماش للرواق، أو حياكة أكياس للمؤن، حين يعجز رب البيت عن المال لشرائها. وكثيراً ما تسير مع الإبل لتوريدها إذا لم يكن لرب البيت راع لإبله. تملأ الأسقية ماء من الغدران، أو الخبرات، أو العيون إذا نزلوا قرب العيون، وتحملها على ظهرها إلى الخيمة. وهي تدبغ الجلد لتصنع منها قربة، وتسحق قشر الرمان للدباغة. ولكنها برغم هذا كله لا تكلف القيام بأعمال جسيمة شاقة كبعض أخواتها القرويات، إلاّ في حمل الماء فبعضهن يحملن قِرَباً من الماء يصعب على القرويات أن يحملن مثلها. كذلك يجب القول أنها في أول عهدها زوجاً لا يرى البدوي بأساً في أن يساعدها في كثير من الأمور المطلوبة منها كنصب البيت وغيره وخاصة حين يكون في قلبه حبّ لها وتعلّق بها. فقد يندفع في بعض الحالات إلى اقتلاع الحطب من شيح وغيره هو بنفسه وحمله إلى البيت تخفيفاً عنها.

أما حقوقها فقليلة أهمها أنها تستطيع استقبال الضيف بغياب زوجها وتُعْتبر كربِّ البيت في غيابه. كذلك هي التي تسمي أولادها فهذا حق من حقوقها وحدها إلا فيما ندر، وهي في الغالب تختار الاسم الذي يوافق الظرف الذي ولد فيه ولدها، فتسميه سهلاً أن كان ولادتها سهلة، أو سُهيلاً إن كان نجم سهيل طالعاً، أو مطراً إن كانت السماء ممطرة، أو زعلاً إن كانت مغاضبة لزوجها، وهي بهذا تتفق مع تقليد التوراة في العهود الأولى حيث نرى أكثر الأسماء قد وضعت تبعاً للمناسبة التي حدثت الولادة فيها.

ومتى حان وقت البدوية للوضع لم يستدعِ بعلها قابلة ويكفي أن تكون قربها إحدى جاراتها أو قريباتها، كذلك إذا كانت القبيلة ظاعنة وأحست البدوية بألم المخاض ودُنو الوضع أوعزت إلى إحدى قريباتها أن تبقى معها، فَتُخَلَّفان مع رَحْلَيْهما عن الظعن برهة من الزمن حتى تضع المرأة ولدها فتساعدها قريبتها ثم ترتحلان وراء الظعن وتلحقان به، وقد يجري أن تكون المرأة ظاعنة وحدها مع زوجها وأولادها، وليس معهم من يساعدها



طريقة حمل البدويات أولادهن على ظهورهن

حين يأتيها المخاض، فتقوم وحدها بكل ما يلزمها في مثل هذه الحالة وتربط سرّة الطفل بنفسها ثم تركب رحلها وتسير معهم.

وأكثر البدويات يحملن أولادهن على ظهورهن حين يكن سائرات. وتهيىء البدوية شيئاً مثل الكيس له طرفان تربطهما تحت عنقها حتى لا يفلت الكيس ويقع الطفل.

الزواج

وتيسّر حياة البداوة للمرأة الاختلاط بالرجل، فهي ليست منعزلة كأختها الحضرية في المدينة، حتى ولا كالكثيرات من أخواتها القرويات، وهي لهذا تعرف أكثر رجال العشيرة الذين يعيشون معها إن كانت العشيرة تعيش في مضرب واحد، لأنهم ينتقلون

معاً، وينزلون معاً، ويترددون إلى سوق البدو معاً. وربما يصدق هذا على عرب الشمال أكثر مما يصدق على بعض عرب الجنوب.

أما في الزواج فإن لابن العم الحق الأول بالاقتران بابنة عمة. فإذا لم تكن له رغبة أو لأحد من إخوته في الزواج منها أصبحت طليقة من هذا القيد، وعليه أن يصرح أنه تخلى عن حقه لكي تصبح لها الحرية في الزواج بمن ترغب. وإذا كانت لا ترغب في الزواج من ابن عمها، أو كانت قد وقعت في حب فتى آخر فإنها تسأل ابن عمها أن يتخلى عن حقّه. وقد يفعل ذلك، وخاصة إذا كان لا يرغب فيها أو عرض عليه هدية من الراغب الذي يطلب يدها. وإذا لم يَرْضَ فإنها لن تستطيع الزواج ممن تحب إلاّ إذا هربت معه. وفي هذه الحالة تنقطع صلتها بعشيرتها حين يمكن لابن عمها أن يقتصّ منها إذا شاء.

وفيما عدا حق ابن عمها فإنها في الغالب حرة في أن تحب وتتزوج من تشاء، ومن هنا فإن أكثر الزيجات عند البدو هي زيجات حب حتى بين أولاد العم، يتفاهم قبلها الشاب والفتاة. وقد ذكر جلوب في مقدمة كتابه عن البادية[1] عن شخص يعرفه تزوج من فتاة بعد حب دام ثمانية أعوام، وهو أمر يكاد يكون غير مألوف من حيث طول مدى الانتظار في القرى والمدن. وقد كان أهلها يمانعون طيلة هذه المدة، ولكنهم لم يستطيعوا أخيراً أن يغيروا رأيها.

وتختلف المهور بالنسبة للقبائل، وبالنسبة لأهل العروس وأهل العريس، ولكنها عند عرب الشمال عموماً ليست غالية، وأحياناً لا تعيَّن بل تترك لشيمة العريس ومكانته. ومن عاداتهم أن يهدي العريس لأهل العروس جملاً يحفظ لها في الغالب حتى إذا عادت إلى أهلها مطلقة كان لها. أما هذه المهور التي تبلغ عشرات الإبل أو مئة ليرة ذهبية كما زعم البعض فليس لها أثر اليوم.

والطلاق من حق الرجل فقط. وليس له حق أن يهينها أو يعذبها، فإذا لم يرض عنها أو عن خلقها طلّقها، وقد يعاب إذا كان يضربها، كما أنه يجوز لها أن تترك بيت زوجها إذا كان يعذبها، وترجع إلى بيت أهلها، إلى أن يتراضيا، أو يطلقها، وإلا فلا يجوز لها أن تتزوج من غيره.

ولا يعرف البدو تعدد الزوجات على نطاق واسع وذلك لفقرهم، غير أن هناك كثيرين يجمعون بين امرأتين. وفي كثير من الأحيان تترمّل المرأة فتتزوج من آخر بعده، وتكون ضرة لأخرى، ومهما يكن من أمر تعدد الزوجات والطلاق، وخاصة عند الشيوخ الأغنياء من أبناء الأسر المعروفة، فالشائع أن المرأة الأولى وهي في كثير من الأحيان قريبته

لا تطلّق بمثل السهولة التي تطلق بها النساء الأخريات، بل تـظل هي السيدة الأولى في البيت، وتكون الزعامة لابنها الأكبر.

وهناك بعض العشائر التي تفتخر بكـرم نسبها، فـلا تزوج بنـاتها من أبنـاء قبيلة أخرى. وقد ضمني الطريق مرة وأنا في البادية مع بدوي اسمه سالم المناحي من عـرب الغشوم، وأخذنا في الحديث عن العشائر، فزعم أن عشيرته وهي لا تعد أكثر من عشرين بيتاً تمنع بناتها من الزواج من أبناء أي قبيلة أخرى إلاّ إذا ترمّلن أو طلقن. وذكر لي أن مهر الفتاة يدفع للوالد، وإذا حدث وطلب الوالد مهراً أكثر مما يحوز الراغب في الفتاة، فمن الأفضل للراغب أن يأخذ كل نياقه وينيخهـا أمام بيت العـروس تاركـاً لأهلها أن يختاروا ما يشاؤون منها. ثم قال إنهم في هذه الحالة يفرض العرف عليهم أن يعدلوا في أخذهم فلا يأخذوا عدداً كبيراً منها لأنه دلّ بعمله على أنه شريف وكريم. وذكر لي أنه إذا طال العهد على الفتاة ولم تزوج جمع أبوها أبناء عمها الأقربين والأبعدين، وأخطرهم إن كان لأي منهم رغبة بها وإلا فهي حرة في أن تتزوج بمن تشاء غيرهم. وزعم أن هناك من تزوج بسبع من بنات عمه ذلك أنه يتزوج الواحدة ثم يطلقها ويتزوج الأخـرى وهكذا بالتتابع. ولا تتقيد المطلقة بالشريعة الاسلاميـة عند بعض البـدو من حيث عدتهـا بعد الطلاق، فمنهن من تزوجت وهي حبلى ولا يرون في ذلك بأساً. أما إذا لم تكن حبلى فإن طلقت فإن عرب الرولة يفرضون أن تنتظر على الأقل ستة أشهر ـ عدّتها ـ فإذا ظهر أنها غير حامل فعندها يحق لها الزواج من رجل آخر[٢]. ويحق للمطلقة أن تأخذ معها كل ما تملك في البيت من فرش وثياب وتعود إلى أهلها. وعند وصولها بيت أهلها تصبح طالقـة وتصبح في حمى والدها أو أخيها الأكبر إن كانت يتيمة الأب، أو في حمى أقرب نسيب لها إن لم يكن لها أهل. ويجوز للزوج عند عرب الرولة أن يجعل طلاقها تهجيراً يشترط فيه ألاّ تتزوج من رجل خاص يعيّنه، هذا إذا كان لم يستردّ الثمن الذي يكون دفعه لأهلها[٣].

أما فيما يتعلق بـأولاد المطلقـة فيظلون معهـا حتى السابعـة وبعدهـا للزوج الحق باسترجاعهم وهذا ما يتم في أغلب الأحيان.

الصبية والبنات

تستخدم الأم بناتها وتعلمهن شؤون المنزل أي الخيمة، فيساعدنها في ملء الأسقية ماء وحملها إلى البيت، وفي جمع الحطب، والقيـام بشؤون المنزل الأخـرى. وفي مجالس النساء تتعلم الفتيات عند البدو من أمهاتهن كثيراً عن مجتمعهن وحياتهن في المستقبل حين يصبحن بدورهن ربات بيوت.



فتاة تحمل قربة ماء

أما الصبية فيترددون حين يكبرون إلى مجالس الرجال، حيث يستمعون إلى أحاديث الرجال، ويكلفون في الوقت نفسه ببعض الأمور المنزلية كالالتفات إلى الخيل وسقيها حين يكون موعد شربها، أو أخذها إلى العين أو الغدير حين ينزلون قربها.

وقبل أن أخذت الحكومات تحول بين البدو والغزو كان الصبية يكلفون أحياناً في أن يتمرنوا على الرماية، وكان ينتظر من الصبي متى بلغ الرابعة عشرة أن يختبر الغزو، وبعد السادسة عشرة يصبح بإمكانه أن يساهم مع الكبار في الغزو إذا كان يرغب في ذلك أو إذا كان أظهر مقدرة خاصة حين امتحن في غزوته الأولى. وقد رأيت بالفعل مرة فريقاً من الغزاة بينهم ثلاثة أخوة منهم واحد لم يبلغ الخامسة عشرة. وقد جرى اصطدام بين هؤلاء وجند الحكومة فجرح أحد الإخوة وقتلت هجين الصغير وأخذ أسيراً وسجن.

القضاء عند البدو

وليس للبدوي شريعة مكتوبة يسير بموجبها، ولا قانون مدون يرجع إليه، ولا هو يعترف بهذه الشرائع المكتوبة ـ الديني منها والمدني ـ إلا إذا كانت تتفق مع شريعته غير

المكتوبة، وهي شريعة العرف والعادة، التي جرى عليها منذ ألف البداوة. ولحسن حظه أن الاسلام نشأ في بيئة تعرف البداوة وتتصل بها اتصالاً وثيقاً فأقّر كثيراً من نظمها وعاداتها.

والبدوي يحترم هذه الشريعة غير المكتوبة أجل احترام، ويتقيد بما تفرضه عليه من نظم أقرتها حياة البادية وعادات أهلها وأخلاقهم، ومن هنا فهو لا يحيد عن العرف وإذا حاد ردّه القضاء النزيه إلى السبيل القويم، وإلا فإن قبيلته مضطرة إلى أن تتحمل عنه ما يفرضه عليه العرف المألوف.

والقضاة عند البدو قوم نزهاء في الغالب وقلما يخطئون، وإذا اخطأوا رجعوا عن خطأهم إذا أرشدوا إلى الطريق الصحيح، وترى القاضي أحياناً يسمح للمعترض باستئناف دعواه، وقد شهدت بعض مجالس قضائهم فإذا هي على غاية ما يكون من احترام للقضاء، ومن احترام لرأي كل من المتقاضين إذا كان هناك ما يؤيد هذا الرأي. وقد أخبرني بعضهم أن أحد المتقاضين مرة اعترض على حكم القاضي فأجابه: هذا يا أخي هو حكمي في هذه القضية فإذا أتيتني بسابقة تخالف هذا الحكم وشهود يؤيدونك في أن قاضياً ما حكم بخلاف ما أحكم في مثل هذه الحالة، عدت عن رأيي وحكمت بما يوافق الحكم السابق.

حتى أهل القرى والحواضر التي تحيط بالبادية يحترمون القضاء البدوي ويقدرون القضاة البداة، بل إنهم يزعمون أن القضاء البدوي أنزه قضاء وأعدل قضاء.

وليست شريعة العرف والعادة قاسية كالشرائع التي نألفها عند بعض الأمم البدائية القديمة، أو عند بعض الأمم الراقية الحديثة. فالقتل مثلاً لا يحكم على مرتكبه بالقتل، ولكن يحكم عليه وعلى ذويه بدفع الدية وهي عظيمة، والسرقة لا يحكم على صاحبها بقطع اليد، كما تنص الشريعة الإسلامية، ولكن بردّ المسروق وتغريم السارق، وليست العين بالعين أو السن بالسن كالشريعة الموسوية، ولكن بدفع دية (ثمن) للعين بدل العين وللسن بدل السن وهلم جرّا. على أنه في حالة القتل يحق لقريب المقتول في ثورة الدم أن ينتقِمَ لقريبه من القاتل أو من ذويه، أو أن يعقر حلال القاتل أو حلال أهله من خيل وإبل طيلة الأيام الثلاثة الأولى وثلث الرابع بعد الجرم. ويعود هؤلاء بدورهم فينتقمون، ومن هنا هذه الحزازات الدائمة بالنفوس وهذه الثارات التي يؤخذ بها، وهذه الحروب المتواصلة بين القبائل منذ وجدت، وهذه النزعات للانتقام في سبيل الشرف والمكانة وقديماً قال الشاعر: زفر ابن الحارث الكلابي

«وقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وتَبْقَىْ حَزازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيا»[٤]

والمهم في القضاء أن يأتي المدعي بالبينة أو الشهود، فإذا لم يكن هناك بينة أو شهود وكان المتهم لا يزال مصراً على الإنكار كلفه القاضي أن يحلف اليمين، وهذه القاعدة تتفق مع الشريعة الاسلامية التي ربما قامت على عادة بدوية قبل الإسلام وهي «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ولهم في أيمانهم تعابير خاصة يقسمون بها أحياناً وهم يخططون على الأرض بعصاً حين يتلونها. وكان يعمد القاضي أحياناً في بعض الأمور الجليلة الهامة إلى البشعة ولا سيما إذا طلبها المدعي حين تنقصه البينة والشهود، وذلك أن المتهم يُسْتَدْعَى فإذا أنكر عُرِضَ عليه أن يُبْشَع، والبشعة هي أن يُؤتى بالمدعي والمدعى عليه إلى خيمة القاضي، فيعمد هذا إلى النار التي بين يديه في فناء الخيمة، فيدس فيها آلة من حديد كَيَدِ المحماص العربي التي تقلب بها القهوة عند تحميصها أو هي اليد نفسها. وهي كناية عن قضيب من حديد بطول الذراع، آخره مستدير رقيق غير مجوف، ويبقى طرف هذه الآلة في النار حتى تحمى أو تحمر قليلاً فإذا حميت أشار إلى المتهم أن يفتح فَاهُ ويمد لسانه لكي يلمسه بها ـ يَبْشَعَهُ ـ فإذا لم تؤثر بلسانه كان بريئاً وإلا فهو مجرم. وإذا ظهر أنه بريء وأعلن القاضي ذلك، عمدت فتاة من جانب الخيمة فزغردت إعلاناً بذلك، وأخذت مكافأتها من المتهم. ودفع المدعي رسم الحكم. والظاهر في مثل هذه الحالة أن القاضي يستعين بعلم الفراسة وعلم النفس، ويبني حكمه على ما يستنتجه من تصرفات المتهم وسلوكه تجاه هذه المؤثرات، وطمأنينته إذا كان بريئاً بحيث لا يظهر عليه الخوف، ولا ييبس فمه أو يجف ريقه، فلا تؤثر اللذعة السريعة بلسانه. وإذا كان بالفعل مجرماً فمن الطبيعي أن يخاف وينشف ريقه ويظهر على وجهه الوجل، وتؤثر الحديدة المحمية بلسانه، ويحكم عليه. ولا بدّ لنا من الاشارة مرة ثانية إلى أن البشعة كانت لا تجري عند المحاكمة إلا في حالات نادرة. وقد منعتها الحكومات العربية حيث استطاعت. ولا داعي لإطالة البحث في هذا الموضوع فقد كتب عنه الكثيرون[٥].

المشيخة عند البدو

ليس من المحتم أن تكون المشيخة وراثية يأخذها الابن عن أبيه أو عمه مع أنها في الغالب كذلك، بل المألوف أن يهيىء الشيخ الأمر ويعد من سيخلفه من أهله ويكون غالباً من أبنائه، وإذا كانوا صغاراً فمن إخوته، وقد دعا اختلاف الورثة أحياناً إلى الخصام والنزاع على المشيخة وانشقاق القبيلة، وفي الغالب تميل القبيلة مع القوي لاسيما إذا كان يتحلى بصفات كريمة.

ومن هنا فإنه ينتظر من الشيخ ان يكون كريماً حين يقصده الناس ويحلون في رحابه، وفارساً حين يغزو أو يدافع عن حياضه، وسريع النخوة حين يستنجد وتطلب حمايته، فإذا حاز هذه الصفات حق له أن يرشح نفسه للمشيخة، بل قد تبدو منه بعض هذه البوادر وهو صغير فيشجع عليها، ويلتفت إليه قبل غيره ويؤثره أهله جميعاً على غيره للمشيخة.

وقديماً لم يكن الشيخ مسؤولاً لدى أحد من قبيلته، فهو الحاكم الشرعي حتى تتخلى عنه قبيلته، أما الآن فقد ألغيت أكثر صلاحياته وصارت بيد الدولة التي تعيش القبيلة في أراضيها. وقد أخذت الدول العربية المختلفة منذ أصبحت مستقلة تسن قوانين للعشائر تتفق إلى حد مع حياة البدو وعاداتهم. بل إن كثيراً من الدول العربية أنشأت دائرة خاصة تعرف بدائرة مصلحة العشائر للنظر في أمرو البدو وشؤونهم بحيث إذا ارتكب أحدهم جرماً مثلاً وهو في المدن أو القرى حوكم بخلاف ما يحاكم به لو كان في البادية.

وليس من شك في أنه يصعب حمل البدو على الخضوع لنظم المدنية وقوانينها قبل حملهم على التحضر وسلوك حياة الحضريين.

النجعة وراء الماء والكلأ

أن من شروط البداوة التنقل. وليس هذا التنقل هواية أو عادة، ولكنه أمر فرضته حياة البادية. ذلك أن الماء أولاً يكون في بعض الغدران أو الخبرات، فلا يكاد ينزل عنده قبيل ويردونه حتى ينقطع ويجف الغدير أو تجف الخبرة، ويضطر أهل القبيل إلى النجعة إلى مكان آخر فيه مياه. كذلك قد يكون في البقعة التي تحيط بمضاربهم لمسافة بضعة كيلومترات مراع تكفي إبلهم بضعة أيام، فإذا انقضت هذه الأيام أتت الإبل على النبت الذي فيها، واضطر البدوي إلى أن يطلب المراعي لإبله في مواضع أخرى. وهذا وحده يفسر ارتحال البدو من موضع إلى موضع في البادية. والواقع أن النبت قليل متفرق فلا يكاد ينزل فريق من البدو في بقعة حتى ترعى الإبل هذا النبت فينتقلون إلى مراع أخرى. وقد تمر سنوات متتابعة يكاد ينعدم فيها المطر فلا نرى أثراً للخضرة في أكثر بقاع البادية. وتعيش إبل البدو في هذه الحال على بقايا القليل من النبات اليابس المتخلف من السنين السالفة، وتهزل فيموت كثيراً منها. وقد تضطر القبيلة إذا انقطع الكلأ في مراعيها إلى أن ترتحل إلى أراض بعيدة عن الأراضي التي تخصها، أو تألف النزول بها، وفي مثل هذه الحالة كانت في الأزمان السابقة للحرب الكبرى الأولى تغزو الأراضي التي تجد فيها



البدو عند انتجاعهم حدود الأراضي المعمورة في أوائل الصيف

مراعي فتشارك أهلها أو تجليهم عنها وتحلها، أما في السنين الخمسين الأخيرة فصار لا بدّ لها أن تستأذن القبائل الأخرى في النزوح إلى ديارها. وقد تكون منازل القبيلة الثانية في دولة مجاورة فيكلف رجال القبيلة دولتهم أن تستأذن الدولة الأخرى للانتقال إلى أراضيها كما ذكرت.

ولا يبقى البدوي عموماً في بقعة واحدة زمناً طويلاً حتى في مواسم المطر والخصب وفي الأراضي الممرعة، فإن الإبل قد تفسد المرعى إذا كان مجالها محدوداً فينتقل البدوي إلى أرض أخرى تكون بكراً من حيث المرعى، ويستمر في التنقل من بقعة إلى أخرى.

أما النجعة الكبرى إن جاز لنا هذا التعبير فهي في مواسم الشتاء والصيف، فترى البدو بوجه عام يتركون البادية في الصيف عند اشتداد الحر وانقطاع المياه ويقصدون العمران - أو الأراضي المجاورة للمعمورة، فيقضون فيها كل فصل الصيف، وينتظرون حتى تسقط الأمطار في موسم الخريف وتمتلىء بعض الغدران والخبرات في البادية فيأخذون في العودة إليها. ولكل قبيلة ديرة أو مناطق معروفة يتنقلون بين أرجائها طيلة

موسم الشتاء والربيع حتى تجف المياه فيقصدون الأراضي المجاورة للمناطق المعمـورة، والواحات التي على حدود البادية. ويجب أن لا يتصور المرء أنه كلما أوغل في قلب البادية انتهى إلى أراض أكثر قحطاً ورمالاً وأقل كـلأ وماء، فـأرض نجد تكـاد تكون في قلب الجزيرة العربية وهي من أغنى البقاع بالماء، وفي واحات الاحساء نبع يكاد يضارع أغنى الينابيع في لبنان. وقد شاهدت عين أمّ سبع في الهفوف وقد تفرع منها سبع أقنية كل قناة منها تغرق الغلام الصغير الذي لا يعرف السباحة. وفي أرض النفود مثلاً على كثرة رمالها من النبت ما يجعلها في رأي بعض الرواد أحسن البقاع لتربية الخيول ـ وقد قال كيرنان نقلاً عن ولفرد بلنت أنه حين زار منطقة النفود ورأى ما فيها من نبات انحـل له أخيـراً اللغز في كيف تعيش الخيل في قلب الجزيرة العربية(٦).

ومهما يكن من أمر فإن القبيلة عند تقريرها على انتجاع أرض جديدة لا تنتقل اليها قبل التأكد أن الماء والكلأ فيها خير مما هما في الأرض التي يحلونها ، ولهذا فترى الشيوخ ترسل رواداً قبل الانتجاع يرتادون لها الأرض. وكثيراً ما تستعين القبائل الكبرى بالصلبة حين تكون النجعة إلى أرض بعيدة فيأتونها بالأخبار عنها وعن كلأها ومائها.



العودة إلى البادية في أول الشتاء.

الحواشي:

(١) John Bagot Glubb, **Handbook of the Nomad, Semi - nomad, Semi - sedentary and Sedentary Tribes of Syria,** British Ninth Army, 1942, p. XII.

(٢) **Manners and Customs,** p. 236.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٤) الأغاني (بولاق)، ٧: ١٧٦.

(٥) انظر كتاب القضاء بين البدو للسيد عارف العارف، القدس ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٣، وكتاب البادية لعبد الجبار الراوي، بغداد ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩، ص ٢٧٧ ـ ٣٠٢، وكتاب القضاء البدوي للسيد عودة القسوس، عمان ١٩٣٦. وانظر أيضاً:

M. J. L. Hardy, **Blood Feuds and the Payment of Blood Money in the Middle East** (Beirut, 1963), pp. 82 - 97.

(٦) انظر كيرنان، ص ٢٨١.

الفصل الثاني عشر

أخلاق البدوي وصفاته

ليس أعسر من أن تحدد بالضبط مميزات قوم من الأقوام وتصف أخلاقهم بالدقة التي يقتضيها البحث العلمي. وقد يضيع الباحث عن أخلاق البدوي العربي إذا جعل جلّ اعتماده على أقوال بعض الذين درسوا أخلاقه من عرب وروّاد فرنجة، إذ أن بعضهم في كلّ من الفريقين يختلفون عن بعضهم الآخر في كثير مما يصفون. ومهما يكن من أمر فسأحاول أن أذكر ما استطعت أن أرتاح اليه من وصف أبرز ما في صفات البدوي بوجه عام، وبخاصّة ما كان له من أثر في حياة أهل الحضر اليوم.

البدوي عموماً هادىء الطبع والأعصاب بخلاف ما يزعم بعض الرحّالة من الفرنجة، وبرغم ما يبدو من سرعة تأثّره إذا اندفع إلى المطالبة والأخذ بالثار من معتد عليه كما سنرى في الحفاظ على شرف عائلته ومكانتها. ولعلّ جوّ البادية علّمه الصبر واحتمال المشقّات، بل لعلّه تعلّم الصبر من الجمل الذي اقترنت حياته به وأخذ يعيش على لبنه. فقد ضرب بصبر الجمل المثل حيث كان من الحيوانات القليلة التي تتحمّل العيش في البادية أيّاماً طوالاً دون ماء. وحين نعت الصبر بأعظم وصف في اللغة العربية كانت الكلمة التي وصف بها مشتقة من اسم الجمل، كما مرّ معنا في باب «الجمل»، وهي «الجمال»، فقيل: «صبر جميل». وشدّد الإسلام على الصبر وحثّ عليه القرآن في أكثر من مئة موضع وقرنه بكل ما هو خير وصالح وعزيز فجاء فيه: في سورة البقرة(٢): ١٥٣ ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾. وجاء في سورة آل عمران (٣): ٢٠٠ ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾. وجاء في سورة المعارج (٧٠): ٥ ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾. وفي سورة يوسف (١٢): ١٨ و٨٣ ﴿ قال بل

سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ وفي سورة النحل (١٦): ١٢٦ ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾. وراقت العرب هذه الصفة في نفس الانسان الصالح فسمّوا الأولاد باسم صابر كما هو شائع بين البدو والحضر.

وقد شاهدت مرّة أحد البدو من الغزاة وقد سقط جريحاً من رصاصة أصابته في قدمه ونفذت وقتلت ناقته، فتماوت، ثم نهض ليلاً فغطّى جرحه بالرماد وعصّبه، وتحامل على نفسه صابراً، وسار ليلاً ثلاثة أيام على قدم واحدة وهو يجرّ الأخرى دون ماء أو طعام حتّى بلغ القرية التي كانت تبعد عن الموعد الذي سقط فيه نحو عشرة كيلومترات. إنه الصمود أمام المحنة بصبر وعناد. ولعلّ البدوي لو لم يكن هادئاً صبوراً شديداً على احتمال الأذى لما استطاع أن يقنع بهذا العيش الذي يعيشه، بل قد بلغ ببعض الروّاد من الفرنجة أن وصف البدوي لهذا بشيء من البلادة من حيث الاحساس والهياج العصبي[١]. وهو في الوقت نفسه حاد الذهن سريع الخاطر ولا سيّما في الأمور البدهية، وقد شهدت مرة امرأة بدوية في سيارة نقل كبيرة مع ركاب قرويين أخذوا يهزأون بها وبالبدو، فردّت عليهم على البديهة بعبارة واحدة محكمة بالغة في معناها وبليغة في تركيبها أفحمتهم وأسكتتهم جميعاً. والبدوي أيضاً ساذج بسيط ينساق بسليقته أحياناً فيصدّق الخرافات والأساطير التي تروى له، وكثيراً ما يتلوّن لضعفه بتلوّن الظروف فهو معك اليوم ومع غيرك غداً إذا أدرك أن تعلّقه مع غيرك أنفع له.

وهو مغامر شجاع نشأ على حبّ السلب والنهب والقيام بالغارات في سبيل ذلك. ومن طبيعة البداوة أن تنشىء في المرء الشجاعة. وقد زعم ابن خلدون في مقدمته أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر[٢]. ولعلّ الحرمان والحاجة هما اللذان دفعاه أول الأمر إلى ذلك، فليس في البادية ما يحقق له العيش الغنيّ، وخاصة إذا توالت سنون تنقطع فيها الأمطار، ويعمّ القحط والجدب في الأرض وتموت ماشيته التي يعيش عليها فيجنح إلى الغزو مغامراً وينطلق إلى المناطق التي يمكن له أن يسطو فيها على ماشية لغيره. وقد تمكن حبّ الغزو في نفسه حتّى أصبح شبه هواية عنده يمارسها وهي في الوقت نفسه مورد من موارد رزقه. وهو ينهب من الأقوام الأخرى التي تنتمي إلى غير قبيلته فإذا لم يجد أغار على عشيرة من عشائر قبيلته. وقديماً قال شاعر بدوي يصف حبّ أهله للغزو وغارة خيلهم على القبائل ومنها أهل أخيه إذا ما لم تجد سوى أهل أخيه:

أَغَرْنَ من الضِّبابِ عَلى حلولٍ ... وضَبَّـةَ إِنَّـهُ مَنْ حـانَ حَـانَـا
وأَحْيـانـاً عـلى بَكْـرٍ أَخِينـا ... إذا مـا لم نَـجِـدْ إِلاَّ أَخـانَـا[٣]

ومن هنا محبّته للحرب وللغزو، لا حبّاً بالقتال وسفك الدماء، بل حبّاً بمال

الآخرين وسلبهم، حتّى ولو كانوا من عشيرة أخرى من قبيلته، ومن هنا هـوايته ومتعتـه بهذا النوع من الحياة، حتّى إذا ظفر ويسّر له أن ينهب ويسلب غيره خفّت حدّة رغبته في الشيء المسلوب، ووزّع منه على الأهل والأصحاب. وهذا ما يفسّر قلّة القتلى في الحروب الأولى أيام الجاهلية بين القبائل العربية المختلفة، وقد لاحظ ذلك دارسو التاريخ العربي قبل الإسلام ، وخاصة دارسو الحياة الأدبية التي وصفوا بها حروبهم في كتب البطولة التي وضعوها وفي قصصهم الشعبية، ويهيجنا وصف الوقائع في بعض أخبار القدامى، وذكر الكرّ والفرّ والمنازلة ولكنّنا ندهش لقلّة عدد القتلى حتّى في الحروب التي ذكروا أنها دامت نحو أربعين سنة كحرب البسوس(٤). والأمر نفسه يصدق عليهم في مغازيهم التي كانوا يقومون بها حتّى في أوائل هذا القرن.

وقد ذكر لي بعض البدو منذ سنين أن البدوي قـد يكون عـلى جواده وهـو خلف خصم له قد انهزم أمامه على جواده ، فيبلغ إلى درجة أنه يتمكن من طعنِهِ بالرمح، أو تناوله بالسيف، أو الفتك به بالرصاص، فلا يقتله، ولكنه يسأله التسليم، ويعده الإبقاء على حياته إذا سلّم جواده.

والبدوي يحبّ الحريّة والانعتاق من النـظم التي تقيّد الإنسـان ويحبّ الاستقلال بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه، حتّى شيخه فإنه يحترمه إلى حـدّ محدود تـظلّ معه كرامته محفوظة، ويكنّ له الولاء لأنه رمز عزّته وحرّيته، فإذا تجاوز الشيخ الحدّ وجنح إلى الاستبداد خرج البدوي من طاعته إذا استطاع، أو جابه شيخـه ودافع عن حـريّته بمـا استطاع من الكلام. وقد حضرت بالفعل مجلساً في بيت الأمير فـواز الشعلان، وحضر بدوي إلى ذلك المجلس ليدفع عن نفسه في أمر ما، وحاول الأمير أن يمنعه من الكـلام لوجودي معهم وأخذ يقول له «بس! بسّ» يقصد كفى! كفى! والبدوي يلحّ، وكان قد اتّهم أنه كذب في ذكر عدد إبله عند دفع رسومها، وكانت البدو تدفع رسماً للشيخ عن الإبل كلّ سنة، فسمح له الأمير فواز أخيراً أن يتكلم، فأخذ يتكلّم بجرأة ويزعم أن أبله ستة عشر جملاً فقط فقال الأمير: كذبت! فهي ثمانية عشر، فردّ البدوي على الأمير: لا بالله ما كذبت وما عليك إلاّ أن ترسل عبيدك هذه الساعة ليتحققوا من الكـاذب منّا ، كأنما يردّ على الأمير أنّه أو أن جابيه هو الذي لم يكن صادقاً، ولم يغضب فوّاز، بل أجابه إن كنت صادقاً فسأعفيك حتى من الضريبة عن الستة عشر، وإن كنت كاذباً فستدفعن الضريبة مضاعفة هذه السنة، وقد تبيّن من شهود كانوا في المجلس أن البدوي لا يملك سوى ستة عشر، وأعفي من دفع الجباية عن أبله في ذلك العام.

والبدوي كريم يحبّ أن يضيف، ويعتزّ بذلك، ولا يبخل حين يستضاف بما لديه،

ويكره البخل عند الناس، ويثني على الكرماء. ولعلّ مردّ هذه الصفة فيه أنه نشأ في بيئة تعتورها القلّة والحاجة، فليس باستطاعة الغريب المسافر أن يحمل ما يكفيه في تنقّله، فصار لا بدّ له من أن يحلّ ضيفاً عند غيره، وأصبح الأمر متبادلاً، وقد تعارفوا عليه، وما لبث الكرم أن أصبح عادة متأصلة بنفس البدوي، بحيث أمسى من العار أن لا يظهر أحدهم بمظهر الكريم المضياف. وأذكر أنّي كنت مع رفقة من أهل قريتي في البادية، وقصدنا مضرباً كان في أحد خيامه مجلس حول قهوة ونار، وجزنا في طريقنا إليه أمام بيت (خيمة) امرأة للوصول إليه، فوبّختنا المرأة على تجاوزنا بيتها دون النزول عندها بالرغم من أن بيتها كان خالياً من الرجال عند مرورنا، وأخذنا نعتذر إليها أننا لم نر رجلاً عندها، فقالت لو نزلتم لدعوت رجلي من ذلك المجلس لتكونوا ضيوفه. وإن أخبار البدو وقصصهم لتؤكد هذه الصفة في خلقهم، وتشدّد عليها، بحيث أصبحت صفة ملازمة لهم، وعادة مألوفة عُرفوا بها، وتزخر أشعارهم بأخبار كرمهم منذ أقدم الأزمان بحيث كاد بعضها يخرج عن المعقول.

ولا يتسع المقام لذكر النوادر الكثيرة التي يرويها عن كرمهم المترددون إلى مضاربهم من أبناء المدن والقرى والحضريين. وتاريخ البداة العرب يعج بأخبار الكرم والكرماء، ولعلّه ليس هناك في أدب أمّة من الأمم ثناء على الجود والعطاء للضيوف مثل ما في الأدب العربي والشعر العربي بشكل خاص، حتّى قيل في البداة العرب:

نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطريقِ خِيامَهُم　　　يَتَسابَقُون إلى قِرَى الضِّيفَانِ
وَيَكَادُ مُوقِدُهُمْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ　　　حُبَّ القِرى حَطَباً إلى النِّيرانِ[٥]

وقال حسّان ابن ثابت في مدح الكرم الذي عرفت به الغساسنة:

يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تهِرُّ كِلابُهم　　　لا يَسأَلُون عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ[٦]

ويأبى قيس ابن عاصم أن يكون وحده على طعامه. زعموا أنه تزوج بنت زيد الفوارس وأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال أين أكيلي؟ فلم تعلم ما يريد فأنشأ يقول:

أَيا ٱبنةَ عبدِ الله وابنةَ مالِكٍ　　　ويا ٱبنةَ ذي البُرْدَيْنِ والفَرَسِ الوَرْدِ
إذا ما صَنَعْتِ الزادَ فَٱلتَمِسي لهُ　　　أكِيلاً فإنِّي لستُ آكُلُهُ وَحْدي
أخاً طارِقاً أو جارَ بيتٍ فإنَّني　　　أخافُ مَلاماتِ الأحاديثِ مِنْ بَعدي

قالوا فأرسلت جارية لها مليحة تطلب أكيلاً وأنشأت تقول له:

أَبَى المَرءُ قَيْسٌ أن يَذُوقَ طَعامَهُ بغَيْرِ أكيلٍ إِنَّهُ لَكَرِيمُ
فَبُورِكتَ حيّاً يا أَخا الجودِ والنَّدَى وبُورِكتَ مَيْتاً قَدْ حَوَتْكَ رُجُومُ(٧)

ولعلّ أبلغ صورة في الشعر العربي لوصف الكرم هي ما وضعه طرفة ابن العبد في كيف ينهض بسيفه إلى نياقه الرابضة، فتنفر منه، لأنها تدرك أنه لا يفاجئها وبيده السيف إلّا لينحر منها لأضيافه، فيأخذ بعقر ما ندّ منها وهرب ويحاول أضيافه إيقافه عند حدّ، فيرد عليهم أحد أصحابه قائلاً: دعوه وهواه، فإنكم إذا عارضتموه ازداد عقراً ونحراً لها، وإنما نفع هذه الإبل له. وذلك حين يقول:

وبَرْكٍ هُجودٍ قَدْ أَثارَتْ مَخافتي نَوادِيَها أَمشي بَعَضْبٍ مُجَرَّدِ

إلى أن يقول بلسان صاحبه:

وقالَ ذَرُوهُ إنَّما نَفْعُها لَهُ وإلّا تَكُفُّوا قاصيَ البَرْكِ يَزْدَدِ(٨)

ولا يقلّ كرم البداة أصحاب الضأن عن كرم أصحاب الإبل، وهذا شاعر منهم يزعم أنه ترك غنمه وهي تودّ لو كان الذئب يرعاها عوضاً عن راعيها الكريم، لأن راعيها يذبح منها كلّ يوم، بينما لا يزورها الذئب إلّا مرّة واحدة في الدهر:

تَرَكْتُ ضَأْني تَوَدُّ الذئبَ راعيَها وإنَّها لا تَراني آخرَ الأَبدِ
الذِّئبُ يَطْرُقُها في الدَّهْرِ واحدةً وكلَّ يومٍ تَراني مِدْيَتي بِيَدي(٩)

بل قد دفع الكرم بالبدوي العربي إلى الخضوع للضيف كعبد أمام سيّده، أو كخادم حين يحلّ خباءه فقال المقنّع الكندي:

وإنّي لَعَبْدُ الضَّيفِ ما دامَ نازِلاً وَمَا شيمةٌ لِي غَيْرُها تُشبهُ العَبْدا(١٠)

وقال الهذلول ابن كعب العنبري يخاطب زوجه:

لَعَمْرُ أَبِيكِ الخَيْرِ إني لَخَادِمٌ لِضَيْفي وإني إنْ رَكِبْتُ لَفَارِسُ(١١)

وفي تاريخ العرب بوجه عام، والبداة منهم بوجه خاص، أنّ شرّ ما يهجى به المرء هو البخل، فليس أقبح عنده من أن يعيّر به، وأن خير ما يمدح به هو الكرم. وقد اعترف بكرم البداة أكثر الروّاد الفرنجة الذين تردّدوا إلى البوادي في القرون الأخيرة وأعجبوا بهذه الظاهرة في خلق البدوي الذي يألف الغزو وما يستتبعه من النهب والسلب.

ومن عادات البدوي حين تكون ضيفه أن يقف بنفسه على خدمتك بالفعل، وأن يعنى وأنت على طعامه في أن تتناول أفضل ما في الذبيحة التي ينحرها لك، وإن لم ييسر له أن يذبح ذبيحة فإنه يقدّم لك من أفضل ما يختزنه من تمر وسمن. وربّما يجدر أن ندوّن

هنا أن صلة بعض البداة في الحياة الحضرية أخذت تغير اليوم الكثير من أنماط عاداتهم أو عادات بعضهم على الأقلّ.

ويلي حبّ البدوي للكرم التفاته إلى الجوار بمعناه الواسع، من قربى في المنزل، أو حماية للمستجير. وقد عرفت هذه الميزة عند العرب قبل الإسلام وفي الإسلام، حتّى ذكروا أن النبي العربي كان يشدّد على احترام الجيرة بحيث قال مرّة: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى حسبت أنه سيورثه»[١٢]. وليس غريباً أن تكون الجيرة أوّل ما نشأت في سبيل حماية الضعيف من القويّ ووضع حدّ للبطش والانتقام. فإذا ارتكب أحد جرماً عن قصد أو عن غير قصد، ولم يكن من المنعة بحيث يقف أمام طالبيه ويصدّهم، لجأ إلى مجير قويّ يطلب حمايته. وهنا أوجبت شريعة البادية ـ شريعة العرف والعادة ـ على المرء الذي استجير أن يجير حتّى ولو كان المستجير من غير قبيلته، أو حتّى لو كان من الذين يحقّ للمجير هو نفسه أن يثأر منهم.

ومن هنا أيضاً يمكن لنا أن نقول إنه لم تعرف أمّة من الأمم حرمة للجيرة كالحرمة التي عرفها العرب والبدو خاصّة لها. وليس في أدب أمّةٍ من الأمم فيها أعلم ما يرفع الجيرة إلى مصاف المآثر العظام كما عرفتها البداوة والروح العربية في الأدب العربي وقد قال شاعرهم المشهور بالكرم حاتم الطائي في الجيرة والكرم معاً:

إذا كانَ لِي شَيْئانِ يا أمَّ مالِكٍ ... فإنَّ لِجَاري مِنْهُما مَا تَخَيَّرا[١٣]

بل إن العرب كانوا يفتخرون بأن الجار يصبح وهو في حماهم من الحصانة والمناعة كالوعل في رأس جبل شاهق لا يبلغه أحد، فقال يزيد السكوني يمدح قبيلة بني شيبان بالكرم وحماية الجار:

ومِنْ تَكَرُّمِهِم في المَحْلِ أنَّهُمُ ... لا يَعْلَمُ الجارُ فيهِمْ أنَّهُ الجارُ
كأنَّه صَدَعٌ في رأسِ شاهِقَةٍ ... مِنْ دُونِهِ لِعناقِ الطَّيْرِ أوْكارُ[١٤]

والبدوي فوق ذلك مفوّه يحبّ الكلام ويتأثر به، ويحسن القول ويجيد فيه، جيّد الرصف حين يستدعي المقام رصف الكلام، وبعض كلامه إذا كتب دون شكل أو إعراب أقرب الكلام إلى الفصحى بتركيبه، ولكن الذي يبعده عن الفصحى حين نسمعه هو أداؤه حين يلفظه، فمثلاً «مَنْتَ رايح» يقولها حين يريد «لَسْتَ رائحاً» وأصلها «ما أنت رائح» و«جيف أنتا» أي «كيف أنت» و«عساج طيب» يريد «عساكَ طيّب» و«مالي بها شان» أي «ما لي بها شأن» ولكنه يستعمل بعض الألفاظ التي لا نرى لها مثيلاً في المعاجم مثل «هين» بمعنى هنا فهو يقول «إلحق لهين» أي «تعال إلى هنا» وكثير غيرها،

ويستعمل في الوقت نفسه ألفاظاً فصيحة نراها في المعاجم ولا نستعملها مثل «فهر» بمعنى «حجر» وغيرها. وأرى أن هناك مجالاً كبيراً لوضع دراسة علمية في تراكيب الجمل عند البدو وفي المفردات وقربها من أساليب الكتّاب الفصحاء من حيث الإيجاز في التعبير وفصاحة التركيب والمفردات. وقديماً اشتهر الأعراب بالفصاحة فوضع ابن عبد ربّه في عقده في كتاب «كلام العرب» فصلاً كبيراً في فصاحة الأعراب وإيجازهم في القول نساء ورجالاً بلغ عشرات الصفحات[١٥].

ويعرف البدوي بالولاء ولكن ولاءه قبل كلّ شيء هو لقبيلته، أو لشيخها لأنه زعيمها، أو لشخص يقدّره وله صلة به، وهو متعلّق بقبيلته أشدّ التعلّق في حقّ أو غير حقّ:

«وما أنا إلاّ مِنْ غَزِيّة إنْ غَوَتْ غَوَيتُ وإنْ ترشُدْ غزيَّةُ أَرْشُدِ»[١٦]

ومن يقرأ مثلاً كتاب جارفس «القيادة العربية» في سيرة بيك باشا ولاسيّما الفصل الأخير منه في كيف وُدِّع الرجل من قبل إخوانه من البدو الذين كانوا تحت إمرته، يدرك مدى الحبّ والولاء الذي كانوا يكنّونه له. والبدويّ أيضاً وفيّ يرعى الجميل ويذكره، ويخلص الودّ لمن يبادله، ولكنّه في الوقت نفسه متقلّب في ميوله السياسية، وليس له ولاء لمبدأ أو حزب سياسي. ومن هنا فإننا نراه أحياناً يمالىء القويّ ما دام قويّاً، فإذا سام منه ضعفاً أو هزيمة تخلّى عنه وربّما ساعد في القضاء عليه. وقد تجلّى ذلك في علاقات كثير من القبائل البدوية مع السلطة الحاكمة في الأقطار العربية في العهود الأخيرة من الحكم التركي، وأيام ثورة الحسين وأيام الانتداب. ومن يدري فلعلّ مردّ هذه الصفة بنفس البدوي هو تقديره للقوة وإجلاله لها.

والبدوي حذر كتوم، لا يبوح بما في نفسه إلا إذا أدرك أن كلامه لا يضرّ أحداً، ولا يرفع صوته في المجلس حين يتكلّم، كما يفعل الكثيرون من أهل القرى، وهو قليل الضحك في المجالس العامّة والخاصّة. ولست أذكر أني سمعت في حياتي قهقهة في خيمة ما، اللّهم إلاّ إذا كانوا يفعلون ذلك فيما بينهم وبين أنفسهم، وهو إن ضحك فإنّما يضحك هزءاً وازدراء، لا حبّاً بالنكتة أو لهواً للتفريج عن النفس، ومن هنا فإن المجلس البدوي رصين رزين في أغلب الأحيان. وقد تميّز الشيوخ بهذه الرزانة كما لاحظت أنا نفسي في مجالس الشيخ عجيل الياور والشيخ طراد الملحم والأمير نايف الشعلان والأمير فواز وأولاد الأمير فوّاز والشيخ هايل الزيد وغيرهم وقد عرف عن الشيخ الأمير نوري الشعلان أنه لم ير ضاحكاً في مجلس ما، وقد أخبرني بعض العرب أن الأمير كان يلقّب أو يوصف «بأحمر العين» أو أحمر عين دون تعريف إشارة إلى رصانته وعبوسه الدائمين.

والبدويّ معتدّ بنفسه فخور بنسبه وببداوته لكنّه غير متكبّر، ولعلّ بعض مميّزاته الحسنة من كرم ونخوة ومروءة وشجاعة ترجع إلى هذا الاعتزاز بالنفس، فهو يريد أن يقال عنه إنه جواد وشجاع وبطل ومنجد، وإذا طلبت الالتجاء اليه واستجرت به وكنت ملاحقاً أو طريداً حماك وآواك ودافع عنك، فأنت بوجهه كما يقولون وعليه أن يحميك. وهو قوي الفراسة بحيث زعم البعض أن البدوي قد يردّ الولد إلى أبيه من مجرّد النظر إلى ملامحه، وهو صبور كما ذكرت لا يعدل صبره سوى صبر جمله، فكأنما خلقاً للشقاء والعناء ووجدا معاً ليتأسى الواحد بالآخر.

وللبدوي ميل للشعر البدوي المعروف عندهم بالقصيد ينظمه في أسلوبه الخاص الذي يختلف فيه عن أسلوب الشعر الفصيح وعن الأشعار العامية المعروفة في البيئات القروية والمدنية. والغريب في أمر هذا الشعر البدوي أن الكثيرين من شعراء القرى القريبة من البادية يقلّدونه بلفظه وبمفرداته، وهو أمر يدلّ على قوّة البداوة وطغيانها الأدبي على أهل الحواضر. ويظهر أن الأمراء والشيوخ لا يستنكفون عن نظم القصيد. وقد ذكر موزل في كتابه عن الرولة وعاداتهم قصيداً للأمير نوري الشعلان نفسه نظمه هو وكاتبه في الثناء على موزل وعلمه وأشاد فيه بذكر ما يعرفه موزل من أخبار البداوة وأحوالها[١٧] نأتي عليه عند بحثنا عن الشعر عند البدو. ولكن يجب أن نذكر أن البدوي حين ينظم القصيد لا ينظمه للتكسب كما يفعل البدوي الصليبي أو كما كان يفعل بعض الشعراء المتردّدين على بلاط الملوك فهو يحتقر الشعراء المتكسبين.

ومن خصائص خلق البدوي حبّه للثأر وحماسته في الاندفاع للانتقام ممّن أساء إليه وخاصّة إذا كان قد قتل أحداً من أهله أو ذويه، فتراه يندفع هائجاً ليطفىء ثورة الدم ويقتل من يراه من أهل القاتل وقومه إذا لم يستطع الوصول إلى القاتل نفسه. ولا يقتصر حقّه في الانتقام من القاتل وأهله بل يتعدّاهم إلى أقرباء القاتل حتّى الدرجة الخامسة في القربى، بحيث تتناول الجدود أو الأحفاد وبني الأعمام. وتدوم هذه الثورة في شريعة البادية المعروفة بالعرف والعادة ثلاثة أيام وثلث اليوم الرابع! ترى طالب الثأر فيها محاولاً أن يفتك بمن يقع تحت يده من أقرباء القاتل، أو بما يراه لهم من حيوان من الإبل والخيل. هذا إذا لم يتوسّط الوسطاء ويرضوا صاحب الثأر بديّة أو بتسليم القاتل حقناً لدماء الآخرين. وإذا لم يتمّ شيء من الاتفاق، ولم يستطع أحد من ذوي القتيل أن يثأر له فإنهم يشعرون بالذل والهوان إذا لم ينتقموا، وتظلّ الحزازة في قلوبهم للانتقام إلى أمد بعيد كما سبق وذكرنا عن أحد الشعراء:

وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلى دِمَنِ الثَّرَى   وتَبْقى حَزازاتُ النُّفوسِ كَما هِيا[١٨]

لقد تجلّت روح الثأر والانتقام في نفوس أبناء الشعوب السامية ومنهم العرب منذ أقدم العهود، وكان لها أثرها في الشرائع التي سنّت حين فرضت العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والقتل للقاتل، وأصبح من العار على من نكب ألاّ ينتقم ويأخذ بثأر من فقد له. ومن يستعرض تاريخ العرب في جاهليتهم وإسلامهم يدرك ما كان من أثر لحبّ الثأر في نفوسهم. فكثيراً من أيام العرب في الجاهلية كانت ثأراً لحوادث وقعت كحرب البسوس مثلاً، وقتل كليب، وكيف انبرى المهلهل للأخذ بالثأر من جسّاس ورهطه فدامت الحرب فيما يزعمون أربعين سنة، ومثلها في الإسلام، حين قتل عثمان ابن عفّان فأخذ حسّان ابن ثابت يدعو للأخذ بالثأر في قوله:

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبيحاً وقُرآناً
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً في ديارِهِمِ ... اللَّهُ أكبرُ يا ثاراتِ عُثْمانا[١٩]

بل لعلّ اغتيال الخليفة الإمام علي ابن أبي طالب ما كان وقع لولا روح الثأر التي كانت بنفس قطام الخارجية التي قتل أبوها وأخوها فيما يزعمون فأغرت عبد الرحمن ابن ملجم باغتيال علي فكأنّ العربي لا يحتمل الأذى، ولهذا فهو يأبى أن يؤذى ولا يؤذي، فيقول بلسان الفضل ابن عبّاس أحد شعراء بني هاشم يخاطب الأمويين:

مَهلاً بَني عَمِنّا مَهلاً مَوَالِينا ... لا تَنْبُشوا بَيْننا ما كانَ مَدْفُونا
لا تَطْمَعوا أن تهينُونا ونكرِمَكُمْ ... وأنْ نكفَّ الأذى عنكُمْ وَتُؤذونَا[٢٠]

ومن الأخبار التي تشير إلى نزعة الثأر في نفس العربي ما رووه عن قيس ابن الخطيم أن رجلاً من بني عبد القيس عدا على أبي قيس فقتله، وكان قيس إذ ذاك صغيراً، وكذا جدّه عديّ كان قتل قبلاً ولم يستطع الخطيم ابنه أن يأخذ بثأره، وخشيت أم قيس على ابنها أن يطلب بثأر ابيه وجدّه فيهلك هو الآخر بدوره، فجعلت لهما قبرين بفناء البيت، ولم يشكّ قيس في ذلك، وظنّ أنهما ماتا موتاً ولم يقتلا، ونشأ قويّاً شديد الساعدين، فنازع يوماً فتى من فتيان بني ظفر، فقال له ذلك الفتى واللّه لو جعلت شدّة ساعديك على قاتل أبيك وجدّك لكان خيراً لك، فأتى أمّه وألحّ عليها أن تخبره فلما رأت الجدّ منه في ذلك أخبرته، فلم يزل من ذلك العهد يطلب بثأرهما حتّى ثار لهما وله في ذلك شعر يقول فيه:

طعنتُ ابنَ عَبدِ القيسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ ... لَها نَفَذٌ لَوْلاَ الشَّعاعُ أَضاءَها

ثمّ يقول:

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخطيمَ فلم أُضِعْ ... وِلايةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها[٢١]

وهكذا ترى حبَّ الثأر في نفس البدوي والغبطة التي يشعر بها والفخر حين يأخذ بثأره ويشفي غليله كما يقولون وكان يمكن أن تبحث قضية الثأر عند البدو في باب التشريع عند البدو لولا أن الثأر أصبح خلّة في خلق العربي.

وما كان يصدق على البدويّ قديماً يصدق عليه اليوم، وقد أدركت وأنا غلام في سنة ١٩١٧ أيام الحرب الكبرى الأولى حادثة وقعت قرب القريتين، ذلك أن غزاة من قبيلة العبد الله هاجموا قريتي السخنة وارك بين تدمر ودير الزور ونهبوا منهما ما استطاعوا أن ينهبوه من أثاث ومتاع، وساروا راجعين إلى منازلهم في الجنوب، وكانت السلطة التركية قد وضعت حامية من الجند في القريتين لحماية المنطقة من هجمات البدو الذين يرافقون لورنس فيما لو حاول الدخول إلى سوريا من طريق تدمر. وبلّغت الحامية نبأ تلك الغزوة ومسيرها نحو الجنوب. وعرف قائد الحامية من أحد الخبراء في القريتين أنه لا بدّ للغزاة من ورود بئر تعرف ببئر حفيّر على بعد بضعة كيلومترات من القريتين، تحيط بها سلسلة تلال تفصل بين القرية والبئر، ويمكن أن يكمن الجند وراءها حتّى إذا وصل الغزاة إلى البئر وشرعوا في الورود فاجأتهم الجنود وفتكت بهم.

وكان بين الجند خيّالة جراكسة ومشاة أتراك وعرب حضر، وما كاد الغزاة يشرعون عند وصولهم بورود الماء وقد أناخوا إبلهم وأخذوا ينشلون الماء حتّى التفّت الخيّالة من وراء التلال إلى خلفهم وشرعت المشاة بإطلاق الرصاص عليهم من التلال، فقتل من البدو الغزاة عدد واستسلم آخرون. وسرعان ما هبّ أهل القريتين في اليوم الثاني إلى ساحة المعركة لجمع ما استطاعوا من الأثاث المنهوب الذي كان قسم منه لا يزال في الساحة حول البئر وفي التلال التي حاول بعض البدو أن يهربوا إليها وقتلوا عليها. وأدرك بعد أيام أبناء هذه القبيلة ما فعله أهل القريتين فحفظوها لهم، ولم يستطيعوا الانتقام لا من الأتراك ولا من الجراكسة، فعوّلوا على أخذ الثأر من أهل القريتين، وبالفعل استطاعوا بعد أشهر من مشاهدة ستة منهم في البرية بين القريتين وتدمر فقتلوا خمسة منهم وهم نيام في البرية ونجا غلام يخبر بما جرى لرفاقه الأبرياء.

ودخل الثأر في قصصهم البدوي، فترى في نسيج القصة البدوية خبر حب بين بطل القصة وفتاة كان أبوها أو أحد إخوتها قتله شخص معروف لجأ الى قبيلة أخرى أو هرب إلى بلد بعيد، فتشترط على حبيبها قبل الزواج منه أن ينتقم لها من قاتل قريبها، فيفعل ويتمّ الزواج، أو يكون أحد ذويها أسيراً عند قوم من أعدائهم، فتشترط على طالب يدها أن يحتال في فكّه من الأسر والانتقام من آسريه لقاء الزواج منه.

وهذا يقودنا إلى ذكر سلوك البدو عموماً من حيث الأخلاق والعـلاقات الجنسيـة فالبدو عموماً لا يختلفون عن الحضر كثيراً إلاّ أنّهم أكثر غيرة وحماية للعرض، وقليل من بنات البدو من لم تتزوج، ومع أنه من اليسير على البدوي في كثير من الأحيان أن يختلي ببعض النساء فإنه بوجه عام يرى للمرأة حرمة يجب ان تصان حتى ولو كانت من قبيلة مخاصمة . ويحق للمرأة أن تسفر بين قبيلتين متخاصمتين بعـد اصطدام بينهما وأن ترى القتـلى او الجرحى وتسعف أو تعـود الى أهلها دون أن يعـرض لهـا أحـد بمـا يسيء الى سمعتها . وليس ما يمنع ان تحبّ من تشاء ولكن لابن عمّها الحقّ الأول في الزواج منها فإذا كان راغباً عنها لأمر ما تزوّجت من رجل أحبّته. ومن هنا فالغالب ببنات البدو ألاّ يعرفن الرجل قبل الزواج . وتلازمها هذه العفّة في حياتها الزوجية فلا تخـون زوجها . والغالب عند الرجال ان يتزوّجوا وهم صغار فإذا كانت حياة الشاب الزوجية غير مرضية له لاختلاف في الميول والطباع افترقا بالطلاق، وقد تكـون الفتاة هي المظلومة فتـطلب الرجوع الى أهلها وهي عزيزة مكرّمة حتى إذا لم يطلّقها ، أو ترجع بنفسها دون استشارة زوجها ، ولكن هذا لا يمنع ان تجري بعض الصلات الجنسية بين رجل وامرأة ليس لها زوج إذا كان يحبّها وكانا بعيدين عن أعين الرقباء .

والبدوي ماهر في معرفة الآثار والرسوم التي يراها في الطلول ولعلّ من هنا أثر ذلك في شعره القديم حيث نرى في مطالعه الوقوف على الطلول واستنطاق الآثار فهو يستطيع اذا وقف على طلل ما ان يعرف الى حدّ ما الزمن الذي ارتحل أهله فيه وموضـع البيت الذي كانت صاحبته تنزله . ويتبينّ اذا كان الأثر قريب عهد موضع الأقدام على الأرض فيميّز بين أثر قدم المرأة وأثر قدم الرجل حين يسيران حافيين بل يستطيع ان يميّز بين أثر قدم المرأة الحامل من طبعته على التراب ومثله أثر خفّ الجمل فيميّزه عن أثر خفّ الناقة الحامل . ويعرف كيف يستدلّ على كثير من الأمور الخافية وذلك من بعض الظواهر التي يشاهدها وهو يسير في البادية ممّا يصعب على غيره الاستدلال بها،كأن يرى مثلاً طائراً قد مرّ من فوق كثيب أو هضبة فيتّخذ الحيطة تحسّباً من أن يكون هناك قوم غزاة أو أعداء مرّوا من خلف تلك الهضبة او ذلك الكثيب فهاجوا الطائر من مفحصه او مجثمه . وقد راعت هذه الميزة في البدوي نفوس أكثر روّاد الجزيـرة بحيث زعم بعضهم أن علم البدوي في معرفة الأثر يكاد يكون شيئاً من التنبؤ . وقصّ مارك آلن في كتاب « البيزرة في الجزيـرة العربية » أنهم كانوا في رحلة صيد في شمالي الجزيرة العربية ، قرب جبل عنيزة ، قال : وما كادت تقف السيارة في بقعة في طريقنا حتى قفز رفاقي البدو منها وأخذوا يتحاورون ووجوههم منحنية على أثر شيء في الأرض، والتفت إليّ أحدهم وقال: الا ترى أثر رجلي

الحبارى هنا على الحصى ، وهناك على بعد بضعة قراريط حيث وضح الأثر لي ثم غاب عن ناظري في تلك الحصباء[٢٢] .

وللبدوي فوق ذلك إلمام بالأنواء ومواقع النجوم والسيّارات وتغيّر الطقس وهو ما يساعده على معرفة كيف يسير في البوادي دون أن يضلّ طريقه وكيف ينظّم أوقات انتجاعه وراء الماء والكلأ .

ولا بدّ لي في ختام هذا الفصل الذي عرضت فيه لخلق البدوي بوجه عام وللمزايا الحسنة التي عرفت فيه وللأخرى السيئة التي فرضتها عليه بيئته الجافة وحياته البدائية أن أقول إن أكثر الذين عاشروه طويلاً واختبروا حياة البادية وأهلها من الروّاد الأجانب لم يفتهم أن يشيروا إلى نبل البدوي العربي وشرفه. فقد أثنى عليهم بركهارت وذكر الكثير من فضائلهم[٢٣] وأنصفهم دوتي[٢٤] فلم يفته أن يذكر بعض حسناتهم ومثله دكسن[٢٥]. أما جلوب فقد أطنب بمدحهم والتنويه بولائهم للصديق وأشاد بشجاعتهم وكرمهم ونبلهم وزعم أن صفات البدو لم يوفها حقّها من المديح الروّاد الأجانب[٢٦]، حتّى بلجريف الذي لم ينظر بعين الرضى لا إلى البدو ولا إلى حياتهم التي يغمرها الشقاء لم يتردّد عن القول في أنهم من أنبل الشعوب في العالم[٢٧] .

ولعلّ أسبق هؤلاء الروّاد جميعهم ذكراً لفضائل البدو العرب وبيئتهم البدوية الرائد الكاهن كاري سنة ١٦٧٢ الذي كتب يقول بعد أن وصف أخلاقهم وعاداتهم :

«تلك هي عادات هؤلاء العرب الذين نحسبهم متوحّشين وغلاظاً . إنهم ليخجلون أكثر أغنيائنا المسيحيين في أوروبا ، الذين غالباً ما يرفضون إعطاء قطعة خبز إلى سائح فقير أو إلى غريب معدم . تلك هي العادات وطرق العيش التي تختلف عمّا في أقطارنا حيث تعمي الأبّهة والرفاهية والشوق إلى الغنى والثروة الكثيرين منّا. العرب والبدو هم الذين يمكن أن يعلّمونا الدروس الثمينة في أن نخلع عنّا الطموحات الخارقة المجنونة لنيل الثروة والقصور والأثاث الرائع والثياب الفخمة والعطور واللذائذ وأشباهها التي تفسد عقول أعظم الرجال في الأقطار الأوروبية . تعالوا أقول : إلى أرض آبائنا الأوّلين هذه تعالوا إلى الجزيرة العربية»[٢٨] .

الحواشي:

(١) Palgrave, **Narrative** II, 35.

(٢) المقدمة، ص ١٢٥.

(٣) ديوان الحماسة، ١: ١٣٦.

(٤) انظر: Reynold A. Nicholson, **A Literary History of The Arabs** (London, 1907), pp. 55 - 60

(٥) بيتان مشهوران لم أستطع معرفة قائلهما.

(٦) ديوان حسان ابن ثابت، تحقيق محمد العناني، وشرحه، مصر ١٣٣١ هـ، ص ٢٤٧.

(٧) الأغاني (بولاق)، ١٢: ١٥٠ - ١٥١.

(٨) شرح المعلّقات للزوزني، ص ٦٨.

(٩) لأحد شعراء العرب، ديوان الحماسة، ٢: ٢٤٥.

(١٠) المصدر نفسه: ٢: ٣٤.

(١١) المصدر نفسه، ١: ٢٩٦.

(١٢) حديث نبوي.

(١٣) الأغاني (بولاق)، ١٠: ١٢٧، ١٢٨.

(١٤) ديوان الحماسة، ١: ١١٥ وفي ديوان الحماسة قصر أبو تمام قدراً كبيراً من مختاراته الشعرية على مدح الجود والكرماء بلغت ١١١ صفحة في باب الأضياف والمديح مما يشير إلى تقدير العرب للكرم والأجواد.

(١٥) انظر العقد الفريد، ٣: ٤١٨ - ٤٩٨.

(١٦) ديوان الحماسة، ١: ٣٤٣.

(١٧) **Manners and Customs**, pp. 289 - 92.

(١٨) الأغاني (بولاق)، ٧: ١٧٦.

(١٩) العقد الفريد، ٤: ٢٨٤، ٢٩٨ وديوان حسان ابن ثابت، تحقيق محمد العناني، ص ٣٣٩.

(٢٠) ديوان الحماسة، ١: ٨٢.

(٢١) المصدر نفسه، ١: ٦٢ - ٦٣.

(٢٢) Mark Allen, **Falconry in Arabia** (London, 1980), p. 84.

(٢٣) Burckhardt, I, 358.

(٢٤) Doughty I, 269, 303, 424, 446, 459; Kiernan, p. 18.

(٢٥) Dickson, pp. 129 - 30

(٢٦) J. B. Glubb, **The Story of the Arab Legion** (London, 1948), pp. 155 - 56, 159, 235.

(٢٧) Palgrave, **Narrative**, I, 24.

(٢٨) Peter G. Bietenholz, **Desert and Bedouin in The European Mind** (Khartoum, 1963), p. 8 وفي المقال عرض دقيق علمي لأكثر هؤلاء الروّاد القدماء.

الفصل الثالث عشر

هيئة البدوي ولباسه وزينته



صورة شابين. وللشبان اعتناء خاص بإطالة الشعر وتجديله

شكل البدوي وهيئته

البدوي في الغالب نحيف الجسم وخفيف الوزن ، ولا سيّما أبناء عرب الجنوب



بدويان متقدمان في العمر. لاحظ الأسنان التامة في فم أحدهما

ولست أذكر أني شاهدت بدوياً بديناً فوق العادة أو سميناً سمنة أهل الحضر إلاّ في بعض بيوت الشيوخ . وذلك لأمرين ، أولهما تعرّض البدويّ الدائم للسير والتنقّل والارتحال راكباً أو راجلاً ، وثانيهما قلّة الغذاء الغنيّ بالمواد الدهنية التي تكثر غالباً في أطعمة الحضر المترفين ، ومع أن البدوي يأكل السمن أو الدهن المذاب في الولائم فإن ما يتناوله منه لا يتعدّى في أغلب الأحيان مئتي غرام في الشهر بحيث لا يكون لهذا القدر الضئيل من أثر ظاهر في جسمه وفي تسمينه ، ولا نستثني من هذا سوى بعض الشيوخ الذين يكثرون الولائم في بيوتهم ، أو غيرهم من الوجهاء أرباب الغنم الذين ألفوا الاستقرار قرب الحواضر والركون الى حياة الدعة والهدوء والعيش الناعم .

والبدوي قويّ الأسنان أبيضها ، وذلك لأنه يعيش في الغالب على الحليب الغني بالمادّة الكلسية ، ولا يأكل اللحوم كثيراً كما يتوهّم البعض ، ولا الحلويات التي تساعد هي واللحوم على فساد الأسنان . وهو يعتني بشعره ، ويأخذ بذلك منذ صباه ، فتراه يطيله ويغسله أحياناً ببول الجمل كما تفعل المرأة البدوية ، ويجدله جدائل يرخيها متدلّية على صدره ، ويتجمّل بها في صباه وشبابه كما تتجمّل الفتاة القروية بشعرها الطويل .

وهو معتدل القامة والشمالي عموماً أطول من الجنوبي ، وقد تجد أحياناً بين أبناء القبائل النجدية الأصل وعرب الرولة وغيرهم في الشمال من هم طوال يبلغ واحدهم



بدوي يتدلى شعره الطويل على جانبي صدره شأن أكثر فتيان البدو

فوق ١٧٥ سنتيمتراً ، أما ما يزعمه البعض من أنّ البدو قصار فلا يصدق على بدو بادية سوريا بوجه عام إنّما يصدق على عرب الجنوب .

لباس البدوي وزينته

لا يلتفت البدوي كثيراً إلى هندامه وخاصة عرب الشمال ، اللهم إلا بعض الفتيان وبعض الشباب الذين أصبحوا في سنّ الزواج ومطمح أنظار الفتيات من عشيرتهم ، وإلا أبناء الشيوخ الذين يسّرت لهم حالتهم المادية ان يظهروا بمظهر أنيق . ومع أنه من اليسير أن يذكر المرء أشكال اللباس الذي يرتديه البدوي بوجه عام وألوانه ، على جسمه وعلى رأسه وفي قدميه ، فإنه من الخطأ أن يتوهم القارىء أنّ للبدو لباساً



بدوي ملثم يلبس كوفيته دون عقال



الفقر عند البدو: رداء ممزق وصدر مكشوف

موحّداً يتفق على ارتدائه البدو في كل الاقطار فلكل قبيلة زي يكاد يكون خاصاً بها لا يعرفه إلا البدوي . صحيح أن أكثر البدو يلبسون الشملة على الرأس والعقال ، ولكن نوع الشملة ونوع العقال يختلفان بالنسبة لكثير من القبائل ، بل إن البعض يستغنون عن العقال ، ويكتفون بلفّ الشملة حول الرأس بطريقة خاصة بهم . كذلك قل عن شكل القميص الذي يلي جسد البدوي فهو قصير عند البعض يليه قميص آخر فوقه طويل يكاد يصل إلى الارض ، بينما نرى بدوياً آخر لا يلبس سوى قميص طويل وفوقه صاية أو قمباز أو عباءة . ويختلف لباس الشتاء عن لباس الصيف . وتختلف ثياب البدويات من عرب الشوايا عن ثياب زميلاتهن من عرب أهل الإبل . كذلك ترى الثوب عند بعضهم وقد تدلت من أكمامه الأردان الطويلة بينما تراها معدومة الأردان عند آخرين . وترى



شاب بدوي جميل وأنيق من عرب الشوايا

البعض يلبس السراويل تحت الثوب بينما ترى الكثيرين لم يألفوها لا هم ولا نساؤهم ويرون أن ذلك أصح للأجسام.

وقد قصر بعض الروّاد من الإفرنج قسماً كبيراً من مؤلفاتهم على وصف ثياب البدو وأنواعها فلم أر داعياً للتفصيل في ذلك ففي الصور التي ترد في هذا الكتاب للرجال وللنساء من عشائر مختلفة من بدو خلص وبدو شوايا ما يعطي صورة عامة عن الثياب التي يرتديها البدو بوجه عام . ولعل من الخير أن أذكر هنا كتاب البرت دي بوشمان[1] الإفرنسي عن ثياب البدو وأوانيهم وأثاثهم وأرحال إبلهم وأرسانها وفيه رسوم لها كلها .

وقد أخذت أزياء الثياب تتطور في السنين الاخيرة ، وأخذ الكثيرون من أبناء البادية يلبسون مثل ما يلبس ابناء القرى القريبة من البادية ، وأخذ كثير من أبناء القرى الشباب من فتيان وفتيات يتزيون بأزياء أبناء المدن ، وأخذت بعض نساء الشيوخ يلبسن ثياباً مزركشة ومقصبة بالخيوط الذهبية والفضية كما تفعل بعض نساء الشيوخ في المناطق التي غنيت لوجود الزيت ، كما ترى في الرسم الذي سيتلو ، وهو صورة قرينتي وابنة أخي ، وكانت امرأة الأمير نايف الشعلان حين كانتا في ضيافتها أمرت إحدى جواريها أن تلبسهما الثياب البدوية المزركشة لتصويرهما . كما فعلت حين صوّرت الشيخ الأمير نفسه بثيابه التي يلبسها عادة وهي على غاية ما يكون من النظافة والهندام .

وأوّد أن أذكر هنا أيضاً أن بعض أبناء الشيوخ في بعض المناطق العربية أخذوا حين أصبحوا طلبة في المدارس الرسمية أو الخاصة يرتدون الثياب الإفرنجية ويحتفظون بالكوفية والعقال كما ترى في صورة أولاد الشيوخ من قبيلة الصخور في بادية الأردن .

وقد يضطر البدوي في الشتاء إلى ارتداء ثوب آخر فوق أثوابه، أو ارتداء فروة مصنوعة من جلود الخراف، أو معطف من الجوخ السميك، وإذا كان من أهل الشوايا فقد يلبس سترة كالتي يلبسها أهل الحضر، وربما من الخير أن أذكر هنا أن بعضهم في المغازي كانوا حين يشلّحون (يسلبون) أهل الحضر أمتعتهم لا يرون بأساً من ارتداء الثياب نفسها التي يسلبونها ، وبخاصة حين تكون ثياب الغزاة قد كادت تبلى على أجسادهم لطول العهد ، ولهذا فقد ترى مجموعة من الرجال في وقت واحد في أزياء مختلفة وألوان مختلفة .

ومهما يكن من أمر الاختلاف في ألبستهم فهناك شيء من الاتفاق بوجه عام فكل بدوي يلبس على رأسه الشملة (الكفّية أو الكوفية) ، وقد يلف فوقها حول رأسه عقالاً ينسجه هو أو امرأته من وبر الجمل، أو صوف الغنم، أو يشتريه من القرى والمدن وتجارهما في المضارب مصنوعاً من شعر الماعز الأسود، ومجدولاً جدلاً محكماً ، ويكون من أثخان مختلفة يتراوح قطره بين السنتيمترين والخمسة ،وكان في القرن السابق عموماً أثخن مما هو

الآن . وإذا لم يوجد العقال فإنه يكتفي أحياناً بلف منديل بسيط فوق الشملة لتثبيتها على رأسه . ويجب أن نلاحظ أنّ العقال الذي ينسجه هو نفسه أو امرأته ، ويربط بـه رأسه



قرينة المؤلف (إلى اليمين) وابنـة أخيه ترتـديان ثياب حـرم الشيوخ الثمينـة المزركشة



البدوي يشد كوفيته بالعقال

عموماً ، لا يختلف بشكله عن العقال الذي يعقل به جملَه حـول ركبة ذراعـه الأيمن أو الأيسر . ولعل عقال الرأس أخذ من عقال الجمل وربما تكون كلمة العقل نفسها مشتقة في اللغة العربية من العقال. لأنه يعقل المرء أي يربطه عن السير في سبل الضلال.

ويلبس على جسده ثوباً فضفاضاً يصل إلى الأرض يكون في الغالب إما من الخام أو من البياض المقصور ، وقد يصبغ بعضهم هذا الثوب باللون الأصفر القـاتم بحيث يشبه لون الرمل . حتى ثوبه الأبيض غير المصبوغ لا يلبث طويلاً عليه حتى يصبح أقرب إلى لون التراب منه إلى البياض . وقد يتمنطق بزنار تحت الثوب يلفه على خصره . ولا يلبس البدو عموماً السراويل ولا يعرفها إلا القليل منهم كما ذكرنا . وقد يجوز أن يلبس البدوي فوق الثوب ثوباً آخر لا سيما في فصل الشتاء ، ويكون للثوب الخارجي أحيـاناً عند بعض عرب الرولة ردنان طويلان يتدلى الواحد من فتحة الكم بشكل مثلث ضيق يمكن أن يصل رأسه إلى الأرض حتى لو ارتفع الذراع فوق الرأس، وتتسع فتحة الكم



شبان من البدو يرتدون عباءات فوق سترة (جاكيت) وكثيراً ما يلبس الشاب عقاله مائلاً

بحيث تتحرك الذراع بسهولة. وفي كثير من الأحيان يربط البدوي ردنيه الواحد إلى الآخر من الوراء عند ظهره.

ويرتدي أيضاً أحياناً عباءة من الصوف فوق الثوب تكون خفيفة في الصيف ليتقي بها حرّ الهاجرة ، وقد يستغني عنها في ذلك الفصل ، وثقيلة ثخينة في الشتاء لتقيه أذى البرد . ويحيك العباءات لعرب الشمال أهل القرى المجاورة للبادية، وهناك بلدة اسمها صدد أهلُها نَصارى أكثرهم يشتغلون في حياكة « العبي » والبسط على أنوال في بيوتهم ويبيعونها إما للتجار أو رأساً للبدو . وكذلك هناك في غير صدد من القرى التي فيها مسيحيون من ألفوا صناعة الحياكة وأخذوها عن أسلافهم القدماء ويبيعون ما يصنعون لأهل البادية وأهل القرى .

ولا يلبس البدوي الأحذية إلا نادراً وذلك في الشتاء. وما يلبسها منها هو في الأغلب من نوع خاص يسمى جزمة أو بسطاراً ولكليهما ساق يصل إلى ما فوق الكاحل

ببضعة سنتيمترات ، وأحياناً يلبس الخف المتخذ نعله من خف البعير أو من المطاط وسيوره من الجلد .

ويختلف لباس المرأة البدوية عن الرجل في أنها لا تلبس العقال ولكنها تلف على رأسها منديلاً من القماش القطني الأسود الناعم ، وقد تربط فوقه وأحياناً تحته منديلاً آخر يكون من الحرير تثنيه طيات متعددة حتى يصبح بعرض الكف ، وتلفه حول رأسها فيظهر على جبينها ، ويربط من خلف الرأس ويُسمّى حطّة وتبقى قمة الرأس مكشوفة ، وبعض الحطات التي تلبسها نساء الشيوخ تكون مزركشة بخيوط القصب الذهبية او الفضية. وتكثر الوشم في ذقنها وأسفل خديها وخاصة نساء عرب الشوايا وهو أمر يندر أن نراه في وجه قروية.



شابان مسلحان. ويبدو إلى اليمين المصور مانوج يلبس عقالاً

ويكون ثوبها في الغالب قاتم اللون ، إما أسود أو أزرق قاتماً ، وله زيق في أطرافه، وقد يكون ملوناً عند نساء بعض القبائل ، خصوصا إذا كانت الفتاة لا تزال غير



عائلة من عرب الشوايا بزيها الخاص

متأهلة . وتلبس فوق ثوبها أحياناً دُرّاعة أو صدرية ذات أكمام من جوخ يختلف شكلها وقماشها بالنسبة للقبيلة وبالنسبة إلى غنى صاحبتها . وهي مزوقة بشريط يخاط فوق أطرافها عند الكمين وعلى دائرها ، وفي صدرها وظهرها . وتنتعل الجزمة في الشتاء ولون الجزمة في الأغلب أصفر أو أحمر وكثير من النساء يسرن في الصيف حافيات .

وبعضهن يتمنطقن بزنار فوق الثوب يختلف باختلاف النساء واختلاف أعمارهن، وهو زينة عند بعضهن . وتلبس بعض بدويات القبائل في الجنوب العباءة تغطي قمة الرأس وتتدلّى حتى الأرض، وهي ما تلبسه النساء النجديات في القرى والمدن .

وتلتفت المرأة إلى زينتها فتقتني بعض أنواع الحلي الرخيصة إلا إذا كان رجلها غنياً. فهي تلبس خلخالاً في رجلها في بعض الأحيان، وتلبس دُمْلَجاً أو إسواراً في ذراعها، وتتختم وتضع حلقاً في أذنيها، وهناك بين نساء بعض القبائل من عرب الشوايا من تضع خزاماً في أنفها وأكثر حُليّ البدوية هو من الفضة الممزوجة أو من النحاس، وقد يكون بعض هذه الحُلي من الذهب إذا كان خزاماً للأنف أو حلقة للأذن.

وقد يبلغ حب بعض البدويات للتزين بهذه الحُلي أن يبعن بعض مؤونة البيت لشرائها ولبسها ، أو يحتفظن ببعض وبر الإبل ليبعنه ويشترين بثمنه هذه المجوهرات الرخيصة للزينة . ومنهن من يجمعن الكمأة ويبعنها ليشترين بثمنها ما يشتهين من الحُليّ .

ولا تعرف البدوية من عرب شمال الجزيرة القناع على وجهها أو البرقع كما هو مألوف عند بعض بدو الجنوب، وتترك أحياناً عقصتين من الشعر على جانبي وجهها تكونان لها بمثابة الشاربين للرجل ، فتقسم بهما إذا لزم لها القسم كما يقسم الرجل بشاربيه ، وإذا أرادت الاحتشام لفت الخمار على أسفل وجهها بحيث يغطي نصفه الأدنى من الجيد حتى الأنف ويسمى هذا لثاماً .

واللثام عند البدو دلالة على التحفظ والرزانة ، وقد يتلثم الرجال حتى لا يعرفوا ، أو تمكيناً لهيبتهم ، وقد ذكروا عن الشيخ نوري الشعلان أنه كان يقضي أكثر وقته ملثّماً حتى وهو في مجلسه .

تكتحل المرأة البدوية عموماً بالكحل وهو مسحوق أسود من حجر الإثمد اللماع يغسل أولاً سبع مرات بالماء ، ثم يوضع في قلب قطعة من العجين مع قليل من الزيت .

ويـوضع في تنـور أو موقـد فيه نـار حاميـة حتى تخبز العجينـة ، ثم يستخـرج من قلب العجينة ، ويؤتى ببعض بزرات من بزر الزيتون والبلح المحمصة وقليل من جوز الطيب



الخزام زينة أنف البدوية . لاحظ شعرها الطويل وزنارها الذي ربطت فيه مفتاح صندوق أشيائها الثمينة



يُعرف عرب الشوايا بتربية الغنم. وتلتفت نساؤهم إلى الاعتناء بهندامهن أكثر من البدويات في القبائل التي تربي الإبل

ويسحق أو يدق هذا كله معاً ، ولكن يجب أن يبخر قبل ذلك على قطعة قماش من الخام المغطس بصبغة نيلية خاصة تحرق ، ويكون في وعاء ، فيلصق في أسفل الوعاء هباب أسود من دخان الخرقة المحروقة ، ويستخلص هذا الهباب ويضاف إلى ما في الوعاء بعد أن يسحق كما ذكرنا ، ثم ينخل هذا المسحوق بشاشةٍ ناعمةٍ جداً فيصبح صالحاً لأن تكحّل العيون به .

اما الرجال فلا يكتحل منهم سوى بعض الفتيان من أهل الهوى ومغامرات الحب وحينما يكون أحد فتيان البدو من هذه الطبقة يسميه البدو « عِلْقاً » . أما عامة البدو

فقلّ ما يلتفتون الى هندامهم وزينتهم ونظافتهم وبخاصة عرب الرولة العريقين في البداوة ولعل لهم عذراً وهو قلة الماء .



قوة شخصية المرأة البدوية تظهر في سيماء وجهها وتتمتع بحرية أكثر من أختها القروية. ومن هنا فلم يجد المصور صعوبة في تصوير النساء دون أن يستشرن رجالهن.

قرويات يحملن الجرار. لاحظ اختلاف زيهن عن البدويات

الحواشي:

(١) Albert de Boucheman, **Matériel de la Vie Bédouine** (Gerardmer, 1934).



البدوية المحتشمة ملثمة ولا ترى مانعاً من تصويرها

الفصل الرابع عشر

الغزو والخوة عند البدو

الغزو

لقد سبق وذكرنا أن البدوي لا يعرف من الصناعات شيئاً بل إنه يحتقر الصناعات على أنواعها ويحتقر الزراعة كذلك. فالبدوية التي تريد أن تهين أحداً لا تجد نعتاً أشدّ تحقيراً له من صانع أو فلاح ـ إن البداوة عندهم هي الأرستقراطية بعينها، وهي ذروة العيش الكريم، ولكن كيف يكسب البدوي عيشه؟ وكيف يقضي أيامه؟ أمامه طريقان لكسب العيش أولهما تربية الماشية، فهو إذا كان من أرباب الإبل فتربية الإبل أهم سبيل لعيشه، ويبيع من نتاجها الذكور ما يكفيه العيش في عامه، وهكذا يفعل كل عام. وإذا كان ممن يقتنون مع الإبل غنماً فهو يربي إبلاً وغنماً، ويبيع من نتاج غنمه الخراف والسمن واللبن الرائب إذا كان قريباً من حدود العمران، أو الكمأة إذا كانت الأمطار الخريفية قد يسّرت ظهور الكمأة في آخر الشتاء. وسبيله الثاني الغزو والسلب، أي الحرب في سبيل الكسب أو في الدفاع عن ماشيته كي لا يسلبها بدو آخرون من قبيلة أخرى. ويروّح عن نفسه في سبيل اللهو والمتعة أحياناً بالصيد فيقتني بعضهم الكلاب والصقور ويصطادون عليها كما سنرى في فصل الصيد عند العرب.

ولنعد إلى أمر الغزو فقد كان يندر أن تجد بدوياً بلغ سن الشباب لا يقتني ضرباً من السلاح. ومع أن السلطات الحكومية في كل البلاد العربية سنّت قوانين لمنع الغزو فإن البدو لا يزالون يتسلحون ولا يزالون يخشون أن يُغزَوا، بل لا يزالون يحبّون الغزو إذا أمكنتهم الفرصة أن يقوموا به وقد كانوا يضطرون إلى النزاع فيما بينهم دفاعاً عن المراعي في بعض الحالات حين تجف المياه في مناطق قبيلة وتجدب الأرض فتقصد القبيلة أرضاً

لغيرها طلباً للماء والكلأ لماشيتها وتصطدم بأهلها. ومن هنا فإن قوة القبيلة وشأنها كانا يقاسان بقوة رجالها وسلاحها، أو قل بفرسانها واستعدادها لمجابهة الخصوم، أو لشن الغارات واحتكار الموارد والمراعي. وإذا كانت المراعي تتسع في أغلب المواسم لتلك الكثرة من القبائل في بقاع الجزيرة العربية، فإن الموارد محصورة في مواضع معيّنة وفي غدران معروفة أو آبار يتنافسون على الورود منها ويتخاصمون في ذلك، كما كان يجري قديماً، بحيث لا يترك القبيل القوي مجالاً للقبيل الضعيف أن يحظى بنصيب كافٍ منها.

ونَشْـرَبُ إنْ وَرَدْنـا المـاءَ صَفْـواً ۝ وَيَشْـرَبُ غَيْـرُنـا كَـدَراً وَطِينـا[1]

وأصبح بعض رجال القبائل محاربين بحكم هذه الحاجة في الأزمان السابقة. فلما استتب الأمن في البادية منذ الثلاثينات، ومنعت المغازي والنهب، صار لا بد لهؤلاء المحاربين من منفذ لاستعدادهم الحربي وخبرتهم في النزال، فدخلوا في قوى البادية عند الدول المجاورة، منذ زمن الانتداب وبعده عند أكثر الحكومات العربية. وقد كانت هناك مثلاً في سوريا أيام الانتداب مراكز لفرق الهجانة في كثير من القرى على حدود البادية كان في بعضها أفراد من بدو هذه البلاد، وكان في الأردن فرق من الهجانة من عرب تلك المنطقة، وصرنا نرى بعض الحكومات العربية في عهد الاستقلال تخطب ود بعض القبائل البدوية خشية من أن تتحول بولائها إلى دولة أخرى. وصار أمر التجنيد عند بعض أفراد القبائل مهنة لا أكثر. ويستطيع البدوي أن يساوم في مهنته جندياً فلا يخدم إلا حيث ينال المعاملة الأفضل. ولعل هذا من الأسباب التي ساعدت على إنشاء قسم من الجيش الأردني شُكّل من أبناء القبائل. وقديماً كان الفاتحون من رجال الدول العربية يعتمدون على البداة في مغازيهم. وكان هؤلاء يرغبون في المغازي لما يؤملون أن ينالوه من مغانم وأسلاب. وكان أكثر البداة في الجيوش من الفرسان والهجانة، ولكن كثيرين من البدو اليوم تعلموا استعمال الآلات الميكانيكية ودخلوا يعملون في الفرق الميكانيكية.

ولا يقل البدوي عن غيره بحسن الرماية، ولو يسّرت له الفرص للتمرن كغيره لكان من الرماة الممتازين. ولكن غلاء الذخيرة يحول بينه وبين التمرين الكافي فلا يستطيع أن ينافس المتمرنين من الرماة الحضر[2]. ومع ذلك فإن منهم رماة بالبواريد الحديثة ماهرين كما كان أسلافهم مهرة برمي السهام. وقد قرأت لثيسجر في كتابه «الرمال العربية» ما قصه عليه البدوي الذي قتل ابن دويلان، وكيف كان ابن دويلان لا يخطىء الهدف إذا رمى، قال البدوي: كان ابن دويلان قد هجم هو وأربعة من قبيلته على أهلنا فقتلوا اثنين من رجالنا، ونهبوا الجمال وهربوا، فلحقناهم واستطعنا أن نسترد الجمال، ولكننا أردنا أن ننتقم لقتلانا فتبعناهم في ذلك السهل الرملي حتى أدركناهم بين

الكثبان، وتبادلنا إطلاق النار فقتلنا الأربعة وقتلوا منا اثنين وجرحوا اثنين. وأدركنا أنه لم يبق من جماعة ابن دويلان سواه. وقد لاذ بكثبان الرمل العالية، فكان كلما ظهر واحد منا عليه تناوله ببندقيته فقتله، حتى قتل أربعة آخرين منا، ولم نستطيع رؤيته مع أننا كنا نعرف من أين كان يطلق الرصاص، وأخيراً أدركت أنه قريب منا ولا يفصله عني سوى رأس الكثيب فزحفت زحفاً أنا وابن عمي نحوه، وما كاد ابن عمي يرفع رأسه وهو يزحف حتى رماه بالرصاص في جبينه وقتله. وشعرت عندها أن بندقيته عَلِقت ولم يعد باستطاعته أن يطلق الرصاص منها، فسللت خنجري وجريت نحوه قبل أن يستطيع النهوض وقطعت عنقه(٣).

ويجهل البدو عموماً كثيراً من فنون الحرب وسبل الخداع التي يألفها المحاربون الحضر في الدول العصرية ولكنهم يعرفون أخبار عدوهم، ويحاولون كتم أخبارهم لكي لا تتصل بخصومهم، ويسلكون السبل التي يجدون فيها ماء وكلأ ولا ينكشفون فيها لأعدائهم، ويعرفون أي أيام توافقهم للغزوات من حيث الظلمة في الليل أو المناخ وهلم جرّا.

ولهم طلائع يرسلونها أمامهم لتكون عيوناً لهم على أعدائهم فلا يباغتونهم إلا وقد عرفوا الكثير عن وضعهم. وكثيراً ما يلجأون إلى خداع عدوّهم بتحويل فريق من غزاتهم لمهاجمة فريق من قبيلة أو عشيرة في جهة ما ويجري الهجوم المباغت الأساسي على فريق آخر في جهة أخرى، أو على ماشية الفريق نفسه في مراعيها.

وإذا باغتوا رعاة قبيلة ونهبوا إبلها مثلاً انشطروا شطرين، فبعثوا الإبل المنهوبة مع شطر يستاقها ويسير بها، وأبقوا شطراً يكمن لمن ينفر من أصحاب الإبل ليصدوهم عن طلبها. وترى أفراد الكمين حين يتراجعون ينسحب بعضهم بحماية آخرين يظلون كميناً حتى يتمركز المنسحبون في موضع وراءهم، فينسحب الباقون إلى ما وراء إخوانهم، ويظلون في هذا التناوب عند الانسحاب حتى ينهكوا النفير، وتصبح الابل المنهوبة أبعد من أن تدرك. وعندئذ ينضم الغزاة معاً ويطردون الإبل المنهوبة أمامهم متجهين إلى منطقتهم. ولكنهم على تيقظهم كثيراً ما يقعون في أشراك الجنود النظامية حين يثورون على الحكومات أو حين يعصون أوامرها ويعبثون بالنظام. وقد مرّ معنا في كلامنا عن الثأر خبر ذلك الغزو الذي نهب قريتي السخنة وارك وكيف وقع في الكمين الذي نصبه له جند الدولة في أواخر الحرب الكبرى الأولى.

ولا تكون المغازي في البادية إلاّ على ظهور الإبل، وقد تُجْنَب الإبل أحياناً بالخيل إذا كان مسير الغزاة إلى أراض بعيدة، فيركب الغازي هجينه وقد جنبت إليها فرس

يركبها عند الغارة الأخيرة أو عند الفرار إذا لزم الأمر ـ ويُسَمّى الجيش عندئذ جنيباً. وقد يغزو البدو على الخيل فقط إذا كانت الأرض التي فيها خصومهم قريبة لا تزيد عن مرحلة أو مرحلتين. وقد يجري أحياناً حين يقرر أهل قبيل الغزو إلى أراض بعيدة ويتفق كل اثنين من الغزاة معاً أحدهما يملك فرساً والآخر هجيناً فيسيران معاً راكبين على الهجين معاً ويسحبان وراءهما الفرس. وعلى الفارس أن يهيىء الزاد والرحل ويركب خلف صاحبه الهجّان إلى أن يصلوا إلى أرض العدو. وتكون عندها الفرس غير تعبة. ولدى وصولهم يعينّ العقيد، أي قائد الغزاة، ثلاثة مواضع تُجَمَّع فيها الزمل (أي الهجن) وتنتظر رجوع الفرسان الذين يجرون نحو العدو، ويكون أول هذه المواضع الثلاثة لا يبعد أكثر من مسافة ميل ونصف عن مضارب العدو، إمّا في واد أو وراء أكمة. فإذا لم يعد الفرسان في الوقت المحدد يسرع هؤلاء مع هجنهم إلى الموضع الثاني وينتظرون هناك يوماً كاملاً مجيء الفرسان، فإذا مضى اليوم ولم يرجع الفرسان انتقل الجميع إلى الموضع الثالث حيث يجب أن يبقوا ثلاثة أيام أو ربما أربعة، ويكون هذا الموضع قد عيّن من قبل بعيداً عن مضارب العدو. فإذا انقضى الوقت ولم يعد الفرسان عاد الهجانة إلى أهلهم مسرعين. أما إذا نجح الفرسان ونهبوا حلال أعدائهم من إبل أو غيرها فيكافأ كل زميل بناقة حتى ولو لم ينجح صاحبه بسلب أكثر من ناقة. ولكن إذا غلب الفرسان فإن الزميل لا يخسر شيئاً. وقد يحدث في بعض مثل هذه المغازي البعيدة أن يهلك كل الفرسان الغزاة لأن زادهم يظل مع الهجن وأصحابها. والفرسان حين يهاجمون مضارب أعدائهم لا يهمهم ما في الخيام بقدر ما يهمهم الحلال من جمال وخيل، إلا إذا كان العدو قريباً من منازلهم فإنهم عندها قد ينهبون الخيام أيضاً وما فيها. وقد يجري في مثل هذه الحالة أن تنجح امرأة جريئة باسترجاع جمل من جمال زوجها إذا عرفت العقيد وجرت وراءه ورجته أن يرجع لها جملاً لأنهم مقطوعون. وتظلّ بقربه حتى يعطيها من ربحه. والغزاة إما أن يكونوا شركاء في كل شيء أو لكل شخص ما استطاع نهبه من متاع أو حلال.

وتعرف البادية نوعاً من السلب ليس غزواً ولكنه أشبه بالسرقة، والبدو يقرونه ولكنهم لا يعتبرونه كالغزو، إنه سطو على طريقة المغاوير Commandos ولا يقوم به في الحادثة الواحدة أكثر من اثنين أو ثلاثة من المغاوير، فتراهم يتسللون ليلاً إلى مضارب خصومهم، ويكمنون بينها حتى تيسّر لهم فرصة يسرقون بها جواداً أو راحلة أو بعض الغنم، وينسلون دون أن يشعر بهم أحد. ويسمى هؤلاء المغاوير حنشلاً لا غزواً، ويدور قسم كبير من قصصهم البدوي على أخبار الحنشل ومغامراتهم، ويحبكون هذه القصص بخيوط من الحب فتدخل فيها الفتاة ويكون بطل القصة أحد المغاوير. ولا يقوم الحنشل

بمغامراتهم إلا ليلاً، ولا يركبون إلا في النادر، وإذا ركبوا فمركوبهم الهجن التي ينيخونها بعيداً عن المضارب ويتركونها في العراء مقيدة بحراسة واحد منهم إذا كانوا أكثر من اثنين أو ثلاثة، أو دون حراسة إذا كانوا أقل من ذلك، وكثيراً ما يذكرون في أخبار الحنشل عن تنكر أفراده كأن يلبس واحدهم جلد شاة ويكمن في منخفض من الأرض قرب مضرب خصومه، حتى إذا عاد الرعيان إلى مضارب أهلهم، انسلّ صاحبنا بين القطيع وأخذ يسير معه حبواً حتى يصل فيظل مع القطيع رابضاً أمام الخيمة إلى أن تسنح له فرصة يسرق فيها إما فرساً يعدو عليها فينجو، أو ذلولاً ينسل بها دون أن يشعر به أحد، أو شاة أو غير ذلك. وفي القصص البدوي يستعان بأفراد الحنشل لإنقاذ الأسرى من أبناء الأمراء إذا كانوا مقيدين عند آسريهم بسبب ما.

وبهذه المناسبة نذكر أن المغازي هيأت للبدوي المغامر فرصة لإظهار بسالته وشجاعته وفروسيته، وترى البدوي حين يتحدث عن بعض مآثره في هذا السبيل يتحدث بلذة وسرور لا تعدلها لذة وسرور - إن الغزو ميدان لا للربح وحسب بل لإظهار الفروسية والبأس، وهو بهذا ضرب من ضروب الترويح عن النفس حين تسأم الحياة الرتيبة في الخيمة أمام موقد النار وحول الأعمدة، وإذا قدّر له وعاد غانماً أخذ يُنْشد أغاني الظفر والفخر، وارتفعت مكانته في عيون أبناء قبيلته وبناتها، وبنوع خاص في عيني فتاته إن كان قلبه عالقاً بحب فتاة.

وفي الغزو للبدوي فوق هذا مجال لتحقيق أمانيه بالغنى إن كان فقيراً فهو يظل مؤملاً أن يفلح في غزوة ما فيسعد ويغنى.

الخوة

لقد ألف البدو أن يفرضوا على أهالي القرى المجاورة للبادية نوعاً من الضريبة لقاء حمايتهم أو عدم التعدي عليهم وكانت تسمى هذه الضريبة «الخوة» وربما فرضوها أيضاً على المسافر الذي يعبر في المناطق التي ينزلونها وتصبح من ديارهم.

وقد تعود الأهلون حفاظاً على أنفسهم أو على أموالهم وتجارتهم أن يدفعوا هذه الخوة لشيخ القبيلة أو لأحد المتنفذين فيها.

وهي جعل معلوم من المال يصحبه احياناً بعض الهدايا من ثياب ومؤن. وكانت كل قرية لها تجارة أو معاملة مع البدو أو لها ماشية تتعرض لغزوات البدو وتتفق مع متنفذ في القبيلة فتجعله أخاً لها وتدفع له حق هذه الأخوة أي «الخوة».

ولقد كانت تجبى هذه الضريبة من أكثر القرى على حدود البادية زمن الأتراك وفي أول عهد الانتداب، وبعدها استطاعت السلطات المنتدبة والحكومات المحلية أن تمنعها فتوقف الأهلون عن جمعها ودفعها.

وعلى سبيل المثال أذكر مقدار الخوة بالمجيديات التي كان على أهل القريتين في القرن التاسع عشر أن يدفعوها سنوياً إلى كل من شيوخ القبائل التالية وكان المجيدي يساوي خُمس الليرة العثمانية الذهب تقريباً. للرولة ٧٠، ولولد علي ٣٠، وللحسنة ٢٠، وللغياث ٢٠، وللسبعة ١٦ وللفدعان ٢٠، وللعمارات ٣٠[٤].

وكان باستطاعة القروي أن يسافر ويتنقل في كل الأراضي التي تنزلها قبيلة ما أو تسرح إبلها في مراعيها دون خوف أو وجل شرط أن يكون أهل قريته قد دفعوا الخوة التي عليهم إلى صاحبها، أو إلى شيخ القبيلة الذي فرض عليهم هذه الخوة.

حتى إذا انتهكت هذه الاتفاقية وسطا أحد البدو من أهل القبيلة نفسها على القروي كان صاحبه الذي يأخذ الخوة يتكفل في أن يعيد إليه ما نهب منه، وكانت تختلف الخوة باختلاف القبيلة والقرية وهي كما رأينا لا تتجاوز بضع ليرات ذهبية وبعض الهدايا. وقد انقطعت كما قلنا الآن إلا في حالات خاصة بين بعض الأفراد من البدو وبعض الأفراد من التجار، وتصبح في هذه الحالة شيئاً من المساعدة للتاجر وليس خوّة لكي يسهل عليه تعاطي مهنته بين البدو.

كذلك كانت أكثر القبائل تتقاضى خوة لا من أهالي القرى المتاخمة للبادية وحسب بل من بعض القبائل الأخرى الذليلة التي تحتمي بكنفها كقبيلة الصلبة التي كانت تعقد عقد خوة مع خمس عشرة قبيلة من القبائل القوية لحماية نفسها وتدفع خوة لشيخ كل منها.

الحواشي:

(١) من معلقة عمرو ابن كلثوم، شرح القصائد العشر، ص ١٢٢.

(٢) لقد اشتط كثيراً عبد الجليل الطاهر حين زعم في كتابه «البدو والعشائر في البلاد العربية»، القاهرة ١٩٥٥، ص ٥٤ أنه «عندما يبلغ البدوي الرابعة عشرة من عمره يذهب إلى الرماية برفقة أحد افراد القبيلة، فيقضي كل يوم ثلاث ساعات يتمرن فيها على الرماية مدة ستة أشهر، فبعد الانتهاء إن أصاب الهدف ثماني بالمئة جُعل فارساً ولا يبقى راعياً، وإذا بلغ العشرين يُعاد تمرينه على الرماية شهراً واحداً، فإذا نجح رُقّي إلى مرتبة فارس وإلا بقي راعياً. وفي الخامسة والعشرين يمرن ثالثة شهراً واحداً، وهو آخر تمرين، فإذا نجح صار فارساً وإلا فإنه يصرف حياته راعياً». والواقع أن البدوي العنزي الذي خالطته لا يعرف مثل هذه الأنظمة التي ذكرت بل إنه يجهل أحياناً كثيرة عمره ولا أظن البدو من القبائل الأخرى يختلفون عنه. ومن الممتع أن نعلن أن دوتي يزعم أن البدوي بوجه عام ضعيف الرماية. دوتي ١ : ١٧٣.

(٣) **Arabian Sands**, p. 226.

(٤) Musil, **Palmyrena**, p. 100.

الفصل الخامس عشر

البدو والصيد

يذكر عن أرسطاطاليس أنه قال: أول الصناعات الضرورية الصيد ثم البناء ثم الفلاحة[1] ، ولعلّ سبب ذلك هو أن الصيد ألصق الصناعات بحياة الإنسان الأول الذي لم يكن له طريق في سبيل بقائه إلا أن يسطو على ما هو أضعف منه من الحيوان ويأكل لحمه . حتى إذا تقدم في تطوره ، وانتظمت معيشته بتربية الماشية في حالة البداوة ، ظل الصيد ألصق الصناعات به ، لأنه كان من أيسر السبل على اكتساب الرزق في مثل بيئته البدائية القاسية ، فقد كان يضنُّ بماشيته التي دجنها واعتمد في غذائه على لبنها ، فلم يذبحها ليأكل لحمها إلا مضطراً ، وإذا لم يكن لديه موارد للعيش جاهزة غيرها ظل يتطلع إلى الحيوانات والطيور غير الداجنة كمورد رزق له ، وظل يصطنع الصيد سبيلاً لبلوغ ذلك المورد . ثم إن الصيد فوق ذاك متعة هي بدورها من ألصق المتع بحياة البادية التي ألف البدو فيها أن يغزوا على جيرانهم ويغزى عليهم ، وأن يكون منهم العدّاؤون والشجعان والرماة والفرسان ، وهذه المتعة تدرّبه على ان يكون من الابطال او الفرسان ، وبالفعل كان الصيادون عند العرب من اشهر الرماة والفرسان سواءً أكانوا أمراء أم صعاليك . وقد شابهوا بذلك جدّهم الأكبر إسماعيل الذي تذهب الأخبار إلى أنه كان رامياً مولعاً بالقنص .

ولما كان العرب من أعرق الأمم بداوة كان الصيد عندهم أكثر انتشاراً وأعم متعة مما هو عند غيرهم من الامم المتحضرة ، ومن هنا فاننا نقرأ عن صعاليك عاشوا على النهب والصيد كالشنفرى والسليك ابن السلكة وتأبّط شراً وغيرهم ، ونرى أمراء في العصر الجاهلي كامرىء القيس وغيره يفتخرون بهذا الضرب من اللهو ، ويذكرون كيف كانوا يصيدون الوعول والظباء . بل إننا نرى في أقدم النقوش التي عرفت في البادية

صورة الوعل مقرونة إلى الجمل الذي يعيش عليه البدوي ، كأنما تشير إلى شدة الصلة بين الصيد وحياة البادية[٢] . كذلك نرى بين النقوش المصرية صورة الوعل مقرونة إلى شيخ أموري صياد ، يفد إلى مصر حوالي ١٨٩٠ ق.م. لا يختلف بشكل عن البدو[٣] . وورث البدو هذه المتعة أباً عن جد بل جعلها بعضهم طريقاً لكسب العيش كما نرى .

ولقد ساعدت هواية الصيد العرب الفاتحين فكان الصيادون من أحسن الرماة، وشجع الإسلام الرماة ، وقربها الرسول العربي إلى ركوب الخيل ، وجعلها أحبَّ إليه من الركوب قال : « ارموا واركبوا الخيل وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا » . وقال : « كل لهو لها به المؤمن فهو باطل إلا ثلاث خلال : رميك عن قوسك ، وتأديبك فرسك ، وملاعبتك أهلك، فإنهن من الحق »[٤] . بل هناك إشارة صريحة في القرآن إلى إباحة الصيد حيث ورد في سورة المائدة : ﴿ يسألونك ماذا أُحلّ لهم قل أُحلّ لكم الطيبات وما علَّمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله﴾[٥] وورد أيضاً: ﴿أُحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحُرم عليكم صيد البَرِّ ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي اليه تحشرون﴾[٦] .

أما آلة الصيد قديماً فقد كانت السهام يبريها الصياد ويريشها ويطلقها على الصيد فيرديها، أو الحراب، مستعيناً بجواد يوصله إلى مواطن الصيد، أو فهد أو كلب يوزعه على الطريدة لكي يردها إليه ويمنعها عن الهرب ، أو صقر أو باز يساعد في صيد الطير والصغير من الحيوان . ولا تزال إلى اليوم بقايا قطع من السهام توجد على سفوح الهضاب في جوانب البادية كلها .

وكانت أهم الحيوانات التي يقصدون صيدها بقر الوحش وحمر الوحش والظباء والوعول والأرانب. ومن الطيور النعام والحبارى والكراكي والحجل والحمام والدراج والقطا. وكانوا يستعينون بالطيور الجوارح على أكثر هذه الطيور المذكورة، وبالكلاب السلوقية والفهود والخيل والهجن والحمر الصليبية على صيد الحيوانات .

ولقد طرأ على الحياة العربية تطورات كثيرة فتغيرت كثير من مظاهرها وتبدلت أوضاعها، ولكن هذا الضرب من اللهو لم يتغير كثيراً إلا من حيث الوسائل التي يستعملها الإنسان. فقد بطل استعمال السهام حين اكتشف البارود ، واعتمد على البنادق . ويستعين بعض الناس اليوم على طرد الصيد بالسيارات والطيارات بدل الخيل والجمال .

ويظهر أن هذه المتعة هي من المتع التي يسرها الله للأغنياء والفقراء معاً ، على

تباين الطرق إليها، ففيها يتفق الملك الغني الجبّار والفقير الرث الأطمار، ويظهر أن لذة الظفر بالطريدة هي التي تحبب إلى الناس هذا اللهو ، وقد يكون لدى الفقير لذة أخرى حين يحقق له صيده كسباً في معاشه ، ولكن لذة طرد الصيد والظفر به هي الأساس، وقديماً قال الشاعر محمود بن الحسين البغدادي المعروف بأبي الفتح كشاجم:

« لَولا اَطِّرادُ الصَّيدِ لَمْ تكُ لَذَّةٌ فَتَطارَدِي لي بِالوِصالِ قليلا
هذَا الشَّرابُ أخو الحَياةِ ومالَهُ من لَذَّةٍ حَتَى يُصيبَ غَليلا »[٧]

بل ليس غريباً أن يكون لهذا الضرب من اللهو اليوم أثر في حياة البدوي أكثر مما كان له من قبل ، وذلك حين أخذت الحكومات النظامية في كل البلاد العربية تحول بين البدوي وتهديده للعمران ، وتمنع البدوي عن القيام بالغزو والنهب وشن الغارات ، فلم يعد باستطاعته ان يجد السبيل الذي ألفه لإظهار بأسه وشجاعته وفروسيته ، فجنح إلى اللهو بالصيد وتربية الكلاب والصقور لتحقيق اللذة التي حرمها حين حرم القيام بالغزو .

وقد اشتهر اليوم بين قبائل البدو في الجزيرة العربية كلها قبيلة عرفت بالصيد بحيث كاد يكون مهنة لأكثر أفرادها هي قبيلة صليب التي سنبحث أمرها في فصل خاص .

أما الحيوانات والطيور التي ربوها واستعانوا بها في أمور الصيد فهي الخيل والهجن والحمر الصليبية والكلاب السلوقية والفهود والصقور ، وكانوا يحاولون أن يصطادوا بواسطتها المها وحمر الوحش والوعول والظباء والنعام والحبارى والأرانب وأنواعاً أخرى من الحيوانات والطيور . وقد أتينا في الفصول السابقة على ذكر هذه الحيوانات والطيور بين حيوانات البادية وطيورها ، وسنبحث فيما سيلي طرق الصيد التي سلكوها في سبيل اقتناص هذه الحيوانات المختلفة .

بقي شيء واحد أود أن أؤكد عليه ثانية في ختام هذا الباب وهو أمر مهارة الصيادين بالرماية بالسلاح الحديث ، فليس من شك في أنهم قديماً كانوا مهرة بتسديد الرماية بالسهام ، وكانوا يمرنون أبناءهم على ذلك ، ولكن الأمر يختلف فيما يتعلق بالبنادق الحديثة ، وإذا استثنينا بدو صليب ، فإن أكثر الرماة بين البدو لا يختلفون كثيراً عن بقية البشر من حيث المهارة في إصابة الهدف، إلا أن أكثرهم لم يتسنَّ لهم من فرص التمرين مثل ما يتسنى للصيادين من أهل الحواضر برغم ما يزعمه البعض كما سبق وذكرت ، ولهذا تجرأ دوتي فقال إن البدو يخطئون الهدف تسع مرات من العشر وذلك

حين تحدث عن بدوي انه صوّب بندقيته نحو وعل فلم يصبه[٨] .

طرق الصيد

تتنوع طرق الصيد بتنوع الطريدة وتختلف كذلك باختلاف الناس ، فصيد الغزال يختلف عن صيد الحبارى ، وصيد البدوي يختلف عن صيد القروي المجاور للبادية ، وربما اختلف كلٌ منهما بطرق الصيد عن الصليبي البدوي المتخصص بالصيد. ومن الخير أن نجزىء الموضوع إلى فروعه الرئيسية ونبدأ بصيد الغزال.

صيد الغزال ـ طريقة المصايد

لصيد الغزال طرق متعددة أبسطها المصائد التي يقيمونها له في البرية الواسعة ، ذلك أن الغزال كالبدو يتنقل في البرية من موضع إلى موضع طلباً للكلأ والماء. وله رحلتان كما ذكرنا في بحثنا عن الغزال تكادان تكونان منتظمتين كل سنة رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ولعل الأَوْلى أن نقول ان الغزال كالبدو ينتجع الأرض المعمورة في أوائل الصيف طلباً للماء والكلأ ، ويعود إلى البادية في أوائل الخريف حين يبرد الطقس أو ينزل المطر أو تقل حاجته للماء . وهو في سيره من البادية إلى المعمورة يسلك سُبلاً معروفة لا يكاد يتعداها ، فإذا قرب من الأراضي المعمورة اعترضته حزون أو هضاب مرتفعة ، فيقصد الثنايا التي يراها من بعيد ، ويحاول العبور منها ، ومن طبيعته أنه يسير قطعاناً تقوده عنز من القطيع تسمى النجود ، فإذا أحست بالخطر جرت أمام القطيع فيتبعها القطيع كله .

وقد أدرك الصيادون من سكان القرى على حدود البادية أو في واحاتها هذه الغريزة في الظباء وعزفوا السبل التي يسلكها غالباً في العبور من بقعة إلى أخرى عند لجوئه إلى الأراضي المعمورة ، فبنوا لصيده خلف الثنايا والمرتفعات مصائد ليوقعوه فيها . اما شكل المصيدة وطريقة بنائها فهما كما يلي:

يبنى جداران بارتفاع متر تقريباً أو أكثر من حجارة عادية تلتقط من التلال والحزون القريبة في منتصف السهل الذي تمر به الظباء لبلوغ الثنية في المرتفع الذي تريد عبوره ، ويبعد أول الجدار الواحد عما يقابله في الجدار الثاني نحو كيلو متر أو أقل ، ويدنو الجداران الواحد من الآخر كلما اقتربا من الثنية ، بحيث لا يبقى بينهما سوى نحو عشرة

أمتار كمنفذ لمتابعة السير ثم ينفرج الجداران معاً ويكوّنان معاً دائرة واحدة قطرها نحو مئة متر او أكثر ، ويحفر خارج جدار هذه الدائرة ست حفر أو سبع تسمى آباراً توزع في محيط الدائرة عمق الواحدة نحو ثلاثة أمتار، وقطرها نحو خمسة ، ويجب أن تلاصق هذه الحفر جدار الدائرة حيث يكون فيه ثغرة متصلة بالحفرة . فإذا حاول قطيع من الظباء عبور حَزْن أو هضبة أو جبل مما يعترض طريقه وهو يتجه نحو الأراضي المعمورة ، قصد كما أسلفنا الثنية الظاهرة ، ومر دون أن ينتبه بين الجدارين المتقابلين ، فإذا اندفع بسيره إلى الأمام صعب عليه الرجوع إلى الوراء ، وذلك لأن الصيادين قد جعلوا بكل جدار نتوءات بارزة إلى الداخل ، ووضعوا عليها من الداخل رقعاً ملونة من القماش لا يكاد الغزال يراها حين يلتفت إلى الوراء حتى يجفل ويسرع باندفاعه إلى الأمام ، ويتورط أكثر من قبل في سلوك طريقه إلى المصيدة . ومتى بلغ أضيق موضع بين الجدارين اسرع بجريه ونفذ منه إلى الحلقة التي وصفنا . وهنا يشعر أنه أصبح ضمن حلقة لا يستطيع الخروج منها إلا إذا وثب إلى ما وراء الثغرات المفتوحة فيها ، فتراه يثب فوقها فيقع في الآبار المعدة لاستقباله . وقد يكمن الصيادون في مخابىء عند مدخل الدائرة فإذا تأكدوا من دخول القطيع ضمن الدائرة نهضوا من مخابئهم ووقفوا في المنفذ خلف القطيع وهاجوه فيجفل القطيع كله ويندفع نحو الثغرات المشار إليها. أو قد يصحبون معهم كلباً يطلقونه خلف الغزلان فتجفل وتقفز فوق الثغرات . وكثيراً ما يقع في حفرة واحدة أكثر القطيع ، وذلك حين يظل تابعاً للنجود التي تثب قبله إلى الحفرة فيتبعها ويقفز وراءها قبل أن يحشر وتظل الظباء حية بهذه الطريقة إلاّ تلك التي تتكسر بعض أطرافها فقد يجوز أن تطأها بقية الظباء فتموت. وقد منعت الحكومات في السنين الأخيرة صيد الغزلان بهذه الطريقة وكانت المصائد قد أهملت فتهدمت أكثر جدرانها، ولكن برغم هذا كله فإن الصيادين كانوا يقصدون هذه الآبار أحياناً في أوائل هذا القرن فيجدون غزلاناً قد وقعت في بعضها[٩] .

الطرد دون الاستعانة بالكلاب

وهناك طريقة أخرى لصيد الغزال وهي الطريقة الأساسية التي يتبعها بدو صليب وتقوم على ما يلي : يعمد الصيادون قبل كل شيء إلى التنكر فيلبسون أثواباً من جلد الغزال ، حتى أنهم ربما ستروا بنادقهم بجلد الغزال ، ويسيرون أزواجاً في بقاع مختلفة ، واحد يحمل السلاح وهو القنّاص ، وآخر يطرد الصيد ويسمّى الحوّاش . فإذا رؤي قطيع من الظباء في موضع ما عن بعد ـ وكثير من الصيادين اليوم يستعينون بالمناظير ـ عمد من وُكِّل بالطرد أي الحواش إلى الجهة التي يهب منها الريح ، فيجعل الظباء بينه

وبين الصياد، ويأخذ بالاقتراب منها بحيث تشعر به وتندفع إلى جهة القنّاص، الذي يكون قد كمن في منخفض بطريق مسيرها ، ولا تستطيع أن تستشعر وجود الصياد لأن الريح تهب من جهتها إليه، ولا تستطيع أن تراه لتنكره بـارتداء جلودهـا حتى تقترب منـه ، فيفاجئها ويصطاد ما يستطيعه منها ، وقد يحدث أن يمر القطيع فـوق الصياد ويـطأ عليه أحياناً قبل أن يستشعر وجوده ، وقد يستعين الحوّاش بالحمار فيطرد الصيد وهـو يسوق الحمار أمامه أو وهو راكبه .

الطرد بواسطة الكلاب والصقور

وهناك طريقة أخرى يستعين بها الصياد بالكلاب السلوقية أو بالكلاب والصقور ، فتساعد الكلاب على طرد الظباء إلى جهة الصياد أو تلف حولها بحيث يستطيع الصياد أن يكمن بطريقها وهي هاربة أمام الكلاب .

وقد استغرب مارك ألن في كتابه البيزرة أو البـزيرة في الجـزيرة العـربية استعـانة الصيادين بالصقر في صيد الغزال ، ورأى أن في الأمر مشكلة ليس من اليسير قبولهـا ، ولكنه أراد ذكرها لأنها وردت في أخبار العرب ، ثم ذكر أنه لم يقابل بدوياً من الصيادين قال له إنه صاد غزالاً بواسطة الصقر وحـده[١٠] . وهذا صحيـح لأنه من العسـير على الصقر أن يفتك وحده بالغزال . ولكن الصيادين القدماء الذين ورد ذكرهم في المصادر العربية التي اشار اليها كانوا يستعينون بالصقر حين يوزعون الكلاب على الغزلان فتعجز عن اللحاق بها ، فيوزعون الصقر عليها ، فيحولها عن مجراها ، ويسهل على الكلاب ان تلحق بها . ومن يقرأ مذكرات أُسامة بن منقذ يجد أن أسامة أشار إلى مساهمة الصقر في صيد الغزال في مواضع من كتابه فقال مرة عن والده وكان يرافقه في الصيد : « وأرسل يوماً الصقور على الغزلان والأرض غب مطر ثقيلة بالوحل »[١١] ثم قال : « وقد صرعت الصقور والكلاب الغـزال »[١٢] . وقال في مـوضع ثـالث : « وإن قفز غـزال خرج إلى الفهود ارسلوا عليه فإن أخذ وإلا أرسلوا عليه الصقور فما يكاد يفلت منا صيد إلا بفسحة الأجل »[١٣] .

وقد كان البدو يستعينون بالخيل على طرد الغزلان ويطلقون الكلاب للف حـولها وردّها إلى الفرسان وظلوا كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر وكذلـك كانـوا يفعلون عند صيد الفهد .

الطرد بواسطة السيارة

ويستعين بعض شيوخ البدو والهواة من الصيادين في القرى والمدن اليوم بالسيارة

على صيد الظباء، فيقصدونها في مسارحها وسط السهول، ويطردونها في الأرض التي يمكن للسيارات أن تسبقها فيها، ومتى بلغوها وهي هاربة أمامهم أطلقوا عليها النار وقتلوا ما استطاعوا منها وهي طريقة لا تقل قساوة عن طريقة المصايد التي ذكرناها سابقاً. ويندر في الأرض السهلية أن ينجو غزال من القطيع كله إذ أن الظباء كلها تتبع النجود كما ذكرنا، فتراها وهي هاربة خطاً واحداً كحبات العقد حتى تصل السيارة بجانبها، فيتناول الصيادون ببنادقهم القطيع واحداً واحداً دون أن يتوقفوا حتى يأتوا عليه، أو على أكثره، ثم يعودون أدراجهم يلتقطون صيدهم من الأرض. وقد منعت الحكومات الصيد بهذه الطريقة أيضاً، ولكن المراقبة قليلة بل ليس هناك من مراقبة على بعض رجال الحكومات أنفسهم وعلى بعض أصحاب النفوذ من هواة الصيد.

وقد يعمد الصيادون إلى طلب الصيد بسياراتهم ليلاً، فيقصدون السهول التي يسرح فيها، ثم يديرون أضواء سياراتهم في مختلف الاتجاهات حتى تتلاقى وعيون الظباء في السهول، فيبدو لمعانها، وتعرف مسارحها، فتقصد، ولا تتحرك الظباء من مواضعها إلا قليلاً حين توجه إليها أنوار السيارات، فتظل واقفة ذاهلة مدهوشة لا تتحول عن مراكزها حتى تبلغها السيارات، ويصطاد منها الصيادون. وإذا هربت فإن أنوار السيارات وحدها كفيلة أن تعيقها أو توقفها.

طريقة الكمن بالنوجة

وقد يكمن الصيادون وبخاصة الصلبة يجاريهم في ذلك بعض الصيادين من القرويين المجاورين للبادية، في الليل عند بعض الغدران في مخابىء أو حفر يحفرونها ويحيطونها ببعض الحجارة بحيث تخفي أجسامهم ويتوفقون إذا كانت الحفر معاكسة لاتجاه الهواء لأن الظباء تعتمد في الاحتماء على حاسة الشم أكثر مما تعتمد على حاسة النظر، ثم تأتي الظباء للورود من ماء الغدران، فيباغتونها ويصطادون منها. وتتسع الحفرة لمرجل أو رجلين لا أكثر، وتكون بعمق نحو نصف متر، ثم يبنى حولها حائط من حجارة صغيرة بارتفاع نصف متر أيضاً بحيث إذا جلس الصياد فيها لم يظهر شيء منه، ويجعل في الحائط نوافذ تتسع لفوهة البندقية تطلق منها النار على الطريدة حين تقترب من الماء، وتصبح في متناول الصياد. وتسمى الحفرة «نوجة»(١٤) ويظهر أن استعمالها يعود إلى عهد قديم.

أما إذا كان البدو ظاعنين فأفضل بقعة للصيد عندهم هي الأرض التي تفصل بين الطلائع التي تسبق الظعن وبين الظعن نفسه، ذلك أن الطرائد مما يصاد أياً كانت حيواناً أو طائراً كالنعام والحبارى تُحْشر غالباً في هذه البقعة التي تمتد نحو ميلين، فإذا فاتت

الصيادين وفرّت أو طارت باتجاه الظعون أو الطلائع ردتّ على أعقابها مرغمة نحو الصيادين.

صيد الوعول

تعيش الوعول في الجبال، وتعتصم بأعلى قننها، ولها قدرة غريبة على تسلق القمم الصخرية والانتقال بينها، ولا تكاد تجد حيواناً آخر يضاهيها فيها، وأغلب الجبال المجاورة للبادية لا ترتفع عن سطح البادية المحيطة بها أكثر من ثلاثمئة أو اربعمئة متر، ولا تزيد طولاً عن عشرة كيلومترات، وقد يجوز أن يكون في السلسلة الجبلية الطويلة ستة أو سبعة جبال، تفصل بين الواحد والآخر منخفضات أو أودية، بحيث يسهل على الصيادين أن يحصروا بعض الصيد في مساحة صغيرة، وقد توجد في كثير من الجبال على ضفاف البادية عيون ماء ظاهرة يمكن للوعول في فصل الصيف أن تصل إلى سطح الماء فيها وترد منها، ومن هنا كانت هذه العيون أو ما يجاورها من أرض خير بقعة يكمن فيها الصيادون لصيد الوعل. ومن الممتع أن نعلم أن العرب سمت هذه العيون بأسماء منسوبة إلى الوعول، ففي الجبال الشرقية القريبة من تدمر عين تسمى عين الوعول، وكذلك في الجبال المجاورة لمنطقة النفود عين تسمى عين الوعول، ويسمي البدو الوعل «البدن»، فكل عين اسمها عين البدن، هي أيضاً عين تتردد إليها الوعول، أو كانت تتردد إليها. والطريقة الفضلى لصيد الوعل هي إما أن يكمن الصياد قرب العين في طرق الوعل بحيث تأتي الريح من الجهة التي ينتظر مجيء الوعل منها، أو أن يكمن في موضع في الجبل، ويستعين بآخرين يطردون له الوعول من جهات الجبل المختلفة كي تمر قربه فيصطاد منها. وفي كل هذه الحالات يجب أن تكون ثياب الصياد بلون التراب بحيث لا تراه الطريدة، ويجب أن يكون اتجاه الريح موافقاً لاتجاه الطريدة بحيث لا تستطيع أن تشم رائحته، إذ الريح تجري منها إليه. وقد ذكر لي بعض صيادي الوعول في القريتين أن الوعول كادت أحياناً تمر فوق أجسامهم وهم بين الصخور، وأكثر الجبال التي يتردد إليها الوعول تحتوي على معاقل صخرية يلجأ إليها الوعل إذا أحرج فيعتصم بها، وقد ذكر لي والدي أنه رمى وعلاً ذات يوم برأس معقل في جبل الباردة فقتله، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إليه في رأس الصخرة العالية فكانوا يرونه متدلياً على جانب الصخرة التي لم يتمكنوا من تسلقها وعادوا من الصيد وقد ترك الوعل وأخذت تحوم حول جثته في اليوم الثاني الطيور الكاسرة من رخم وغيرها.

وقد كان الأمير يوسف كمال المصري وبعض رجال حاشيته بين الحربين الكبريين وقبلها، يقصدون الجبال المجاورة لتدمر لصيد الوعول، فيستأجرون نفراً من الصيادين

في القريتين وتدمر ليطردوا لهم الوعول على الطريقة التي ذكرنا، ولكن يجب أن أذكر هنا أن الأمير يوسف كمال لم يكن يسمح لأحد من مرافقيه بالصيد، ولم يكن يصيد هو نفسه سوى الذكور من الوعول والغزلان وكثيراً ما كان يكتفي بصيد وعل واحد غير أن هذه المناطق الجبلية أصبحت وقد سادها الأمن، مراعي لرعاة الماعز القرويين ولرعاة الغنم من البدو فصيدت أكثر الوعول منها، وأجلي ما تبقى إلى الجبال البعيدة، وليس غريباً أن ينقطع هذا الحيوان من جبال البادية إذا ظل الرعيان والبدو في أثره.

صيد الأرانب

تصاد الأرانب بواسطة السيارات ليلاً كما تصاد الغزلان، وذلك في أن تحوّل إلى عيونها أنوار السيارة فيبهرها الضوء القوي، فلا تدري أين تفر، وهي كلما اتجهت لجهة النور انعكس النور من عينيها فلمع بريقها، وظهرت للصيادين فأصلوها النار.

وتصاد كذلك نهاراً بواسطة كلاب الصيد السلوقية التي تطلق عليها حين تراها، وتستطيع اكتشاف مخابئها وراء شجيرات العشب، وبواسطة الصقور التي تطلق عليها، فتحلق في الفضاء وتحوم فوق حتى تراها، فتنقض عليها وتقتلها. وقد يصيدها الصيادون دون الاستعانة بالكلب أو الصقر إذا كان الصياد يستطيع أن يلاحقها من مجثم إلى مجثم وإذا استطاع ببصره أن يُعَلّم وراء أي شجرة عشب اختبأت، فإنها تظل جاثمة في مخبإها حتى يقترب منها الصياد، فإذا نهضت هاربة منه أطلق عليها النار فإذا لم تصب انطلقت بعيداً وقامت بدورة كبيرة حول البقعة التي كانت تسرح فيها أو التي أوكارها منها وعادت إليها بعد حين، ويمكن للصياد الخبير في مثل هذه الحالة أن يكمن لها عند عودتها وراء شجيرات الأعشاب التي كانت تسرح بينها وعندها يسهل عليه اصطيادها. وليس من شك في أن أفضل الطرق هي الطريق التي يتبعها البدو وهي الاستعانة بالكلب السلوقي والصقر معاً، فإن الكلب أقدر على كشف مخبإها وراء الأعشاب، وأن الصقر محلقاً أقدر على رؤيتها وهي تجري، وكلاهما يعين الصياد على تعيين موضعها واصطيادها.

صيد الحبارى

أما الحبارى فصيدها من أمتع الصيد وأبهجه، فهي أولاً تصاد كالغزلان بواسطة السيارات، وذلك أن الصيادين يقصدون السهول التي تستطيع أن تجري فيها السيارات بسرعة، فيطلبون الحبارى فيها فإذا صادفوا سرباً منها أو بضعاً منها طارت أمامهم على علوّ منخفض، فإذا استطاعت السيارة أن تدركها وهي طائرة مر الصيادون تحتها وأطلقوا

عليها نيران بنادقهم، غير أن هذه الطريقة لا تتم على وجهها الأكمل إلا إذا كان مع الصيادين صقور يطلقونها عليها، ففي هذه الحالة يظهر فضل الصقر وبراعته في ملاحقة الطريدة وصيدها. وليس أيسر من صيد الحبارى على الصقر فما هو إلا أن يراها في الفضاء حتى يحلق فوقها وينقض عليها فإذا هي بين مخالبه في الأرض. وقد تراوغه أحياناً في الهواء حتى تصبح أمامه، فإذا أحست أنه أصبح خلفها تماماً وقد كاد يدنو منها سلحت عليه سلحاً سائلاً فبللته، بحيث يرجع عنها ولا يتمكن من الطيران يومه كله فتنجو وينجو غيرها من شره. وكذلك تفعل وهي على الأرض إذا استطاعت، فإنها تدير ذيلها وتستقبله به كيف دار فإذا اقترب منها سلحت عليه. ولعل سلحها هو من الخوف، وقد سلَّحتها الطبيعة بهذا حماية لنفسها وجنسها. ومن هنا فقد زعموا أن الصقر يلقى الحبارى عن جنبيها ويدخل ويعلو عليها ليخطئه ذرْقُها[١٥].

أما البدو فإنهم يطلبونها في السهول التي ترعى فيها، ويستعينون بالصقور التي يربونها كما ذكرنا، فهي التي تصيدها لهم كما كان يفعل العرب القدماء، وأكثر الأمراء في الجزيرة اليوم يقتنون الصقور ويستعينون بها على صيد الحبارى في بواديهم، وترى صاحب الصيد قد هيأ لنفسه قفازاً يضعه على يده ليجلس الصقر عليه.

صيد القطا

لقد أسلفنا أن القطا أعمّ طير في البادية، وأنه يطير أسراباً قد تبلغ كثافتها بحيث يمكن للبدوي أن يرمي منها واحدة بحجر مقلاعه، ولا يلتفت الهواة من صيادي البدو إلى صيد القطا بقدر ما يلتفتون إلى صيد الحبارى، بل لعل الصقور لا تستطيع أن تصيد القطا بمثل هذا اليسر الذي تصيد به الحبارى ذلك أن القطاة إذا كانت منفردة تلزم الأرض كثيراً وتستجن من البازي في مكامنها ولهذا كان للبازي فضل إذا استطاع صيدها[١٦]، ومن هنا فإن طرق صيد القطا تختلف تمام الاختلاف عن صيد الحبارى.

وأكثر الطرق شيوعاً عند البدو هي صيده على الأرض حين ينزل أسراباً كثيرة، سواء أكان ذلك في السهول التي يرعى فيها، أم عند المياه التي يردها. أما أهل القرى المجاورة للبادية فإنهم يصيدونه بطريقة النوجة التي ذكرنا في صيد الغزال. فإن القطا بطبيعته وعلى اختلاف أنواعه يحب الماء ولا سيما في فصل الصيف، فتراه يقصد الغدران والعيون الجارية أسراباً أسراباً، فيكمن الصيادون في النوجات التي وصفنا من قبل، ويصيدونه. وقد يبلغ ما يُرْمَى بطلقة واحدة من بندقية الرش ما يقارب الخمسين وأكثر،

ولا أبالغ إذا قلت إن الأرض أحياناً حول التوجة تغطى بالقطا بحيث لا يظهر شيء من سطحها. ولا أزال أذكر حين كنت أصيد القطا وأنا في النوجة أن بعض فراخ القطا كانت ترد الماء فتملأ حواصلها وتبلل ريشها فلا تستطيع الطيران حين يطلق عليها النار وهي لم تصب، وكنا نجمعها ونقطع قوادم أجنحتها ونبقيها حية، وقد عاش بعضها عند بعض القرويين مع الدجاج زمناً طويلاً.

ويجب على الصياد في النوجة أن يخفي نفسه فلا يلبس إلا ثوباً بلون التراب، ولا يأتي بحركة ما حتى يكثر القطا حول الماء، وتكثر جلبته، وعند ذاك يستطيع أن يسدد بندقيته من إحدى النوافذ الصغيرة بالنوجة إلى حيث يجد أكثر حشد من القطا، نيطلق النار، وقد يستطيع إذا شاء أن يطلق طلقة ثانية على القطا حين يطير بغتة مجفلاً رفّاً واحداً فوق سطح الماء.

وحين يكثر تردد القطا على غدير أو بقعة فيها ماء ويأخذ بالورد يحمل في حواصله شيئاً من الماء ويطير، فتشعر وأنت في النوجة أن بعض هذا الماء يسقط من أفواه القطا عليك كرشاش المطر الخفيف، وقد يكثر القطا في بعض المواسم ويهاجم مزارع القرويين البعلية فيتلفها ويلتهم أكثر حبوبها. ومن هنا قولهم: «سنة القطا بيع الغطا».

كذلك يصيد بعض القرويين القطا ليلاً في الأراضي التي يبيت فيها أسراباً، وذلك أن واحدهم يستصحب حمارة فيسوقه أمامه، ويخفي نفسه وراءه حتى يبلغ البقعة التي يعرف أن القطا قد بات فيها، فإذا اقترب الحمار من سرب القطا أخذ القطا يتجمع بعضه إلى بعض حتى يصبح من الكثافة على وجه الأرض ما يغري الصياد بإطلاق النار عليه ليصيد أكبر عدد ممكن بالطلقة الواحدة من بندقية الرش، وقد ذُكِر لي أن القرويين في شمالي سوريا يصيدونه أيضاً بواسطة الشباك ليلاً حين يبيت في الأرض المحصودة فيقع في الشبكة الواحدة منه ما لا يستطيع أن يحمله الصيّاد بمفرده.

أما القطا الكدري فليس بكثرة القطا العادي الأخر، ولا يصاد إلا على الماء، وفي أوائل الخريف، لأنه شديد التنبه ولا يقيم كثيراً على الماء حين يرد بل يأتي مبكراً مباغتاً، ويرد مسرعاً، ويطير دون توقف. وقد وصفها الشنفرى كما ذكرنا قبلاً بقوله:

«وتَشْرَبُ أسآري القَطا الكُدْرُ بَعْدَمَا ... سَرَتْ قَرَباً احنَاؤهَا تَتَصَلْصَلُ
هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وابتَدَرْتُ وبَادرَتْ ... وشمَّر مني فَارطٌ متمهلُ»(١٧)

صيد النعام وبقر الوحش

لقد انقطع أو كاد ينقطع صيد النعام وبقر الوحش من الجزيرة العربية كلها، وقد كان صيدهما وصيد الظباء أهم ما يُعَوّل عليه في الصيد عند العرب حضراً وبدواً كما نجد مخلداً في أخبار العرب وأشعارهم.

وكان العربي يستعين بجواده ليوصله إلى مواطن الطريدة أو يبلغه قربها، ويستعين بكلابه السلوقية على إعاقتها عن الهرب والفتك بها إذا أمكن. ولم يكن هذا الضرب من اللهو أو الرزق بالغاً درجة يفنى معها النوع وينقطع الحيوان، وظلّ البدو وبنوع خاص صليب منهم إلى زمن قريب يصيدون النعام وبقر الوحش على طريقة القدماء، ثم لما استحدثت البندقية، ثم الموزر الحديث، زال التعادل بين الصياد والطريدة، فأخذت النعام وبقر الوحش تلجأ إلى مواطن بعيدة في قلب الجزيرة يصعب بلوغها، وليس بعيداً أن نصل إلى يوم لا نرى فيه أثراً في الجزيرة العربية كلها لهذين الحيوانين.

ومهما يكن من أمر فإن طرق صيدها الحديثة لا تختلف كثيراً عن قبل، هذا إذا لم تطارد بالسيارات أو الطيارات كما يفعل بعض الأمراء اليوم.

ويعتمد قبل كل شيء على أن يكون الريح مواجهاً للصياد، بحيث لا تنقل إلى الطريدة رائحته، وأن يكون الصياد متخفياً بملبسه بحيث لا يظهر من بعيد أو قريب إذا أمكن. ويكون لباسه في مثل هذه الحالة أبيض أو بلون الرمال ويتستر فوق ذلك وراء جمل أو حصان أبيض بحيث لا تشعر به المها إلا عندما تصبح على مرمى منه.

والصيادون من قبيلتي الشرارات والصلبة هم أقدر البدو على صيد النعام والمها والظباء وأشهر البدو في هذا الأمر، وهم اليوم مرغمون على أن يكتفوا بصيد القليل النادر من الغزال حين انقرضت المها والنعام من البادية الشامية.



بدوي يحمل الصقر الذي يصطاد به

الحواشي :

(١) البيزرة، ص ٢٠.
(٢) إرجع إلى صفحة ٨٨ من هذا الكتاب.
(٣) Philip K. Hitti, **Lebanon in History** (London, 1957), opp. p. 74, and **History of Syria**, opp. p. 76.
(٤) كتاب الخيل، ص ١٠.
(٥) سورة المائدة (٥) الآية ٤ : والجوارح هي الكواسب للصيد ومكلبين أي معلمين الاصطياد وأصل اللفظ يدل على معلم الكلاب ومربّيها على الصيد ثم أطلق على كل جارحة.
(٦) سورة المائدة (٥)، الآية ٩٦.
(٧) ديوان كشاجم، ص ٣٨٩، قصيدة رقم ٣٨٣.
(٨) دوتي، ١ : ١٧٣.
(٩) رأى فلبي هذه الجدران فلم يدر الغرض منها وقد سألني عنها سنة ١٩٥٦ فأخبرته وأرشدته إلى ما كتبته عنها في مجلة الهلال سنة ١٩٣٠ فنقل ذلك كله وترجمه إلى الانجليزية ولست أدري أن كان نشره في مجلة أو كتاب بعد سنة ١٩٥٦، ولكن موزل سبق فأشار إليها في كتابه : **Manners and Customs**, p. 26. ويظهر أن فلبي لم يطلع على ما كتبه موزل.
(١٠) **Falconry in Arabia**, pp. 80 - 82.
(١١) كتاب الاعتبار، ص ٢١٣.
(١٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.
(١٤) ذكر كشاجم (المصايد والمطارد، ص ٢٤١) أنها تسمى القرموص وقال فيها هي حُفيرة يحتفرها الصائد ويحوطها من جوانبها ليستتر فيها شخصه.
(١٥) المصايد والمطارد، ص ٨٥ وانظر أيضاً كتاب الاعتبار، ص ٢١٧، و Cheesman, p. 312.
(١٦) المصايد والمطارد، ص ٥٨.
(١٧) أعجب العجب، ص ٥٠.

الفصل السادس عشر

البدو والدين

يدين بالإسلام

إن البدوي العربي اليوم يدين بالإسلام وقد كانت هناك قبائل عربية نصرانية ظلّ منها بقايا في الأردن إلى عهد غير بعيد وحافظ الذين تحضروا منهم على التقاليد العربية النبيلة. ويختلف تعلّق بالبدوي اليوم بالدين بالنسبة إلى الدولة التي هو فيها والقبيلة التي هو منها. وقد كان من طبع البدوي قديماً عدم تمسكه بكل الشرائع التي يفرضها الدين ومن هنا ما ورد في القرآن الكريم. ﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْءِ والله سميع عليم ﴾[1]و ﴿وقالت الأعراب آمَنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . . . ﴾[2].

ويصعب أن نطلق اليوم حكماً عاماً على تمسك البدوي بالشرائع التي سنها الإسلام فهو قد أظهر حين دان بالوهابية في نجد أنه مؤمن ومتمسك بشرائع دينه ومندفع في سبيل الحفاظ على ما يفرضه الإسلام. ولعل بدو المملكة العربية السعودية اليوم هم أكثر البدو في العالم تمسكاً بدينهم وحفاظاً على فرائضه. ولكن هذا لا يصدق على كل البدو، ولا يصدق في كل الأزمنة، فإن الذين عاشوا مع البدو من الروّاد في القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن اختلفوا في آرائهم، فقد لاحظ بركهارت مثلاً أن أكثر البدو يصومون رمضان بكل دقة ويتقيدون بأكثر الشرائع التي سنّها الإسلام[3]. بينما بالجريف رأى أن الإسلام طيلة القرون الاثني عشر التي مرت لم يؤثر في البدو خيراً أو شراً وإن أثّر فهو أثر قليل[4]. ونرى موزل من ناحية أخرى يقول إنه لم يشاهد بدوياً رويلياً واحدا طوال عامين متوالين

١٩٠٨ و ١٩٠٩ يقيم فروض الصلاة(٥). وأورد فولني مناقشة له مع بدوي في أمور الدين حين لاحظ عليه أنه لا يقيم الفروض المطلوبة فقال البدوي: «كيف نصلي وليس عندنا ماء نتطهر به، وكيف نزكي ولسنا أغنياء، ولِمَ نصوم رمضان ونحن نصوم طيلة السنة، ولِمَ نذهب إلى مكّة والله موجود في كل مكان»(٦). بينما يزعم دكسن أن البدوي ديّن ويقوم بكل الفروض، وإذا كان لا يدفع الزكاة أحياناً فذلك في سني الجدب وأنه بحكم طبيعته ومعيشته مضطر إلى أن يلجأ إلى الله(٧).

وقد لاحظت أنا شخصياً أن عرب عنزة بوجه عام والرولة بوجه خاص لا يتقيدون كثيراً بالشرائع والفروض التي فرضها الإسلام، اللهم إلا هؤلاء الذين اشتدت صلتهم بالحواضر، فإنهم تأثروا إلى حدّ كبير بأبناء دينهم فيها فهم يصومون ويصلّون، برغم أنهم لا يعرفون عن الإسلام كثيراً، ولا عن بعض الدقائق في كثير من الشرائع والفروض. وعلى سبيل المثال أذكر أن المرأة إذا طُلِقّت يمكن لها عند بعض القبائل أن تتزوج من آخر قبل أن تكمل عدتها، ومن هنا فإن بعض الحضر يعيِّرونهم حين تضع المطلقة فلا يَعْرِف ابنها من هو والده. ويكفي للدلالة على أنهم في القرون السالفة لم يتقيدوا بالدين قطعهم لطريق الحج ونهبهم للحجاج المسلمين.

كذلك لا يتقيدون بأمر الميراث بنصوص الشريعة الإسلامية ولا بالقوانين المدنية فالبنت محرومة من الإرث، والقضاء عندهم يختلف في بعض فصوله عن الشريعة الإسلامية وعن القانون المدني، وقد زعم أحمد وصفي زكريا: أن السرقة عندهم سواء أكانت سرقة أم غصباً ليست عملاً مخجلاً كما يتصوره الحضر ويتلقونه بل يعدّ من ضروب البطولة(٨). والزنا بالرضى يجعل الزاني غير مسؤول عن فعلته ولكن أهلها يقتصون منها(٩).

وذكر بالجريف مرة أنه أخذ يناقش بدوياً في أمر الدين ويبدي له استغرابه في كيف يستطيع أن يواجه الله يوم الحساب بعد سلوكه في الغزو والنهب والسلب، وهل ينتظر أن يكون له محل في الجنة في مثل وضعه. فقال البدوي: حين نواجه الله نسأله أن يقبلنا ضيوفاً ويعطينا لحماً وتبغاً فإذا أبى ركبنا خيولنا ورجعنا(١٠).

الأضاحي عند عرب الرولة

لعلّ أقوى ظاهرة من ظواهر الدين عند البدو هي احترامهم لعيد الأضحى والتفاتهم إلى أن يضحوا في ذلك العيد عن ذويهم المتوفين. فإن عيد الأضحى هو أعظم عيد عندهم وليس عيد الفطر حيث أن كثيرا منهم لا يصومون رمضان ولا يعيدون عيد

المولد ولا عيد الهجرة. وهم يجهلون يومي العيدين الأخيرين. وإن العرب المسلمين بوجه عام لم يولوّا هذين العيدين التفاتاً كبيراً إلا في العصر الأخير. ولعل ذلك كان تقليداً للمسيحيين.

ولعيد الأضحى عند البدو أهمية خاصة، لأنه يتصل بموسم الحج وبالفداء عن موتاهم، وقد جرت العادة أن يضحّي أهل البيت في العيد عن فقيدٍ فقدوه، إما في السنة التي انقضت قبل العيد أو قبلها. وتكون الضحية من الأنعام التي يحوزها البدوي. فهي عند أصحاب الغنم من الغنم، وعند أصحاب الإبل من الإبل. وقد شاهدت في عيدٍ واحد في أواخر تموز ١٩٥١ ضحايا كثيرة من الإبل بينها ثلاث: واحدة لشيخ من شيوخ البدو اسمه خشم القعقاع، وهو شيخ قبيلة القعاقعة، وكانت مشيخة قبيلة الرولة قديماً لهم، وأخرى للشيخ دنحان شيخ عشيرة الدويرج، وثالثة لشخص اسمه المُهْذِر، وكان الأخيران قد ماتا في أواخر تلك السنة التي سبقت عيد الأضحى.

ويجري نحر الضحية عادة في أول يوم من أيام العيد، ويؤثر البدو أن تقع التضحية صباح اليوم الثاني أو الثالث من أيام العيد الأربعة، فيؤتى بالجمل ويُختار عادة من أفضل الجمال وأسمنها، فيناخ ويعقل من يديه الاثنتين ومن رجليه أحياناً ثم يؤتى بخرج من خام أبيض يوضع على ظهر جمل التضحية، وهو رابض موجّه إلى القبلة، ويحنى رأس الجمل إلى الشرق، ثم ينحر نحراً من أسفل العنق عند أول صدره، ثم يشق موضع النحر عرضاً لتسيل الدماء بغزارة كما يشاهد في الرسم.

ويوضع عادة في الخرج جود أو ظرف صغير مملوء ماء، ويوضع معه زاد يسمى «ذهاب»، من تمر أو طحين أو من كليهما، وقد يوضع أيضاً بعض الأدوات التي كان الفقيد يحملها أو يستعملها في حياته كغليون أو قداحة أو مشط أو مكحلة أو مراية أو خيزرانة حتى بعض التبغ إن كان من المدخنين.

ينحر الجمل في الغالب أحد أقرباء الميت أو أكبرهم أو أقربهم إليه، إما ابنه أو أخوه أو ابن عمه أو وكيل عن واحد منهم. وإذا كانوا قريبين من القرى ولم يكن للعائلة التي تضحي من يقوم بالنحر كلفوا أحد القرويين أن يقوم بالأمر. فيسمي الناحر باسم الله، ثم يكبّر ثلاث مرات، ثم يخاطب الميت قائلاً: «دونك ضحيتك يا فلان».

وتسلخ الضحية شقاً من آخر الظهر أولاً إلى أعلى السنام، ويستخرج السنام قطعتين يأخذهما أهل الميت، ثم يأخذون هم وذووهم ما يشاؤون من أطايب اللحم، ويعطى الباقي للذين يسلخون الضحية وللفقراء وللمحتاجين الذين احتشدوا حول

الضحية، وكثيراً ما يتخاصم هؤلاء المحتاجون على ذلك ويتنازعون أجزاء الضحية المتبقية. أما الجلد فيقطع نصفين ويصنع منه قربتان أي «راويتان»، ويقطع جلد العنق نصفين أيضاً ليصنع منه ما يسمى «سريداً» أي شريطاً أو شرائط لخياطة القُرَبْ.

أما أطايب اللحم عند البدو فهي أولاً الخَرْزَة التي وراء الرقبة قرب السنام، وثانياً الجِمَالة وهي موضع الركوب من الوراء قرب الذيل في أعلى الرِّجلين، وثالثاً اليد لأن لحمها فيما يزعمون «أطرى» من لحم الفخذ. أما الرقبة فتقص قطعتين ويعطي لكل طالب أو فقير قطعة. ويجوز أن يضحى للميت أكثر من ضحية واحدة. ويزعم البعض أن الميت يركب هذه الضحية يوم القيامة إلى الجنة.

وإذا جرى أن اشترى أهل الميت الجمل الذي قدموه للتضحية فإنهم يَسِمُونه كيّاً بعلامة وَسْمِهم، ويشهدون غيرهم على ذلك.

وتقطع العقالات التي يعقل بها الجمل عند نحره ولا تفك فكاً، وقد توزع الأشياء التي وضعت في الخرج إذا شاء أهل الميت ذلك. أما الطحين فيعجن بالماء، ويخبز ويوزع على المجتمعين. كذلك يفرم القلب والكبد فرماً ويعطى اللحم المفروم للذين يساعدون في سلخ الضحية وتقطيع لحمها.

تضحي عرب الرولة عموماً في السنة التي يفقد فقيدهم فيها إذا كان باستطاعتهم ذلك وكان لديهم ما يمكن التخلي عنه من الإبل وتضحيته في سبيل فقيدهم. وهم يعتقدون أنهم بتلك التضحية يحافظون على ما يملكون من حلال (أي أنعام). وقد يحدث أحياناً أن يقع عيد الضحية والبدو نزول على ماء أو في منازل قريبة من القرى المجاورة للبادية فيصبح ذلك موسماً للقرويين، إذ يهرعون أيام عيد الأضحى إلى مضارب البدو ليأخذوا مجاناً من لحم الضحايا، ولا سيما إذا كانت السنة سنة إقبال وعدد الإبل التي تُضَحّى كبيراً. ويغتنم فقراء القرويين هذه المواسم ويلزمون خيام أهل الميت الذي تضحّى الضحية له، ويساعدونهم في السلخ وتقطيع اللحم وينالون مكافأتهم من اللحم.

وقد أُخبرت مرة أن قروياً كان يساعد بدوياً وقد أمسك برأس الضحية حين نحرها البدوي فقال القروي مخاطباً أباه الميت: دونك ضحيتك يا أبي ظناً منه أن الله يرضى ويقبل منه هذه الضحية التي يضحيها البدوي نفسه لواحد من أهله، وكان أن سمعه البدوي فقال له: «والله ما هي ضحية أبوك - الله يعلم عداد الدراهم اللي دفعتها» (ويظهر أنه كان قد دفع ثمن تلك الضحية لأنه لم يكن لديه إبل يضحي منها) ولم يشأ أن

يسلّم في أن يشارك في هذه التضحية حتى ولو بالاسم.

أما ما يذبحه البدوي في مواسم أخرى كعرس أو ختان أو مولد صبي أو في سبيل ضيف فليس ذلك من شروط الدين أو حتى من العادات الدينية العامة بل هو عادة عربية عامة تصدق على البدو وعلى الحضر وربما كان لبعضها أساس ديني. وقد أسهب في وصف أنواع هذه الذبائح الاشمندريت بولس سلمان كما رآها عند عرب شرقي الأردن فلتراجع هناك[١١].

المركب (الهودج المقدس) وعلاقته بالعهود القديمة

يحتفظ الرولة حتى اليوم بهودج مقدس خاص يسمونه أحياناً «العُطفة» وأحياناً «أبو دهور» ويطلقون عليه عموماً الاسم الذي يطلق على كل هودج فيقولون «مركب»[١٢]. والمركب شيء مألوف عند كل البدو لا سيما الأغنياء منهم فهو هودج من خشب كالسرير يوضع على ظهر الناقة أو الجمل له أعمدة من عيدان ثخينة بارزة إلى فوق بحيث إذا نصب عليها قماش أصبح الهودج خيمة صغيرة أو كِنًّا تتقي به المرأة عند السير نهاراً حرارة الشمس. لقد ألف البدو هذه الهوادج منذ زمن أمرىء القيس حين قال، وقد سمي الهودج غَبِيطاً:

«وَيَـوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ   فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلي
تَقُـولُ وقَـد مـالَ الغَبِيطُ بِنـا معاً   عَقَرْتَ بَعِيري يا امرأَ القَيْسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهـا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَـامَـهُ   وَلا تُبْعِدِينِي مِن جَنَاكِ المُعَلَّلِ[١٣]»

وقد قرن الهودج منذ عرف بالمرأة فهو خاص بها ويسمى إذا ركبت فيه ظعينة وتسمى هي ظعينة وقد قال زهير في معلقته:

«تَبَصَّرْ خَلِيـلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ   تَحَمَّلْنَ بِـالعَلْيَاءِ مِنْ فَـوقِ جُرْثُمِ
بَكَـرْنَ بُكُوراً وَاسْتَحَـرْنَ بِسُحْـرَةٍ   فَهُنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ فِي الفَمِ[١٤]»

وقال عمرو بن كلثوم:

«قِفِي قَبْـلَ التَفَـرُّقِ يَـا ظَعِينَـا   نُخَبِّـرْكِ اليَقِينَ وَتُخْبِـرِينـا»[١٥]

والمركب البدوي على أنواع، فمنه ما هو بحق بشكل مركب صغير أو قارب يوضع

عرضاً على ظهر الجمل، ومنه ما هو مستطيل، ومنه ما هو أقرب إلى المكعب.

أما المركب الذي نحن في صدده ـ أي عطفة الرولة ـ فهو مكعب مستطيل خشبي كالسرير، مؤلف من قضبان كالأعمدة متشابكة بقضبان أُخرى عند رؤوسها وفي أواسطها وأسافلها بحيث يظهر كالقفص دون غطاء، علوه نحو مترين هو والسرج الذي يوضع تحته على الجمل، وطوله نحو مترين وثلاثة أرباع المتر، وعرضه في قعره نحو نصف متر، ونحو سبعين سنتيمتراً في اعلاه حيث أن وجه الهودج من فوق أوسع من أسفله. وهو يختلف عن سائر الهوادج أو المراكب في أنه مزيّن بريش النعام الأسود، وأنه يعتبر عند الرولة رمزاً مقدساً ولا يستعمل أبداً إلا في الملمات، فهو دائماً في خيمة الأمير، ولا يخرج منها إلاّ حين يسير الأمير مع قبيلته إلى البادية، وقليلاً ما يفعل في هذه السنين. وهو يمثل مجد الرولة وعزها ومكانتها، ومن هنا فهو أشبه بالعلم الكبير يحمله حامل اللواء في الجيش أمام أميره، فإذا هوجمت القبيلة وكانت المعركة معركة تقرر مصير هذه القبيلة ومكانتها بين القبائل، يستنفر الشيخ الفرسان والرماة، ثم يوعز إلى إحدى الفتيات العذارى من بناته أو بنات أسرته فتركب في العطفة على جمل يكون غالباً أبيض، ثم يلتف حولها الصبايا إذا كنّ قريبات يزغردن ويحمسن المقاتلين، ويحيط بهن الفرسان من قبيلتهن يتنادون بصيحة الحرب، وقد انتخى كل واحد بعيني صاحبته، أو بعيني راكبة العطفة، وأقسم ليموتنّ في الدفاع عنها قبل أن يصل إليها أحد من الأعداء. إنها معركة الذود عن حرمة القبيلة وشرفها وحماها وعزها وكرامتها.

ولا يخلو الشعر العربي من مواقف يذكر فيها الشعراء كيف أن نساءهم تسير على آثارهم في المعارك تذكي نار الحماسة في المحاربين وتستحثهم على متابعة القتال وتردهم عن أن يتراجعوا أو ينكصوا في الحرب:

عَلى آثارِنَا بِيضٌ كِرَامٌ ... نُحَاذِرُ أَنْ تُفَارَقَ أَو تَهُونَا
أَخَذْنَ عَلى بُعُولَتِهِنَّ عَهداً ... إِذَا لاقَوا كَتَائِبَ مُعْلَمِينَا
لَيَسْتَلِبُنَّ أَبدَاناً وبيضاً ... وأَسرى في الحَدِيدِ مُقَرَّنِينَا[١٦]

ثم أخذت العادة تتبلور عند البدو وتتخذ شكلاً له مسحة دينية بحيث أصبحت كما هي اليوم عند الرولة. فالعطفة عندهم شيء مقدس له صلة بقوى غير بشرية تمدّ القبيلة بقوة من لَدُنْها عند المعارك وتساعدهم على الفوز العظيم.

والظاهر أن هذه العادة ـ عادة الاعتماد على فتاة أو امرأة تُلْهب حماسة المحاربين عند الملمات ـ كانت مألوفة في تاريخ العرب القدماء، ولعل يوم حليمة أشهر ما يمكن أن



العطفة وهي رمز المناعة والشرف عند القبيلة. ولا تزال قبيلة الرولة تحتفظ بعطفتها ولم تخسرها في أي قتال - في الصورة شاب جلس في الوضع الذي تجلس فيه الفتاة وقت الحرب

نذكر في هذه السبيل، فقد كان يوماً حاسماً في تاريخ القبيلة، وكان أخوها ابن الحارث قد ذبحه اعداؤه ضحية لآلهتهم، فتنادى أهلها للثأر؛ وركبت حليمة في القوم تُوزّعُ على الفرسان الطيب، وتحمسهم للثأر ولتثبيت ملك أبيها وعزّ قبيلتها.

وفي معلقة الحارث ابن حِلّزة إشارة واضحة إلى مثل هذه العطفة عند ملوك بني غسان حين قال:

«إذْ أحلَّ العَلاةَ قُبَّةَ مَيْسُو نَ فأدْنَى دِيَارِهَا العَوصَاءُ»(١٧)

ورُوِيَ أن عمرو ابن هند لما قتل أبوه وجّه أخاهُ النعمان وحشد معه أخوه من قَدَرَ عليه من أهل مملكته، وأمره أن يقاتل بني غسان ومن خالف من بني تغلب فلما صار إلى الشام قتل ملكاً من غسان واستنقذ أخاه امرأ القيس ابن المنذر وأخذ بنتاً للملك في قبة لها وهي ميسون التي ذكرها(١٨).

ولقد كان يوم الجمل الذي ظهرت فيه عائشة أم المؤمنين تخطب في القوم تلك المعركة الفاصلة بين علي وبين صهريها الزبير وطلحة يوماً فاصلاً في تاريخ النزاع الداخلي بين العرب في تلك الأيام، وقد زعموا أن جملها أصبح كالقنفذ لكثرة ما أصابه من السهام وما بلغوا إليه حتى قتل حوله خلق كثير من أهلها وقبيلها، فلما بلغوا إليها وعقروا جملها ووقعت بيد علي انتهت المعركة وقرر المصير.

ومن تقاليد البدو اليوم أنه متى أسرت العطفة انكسرت القبيلة واضطرت إلى أن ترضخ لخصومها وتسلم لهم بالتفوق والغلبة ولا تُرَدّ العطفة ولا يعود للقبيلة المغلوبة حق في حيازة عطفة ثانية.

ولأمر ما لم يذكر مؤرخو العرب بعد عصر الفتوحات كثيراً عن حياة البادية فلم نسمع بأخبار أمثال هذه العطفة أو الهوادج الخاصة عند البدو إلاّ ما ذكر عن المَحْمَل أيام الملكة شجرة الدرّ ولكن المحمل على ما فيه من شبه بالعطفة بحيث يمكن أن يظن أنه استعير منها فإنه غير العطفة ومن الخطأ أن يُحْسَبَ نِدّاً لها.

ولعل سيّاح الفرنجة في القرنين الأخيرين كانوا أوّل من تنبّه إلى هذه الظاهرة في حياة البدو الحربية. فقد ذكر بركهارت العطفة في حديثه عن معركة جرت بين عرب الفضل وعرب ابن سُمير قرب مزيريب، وكيف أن ابن سُمير اندفع في المعركة إلى وسط جيش الفضل حيث كانت العطفة فجلا المدافعين عنها، حتى بلغ الجمل الذي يحملها فعقره واستولى على العطفة، وانتهت المعركة في جانب ابن سُمير(١٩). ويحدثنا في موضع

آخر أن الطيار وهو من شيوخ ولد علي كانت لديه عطفة، وأن عرب عنزة وحدهم يحوزون مثل هذه العطفات[٢٠].

غير أن بالجريف ذكر عطفةً عند عرب العجمان وزعم أنهم يسمونها هديّة وأشار إلى معركة نشبت بينهم وبين النجديين من عرب فيصل ابن عبد الله ابن سعود في منتصف القرن التاسع عشر انتهت ببلوغ النجديين عطفة العجمان فتقدم فارس منهم نسي اسمه من الفتاة وطعنها بالرمح فقتلها وغلبت على أمرها العجمان[٢١]. وكذلك دكسن زعم أن هناك عطفات في جنوبي الجزيرة العربية[٢٢].

أمّا جوارماني فيزعم كما ذكرنا أن هذه العطفات لم تعد توجد إلا عند عرب سوريا واحدة عند ابن هذّال من ضنا «بشر» والأخرى عند الشعلان شيوخ الرولة[٢٣]. وزعمت الشيء نفسه اللايدي آن بلنت ولكنها ذكرت أن سبب زوال العطفة من القبائل الأخرى هو ندورة ريش النعام الذي يزينونها به[٢٤] وهو رأي غير صائب.

ويذكر موزل أنه كان هناك عطفة عند عرب المساليخ وهم من عنزة أخذها منهم شيخ الكعاكعة[٢٥]، وزعم في موضع آخر أنه كان عند شيخ بني خالد تركي ابن حميد ابن عريعر عطفة حين كانوا نازلين في الحسا قرب الخليج العربي، فلما هاجم طرشهم عرب الفضول لم يستطيعوا الصمود، فارتدوا أمامهم إلى المضارب ولجأوا إلى عطفتهم فأركبوا الفتاة التي نثرت شعرها وأخذت تُلهب الحماسة في صدور المحاربين، ولكن المهاجين تغلبوا عليهم وأحاطوا المضارب وبلغوها وأسروا العطفة[٢٦]. ويزعم بعض البدو أنه كان لكل قبيلة عطفة ولم يبق من القبائل التي استطاعت الاحتفاظ بها إلا اثنتان للرولة إحداهما، وقد ذكر لي الأمير نايف الشعلان وهو من شيوخ الرولة أنه يظن أن هناك عطفة أخرى عند قبيلة نجدية لم يسمها.

أما عطفة الرولة فقد كان الشيخ نوري الشعلان يستصحبها معه في تنقلاته في البادية مشرّقاً أو مغرّباً مع قبيلته، وقد أشار موزل حين شرّق مع نوري الشعلان مرة إلى البادية إلى أن العطفة سارت معهم بحماية عبيده، وأنها تقدمت الظعن، ولكن الفرسان كانوا في طليعة الموكب، وأنه كان يفصل بين الفرسان والظعن مسافة، فكان الفرسان إذا تقدموا الظعن كثيراً بحيث لم تعد ترى العطفة وراءهم، أمرهم النوري بالتريث في سيرهم أو التوقف حتى تقترب العطفة خشية عليها وعلى الظعن من أن يباغتهم خصم أو غزو من القبائل المعادية ولا يقوى العبيد وحدهم على ردهم[٢٧].

وقد حدثني الأمير نايف حفيد الأمير نوري الشعلان وأخو الأمير فوّاز أن العطفة قد ساعدت الرولة على إحراز نصر عظيم على الدروز في حربهم معهم سنة ١٨٩٥، وقد عقّب على ذلك في أنه يجب أن تعتبر كاللواء أو العلم للجيش، وأن الدفاع عنها كالدفاع عن العلم رمز شرف الجيش. ولكن رجالاً من قبيلته كانوا يسمعون قوله فيبتسمون. وقد ذكر لي واحد منهم وأنا في مجلسه أن والده كان قد اشترك في تلك المعركة وشهد كيف كانت العطفة نفسها تميل براكبها على ظهر الجمل كأنّ روحاً تحركها فيلتهب المحاربون حماسة بحيث حققوا مثل ذلك النصر. فابتسم الأمير نايف بدوره وقال لي: لا تستغرب إذا قلت لك إن نحو ثلاثين رجلاً من قبيلة هذا الذي يحدثك قد سقطوا حول العطفة في تلك المعارك.

وكثيراً ما يحدث في نهار هادىء حارّ أن يهتز ريش النعام الذي يزيّن العطفة - لنسمة خفيفة هبّت ولم يشعر بها أحد - فيظن البدو أن الروح تتحرك فيها[٢٨]. ويزعم البعض أن الرولة حين كانت تستصحبها في تنقلاتها بين النفود والحماد وأراضي المعمورة كانت تستهدي بمسيرها ونزولها ورحيلها بالعطفة أي بواسطة الجمل الذي يحملها، فإذا وقف مثلاً في موضع وأبى متابعة السير نزلت القبيلة حيث وقف ونصبت خيامها. وهم يُقسمون بها كما يُقسمون بالمقدّسات المختلفة، ويزعمون أنها هي التي تحميهم، وكانوا في عيد الأضحى - فيما يقال - يضحّون لها ويرشّون أعمدتها بدم الضحية؛ ومن هنا فهي أشبه ما يكون بالقبة التي كانت تحوي الآلهة والاشياء التي تقدسها بعض القبائل زمن الجاهلية أو أشبه ما يكون بتابوت العهد الذي كان لبني إسرائيل.

وكانت الرولة في تاريخها إذا أجدبت الأراضي التي تنزلها وقل الكلأ والماء فيها قصدت الأراضي المجاورة التي يكون فيها كلأ وماء، وفي هذه الحالة إذا استشعرت أن البدو النازلين بالأراضي سيقاومونهم عمدت إلى العطفة فوضعتها على جملها وسيرتها في الطليعة محاطة بالمحاربين من مختلف العشائر التي تنضوي تحت زعامة الرولة. وكل عشيرة تعرف أين يحل رجالها حول العطفة حين ينتظر وقوع حرب. فإذا وقعت حرب أُركبت الفتاة في المركب وفرض على المحاربين أن يدافعوا عن كرامة العطفة حتى آخر رجل.

ولم يهمل شعراء القصيد البدوي عند الرولة التنويه بأهمية العطفة وأثرها في المعارك التي خاضتها الرولة مع القبائل الأخرى وقد روى لي أحدهم لشاعر اسمه خلف ابن زيد قوله واصفاً قتالاً:

«انقلَطْ المَرْكَبْ وعِنْدَهْ حَجَرْنـا   كم راسْ شَيْـخٍ عَنْ كُتوفِـه نِزِيلَه»

يقصد أنهم يقدمون العطفة ثم يلتفون حولها مجتمعين فيفتكون بأعدائهم ويقطعون رؤوس الكثيرين من شيوخ القبائل التي تناوئهم. وروى موزل لِشاعرٍ اسمه يوسف بن مجيد وكان غازياً مع ابن شعلان:

«أبـو الدهـورْ معوّدْ يِلْهِبْ الْهَـابْ بشعوفْ رَمَّايْ الملابِس مَرْعِيذْ»[٢٩]

وروى لآخر يصف دفاع الشعلان عنها في معركة بين الرولة وعرب المنتفق سنة ١٩٠٥.

«جُونا صباحْ ورِكْبُوا اوْلادْ شِعلانْ حَمَّايةِ المِرْكَبْ عن اللّي بَغَاها»[٣٠]

ويعتبر الرولة أن من يحوز العطفة في خيمته من شيوخهم ويستطيع إبقاءها عنده فهو أقواهم وأمنعهم. وحينما مات سطّام الشعلان شيخ الرولة سنة ١٩٠٤ قام ابنه مشعل فاعلن أنه الشيخ بعد أبيه ونقل العطفة إلى خيمته فقرر عماه النوري وفهد أن يقصياه عن المشيخة، وذهب النوري إليه وقتله وجلب العطفة إلى خيمة أخيه فهد الذي أصبح الشيخ بعد سطّام. ثم حدث أن قتل أحد عبيد النوري الشيخ فهد فأصبح النوري الشيخ وجلب العطفة إلى خيمته[٣١]، وظلت عنده وانتقلت بعد موت ابنه نواف إلى حفيده فواز ولا تزال عند الشعلان إلى اليوم وهي في خيمة ابناء الأمير فواز بعذرة. أما مازعمه بعض الفرنجة[٣٢] من أن الرولة تستنكر أن تبحث معهم أمر العطفة فليس صحيحاً، فقد كنت مرة عند الأمير نايف وكان عنده جماعة من الرولة ودار أكثر الحديث عن العطفة ومكانتها. ولم يرَ أحد منهم في ذلك بأساً، بل إنني حين أردت تصويرها وخشيت أن لا يكون النور كافياً في ظل الخيمة أمر العبيد فأخرجوها إلى نور الشمس وأخذت صوراً لها كما في لمعلاه[٣٣].

الحواشي :

(١) سورة التوبة (٩): ٩٧ و ٩٨.
(٢) سورة الحجرات (٤٩): ١٤.
(٣) Notes on the Bedouins and Wahabys, I, 99 - 106.
(٤) بالجريف، ١: ٣، ٨ ـ ١٠.
(٥) Musil, **Arabia Deserta**, p. 427.
(٦) Volney, I, 415.
(٧) Dickson, p. 45.
(٨) عشائر الشام، ١: ٣٢٢.
(٩) عشائر الشام، ١: ٣٢٧.
(١٠) Palgrave, I, 32 - 33.
(١١) خمسة أعوام في شرقي الأردن للارشمندريت بولس سلمان، حريصا، ١٩٢٩، ص ٢٢٧ ـ ٢٥٨.
(١٢) وهناك من البدو من يقول إن كلمة العطفة يجب أن تطلق على الفتاة التي تركب في الهودج وليس على الهودج. ويزعم بركهارت في كتابه Notes on the Bedouins and Wahabys, I, 144. أن هناك نوعين من هذا الهودج واحداً اسمه مركب والآخر عطفة ثم يقول ص ٣١١ إن كلا النوعين غير معروف في الحجاز ولكنهما معروفان عند عنزة فقط. وقد ذكر أيضاً ص ١٤٥ وص ١٤٦ أن عند الطيار شيخ ولد علي عطفة بينما الذي عند ابن سمير وابن فضل هو مركب فقط. ويتكلم جوارماني عن بعض القبائل أنها تحارب تحت علم واحد ثم يقول: أقول عَلَماً وليس عطفة، لأني لم أجد عطفة في نجد. أما في سورية فبشر فقط من عرب ابن هذال والرولة من الشعلان تستعملها. ويضيف كاروثرز كاتب المقدمة لكتاب جوارماني في الهامش: لقد كانت هذه العادة في طريق الزوال أيام بركهارت ودون شك ليس لها أثر اليوم، وكانت آخر عطفة معروفة عند الرولة ـ ويلوح لنا أن كاروثرز غير مطلع على تاريخ البدو وأحوالهم اليوم. وإلا فكان ذكر أنها لا تزال إلى اليوم عند الشعلان شيوخ الرولة. (انظر جوارماني، هامش ص ٣٥).
(١٣) من معلقة امرىء القيس. انظر شرح القصائد العشر، ص ٩ ـ ١٠.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٦.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١١٠.
(١٦) من معلقة عمرو ابن كلثوم. انظر شرح القصائد العشر، ص ١٢٢ ـ ١٢٣. وفي بعض الروايات فوارس بدل كتائب.
(١٧) المصدر نفسه، ص ١٣٧ قالوا العلاة أو العلياء أرض. ومن الخير أن نلاحظ هنا أن «القبة» كانت من تقاليد العرب في الجاهلية كما هو مشهور وكانت من المكرمات التي حازتها قريش، وزعم ابن عبد ربه (العقد الفريد، ٣: ٣١٤) أن قبيلة قريش كانت تضربها ثم تجمع إليها ما يجهز به الجيش. غير أن الأب لامنس ينكر أن يكون لها هذا المعنى الحربي ويزعم أن القبة من بقايا تقاليد القوم في الجاهلية وأنها كانت تحوي رموزاً لمعبوداتهم وتوضع كهودج على جمل وتتناوب الأشراف والأعيان قيادة الجمل من عنانه. الموسوعة الاسلامية، ١٩٣٦، III، تحت Mecca ص ٤٣٨.
(١٨) انظر شرح القصائد العشر، ص ١٣٧.
(١٩) Notes on the Bedouins and Wahabys, I, 135 - 37.
(٢٠) المصدر نفسه، ١: ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢١) Palgrave, II, 71.
(٢٢) Dickson, p. 104.
(٢٣) Guarmani, pp. 35 - 36.
(٢٤) Blunt, p. 351.

(٢٥) Manners and Customs, p. 396.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢٧) Musil, In the Arabian Desert, p. 241. وانظر أيضاً: Musil, Manners and Customs, p. 573.

(٢٨) Musil, Manners and Customs, p. 574.

(٢٩) Manners and Customs, p. 631. أي أن العطفة أو المركب معود أن يرمي اللهب بمساعدة الصاعق المرعد ويقصد نوري الشعلان. الملابس: الرجال اللابسين السلاح.

(٣٠) Manners and Customs, p. 623.

(٣١) Musil, Arabia Deserta, pp. 238 - 243.

(٣٢) Robert Montagne, La Civilisation du désert (Paris, 1947), p. 128.

(٣٣) Jibrail Jabbur, «Abu - al - Duhur, The Ruwalah Utfah», in The World of Islam: Studies in Honour of Philip K. Hitti, ed. James Kritzeck and R. Bayly Winder (London, 1960), pp. 195 - 98.

الفصل السابع عشر

التربية والحياة الأدبية عند البدو إلى أوائل القرن العشرين

التربية والتعليم

لم يعرف البدو من أصحاب الإبل شيئاً من أمور التعليم المألوفة عند الحضر حتى في أبسط مراحله ، فلا مدارس لديهم ولا كتاتيب ، ولا أثر لمؤسسة أو جهاز التعليم ، وليس للكلمة المكتوبة من وجود في حياتهم إلا في حالات خاصة ، ذلك حين يكون أحدهم بعيداً عن أهله في بعض الحواضر ، أو سجيناً ، وليس باستطاعته أن يصل إليهم أو يوصل إليهم خبراً مع زميل له يعرفهم ، فإنه يستنجد بحضري ليكتب له كلمة تنبىء عن حاله ومكان وجوده وما يزيده من أهله ويرسلها مع رسول إلى شخص من أهل الحواضر يعرف أهله وله معهم بعض الصلات - ومتى وصلتهم أجابوا عنها بواسطة الحضري نفسه . وأذكر مرة وقد عرجت عرضاً إلى مجلس في بيت بدوي فلما علم أهل المجلس أني من بيروت أخرج واحد منهم ورقة ملفوفة بمنديل من جيبه وعرضها علي كي أقرأها، وإذا فيها خبر عن أخ له في بيروت التحق لأمر ما بعرب المسلخ في ضواحي بيروت ، ثم قال لي إن كنت تعرف أين ينزل عرب المسلخ في بيروت ، فالرجاء أن تستفهم لي عن حال أخي وترسل لي خبراً عنه لتاجر من بلدة القريتين سماه لي ، لكي أطمئن عن أحواله وصحته . ولا تنس إذا رأيته أن تذكر له أننا وجميع أهله بخير.

ولا يخلو الأمر أحياناً من أن يكون لدى بعض الشيوخ في القبائل الكبيرة كاتب أو خطيب يعرف مبادىء القراءة والكتابة ولا سيما في البيئات البدوية التي شرعت تتصل بالحياة الحضرية وتقتني الأغنام وتشارك في تربيتها الأهلين في القرى والمدن . أما إذا تعديت هذه البيئات فلست ترى أثراً للقلم والكتاب . ومن هنا فليس هناك مدارس ثابتة

أو نقالة في البادية ، ومع أن أكثر الحكومات العربية قد سنت في دساتيرها قوانين فإن هذه القوانين لا تزال في الأغلب نصوصاً لا يعمل بها ، وهذه المدارس لا تزال اسما لغير مسمى . وإذا كانت بعض الدول العربية قد نظمت بالفعل بعض المدارس النقالة واخذت تبعث بها إلى البادية فإن أثرها ضئيل وعهدها قصير ، ولا أظن مثل هذه المدارس تستطيع أن تنفذ إلى قلب البادية . ولعل فضلها لا يزيد عن أن بعض الصبية يترددون أول الأمر إلى هذه المدرسة النقالة حين يكونون في اراضي المنطقة المعمورة قرب الحواضر ليروا أي شيء تحمله هذه السيارة النقالة، ويستمعون إلى بعض الإرشادات يسديها إليهم المعلم الجديد، وربما بدأوا بتعلم قراءة الحروف، ثم لا يلبثون أن يسأموا الإرشاد والمعلم، ويملوا القراءة، ويهجروا المدرسة التي تنقل نفسها، ولكنها لا تستطيع أن تنقل العلم لمن لا يبتغيه.

وقد يجوز أحياناً أن نرى بعض شيوخ البدو وقد شهدوا فضل العلم ـ ولا سيما الشيوخ الذي استقروا في المدن نواباً ولو لفصل أو أكثر من فصول السنة ـ يفرضون على بعض أبنائهم أن يعيشوا معهم في المدن ، ويطلبوا العلم في دوره فيها . أو نرى شيوخاً آخرين تزوجوا من حضريات حين راقت لهم الحياة الجديدة ، فقضوا قسماً من حياتهم في الحواضر ، وبعثوا بأبنائهم من الحضريات إلى المدارس ، أو نرى شيوخاً عرفوا قيمة القراءة والعلم ، فاستقدموا معلمين لتعليم أبنائهم، أنزلوهم معهم في البادية ليعيشوا معهم . ولكن هذا كله نادر والنادر لا يقاس عليه . وهو يقتصر إذا وقع على الشيوخ وهم قلة في البدو . وأذكر أني قابلت الشيخ طراد ابن ملحم شيخ عرب الحسنة منذ أكثر من أربعين سنة وكان متعلماً يقرأ ويكتب ويطالع الصحف ، وتشعر وأنت في مجلسه أنك أمام رجل يقدر العلم . وقل مثل ذلك في الأمير نايف الشعلان ، وكان نائباً في المجلس السوري ، وهو متعلم يطالع الصحف والمجلات ، ويقرأ الكتب ، وقد استطاع أن يجمع حوله وهو نائب نفراً من نواب العشائر في المجلس كونوا كتلة كان لها أثرها في التصويت عند اتخاذ الكثير من القرارات التي أقرها المجلس ، وكان يحسب لها عند التصويت حساب قبل العهد الأخير. وكان للأمير نايف ابنتان من زوجه الاولى ـ قريبته ـ تتعلمان في مدارس دمشق ، وتدرسان لغة أجنبية . وهو الآن مهتم بأمور الزراعة في مزرعته عند جبل الباردة ويحاول أن يطبق فيها ما أمكنه من الأساليب الزراعية الحديثة .

وكذلك قل في ابن اخيه الأمير متعب وكان نائباً عن الرولة بعد عمه ، وهو نجل

الأمير فواز شيخ مشايخ الرولة ، فقد تعلم في بعض مدارس الشام ، واتخذ معلماً له يسير معه حتى في البادية ، وقد قابلته في البادية في مجلس أبيه الأمير فواز ، فسألني والـده أن أكلمه بالإنكليزية لأرى مدى معرفته لهذه اللغـة ، وقد ألفيت أنـه يجيدهـا إلى المستوى الذي تصله المدارس الثانوية التي تتبع المنهاج الأميركي في لبنان . وقد سبق لي منذ نحو ثلاثين سنة أن درّست في الجامعة الأميركية الشيخ صفوق الياور ، نجل الشيخ عجيـل الياور ، وأذكر أنه كـان في السنة الأخيرة من القسم الثانوي وكذلك قابلت والده الشيخ عجيـل في منزل رئيس الجـامعة الاميـركية في بيـروت وذهلت لسعة اطـلاعه عـلى أهم القضايا السياسية العالمية في عصره وأعجبت بحسن حديثـه وقوة شخصيتـه . إنما هـذه كلها، كما أشرت، حالات نادرة لا يقاس عليها، وهي معروفة في بيوت الشيوخ فقط، والمألوف هو أن البدو الخلص أصحاب الإبل لا يزال أكثر من ٩٩ بـالمئة منهم أميـين لا يعرفون من أمور القراءة والتعليم شيئاً .

المجالس هي مراكز التربية

غير أن هؤلاء البدو على جهلهم القراءة ـ وعلى هذه الأمية بمعناها الحرفي ـ ليسوا من الغباوة بحيث نزعم أنهم جهلة أو بلهاء ، فقد يسرت الحياة في البادية لصبية البدو ان يحضروا أحياناً مجالس الكبار في الأصائل والعشيات وعنـد الضحى ، ويستمعون إلى مـا يبحث أو يقال فيها . والبدوي بطبيعتـه طُلَعَة يحب أن يستفيـد ، فترى هؤلاء الصبيـة يصغون أحسن الإصغاء للكبار في هذه المجالس حين يسمح لهم بحضورها ، ويتلقنون سماعاً ما يفيدهم منها ، وكثيراً ما يبحث في هذه المجالس عن أمور هامة لها علاقـة في تاريخ القبيلة ، أو مغازيها ، أو في اخبار العالم. ومن يقرأ كتب الرحالة الفرنجة يدرك كيف كان يدهشهم هؤلاء البدو باطلاعهم على أمور العالم الخـارجية ومعـرفتهم لبعض دقائقها .

وفي هـذه المجالس يتعلم أبنـاء البدو أمـور مجتمعهم ، وعـاداتهم ، ونـظمهم ، وأخبار رجالهم ، وقضائهم ، وأدبهم ، وفيها يسمعون أحياناً الدعـاوى التي تكون بـين المتخاصمين ودفاع كل فريق عن حقه ـ فيها تذكـر أخبار المغـازي والبطولـة ، وقصص الحب ونوادر الرجال ، وقصائد الشعراء من أهل البادية ، وأخبار الحضر والحكومات في الحواضر ، وشؤون المطر والطقس والكلأ والماء ، وما إلى هذه الأمور ـ هذه المجالس هي مدرسة البادية وهي أحياناً تخرج رجالاً فيهم الاستعـداد للزعامـة إذا وجدت الـظروف المناسبة ـ وشيء مثل هذا على نطاق آخر ضيق يكون في مجالس النساء للفتيات ، فيتعلمن كيف يكنّ مثل أمهاتهن أخلاقاً وإدارة وحزماً وكرماً وطيب حديث .

وقد يتعلم الصبية بعض الأغاني البدوية من كبارهم في مجالسهم الخاصة ، او من شعرائهم، ولا تلبث هذه الأغاني أن تشيع في كل القبيل، وبعضها ينظم إثر حادثة خاصة من حب أو فسق تعرف فيشهرها الشعر البدوي الغنائي ، وقد شاهدت صبية يلعبون معاً ، ثم ساروا صفاً مشتبكي الأيدي ينشدون أغنية جديدة كانت قد شاعت في ذلك الحين إثر حادثة أخلاقية. ولم تخل الأغنية من بعض الفحش في اللفظ .

وفي ختام هذه الكلمة لا بد لي من القول إنه يجب الا يتبادر الى ذهن القارىء ان الامر يصدق على كل البدو وفي كل الأقطار، وإنما كان يصدق على أهل الإبل وخاصة بعض فرق الرولة حتى الربع الأول من هذا القرن . اما اليوم فقد جرى تطور شديد في اكثر القبائل في البلاد العربية بمساعي حكوماتها والبدو انفسهم سأشير اليه في آخر هذا الكتاب .

الحياة الأدبية في البادية

تتجلى الحياة الادبية في البادية بمظهرين رئيسيين هما الشعر والقصص ، أما الشعر البدوي فحدث عنه ولا حرج ، ولو كان هناك تدوين لصدق عليه ما صدق على الشعر العربي الأصيل. ومن هنا نستطيع ان نتصور كم ضاع من شعرنا الأصيل القديم قبل التدوين ، ولا أظن أحداً من البدو اليوم يذكر قصيداً بدوياً يرجع عهده الى أكثر من مئتي سنة ، حتى الشعراء انفسهم فإنهم قلما استطاعوا ان يحفظوا كل ما قالوه من شعر ، وكم من مرة تستنشد أحدهم فيذكر لك شيئاً من قصيد (كما يسميه) ثم يحيلك الى راوية او بدوي آخر ويقول لك : « انه يعرفه كله » أو « يعرف منه أكثر مما أعرف انا فقد نسيت أغلبه» .

ولعل من الخير أن أذكر هنا ان النتاج الادبي عند البدو اليوم لا يختلف كثيراً بمعانيه وجوه وروحه عن اكثر الادب العربي القديم الذي نعتبره خير ما خلفه العرب الاصيلون من تراث أدبي. وتعليل ذلك يسير ، وهو ان الحياة العربية في البادية اليوم لا تختلف كثيراً عن حياة العرب في البادية أيام الجاهلية وصدر الاسلام ، بل لعل الاولى ان نقول ان الحياة البدوية التي عرفها الجاهليون ظلت هي هي على مر القرون حتى يومنا هذا! . فعصبية القدماء الحادة للقبيلة ، وغيرتهم على شرفها ومكانتها ، وطرقهم في الحكم والقضاء ، وتمسكهم بالاخلاق العربية المعروفة من نخوة وجيرة وإباء وكرم وبأس وعزة نفس وميل شديد للفروسية والمغازي هي الصفات نفسها التي يتحلى بها البدوي اليوم .

وهنا أريد أن أقرر شيئاً هاماً لا اظنه خارجاً عن الموضوع ، وهو انه لا بد لطالب

الادب العربي القديم ، إذا أراد ان يفهم الادب العربي على وجهه الصحيح ، وان يفهم صوره ومعانيه الجزئية المتنوعة ، وان يفهم الحياة التي يمثلها ، اقول : لا بـدّ له اذا اراد ذلك من ان يلم بالحياة البدوية اليوم ، ولعله من حسن حظ طلاب الادب القديم اليوم ان الحياة البدوية القديمة التي يمثلها القسم الاكبر من هذا التراث القديم لا تزال مستمرة في بقاع كثيرة من دنيا العرب . ولعل الطالب العربي لا يفهم معنى الوقوف على الطلل ، ولا الغرض من هذا الوقوف، إذا لم يكن قد رأى طللاً وعرف ما يمكن أن يستطلعه البدوي من الأخبار اليوم من الطلل حين يقف عليه. إنه كتاب كتبه أهل الطلل بغير قلم ودون قصد وخلّفوه إلى البدوي العابر فيقف عليه وهو يستطيع أن يقرأ فيه إذا شاء، ما يريد أن يعرفه من الأمور الهامة عندهم.

فالأثافى تدل على شيء، والنؤي يدل على شيء، ومواضع الأوتاد التي كانت تشد إليها ،سباب البيت (الخيمة)، ومرابض الإبل في مراحاتها، وسقطها، وموقع الطلل من بقية الطلول في مكان المضارب ، وما انتثر هنا وهناك من خيوط او رقع او قطع من ملبس او أثاث ، كل هذه وكثير غيرها تشير الى اشياء يدركها البدوي حين يمر بالطلل ويقف عليه . وقد صحبت في رحلاتي الى البادية منذ حداثتي كثيراً من البدو ، ولا اذكر إننا مررنا بطلل دون أن يعـرّج عليه بعضهم ليقـرأ مـا فيـه أو يسأل معـالمه عن ذويه . كذلك لا يمكن لطالب الادب العربي القديم ان يفقه كثيراً من تعابير اللغة العربية ، ومجازاتها وكناياتها على وجهها الصحيح اذا لم يكن قد ألف شيئاً من حياة البدوي اليوم ، بل ان كثيراً من هذه الصور الرائعة في الشعر القديم تبرز بشكل أوضح وأتم في نفوس الطلاب اليوم لو تيسر لهم ان يُلمّوا بالحياة البدوية ، وكذلك قل في هذه المفردات والأسماء التي نألفها في الشعر القديم لمسمّيات لا نعرف مثلها في بيئاتنا الحضرية ، فإنها لا يمكن ان تحدث الوقع المرغوب في نفوسنا والاثر حين لا نعرفها ولا نرى مسمياتها . فالعرار والشيح والقيصوم والخزام والحوذان والرند والبان وغيرها من نبت البادية الزكي الرائحة ، والغضا والقلام والقتاد والسدر والضال وغيرها من شجر البادية الشائك ، لا يمكن ان يدرك السر في ذكرها حين نقرأها في الشعر القديم ، ولا يفهم معناها، والغرض من إيرادها، إذا كنا لا نعرفها كما نعرف البنفسج مثلاً والقرنفل والورد والياسمين أو غيرها من الأزهار والنباتات.

ويجب الا يتبادر الى الذهن ان ادب البادية اليوم هو كالادب القديم ، فهناك من اختلاف اللفظ والاوزان والإعراب ما يجعله غريباً على السامع الحضري ، ولكنه على هذا الاختلاف هـو اقرب مـا يكون الى الادب القـديم من حيث المفردات والاسلوب

وطرق التعبير والمعاني وبعض الصور الشعرية ، ومن حيث الحياة التي يمثلها بوجه عام . فقد كانت البادية في العصور الاسلامية الاولى وقبلها موطن الفصاحة وموئل علماء اللغة يقصدها النحاة والادباء لأخذ الاقوال عن رجالها والاستماع الى رواة شعرائها . وقد قصر ابن عبد ربه في كتابه «العقد» ثمانين صفحة على كلام الأعراب قال في أولها: «إذ كان أشرف الكلام حسباً، وأكثره رونقاً، وأحسنه ديباجة، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة، وإذ كان مدار الكلام كله عليه ومنتسبه إليه»[١]، واستشهد بعشرات الأمثلة على فصاحتهم وبلاغة أقوالهم[٢].

فنون الأدب ـ القصيد البدوي

اما فنون الادب في البادية اليوم فتنحصر في بابين رئيسيين هما فن القصة وفن القصيد . ويمكن ان يضم لهما فن التحدث في المجالس والمرافعة امام قضاة البدو والاحاجي والامثال والعتابا وما تنطوي عليه هذه الفنون الثانوية من بلاغة التعبير وجزالة اللفظ ، ويعتبرها بعض أهل البادية من فنونهم الادبية وسآتي على نماذج من بعضها .

اما فن القصيد فهو اشهر الفنين الرئيسيين وقد يرتبط بالفن الآخر ـ القصة ـ ارتباطاً وثيقاً ، فنجد القصة في كثير من الاحَيان مرتبطة بالقصيد بحيث يكون القصيد فيها ختامها الرائع .

ويكاد يطرق القصيد البدوي كل الموضوعات التي طرقها الشعر القديم ، فهو يتناول الفخر ويشيد بمكانة قبيلة الشاعر الخاصة، ويصف المعارك في المغازي وردّ الغزاة ، ويطرق المديح والنسيب والرثاء والعتاب ، وقد استغنى عن موضوع الخمرة واستعاض عنها بالقهوة ووصف فناجينها ، ورائحة بهارها ، وحسن تحميصها ، ودقها بالجرن على وقع موسيقي ، وطبخها ، وادارتها على الضيفان .

وتكثر في الشعر البدوي المقطوعات الصغيرة الغنائية ، من حربية ينشدها المتحاربون لإذكاء نار الحماسة في نفوسهم قبل المعركة ، وربما في اثنائها ، او عند الرجوع من الغزو ، الى غزلية يتسلى بها المحبّون وهم ظاعنون بعيدون عن عشيقاتهم وصواحبهم ، الى وردية تنشد حين تورد الابل .

وتوضع هذه الأشعار أو «القصدان» كما يسمونها على أوزان خاصة هي مجزوءات في الغالب تقاطيعها « مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ » او « مُسْتَفْعِلُنْ فَعُولُنْ » او « فَاعِلاتُنْ فَاعِلُنْ » او « فَعِلُنْ فَعِلُنْ » اما القُصْدان (كما يسمونها) غير المجزوءة فهي على بحور خاصة اكملها على تقطيع : « مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلاتُنْ » أو « مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعْلُنْ » ،

ويستعان في البحور المجزوءة وغير المجزوءة بكثير من الجوازات المألوفة في العروض من خبنٍ وطيٍ وقبضٍ وعصبٍ وما اليها .

وفي القصيد البدوي فوق ذلك التفاتة الى الاطفال والصبية ، فقد امدهم بكثير من المقطوعات ينشدونها وهو امر لم يتحدر لنا مثله من العصر الجاهلي او الأموي، واكثر هذه المقطوعات غنائية تغنيها الصغيرات في اوقات السمر في العشيات في جوقتين اذا جاز لي هذا الاستعمال تغني كل واحدة بدورها وقد تشترك معهن النساء .

ويتعرض القصيد البدوي التام في اكثر مواضيعه الرئيسية الى وصف الناقة كما نرى في الشعر القديم ، بل تكاد تكون اكثر مطالع القصيد الكلاسيكي البدوي اليوم مقصورة على تكليف رسول يركب ناقة يصل عليها الى الممدوح او المحبوب او المقصود من القصيد ، ولا يكاد الشاعر يذكر الناقة حتى يأخذ بسرد وصفها وذكر أصلها ـ وهي في الغالب من هجن قبيلة الشرارات أكرم الهجن في شمالي الجزيرة العربية وأسرعها ـ ويقابلها هجن عُمَان في الشعر القديم ثم يصف خلقَها ، ولونها ، ولون شدادها ، وسرعة سيرها ، ونوع طعامها ، وزاد صاحبها ، وما الى هذه الأمور، ولا ينسى أحياناً ان يصف رسوله الذي يمتطيها وأكثر ما يبدأ مثل هذا القصيد بـ « يا رَاكبٍ » دون ان يلتفت الى صحة التشكيل ثم يترك الراكب ويلتفت الى الناقة ، وقد يجوز ان يبدأ الشاعر بمطلع يختلف عن هذه المطالع ولكنه يندر ان يهمل ذكر الناقة وأوصافها. واعرف قصيداً يذكر فيه صاحبه رسلاً ثمانية على هجن ثمانٍ يصف كل هجين على حدة ببيت او اكثر يختلف عن وصف الأخرى.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنه طبع ونشر كثير من الشعر البدوي في كل الأقطار العربية وبعضهم يسميه الشعر النبطي ولكني رأيت أن أختار منه قصيدين الواحد من كتاب عادات الرولة للشيخ موسى الرويلي، كما سمّاه البدو، وهو العالم النمسوي الأصل ألوس موزل الذي اقتبست عنه الكثير في هذا الكتاب واثنى عليه الأمير فواز نفسه حين قابلته في الخمسينات من هذا القرن، بعد أن زاره في براغ وحادثه عن علاقته بجدّه نوري الشعلان. وفي هذا القصيد الأول الذي زعم موزل أن الأمير نوري نفسه نظمه بالتعاون مع كاتبه، مدح موزل (الشيخ موسى) وذكر المزايا والصفات التي تحلى بها، ولا أرى داعياً لشرحه فهو من السهل الممتنع عند البدو ولم يجنح فيه واضعاه إلى المفردات النادرة كما نرى في كثير من أشعار البداة.

في مدح الشيخ موسى الرويلي (الوس موزل).

أبدي بذكر الله على كل نيّة	ربٌّ كريمٍ عالمٍ بالخفيات
يا راكبٍ من فوق حمرا ثنّية	حرّة هميمه من أركاب الشرارات
ما سامها شرّاي بعداد ميّة	ولا نَوَّخت للشيل دوم معافات
مرباعها بطراف نجد العذيّة	ترعى زهر نوار ورد الذّوابات
فوقه شداد والمِيارج زهيّة	وسفايفه لب البريسم حليّات
مدتّ من بيتٍ علومَه طريّة	الشيخ شيال الحمول الثقيلات
من بيت أبو نواف ديب السريّة	زيزوم مجلس كاسب النفالات[٣]
فوقه غلامٍ ما يهاب الدويّة	يوصل كلام لديارٍ بعيدات
اليا لفيت أديار هاك السميّة	أبد البشارة وْزِيدْ منّا السلامات
قل حرّ لِفى من عندكم له لوية	نجمٍ شبيه أسهيل ما به غباوات
باق البلاد العامرة والخليّة	بعقل رجيح ما يهاب العسيرات
الشيخ موسى علومه صفية	حافظ علومٍ من دهورٍ مزمنات
ما جابت الخفرات مثله حليّة	ولا له شبيه بشيوخ البداوات
حاكم وزير عارفٍ كلْ شِية	ولا لِه مثيل كود أبو زيد بصفات
حلِو المشايل بكفوفٍ سخية	شبيه حاتم ما يهاب الخسارات
سنّه ضحوك وجرعته باسلية	فرز القناصل والمشاور صعيبات
ليثٍ غضنغر ما يداني الرديسة	درعاً حصيناً يذخرونه لعازات
ون يسّر المولى وزانت النية	لازم يجيكم بعلومٍ مثمنات
علوم البوادي وحضرها والرعِية	ديارالرولةوفدعان وارض العمارات
وديار نجد والفروع الخلية	مع ديرة الصَوَّان وأرض الحويطات
هاذي افعال الْلِي اخصاله وفية	كنز الفخر بحر الندى والمروات[٤]

والقصيد الثاني مقطوعة طويلة لمحمد عبد الله القاضي من عنزة (ت ١٢٨٥ هـ.) عن القهوة من شعر في الغزل نقلته من كتاب الشعر عند البدو للاستاذ شفيق الكمالي[٥] عالج فيه موضوع الشعر عند البدو بشكل مفصل واورد أمثلة كثيرة منه، وقد نقلت شرح المفردات عنه، أما شرح الأبيات الذي أورده فقد اجملته باختصار في آخر القصيد، وأهملت قسم الغزل لطول القصيد.

يا من لقلب كل ما التم الاشفاق — من عام الأول به دواكيك وخفوت[٦]
كنه مع الدلّال يجلب بالأسواق — وعامين عند معزل الوسط ما سوق[٧]
يجاهد جنود في وساهيح الأطراق — ويكشف له أسرار كتمها بصندوق[٨]
ليا عن لي تذكار الأحباب واشتاق — بالي وطاف بخاطري طارىء الشوق[٩]
دنيت لك من غالي البن ما لاق — بالكف ناقيها عن العذف منسوق[١٠]
احمس ثلاث يا نديمي على ساق — ريحه على جمر الغضى يفضح السوق[١١]
وإياك والنية وبالك والاحراق — واصح تصير بحمسة البن مطفوق[١٢]
ليا اصفر لونه ثم بشت بالاعراق — وغدت كما الياقوت يطري لها الموق[١٣]
وعطست بريح فاخر فاضح فاق — ريحه كما العنبر بالأنفاس منشوق[١٤]
دقه بنجر يسمعه كل مشتاق — راعي الهوى يطرب ليا طق بخفوق[١٥]
والقم بدلة مولى كنها ساق — مصبوبة مربوبة تقل غرنوق[١٦]
خلها تفوح وراعي الكيف يشتاق — ليا طفح له جوهر صح له ذوق[١٧]
اصفر قموره كالزمرد بالاشعاق — وأكبارها الطافح كما صافي الموق[١٨]
زلّه على وضحا بها خمسة أرناق — هيل ومسمار بالأسباب مسحوق[١٩]
مع زعفران والشمطرى إلى أنساق — والعنبر الغالي على الطاق مطبوق[٢٠]
فليا اجتمع هذا وهذا بتيفاق — صبه كفيت العوق عن كل مخلوق[٢١]
بفنجال صيني زاهي عند الارماق — يغضي بكرسيه كما اغضاي غرنوق[٢٢]
ليا انطلق من ثعبته تقل شبراق — أو دم جوف أمزع منه معلوق[٢٣]
خمر اليا منه تسلسل بالارياق — وعليه من ما صافي الورد مذلوق[٢٤]
راعيه كنه شارب ريق ترياق — كأس الطرب وسرور من ذاق له ذوق[٢٥]

يقول: يا من لقلب كلما التأم الشفق منذ عام أول تعاوده الهواجس والخفقان كأنه مع دلال يعرض بضاعة بالسوق ضامر الخصر، وهذا القلب يجهد وصاحبه مغرق في التفكير يكتم أسراراً فيه. فإذا بدا له تذكر الأحبة واشتاق خاطره اليهم قربت منك حبوباً من القهوة الغالية الثمن المنقاة، وطلبت إليك يا نديمي أن تحمصها على نار من حطب الغضى بحيث يفوح عطرها، واحذرك من عدم تحميصها جيداً ومن إحراقها ، حتى إذا اصفر لونها وأخذت تنش عرقاً، وأصبحت كالياقوت في عين الناظر اليها، وتنفست بعطرها الفاضح الذي يفوق العنبر، ضعها بجرن. ودق بحيث يسمع كل مشتاق

صاحب هوى يطرب إلى دقات الجرن، ثم القمها إلى إبريق لامع كأنه طائر من الغرانيق، ودع فقاقيعها تفوح على النار طافحة كالجوهر، أقمارها الصغيرة كالزمرد، والكبيرة كالعيون الصافية، ثم اسكبها في ابريق الضيافة، وقد مزجت بخمسة من البهارات العطرة، من هيل ومسمار وزعفران وشمطرى وعنبر، حتى إذا اجتمعت هذه الألوان من البهارات فيها ادرها على الإخوان بفناجين صينية زاهية، بحيث إذا صُبَّتْ إليها تنزل حمراء مثل الدم، فتنزل كالخمر بفم شاربها وقد ديفت بماء الورد، ويصبح شاربها كانه قد احتسى صافي الخمرة وحاز الطرب والسرور. ويكمل القصيد بغزل لم نذكره لضيق المقام.

وهناك العتابا وأخشى أنها أهملت كفن أدبي عند البدو وأصبح المعروف عنها أنها من الفنون الأدبية عند القرويين في سورية ولبنان. ولا تزال مألوفة عند القرويين، وينشدها بعض أشهر المغنين المعاصرين.

وقد ذكر لي بعضهم أن هناك عشيرة بدوية هي عشيرة الجبور في شمالي سوريا وهي المعروفة بين العشائر بهذا الفن الأدبي. وزعم هذا الراوي أن أصل الفن بدوي ومن البدو انتقل إلى القرى، وقص علي قصة أول من عرف بالعتابا عند البدو وعنه انتشر هذا الفن. وليس غريباً أن تكون روايته التي سأذكرها صحيحة، لأني لم أقع على ذكر للعتابا في المصادر القديمة، ولا استغرب أن يكون القرويون أخذوها عن البدو لأن حياة القرويين الأدبية قبل مئتي سنة كانت متأثرة إلى حد كبير بالأدب البدوي. والعتابا في ألفاظها بدوية تماماً. والقديم منها بدوي في معانيه أيضاً، ويمثل حياة البدو، وأذكر على سبيل المثال ما رُوِيَ مرة عن رجل بدوي رأى الفتيات من بنات قبيلته يملأن الماء ليلاً من غدير أو واد بعيد فأمر ابنه أن يذهب ويملأ قربة صغيرة له منه فتلكأ الولد ولعله التهى بالحديث مع الفتيات فانشد والده بيتاً من العتابا يقول فيه:

طول الليل وأنا قاعد هناي
تدحج بالحلق والجاعديناي
مالك روح مالك قاعديناي
عيون وساع ما بيها مياه؟

يعني أنا انتظر طول الليل وانت لاه تنظر إلى حلق الفتيات وشعرهن اليس لك روح، اليس في العيون ماء؟ وقد يعني الشطر الأخير ألا تستحي؟

قالوا وكان ابنه ينظم العتابا مثل والده فأنشأ يقول:

أنا لاشد كوري فوق ما كان
ذلول مصنعة وشداد ماكن
نشدت الواردات منين ماكن
قالن لي غريف من الندى[٢٦]

ومعنى البيت: سأشد رحلي على ناقتي المصنعة، وأسير، وقد سألت الفتيات من أين ملأن قربهن فقلن إنهن غرفن الماء من الندى الساقط على العشب.

أما رواية صاحبي في نشأة العتابا فأوردها، وأنا لست أجزم في صحتها، إذ قد تكون من القصص البدوي ولكنها تسمي بطلها وهو شيخ من شيوخ البدو المعروفين في القرن الماضي واسمه الشيخ عبد الله الفاضل شيخ عرب الحسنة، وكان مشهوراً بالكرم والفروسية، وإليه وكلت حماية الحجاج، وكان يتقاضى من الدولة التركية صراً معلوماً لقاء ذلك. زعموا أنه حين كان مشرقاً مع عربِهِ ذات شتاء أُصيب بمرض الجدري. فخشي أهله العدوى، فنصبوا له بيتاً من الشَّعر بعيداً عن المضارب، ولما لم يشف واضطُروا إلى الرحيل تركوه وتركوا عنده عبدة تخدمه وكلباً اسمه شير وناقة، وكانت العبدة قد جدّرت سابقاً فلم يخشوا أن تصاب بالمرض وتركوا عندهما زاداً يكفي، وكان أن ابَلَّ من مرضه بعد أسابيع فآثر أن يبقى في الموضع الذي خلفوه فيه حتى الصيف.

وصدف أن مرت بذلك المكان قافلة من العقيلات، وهم عرب تجار، في طريقها إلى الشام فسألهم أن يرافقهم دون أن يخبرهم عن نسبه وسار معهم حتى إذا بلغ أرض الناصرة وجرود ودع العقيلات وعرج نحو خيام قبيلته الحسنة ووفد على بيته، فوجد أهله بحالة غير التي يعهدها، ورأى أن حلالهم من الإبل قد نقص، فأناخ ناقته ويمم خيمة عمه الهرم وأخذ يسأله عن بيت شيخ الحسنة دون أن يعرف بنفسه فقص عليه عمه خبر مرض الشيخ بالجدري وتركه بالعراء واستنتاجهم أنه مات حين لم تعد العبدة. وأخبره أن وكيله «حمد» خانه، وهو الذي تولى الزعامة، ويقبض الصر لحماية الحج. فهاج عندها وعرفهم بنفسه وغضب ألا يكون أحد من أولاده تسلم زمام المشيخة بعده، واراد أن يقتص من وكيله الخائن، قالوا ولم يمهل أهله لحظة حتى عمد إلى فرس عمه المربوطة أمام الخيمة وامتطى ظهرها، وسار في تلك الليلة يطلب الشام ليقابل «حمد» الذي كان ذهب إليها لقبض الصر من واليها. فإذا به عائد على الطريق منها، ومعه نخبة من الفرسان، وزعموا أن حمداً لما رأى الشيخ عبد الله عن بُعد قال لصحبه: والله لو لم يكن عبد الله الفاضل مات لقلت هذا هو، فإن هيئة هذا الفارس من بعيد كهيئته، وإن فرسه كفرس عمه. ولما اقترب الفارس منهم تأكد حمد أنه مواجه الشيخ عبد الله فأخذ يرتجف خوفاً

فصاح به عبد الله خذ حذرك يا خائن فلن أمهلك ولن أحاكمك ولكن أطلبك للبراز.

وأمر الحاشية التي كانت مع حمد أن تتنحّى عنه، فأطاعوه، وقد أدركوا أنه شيخهم وأخذ الفارسان يتبارزان بالرماح، وكل على ظهر جواده، ولم يطل الوقت حتى شك عبد الله رأس حمد بالرمح وجندله عن ظهر جواده، والتفت إلى الفرسان الذين كانوا مع حمد وقال: هلموا معي نرجمه، لأنه لا يستحق أكثر من ذلك، فرجموا جثته بالحجارة على تلة هناك، ولا يزال رجمه هناك قريباً من قرية الرحيبة ويعرف برجم حمد. ويقال إن العتابا التي نظمها الشيخ عبد الله وهي أول عتاباً عرفت ـ كما يزعمون ـ أنشدها وهو مريض حين تركه أهله وساروا مشرّقين فقال مخاطباً كلبه الذي كان اسمه «شير».

هلك شالوا على مكحول يا شير
ودبوا لك من عظام الحيل يا شير
عليش تعوي بكل حزون يا شير
هلك ما عاد لك منهم رجا

وقال مخاطباً العبدة وكان اسمها ليلى:

يا ليلى مخفية الوجنا بس العين
وصف ما لك مع العانة بس العين[٢٧]
هلك خلوني بزيزه[٢٨] بس أعن
ولا لقمان يوصف لي دوا

ويقال انه قال مفتخراً وشاكياً:

بقينا قاضبين الحبل وانبت[٢٩]
ظهر عشب الجفا عالقلب وانبت
حرام نخشّ دار الذل وانبات
ولو نلهم تراب من الوطا

بقي شيء واحد عن الشعر البدوي وهو نظرة البدوي إلى الشاعر، فإنها تختلف عن نظرة العرب القدامى التي نعرفها من كتب التاريخ ولا سيما الشاعر المستجدي أو المداح، فإنه كذاب في نظر البدوي، يقول ما لا يفعل، كنظرة القرآن، ومن هنا فإن أغلب الشعراء المدّاحين هم من القبائل الحقيرة كصليب وغيرها، وتراهم يترددون الى منازل الشيوخ في بعض المواسم أو الظروف التماساً لجوائزهم واعطياتهم ويستصحب الشاعر معه آلته الموسيقية ـ الرباب ـ ينشد شعره على ايقاع رنة أوتارها. أما اذا لم يكن

الشاعر مستجدياً او مداحاً ففنه فن مستحب وصاحبه ذو ذوق وقدر ، ولا سيما شعراء الفروسية والبطولة والرثاء والغزل الشريف . ومن هنا فإن بعض الشيوخ لا يرون بأساً او ضيراً في حفظ القصائد البدوية بل ان بعضهم ينظم هو نفسه مثل هذا الشعر ويفتخر بذاك حين تتحرك عاطفته الى القول في الحب او الفخر أو الرثاء . وقد عرف من الشيوخ الذين نظموا الشعر البدوي في العصر الأخير الأمير نوري الشعلان وقد ذكرنا قصيداً له، وفي القرن التاسع عشر او قبله نمر العدوان،كما عرف شعراء في بادية العراق من شيوخ وغيرهم دونت اشعارهم على ايدي بعض الدارسين المعاصرين .

وربما من الخير ان اذكر هنا ان نمر العدوان هو من اشهر شعراء البادية في المئتي سنة الاخيرة وقد تفنن الرواة في ذكر اخباره وحفظ الكثير من شعره ولا يزال بعضه متداولاً حتى اليوم وخاصة في منطقة شرقي الاردن حيث يزعمون انه من عربها . واكثر قصائده في امرأته وَضْحَى - بعد ان فقدها بحيث زعموا انه وضع نحو ٣٦٥ قصيداً عدد أيام السنة يردد واحداً منها كل يوم وهو حب يضارع حب شاه جهان لممتاز محل - وهو في بعضه يطلب الى أولاده ان يسعفوه ويخبرهم انهم ليسوا هم اليتامى بل هو اليتيم ، وفي البعض الآخر يتأسى ويذكر لمن يحاول تعزيته ويعرض عليه التعلق بأخرى انه لا يمكن ان يفضل على وضحى امرأة من نساء الدنيا ثم يعزّي نفسه بانه غداً سيلقاها في ديار النعيم .

القصص البدوي

اما الفن الأدبي الآخر فهو القصص البدوي ، وهذا الفن كفن الشعر لا تعرفه البادية والحواضر التي تحيط بها الا عن طريق السماع والرواية ، واذا كان هناك في بعض الحواضر والقرى المجاورة للبادية من دوّن قصيداً وحفظه بين وثائقه ، فليس هناك فيما اعلم من كتب قصة رويت له ، او حفظ شيئاً مكتوباً من اجزائها . ومن هنا اصبح طبيعياً ان يفقد كثير من القصص أو ان تُمسخ بعض القصص وتُحوّر بموت بعض القصاصين ، ولكنها برغم ذاك تظل القصة البدوية محافظة على لون اصلها البدوي ، متفقة والروح البدوية ، متقيدة بالنظم والعادات البدوية ، تهدف دائماً الى تمجيد البطولة والنخوة والكرم ، والدفاع عن حياض القبيلة وكرامتها ، محاولة نجدتها ومناصرتها ، ويُلتفت فيها في أغلب الاحيان الى ابراز فضل المغامرة وتحمل المشاق والاخطار .

والقصص على نوعين رئيسيين: واقعي يمثل حياة البدو المألوفة ايام الغارات والغزو والتنازع على الماء والكلأ، وهو أشبه ما يكون بأخبار أيام العرب الأولى في جاهليتهم



بدوي يروي حكاية

وحوادث وقائعهم المشهورة حين كانوا يتنازعون على الغدران وأحواض المياه وآبـارها ، وخيالي يلعب فيه الحب دوراً وتشترك فيه المرأة بنصيب. وكلا النوعين كما ذكرت يتصل أحياناً بفن القصيد، بحيث تختم أحياناً بقصيد يذكر فيه أهم الحوادث البارزة في القصة على لسان البطل نفسه. وخصائص النوعين واحدة، فالقصة يغلب فيها عنصر المفاجأة وتتسم بالمبالغة في وصف الوقـائع، ولكن المبـالغة لا تصـل إلى الاغراق أو المستحيـل، ولعلها تخلو حتى من الغـلو، وهي بعيـدة عن الاسهاب والتـطويل ـ لأنها ستُروى ولا تُدوّن ـ ولكنها غنية في بعض أجزائها بالتفاصيل الدقيقة شأنها في ذلك شأن الأدب العربي بوجه عام.

وكما أن القصص في الأدب العربي لم يكن الغرض منه مجرد المتعة الفنية بل كـان يرمي في الغالب الى تمكين بعض الفضائل التي عرفت في خلق العربي أو لصرف الناس عن بعض الأمور التي كان يريد ذوو السلطان أن يصرفوهم عنها كذلك نجد القصص في البادية اليوم يرمي الى أغراض متنوعة غير اللذة الفنية التي نستملحها فيه .

ولهذا القصص اليوم مجالس خاصة يعقدها له البدو في ليالي الشتاء والربيع حول نارهم وقد يفد بعض قصاصيهم في الأصياف الى القرى التي تلي البادية يحدثـون أهلها بهذا القصص وينعمون بضيـافتهم وحسن استماعهم ويعلمـونهم عن طريقـه شيئاً من لهجتهم وتعابيرهم، حتى إذا عاد هؤلاء الأعراب الى باديتهم عند انقضاء الصيف خلفوا وراءهم رواة قرويين يقصـون عليك قصص البـادية بلهجـة الأعراب . ولا أزال أذكـر مجلساً في قرية على ضفاف البادية يقص راوية قروي فيه قصصاً بدوياً بلهجة بدوية كأن لهذه اللهجة سطوة غلبت لهجة القرويين فاندحرت هذه أمامها رغم أن المجلس في قرية وليس بين المستمعين بدوي .

موضوع القصص

أما موضوع هذا القصص فهو في الغالب يدور على واحد من ثلاثـة أمور الغـزو والحب ولصوص البادية ـ الصعاليك ـ وهو من هذه الناحية لا يختلف كثيراً عن القصص القديم .ففي قصص الغزو تجد أخبار البطولة وظهور فارس تفرد بالبأس والشجاعة كعنترة في القديم ولكن دون تلك المبالغة التي نشهدها في قصته المعروفة . وفي قصص الصعاليك أخبار السطو والتلصص والفتك والغدر وهي كثيرة الشبه بمـا رواه الرواة عن صعـاليك العرب القدماء كالشنفرى وتأبط شراً والسليك ابن السلكة ، أو ما ذكرته بعض المقامات الحريرية والهمذانية . وفي قصص الحب تجد مثلاً خبرَ فتى نشأ مع فتاة هي ابنة عمه في

الغالب فأحبها فطلبها إلى أبيها فلم يرض به صهراً إلا لقاء مهر غال أو بعد امتحان لفروسيته فيغزو وتبدو شجاعته ويعود غانماً فيرى أن صاحبته لأمر ما قد تزوجت في غيابه أو أن أهلها قد بيتوا ونهبوا وسبيت فيسعى لانتزاعها من زوجها أو ردها من سبيها وفي أغلب الأحيان يطول عهد جهاده هذا وتكون صاحبته قد انتقلت إلى أرض بعيدة فيقصدها وتكون الطريقة التي يتوصل بها إلى تعريف صاحبته بنفسه كالطريقة التي سنها القصص العذري كأن يحل ضيفاً على زوج فتاتهِ في غيابه ثم يطلب شراباً من اللبن ثم يضع بالإناء بعد أن يشرب منه خاتماً له تعرفه فتاته أو قطعة من الذهب حتى إذا أعيد الإناء إليها عرفت كل شيء . وقصص الحبّ تختلف أحياناً عن قصص العذريين في نهايتها فهي في البادية اليوم انتصار للمحب وفي قصص العذريين حرمان وألم وجنون وموت .

هدف القصص

أما أغراض هذا القصص فمتنوعة ولكن المحور الذي تدور عليه هو تشجيع الفروسية والبطولة والمغامرة والكرم والمروءة وحرمة الدخيل وغيرها من الصفات السامية التي تميز بها منذ القدم الخلق العربي . حتى في قصص اللصوص تجد التأكيد على حب الخير. فهذا لص يتزيّى بزي متسول ويرابط في طريق من طرق البادية يمر به فارس فيخدعه ويلتمس منه أن يركبه ويوصله إلى أهله فيردفه وراءه ثم يشفق على جواده فينزل هو ويبقى اللص راكباً وهنا ينطلق اللص بالجواد مخلفاً صاحبه مقطوعاً في الصحراء.. ولا تنتهي القصة هنا لأنها تشجع على الغدر والخيانة ولكن صاحب الجواد ينادي باللص قف فلي كلمة معك ، وقد تم لك ما أردت وأصبح الجواد لك وجازت حيلتك علي ، فيقف فيناشده الله ويتوسل اليه ألا يخبر أحداً بخبره حتى لا ينقطع عمل الخير في البادية ويهلك المحتاجون فيتأثر اللص ويعود الى صاحبه ويسلمه جواده ويقول : لن أكون أقل كرماً منك . وليس في كل قصص الصعاليك متعة إن لم يكن فيها مثل على الجرأة والمغامرة .

الربط بين القصص والقصيد

ولما كان الشعر في القصص القديم لحمة لنسيجه هكذا نرى القصيد البدوي اليوم يدخل في كثير من قصص البادية إما على لسان بطل القصة أو غيره فهذا شاب أحب فتاة وطلبها إلى أبيها فرضي به صهراً له غير أن الفتاة علمت من بعض ذويها أن أصل الفتى حضري من سكان القرى فأبت أن ترضى به،فلما قيل لها إنه فارس كريم قالت وهل

تنشيء القرى فرساناً كرماء إن خيال القرى لا يصلح إلا للصناعة والتجارة ، وشاع قولها بين نساء قبيلتها وتناقله الصبية في المخيم حتى بلغ مسمع الفتى وكان أن داهم القبيلة في عصر اليوم نفسه غزو استاق جمالهم وقهر رجالهم حتى ألجأهم الى الخيام وكادوا يسبون الفتاة نفسها لولا همة هذا الشاب الضيف فقد استطاع هو ورفاقه أن يردوا الغزاة عنها ثم تبعهم واسترد الحلال منهم، وكانت تشاهد ما بدا منه من البأس والشجاعة فندمت على قولها وخرجت تلاقيه وقبلت رأسه وأثنت عليه وأوعزت إلى أبيها أنها لن ترضى سواه ولكنه شكر لها ثناءها ثم جلس يرتاح بعد المعركة ونظر الى جانب الخيمة فرأى رباباً معلقاً فتناولها وأخذ ينشد شعره معتذراً إنه لا يستطيع أن يرضى بها الآن بعد أن رفضته وعيرته أمام بنات جنسها بأنه قروي وزعمت أن خيَّال القرى لا يصلح إلا للصناعة والتجارة فالثناء عليه لا ينفعها الآن وأخذ ينشد :

وراك تـزهد يـا أريش العين بينـا	تقـول خيال القـرى زين تصفيـح
الله لحـد يـا مــا غـزينــا وهبينـا	يـامـا قسمنـا حـلال المصــاليـح
الهـوش مـا هــو بس للظاعنينـا	قسم وهـو ابن الـوجـوه المفـاليـح
البـدو والـلي بـالقـرى نـازلينـا	كـل عـطاه الله من هبـة الـريـح

ويتغزل بها ويقول:

يـا بو نهيدٍ كمـا الفنجـال صينـا	غـزّات للقلب المشكّى ذوابيـح
لا خـوخ ولا رمـان ولا طلع تينـا	ولا مشمش البصرة ولاهِنْ تفافيح

إلى أن يقول :

من عـافنا عفنـاه ولو هـو هـدينـا	ولا ينفع العطشـان كثر التسابيح

وقائع حقيقية

ويلاحظ في قصص البادية اليوم أن الكثيرين من رواته يزعمون أن أصله وقائع حقيقية . وهم في بعض الأحيان ينسبون وقائعه إلى أشخاص معروفين في قبائلهم فصاحب هذه القصة والقصيد مثلاً شاب كان معروفاً في جهات البصرة من العراق والفتاة وأهلها معروفون تسميهم القصة بأسماء معينة وهو عين ما نراه في كثير من قصص القدماء .

والبدوي في طبيعته واقعي ومن هنا خلا القصص البدوي من المشاهد الغريبة التي يصورها الخيال الجامح وخلا كذلك من أخبار الجن والمردة والملائكة والأرواح ومـا اليها فيما ندر جداً ، ولكن البدوي في الوقت نفسه لا يستنكر المفاجآت ولا يستغربها ويظهر أن

طبيعة الصحراء المنسقة في الغالب على وتيرة واحدة لم تعدم من مفاجآت أو لعلها تحبب إليه التغيير وتزين له بعض التطورات، ولهذا فعنصر المفاجأة مألوف بقصصه مرغوب فيه وقد يشكل الطابع الرئيسي في بعضها.

أمثلة من هذه الفنون

وعلى سبيل المثال أورد هنا قصة من القصص البدوي أنقلها بلغتي كي يفهمها القارىء ثم اتبعها بنماذج من الأحاجي.

قيل إن ثلاثة من الحنشل - وهم الذين تخصصوا بالسلب لا عن طريق الغزو المألوف بل عن طريق التسلل ليلاً وسرقة ما أمكنهم من متاع أو ماشية - اجتمعوا معاً وتأهبوا للقيام بعملية سرقة من مضرب خيام لقوم من قبيلة بعيدة ليست من قبيلتهم. واعدّوا الزاد من طحين وتمر وماء، وحملوا سلاحهم، وساروا مشاة تحت أذيال الليل نحو المنطقة التي ينزل فيها القوم الذين قرروا أن يسرقوا منهم خيلاً أو هجيناً. وكانوا كلما انبثق الفجر مالوا إلى واد اختبأوا في مغابنه، وعجنوا وخبزوا وأكلوا واستراحوا، حتى إذا دنا الليل نهضوا يتابعون سيرهم نحو المضارب التي يقصدون، دون أن يفوتهم أن يعرجوا ليلاً في طريقهم على موارد المياه من آبار أو غدران، فيملأوا ظروفهم الجلدية الصغيرة التي يحملون.

واستمروا على هذه الحال ثلاثة أيام إلى أن بلغوا ديار العدو الذي قصدوا أن يسرقوا من مضاربه. وكان الوقت في أول الليل، وقد كاد ينفد زادُهُم سوى قليل من الدقيق والماء، وقد بلغ الجوع منهم مبلغه، فأووا إلى سفح تلّ يسترهم حيث عجنوا آخر ما لديهم من الدقيق، ودسوه قرصاً كبيراً واحداً بنار في حفرة صغيرة، ستروها حين أوقدوا النار، وغطّوه بجمرها ورمادها كي ينضج، ويسمىّ عند البدو «ترموساً».

وإنهم لكذلك إذ شعروا بغتة بقدوم ظعن في ذلك الليل نحو التل نفسه، وقد أصبح قريباً منهم، فلم يسعهم أن ينبشوا النار ويخرجوا ترموسهم، فغطوا الرماد بالتراب وانسحبوا هاربين، ولاذوا بمغبنٍ من مغابن الوادي في أسفل التل كي يمرّ الظعن ويعودوا إلى موضع ترموسهم. وانتظروا فلم يمر الظعن، ولكنه أخذ يضرب خيامه في سفح التل نفسه. وهنا أخذ افراد الحنشل يتشاورون فيما يفعلون، وقد بلغ منهم الجوع مبلغه، ولم يبق لديهم شيء من الزاد. فنهض صغيرهم وتعهد أن يأتيهم بالترموس حتى لو كانت إحدى الخيام نصبت فوقه. فأكبروا جرأته، وسار صاحبنا لتحقيق غرضه، حتى إذا اقترب من الخيام قلب الفروة التي يلبسها ، فأصبح مثل الشاة، وأخذ يدبّ على يديه

ورجليه كأنه شاة من الشياه حتى بلغ الخيام، واستمر يسير بينها حتى استدل على ضالته، وكان الترموس لدهشته في خباء النساء من خيمة الشيخ نفسه، فانسل من تحت الرواق إلى داخل الخيمة، وأخذ يبحث عن ترموسه، وعرف المكان بالضبط، وكانت ابنة الشيخ الأمير قد فرشت فوقه فراشها ونامت، فحاول صاحبنا وهي مستغرقة في نومها أن يسحب فراشها وهي فيه جانباً دون أن تشعر ليخرج ترموسه ، وبينما هو يسحب الفراش برشاقة وخفة شعرت به، فاستيقظت، وحاولت أن تصرخ مستغيثة بـأهلها، فكمّ فمهـا بيده، وقال لها همساً: لا تخافي يا أختاه، إذ لا أريد بك شرّاً، إنما لي شـأن بهذا المكـان الذي فـرشت عليه فـراشك، ففيـه زادي. وقص عليها قصتـه، وقصة رفـاقه، فتعجبت من شجاعته وسحبت الفراش، فانجلى المكان عن الـرماد وكـان الترمـوس لا يزال سـاخناً فصدقته وسَمَحَتْ له بأخذه؛ ولكنها لم تـطلقه إلا بعـد أن استحلفته أن يعـود إليهم في صباح ذلك اليوم، فأقسم لها وانطلق.

وكانت الفتاة قد قصت على والدها ما جرى لها في ذلك الليل ودهشتها من شجاعة ذلك الشاب، وكان لها أخ أسير عند بعض القبائل البعيدة، وعبثاً حاول أهلها وعشيرتها انقاذه، فأمّلت رد أخيها عن يد هـذا الفتى الشجاع، وكـان قد وقـع من نفسها المـوقع الحسن، ونزل من قلبها منزلة الحبيب، وفي الصباح نفسه عاد الفتى ورفيقاه إلى المخيم فاستقبلوا إخواناً، وقصت الفتاة على الفتى خبر أخيها، وطلبت إليه أن يرده من الأسر، وعينّ له والدها مكافأة من الإبل والخيل، فرفض ولكنه قال له إكراماً لعيون كريمتك التي وثقت بي أفعل ما تشاء؛ فابتسم والدها وقال له إن كنت قد كسبت قلبها فإني سعيد بأن تزف إليك إذا نجحت في مهمتك وعدت سالماً.

وفي اليوم التالي شدّوا له على ناقة شرارية تُسابق الـرياح، وزودوه من زادهم مـا يكفيه، فودعهم واودع قلبه عندهم، وسار يقطع البيادي والقفار، ولا يتوقف في مسيره إلا قليلاً ريثما يريح ذلوله ويسمح لها أن تتقوت بشيء من النبات. وما زال كذلك حتى بلغ المنطقة التي فيها مضارب العدو، فعمد إلى سفح تلة تستره عن خيامهم، وأناخ ذلوله وعَقَلها ، وتركها وسار نحو المخيم ليلاً، وأدرك من بعيد خيمة الشيخ فانسل يتستر تحت أهداب الليل إلى أن وصل الخيمة، واستمع إلى أحاديث المجتمعين عنده فأدرك منها أن الأسير لا يزال حياً، وأنه محجوز في حفرة، وقد غُطي ببساط نفذ منه رأسه، وأنيخت على جانبيه ناقتان معقولتان كي لا يفلت. فظل ساكتاً إلى أن انصرف الساهرون ورقد أهل الخيمة، فسمع أنيناً عميقاً متقطعاً تتخلله زفـرات وتنهدات وبعض الكلم التي لم يفهم منها سوى يا اختاه، فاهتز حماسةً ودنا من الموضع الذي سمع الأنين يـأتي منه، فـألفى

صاحبنا كما وصفنا، فاقترب منه وهو واضع يده على فمه مشيراً إلى الأسير ألّا يتكلم، ودنا من البساط فشقّه عرضاً بخنجره، ثم انتشل الأسير من الحفرة، وحمله على ظهره، وأخذ يدب على يديه ورجليه إلى أن خرج من بقعة الخيام، فتوقف وانـزله وفـك قيوده وحمله على كتفيه، وراح يعدو مسرعاً نحو ذلوله المعقولة بسفح التل، وكأنّ التقادير أبت إلا أن تقف في وجهه حين كادت تتحقق أمنيته، فقد طلب ذلوله فلم يجدها، فأيقن أن بعض الرعاة عثر عليها فأخذها غنيمة. فما كان منـه إلا أن أخذ الأسـير وخبأه بكهف قريب، ثم رجع إلى المضارب يطلب ناقته نفسها، فوجدها معقولة أمام إحدى الخيام، وتطلع من شقوق الخيمة فرأى أهلها لا يزالون سهارى، مـع أن كفة ميـزان الليل قـد مالت نحو الصباح، وأصغى فسمعهم يتحدثون بقضية الأسير، فعلم أن الأمر قد شاع، ولا بد له من السرعة في العمل، فانسل داخلاً من بين شقوق الخيمة الى أن بلغ العمود الكبير الذي ترتكز عليه، فعمد إليه وسحبه إلى جهته فسقطت الخيمة على جميع من تحتها فانسلّ حالاً إلى حيث ربطت ناقته وفك عقالها وركبها وسار نحو رفيقه فوجده ينتظره، فاردفه وراءه واستحث المطية فسارت تطوي الأرض طيّاً. وظل كذلك إلى شقّ الفجر، فرأى وراءه جماعة من أهل القبيل يطلبونهما ورأى لحسن حظه خياماً مضروبة على حافة وادٍ أمامه فبلغها وأناخ ناقته وعمد إلى خيمة الشيخ فقبّل العمود طالباً الحماية ـ فانبرى الشيخ ووقف بوجه المهاجين وتصدّى لهم ومنعهم من الـوصول إليه. وما كـاد صاحبنـا يستريح حتى شكر لمضيفه شهامته، وركب مـردفاً رفيقـه وسار يقصـد أهل الأسيـر، ففرحوا به وزوّج من ابنة الشيخ واعطاه من الحلال وأعطى رفيقيه ما منعهم من متابعة السرقة والحنشلة.

وهناك الأمثال وهي مستمدة من حياتهم البدوية، ومن حوادث مشهودة لا تعـود إلى العصور القديمة كالامثال العربية التي دوّنها الرواة القدماء وأصبحت جزءاً من التراث الأدبي العربي. وفي اثناء اختلاطي بهم لم اسمع أحداً استشهد بمثل قديم، حتى ولا بمثل جديد من حياتهم في العصور الأخيرة، ومن هنا فلم أدوّن شيئاً منها ولم أجد أحداً التفت إليها من الذين كتبوا عن حياتهم الأدبية.

وهناك أيضاً لون من ألوان الأدب الذي يتندر به الرجال في مجالسهم مقروناً في أغلب الأحيان بمقطوعات صغيرة من الشعر البدوي أو العبارات المقفّاة هو الأحاجي، وقد التفت إليها موزل في كتابه عن الروله وذكر بعضاً منها وأشار إلى أن الروله تحب حل الأحاجي. وهي ان دلت على شيء فتدل على سذاجة وبساطـة، ومن الخير أن أورد بعضها للدلالة على سهولتها:

انشدك عن سبع مسميات.
لا يتيهن ولا يبيهن عتيقات جديدات.
كل من مشىء مشىء بهن إلّي حي وإلّي مات.

ومعناها أسألك عن سبع ذوات أسماء
لا يخطئن ولا يُنْسَين وهن قديمات وجديدات
كل من مشى مشى بهن من هو حي ومن هو ميت.

والجواب أيام الأسبوع.

وآخر: أنشدك عن خمسٍ جل
لاهن خيل ولا هن بِل
اثنين بالشمس وثلاثة بالظل

ومعناها أسألك عن خمس مهمة جليلة
لا هي خيل ولا هي ابل (جمال)
اثنتان منها بالشمس وثلاث بالظل

والجواب الصلوات الخمس.

وآخر: انشدك عن شيء سَلّى الخيل والنوق
وكل البوادي بالمحبة سلاها
تضحك له البيض والعذارى.
سهف روك يرمي قرانيص القطا من سماها.

ومعناه أسألك عن شيء يفرح الخيل والنياق
ويبهج كل البوادي بالمحبة
النساء البيض تضحك له
بينما الشوق له يستنزل ذكور القطا من سماها.

والجواب الضنا أي النسل (الأولاد)[٣٠]

بقي أن أقول في ختام هذا الفصل أنه مع تطور الحياة البدوية واقبال الكثيرين منهم على التحضر والتعليم ومعرفة القراءة والكتابة والاطلاع على الشعر العربي الكلاسيكي سيدال من الشعر البدوي إلى الشعر الفصيح كما نرى في المملكة العربية السعودية، وفي المملكة الهاشمية الأردنية، وعند فتيان العرب المتعلمين.

الحواشي :

(١) العقد الفريد، ٣: ٤١٨.
(٢) المصدر نفسه، ٣: ٤١٨ - ٤٩٨.
(٣) يقصد بأبي نواف نوري الشعلان نفسه.
(٤) Musil, **Manners and Customs**, pp. 289 - 92.
(٥) الشعر عند البدو، لشفيق الكمالي، بغداد ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤، ص ٣٠٦ - ٣١٠.
(٦) الاشفاق: الشفق، دواكيك: هواجس.
(٧) كنه: كأنه، معزل الوسط: ضامر الخصر، ما سوق: مرهون.
(٨) سواهيج: الاغراق في التفكير.
(٩) ليا: إذا، عنّ: بدا.
(١٠) دنيت: قربت، ناقيها: منقيها، العذف: الخلط.
(١١) احمس يعني حمص.
(١٢) النية: النيئة، مطفوق: مرتعش.
(١٣) بشت: نضجت، الاعراق: العرق، يطري لعلها يطرب، الموق: البصر.
(١٤) فاضح: منتشر.
(١٥) نجر: هاون أو جرن.
(١٦) القمها: صبها، دلة: ابريق نحاسي، مربوبة: مجلوة، غرنوق: طائر مائي أبيض.
(١٧) طفح: ظهرت فقاقيعه (جوهره).
(١٨) قموره: فقاقيعه، الاشعاق: الاشعاع، الموق: العيون.
(١٩) زلة: أسكبها، أرناق: ألوان، الأسباب: الأصناف.
(٢٠) الزعفران والشمطرى: نباتات لها رائحة زكية، مطبوق: مضاعف.
(٢١) تيفاق: اتفاق.
(٢٢) الارماق: البصر.
(٢٣) ثعبته: رقبة اناء القهوة، شبراق: مادة حمراء.
(٢٤) اليامنه: اذا منه.
(٢٥) راعيه: صاحبه.
(٢٦) والمفردات البدوية تدحج تعني تحدق، والجاعديناي تعني الشعر، والكور يعني الرحل على ظهر الذلول، مصنعة تعني رافعة الرأس، ماكن الأخيرة تعني مياهكن.
(٢٧) العين بمعنى الظبية النجود التي تقود القطيع.
(٢٨) زيزة معناها البيداء المقفرة.
(٢٩) انبتّ أي انقطع وقاضبين أي ممسكين.
(٣٠) من كتاب موزل **Manners and Customs**, pp. 327 - 28. وقد زعم في معنى قرانيص أنها العدو الوحشي ويقصد الصقر ولكنه عاد فذكر أن جواد شاعر الأمير النوري ابن شعلان وشخص آخر قالا القرناص هو الطير الذي كبر وأخذ ريشه يخف والذي اسمعته من البداة والذين ألفوا صيد القطا أن القرناص هو ذكر القطا.

الفصل الثامن عشر

بَدْوُ البَدْوِ - صليب (الصلبة) - وأصلهم

قبيلة غريبة

بين قبائل البدو في الجزيرة العربية قبيلة غريبة، هي أعرف القبائل ببوادي الجزيرة وواحاتها، وأوديتها وغدرانها، وجبالها وهضابها، وحيوانها ونباتها. وهي أقدر القبائل على اجتياز المفاوز في تلك الأرجاء وأوسعها انتشاراً فيها. إنها قبيلة صليب أو الصلبة[1] كما يسمّيها أكثر البدو أو الصلبان كما يسمّيهم بعضهم أو الخلاوية كما يسمّيها البعض الآخر. وهي برغم قدرتها هذه قبيلة ذليلة ليست كبيرة العدد، وهي أوهن القبائل بأساً وأحقرها مكانة وأوضعها نسباً، بل الأولى أن يقال عنها إنه ليس لها نسب معروف عند العرب.

وليس لهذه القبيلة منطقة واحدة خاصّة، أي ديرة كما يقول العرب تعرف بها، أو قطر معينّ تستقرّ في باديته، أو تجوب وتنتقل في أرجائه، بل لها فروع منتشرة في أكثر بقاع الجزيرة من أطراف بادية الشام في الشمال عند تدمر إلى الموصل ، وفي النفود في قلب الجزيرة، وفي نجد، وفي أقصى الحجاز في الجنوب الغربي في ما وراء الطائف. وفي الدهناء ممّا يلي الكويت والاحساء، وفي بادية العراق في الجنوب الشرقي[2].

العلماء الذين كتبوا عنها وحيرتهم في أمر أصلها

حار العلماء في أمر أصلها ونسبها، ولم تقتصر الحيرة على الروّاد الافرنج ورجال السياسة من أهل الغرب الذين كان لهم صلة بالبلاد العربية بل تعدّتهم إلى غيرهم. إذ أن العرب أنفسهم من حضر وبداة لم يعرفوا لهذه القبيلة نسباً. بل بلغ ببعض البدو أن يدعوهم «خلويّة» أو «خلاوية» أي الذين يعيشون في الخلاء ويلقّبوهم أحياناً بكلاب الخلاء[3].

وكان من أسبق من كتب من العرب عن هذه القبيلة سليمان البستاني فقد نشر في المقتطف سنة ١٨٨٧[٤] خطبة عن البدو كان تلاها في الجلسة الاحتفالية لجمعية شمس البر في بيروت، وقسّمهم إلى فئات: البدو، ونصف البدو، وبدو البدو، فجعل «صليب» من بدو البدو، وأدلى بنظريّةٍ لعلّه أسبق من ذكرها. ردّ أصلهم فيها إلى الصليبيين الذين زعم أنهم تشتّتوا بعد أن فرّقت شملهم دولة الأيوبيين والمماليك والتتر، فقرّر أن طائفة منهم التجأت إلى بادية الشام وامتزجت ببعض أهاليها وجنّسها الزمان بجنسها. وعاد سليمان البستاني نفسه فكتب بحثاً مطوّلاً في دائرة المعارف التي أنشأها بطرس البستاني في المجلد الحادي عشر سنة ١٩٠٠ فلم يرجع فيه عن رأيه بشأن أصلهم أنه صليبي[٥].

وهناك مقال في الموسوعة الإسلامية للأستاذ و. بيير استعرض فيه كثيراً من الأصول القديمة والمراجع الحديثة عن صليب وفروعهم المختلفة ولكنّه لم يستطع أن يصل إلى معرفة أصلهم بالضبط، غير أنه رجّح أنهم عرب من أتباع دين غير الإسلام في الأصل. وإنهم اعتنقوا الإسلام في عصر متأخّر. وخلص إلى القول أن عاداتهم وأخلاقهم وضعة مكانتهم السياسيّة والاجتماعية لتشير إلى أنهم ضحايا كارثة أو حرب قديمة فظيعة وهي التي أوصلتهم إلى هذه الحالة من الذلّ والمسكنة[٦].

وكتب الفرنسيون عن القبائل البدوية في دولة سورية حين أصبحوا منتدبين على سورية ولبنان كتاباً سنة ١٩٣٠ أعيد طبعه ١٩٤٣ ذكروا فيه أن الصلبة يشكلّون جماعة عرقية ذات شأن تختلف عن الجنس العربي، ثم يقول الكاتب: إن بعض الناس يردّونهم في الأصل إلى الهند ويزعمون أنهم استجلبوا إلى بغداد كموسيقيين لأحد الخلفاء العبّاسيين، ويدعمون رأيهم بأن لغة صليب تحتوي على بعض التعابير الهندية، وأن بعض قصصهم وأخبارهم قريبة من أخبار كتاب «ألف ليلة وليلة» وأن كثيراً من عشائرهم تخيّم في الأرض التي تجاور الخليج[٧].

وجاء في كتاب القبائل البدوية في سورية الذي وضعته السلطة الانكليزية في أواخر أيام الانتداب بعض الأخبار عن صليب وأنهم «من حيث الجنس أي الأصل قوم من العرب» ولكن واضع الكتاب يعود فيقول عن صليب «إنها قبيلة غريبة ضاع أصلها في مجاهل الأساطير فهي برأي البعض جماعة استجلبها الخليفة العبّاسي من الهند إلى بغداد كموسيقيين بينما يقولون هم عن أنفسهم أنهم من بقايا الصليبيين، وهو الرأي المقبول بوجه عام. فقد كانت هناك جماعات من الصليبيين التي ظلّت في سورية قد اتّخذت الصيد وسيلة للعيش، فَدَفَعتهم إلى البادية قبائل وفدت منها إلى سوريا، والواقع أنهم

مهرة بصيد الغزلان، ويزعمون أن اسم صليب هو تحويل من صليب. وكانوا ولا يزالون يلبسون أردية من جلود الغزلان تؤلّف العلامات السود فيها شكل صليب. إنهم حقّاً ليسوا ساميين. وأن كثرة ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرق بينهم لتدعم تحدّرهم من أصل آري. وهم يقولون إنهم ارغموا على اعتناق الاسلام ولكنهم على ذلك، لا يمارسون تعدّد الزوجات. وأن للمرأة عندهم الحقّ في أن تطلّق زوجها، ولا يعقدون زواجاً مع أيّ من أبناء القبائل الأخرى أو بناتها»[٨].

وليس غريباً أن يكون الخبر الذي ذكره واضعو الكتاب الانكليزي والكتاب الفرنسي قبله عن أصل صليب الهندي قد نقل عن كتاب أوبنهايم الذي أشرنا إليه في هامش رقم ٢ قبلاً حيث زعم «أنّ أصلهم لم يحقّق بعد ولكنّهم على الأرجح ليسوا ساميين ولكن من أصل هندي حيث يقال إن بعض الخلفاء الاخيرين في بغداد استحضروا إلى بلاطهم جماعة من الموسيقيين من الهند هرب بعضهم في الصحارى عند هجوم تمرلنك وأن هؤلاء الصلبة من أحفاد أولئك»[٩].

وهكذا فإن هذا الغموض في أمر أصلهم وهذا الاسم الغريب الذي لصق بهم منذ عهد لم نجد في كلّ الأصول التي رجعنا إليها تاريخاً محدّداً له، ولعلّه لا يزيد عن مئتي سنة، دفع بعض الكتّاب من فرنجة وعرب إلى الزعم أنهم إما صليبيون أو من أصل هندي[١٠].

ومن الخير أن ألاحظ هنا أن الرائد لودفيكو دي فارثيما الايطالي الذي كان من أسبق الروّاد إلى الجزيرة وزار بعض أجزائها حاجاً كأحد المماليك وسار من مصر سنة ١٥٠٣ ومرّ بمناطق في بادية الشام كان يمكن أن يكون فيها بعض الصلبة لم يذكر في كتابه شيئاً عن وجود مثل هذه القبيلة مع أنه ذكر وجود جالية يهوديّة في ذلك العهد قرب خيبر في جبل صغير[١١].

ومثله كارستن نيبوهر الذي سار مع خمسة روّاد آخرين في سنة ١٧٦١ سالكاً طريق البحر إلى الحجاز للقيام مع رفاقه ببعض الدراسات الجغرافية وغيرها المتعلّقة بالكتاب المقدّس، وبلغ اليمن وانتقل بعدها إلى الهند سنة ١٧٦٣ لم يذكر في أخبار رحلته أنه قابل أحداً من صليب. وكان قد دوّن في كتابه[١٢] كلّ الملاحظات والاخبار التي استطاع الحصول عليها من رفاقه الذين هلكوا كلّهم في أثناء الرحلة من جرّاء مشاق السفر والمرض ولم يسلم سواه[١٣]. ولعلّهم لم يتّفق لهم المرور بالمناطق التي كان يمكن أن يروا فيها بعض الأفراد من قبيلة الصلبة.

وبين رحلة فارثيما ورحلة نيبوهر كان كثيـرون من تجّار الغـرب وخاصّـة الانكليز ورؤساء القوافل قد أخذوا يسلكون الطريق التجارية بين حلب والبصرة، واستمرّ الأمر حتّى آخـر القرن الثـامن عشر. ولكنّنا لم نـر في كلّ مـا قرأنـا من يوميّـات بعض هؤلاء المسافرين في ذلك العهد ومـذكّراتهم ذكـراً لقبيلة صليب. فقد نشـرت مذكـرات وليم بيوس، ومذكـرات جيلارد روبـرتس، ومذكـرات بارثـولميو بليستـد، ومذكـرات جون كرميكــل[١٤]، ولم نر في أي منها ذكراً لقبيلة صليب أو لأفراد منها.

وفي مطلع القرن التاسع عشر وصل حلب سنة ١٨٠٩ رائد سويسري اسمه جون لويس بركهارت وتزيّى بزيّ عربي واسمى نفسه ابراهيم ابن عبد الله، وسار يرتاد بعض أجزاء الجزيرة وخلّف لنا كتباً عن الوهّابية والبدو كانت إلى عهد قريب من أهمّ المصادر عنهـمـا. وكــان فيـمـا شـاهــد قــوم اسمـهم الـصلبـة، ولـعلّه أسـبق مـن أتى على ذكرهم بين جميع الروّاد والباحثين على الاطلاق وقد قال عنهم: «إنهم قبيلة من أهل الشمال لا يملكون خيلاً ولا إبلاً ولا غنماً وليس لديهم سوى بعض الأتن وقليل من الخيام الرثّة البالية، وقد انتشروا بين قبائل عنزه وعرب أهل الشمال. وأن مورد رزقهم الوحيد هو الصيد، وهم يسيـرون بين العـرب متسولـين ويشترون بمـا يجمعون بـاروداً للصيد»[١٥]. ولم يشر إلى أنهم من أصل صليبي أو هندي.

وتلا بركهارت رائد فنلندي ـ أسوجي اسمه جورج أوغست فالين، زار الجـزيرة سنة ١٨٤٥ مارّاً بالسويس عبـر الصحراء، ومعـان والحماد منتحـلاً اسم «عبد الـولي» وشاهد بعض الصلبة فذكرهم باسمهم في ثلاثة مواضع من كتابه وأشار إلى أنهم أوضع عشـائر هتيم، وقـال إن بعضهم يقيم في الدهنـاء في فصل الصيف، ولكنّـه كـزميله بركهارت لم يشر إلى ما في اسمهم من علاقة بالصليبيين أو بالمسيحيين[١٦].

وجاء بعدهما السر رتشرد برتن ـ الحاج عبد الله ـ الذي قام برحلتـه سنة ١٨٥٣ فذكر أنه شاهد أفراداً من هؤلاء القوم سمّاهم خلويّة (جمع خلوي) كـما يسميهم بعض البدو. ولم يذكر اسم صليب، ولا أشار إلى علاقة لهم بالمسيحيين أو بالصليبيين. وقال عنهم: «إنهم محتقرون مثل قبيلة هتيم التي لها مضارب قرب «ينبع». وهـم سنكـريّة حدّادون ويربّون الكلاب السلوقية الأصيلة والحمير، ويقدّمون الأخيرة مهراً للنسـاء. وهي التي تكسبهم احتقار زملائهم البدو لهم»[١٧].

ولعلّ أوّل من أشار إلى أصل مسيحي لهؤلاء الصلبة الرائد الانكليزي وليم كفورد بلجريف الذي قام برحلته إلى الجزيـرة سنة ١٨٦٢ ونشر كتـابه سنـة ١٨٦٦[١٨]. فقد

ذكرهم في صدد حديثه عن الكيّ والطبابة عند البدو، وزعم أن قبيلة الصلبة هم أشهر قوم في ممارسة الطبابة بين البدو وهم غرباء عن الجنس العربي. ويزعمون أنهم من شعب «شمالي» وذكر أن سحنهم البيضاء وتقاسيم وجوههم الجميلة وعيونهم البرّاقة تدعم ذلك وتدلّ على أصل سوري لا عربي. كذلك إنّ هيئتهم التي تطفح عفويّاً بالبشر لا صلة لها بالهيئة الغائمة المرتابة التي عند زملائهم أبناء الصحراء الآخرين. وإن اسمهم وتقاليدهم تؤيّد تحدّرهم من أصل مسيحي[١٩]. ولكنّه لم يصرّح أو يشر إلى أنهم من أصل صليبي أو إفرنجي.

وفي سنة ١٨٦٤ وجّه نابوليون الثالث رجلاً ايطاليّاً اسمه كارل جوارماني يعرف الشرق وكان سافر إلى منطقة الجوف من قبل، فكلّفه أن يشتري له خيلاً عربيّة. فانتحل جوارماني لنفسه اسم خليل آغا، وزعم أنه مسلم تركي يسوس الخيل لحاكم دمشق، وسار إلى تيماء ونجد. وشاهد أثناء رحلته بعض الصلبة، ولكنّه حسبهم غَجَراً أي نَوَراً. ولم يهمّه من أمرهم سوى حميرهم، وذكر في ملحق مذكّراته «أنه حين ينقضي الشتاء يعبر الفرات كثير من الصلبة لاصطياد حمر الوحش التي انقطعت في الحَمَاد ويقبضون على بعضها لتلقيح أتنهم»[٢٠]. ولم يفته أن يذكر حادثة هامة حدثت له بعد أن شرب ماء من قلتةٍ صخريّة ففقد وعيه، ولم يفق إلاّ بعد ساعات، فوجد نفسه في بيت صليبيّة، أو كما سمّاها زنجانيّة أي غجرية، تعالجه أربع نساء قبيحات الهيئة، ورجالهنّ مثلهنّ، ولم ير شيئاً جميلاً حوله سوى خيله التي كانت معه[٢١].

وعلّق كاروثرز على هذه الحادثة فكتب في حاشية تلك الصفحة مفسّراً كلمة زنجاني أنها تعني غجريّاً وأضاف أن الصلبة قوم من أصل خفي ربّما كان أقدم من الساميين من بقايا سكان الجزيرة القدماء. ثم أشار إلى «أن من أهم مميّزات الصلبة الرئيسيّة التي تسترعي نظر كل من يعرف الغجر في البلاد الأخرى أنهم طفيليّون يدّعون الفقر وهم عموماً أغنياء. يحتقرهم الحضريّون، ولكنّهم يتمتّعون بحريّة في التنقّل في البوادي حيث يشاؤون. ليس لهم نسب معروف، وليس لهم هويّة وطنّية في قطر ما. إنهم مهرة في الصيد والقنص ومتمرّسون في فنّ السنكرية ويدفنون نقودهم حفاظاً عليها»[٢٢].

وفي سنة ١٨٦٥ قام الكولونيل لويس پلي[٢٣] المقيم البريطاني في بوشير من أعمال فارس برحلة للرياض لمقابلة الأمير فيصل ابن عبد الرحمان آل سعود (جد عبد العزيز آل سعود) واستصحب في عودته من سفره دليلاً من الصلبة استقى منه معلومات فريدة وخطيرة عنهم منها: «انهم ينصبون في حفلات العرس والختان صليباً خشبيّاً ملبّساً قماشاً

أحمر ومزيّناً بالريش في رأسه أمام الخيمة التي تخصّ صاحب الحفلة. ويكون هذا الصليب بمثابة الدعوة العامّة للحفلة، فيأتي الفتيان والفتيات ويرقصون حول الصليب صفّين متقابلين، ويقترب الصف الواحد من الآخر حتّى يكادا يتلامسان فيقبّل الفتيان أكتاف الفتيات ثم يقول يلي: إن كلمة صليب معناها الصليب ولكن بعض الصلبة يشتقّون الاسم من «صلب»، أي أنهم من العرب الاقحاح الأولين، بينما يعدّهم العرب قوماً منبوذين ويذكر يلي: أن الصلبة لا يتزاوجون مع غيرهم من أبناء القبائل الأخرى ولا يغزون ولا يثأر منهم وهم مهرة في الصيد ويعيشون على لحم الغزلان(٢٤)، ويلبسون جلودها ويأكلون الجراد والتّمر إذا وجدا بل يأكلون كل شيء ويربّون الغنم والجمال، ويقيمون في مضارب بعيدة عن مضارب العرب. وهم عموماً قذرون في هيئتهم، ولكن العرب يسلّمون أنّ نساء صليب أجمل نساء في البادية. وزعم يلي أن الصلبة يغسلون أولادهم بعد ولادتهم بأربعين يوماً ويتّم ذلك تغطيساً بالماء سبع مرّات. أما الزواج عندهم فيتمّ بالاتفاق بين العريسين بعد موافقة الوالدين(٢٥).

وبعد أن يذكر يلي بعض عاداتهم في أمور دفن موتاهم والصلاة على الميت واحترامهم لمكّة يعود فيقول: «إن محجّهم هو حرّان في العراق وأن لدى بعض رجالهم مزامير وكتباً أخرى مكتوبة بالكلدانية أو الأشورية، وأنهم يحترمون نجمة القطب التي يسمّونها «جاه» على أنها النقطة غير المتحركة التي ترشد المسافرين برّاً وبحراً. ويحترمون نجمة أخرى في برج الجدي. وحين يكرّمون أحد هذين النجمين بقفون بوجوه محوّلة نحوه وبأذرع ممدودة إلى الجانبين بحيث يصبح الجسم بشكل الصليب. وهم يصرّحون عن أنفسهم أنهم قبيلة من الصابئة هاجرت إلى نجد». ويقول أخيراً «إن الصليب تأكل الجيف. ويزعم أبناء هذه القبيلة أنهم شعب الله المختار. وهم لا يدفعون ضريبة ولا زكاة طالما أنه ليس هناك من يتنزّل أو يتفضّل لتسلّمها منهم»(٢٦).

ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه ثاني إشارة صريحة فيما خلّفه الروّاد إلى أنّ لصليب علاقة أو شبه علاقة بالنصرانية في تاريخهم وإلى أنهم غير عرب خلّص، وأن لهم عادات لا يقبلها أو يقرّها الإسلام. ولكن ليس هناك أي اشارة أو تلميح إلى أصل افرنجي أو إلى علاقة بالصليبيين أنفسهم.

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر اقبالاً في ارتياد الجزيرة العربية وخاصة من قبل الانكليز. فبعضهم يقصدها طلباً للخيل العراب، وبعضهم يقصدها للسياحة والتعرّف على البدو والبوادي وآخرون لأغراض أخرى. فنرى اللايدي آن بلنت تقوم برحلة مع زوجها السر ولفرد، وتصل إلى بغداد وتختلط مع بعض رؤساء العشائر في

البادية الشامية، وتقابل بعض الصلبة فتقول عن عائلة منهم: «إن فيها حدثين (غلامين) على شيء عظيم من الجمال. وجهاهما متناسقا التقاسيم وأسنانهماناصعة البياض». ثم تقول: «وهناك صبي أيضاً تامّ الجمال بعينين لوزيتين وبشرة كالعاج المصبوغ وامرأة كهلة صغيرة الجسم لا يزيد طولها عن أربع أقدام، وفتاتان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر هما أبهج مخلوقتين صغيرتين رأيتهما في حياتي». ثم تقول: «كلهّم قصار جدّاً ولكن بنسب متكاملة، أيديهم وأقدامهم صغيرة جدّاً، ولهم ابتسامة غريبة كابتسامة الخائف، وفي عيونهم دهشة يتخيّل المرء منها أنه أمام مخلوقات غريبة أو غير أليفة لا أمام بشر»[٢٧].

وبرغم ما يظهر في هذا القول من نزعة فنّية أدبيّة جنحت فيها اللايدي آن إلى المبالغة في وصف الجمال في أفراد تلك العائلة فإنّها لم تشر من قريب أو بعيد إلى أن الصلبة هم من أصل صليبي أو إفرنجي. ولقد ذكرت أيضاً أنه يستحيل أن يكونوا عرباً مع أن بعض البدو يعترفون بعروبتهم ولكنّهم لا يقرّونهم على بعض عاداتهم، ويأنفون أن يتزّوجوا من بناتهم برغم ما لهن من جمال. وقالت «إنهم ليسوا غجراً وليسوا عرباً ولكنّها تظنّ أنهم كالغجر جاؤوا في الأصل من الهند»[٢٨].

ونرى بعدها وليم ريت يزور تدمر سنة ١٨٧٢ و ١٨٧٤ ويقابل في طريقة إليها بعض الصلبة في منطقة جبلية قرب عين الوعول، ويتفّق مع اللايدي آن بلنت بأمر الجمال عند الفتية الصغار من أبناء تلك القبيلة[٢٩] ولكنّه لم يشر إلى أنهم من أصل صليبي، بل حاول أن يبحث عن أصلهم في الجزيرة العربية فقال: «منذ عهد بعيد انحدرت هذه القبيلة عن المنزلة التي تحتلّها القبائل الكريمة فهم لا يغزون ولا يسلبون ولا يتزاوجون مع أبناء القبائل البدوية الأخرى. وهناك روايات غ يبة عن أصلهم لعلّ أشهرها أنهم هربوا من حِصَار كربلاء وتخلّوا عن أصحابهم وتركوهم يذبحون فحلّت عليهم لعنة الله وكان من عقابهم أن عدّوا من درجة منحطّة حقيرة كالنساء، غير جديرين بأن يركبوا الخيل أو يقتنوها، ولهذا فهم لا يركبون سوى الحمير»[٣٠].

ونلاحظ هنا أن وليم ريت عدّهم من العرب الإسماعيليين وقال: «إنهم بخلاف غيرهم من عرب الصحراء لا يكنّون حقداً لأحد ولا يغدرون. وليس عند أحد عداء لهم. وهم يعيشون على الصيد وتربية الغنم والحمير. ولم يفته أن يصف كيف يصيد الصلبة الوعول التي تعيش في الجبال فذكر أنهم يلبسون ثياباً من جلودها ويتبعونها من صخرة إلى صخرة دبيباً على أيديهم وأرجلهم إلى أن تصبح الوعول قريبة من مرمى بنادقهم فيصيدونها. وقد يتمكّنون وهم متنكّرون بهذا الشكل الخفي أن يلقوا القبض

على الوعل أو الغزال حياً[٣١].

وفي هذه الحقبة نفسها كان هناك رجل فرنسي ألزاسي يقيم في سورية وكان يتردّد إلى البادية بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ وبلغ واحة الجوف ومدينة حايل وشاهد نقوشاً في كثير من الحجارة والصخور اسمه شارل هيوبير، فرأت وزارة التربية الفرنسية أن ترسله هو وعالم بالآثار ألماني اسمه يوليوس أوتينج، فسارا سنة ١٨٨٣ وبلغا تيماء فنقل يـوليوس النقش الذي في حجر تيماء الشهير الموجود الآن في متحف اللوفر، وأتمّ هيوبير أمر شرائه وأرسله إلى مدينة حلب وبعدها افترق الاثنان. وتابع شارل رحلته فبلغ جدّة، ثم حاول الرجوع إلى حايل فاغتالة عند رابغ الدليل الذي كان يرافقه في ٢٩ تموز ١٨٨٤[٣٢]. وكان شاهد في أول رحلته بعض الصلبة قرب تدمر، وعاد فقابل بعدها في منطقة الهجر صلبة آخرين أمدّه واحد منهم اسمه دربيش بمعلومات كثيرة عن الأودية والشعاب في تلك البقاع وعن صليب، وكان يدوّن ذلك كلّه في دفتر يوميّات حفظ بين أمتعته وسلّم إلى قنصل فرنسا في جدّه. ونشرت هذه اليوميّات سنة ١٨٩١ الجمعية الأسيوية والجمعيّة الجغرافية بـرعايـة وزارة التربية الفرنسية. وليس غريباً أن يكون كثير من المؤلّفين والروّاد المتأخرين اطلعوا على هذه اليوميات حين نشرت واقتبسوا منها ولا سيّما ما يتعلّق منها بوصف رجال الصلبة ونسائهم ولباسهم وعاداتهم وما يتهمون به من أكل الجيف والدماء ولحم الكلاب. وقد توسّع شارل هيوبير في وصف عادات القوم فتحدّث عن زواج بناتهم والمهور التي تدفع والطلاق وعن أمور الدين والصلاة حيثما يكونون في المدن والفرق بين عشيـرة وعشيرة. وأشار إلى أن القبائل العربية بوجه عام تعدّهم قبيلة منحطّة أو جنساً منحطاً. ولكنّه في كل ما ذكره عنهم لم يَشر إلى أن أحداً يعدّهم من بقايا الصليبيين[٣٣].

وقبل أن تنشر يوميّات شارل هيوبير بثلاث سنوات كان قد ظهر أعظم كتـاب في وصف حياة البدو ووصف البادية، ذلك هو كتاب تشارلز دوتي، الرائـد العظيم الـذي عرف عند البدو باسم خليل النصراني ـ رحلات في العربية الصحراوية سنة ١٨٨٨[٣٤]. وقد طبع بعدها طبعات كثيرة وأصبح عند كثير من الروّاد المتأخرين كتاب البداوة الأعظم لا ينازعه تأليف فيها. ونرى في بحث دوتي الطويل عن الصلبة الذي سنعود إليـه في آخر هذا الفصل أنه يعدّهم كما يعدّهم أكثر البدو صنّاعاً من قبيلة منحطّة ليست عريقـة في العروبة. فلا هم من قحطان ولا هم من عدنان وربّما كانوا حفدة بعض العشائر البائدة من اليهود أو النصارى من الأزمان التي سبقت الإسلام[٣٥]. ولم يشر دوتي إلى أي علاقة بين الصلبة والصليبيين. بقي أخيراً أن نذكر ماكس فرير أوبنهيم فقد اشار إلى صليب في كتابه «من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ وقـابل جماعة منهم في



جماعة من الصلبة الذين قابلهم أو بنهيم . أنظر صفحة ٢٢٠ من كتابه المذكور سابقاً

صيف ١٨٩٣ وقال إلى اصلهم غير معروف وانهم على الأرجح غير ساميين وربما كانوا من الهند حيث قيل إن الخلفاء الأخيرين في بغداد استجلبوا إلى بلادهم جماعة من الموسيقيين من الهند لجأ بعضهم إثر غزوات تمرلنك واستباحته بغداد إلى البادية وأن الصليب منهم. وهو بدوره أيضاً لم يشر إلى أصل صليبي.

آراء البستاني

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أخذت تظهر بعض الدراسات عن حياة البدو عند الادباء العرب وذلك حين عمّت الطباعة وانتشرت الصحف والمجلّات فكان للمقال الذي نشره في المقتطف سليمان البستاني وفي دائرة المعارف وأشرنا إليه في أول هذا البحث أثر في انتشار نظريته في أن الصليب يرجعون بأصلهم إلى الصليبيين وكان من أدلته التي ذكرها كثرة العيون الزرق التي زعم أنها فيهم وامتلاء الوجه ووفرة الشعر فيه وعدم انتمائهم إلى مذهب مخصوص وزَعْم بعضهم أن أجدادهم هم الفرنك، واختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو واتّسامهم باسم الصلبة. وذكر أنه شاهد فيهم مباينة بيّنة في منطقهم وارتخاءً كثيراً في لفظهم وهو فيما يقول أشبه بلفظ أهالي جنوبي لبنان ولاحظ أنهم يستعملون بعض الاصطلاحات العربية التي لا يستعملها عرب البادية مثل «يا حَزَني» و «يا عيني» «ويا بيتي» و «يا خيي» و «دخلك» وغيرها[٣٦].

ويلوح لي أن أدلّته هذه وإن تكن تقصيهم عن أصل بدوي عربي فإنها لا تثبت للدلالة على أصل صليبي. ومن الغريب أن البستاني مع تسليمه أنهم أعرف الناس بطرق المفاوز والقفار بحيث قال إن البدو العرب يتّخذونهم ادلّاء في رحلاتهم البعيدة، وسمّاهم بدو البدو، فإنه في الوقت نفسه أرجع أصلهم إلى بقايا الصليبيين، وأخشى أن يكون البستاني هو الذي ضلّل كما ذكرت هؤلاء الذين أرجعوا بعده أصل صليب إلى بقايا الصليبيين[٣٧].

وفي سنة ١٨٩٨ بعد ظهور مقال البستاني في المقتطف بإحدى عشرة سنة ظهر مقال للأب انستاس الكرملي عن صليب في أول مجلد من مجلّة المشرق[٣٨]. سرد فيه روايات كثيرة عن أصلهم وليس في واحدة منها اشارة إلى أنهم من بقايا الصليبيين، ثم زعم أنه سأل أحد المقدمين فيهم عن أصلهم قال: «فتنحنح ثم تمسّح، وفكّر ثم تذكّر، وقال اسمع يا ابن الحلال» وهنا سرد الأب أنستاس بلسان هذا المقدّم كلاماً كثيراً مسجّعاً أشبه بمقامة من مقامات الحريري أو الهمذاني من الخير أن نذكر بعضه على الأقل ليتبيّن

القـارىء إلى أين ينتهي الخيـال عنـد بعض الكتّـاب. قـال: «اننـا من خيــرة النـاس وصفوتهم، ومن علية العرب وزبدتهم، كان جدّنا عربيّاً صليباً اسمه ضبعان، في أنزه مكان، في بلاد قريبة من بلاد العرب، ينبت فيها أنواع الغرب، ثمّ لمـا كثـر النـاس، واختلفت الأجناس، صمّم جدّنا ضبعان على الرحيل من بلاد ضاق بها المكان»[٣٩].

وسرد الأب أنستاس كلاماً كثيراً من هذا النوع المسجّع بلسـان صاحبنـا ضبعان ليس فيه ما يفيدنا كثيراً عن صليب. ثم قال الأب أنستاس: «وسألت آخر فقال تقريباً قول السابق»، ثم قال: «وسألت رابعاً فقال ما يقرب من كلام السابقين»[٤٠].

مناقشة آراء الكرملي

وأودّ أن ألاحظ هنا أن هذه اول مرّة أرى فيها كلاماً باللغة الفصحى وبـأسلوب مسجّع ينقله عالم عن البدو في هذا العصر. وأخشى أن الأب أنستـاس كان يحـاول أن يظهر في أول مقال ينشر له في مجلّة المشرق الغرّاء أنه يجيد الإنشاء على طريقة أصحاب المقامات فنسب الكلام إلى صليبي وفاته أنه يكتب مقالاً في مجلّة علمية. ومن الممتع أن نلاحظ أنه زعم أن هذا القول الذي رواه عن الصليبي كان قد حفظه أو دوّنه قبل كتابة المقال بخمس عشرة سنة. ولعلّ خير ما في مقاله قوله: «أمّا الصليب أنفسهم فلا يعرفون من أصلهم شيئاً أو يعرفون شيئاً تخيّلوه في مخيلتهم أو يخترعون من عقلهم آشياء»[٤١].

وممّا تخيّله الأب أنستاس ولم يتخيّلة الصلبة أنفسهم ولا اخترعوه قولـه: «إنهم لا يزالون يطاردون الغزال حتّى إذا أعيا ووقف كالمتفكر الغائب عن رشـده، أطلقوا عليـه النـار وهجموا عليـه»[٤٢]. «وانهم يطاردون الغـزال تارة ركضـاً وتارة ركبـاً على الحمـار الأبيض، فإذا قربوا منه كلّموا حمارهم همساً فيفهم الاشارة ويبرك كالبعـير ثم يطلقـون النار من وراء الزاملة متّخذينها بمنزلة القترة فيصطادونه»[٤٣].

ولم يفته أن يذكـر مميّزاتهم فـوصفهم «بصغر الـرأس وعلوّ الجبهة وسعتهـا وشهل العينين أو صفرتها، وزجج الحاجبين وبلجها، وشمم الأنف، وبياض اللون، وبيضيّة الوجه، ورقّة الشفتين، وشقـرة الشعر، ونعـومة الجلد، ودقـة الخصر، ورشاقـة القدّ، ونصـاعة بيـاض الأسنان وصحـة الأبدان ونحـافة الجسم بنـوع فاحش». ولـو كـانت القياسات مألوفة للحكم على الجمال في زمنه يوم كتب هذا المقال لأتانا بما يجعل كل امرأة صليبية ملكة جمال العالم. ولست أدري كيف يمكن لي أن أوفّق بين قول الأب أنستاس وقول جوارماني الذي زعم أنه لم ير أقبح من نسائهم كما مرّ معنا.

كذلك زعم الأب أنستاس «أن الصلبة يكرهون كل الكراهية السرقة، والغش،

والخداع، والمكر، والمداجاة، والمراءاة، والغبن في البيع والتجارة. والكذب غير معروف عندهم» . . . . وقال: «ومن أخلاقهم العفّة والطهارة فهم لا يعرفون الزنى ولا الفجور إلّا ما ندر»(٤٤) ولم يبق له إلّا أن يقول: إنهم الملائكة المطهرون نزلوا إلى الأرض. ومن الممتع أن نلاحظ هنا أن كثيرين من الحضر والبدو لا يقرّون الأب أنستاس على هذه الآراء، ويتشاءمون من صليب، بل إن الشيخ نوري الشعلان كان يقول عن الصلبة لموزل نفسه حين شكاهم اليه: «إنهم أنذال وأوغاد، طمّاعون وغشاشون يتفقون على الغريب» وذلك بالرغم من أن نوري الشعلان كان يستعين ببعضهم لارتياد الأرض قبل التشريق، ولإخباره عن أعدائه من البدو حين يرون بعض الغزاة منهم في البادية وهم يعبرون من ديرة إلى ديرة أخرى(٤٥).

ومن الغريب أن تكون أقوال الأب أنستاس عن صليب قد جازت على بعض المستشرقين فقبلوها ونقلوا مقالته إلى لغاتهم كما زعم وذكر للاستاذ كوركيس عوّاد فدوّنها هذا في كتابه عن الأب أنستاس(٤٦). ولا بدّ من الاشارة هنا إلى هذا التباين العظيم في أمر أصل صليب بين رأي سليمان البستاني ورأي الأب أنستاس.

وازدادت الرغبة في نفوس المغامرين من الفرنجة في القرن العشرين في درس أحوال الجزيرة العربية وآثارها وقبائلها. وازداد تطلّع رجال السياسة إليها في أوروبا حين أخذت عوامل الانحلال والضعف تظهر على الرجل المريض ـ تركيا.

فكثر الروّاد وكثرت الآثار التي خلّفوها، وكان من أعظم الروّاد الذين درسوا حياة البادية أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة براغ العالم النمساوي ألوس موزل الذي يعرفه البدو باسم الشيخ موسى الرويلي، لأنه كان نزيلاً عند عرب الرولة، وقد تردّد الشيخ موسى إلى مناطق كثيرة في شمالي الجزيرة العربية، ودرس جغرافيتها وأحوال البدو فيها، وشاهد بعض الصلبة، وكتب عنهم، ووصف حياتهم، واعتمادهم على الصيد، وطرقهم فيه، وتربيتهم للحمير التي اشتهروا بها، ومعرفتهم للبوادي والقفار والمنتجعات، واعتماد الرولة عليهم في ذلك، وأشار إلى تعلّق بعض نسائهم بأعمال الشعوذة والسحر، وإلى مساعدتهم للجرحى في المعارك التي تقع بين المحاربين من القبائل المختلفة، وروى بعض أشعارهم في فن القصيد البدوي، وأكّد على ضعتهم الاجتماعية، ولكنّه لم يبد رأياً قاطعاً في أمر أصلهم، واكتفى بالقول إنه شاهد مرّة بعضهم قرب البخراء من أعمال تدمر فادّعوا أن لهم علاقة بالافرنج الذين خلّفوهم وراءهم في البادية حين هاجروا (كذا) من الجزيرة إلى أوروبا(٤٧).

وحاول مرّة أخرى أن يستعلم من آخرين عن أحوالهم وتاريخهم وعاداتهم، فاستضاف في خيمته واحداً منهم اسمه سند، وقدّم له طعاماً ودخاناً، وقضى معه نحو ساعتين دون جدوى، فقد كان يروي له أخباراً متناقضة. ولما أرسل موزل وراء صلبيي آخر اسمه فرح، وأخذ هذا يجيبه بأجوبة تدلّ على فهم، لاحظ ذلك رفيقه سند الذي كان لا يزال في فناء الخيمة، فدعاه وقال له: لماذا تعلم هذا وتخبره عن أمورنا، فإنه سيرجع إلى بلاده ويدفعون له عن كلّ كلمة ذهباً، وأنت ماذا يحصل لك من هذا، فأخذ فرح بدوره يتردّد بعدها في إسداء المعلومات، قال موزل: فاضطررت إلى التوقّف عن الاستعلام منهم، وحينما شكوت الأمر إلى الشيخ نوري الشعلان قال لي: ألا تعلم يا موسى أن «صليب» هم أرذل نصابين «لعن الله أبوهم» «لأنهم خلقوا مثل هذه الكلاب»(٤٨).

آراء علماء آخرين

وحاول بعد موزل سنت جون فلبي المعروف بالحاج عبد الله فلبي، وقد قضى في الجزيرة العربية أكثر من أربعين سنة من حياته، أن يصل إلى معرفة الحقيقة عن صليب، فذكر في كتابه «قلب الجزيرة العربية» أنه قابل اثنين من شيوخهم، هما هويدي ابن بادي، وسويدان ابن محارب من عشيرة غنيمان ـ الجميل. وقابل غيرهما فلم يستطع أن يصل من أحد منهم على شيء يركن اليه بشأن أصلهم. والذي لاحظه هو «أن الصلبة قبيلة خاصة اندمجت مع العرب بحكم البيئة، ولكنهم ليسوا من العرب الخلّص. إنهم قبيلة ضائعة حجبت سحب العهود القديمة أصلها. فالعرب البدو يحتقرونهم ويحمونهم في الوقت نفسه، ولهذا فالصلبة يدفعون لحماتهم ضريبة تلك الحماية نقوداً أو خدمات تحقّق لهم التمتّع باستنشاق هواء الصحراء وبالحصانة العامّة، وهم يعون ضعة مكانتهم الاجتماعية هذه، ولا يخجلون من سماع ما يقال عن أصلهم في الأحاديث الخرافية الشائعة أنهم بقايا قبيلة مسيحية قديمة، مع أنهم حالياً يعدّون انفسهم مسلمين من كل ناحية، حتّى أنهم يختنون أولادهم بعد أن كانوا لا يفعلون ذلك حتى عهد قريب». ثم يقول فلبي: «ومهما يكن أصلهم فليس من شك في أنهم مدينون بمقامهم المتميّز في الصحراء لصناعاتهم التي لا يشاركهم فيها أحد من أهل البادية، فعدا عن أنّهم صيّادون ممتازون وأدلاء مهرة. فإنّهم فيما يقال عنهم أعرف الناس بمواضع المياه في البوادي، وهم الحدّادون و«السنكريّة» لسكّان البادية الذين لا يستغنون عنهم. وهم بهذا يذكّروننا بجالية وادي الفرات الصابئة، وبيهود نجران في الغرب الجنوبي من الجزيرة الذين هم مدينون بوجودهم المستمرّ بين قبائل وسط إسلامي غير متساهل إلى ما يقومون

به من خدمات لا يستطيع سواهم القيام بها لجيرانهم في حالتي السلم والحرب»[٤٩].

ويلاحظ انه لم يشر إلى ما يدلّ على أصل صليبي. حتّى في كتبه المتأخرة مثل «أرض مَدْيَن»[٥٠] و «أربعون سنة في البريّة»[٥١] لم يذكر قبيلة صليب مطلقاً ممّا قد يدلّ على أنه اكتفى بما أورده عنهم في كتابه السابق.

وعرضت السيّدة كريستينا غرانت في كتابها الصحراء السورية إلى صليب في حاشية تعليقاً على ذكرها لبعض القبائل البدوية فزعمت «أنهم نوع من الغجر يظنّ أنهم من أصل هندي وليسوا عرباً أصليين كعنزة. وهم يحلّون الصحراء السورية من نجد جنوباً إلى البادية التدمرية شمالاً. وذكرت أنهم يألفون الصيد ويقومون ببعض الصناعات للبدو وأحالت القارىء على بعض المصادر المذكورة سابقاً للتوسّع في معرفة أحوالهم[٥٢].

وقبلها كتب وليم سيبروك عن مغامراته في البادية كتاباً بعيداً عن البحث العلمي، ولولا أن بعض الباحثين المتأخرين اعتمدوه مرجعاً لما كتبوا عن البادية لكنت أهملته، فهو قد سمّى كتابه «مغامرات في الجزيرة العربية». وزعم أنه قابل وهو في مضارب الشيخ مثقال باشا الفايز شيخ مشايخ بني صخر في الأردن أربعة رجال من البدو النصارى المعروفين بصليب، وقد وفدوا ليقايضوا بحميرهم حبوباً لعيالهم[٥٣]، قال: «وإن للأمير أمين أرسلان في بيروت نظريّة عنهم وهي أن فيهم مزيجاً من الدم يرجع عهده إلى زمن الصليبيين، وأن ليس لهم صلة لا بالموارنة ولا بالمسيحيين الآخرين، وأنهم يؤلّهون المسيح وليس لديهم من رموز سوى صليب خشبي، وأن بعضهم شقر ولهم عيون زرق وفي وجوه بعض رجالهم نمش»[٥٤]. ثم يعود سيبروك فيقول هو نفسه عنهم: «أنهم مسيحيون يتكلّمون العربية، ولكنهم يستعملون بعض الكلمات التي يظهر أنها من أصل فرنسي، أو على الأقل لاتيني وأنهم يلبسون جلود الغزلان قمصاناً تحت عباءاتهم»[٥٥].

وإني أكاد أقطع أن سيبروك لم ير صُلَيْباً في حياته ولكنّه قرأ عنهم أو سمع أنهم قبيلة غريبة بين قبائل البدو، فلم يشأ أن تخلو مغامراته من ذكرهم ووصفهم. ولو كان بالفعل يعرف الصلبة وعاداتهم وطرق عيشهم لأدرك أنهم لا يتخلّون عن حمرهم بمثل هذه السهولة ولا يرغبون في الحبوب قياضاً بها بل إنهم في الغالب لا يتموّنون حبوباً مثل غيرهم من القبائل البدويّة، وكان أسهل على مثل هؤلاء الذين زعم أنهم وفدوا إلى شرق الأردن من جهات الشام أن يبيعوا حمرهم فيها ويتمولوا من الشام وقراها الغنيّة بالحبوب، أمّا أمر تأليههم المسيح وأنهم نصارى واستعمالهم بعض الكلمات التي من

أصل فرنسي أو لاتيني فهو من مخترعاته أو لعلّه سمعه من بعض الجهلة بشؤون صليب فصدّقهم . زد على هذا أن هذه النظرية التي نسبها إلى أمين أرسلان سبقه إليها كما ذكرنا سليمان البستاني

«أوْرَدَهــا سَعْدٌ وسَعْــدٌ مُشْتَمِـلْ ما هَكَذا توردُ يا سَعْدُ الإبِلْ»[٥٦]

الفرنجة المتأخرون الذين كتبوا عن صليب

ومن الافرنج المتأخرين الذين كتبوا عن الصلبة هـ. ر. ب. دكسن الذي عاش في الكويت في العقد الخامس من هذا القرن فقد قصر فصلاً خاصاً على صليب في كتابه عن البدو اتفق في أكثر مادته مع المتقدمين من الباحثين الإفرنج ، وروى عن الشيخ عبد الله السالم الصباح أن الصلبة هم من أبناء بقايا الصليبيين الذين أسروا أيام الحروب الصليبية ثمّ حملوا للاستعباد عند بدو الصحراء. وأورد بلسان سمو الشيخ للتدليل على ذلك أن الصليب هو رمز القبيلة وأن اسمهم صليب. ولكن دكسن نفسه قال: «يصعب أن نقطع بالأمر قبل جمع المعلومات اللازمة». واكتفى بالقول: «إنهم فيما يقال عنهم أحفاد النصارى الصليبيين»[٥٧].

ولم ينقطع الاقبال على درس البداة والبادية في النصف الأول من القرن العشرين. ومن الذين كتبوا في هذه الحقبة عن صليب الكومندان الإفرنسي فكتور ملر فذكر في كتابه «في سورية مع البدو» عن صيد الغزال وقال: «إنه من اختصاص الصلبة تلك القبيلة الغريبة التي لا يعرف أصلها، والتي ظلّت تخضع حتى وصولنا إلى نظم صارمة فرضها عليها البدو. وهي تعيش في زوايا من الصحراء حيث لا يمكن لأحد أن يعيش يلبس أفرادها جلود الغزلان المدبوغة بشكل رديء قذر فتنتشر منها رائحة تثير الاشمئزاز»[٥٨].

ومنهم العالم الانتروبولوجي هنري فيلد فقد قام بدراسات شاملة لقياس الدليل الرأسي (القيفالي) لشعوب وقبائل مختلفة من أقطار الشرق الأدنى، وقد شاهد أكثر من مئة صليبي قرب الكويت ولاحظ أنهم يمثّلون فئة خاصة تختلف عن أهل تلك المنطقة، وذلك أنهم لا يزالون منفردين لم يختلطوا بغيرهم لاحتقار جيرانهم العرب لهم، ولاحظ أن عيونهم بوجه عام سود، وكذلك شعرهم، وأن لهم رؤوساً طويلة وضيّقة، ولم يستطع أن يأخذ قياسات لرؤوسهم لأنهم لم يرضوا حين حاول ذلك ولم يشر من قريب أو بعيد أن لهم صلة بأصل إفرنجي أو صليبي[٥٩].

ومنهم هوغارت وقد ذكرهم عرضاً في بعض كتبه ولم يعدّهم من البدو العرب ولكنّه لم يشر إلى أصل صلبي[٦٠].

ولا حاجة بنا إلى ذكر جميع هؤلاء المتأخرين من الباحثين والرواد الإفرنج لأننا نلاحظ أن أكثرهم إن لم يكن كلهم نقلوا أخبارهم عن صليب من الروّاد السابقين ولم يأتوا بشيء جديد يستحقّ الذكر. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن أهم الذين كتبوا في هذا القرن العشرين من الكتاب العرب عن صليب لم يسلّموا بالأصل الصليبي. فالأستاذ عبّاس العزاوي قال في كتابه عشائر العراق عن صليب أن لا علاقة لهم بالصليبيين، وذكر أن معرفتهم بالحيوانات التي في البادية وبالنباتات التي تستعمل للأدوية تمنع أن يكونوا من الصليبيين[٦١]. ومثله أحمد وصفي زكريا فقد عرض للصلبة بكتابيه «عشائر الشام» و «الريف السوري»[٦٢] وبحث بحثاً مسهباً في حياتهم وعاداتهم بناء على مشاهداته وعلى ما نقله من العلماء الفرنجة قبله، وسفه آراء الكتّاب المتأخرين الذين يردّون أصل الصلبة إلى الصليبيين[٦٣]. وقال: «أما قول البعض بأنهم شقر الوجوه وزرق العيون فلا صحة له»[٦٤]. وذكرهم فؤاد حمزة وقال عنهم: «أولاد صليبي، أو أولاد غانم، وهو الاسم الذي يطلق على مجموع القبائل التي لا يعرف لها نسب، وتراهم لضعفهم وغموض نسبهم يلتجئون إلى القبائل المعروفة ويطلبون حمايتها مقابل «الخاوة» التي يؤدّونها لهم من أجل ذلك الغرض». وروى «أن الصلبة يدّعون أن أصلهم من الحسا»[٦٥]

ونعود هنا إلى ما كتبه دوتي نقلاً عنهم فيما يختصّ بأصلهم فقد سأل واحداً منهم عن أصلهم فأجابه: «ولِمَ تسألنا عن أصلنا؟ نحن قوم مساكين نسكن في هذه البوادي وليس لدينا كتب أو أخبار عن الماضي. ولكن أنت تقرأ في الكتب فهات أخبرنا إن كنت تجد فيها شيئاً عن أصلنا»[٦٦]. وذكر دوتي في موضع آخر أنه قابل بعض الصلبة في الجنوب وسألهم عن أصلهم، فزعموا له أنهم عرب من قبيلة قديمة سمّوها «كفاء» ولم يشرح شيئاً عن تلك القبيلة وقالوا له «إنه كان لهم في الزمن القديم إبل وغنم وقرى في وادي السدر جنوبي العلا وهي الآن خراب، وأنهم كانوا أحلافاً لسالم بن الزير من جبل جَهْلَة على مسافة يوم من المدينة»[٦٧].

وزعم صلبة آخرون له عن أصلهم، أنهم من بني مرّة[٦٨] وذهب إلى «ان بعض البدو يصدّقون ذلك، ويقولون عن صليب إنهم من عرب جسّاس بن مرّة البكري بعد هلاكهم على يد كليب بن وائل (كذا، وربّما يقصدون المهلهل (الزير) أخو كليب) وأنهم

ذلّوا فلاذوا إلى الصيد والصناعة والمطرقة»[٦٩]. ويصعب أن نرتاح إلى مثل هـذا القول ونسلّم بأن قوماً ينتمون إلى من قتل كليباً وهو من أعزّ رجال العرب في زمنـه حسب ما اتفق الرواة ـ أي إلى آل مرّة البكريين ـ يـذلّون وينحدرون إلى ذلك المنخفض من المكانة الاجتماعية بين قبائل العرب. ومن يقرأ معلّقة الحـارث ابن حلّزة البكري يـدرك فخر هؤلاء البكريين بأنفسهم وأنفتهم ومناعتهم.

الصلبة ليسوا من الصليبيين ـ مميزاتهم

نلاحظ بعد أن استعرضنا هـذه المراجـع التي ذكرنـا أن الصلبة ليسـوا من بقايـا الصليبيين وسنأتي بأدلّة على ذلك فيما بعد، كذلك نلاحظ أن أكثر البـاحثين يقـرّون أن الصلبـة كانـوا في الأصل من أتبـاع دين غير الاسـلام، وأن هذا الـدين هو أقـرب إلى النصرانية منه إلى أي دين آخر، هذا إذا لم يكن مذهباً من النصرانية، وإن بعض الصلبة ظلّوا متعلّقين ببعض طقوس هذا الدين، وبمراسيمه إلى زمن متـأخّر. بحيث أصبحـوا منبوذين من البدو الآخرين فلحقهم الاسم وما رافقه من مذلّة ومسكنة واحتقار. فاضطرّ هؤلاء القوم إلى الخضوع تحت نظم قاسية وإلى القيام بخدمات خـاصّة لحمـاية أنفسهم واستمـرار بقائهم. ومن أهم هـذه الخدمـات أنهم يقومـون بالاعتنـاء بجرحى المعـارك والغزوات التي تقع بين أبناء القبائل المتخاصمة بحيث يمكن أن يقـال فيهم إنهم الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر في البادية، فإذا وقعت معركة بين قبيلتين وكان جماعة من الصلبة قريبين، فإنهم أسبق من يصل إلى الجرحى لإنقاذهم ومعالجتهم، يحملونهم إلى مضاربهم وخيامهم الوضيعة ويعتنون بهم دون التفات إلى أيّ فريق ينتمي الجريح. وإذا شاهدوا أثناء تنقلاتهم أو مطاردتهم للصيد بعضاً من المنقطعين في البادية المشرفين على الموت من العطش سواء أكانوا من البدو الغزاة أم غيرهـم عمدوا حالاً إلى إسعافهم، فأركبوهم على حمرهم ونقلوهم إلى أقرب مضرب لهم وعالجوهم بالزبدة والماء[٧٠]. وهم خبراء بالطبابة والأدوية، ولهذا فالجرحى يطمئنّون إلى أنّهم بعناية قوم خبراء. والصلبـة لهذا يتمتعـون بالحصانة في البادية، فلا يغزوهم أحد ولا هـم يغزون أحداً، ولا يحق لهم أن يقتنوا الخيل أو يركبوهـا. وقد يضـطرون في بعض المناطق إلى دفـع خوة لنيلهم هـذه الحصانـة التي منحت لهم.

ونراهـم اليوم يعتمدون على الحمير في تنقلاتهم في البادية، وعلى الجمال. وكـانوا إلى عهد قريب لا يسمح لهم باقتناء الجمال. فكان جل اعتمادهم على الحمـير. وليس غريباً أن يكون اعتمادهم على الحمير دليلاً على أن أصلهم من الحضر، وقد احتفظوا بأمر

تربية الحمير والاعتماد عليها حين فرض عليهم الانتقال إلى البادية لأسباب مجهولة. فالانتقال من حياة الزراعة إلى البداوة في بعض الأحيان أصبح أمراً مقبولاً عند علماء الاجتماع. واعتمادهم على الأتن في تنقّلاتهم يدلّ على أن البداوة يمكن أن تعتمد عليها في بعض الحالات، ولعلّها قد اعتمدت عليها بالفعل قبل أن عرفت الإبل برغم أن الحمير هي أقلّ احتمالاً للعطش وأقلّ صبراً عن الماء من الجمال.

والظاهر أن انتقالهم إلى البداوة كان وراء الصيد في الجزيرة، ومن هنا فإن الصلبة هم أمهر الصيادين. والحمر الصليبية نوعان: نوع عادي ويسمّونه حمير حقارة وآخر أصيل متميّز ويسمّونه حمير شهارة(٧١).

حُمُر صليب

أمّا هذه الحمر المتميّزة فهي في الغالب بيضاء فارهة شديدة القوّة والنشاط يؤكّدون في أصلها أنها من نتاج الحمر الوحشية والأتن الداجنة، وقد زعموا أن الصلبة تترك أتنها حين تهيج في أواخر الشتاء سارحة في البرية حيث تسرح حمر الوحش كي تلقّح منها. وذكر جوارماني(٧٢) وأيّده موزل(٧٣) أن الصلبة كانوا يعبرون نهر الفرات ليلقوا القبض على بعض الحمر الوحشية حيّة لتلقيح أتنهم. وقد سألت الصلبة عن ذلك فلم ينكروا ولكنّهم ذكروا أن الأمر أصبح مستحيلاً منذ مطلع هذا القرن حين أخذت حمر الوحش تزول من كل الجزيرة العربية(٧٤). ومهما يكن من أمر فإنّ حمير الصلبة لا تزال إلى اليوم من أنشط الحيوانات وأسرعها في السير. ولها جري خاصّ مثل «الرَهْوَنَة». تستطيع به أن تسبق في المدى الطويل أكثر الحيوانات. وكانت هذه الأُتن منذ أكثر من مئة سنة تصدّر إلى أقطار بعيدة، وزعم وليم ريت أنها كانت تصدّر إلى انكلترا عن طريق مراكش(٧٥).

ومن أمتع القصص التي رويت لي عن سرعة حمير صليب، وتكاد لا تصدق، أن غزاة رأوا من بعيد شبحاً ظنّوه فارساً على جواد أبيض فانطلقوا نحوه لسلبه جواده فلمّا رآهم انطلق هو بدوره على مطيّته وجرى بسرعة نحو عرب كانوا نازلين في البادية على بضعة أميال وراء أكمة. واندفعوا وراءه يتسابقون في كسب الغنيمة نحو مضارب العرب فلم تستطع خيلهم اللحاق به. وكان الصلبي حين سبقهم إلى مضارب العرب وراء الأكمة، نزل عن رحله وتحوّل إلى بيت الشيخ وجلس يستريح. ووصل بعد برهة أفراد الغزو وقصدوا بيت الشيخ يسألون عن الفارس الذي كان هارباً أمامهم والتجأ إليه. فأنكر الشيخ أن هناك فارساً نزل عنده وقال لم ينزل عندي سوى هذا الصلبي الجالس بفناء الخيمة، وكان على حماره الأبيض ذاك. فلمّا رأوا الصلبي سألوه فأقرّ واحتمى بجوار

الشيخ. قالوا: أنت آمن! ولكن أحدهم صوّب بارودته نحو الحمار وأطلق النار عليه وقتله وهو يقول: «لا عاش البهيم اليفضح الخيل». ودفع ديّة الحمار.

الصلبة والصيد

ويتميّز الصلبة كما لاحظنا باعتمادهم على الصيد لكسب عيشهم، وقد يستعينون بهذه الحمر لتوصلهم إلى مسارح الظباء، ويلبسون لذلك جلود الغزلان التي يصيدونها فتخفيهم عن الطرائد، وتغنيهم عن الأقمشة وتميّزهم عن سائر البدو. فتراهم يخيطون الجلود جبّة طويلة يكون الشعر فيها من الخارج، ولها وصلة تغطّي الرأس وأكمام تغطّي الأيدي حتّى عقد الأصابع، ولها فتحة عند العنق ومقدّم الصدر. ويضعون على الكم عند الكوع قطعاً من الجلد، ومثلها في مقدمة الرداء عند الركب تسمّى زنانيح، وذلك وقاية للجبّة عندما يزحف القنّاص أو الحواش على كوعيه وركبتيه وراء الصيد. ولست أذكر أين قرأت أن أحد الروّاد شاهد آثار زحف قنّاص صلبي في البادية وقد امتدّ نحو مسافة ميل.

كان الصلبة يرتزقون من الصيد حين كانت البادية تزخر بأنواع الحيوانات التي يؤكل لحمها كحمر الوحش والنعام والمها والظباء والأرانب. كانوا كذلك أيام الصيد بالسهام ثم أيّام البنادق القديمة، وهم كذلك اليوم في استعمالهم البنادق الحديثة، ولهذا أخذت تبيد أكثر هذه الحيوانات. وكان الصلبي إذا ما رأى قطيعاً من الغزلان مثلاً أيّام كانت الغزلان تسرح قطعاناً في البوادي وعلى ضفافها قرب القرى والمزارع يكمن وينتقي ما شاء من القطيع ويصيده بسهمه، ويقول في نفسه اكتفي اليوم بهذا، فالقطيع قطيعي، وغداً أو بعد غد أعود فأختار منه ما شاء، كأنّ القطيع ساقة غنم في حظيرته(٧٦). ولمّا استحدثت البنادق ووصلت إلى أيدي الصلبة أصبحوا حين ينزلون على ضفاف البادية قرب القرى هم باعة اللحم فيها. واستغنى أهل القرى عن الجزّارين ولحوم ذبائحهم. وقد شاهدت الصلبة بالفعل مراراً قادمين على حرمهم إلى القرية التي نشأت فيها محمّلة صيداً من الغزلان. وحدّثني بعضهم عن صليبي صيّاد أنه خرج وحوّاشاً إلى الصيد، فلمّا شاهد قطيعاً من الظباء كمن في منبطح من الأرض معاكس للريح، وبعث صاحبه يطرد القطيع نحوه، فلمّا اقترب القطيع ارتمى القنّاص على وجهه، فمرّ القطيع به وكادت بعض الغزلان تطأه بأرجلها حتّى إذا شعر أنه في وسط القطيع نهض بهدوء على ركبتيه وصوّب بندقيته وانتقى فحلين بطلقتين.

وزعم دوتي أن الصليبي يستطيع إصابة الطريدة بوسائله البسيطة كالبندقية القديمة

التي كان يضطر إلى إشعال فتيلتها قبل تسديدها للرماية واطلاقها على الهدف[٧٧]. وزعم موزل أن الصليبي يستطيع أن يصيد بسلاحه البسيط هو ورفيقه الحوّاش بين العشرة والعشرين غزالاً في اليوم[٧٨].

وكان الصليبي يصيد النعام، وكانت النعام تسرح في النفود وفي السهول الجنوبية، ثمّ تأخذ في الهجرة في آخر الربيع إلى الحماد والقسم الغربي من الأودية، حتّى تكاد تصل الغوطة جنوب شرقي الشام، وفي الخريف تعود جنوباً فيكمن لها الصلبة وراء رجوم الحجارة في مواضع يكون فيها الريح متّجهاً منها اليهم بحيث يسهل عليهم الاقتراب منها واصطيادها[٧٩].

ولا أغالي إذا زعمت أن الصلبة مسؤولون إلى حدّ كبير عن إبادة كثير من حيوانات البادية، كالنعام، والمهى، والغزلان، وحمر الوحش، وذلك حين وصلت إلى أيديهم البنادق الحربية الحديثة. يشاركهم في ذلك الصيّادون من القرى والمدن بواسطة السيّارات وغيرها في كل أرجاء الجزيرة.

وتعتمد الصلبة لكسب عيشها ولا سيّما تلك العشائر التي تعيش في منطقة المناظر ومشارف الشام على تربية الأغنام، وبيع خرافها ومنتوجاتها من السمن، وقد كان هذا المورد إلى عهد قريب من أهم موارد هذه العشائر. وكان لدى صليب ألوف الأغنام. وبإمكان صليب أن تكون من أغنى القبائل في سوريا لو التفت أبناؤها إلى هذا المورد وحسب، وتركوا شؤون الصيد، وطلبوا مساعدة الحكومة في أن تنشىء لهم عنابر لخزن المؤن والأعشاب اليابسة، وحظائر تبيت فيها الأغنام في بعض أيام الشتاء الباردة.

الصلبة والصناعات

وللصلبة مورد آخر يكسبون عيشهم منه، وهو الصناعات البسيطة التي يحتاج اليها البدو من إصلاح أوانٍ وأسلحة وحدادة فؤوس لاقتلاع الكمأة التي يمكن أن تكون مورداً لهم أيضاً في بعض السنين واقتلاع الأعشاب للوقود، وصنع قيود ونعال للخيل، ونجارة للأكوار والقتب والهوادج والأرحال التي تشدّ إلى ظهور الجمال عند الرحيل أو في الغزو، وللأواني الخشبية من قدور ومغارف وصحون وعمد تقوم عليها البيوت الشعرية وللأوتاد التي تربط بها الأطناب. ومن هنا فقد عدّهم البدو صنّاعاً واحتقروهم. ولا مجال للمنافسة في هذه الصناعات، فإن من عادة صليب أن لا يقيم منهم في المضرب الواحد سوى جماعة صغيرة تربطهم رابطة القربى بحيث يندر أن يكون في المضرب الواحد أقرباء أبعد من الجيل الخامس.

ويمارس بعض الصلبة الطبابة والبيطرة ويرتزقون منها، ولنسائهم ورجالهم معرفة بأنواع كثير من الحشائش والنباتات التي تستعمل في الدواء، ولعلّ معرفتهم بالطبابة ومعالجة الجرحى والمرضى وكونهم حلفاء أو أصحاباً لجميع البدو فرضت عليهم أن يكونوا في البادية الصليب الأحمر كما ذكرنا أو الهلال الأحمر للجريح في الغزوات من أي فريق أو قبيلة كان. وقد مرّ معنا خبر النساء الأربع من الصلبة اللواتي عالجن الرائد جوارماني حين وجده رجالهن مغمى عليه عند قلتة ماء في الجبل.

الصلبة ومعرفتهم بالبادية

ويتميّز الصلبة أيضاً بكونهم أعرف البدو على الاطلاق بأرجاء البادية وطرقها وغدرانها وأوديتها وكثبانها، حتى زعموا انه إذا صار بين يدي صليبي نقود معدنية أكثر ممّا يحتاج إليه حين يؤمّ المعمورة لشراء حاجياته، عمد إلى الفائض فدفنه في مخبإٍ في البادية في رجم أو غيره، وعاد في آخر الموسم لتناوله كما لو كان أخفاه في حديقة يعرف كل شبر أرض فيها.

ويعرفون فوق ذلك المواضع التي يمكن أن يكون فيها ماء بعد سقوط المطر، إمّا في جوف الأرض الرملية في بعض الأودية، أو في الغدران التي تخلّفها السيول أحياناً في مجاريها، أو في الصخور المجوّفة في بعض قنن الجبال. بل «قد يعمد بعضهم بعد أن يردوا من التجاويف الصغيرة في الصخور إلى تغطيتها بحجارة أو بأعشاب وطين وتراب ليخفوا ما بها من الماء كي لا يشربها غيرهم في أثناء غيابهم عنها وتبقى لهم إلى أن يعودوا»(٨٠).

ولهم معرفة في القيافة والآثار التي تخلّفها البهائم والبشر على وجه الغبراء، وهي التي تساعدهم على اقتفاء أثر الطرائد في الصيد وملاحقتها وصيدها. وهكذا فقد أصبحوا خبراء الصحارى والبوادي والأدلاء في مجاهلها بإقرار البدو أنفسهم من مختلف القبائل. وقد عرف عن الصلبة في سوريا أن الرولة ـ عرب الشعلان ـ كانت تستعين بهم قبل تشريقها لارتياد المنتجعات، وكشف مواطن الكلأ والماء بعد سقوط أول مطر في الخريف، ولتكون لهم في مغازيهم عيوناً على خصومهم من القبائل الأخرى. وهم يدرّبون أبناءهم على هذا فيتناقلون هذه المعرفة صاغراً عن كابر.

الصلبة والشعر والموسيقى

ومن مميّزات الصلبة أنهم مهرة في الموسيقى، ونظم الشعر البدوي، ويسمّونه القصيد. وقد أشرت في أول هذا البحث إلى الرواية التي تذهب في شأن أصلهم إلى أن

أحد الخلفاء العبّاسيين استجلب أجدادهم من الهند إلى بغداد ليكونوا موسيقيين في بلاطه. ومع أنه يصعب تصديق هذه الرواية فإن الصلبة بالفعل هم أرباب هذا الفن في البادية، وهم أرباب القصيد. وكما قرن الشعر قديماً إلى الغناء وسارا معاً كذلك قرنه الصلبة، فترى بعض شعرائهم قد جعلوا من هذين الفنّين مهنة يرتزقون بها، فيقصدون بيوت الوجهاء من شيوخ العرب في البادية والحواضر ينشدونهم المديح طمعاً بالعطاء. كما كان يفعل كثير من الشعراء في العصور القديمة. وهم ينشدون هذا الشعر إنشاداً بينما يرافق الإنشاد اللعب على الرباب التي يحسنون اللعب عليها دون سائر البدو. وكثير من شعرائهم طفيليّون يرمون أنفسهم على الناس، فإذا لم يثابوا أو يكرموا تناولوهم بالهجاء. روى لي بعضهم أن شاعراً من هذه الفئة نزل على مختار قرية صدد من أعمال حمص يعرف بابن مقصود كان نجاراً في الأصل فلم يطعمه ولم يكرّمه فقال يهجوه:

«يا راكبٍ مِنْ فَوقْ بنتِ الحِمارَهْ   خَضْرا وْمَا تِلْقى نَخْشْةِ العُودْ
تِلفِي على النّجارْ شَيخِ النَّصارَى   وأَلْفَيْنْ طَقْعَهْ مِنْ لِحيةِ بْنْ مَقْصُودْ»

وليس هنا مجال البحث في شعرهم فهو بكلمة يتناول فنون المديح والهجاء والغزل، ويطرق أكثر الأغراض الشعرية التي طرقها القدماء. وقد كتب السيّد شفيق الكمالي بحثاً مطوّلاً في الشعر البدوي بوجه عام، وأشار إلى أثر الصلبة فيه، وذكر بعضه ومنه قصيدٌ واحد قال إنه في ألف بيت في الأصل لشاعر اسمه راشد الخلاوي روى منه ستة وتسعين بيتاً على رويّ واحد، ومطلعه:

«يقُولْ الخَلاوي الـذي ما يكـودُهْ   جديدِ البِنا من غالياتِ القَصايـد»

وزعم أن راشداً هذا عاش في القرن التاسع الهجري معاصراً لمنيع بن سالم بن عريعر رئيس الخوالد وأحد شيوخ الاحساء. وقال إن الخلاوي لَقَبٌ لحقه لأنه كان يجوب الفيافي[٨١] ولعلّه لم يلتفت إلى أن البدو في الشمال تسمّي كل صليبّي خلاويّاً كما ذكرنا قبلاً.

المرأة الصلبية

أمّا المرأة الصلَبِيّة فهي تختلف عن أختها البدويّة في أنها تتمتّع بقسط أوفر من الحرية، فهي لا تُكره على الزواج بمن لا ترضاه، بل يؤخذ رضاها، ويندر أن ترى لها ضرّة في بيتها، وليس ذلك بسبب الفقر كما هي الحالة عموماً في البادية فالصلبة أغنياء إذا قيسوا بغيرهم من البدو، بل لأن هناك تقليداً ألفوه في عشائرهم من قديم. وقد يحدث

أن تفارق زوجها إذا لم ترض عن العيش معه، وتنال نصيباً من المهر. وزعم جوارماني أنها قد تغيب عن البيت فلا يسألها زوجها أين كانت حتّى ولو غابت أشهراً[٨٢].

ولها إلمام ببعض شؤون الطبابة في تضميد الجروح، واستعمال بعض النباتات دواء، والعمل كممرّضة تعالج الجرحى كما أسلفنا. كان هذا يوم كانت أكثر القبائل في نزاع دائم فيما بينها. وقد اقتصرت مساعدتها في السنين الأخيرة على إعطاء المرضى العلاجات والعقاقير التي تحتفظ بها في علبة خاصة. وعلى مساعدة المقطوعين أو التائهين في البادية الذين أشرفوا على الهلاك.

ولها دور آخر فنّي هو الرقص في حفلات العرس والختان التي يقيمها البدو المجاورون من الشيوخ والوجهاء، وفي الحفلات التي يقيمها قومها، وهي تحسن الرقص بحيث ظنّ البعض أن صلبياً هم من الغجر أي النور وإذا رقصت وحدها ترخي شعرها مسدولاً حين ترقص مكشوفة الرأس، وتقوم أحياناً بتحريك رأسها إلى الأمام وإلى الخلف وإلى اليمين وإلى الشمال فينتثر حول وجهها كما نرى في رقص هزّة الخصر عند الراقصات الحضريات. وقد يشترك الرجل معها في الرقص ويقبّلها، ولا يرى قومها في ذلك بأساً. وقد يشاركها أيضاً في الرقص رفيقاتها كما سبق وذكرنا[٨٣].

وترفض المرأة الصلبية الزواج من عبد، برغم ضعة مكانة أهلها وقبيلتها، ولا من صانع قروي برغم أن أكثر الصلبة صنّاع. ويزعم البدو أن لبعض الصلبيات قوة من السحر تستطيع بواسطتها أن تفصل بين اثنين متحابين أو تجمع بين اثنين متخاصمين. وأن تضعف القويّ وتقوّي الضعيف، وأن تقصّر العمر أو تطيله، أو تحول دون نموّ الصغير. ومن هنا فإن بعض البدو الذين يؤمنون بمثل هذه الخرافات يتشاءمون من المرأة الصلبية.

ومن النساء الصلبيات من ينظمن القصيد البدوي في المدح والرثاء والغزل كرجالهن. وقد أورد عبّاس العزاوي في كتابه أشعاراً لهن من فنّ القصيد البدوي[٨٤]. ولا يختلف رداء المرأة الصلبية كثيراً عن رداء اختها البدوية إلّا أنه أرقّ أحياناً وأبهج ولكنّها لا تلبس مثل زوجها الصيّاد ثوباً من جلد الغزال كما يتوهّم البعض إلّا إذا كان زوجها فقيراً لا يملك ثمن رداء، وهي تزيّن خدّيها بالوشم أحياناً كما تفعل الكثيرات من البدويات من عرب الشوايا أنصاف البداة[٨٥]. وهي تركب الحمر التي تكثر في مضاربهم عند الانتقال من منتجع إلى منتجع بشكل خاص يختلف عن ركوب القرويات فتراها تدلي برجليها إلى جانب واحد من جانبي الحمار هو الأيسر.

وغنيّ عن القول أن البدوي العربي وخاصّة الرويلي ينظر إلى المرأة الصليبية وإلى قومها نظرة احتقار وامتهان ويأنف أن يسمح لنفسه أو لابنه أو لأحد ممن له رعاية عليه أن يتزوّج من فتاة صليبية مهما بلغ حظها من الجمال مثلما تأنف الفتاة البدوية من الزواج من الصليبي مهما بلغ من الغنى. وقد يبلغ بالمرأة البدوية إذا استسقاها صليبي مرّ ببيتها أن لا تسمح له بالشرب من أي إناء عندها بل تسكب له الماء بإنائه لأنه قذر بعينيها ينجّس آنيتها حيث أنه فيها تزعم يأكل الميتة كما يقول البداة[٨٦]. وحتّى بين الصلبة أنفسهم هناك تفاوت طبقي بين أهل الشمال منهم وأهل الجنوب. فإن أهل الجنوب عموماً أغنى ويعدّون أنفسهم أشرف من أهل الشمال فتراهم لا يختلطون بهم وترى الفتيان والفتيات من أهل الجنوب يأبون أن يتزوجوا من أهل الشمال.

ويجب الإشارة هنا إلى أن أكثر الرواد متفقون هم وأكثر البدو على أن النساء الصليبيات أجمل من أخواتهن البدويات، وأن بشرتهن أكثر بياضاً أو أقلّ سمرة من زميلاتهن. وما أبداه جوارماني بشأن النساء الأربع اللواتي عالجنه عند غيبوبته كما ورد سابقاً يجب الاّ يتّخذ مقياساً للحكم على جمال المرأة الصليبية أو قبحها لأنه فيما يظهر لم يشاهد سواهنّ. ومثله ما قيل عن زرقة العيون وشقرة الشعر وبياض السحنة عند البعض منهنّ يجب الاّ يظنّ أنه ظاهرة عامة ولا يعرف إلاّ عند نساء الصلبة، فقد رأيت مرّة في بعض مضارب البدو من عرب الشوايا التي زرتها فتاة تكاد تقاسيم وجهها لا تختلف عن تقاسيم وجه الفتيات السكندنافيات.

بقي علينا الآن أن ننظر في أمر هؤلاء القوم الذين تضاربت الآراء بأمرهم ونسبهم، فقد أهملتهم المراجع العربية القديمة ولم تذكرهم[٨٧] برغم أن كتب الأنساب عند العرب لم يفتها أن تأتي على ذكر مختلف القبائل البدوية وعلى ذكر العشائر والأفخاذ التي تفرعت عنها.

رأينا في أصلهم ورفضنا لرأي البستاني

ولا بدّ لنا قبل كل شيء أن نذكر أننا نرفض قبول رأي من قالوا بأصل صليبي. وقد لاحظنا أن أقدم من أشار إلى هذا بشكل صريح هو سليمان البستاني في مقاله في مجلّة المقتطف، وقد أكدّ على ذلك، وهو الوحيد الذي حاول أن يأتي بأدلّة على رأيه، ولعلّه كان السبب في انتشار هذا الرأي عند بعض الناس كما ذكرنا وخاصّة بعد أن نشره في دائرة المعارف التي كان أحد محرّريها بعد وفاة منشئها بطرس البستاني.

أمّا أدلّته التي ذكرها وأشرنا اليها سابقاً في أول هذا البحث فهي في نظرنا واهية

كلّها ولا يمكن أن تثبت أن هؤلاء القوم هم من أصل صليبي. فالاسم إذا كان مشتقّاً من لفظة الصليب فليس من المحتّم أن يكون أصحابه من الصليبيين الإفرنج إذ قد يجوز أن يكون من بعض فرق النصارى السوريين القدماء. وما ذكره عن كثرة أصحاب العيون الزرق ليس صحيحاً وقد أنكره الكثيرون ممّن أتوا على ذكر الصلبة في مؤلّفاتهم أو ممّن قابلوا بعضهم كوصفي زكريا الذي أشرنا اليه قبلاً وغيره، وقد صرّحوا عن هذا الأمر أنه غير ثابت. وقد حاولت أنا شخصيّاً أن أجد بين من قابلتهم من الصلبة بعضاً من ذوي العيون الزرق فلم أر أحداً بالرغم من أنّي كنت قبلاً من هؤلاء الذين قبلوا نظرية من قال بالأصل الصليبي لهؤلاء القوم. أما الارتخاء في لفظهم واستعمالهم تعابير خاصّة وعدم انتمائهم إلى مذهب خاصّ بين المذاهب الاسلامية واختلاف أُسلوب معيشتهم وغيرها من الأسباب التي ذكرها فهي أمور تدلّ على اختلافهم عن البدو العرب ولكن ليس من اللازم أن تدلّ على أصل صليبي. بقي أجوبة بعضهم إذا سئلوا عن أصلهم قالوا إنّا من الصليبيين، أو بالأحرى من الإفرنج. وليس لهذه الأجوبة من قيمة. وينقضها قول أكثر الروّاد الذين سألوهم عن أصلهم فذكروا لهم أصولاً مختلفة. منها أنهم نصارى بالأصل من سكان هذه البلاد القدماء. ومنها أنهم عرب من منطقة سمّوها، ومنها أنهم عرب من بني مرّة، ومنها أنهم عرب من بني غانم، إلى غير هذه الأصول. والواقع أن الصلبة وقد أصبحوا لأمر ما من الذلّ والمسكنة والخوف بمثل تلك الدرجة التي وصلوا إليها لجأوا إلى التقية. فهم ينتسبون إلى ما يوافق الحال التي هم فيها. فيزعمون عند النصارى أنهم من أصل نصراني، وعند المسلمين أنهم مسلمون كغيرهم من البدو. وإذا زارهم أجنبي، وكان للأجانب مكانة في القرن التاسع عشر، وطمعوا بشيء من العطاء منه ادّعوا أنهم من أصل إفرنجي ولعلّ هذه التقيّة هي التي جعلت البعض يظنّون أنهم من الشيعة الذين تخلّوا عن الحسين في كربلاء فكان عقابهم أن أصبحوا كالمنبوذين.

وليلاحظ أيضاً أن الصلبة منتشرون في جماعات صغيرة لا يزيد المخيّم الواحد فيها عن بضعة بيوت من الشعر، وفي مناطق متباعدة، ولا يختلطون كثيراً لا مع البدو ولا مع أهل القرى المحيطة بالبادية، ويصعب في مثل هذه الحالة أن تتوحّد لهجتهم البدوية - كما هي الآن - إن كانوا حقّاً من أصل صليبي؛ بل كان من الطبيعي أن تنشأ لهجات مختلفة، وجزر لغوية صغيرة في البادية يحتفظ بعضها ببقايا من لغات الافرنج، بينما الواقع هو غير هذا. وإن استعمال هؤلاء القوم للتعابير التي ذكرها البستاني لتبعدهم عن أي أصل إفرنجي وتدنيهم إلى أصل وطني في البلاد العربية كما سنرى.

زد على هذا كلّه أن الصليبيين الذين تخلّفوا في هذه البلاد لم ينفذوا إلى قلب

الجزيرة العربية، بل ظلّوا قرب شواطىء سورية ولبنان، وربّما نزحوا إلى بعض القرى المسيحية في سورية، ولا تزال آثار هذا الدم الغربي ظاهرة في بعض سكان هذين القطرين إلى اليوم.

ثمّ إننا نزعم أنه لا يمكن للصليبيين أن يكونوا نفذوا إلى قلب الجزيرة العربية وانتشروا في كلّ أرجائها الشمالية ولم يشعر بهم أحد من العلماء أو الكتّاب أو المؤرخين، ولم يكتب أحد عنهم ولم يتعرّض أحد لهم ويندثر كل خبر عنهم ولا يبقى سوى هذا الاسم الغريب، بل يصعب أن نسلّم أن قوماً غرباء من الإفرنج - حتى من غير الإفرنج - ينفذون إلى بلاد واسعة مثل الجزيرة العربية فيصبحون في حقبة قصيرة بعرف التاريخ أعرف الناس بأرجائها وبواديها وطرقها ومياهها، فتعرف أسماؤها منهم، وتنقل عنهم، ويُضْحون أهدى الناس في متاهاتها، وأسبق الادلاّء لغزاتها، وأفصح البدو بلغتها، وأعرق الشعراء بشعرها، وينسون لغتهم الأصلية فلا يبقى لها أثر فيها يتكلمون. وإذا كانوا يوصفون حقّاً ببدو البدو كما شاء الشيخ سليمان البستاني أن يوصفوا أيمكن أن يكونوا من الصليبيين؟ نقول: لا وإذا فمن أي أصل هم؟ وهل هناك ما يفيدنا في هذا السبيل؟

مرّ معنا أن البدو أنفسهم كادوا يجمعون إن لم نقل أجمعوا على أن الصلبة هم قوم قدماء: قال دوتي: أوّل ما تعرّفت عليهم دلّني دليلي على جماعة منهم وقال: «تعالَ أريك قوماً من العهود القديمة»[٨٨]. وقد بدا لي مرّة أنهم ربّما كانوا من بقايا الأنباط لا لشيء إلاّ انهم هم أشهر شعراء البادية، وشعرهم يعرف بالشعر النبطي، وقد عمّت هذه التسمية في كلّ الأقطار العربية على الشعر البدوي. ولكني والحق لم أجد هذا السبب كافياً للذهاب إلى أن الصلبة تحدّروا من الأنباط. ومع أن الانباط كانوا حلقة الوصل في التجارة بين الشرق والغرب، وكانوا يعرفون طرقها في الجزيرة، فإن في تاريخهم وروحهم العسكرية ما يمنع أن يكونوا تحدّروا إلى مثل هذا الوضع الذي تحلّه قبيلة صليب. وكلمة النبط كانت عند العربي في عصور الإسلام تفيد العجمة والبعد عن العربية أكثر مما تفيد الذل والهوان. والبدو يجمعون كذلك على أن الصلبة ليسوا عرباً كالبدو بل هم من أصل غريب مسيحي أو يهودي، ومن هنا فلم يسمح لهم أن يمتزجوا بالبدو العرب بالزواج حتّى بعد أن أسلموا، ولا أن يقتنوا الخيل ولا أن يغزوا، بل عليهم أن يدفعوا خوّة لشيوخ البدو الذين سمحوا لهم أن يتنقّلوا في ديرتهم ويقوموا بالخدمات الصناعية التي ذكرنا ويعيشوا في البادية أذلاّء محتقرين.

وكان يمكن أن يزعم البعض أن هؤلاء الصلبة هم من بقايا اليهود الذين ظلّوا في قلب الجزيرة قرب خيبر حتّى أوائل القرن السادس عشر كما أفاد الرائد فارتيما الايطالي الذي سبق ذكره في هذا البحث، ولكن أحداً لم يذكر هذا، ثم إن اسمهم وحده يكفي لردّ هذا الزعم. فلم يبق سوى القول بأصل مسيحي أو صابي. ومن الممتع أن نلاحظ أن بعضهم ذكر هذا الأصل كما مر معنا للمقيم البريطاني پلي فقد قال أيضاً إنهم يمارسون بعض الطقوس الدينية الغريبة كتغطيس أولادهم بالماء بعد الولادة بأربعين يوماً سبع مرّات، وأنهم يحترمون نجمة القطب ونجمة أخرى في برج الجدي، ويقفون في تكريم هذين النجمين بوجوه محوّلة نحوهما، وبأذرع ممدودة إلى الجانبين بحيث يصبح الجسم بشكل صليب. وهم يصرّحون عن أنفسهم أنهم قبيلة من الصابئة هاجرت إلى نجد. وهناك غير پلي روى أن الصلبة ظلّوا إلى عهد قريب غلفاً لا يعرفون الختان، بل كان بعضهم كما زعم بلجريف يكرهون الاسلام ولا يكتمون ذلك(٨٩). ويزعم موزل أن هناك مرتفعاً في البادية تعتبره صليب مقدّساً وتزعم أنه مسكن أو كان مسكناً لوليّ يسمونه «ابو رضمة» يجلّونه كثيراً(٩٠) وفي المنطقة نفسها مقابر تزعم أنها من آثار القدماء وتعتبرها مقدّسة(٩١) فهل يمكن أن يكون الصلبة من الصابئة أو الحرنانيين؟ وهل هناك في الأصول العربية ما يشير إلى هذا؟

روى ابن النديم في كتاب الفهرست «أن المأمون اجتاز في سنة ٢١٥ هـ ـ ٨٣٠ م بديار مُضَر يريد بلاد الروم للغزو، فتلقّاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرنانيين، وكان زيّهم إذا ذاك لبس الأقبية وشعورهم طويلة. . . فأنكر المأمون زيّهم وقال لهم: من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرنانية.فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فمجوس انتم؟ قالوا: لا. قال لهم افلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول. فقال لهم: فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان. . . وانتم حلال دماؤكم. لا ذمّة لكم. فقالوا نحن نؤدّي الجزية. فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في كتابه، ولهم كتاب، وصالحهم المسلمون عن ذلك، فأنتم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء. فاختاروا الآن أحد أمرين: إما أن تنتحلوا دين الإسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلّا قتلتكم عن آخركم. فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه. فإن أنتم دخلتم في الاسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلّا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم. ورحل المأمون يريد بلد الروم، فغيّروا زيّهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية،

وتنصرّ كثير منهم ولبسوا زنانير، وأسلم طائفة، وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه. فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً... فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون. فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به. وقضي أن المأمون توفي في سفرته تلك بالبذندون وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لأنه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصابئة، فلمّا اتصل بهم وفاة المأمون ارتدّ أكثر من كان تنصّر منهم ورجع إلى الحرنانية وطولوا شعورهم حسب ما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم... ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفاً من أن يقتل فأقاموا متستّرين بالإسلام فكانوا يتزوّجون بنساء حرّانيات ويجعلون الولد الذكر مسلماً والأنثى حرنانية»[٩٢]. إن في هذا الخبر الذي رواه ابن النديم عن المحنة التي أصابت الحرّانيين، وعن تشتّتهم فرقاً حرّانية ومسيحية ومسلمة، وفي الروايات التي تشير إلى أصل حرّاني أو مسيحي للصلبة، وأن حرّان محجّهم، وفي العادات والطقوس التي كان بعض الصلبة يمارسونها حتّى أواخر القرن الماضي وتشتّتهم جماعات صغيرة في شمالي الجزيرة العربية، وبخاصة في المناطق قرب الفرات غير بعيدين عن حرّان نفسها، وفي أجزاء البادية السورية في الشمال، واعتمادهم على الحمير المهجّنة وسيلة للنقل، وعلى الصناعات لكسب العيش بين قبائل البدو، إنّ في هذه كلّها ما يدفعنا إلى الترجيح أن الصلبة هم في الأصل من الحرانيين الذين اضطروا إلى الجلاء عن مواطنهم، وانتحلوا المسيحية أو الصابئية ثم دخلوا في الإسلام حين عايشوا البدو ولزموا البادية. وليس غريباً أن يكون بعضهم نزل الرقّة قرب الفرات وعاش في باديتها. فقد جاء في «معجم البلدان» لياقوت ما يلي: «الزوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب وليس عندها نهر ولا عين جارية إنّما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور. وربّما فرغت في أثناء الصيف. فلأهل الثروة منهم عبيد وحمير يمضي أحدهم إلى الفرات العصر فيجيء بالماء في غداة غد لأنه يمضي أربعة فراسخ أو ثلاثة ويرجع مثلها. وعندهم آبار طول رشا كل بئر مئة وعشرون ذراعاً وأكثر، وهو مع ذلك مَلِحٌ رديء وهي في وسط البرية. ولبني خفاجة عليهم خفارة يؤدّونها اليهم صاغرين. وبالجملة لولا حب الوطن لخربت، وفيها جماعة من أهل الثروة لأنهم بين تاجر يسافر إلى أقطار البلاد وبين مقيم فيها يعامل العرب. وفيها سويق عدّة عشر دكاكين. ولهم حذق في عمل الأكسية. وكل رجل فيها غنيّهم وفقيرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن». ثم يقول: «وذكرها ابن بطلان الطبيب في رسالته إلى هلال بن المحسن فقال: وبين الرصافة والرحبة مسيرة أربعة أيام. قال وهذا القصر يعني قصر الرصافة حصن دون دار الخلافة ببغداد مبني بالحجارة، وفيه بيعة

عظيمة ظاهرها بالفص المذهب، أنشأه قسطنطين ابن هيلانة وجدّد الرصافة، وسكنها هشام ابن عبد الملك. وكان يفزع إليها من البق في شاطىء الفرات. وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين الرخام مبلّط بالمرمر مملوء من ماء المطر، وسكان هذا الحصن بادية (يعني من البدو) أكثرهم نصارى معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع والصعاليك مع اللصوص، وهذا القصر في وسط برية. . لا يرد البصر من جوانبها إلا الأفق. . . وكان ابن بطلان كتب هذه الرسالة في سنة ٤٤٠»[٩٣]. وهنا أيضاً أرى من الممكن أن يكون الصلبة اليوم هم قوم تحدّروا من أولئك النصارى قرب الفرات ثم دخلوا في الإسلام كما دخل كثيرون غيرهم، وظلّ اعتمادهم في تنقّلهم في باديتهم على الحمير، واعتمدوا في حياتهم على الصيد وهم بداة ، وساعدتهم معرفتهم للبوادي حين كانوا يخفرون القوافل على هداية القبائل البدوية إلى مواطن الكلأ ومساقط الأمطار، وتطوّرت الصناعة التي كانوا يمتهنونها إلى صناعة في حاجات البدو وظلّوا محتقرين لأنهم أهل صناعة يدفعون خوّة للبدو كما كانوا يدفعون لبني خفاجة حقّ حمايتهم صاغرين[٩٤].

وخبر ثالث عن جماعة صغيرة زمن الصليبيين يمكن أن يكونوا من الصلبة أنفسهم قبل أن يعرفوا بهذا الاسم. ورد في «كتاب الاعتبار» لأسامة ابن منقذ وكان سائراً بمهمة حربيّة قال: «فلمّا وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه وتفرّق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت يا شيخ أنا في حسبك. قلت: أنت آمنة. ما لك؟ قالت قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً (أي حماراً) ونابحاً وخرزة. قلت لغلماني «من كان أخذ شيئاً يردّه» فأحضر غلام قطعة كساء لعلّها طول ذراعين قالت «هذا الثوب» وأحضر آخر قطعة سندروس قالت «هذه الخرزة» قلت: «فالحمار والكلب» قالوا «الحمار قد ربطوا يديه ورجليه وهو مرميّ في العشب». والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى مكان».

«فجمعتهم ورأيت بهم من الضرّ أمراً عظيماً: قد يبست جلودهم على عظامهم. قلت: «إيش انتم؟» قالوا نحن من بني أُبيّ، وبنو أبي فرقة من العرب من طيّ لا يأكلون إلّا الميتة، ويقولون «نحن خير العرب ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زَمِن ولا أعمى، وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم. قلت: «ما جاء بكم إلى ها هنا»؟ قالوا: «لنا بحسمى[٩٥] كثول[٩٦] ذرة مطمورة جئنا نأخذها» قلت: «وكم لكم هنا؟» قالوا: «من عيد رمضان لنا ها هنا ما رأينا الزاد بأعيننا» قلت: «فمن أين تعيشون؟» قالوا: «من الرمّة وورق القطف (شجر بتلك الأرض) ونتقوّت به » قلت: «فكلابكم

وحمركم؟» قالوا: «الكلاب نطعمهم من عيشنا والحمر تأكل الحشيش» قلت: «فلمَ لا دخلتم إلى دمشق؟» قالوا: «خفنا الوبأ ولا وبأ أعظم ممّا كانوا فيه» وكان ذلك بعد عيد الأضحى، فوقفت حتّى جاءت الجمال وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين. فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد وقلت: «لا تقيموا ها هنا يسبوكم الإفرنج»(٩٧).

أما الصابئة أو الصبة فتذهب الأخبار إلى أن أصلهم من فارس وقد أخرجهم منها قبل الإسلام عبّاد النار وغيرهم من الفُرس فنزل بعضهم قرب المستنقعات التي بجانب الفرات، وقد حاول الفُرس محو كل أثر لهذه الطائفة من الناس فأحرقوا كتبهم. وإن بعض الناس يدعونهم نصارى القديس يوحنا وذلك بسبب التعميد الذي كانوا يمارسونه. وكان منهم قديماً عدد كبير مقيمين ما بين النهرين وقرب البصرة، وهم غالباً أقل سمرة من العرب، ويرى في رؤوس بعضهم صلع مثل ما نشهد عند كثير من الاوروبيين، وقد لاحظ هنري فيلد في لحى الصلبة حمرة يشوبها الاسمرار كما لاحظ الأمر نفسه عند بعض الصبة المعاصرين(٩٨). ولعلّ تحدّر الصلبة من هؤلاء الصبّة الحرّانيين الشرقيين هو الذي دفع بعض الرواة إلى أن يزعموا أنهم وفدوا من الهند ليكونوا موسيقيين في بلاط العباسيين.

ومع أنه ليس في أيّ من هذه النصوص التي ذكرنا دليل كاف على أن الصلبة هم من هذه الأقوام فإننا نرى أنها تلقي ضوءاً على أصلهم وتتفق مع الأخبار التي نقلت عن بعضهم أنهم من شمالي الجزيرة من عناصر أو قبائل مسيحية أو قريبة من المسيحية. والذي نراه بعد هذا كلّه أنه ليس هناك ما يسند خبر تحدّرهم من أصل صليبي.

أمّا فيما يتعلّق بأسماء العشائر الصلبية المختلفة وتعداد بيوتها فهناك احصاءات قديمة مختلفة ويصعب التثبّت من معرفة الصحيح منها وربّما كان مصدر الاختلاف يعود إلى الزمن الذي وضعت فيه والمنطقة التي دوّنت فيها. وإذا كان الصلبة أنفسهم هم الذين بلّغوها هؤلاء الرواد والمؤلفين فإنه يصعب على فريق منهم أن يعرف عدد بيوت الفريق الآخر إذا كان من سكّان قطر آخر. ومهما يكن من أمر فإنّ في إثبات بعض هذه الاحصاءات ما يعطي فكرة عامّة عن أسماء العشائر ويسميها الصلبة (بدايد) وعن عددهم والمواطن التي يحلّون فيها عموماً.

جدول موزل ولفؤاد حمزة			جدول القيادة الانكليزية والقيادة الفرنسية			
اسم البديدة	عدد البيوت	مكانها	اسم البديدة	عدد البيوت	مكانها	عددها عند القيادة الفرنسية
آل ماجد	١٧٠	جنوب الكويت	آل ماجد	١٢	العراق	١٢
آل رويعي	٦٠	غرب الكويت	العمارات	١٥	العراق	١٥
البذاذلة	٢٠٠	ج. ش. السماوة	الذبيح	٢٩	العراق	٢٩
العناترة	٨٠	بين شبيجة والنجف	المريرات	٣٢	العراق	٣٢
آل جميل	١٥٠	القصيم	الموبهات	٢٢	العراق	٢٢
آل بناق	٥٠	حائل	الفاضل		سورية	٧
آل سيالان	٦٠	ج. الجعرة والشنافية	العجلان		سورية	١٥
آل كيوان	٠٠٠	ج. الجعرة والشنافية	الشيخ		سورية	٢٢
العراقات	٣٠	الرحيمي والحياضة	العرقية	٤٠	سورية والعراق	٤٠
آل طرفة	١٠٠	الحزول والجوف والحماد	الطرفة	٥٧	العراق	٥٨
السعدات	٩٠	قرب تيماء	الصطيث	٤٣٠	العراق	٤٣٠
آل مسيلم	٩٠	قرب بغداد والقبعة	الصطيث	١٣٠	نجد	١٣٠
آل حازم، آل عيسى، آل موسى	٨٠	الوديان	آل حازم (٧ فروع)	١٥٣	العراق وسورية	١٩٢
الظبيات	٢٠٠	الجزيرة				
الصبيحات	١٠٠	المناظر (تدمر والقريتين الخ)	الصبيحات	٤٣	العراق وسورية	٤٣
	١٤٦٠			٩٦٣		١٠٤٧

ويظهر من الجداول أن فؤاد حمزة(٩٩) نقل عن موزل وأخطأ أو غيّر في قراءة بعض الأسماء فذكر العراقان بدل العراقات والحيازية بدل الحياضية والعداذلة بدل البذاذلة والظبيّات بدل الظبيبات والعناتر بدل العناترة وآل روّيـع بدل آل رويعي والجهـرا بدل الجعره أو القعرة(١٠٠). كذلك نلاحظ أن جدول القيادة الفرنسية هو السابق وقد نقلت عنه القيادة الانكليزية قبل حملتها على سورية ولبنان لاستخلاصها من أيدي الفرنسيين الفيشيين(١٠١). وقد ذكرت القيادة الانكليزية أن عدد بيوت صليب في سوريا يبلغ خمسين وفي العراق سبعمئة وثمانية وخمسين وفي نجد مئة وثلاثين فيكون المجموع تسعمئة وثمانية وثلاثين بيتاً بينما أرقامها جمعت تسعمئة وثلاثة وستين وهي بدورها تختلف عن جدول موزل الذي بلغت البيوت فيه ١٤٦٠ بيتاً. ويذكر كتاب القيادة أن لدى صليب مئتي جمل وألفي شاة ومئة وخمسين حماراً في سوريا وحدها. وذكرت

عن الشيخ في سوريا في مطلع هذا القرن واسمه مهدي ابن عوض أنه كان وحده يملك نحو ألف وخمسمئة شاة، ولكنه لكرمه ونحره الغنم لضيوفه لم يبق لديه سوى نحو مئة نعجة، وقد سميّ لجوده بـ «تلّ اللحم» ويجزم واضع الكتاب كما ذكرنا سابقاً أنهم غير ساميين (١٠٢).

التطوّر في حياتهم

بقي أخيراً أن نذكر التطور الذي طرأ على حياة هؤلاء القوم في السنين السبعين الأخيرة، فقد تغيّرت نظم الحياة في البوادي والحواضر لدرجة لم تشهدها الجزيرة طيلة القرون العشرين التي مرّت بها. كان البدو يستعملون الرماح في غزواتهم وقد شاهدت وأنا صبي جيشاً كبيراً في البادية على هجنهم وليس معهم من السلاح سوى الرماح. واليوم يندر أن ترى رمحاً في مضرب من مضارب البدو لحفظه في متحف. وكان الصلبة يستعملون في الصيد والقنص الأقواس والسهام، فلمّا ظهرت البنادق الشيشخانية أقبلوا على حملها وتخلّوا عن الأقواس والسهام، وكذلك فعلوا لمّا استحدثت البواريد المعروفة بالموزر. وهم اليوم دون شك يحملون البنادق الحديثة التي يجدون لها ذخيرة في الأسواق، ولكن ليس للصيد ـ فالصيد قد انقطع أو كاد ـ وإنّما لحماية ماشيتهم من غنم وحمير وغيرها، ولقتل الذئاب والضباع التي لا يزال منها عدد كبير حتّى اليوم. قلت انقطع الصيد أو كاد فالنعام وحمر الوحش (الفرا) والوعول (البدن) أُبيدت من البادية ومن الجبال التي عند ضفافها أو في وسطها. والمها (بقر الوحش) كادت تنقرض هي الأخرى لولا أن لجأ بعضها إلى الربع الخالي من شرّ الصيادين. وقد أحسن بعض الأمراء في الجزيرة وبخاصة سموّ الأمير قاسم بن محمد آل ثاني حين شرعوا يحفظون، ما استطاعوا التقاطه منها، في حدائق لهم أعدّوها لتربيتها. وكذلك فعلت حكومة شرقي الأردن. والغزال الذي كانت تفد قطعانه إلى قلب المعمورة في أراضي حمص وحماه بالمئات، ولا أغالي في ذلك، فقد شاهدتها بعيني قطعاناً كقطعان الغنم، لا تجد منه في البادية الشامية اليوم سوى القليل القليل. وإذا لم تنفّذ الحكومات المختلفة في البلاد العربية القوانين التي سنّتها لتحريم صيده فقل عليه السلام وسيبيد كما بادت الأسود والنعام وحمر الوحش.

ولّما كانت هذه الحيوانات التي عاش الصلبي على صيدها قد بادت أو كادت تبيد كما ذكرنا فلم يبق داعٍ لدى الصلبي لأن يحمل السلاح إلاّ لحماية الماشية، وليس من داعٍ بعد لأن يجعل رداءه من جلد الغزال حتّى لو تيسّر له ذلك، وقد حقّق الأمن لهم. وللبداة أن يستفيدوا من تربية المواشي، وبخاصة الأغنام، وستشهد البادية تطوّراً كبيراً في هذا السبيل.



مخيم وقد اعتمد بعض أهله على السيارة للسفر إلى المدن

وتقوم السيَّارة على أنواعها بدور كبير هام في هذا التطور وذلك بنقل الماء والغذاء إلى الماشية حين تكون في البادية وينقطع عنها الكلأ والماء. وقد حقّقت السيارة للبدوي صلة بالحواضر ويمكن أن تحقّق مثلها للصلبي اليوم فيأخذ بالتطوّر والتحضّر ولعلّه أقرب إلى قبول ذلك من زميله البدوي العربي الذي يرى في البداوة ميزة على الحضارة. وستفضي السيارة في آخر المطاف بالصلبي إلى أن يستغني عن الحمار حين تكثر أغنامه ويحتاج في بعض الأحيان إلى نقل الماء اليها بالصهاريج كما هي الحالة الآن عند أصحاب الأغنام في القرى التي على ضفاف البادية. ومهما يكن من أمر فإن الصلبي بالرغم من أنه أعرف الناس بالبادية وأكثرهم التصاقاً بالبداوة بحيث وصف أهله بأنهم بدو البدو فهو مضطر لتغيّر الأحوال إلى أن يجنح إلى التحضّر والسكنى في القرى الملاصقة للبادية ويستطيع أن يعمل في بعض الصناعات وفي رعي الماشية التي يملكها أهالي القرى، خاصة لأن الحكومات في كلّ الأقطار العربية المحيطة بالبادية تقوم بتشجيع البدو على التحضر والاستقرار وذلك باستخدام البعض في أعمال الشركات والجندية وبتوفير المياه والعلف

اللازمين في سني الجدب في أماكن معيّنة يمكن أن تصبح في المستقبل مواطن للاستقرار. وقد نقل إلي أن بعضهم أنه أخذ يستقرّ في السنين الأخيرة في بيوت من اللبن أو الحجارة في بعض الأقطار.

الحواشي :

(١) ورد في معجم قبائل العرب، ٢ : ٦٤٦، صلبة بكسر الصاد وهو خطأ. والبدو يلفظون الاسم بتسكين الصاد وفتح اللام والباء. ويلفظها بعضهم بضم اللام وبعض الصلبة يقولون عن أنفسهم أولاد صُلَيبي بتسكين الصاد.

(٢) انظر Guarmani, p. 92 . وانظر Doughty, I, 325 ، حيث يقول أنهم يجولون آفاق الجزيرة كلها من مرتفعات سوريا إلى اليمن وراء الطائف. وذكر David George Hogarth, **The Penetration of Arabia** (New York, 1905), p. 314 عن المقيم البريطاني في بوشير انه استأجر صليبياً ليكون دليله في الطريق من الرياض إلى الخليج. وذكر موزل في كتابه **Palmyrena**, p. 126 أن الصلبة ينتشرون في كل الجزيرة. ويذكر أوبنهايم أنهم ينتشرون من حلب حتى الخليج الفارسي جنوبي الفرات : **Vom Mittelmeer zum Persischen Golf**, I, 221.

(٣) Doughty, I, 326, 327.

(٤) سليمان البستاني، «البدو»، المقتطف، ج ١٢، سنة ١٨٨٧ ـ ١٨٨٨، ص ١٤١ ـ ١٤٧.

(٥) سليمان البستاني، مادة «الصلبة» في دائرة المعارف، تحقيق بطرس البستاني، بيروت ١٨٧٦ ـ ١٩٠٠، ١١ : ٢ ـ ٩.

(٦) W. Pieper, «Sulaib», in **Encyclopaedia of Islam**, IV, 1934, 511 - 15.

(٧) French Offices, **Les Tribus nomades de l'état de Syrie** (Damas, 1943), pp. 247 - 48.

(٨) Glubb, **Handbook**, pp. 65 - 66.

(٩) **Vom Mittelmeer zum Persischen Golf**, I, 221.

(١٠) انظر الهوامش رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٨ و ٩ من هذا الفصل.

(١١) Lodovico di Varthema, **The Travels**, trans. John Winter Jones and ed. George Percy Badger (New York, 1963), p. 23.

(١٢) Karsten Niebuhr, **Travels Through Arabia**, 2 volumes, trans. Robert Heron (Edinburgh, 1792).

(١٣) Kiernan, pp. 88 - 103.

(١٤) **The Desert Route to India.**

(١٥) **Notes on the Bedouins and Wahabys**, I, 14 - 15.

(١٦) صور من شمالي جزيرة العرب، ص ١١٢، ١٨٤. وقد اخطأ المترجم في صفحة ٨٤ إذ سمّاهم «سلابة»، ووضعهم في موضع آخر في الفهرس تحت حرف السين. وفاته أنه في المواضع الأخرى كتبها بالصاد ودون ألف.

(١٧) Sir Richard F. Burton, **Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah** (London, 1893), II, 121.

(١٨) Palgrave, **Narrative**, I, 150.

(١٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٠) Guarmani, p. 120.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٧. وانظر دوتي، ١ : ٣٢٧، حيث نجد أن الصليبي حين تكثر دراهمه يعمد إلى ما يزيد عن حاجته لشراء ما يلزمه من الحواضر من أدوات لصناعته وغيرها ويدفن ذلك المال في موضع في البادية ويعود بعد شهور أو سنين فيستخرجها.
(٢٣) اسمه بالحرف اللاتيني Louis Pelly .
(٢٤) الكلمة في الأصل الانكليزي تفيد «الوعل» وهو خطأ لأن الوعول ليست بهذه الكثرة ولا سيما في تلك المناطق.
(٢٥) Kiernan, p. 262. ويلاحظ أن بلي هنا يقول عن الصلبة أنهم يربون الجمال بينا بركهارت لا يرى ذلك ويظهر أن الصلبة في شرقي الجزيرة لم يكن يسمح لهم في عهد بركهارت أن يقتنوا جمالاً.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.
(٢٧) Blunt, p. 325.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.
(٢٩) Wright, p. 53.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٣٢) Julius Euting, **Tagbuch einer Reise in Inner - Arabien,** in 2 volumes, hgbn. Enno Littman (Leiden, 1896 - 1914) I, p. IV.
(٣٣) Charles Huber, **Journal d'un voyage en Arabie , 1883 - 1884** (Paris, 1891), pp. 196 - 204. Kiernan, p. 265. ويجب الاشارة هنا إلى أن شارل هوبير ذكر بين الأطعمة التي تأكلها صليب حليب الغزلان وهو خطأ لعلّ مصدره أنه رأى بعض الغزلان في بعض بيوت البدو أو الحضر وقد دجّنت بعد أن قبض عليها وهي صغيرة فظنّ أن الصلبة يشربون حليبها.
(٣٤) اسم الكتاب بالانكليزية **Travels in Arabia Deserta** (London, 1936) .
(٣٥) Doughty, I, 326.
(٣٦) «البدو» للبستاني، ص ١٤١ ـ ١٤٧؛ و«الصلبة» للبستاني، ص ٢ ـ ٩.
(٣٧) W. B. Seabrook, **Adventures in Arabia** (London and Aylesbury, 1941), p. 43.
(٣٨) «الصليب» لانستاس الكرملي، المشرق، ج ١، عدد ١٥، سنة ١٨٩٨، ص ٦٧٣ ـ ٦٨١.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ٦٧٥.
(٤٠) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤١) المصدر نفسه، ص ٦٧٤.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ٦٧٧.
(٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٦٧٨.
(٤٥) Musil, **Arabia Deserta,** pp. 37, 212, 293, 296.
(٤٦) الأب انستاس ماري كرملي: حياته ومؤلفاته لكوركيس عواد، بغداد ١٩٦٦، ص ٦٦.
(٤٧) Musil, **Manners and Customs,** pp. 26, 77, 392, 406, 648 - 50 and **Palmyrena,** p. 90.
(٤٨) Musil, **Arabia Deserta,** p. 293.
(٤٩) H. St. John Philby, **The Heart of Arabia,** 2 volumes, (London, 1922), I, 267 - 69.
(٥٠) **The Land of Midian.**
(٥١) **Forty Years in the Wilderness.**
(٥٢) Grant, pp. 22.
(٥٣) Seabrook, p. 43.
(٥٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٤٤. والكتاب محشو بالأخطاء برغم ما فيه من اختباراته الخاصة ولقائه مع الدروز وسبّدة المختاره من ص ١٢٩ - ١٧٦.

(٥٦) العقد الفريد، ٣: ١٠٨ والشعر لمالك ابن زيد مناة وسعد هو أخوه وقد ورد شرح هذا البيت في بحثنا عن الجمل.

(٥٧) Dickson, pp. 515 - 25.

(٥٨) Victor Müller, **En Syrie avec les bédouines: Les tribus du désert** (Paris, 1931), pp. 92 - 93.

(٥٩) Henry Field, **An Anthropological Reconnaissance in the Near East, 1950** (Cambridge, Mass., 1956), pp. 49 - 50.

(٦٠) **The Nearer East,** p. 255 n.

(٦١) عشائر العراق لعبّاس العَزّاوي، ٤ أجزاء، بغداد ١٩٣٧ - ١٩٥٦، ١: ٣١٢.

(٦٢) عشائر الشام، ٢: ١١٢ - ١٢٤؛ والريف السوري، ١: ٣٢٢ - ٣٢٦.

(٦٣) الريف السوري، ١: ٣٢٤؛ وعشائر الشام، ٢: ١١٧.

(٦٤) عشائر الشام، ٢: ١١٤ وقد استند في هذا أيضاً إلى تأكيد مشعل باشا الفارس الجربا له وهو من شيوخ البدو المشهورين. ومع أن السيد وصفي أصاب في رفضه أن يكون الصلبة من أصل صليبي ص ١١٨ فقد أخطأ في محاولته لمعرفة أصلهم وفي زعمه انهم قد يكونون من أصل هندي ص ١٢٠ وتورّط في نقله بعض ما أورده قبله الأب أنستاس كرملي (دون أن يشير إلى أنه ينقل عنه) وذلك في قوله ص ١١٧ أنهم يطاردون الغزال «حتى إذا أعيا ووقف كالمتفكّر الغائب عن رشده أطلقوا النار وهجموا عليه، ويطاردونه تارة ركضاً وتارة على الحمار الأبيض فإذا قربوا منه كلموا حمارهم همساً فيفهم الاشارة ويبرك كالبعير ثم يطلقون النار من وراء الزاملة متخذينها بمنزلة الفترة فيصطادونه».

(٦٥) حمزه، ص ١٦٦ - ١٦٨. وانظر Musil, **Arabia Deserta,** p. 237

(٦٦) Doughty, I, 326.

(٦٧) المصدر نفسه، ١: ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٦٨) المصدر نفسه، والصفحتان نفساهما ويذكر بلجريف أنه شاهد قوماً من آل مرة في وسط الدهناء ولم ير مخلوقات أكثر توحّشاً في هيئتهم من أولئك القوم. شعورهم متعثكلة وثيابهم خرق ومنظرهم هو الوحشية متجسدة ولكنهم من ناحية ثانية فصحاء في الكلام. وقال عنهم أنهم أكثر البدو انتشاراً في الجزيرة ٢٠: ١٣٣
Donald Powell Cole, **Nomads of the Nomads** (Arlington Heights, Illinois, 1975).

(٦٩) Doughty, I, 326.

(٧٠) Musil, **Arabia Deserta,** pp. 181, 228.

(٧١) المصدر نفسه. ص ٢٢٩.

(٧٢) Guarmani, Appendix XIV.

(٧٣) Musil, **Arabia Deserta,** p. 270 and **In the Arabian Desert,** pp. 187 - 88.

(٧٤) يزعم موزل أن بعض الحمر الوحشية كانت ترى في وادي سرحان حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر: Musil, **Arabia Deserta,** pp. 269 - 70.

(٧٥) Wright, pp. 48 - 49.

(٧٦) انظر: Doughty, I, 325

(٧٧) المصدر نفسه، ١: ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٧٨) Musil, **Manners and Customs,** p. 26.

(٧٩) Musil, **Arabia Deserta,** P. 255.

(٨٠) Doughty, II, 255 - 56.

(٨١) الشعر عند البدو، ص ٣٧٣. في الأصل يقوم بدل يقول في مطلع القصيد ولعلّه خطأ مطبعي.

(٨٢) Guarmani, p. 37.

(٨٣) انظر عشائر الشام، ٢: ١٢٢ ـ ١٢٤ ففيه وصف مسهب لحفلة رقص نقلها عن كتاب الكابتن رينو الفرنسي إثر زيارة له لصليب في حدود سنة ١٩٢١ وكتابه الريف السوري، ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٦ حيث يعيد ما ذكره في عشائر الشام بشكل وجيز.

(٨٤) عشائر العراق، ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

(٨٥) قال الشاعر البدوي:

لَوْ جنْ بَنـاتِ صْليبْ فوق الشّهارَهْ ومْعَورجنْ بخْلُودِهِـن نَقْشِ الوبار
أريدِ اليّ مصـونْ عَينـي خيارهْ الصاحـبِ اليّ فرّ عَقْلي مَعَـهْ وَطَار

يقصد: لو أتت البنات الصلبيات فوق أتنهن الأصيلة وقد وشمت خدودهن بالابر خطوطاً، فانني أختار تلك التي هي أمام عيني دائماً المحبوبة التي من أجلها فرّ عقلي معها وطار.

(٨٦) انظر Doughty, I, 324 لعلّ هذا يعود إلى أن الصلبة يأكلون الصيد دون أن يذبحوه بعد صيده ويُبسملوا عليه كما يفعل المسلمون.

(٨٧) يذكر بيير («Sulaib», p. 512) عن الأب انستاس أن اسم الصلبة ورد في الكتب القديمة وهو «الزعانيف» ولكنه لم يشر إلى مصدر ما ذكرهم بهذا الاسم. والواقع أن كلمة الزعانيف معناها أطراف الثوب المنخرق يشبه به ارذال الناس ثم صار من معانيها القبيلة تشذ وتنفرد أو تَنْضَمّ إلى غيرها أو كل جماعة ليس أصلهم واحداً ومنه قول الشاعر:

عَرَفْنـا جَعْفَـراً وَبَنـي عُبَيْدٍ وأنْكَرْنـا زَعـانِفَ آخَرِينَا

وفي حديث عمرو ابن ميمون «اياكم وهذه الزعانيف» ولعل الأب أنستاس وجد أن هذه الكلمة في المعاجم تنطبق على الصلبة فزعم أن اسمهم ورد بهذا الشكل في الكتب القديمة لأنه لم يشر إلى مصدر ما.

(٨٨) Doughty, I, 323. وذكر موزل (Arabia Deserta, p. 233) مرة عنهم وهو لا يعتمد على أقوالهم كثيراً أن منهم من يزعم أن أهلهم كانوا يحلّون قديماً منطقة الاحساء.

(٨٩) Palgrave, I, 150.

(٩٠) Musil, **Arabia Deserta**, P. 74.

(٩١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٩٢) الفهرست، ١: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٩٣) معجم البلدان لياقوت الحموي، ٥ أجزاء، بيروت ١٣٧٤ ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧، ٣: ٤٧ ـ ٤٨. وانظر رسوم دار الخلافة لهلال الصابي، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤، ص ١٩ ـ ٢٠؛ وخمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري، تحقيق وترجمة يوسف شخت (Joseph Schacht) وماكس مايرهوف (Max Meyerhof)، القاهرة ١٩٣٧، ص ١٦ ـ ١٧. وكان ابن بطلان طبيباً نصرانياً لازم ابن زهرون الحرّاني الطبيب وانتفع به، ص ٢٣.

(٩٤) من الخير أن نلاحظ هنا أن كل عشيرة تدفع خوّة لقبيلة تحميها وتكون القبيلة مسؤولة عن رد ما ينهب للعشيرة الصلبية.

(٩٥) حسْمي: (بالكسر ثم السكون) أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان؛ انظر، معجم البلدان، ٢: ٢٥٨.

(٩٦) كُثُول: أكوام.

(٩٧) كتاب الاعتبار، ص ١١ ـ ١٢.

(٩٨) **An Anthropological Reconnaissance in the Near East, 1950.**

(٩٩) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة، القاهرة ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(١٠٠) راجع: Musil, **Arabia Deserta**, p. 231 ؛ وحمزه، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(١٠١) Glubb, **Handbook**, p. 66.

(١٠٢) تصنع الصلبة وشماً خاصاً للإبل التي تخصّها تسمّيه مظبأ وهو بشكل ﻡ وتسم حمرها بأشكال مختلفة أما الغنم فلا تسمها.

الفصل التاسع العشر

تاريخ البدو
في شمالي الجزيرة العربية

في العصور القديمة

يصعب جداً التثبت من تاريخ العرب البداة في الأزمنة السحيقة السابقة لعصر التدوين. وليس من شك في أن العرب أول ما عرفوا بهذا الاسم كشعب متميز عن غيره كانوا يعيشون عيشة البدو، يتنقلون من موضع إلى موضع في البوادي المختلفة في الجزيرة العربية وراء ما يحتاجونه من صيد أو غيره يعيشون عليه. ويقال إن كلمة «عربة» السامية القديمة، وكلمة عرب، إنما كانت تعني البادية أو القفر. وحين أخذ البدوي العربي يعنى بتربية الحيوانات كالإبل والغنم وغيرها، أخذ تنقّله في البادية يتقيد إلى حدّ بما يكفل حياة هذه الحيوانات الداجنة من ماء وكلأ. أما الجزيرة العربية التي تحمل اسم العرب اليوم فمن أغنى بقاع العالم في البوادي. وربما لم تكنْ كذلك في العصور التي سبقت ما نعرف من تاريخ. ومهما يكن من أمر فإن البادية الشمالية المعروفة اليوم بالبادية الشامية أو السورية هي الآن أغنى بوادي الجزيرة وأخصبها، ومن هنا كانت هذه البادية، ولا تزال، هي والقرى التي كانت على ضفافها هدف الأقوام أو القبائل النازحة من قلب الجزيرة وأطرافها، وذلك حين كانت تلك البقاع تضيق بأهلها، أو حين كانت تجدب أراضيها وتقفر بواديها ويضطر بعض أبنائها إلى النزوح، ولم يكن أمامهم من منفذ سوى المسير نحو الهلال الخصيب.

وقد أحيطت شبه الجزيرة بالبحار إلاّ في الشمال حيث كانت الأرض أحفل بأسباب الحياة، فكانت قبائل النازحين تسير إلى منطقة الهلال الخصيب - إلى البادية الشامية أو تندفع عبر سيناء إلى ما وراء الهلال الخصيب، وتحل في شمالي أفريقية قريبة

من ضفاف النيل المخصبة. ومن الممتع أن نلاحظ هنا أن بعض هذه المناطق الجنوبية لم تزل عرضة لمثل هذا الجدب أو القحط حتى اليوم. فقد واجهت وكالات الأمم المتحدة في السنين الأخيرة مثل هذه الظاهرة من القحط، كما جاء في نشرة الهيئة الصحية العالمية التي يصدرها المكتب الاقليمي لشرق البحر الأبيض المتوسط، حيث اضطرت بعض هذه الوكالات إلى إرسال مؤونة طارئة إلى بدو اليمن بعد أن تعرضت منطقة لهم تبلغ مساحتها نحو سبعين ألف ميل مربع ـ أي ما يزيد عن مساحة كل لبنان اثني عشر ضعفاً ـ على طول الأطراف الجنوبية لصحراء الربع الخالي، لقحط متواصل طيلة ثلاثة أعوام متتالية لم يسقط فيها مطر، وكادت تقع كارثة بنحو أربعين ألف بدوي[١].

وقد اتفق المؤرخون على أن هذا النزوح كان يقع في فترات متباعدة، وأن موجات هذه الهجرة تعددت منذ أقدم الأزمان. وكان من هذه الموجات واحدة حملت الأموريين ومنهم الكنعانيون إلى الهلال الخصيب حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وليس غريباً أن تكون بعض القبائل البدوية العربية قد نزحت في ذلك الزمن البعيد أو بعده ببضعة قرون، وحلّت في أرجاء البادية الشامية مما يلي الشام ونجد والعراق. وكان منها الملوك الرعاة الذين نفذوا إلى مصر وافريقيا الشمالية ونقلوا معهم الخيل إليها[٢].

وإذا صح أن العرب ينتسبون إلى اسماعيل ابن هاجر[٣]، أو أنهم هم القوم الذين عرفوا بالاسماعيليين أو ببني قيدار ابنه، فإن من أسبق الإشارات اليهم ما ورد في الكتاب المقدس في قصة يوسف ابن يعقوب حين باعه إخوته إلى قافلة من الاسماعيليين مقبلة من جلعاد تحمل جمالها كثيراء وبلساناً، وهي في مسيرها إلى مصر[٤]. ثم نسمع بعدها بموسى وزواجه من فتاة اسماعيلية (مدينية) في سيناء بعد خروجه أول مرة من مصر[٥]. وهذا يشير إلى أن القبائل العربية عرفت في هذه المناطق الشمالية حوالي الألف الثاني قبل الميلاد.

ويشير الكتاب المقدس أيضاً بشكل واضح إلى وجود العرب البداة في البادية الشامية في عهد الملك داود وابنه سليمان، أي قبل الألف الأول قبل الميلاد[٦]. وقد ذكر سليمان قبيلة قيدار وخيامها السود في نشيد الانشاد حين قال بلسان فتاته: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار كشقق سليمان»[٧]. وبعد هذه الحقبة بقليل يذكر الكتاب المقدس أيضاً أن يهوشافاط ملك يهوذا (٨٧٢ ـ ٨٤٩ ق. م.) قدّمت له القبائل العربية ضرائب من الغنم والمعز ـ «من الكباش سبعة الآف وسبع مئة ومن التيوس سبعة آلاف وسبع مئة ـ»[٨] كذلك نرى في سفر أشعيا قوله: «ولا يخيم هنالك اعرابي ولا يربض هناك رعاة»[٩] . وفي نبوءة أرميا قوله: «جلست لهم كأعرابي في البرية»[١٠] ما

يشير إلى وجود البدو في بادية الشام وإلى الغزو وقطع الطريق. بل هنالك نص صريح في الكتاب أن العرب شاركوا الكوشيين والفلسطينيين في الهجوم على القدس وسبي أموالها وسلب ملكها يهورام[١١]، وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد.

أما أسبق الإشارات الثابتة إلى العرب البداة بعد أخبار الكتاب المقدس فقد وردت في نقش للملك الأشوري شلمناصر الثالث الذي قاد في السنة السادسة لملكه حملة على ملك دمشق الأرامي وحليفيه آخاب ملك إسرائيل وجندب أحد مشايخ العرب، فاصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٣ ق. م.، وقد جاء في ذلك النقش ما يلي:

«قرقر عاصمة المملكة أنا خربتها، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة، ١٢٠٠ فارس، ٢٠٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب ارام (دمشق) ١٠٠٠٠ جمل لجندب العربي هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمعونتة برزوا إلى المعركة والقتال. تألبوا علي . . .»[١٢].

وظهر بعد شلمناصر بنحو قرن ونصف سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م.) فاتح كركميش والسامرة، فأشار إلى أنه في السنة السابعة لملكه أخضع أقواماً من جملتهم قبائل ثمود وأباديد الذين يسكنون البادية ولا يقرون كبيراً أو صغيراً من الحكام، فنكل بهم تنكيلاً ونفى بقاياهم إلى السامرة[١٣].

وبعد زمن سرجون بنحو قرن خرج أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق. م.) في حملة على القبائل العربية وطاردها في «رمضاء البادية وقيظها حيث لا ترى طيور السماء، وحيث لا يُرَىٰ العير (حمار الوحش المعروف بالفرا) ولا يزال الغزال»[١٤].

وفي سجلات الاشوريين إشارات كثيرة غير هذه إلى زعماء البدو، منها واحدة تذكر أنهم يقبّلون أقدام ملوك نينوى، ويرفعون لهم الهدايا، ويهدونهم الجمال والحمير. وهناك أخبار عن تسع حملات جرّدها سرجون الثاني وسنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهر بسبب مضايقتهم للمتلكات الآشورية في نواحي الشام، واعتراضهم طرق القوافل التجارية[١٥].

في عصور الجاهلية

حتى إذا وصلنا إلى دولتي الفرس والروم، وإلى النزاع بينهما، نرى في الأخبار عن القبائل البدوية المنتشرة في أكثر بقاع الجزيرة العربية حتى منطقة مناظر الروم بأرض الشام

ما ذكره الطبري في تاريخه عن سابور ذي الاكتاف حين حاول الدفاع عن حدود مملكته من غزوات البدو، فقال: «فسيّر (أي سابور) الجيوش اليهم، وورد هجر، وبها أعراب تميم وبكر، فأفشى فيهم القتل، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلاّ من هرب منهم فلحق بالرمال، ثم أتى اليمامة، فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمرّ بماء من مياه العرب إلاّ عوّره، ولا جب من جبابهم إلا طمّه، ثم أتى قرب المدينة فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر، ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام فقتل من وجد بها من العرب وسبى وطمّ مياههم»[١٦].

وهذا كله يشير بوضوح إلى وجود قبائل بدوية عربية في البادية السورية في تلك العهود قبل الميلاد وبعد الميلاد قبل الإسلام. وليس من شك في أنه لم ينقطع سيل الغزاة والنازحين طيلة الحقب التي تلت حتى أواخر القرن التاسع عشر[١٧].

وكانت هذه القبائل النازحة من الجزيرة تضغط أولاً على القبائل التي سبقتها ببعض العهود وحلت قبلها في بوادي الهلال الخصيب وأراضيه. فإما أن تتغلب عليها وتخضعها فتصبح تابعة لها، أو تطردها عبر سيناء، أو تعيدها إلى مواطنها الأصلية، أو تحرجها فتلجئُها إلى أراضي العمران. ويعدها إلى اقتناء الغنم بدل الإبل بحيث تصبح من القبائل شبه المتحضرة. تشارك أهل القرى بتربية الأغنام في البراري والسهول القريبة من القرى، ولا تبتعد كثيراً في البادية، وينتهي أمر بعضها أخيراً إلى الاستقرار والتحضر تدريجياً في القرى والمزارع التي على ضفاف البادية، أو تندحر القبيلة الطارئة هي نفسها وتخضع للقبيلة التي كانت قد سبقتها، وتصبح من أحلافها، أو ترتد خائبة إلى نجد أو الجنوب وترقب فرصة أخرى للرجوع.

ومن هنا كان تاريخ البدو في تلك الأزمنة المتطاولة منذ العصور الجاهلية نزاعاً مستمراً، إما فيما بينهم أنفسهم كما نرى في أخبارهم مثلاً في حرب البسوس بين تغلب وبكر، وحرب داحس والغبراء للتنافس على الزعامة، أو لاختلافهم على مواقع المياه من آبار وغدران كيوم الفيفاء ويوم أقرن، ويوم الغبيط، أو فيما بين قبيلة كبرى وأخرى بعيدة النسب عنها كما نرى في يوم حليمة بين الغساسنة والمناذرة. وقد أورد المؤرخون أخبار هذه النزاعات وسموها أيام العرب، ونقل بعضها ابن عبد ربه في عقده في نحو مئة وثلاثين صفحة من كتابه[١٨].

وكان يقع النزاع أحياناً بين البدو والحضر قريباً من الأراضي المعمورة أو فيها نفسها، لأن الحضريين من أهل القرى المحيطة بالبادية لا يمكنهم النفوذ إلى البادية. وقد

ذكر أبو عبيدة «أن العرب كانوا لا يخافون أن يغزوا في القيظ ولا يسافر فيه أحد، ولا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحارى لبعد مسافتها وليس بها ماء ولشدة حرّها»[١٩]. وكان من الطبيعي أن يقع النزاع إثر غزوات العرب على المناطق المعمورة، حيث تتعرض في أغلب الحالات إلى النهب والسلب، وتستباح أحياناً بعض القرى والمزارع، وتنفذ القبائل الطارئة إليها وليس من رادع أو وازع. وكان ذلك يتم حين تكون الدولة ضعيفة أو تكون في نزاع مع عدو خارجي.

وهكذا إذا استعرضنا تاريخ العرب منذ عصور الجاهلية بل منذ الميلاد حتى القرن العشرين، نجد أنه حين كانت تضعف سلطة الدولة في مناطق الهلال الخصيب، يبرز تمرّد البداة واعتداؤهم على حدود العمران، وتهديدهم للحضر الساكنين في القرى المحيطة بالبادية، وسلبهم ماشيتها، واستباحتهم أمنها، وإتلافهم مزارعها والقضاء على عمرانها. وقد زعم بيك باشا أنه لولا وجود سلطة قوية في سوريا والأردن بعد انتهاء الحرب الكبرى الأولى لكانتا وقعتا تحت حكم القبائل والفقر[٢٠]. وهو ما أشار إليه ابن خلدون قديماً حين قال عن العرب وهو يقصد الأعراب (أي البدو):

«ذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعبث، ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرّون إلى منتجعهم بالقفر»... ثم قال: «والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، صار لهم خلقاً وجبلّة، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلاً إنما حاجتهم اليه لنصبه أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. هذا في حالهم على العموم. وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم.... فاليمن قرارهم خراب إلّا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك، قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وافريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المئة الخامسة»[٢١]. قلت يقصد بالأعراب - أهل البوادي -، فكلمة العرب كانت تستعمل كما لا تزال تستعمل في بعض البيئات القروية في سوريا بمعنى البدو حين يقولون ذهبنا إلى بيوت العرب، ويقصدون بها بيوت البدو. وفي المقدمة نفسها، وفي التاريخ الذي كتبه، ما يؤيد هذا، حيث قال في باب

اختلاف احوال العمران: «ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار»[٢٢] وقال: «لا مثل العرب أهل القفر والصحراء»[٢٣] وهو يقصد مثل البدو أو الأعراب. ولم يتفرد ابن خلدون بهذا الاستعمال بل كان هذا هو المألوف قبله عند بعض المؤرخين كما نرى مثلاً في تاريخ الطبري نفسه حيث يقول عن مشهد في البادية: «إلى ماءٍ من مياه العرب»[٢٤] ويقول في موضع آخر: «شيخ من أشياخ العرب»[٢٥]. وظل الاستعمال مألوفاً عند المؤلفين، فقال أسامة ابن منقذ في مذكراته: «ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب»[٢٦]. وقال: «وذلك أنه لما إرتدت العرب»[٢٧] وقال: «فلما أصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم»[٢٨] وهو يقصد البدو في كل هذه المواضع. ومثله في العصور المتأخرة ما نراه في تاريخ الأمير فخر الدين المعني[٢٩] وتاريخ لبنان للأمير حيدر الشهابي في عشرات المواضع[٣٠] وما ذكرته في مدخل لهذا الكتاب عما كنا نفهمه من كلمة «عرب» في قريتنا وفي كل القرى التي تقع في مشارف البادية.

ولا تخلو كتب التاريخ من أخبار الوقائع التي كانت تقع بين السلطة الحاكمة في أقطار الهلال الخصيب وبين القبائل البدوية التي كانت تتنقل في البوادي والأراضي المجاورة لها، بل كانت كل من دولتي فارس والروم تحالف بعض القبائل على حدودها. وتعتمد عليها لحمايتها من القبائل الأخرى، وتكون لها في الوقت نفسه عيناً على تحركات جيوش الدولة الأخرى، وقد جعلتا من هذه القبائل شبه دويلات صغيرة كان لبعضها دور كبير في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب، كالضجاعمة وتنوخ[٣١]، وكالغساسنة في بر الشام، وكالمناذرة اللخميين على حدود فارس حين كانت تحتل أكثر بلاد الرافدين، وكالدولة التدمرية قبل الغساسنة على حدود الروم في سوريا وكانت تساندها وتحالفها قبائل بدوية كما ورد في الأخبار وكما تشهد بعض التماثيل المتخلفة عن ذلك العصر.

في العهود الإسلامية الأولى حتى العصر العباسي

وهكذا فإنه حين بدأت الفتوحات الإسلامية كانت هناك على حدود دولتي الفرس والروم عدا الغساسنة والمناذرة قبائل بدوية كثيرة يمنية وقيسية، وظل لهذه القبائل أثر ومكانة أيام الأمويين، لأن الكثيرين من رجال البدو اشتركوا في الفتوحات الأولى التي يسرت لهم ما يلائم طبيعتهم من حب الكسب والنهب ـ حتى في خارج الجزيرة العربية. وكان ذوو السلطان يعتمدون إلى حد كبير على الفرسان من رجال البادية من أبناء القبائل الموالية، ويقربون زعماءهم وشيوخهم. وقد روى الواقدي أن الخليفة أبا بكر استنفر القبائل العربية في كل أرجاء الجزيرة التي تم احتلالها فوفد إليه جيوش من اليمن

للاشتراك في المغازي، منها قبيلة طي وقبيلة مذحج والازد وبنوقيس وبنو كنانة، ومعهم نساؤهم وأولادهم وأموالهم[٣٢]. بل كان بعض خلفاء بني أمية يرسلون أبناءهم إلى البادية ليخالطوا البدو ويعيشوا الحياة البدوية، ويألفوا خشونة العيش، ويأخذوا اللغة العربية عن الأعراب، ويتعلموا الفروسية والرمي. ومنهم من بنى القصور على ضفاف البادية لقضاء فصلي الربيع والصيف، وللصيد من حيوانها وطيرها.

وليس هنا مجال التفصيل في تاريخ هذه القبائل البدوية وحلولها في بادية الشام ونزاعها هي وغيرها قبل الإسلام أو حتى في القرون التي تلت الفتح العربي، ولكن لا بدّ من الاشارة هنا إلى أن بعضها حين تمت الفتوحات، بل حتى زمن الفتوحات، لم تنقطع عن محاربة القبائل الأخرى منذ عهد الأمويين، وكان أثر هذا النزاع ظاهراً بين قيس واليمن، وانتقل إلى الحواضر والمناطق التي استقرت فيها هذه القبائل فيما بعد، كما نرى في أخبار ذلك العصر، وفي شعر شعراء العصر الأموي ككعب ابن جعيل والأخطل والراعي وغيرهم[٣٣]، وكما نرى في أخبار العصور الإسلامية الأخرى.

ولما أديل من سلطان بني أمية إلى بني العباس، وتحول مركز الخلافة إلى بغداد وانتقلت السلطة الفعلية مع الزمن إلى عناصر غير عربية، انقطعت أواصر هذه الصلة بين السلطة والبدو، وقلّ الاعتماد على العرب وعلى رجال البادية، فلجأ البدو إلى الغزو والنهب والسلب وتهديد طرق الحج والمواصلات بعيداً عن مركز السلطة في بغداد. ومن يتصفح تاريخ الطبري يلاحظ أن بعض الأعراب بعد عهد المعتصم أخذوا يعيثون فساداً على طرق الحج. ويحدثنا أنه في سنة ٢٣٠ هـ. بلغ الواثق أن الأعراب من بني سليم عاثت بالمدينة وما حولها، فوجه اليهم الواثق حملة لتأديبهم، فتغلب الأعراب على جيشه وعلى من كان معهم من أهل المدينة من قريش والأنصار ومواليهم، وحازت بنو سُلَيْم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرها فاستباحت القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة فاضطر الخليفة الواثق إلى أن يوجه أحد قواده بغا الكبير مع جيش عظيم لتأديبهم[٣٤]. ويذكر لنا كيف أوقع بهم فقتل البعض وانهزم آخرون وأسر الكثير وحبس منهم عدداً في المدينة رهائن[٣٥]. وفعل مثل ذلك في سنة ٢٣١ هـ. حين وجّه إلى القبائل رسله فاجتمع إليه منهم فيما قيل نحو من ثلاثة آلاف رجل، فاحتبس منهم من أهل الفساد نحواً من ألف رجل وثلثمئة رجل وخلّى سائرهم[٣٦].

والظاهر أنه بعد عهد الواثق أخذ عبث البدو يزداد وخاصة حين بدأ يظهر الضعف في الدولة، وكان لقبيلة طي التي وفدت من اليمن أيام أبي بكر أثر كبير في الأخلال بالأمن على طرق الحج وفي سلب الناس.

وأخذت السلطة بدورها تتعقب الغزاة من البدو إلى البوادي حماية للأمن وحفظاً لهيبتها. وزاد الطين بلّة أن الدولة العباسية كانت تستعين بجند من غير العرب فانقطع عن العرب الذين كانوا يشاركون في الفتوح مورد رزق كبير، فعادوا إلى العبث والغزو والسلب. ولما بلغ الأمر إلى أن تقسمت الخلافة إلى دويلات وإمارات قويت شوكة البدو وأخذوا يتقاسمون مناطق النفوذ لا في بوادي الهلال الخصيب وحسب، بل في الأراضي القريبة من العمران مما يلي الشام ونجد والعراق وكانوا يتخاصمون في ما بينهم، ويقطعون طرق القوافل والحجيج[٣٧]. وهكذا أخذوا يسطون على الأراضي المعمورة ويستبيحون المزارع والقرى، فأخذت كثير من القرى تقفر من أهلها وأصبحت يباباً بلقعاً، كما تشهد آثارها في أطراف البادية شرقي الشام وحمص وحماه وحلب، واستمر العبث بالأمن وعمّ الخراب في هذه القرى حتى القرن التاسع عشر.

في دور تجزؤ الخلافة العباسية

ويحدثنا الطبري في تاريخه في أخبار سنة ٢٤٩ هـ. عن علي ابن الجهم ابن بدر أنه توجه من بغداد إلى الثغر. فلما كان بقرب حلب، لقيته خيل لكلب فقتلته وأخذ الأعراب ما كان معه[٣٨]، وفي أخبار سنة ٢٥٠ هـ. عن يحيى ابن عمر في ثورته على السلطة انه جمع حوله كثيراً من الأعراب، اجتمعت على نصرته وحاربت معه[٣٩]. وفي أخبار سنة ٢٥١ هـ. أن الأعراب أغارت على القرى وقطعت طريق القوافل، ويذكر كيف سارت السلطة لقمعهم وقتلت منهم ثلاثمئة رجل[٤٠]. وفي أخبار السنة نفسها أن الأعراب عاثوا فساداً فسيرت حملة عليهم وأسرت منهم ستة وثلاثين حملوا في ١٨ محملاً على ظهور الإبل[٤١]. وفي أخبار سنة ٢٨٥ هـ. أن الأعراب من طي كانت تقطع الحاج وقد ظفرت في تلك السنة بالقافلة وأخذت ما فيها من الأموال والتجارات، وزعم أن أولئك الأعراب أخذوا جماعة من النساء والحرائر والمماليك، وروى أن الذي أُخذ من الناس كان بقيمة ألفي ألف دينار[٤٢]. وفي أخبار سنة ٢٨٦ هـ . عن الأعراب من بني شيبان وكيف كانوا يغيرون على القرى ويقتلون من لحقوا من الناس ويستاقون المواشي فتصدت لهم السلطة وواقعهم رجالها فهزمهم الأعراب وقتلت الكثير منهم وغرق بعضهم في الفرات وتفرق الآخرون. ثم يعود فيخبرنا في حوادث السنة نفسها في خلافة المعتضد (زوج قطر الندى بنت خمارويه) أن الأعراب يعيثون فساداً ولا من يستطيع ردّهم[٤٣]. وفي أخبار سنة ٢٩٥ هـ. أن فيها كانت وقعة الحسين ابن موسى على أعراب طيء الذين كانوا حاربوا وصيف ابن صوارتكين، على غرة منهم فقتل من رجالهم فيما قيل سبعين، وأسر من فرسانهم جماعة[٤٤]. وفي السنة نفسها يذكر الغزي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ

حلب) أن «بني تميم عاثت في بلد حلب وأفسدوا فساداً عظيماً. . . وكان ابن حمدان بالرحبة فسار إلى بني تميم ولقي منهم جماعة بخناصرة وأوقع بهم وأسر بعضهم وانصرف»[٤٥]. ثم يذكر في أخبار سنة ٣٢٥ هـ. ورود بني كلاب من نجد وإغارتهم على المعرة فأسروا واليها وأكثر جنوده فخرج اليهم أبو العباس والي حلب وخلص منهم والي المعرة[٤٦]. وضعف شأن الولاة في الوقت نفسه بحيث روي أنه في سنة ٣٣١ هـ. وصل الروم إلى قرب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا خمسة عشر ألف نسمة[٤٧].

وهكذا ازداد عبث البدو عند تجزؤ الدولة العباسية إلى إمارات، وقوي نفوذ بعض القبائل وأخذت تستولي على مناطق من أراضي الدولة، وأسست دويلات صغيرة. وكان من أسبق هذه القبائل بنو حمدان وأمراؤها من تغلب، فأنشأت إمارة في الموصل سنة ٣١٧ هـ. (٩٢٩ م) ثم انتقلت إلى حلب في عهد سيف الدولة المشهور وشاعره المتنبي. فقام سيف الدولة بدوره يحمي دولته من البدو الذين لم يتحضروا ولم ينقطعوا عن العبث والنهب والسلب ويحاول في الوقت نفسه أن يصد الروم. وكان في عهده أن تجمعت بعض القبائل من أولاد كعب ابن ربيعة هي عامر ابن صعصعة وعقيل وقشير والعجلان وكلاب ونفذت إلى قلب الأرض المعمورة حتى سلمية بالقرب من حمص، فجرد سيف الدولة نفسه عليهم حملة قادها سنة ٣٤٤ هـ. متحدّراً من حلب إلى سلمية فغلبهم وأسر منهم وأخذ منهم نحو مئتي فرس ودروع من كان عليها. ودحر الباقين وتعقبهم إلى الفرقلس شرقاً ثم إلى الغنثر والجباه والغوير والجفار ونهبا حتى تدمر وبادية السماوة وأوقع بهم موقعة عظيمة وعند عودته وصف ما تمّ له فيها لشاعره المتنبي، فخلد المتنبي انتصار أميره على البدو العابثين بقصيدتين، منهما رائيته التي مطلعها:

طِوالُ قَناً تُطاعِنُها قِصارُ   وَقَطْرُك في ندًى ووغىً بِحارُ[٤٨]

ويشير في هذه القصيدة إلى أن قبيلة كلاب كانت شقت عصا الطاعة عليه كقبيلة كعب، وكلتاهما من ربيعة ابن عامر. فلما رأت ما حلّ بتلك وما نزل بها من الهوان خشيت إن بقيت على عصيانها أن يكون مصيرها كمصير تلك، فخضعت وأذعنت، وسارت معه للقتال، وفي ذلك يقول:

وكانَ بَنو كِلابٍ حيثُ كَعْبٌ   فخافوا أن يَصيروا حيثُ صاروا
تَلَقَّوا عِزَّ مولاهُم بذلٍ   وسَارَ إلى بني كَعْبٍ وساروا
فأَقْبَلَها المُروجَ مُسَوَّماتٍ   ضَوامِرَ لا هِزالٌ ولا شِيارُ[٤٩]
تُثِيرُ على سَلَمْيَةَ مُسْبَطِراً   تَناكَرُ تَحْتَهُ لولا الشِعارُ[٥٠]

ثم يصف فتكه بالأعراب، وانهزامهم أمامه في هذه المواضع التي ذكرنا، فيقول عن الماشية التي كانت مع الأعراب من إبل وغنم ومعز كيف كانت تبكي وراءهم وهم منهزمون معبرة عن جزعها بأصواتها المختلفة:

ويبكي خلفهم دَثْرُ بُكاهُ رُغاءٌ أو ثُواجٌ أَوْ يُعارُ
غطا بالعُنْثُرِ البيداءَ حتى تحيّرت المَتَالي والعشارُ[٥١]
ومرّوا بالجَباةِ[٥٢] يضمُّ فيها كِلا الجَيْشَيْنِ من نَقْعٍ إزارُ
وَقَد نَزَحَ الغُوَيْرُ[٥٣] فلا غُوَيْرٌ ونِهيا والبُوَيضَةُ والجِفارُ[٥٤]
وليسَ بِغَيرِ تَدْمُرَ مستغاثٌ وتَدْمُرُ كأسمِها لَهُمُ دَمارُ

وظهر بعد الدولة الحمدانية التي كانت دولة شيعية دام ملكها طيلة القرن العاشر للميلاد تقريباً أي من سنة ٩٢٩ ـ ١٠٠٢ م. (٣١٧ ـ ٤٠٦ هـ.) دولة عقيلية بدوية أخرى في الموصل من سنة ٩٩٧ ١٠٩٦ م. (٣٨٦ ـ ٤٨٩ هـ.) وهي مُضَرية انتزعها أخيراً كربوقا التركي ودمجها في الدولة السلجوقية. ثم عقب الدولة الحمدانية في حلب الدولة المرداسية في القرن الحادي عشر في حدود ١٠٢٣ ـ ١٠٨٠ م. (٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ.) وهي أيضاً مضرية وأمراؤها من بني كلاب ابن ربيعة الذين كانوا خضعوا لسيف الدولة وكان منها نصر ابن صالح ابن مرداس الذي ألحق بجيوش الامبراطور أرمانوس هزيمة كبرى في دفاعه عن منطقة حلب، وظهرت الدولة المزيدية في الحلة في العراق، ودام حكمها من أول القرن الحادي عشر تقريباً إلى منتصف القرن الثاني عشر، وأمراؤها من قبيلة بني أسد. وكان ظهور هذه الدويلات عاملاً في إضعاف سطوة القبائل البدوية الأخرى التي انتثرت في البادية بعيداً عن العمران. كذلك كان خروج الروم إلى بلاد الإسلام مرة أخرى واستيلاؤهم على مدينة حلب سنة ٣٥١ هـ[٥٥]. وعبثهم ببلاد الشام والجزيرة العربية سنة ٣٥٨ وسنة ٣٦١ هـ.)[٥٦] كل هذه حدّت من اقتراب القبائل إلى الأراضي المعمورة ودعت إلى احتوائهم في قلب البادية نحو نصف قرن. ولكنهم لم ينقطعوا عن التعرض للحجاج كما فعل بنو خفاجة سنة ٤٠٢ هـ.)[٥٧]

وحين استولت الدولة المرداسية على حلب سنة ٤١٤ هـ. (١٠٢٢ م.) كان أمر الدولة الفاطمية بمصر قد بدأ يضعف، وبدأ دور الانحطاط، فطمع عرب البادية بالشام والجزيرة كما يذكر الغزي بتاريخه عن حلب ويقول إن شيوخ الأعراب تحالفوا على اقتسام البادية فيما بينهم على أن تكون حلب إلى عانة لصالح ابن مرداس أمير بني كلاب والرملة إلى مصر لحسّان بن مفرح الطائي، ودمشق وأعمالها إلى سنان بن عليان أمير بني كلب[٥٨]. وازداد عبث الأعراب سنة ٤٤٦ هـ. أيام القائد البساسيري (ت

١٠٦٠ م.)، الذي انتزع بغداد للفاطميين، فأوقع بالعرب وبالأكراد في تلك السنة[٥٩]. وفي سنة ٤٥٧ هـ. وقعت حرب بين العرب وبين بني حمّاد[٦٠]. وفي سنة ٤٩٣ هـ. وصل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب ورعوا زرع المعرة وكفرطاب وحماة وشيزر والجسر وغير ذلك وخلت البلاد[٦١]. وفي سنة ٤٩٩ هـ. قوي نفوذهم في بادية العراق بحيث نهبوا البصرة[٦٢]. وفي سنة ٥٤٥ هـ. نهبوا الحجاج[٦٣]. ثم وقعت حرب بينهم وبين عساكر عبد المؤمن سنة ٥٤٨ هـ.[٦٤] وفي سنة ٥٥٨ هـ. تمّ إجلاء قبيلة بني أسد عن العراق[٦٥]. وهكذا يظهر أن عبث البدو دام إلى أن ظهرت الدولة الايوبية ١١٦٩ - ١٢٥٢ م. وأرسل صلاح الدين الجنود إلى اليمن سنة ٥٧٧ هـ.[٦٦] وعبر في السنة التالية الفرات واحتل ديار الجزيرة كلها[٦٧].

في عهد الصليبيين والتتر

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن وفوداً من جحافل الصليبيين كانت قد أخذت تفد إلى بلاد الإسلام قبل ظهور الدولة الايوبية بنحو خمس وسبعين سنة، وكانت بعض كتائبهم قد احتلت أنطاكية واستولت على جزء كبير من الشاطىء السوري، ونفذت إلى أواسط البلاد في الشمال في منطقة الرها، واستولت أيضاً على المعرة سنة ٤٩١ هـ. بحيث زعم بعض المؤرخين أنهم قتلوا من أهلها الذين لم يستسلموا نحو مئة ألف[٦٨]. واحتلت القدس في الجنوب ولكنها لم تنفذ كثيراً إلى ضفاف البادية حيث كان للقبائل البدوية شيء من السلطان. ولعل قربها من المدن السورية الكبرى، من حلب شمالاً حتى دمشق جنوباً، كان داعياً إلى انكفاء القبائل البدوية نحو بادية العراق وابتعادها إلى حين عن القرى والمدن المتاخمة للبادية في بلاد الشام. وظهرت قوتهم بين مكة والمدينة بحيث يورد ابن الجوزي في المنتظم في أخبار سنة ٥٤٥ هـ. أن العرب طمعت في الحاج فأخذتهم بين مكة والمدينة وسلبت منهم من الثياب والأموال والجمال ما لا يحصى وأخذت منهم من الدنانير ألوفاً كثيرة «فتحدث جماعة من التجار أن أُخذ من هذا عشرة آلاف ومن هذا عشرون الفاً ومن هذا ثلاثون ألفاً وأُخذ من خاتون أخت مسعود ما قيمته مئة ألف دينار. وتقطع الناس وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية فماتوا من الجوع والعطش والعري»[٦٩].

وفي أخبار سنة ٥٥٣ انه حج في تلك السنة، فلما دخل المدينة قيل له إن العرب قد قعدوا على الطريق يرصدون الحاج قال: «فحملنا الدليل على طريق خيبر فرأيت فيها من الجبال وغيرها العجائب»[٧٠]. ويظهر أن انشغال السلطة الحاكمة في تدبير شؤون البلاد الشامية والنزاع على الزعامة ومواجهة الحملات الصليبية. كل هذه دعت إلى أن يظل

لبعض القبائل الكبرى سطوة وسلطان على البادية بحيث اعترفت السلطة المدنية بزعامتهم وإمارتهم على عرب البادية. فكان يدعى بعض شيوخ القبائل بملك العرب أو أمير العرب، وكانت تعقد مع بعض الشيوخ اتفاقات لحفظ الأمن في البادية وحماية طريق الحج ومساعدة السلطة إذا لزم الأمر.

وقد دعت الحروب الصليبية إلى أن يلتفت المؤرخون العرب إليها أكثر من التفاتهم إلى شؤون البادية وعبث البدو وغزواتهم على ضفاف البادية وقراها، غير أن المؤرخ ابن الفرات يذكر لنا في ما نشر من تاريخه للحقبة الممتدة من ٥٦٣ ـ ٥٨٨ هـ. (١١٦٧ ـ ١١٩٢ م.) في الجزء الرابع ومن ٦٧٢ ـ ٧٩٩ هـ. (١٢٧٣ ـ ١٣٩٧ م.) في الأجزاء السابع والثامن والتاسع، التي يعرض فيها للحوادث حسب السنين بعض أخبار البدو في شمالي الجزيرة العربية، فيقول في باب حوادث سنة ٥٦٣ هـ: «إن الحاج العراقي وصلوا سالمين، فخرج عليهم بنو خفاجة في طريق الحلة وقطعوا قطعة من الحاج، وأخذوا أموالهم وقتلوا جماعة»[٧١].

ويذكر ابن الفرات في حوادث السنة نفسها: «إن بني هذيم من قبيلة كلب وقعت على الملك شهاب الدين مالك ابن علي العقيلي صاحب قلعة جعبر، وكان عبر الفرات إلى الشام يريد الصيد، فلما أصبحوا لقوه، وكان بينهم وبينه حرب شديدة خرجوا فيها وقبضوا عليه بعد أن قتل مقدمتهم، وقتلوا من أصحابه عدة رجال، وساروا به إلى الملك العادل نور الدين صاحب الشام فاعتقله»[٧٢] ويظهر أن الأمن أخذ يستتب على ضفاف البادية أيام صلاح الدين، وما كاد ينتهي دور ذلك البطل العظيم حتى تقسم أبناؤه السلطة، ولم يكن لأحد منهم مثل ما لأبيهم من القوة والدهاء فنشبت الفتن والاضطرابات، وتوالت بعدهم أسر أيوبية تولت الحكم في أجزاء مختلفة من بلاد العرب إلى أن قضى المغول بزعامة هولاكو على ما كان لهم من سلطان.

في عهد المماليك

وجاءت بعد دولة الأيوبيين دولة المماليك التي وضع أساس سلطتها أمرأة هي المشهورة بشجر الدر (أرملة الصالح الايوبي المتوفى سنة ١٢٤٩ م. حفيد أخي صلاح الدين). ودامت دولة المماليك، بفرعيها البحرية والبرجية ما يقرب من ثلاثة قرون (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م.) وكان أكثر المماليك من الترك والمغول. وقد زوجت شجر الدر بعد وفاة زوجها من قائد جيشها عز الدين أيبك الذي انصرف في أوائل سني ملكه إلى سحق الحزب الأيوبي في سوريا[٧٣]. وامتد نفوذه في بادية الأردن بحيث ترك نقشاً في منطقة

الأزرق من شرق الأردن على مدخل قلعة رومانية قديمة فيه اسمه وأنه ملك الصحراء[٧٤]. وكان هولاكو قد فتح بغداد سنة ١٢٥٨ م. كما هو مشهور، وسار إلى شمالي سوريا وفتح حلب وفتك بالكثيرين من سكانها، ثم دخل حماة وحَارِمْ، وسيّر أحد قواده لحصار دمشق، فتصدى لذلك الجيش عند عين جالوت أمير المماليك العظيم الملك الظاهر بيبرس الأول وقضى عليه، واحتل سوريا، وتمكن بمساعدة العربان في بعض الأحيان من قهر المغول[٧٥]. ولم يكتفِ المماليك بقهر المغول بل أنزلوا بالصليبيين الضربات الأخيرة[٧٦].

وفي سنة ٦٧٢ هـ. (١٢٧٤ م) يروي ابن الفرات خبر وصول عسكر التتر إلى الأنبار، وكان الملك الظاهر بيبرس قد رسم لأمير العربان عيسى ابن مهنا بالاغارة عليهم، فتوهموا أن السلطان نفسه دهمهم، فرحل أبغا ملك التتر بعسكره ناكصاً على عقبيه وانهزم على أسوإ الأحوال[٧٧]. وفي سنة ٦٧٣ هـ. (١٢٧٥ م.) يروي خبر خروج الملك الظاهر من دمشق إلى حماة، ويذكر أن صاحبها خرج في موكبه خدمة له، ثم سار السلطان وفي خدمته العساكر وجميع العربان[٧٨]. وفي سنة ٦٧٩ هـ. (١٢٨٠ م.) يروي خبر وصول الأمير عيسى بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية نجدة لصاحب دمشق الملك الكامل سنقر الاشقر لمواجهة العساكر المصرية[٧٩]، فانهزم سنقر وتفرق عنه أصحابه، ولم يبق معه سوى الأمير عيسى ابن مهنا ملازماً لخدمته، ومرّ به على بيوته ونزل به وبمن بقي معه في برية الرحبة وأقام بهم وبدوابهم مدة مقامهم عنده[٨٠]. وهنا يذكر ابن الفرات أن سنقر كاتب الملك أبغا ابن هولاكو يعده الانحياز إليه ويعرفه ما وقع بين العساكر الإسلامية من الاختلاف، وكتب بمثل ذلك الأمير عيسى بن مهنا[٨١]. فلما بلغ السلطان الملك المنصور صاحب مصر ما فعله الأمير عيسى بن مهنا من العصيان، ومسيره صحبة سنقر، فوّض الإمرة على آل فضل وآل علي لغيره، وعيّن للأمراء الجدد المناطق التي ينزلها كل واحد منهم[٨٢] وتشجع التتر وهاجموا حلب، فهرب الكثير من أهلها، وقتلوا من تأخر منهم، ونهبوا وسبوا وأحرقوا، ولم يرجعوا إلا حين أدركوا أن كلمة المسلمين اتفقت على دفعهم، وأن سنقر وابن مهنا اتفقا مع المصريين[٨٣].

ولم يطل الأمر كثيراً حتى عاود التتر هجومهم إلى أطراف بلاد حلب يقودهم منكودمر أخو أبغا ابن هولاكو فوصل نواحي حماه وأفسد فيها، وكان عسكر المسلمين بظاهر حمص، فرتب الملك المنصور جيشه لملاقاتهم، وكان هو في الميمنة وفي رأسها الأمير عيسى ابن مهنا وآل فضل وآل مري وعربان الشام ومن انضم إليهم، ويزعم راوي الخبر الذي نقل عنه ابن الفرات أن عدد التتر مئة ألف فارس وأكثر، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك وأقل، وكان الملتقى بين الرستن والعاصي

وقيل بوطأة حمص،وقد أسهب الراوي بوصف المعركة .والجدير بالذكر من ذلك هو أنه كان للأمير البدوي عيسى ابن مهنا وقومه دور كبير وأنهم قتلوا من التتر مقتلة عظيمة[٨٤].

ولما توفي الأمير عيسى ابن مهنا سنة ٦٨٣ هـ. (١٢٨٥ م.) فوّض صاحب مصر الملك المنصور إمرة العرب إلى ولده الأمير حسام الدين مهنا[٨٥]. وتوفي الملك المنصور سنة ٦٨٩ هـ. (١٢٩٠ م.) فتسلطن بعده ابنه الملك الاشرف وما لبث هذا حتى أساء إلى الأمير حسام الدين غدراً وقبض عليه وعلى إخوته وحوّل الإمارة لابن عمهم[٨٦]. وكان في آخر هذا القرن أن تمّ انسحاب الصليبيين عن سوريا وسواحلها وانتهت دولتهم فيها وعاد التتر إلى حلب[٨٧] فعاد البدو إلى العبث والنهب وأخذوا يتنافسون فيما بينهم، وفي سنة ٧٤٨ هـ. اقتتل سيف الدين ابن فضل أمير العرب مع أحمد فياض من الأمراء قرب سلمية، فانكسر سيف وجرى على المعرة وحماة وغيرها من العرب أصحاب سيف وأحمد فياض من النهب وقطع الطريق ما لا يوصف. وكانوا يغيرون على حماة والمعرة ففرّ الفلاحون ودرست القرى، ورعيت الزروع والكروم والمقاثي[٨٨].

وينقضي نحو قرن لا نرى عنه في ما بين يدينا من الأصول أخباراً هامة عن القبائل البدوية فلا يذكر الغزي في أخبار تلك الحقبة شيئاً ذا بال عن القبائل التي كانت تعيث فساداً قبل ذلك العهد في جهات حلب. ولم يُنْشر من تاريخ ابن الفرات المجلدات التي تعرض لتلك الحقبة فهو يبدأ بما نشر على أنه المجلد التاسع بأخبار سنة ٧٨٩ هـ. الموافقة لسنة ١٣٨٧ م. وفيه نرى أن إمارة العربان كما يقول كانت في تلك السنين للأمير نعير، وهو من آل مهنا وعربه آل فضل[٨٩]. وكان يوصف احياناً بملك عرب الشام[٩٠] . ولما عصى الأمير يلبغا الناصري على الملك الظاهر برقوق استعان عليه الملك الظاهر بالأمير نعير. ويسهب ابن الفرات بسرد الأخبار عن الأمير نعير، واختلافه مع يلبغا، وعن القتال الذي جرى بينهما في مناسبات كثيرة، وذلك في حوادث سنة ٧٩٢ هـ. (١٣٩٠م.) ويشير في أخبار تلك السنة نفسها إلى اتفاق جرى بين الأمير نعير وأمير آخر تركماني على محاربة نواب الشام، ويذكر خروج الأمير يلبغا لقتال نعير، والتقائه به وبعربه، وكسرهم وقتله لجماعة منهم ولهرب الباقين، ويقول انه فعل مثل ذلك بعرب آل علي ونهب كثيراً من جمالهم وخيلهم[٩١]. ويذكر في أخبار سنة ٧٩٥ هـ. (١٣٩٣ م.) اتفاق نعير ومنطاش التركماني على المسير معاً لغزو حماة، ومعهما عسكر كثير. «فخرج اليها نائب السلطنة بحماة ونائب السلطنة بطرابلس فكسر العرب النائبين ونهبوا حماة، فلما بلغ ذلك الأمير نائب حلب انبرى وركب بعساكره، وكبس مضارب عرب نعير، وأخَذَ ما قدر عليه من الأموال والدواب والخيل والجمال والرجال والنساء والأطفال، فلما بلغ العربان ما فعل نائب حلب في منازلهم، رجعوا مثل المجانين، فخرج عليهم الكمناء فقتلوا منهم

وأسروا»[٩٢]. ويذكر بعد ذلك خضوع نعير وقبيلته[٩٣]. ويشير إلى أن هذا الأمير البدوي التقى السلطان فيما بعد، وقدم خضوعه، ونزل إليه وباس الأرض له، وأخذه وتوجه إلى بيوته وأنزله بها وأضافه[٩٤]. فأرسل السلطان الظاهر بعد ذلك خلعةً للأمير نعير باستقراره في إمرة آل فضل على عادته[٩٥]. ولم يلبث أن اختلف مع التركمان فحاربوه وكسروه وقتلوا من أصحابه نحو ألف نفر، ومات له من الجمال عدد كبير من العطش قيل نحو ٣٠٠٠ جمل وذلك سنة ٧٩٧ هـ. (١٣٩٥ م.)[٩٦] غير أنه عاد بعد ست سنوات ونزل على حلب وضايقها وحصل لأهلها شدة عظيمة، فاستنجد أميرها بالتركمان فأنجدوه وكان القتال بين الفريقين شديداً واستطاع أهل حلب والتركمان أن يردوا العرب إلى البادية وتتبع التركمان آثار العرب فلم يظفروا بهم[٩٧].

ولم يدم الأمر طويلاً بعد هذا العهد الأخير حتى اكتسح سوريا الشمالية غزوَ جديد، فقد تحدرت من الشرق ثانية جحافل جديدة للمغول بقيادة تيمورلنك المشهور، وكان أحد أسلافه فيما يقال وزيراً لهولاكو حفيد جنكيزخان، «فقد سار على رأس أقوامه التتر، وشرع في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها أفغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان، واستولى سنة ١٣٩٣ م على بغداد، وفي مدة سنتين دوّخ أرض الرافدين». «وفي سنة ١٤٠١ م اكتسحت جيوشه سوريا الشمالية واستولت على حلب، واستباح المدينة ثلاثة أيام نهباً وأسراً وتقتيلاً، وبنى من رؤوس القتلى فيها تلالاً مستديرة محيط الواحدة منها نحو عشرين ذراعاً وارتفاعها نحو عشرة وقد جعلت الوجوه فيها بارزة يراها من يمر بها»[٩٨] ثم رحل عنها إلى جهة دمشق، فمر بحماة وحمص وبعلبك، وأخذها حتى بلغ دمشق فسقطت هي الأخرى بدورها سنة ٨٠٣ هـ. بعد أن دافعت قلعتها شهراً، وأقام في دمشق، وسبى الكثيرين من أهلها وأحرق عمارتها حتى سقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق. وأخيراً ترك دمشق مسرعاً إلى بغداد يثأر من أهلها لقتلهم بعض رجاله، فنكل بهم تنكيلاً، وفتك بخلق كثير، وبنى مئة وعشرين برجاً في أنحاء المدينة من رؤوس القتلى[٩٩]، ولكن مؤلف «شذرات الذهب» يزعم أنه بنى من رؤوس أهلها مئة وعشرين مئذنة[١٠٠].

وليس من شك في أن تيمورلنك أوجد الرعب في قلوب أهل البادية، فانكفأت القبائل البدوية إلى قلب البادية، وكان لحسن حظهم وحظ العرب جميعاً أن مات تيمورلنك بعد مدة قصيرة، وذلك سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤م) في أثناء زحفه شرقاً محاولاً فتح الصين، ولم يستطع ابنه بعده أن يخضع المماليك في مصر، وأخذت تنشب الفتن في البلاد[١٠١]. وتحوّل الصراع بعدها بين المماليك والترك والبدو.

وبلغت بعض القبائل من النفوذ بحيث أخذت تحاول كعادتها أن تهدد القرى التي على ضفاف البادية. وبلغ قسم منها بلدة الرملة في أواخر القرن الخامس عشر. وزعم أحد السيّاح وقد زار فلسطين سنة ١٤٨١م. أن البدو في تلك السنة غزوا بلدة الرملة وحرقوا جانباً منها. فسار أمير غزة لنجدتها وقبض على أحد عشر بدوياً، وقطع رؤوسهم وأرسلها إلى غزة، فحمل عليه البدو حملة شعواء وقتلوا من رجاله فيما زعم هذا السائح ثلاثة وعشرين ألفاً(١٠٢).

ويصعب معرفة أصول كثير من القبائل التي كانت أسماؤها تذكر في أخبار الحوادث التي كانت تقع ما بين قبيلة وأخرى، أو ما بين قبيلة ورجال السلطة، والظاهر بوجه عام أن رئاسة القبائل في بادية الشام في العهود السابقة للقرون الثلاثة الأخيرة كانت في بني طي التي انطوى تحت زعامتها قبائل أخرى، وكان شيخها يسمى بأمير عرب الشام في عهد الدولة الايوبية وعهد المماليك، وصارت الرئاسة في طي إلى أمير اسمه ربيعة. وانقسم بعدها آل ربيعة إلى ثلاث قبائل توزعت فيما بينها النفوذ والسلطة في البادية، وفي المناطق التي تليها في المعمورة من حوران والجولان حتى الفرات في شمالي البلاد، وأخذت بعض العشائر التي كانت تفد من نجد والحجاز تنضم إليها فتعددت القبائل وكثر التنازع فيما بينها.

ويجب ان نلاحظ هنا أن اسماء كثير من القبائل أخذت تتغيّر مع الزمن عند ظهور شيخ من أبنائها عرف بالفروسية والكرم، وكثرة الأبناء والمناصرين، فيسود عشيرته وتأخذ العشيرة بالانتساب إليه وتتخلى عن الانتساب إلى الأصل الكبير، ومن هنا ما يطالعنا من أسماء قبائل جديدة كالحديديين والوهب والبوخميس والبوسلامة والعبد الله والشعلان وغيرها في العصور الأخيرة، وما يواجه الباحث من صعوبة في التثبت من معرفة أصولها أو صلتها بالعشائر التي كانت تحل قبلها في هذه البوادي الشمالية. وبعض هذه القبائل هي من عنزة القبيلة الكبيرة المشهورة كما مرّ معنا.

في العهد العثماني

ويؤرخ ابن طولون محمد الصالح الدمشقي في كتابه «اعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى»، الحوادث التي وقعت بين النواب وكان للبدو علاقة بها. وقد لخصّ القسم الأول منها من كتاب لشمس الدين الزملكاني وليس فيه ما يهمنا وينتهي بسنة ٨٦٥ هـ. ويبدأ الذيل بعدها وهو من تأليفه فيذكر في أخبار سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م.) أنه في تلك الأيام شاع بدمشق بأن النائب كرتباي الأحمر أغار على طائفة (يقصد قبيلة) بِسْلِيب أحد اُمراء بني لام الذين آذوا الحج، وأنه أخذ منهم مالاً كثيراً،

وشاع أنه ذهب إلى بلاد بني صخر، وأنه يريد أن يبني هنالك قلعة(١٠٣) والغرض من بناء القلعة هو لحماية طريق الحج من غارات البدو. كذلك يذكر في أخبار سنة ٩٠٤ هـ أن نائب دمشق الجديد سافر إلى حوران وأغار على العرب من آل موسى، وأخـذ منهم إبلاً كثيرة قيل نحو ألفين(١٠٤)، وباع قسماً منها إلى أهل القبيبـات وطرح البـاقي على أهـل الشام(١٠٥). وسار إلى عرب بني هذيم ونهبهم وأخذ منهم غنماً كثيراً، وأتى بحريمهم إلى دمشق في أسوأ حال(١٠٦)، وفي السنة نفسها وصل الخبر من أمير الوفد (ويقصد الحج) إلى النائب بأنه إذا لم يُدركهم عجلاً أخذ العـرب الوفـد جميعهـم، وذلك لكثـرة العرب فخـرج النـائب اليهم بجميـع عسكـره(١٠٧). ثم نسمـــع في أخبـار سنــة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م). أن النائب قصروة سافر إلى عرب بني صخر بعسكر كثير، فقتل منهم نحو العشرين وقبض على آخرين، وكسب منهم دوابَّ كثيرة(١٠٨). وفي أخبار سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م.)، إن العرب غزت الوفد عند قريـة الصنمين(١٠٩) وأن حال النـاس وقف وقُــطعت الـطرق من كثـرة العـرب من قبيلتي المفـارجـة وبني لام خـارج دمشق وأطرافها(١١٠).

ويستمر هجوم العرب على أطراف دمشق ونهبها وتخريب القرى المحيطة بها برغم محاولة النواب لصدهم، وكـان النواب بـدورهم ينهبون العـرب إذا استطاعـوا وينهبون القـرى في الـوقت نفســه كـما نـرى في الأخبـار التي رواهـا ابن طـولـون معـاصر تلك الأحداث(١١١).

ويستمر ابن طولون في ذكر أخبار نواب المقاطعات والقبـائل وهـو يسرد أحـداث السنين في الربع الأول من القرن العاشر للهجرة، فيشير إلى مسير الحجاج وخوفهم من قطع الطريق، واستغاثتهم بالنواب، وخروج الجند والمستنفرين لنجدتهم، ووقوع بعض الاصطدامات ما بين عرب الجبل وعرب آل علي، وانكسار الجند أحياناً وانكسار العرب احياناً أخرى في مواضيع كثيرة من كتابه(١١٢) فيأتي على ذكر عرب آل فضل ابن نعير في أخبار سنة ٩١٦ هـ. ويقول إن نائب دمشق سافر إلى البلاد الشمالية لنجدة نائب حمص على عرب ابن نعير، فأخذهم مفاجأة وسلبهم جمالاً وغنماً كثيرة وقتل منهم ومن شيوخهم جماعات(١١٣). ويذكر في أخبـار سنتي ٩١٧ و ٩١٨ هـ. انتصار النـائب على عـرب آل علي، وعرب الجبل، وعرب آل سرحان، ونهبه لبني صخر ومقابلته للأميرين مسلم كبير قبيلة بني لام وعساف كبير آل مرّي وأنهما تعهدا بحفظ طريق الحج والحجاج(١١٤). ومع ذلك فالظاهر أن طريق الحج ظلّ مهدداً واستمـر عبث البدو في تلك السنـين بأطـراف الشام، فقطعوا طريق الحج ومرّوا بقـرى كثيرة أحـرقوا بيـادر غلاتهـا وقتلوا من جماعـة النائب عدة رجال(١١٥).

وهنا يبدأ ابن طولون بأخبار العهد العثماني ووفود النائب الجديد يونس باشا إلى دمشق سنة ٩٢٢ هـ[١١٦]. ثم جاء بعده في السنة نفسها نائب آخر قصد تسيير الوفد في ذلك العام فلم يتم له بسبب تمرد العربان[١١٧]. وكذلك لم يتم الحج الشامي في سنة ٩٢٣ هـ. خوفاً عليه من العرب ومن العطش[١١٨] واضطر النائب اخيراً سنة ٩٢٥ هـ. إلى أن يسافر إلى بلاد حوران قاصداً أمير العرب جغيمان وجماعته ليردهم عن التعرض للحج، فهربوا خوفاً منه إلى الجوف، وظفر النائب ببعض الجمال والغنم وعاد إلى دمشق، وقدامه محمل الحاج وقريب جغيمان الذي كان قد أخذ الحاج في العام السابق، ويدعى دويعر، راكباً على جمل وفي رقبته سلسلة من الحديد، وحوله جماعة من قومه في السلاسل أيضاً[١١٩]. وفي سنة ٩٢٧ هـ. (١٥٢١م.) سافر نائب دمشق إلى بلاد حوران للتصدي لعرب الأمير درباغ ابن مهنا ولما نازلهم رأى منهم شدّة، ثم اتفق معهم على تسيير الحج بتسليمه رهائن[١٢٠]. وفي سنة ٩٣١ هـ. (١٥٢٥ م) سافر النائب الجديد إلى المرج لقمع عرب آل علي فإنهم زادوا في تعديهم ووقع بينهم وبين أهل المرج مقتلة عظيمة[١٢١]. وفي سنة ٩٣٧ هـ. (١٥٣١ م) أُلزم نائب دمشق بدفع خمسة وسبعين ألف دينار للتجار الذين أُخذ متجرهم بدرب الحاج قبل ذلك العهد بسنتين، وذلك بعد ذهابهم إلى السلطان بشكايتهم على النائب. وينهي أخباره سنة ٩٤٢ هـ[١٢٢].

والظاهر من الأخبار التي تحفظها بعض كتب التاريخ عن الحقبة التالية أن نفوذ عرب البادية أخذ يزداد، وأن بعض قبائلهم أخذت تصل الى قلب المناطق المعمورة وأحياناً حتى شواطىء سوريا الجنوبية، وأخذت تعقد محالفات واتفاقات مع بعض الزعماء والولاة في المناطق المختلفة وخاصة لحفظ طريق الحاج بحيث كان يُعد من يتولى إمارة الحج قديراً إذا استطاع أن يتفق مع شيوخ البدو ويرضيهم كي لا يتعرضوا لموكب الحجاج. وقد ذكر الغزي ترجمته لحياة قانصوه الغزاوي أمير عجلون وأمير الحاج الشامي نحو خمس عشرة سنة أنه كان من يحج في زمانه يستريح في سفره وكانت العرب تطيعُهُ وتخافه فيحصل للحجاج الأمن والراحة، وكان من أصدقائه الأمير عساف أحد شيوخ العرب وقد توفي قانصوه سنة ألف فكأنَّ هذا يشير ـ على الأقل ـ الى أن طريق الحج كان في السنوات الأخيرة من القرن العاشر في أمن من هجمات البدو[١٢٣].

غير أننا نعود في ذيل الكواكب السائرة للمؤلف نفسه في حوادث سنة ١٠١٥ هـ. ما يشير الى عبث البدو وأثرهم في النزاعات التي كانت تقع بين مختلف الزعماء واشتراكهم في القتال والنهب[١٢٤]. وكيف عاد الولاة الى مداراتهم وكسب رضاهم[١٢٥]. وكذلك نرى في تاريخ لبنان في عهد الأمير فخرالدين المعني الثاني الذي يتناول أخبار الأمير ما بين

سنة ١٠٢١ وسنة ١٠٣٤ هـ. (١٦١٢ - ١٦٢٤ م.) تأليف الشيخ أحمد بن محمد الخالدي ما يشير الى وقائع كثيرة بينهم وبين السلطة ، وبين بعض القبائل والقبائل الأخرى ، وذلك في تلك الحقبة التي تزيد عن ثلاث عشرة سنة فقط . فنرى في أخبار سنة ١٠٢١ هـ. سيطرة لبعض القبائل على منطقة حوران مثلاً ، ونزاعاً بين عرب المفارجة وعرب السردية على المشيخة في تلك المنطقة ، وتدخل السلطة في دمشق وانحيازها الى فريق دون الآخر بحيث طردت المفارجة فلجأوا الى عند الأمير فياض الحياري ، ولم يلبثوا طويلاً حتى عادوا للجولان وبلاد حوران ، وجرت معارك بينهم وبين عرب السردية فاستعانوا بالأمير فخرالدين ، وجرت معارك أخرى بالمزيريب بأرض حوران سنة ١٠٢٢ هـ. مع عسكر الشام والعربان انتصر فيها المفارجة وحلفاؤهم ونصيرهم الأمير فخرالدين على العربان الآخرين والسلطة في الشام ، وأخذوا منهم مئة فرس « قلايع » (أي قتل أصحابها) ، وطبول أمير الحج وزموره وبيارقه وتوجهوا بعدها الى بلاد عجلون[١٢٦] .

ويذكر الخالدي بعدها أن المفارجة حاولوا أن يتابعوا حملتهم على السردية وشيخهم الشيخ رشيد ولكن بعض أتباعه لم يقبلوا معه ، غير أنهم علموا بنزول عرب ناصر الفحيلي في طرف اللجاه في أطراف حوران فباغتوهم وأخذوهم عن آخرهم ، « ولم يسلم لهم عقال ، وكان مقدار الكسب ألف ناقة من الجمال غير الخيل » واستمر شيخ المفارجة بمحالفته للأمير فخر الدين بحيث أخذ يستعين به لأخضاع العربان الأخيرين من ساير الأطراف[١٢٧] .

ويذكر في أخبار سنة ١٠٢٢ نفسها اصطداماً آخر بين عرب المفارجة حلفاء الأمير فخرالدين وعرب السردية قتل فيه ابن أخي شيخ السردية وأخذ منهم مقدار مئتي ذلول ، وقتل عشرة رؤوس خيل ، ثم يذكر معركة بين المفارجة وعرب الوحيدات في منطقة الكَرَك قتل فيها ثلاثة من شيوخ الوحيدات وبعض الخيول الجياد[١٢٨] . ومعركة ثالثة في السنة نفسها بين عرب الوحيدات وحلفائهم وبين جميع عربان البلقا والكرك ، تصوّب فيه من عرب الأمير حمدان والوحيدات ما بين خيل ورجال نحو ثمانين[١٢٩] . ويشير الى مسير ابن الأمير فخرالدين شرقاً هو وعرب الشيخ عمرو شيخ المفارجة الى منطقة الأمير فياض أمير آل حيار في تدمر ، ولما عرف انه لا يقبل بنزوله عنده توجه الى القريتين ، ونزل في أراضيها ، ويذكر بعد ذلك خبر واقعة كبرى بينهم وبين عسكر الشام ومعهم ناصر الفحيلي الذي كان الشيخ عمرو قد أخذ طرشه وطرش عربه ، يقول عنها الخالدي : يشيب منها الوليد ، استمرت من طلوع الشمس الى المغيب ، أظهر فيها

الشيخ عمرو من الشجاعة ما لم يأت بمثلها أحد حتى قُتِل تحته ثلاثة رؤوس خيل(١٣٠) . وهذا كله يشير الى قوة سلطان البدو في تلك الحقبة بحيث كان ابن الأمير فخرالدين لا يستطيع المسير في تلك البقاع دون الاستعانة ببعض شيوخهم الذين ظلوا يرافقونه حتى عودته الى حاصبيا(١٣١) .

حتى اذا أتى ذكر حوادث سنة ١٠٢٤ هـ. أشار الى ما يدل على أنه تم تحالف بين عمرو شيخ المفارجة وفياض الحياري واتفقوا مع شيخ من آل توقان واسمه الأمير سلطان ، فجاءوا الى بلاد حوران وتحاربوا مع الشيخ رشيد شيخ السردية ، وطردوه من البلاد ولم يتركوا أحداً من عرب البلقا وعرب الجبل حتى كسبوا منه واطاعتهم جميع العربان ، ثم جرى تنافس بين الأمير سلطان والأمير فياض ، فاضطر سلطان إلى أن يلجأ الى عرب السردية ، وبعدها جرّد الأمير فياض حملة من عربة من بلاد سلمية ، ومر من مدينة دمشق نفسها، وظل سائراً إلى حوران، وأطلق الغارة على الأمير سلطان وعربِهِ، وكَسِبَ من طرشهم ، وبعد كسبهم انكسروا وخلَّص منهم بعض الطرش ، وتوعّرت العرب السردية بعدها في طرف اللجاه ، واضطر الأمير سلطان الى أن يلتمس رضا فياض فتوجه هو وإياه شمالاً الى القريتين ، فأخذ الأمير فياض جميع بوش سلطان ، وطرده وراح سلطان الى عند الشيخ ناصر آل مهنا شيخ بلاد العراق ، وصار يغزو من هناك عربان بلاد فياض ومن الدروب حتى قيل إنه في إحدى المَرّات أخذ قافلة كانت قافلة من حلب بقرب قارة ، وكان معهم نقد وبضائع تساوي خمسين ألف غرش ، فلما أتعب سلطان خاطر الأمير فياض ، دعا الأمراء من إخوته عنده ، وهم الأمير نجم والأمير أبو فاضل وأولاد عمهما الأمير الأحمد والأمير حسن بن عرار وعمل لهم وليمة في سلمية ثم ألقى القبض عليهم ووضعهم في قلعة سلمية وقتلهم(١٣٢) . وحاول سلطان الانتقام لأقربائه فترك آل مهنا ونزل الى اللجاه ، وكبس عرب سُعَيدَه وقتل شيخهم ولكنّهم تكاثروا عليه وطرحوا فرسه من تحته، وحكموا عليه وعلى ابن عمه الأمير علي ابن عرار، وقتلوهما عوض شيخهم، وجاءوا برأسيهما إلى مدينة الشام سنة ١٠٢٤ هـ(١٣٣).

وتمر السنوات ١٠٢٥ ـ ١٠٢٧ هـ. فلا يذكر ما يستحق الذكر عن العربان حتى كانت سنة ١٠٢٨ فيذكر فيها أنّ الأمير فياض كان لا يزال قوياً وكان يجيء من بلاد الجزيرة ويقطع دروب حلب والشام(١٣٤) . ثم كانت سنة ١٠٣١ فنقرأ انه في خريف تلك السنة وفد الأمير حسين بن فياض الى عند الأمير فخرالدين لأنه كان مطروداً من الأمير مدلج ، فراعاه الأمير فخرالدين هو وجماعته من العرب ، ولم يلبث حتى غزا عرب السرديّة فكسب منهم نحو ٤٠٠ جمل ، ومرّ بطريقه على عرب عنزة(١٣٥) في وادي

زبيدة ، فطلعوا عليه واستخلصوا منه جمالاً كثيرة لأن الأرض وعرة ، وبقي معه كثير من الكسب ، فلما علم الأمير مدلج الحياري بِغَزوه حسين بن فياض ألزمه أن يرد جميع المكسب الذي جاء به ، لأن الأمير مدلج كان عقد صلحاً مع شيخ السرديّة ، فذهب الأمير حسين عند الأمير فخرالدين ، فأرسل الأمير مدلج كاتبه يحمل رسالة يطلب فيها أن يعدم الأمير حسين ، ويعده بتزويج بنته من ابنه الأمير علي ، فكان جواب الأمير فخر الدين أن هذه ليست عادتنا ، وما كان أملنا مِنْ الأمير مدلج ان يطلب منا هذا الأمر[١٣٦] . وكانت تلك السنة من أشأم السنين في البادية وبلاد الشام حتى مات من الجوع أكثر طرش العربان لعدم المرعى ، وماتت الخيل الجياد لغلاء الشعير[١٣٧] .

وسار الامير فخر الدين في السنة التالية ١٠٣٢ هـ لملاقاة موكب الحج الشريف ، ومعه أمراء العربان وشيوخهم ، ووصل بعضهم مع الموكب حتى تبوك فحموه ، وعاد هو وكثير من العربان الفرسان حلفائه على بلاد البلقاء وحمل على عرب الجحاوشة والدعجة وكبسهم ، وأخذ جميع طرشهم من جمال وغنم فكان أزيد من ١٥ ألف رأس[١٣٨] . ويظهر من أخبار هذه السنة ان الدولة كانت تدفع لشيخ عرب المفارجة صَراً لحماية طريق الحج[١٣٩] . وان عرب الشيخ حسين بن عمرو كانت تتموّن من جينين جميع ما يحتاجون اليه[١٤٠] وان الامير فخر الدين وعرب الشيخ حسين هاجموا عرب ابن طرباي وعرب السوالمه في منطقة نهر العوجا ، وكبسوا طرشهم وأثاثهم ، فارتد عليهم هؤلاء وكسروهم وقتلوا منهم بين ثلاثين وأربعين رجلاً ، واستخلصوا كل ما سلب منهم[١٤١] . ويظهر في أخبار تلك السنة ان بعض شيوخ العربان كانوا من المنعة والقوة بحيث استطاعوا ان ينفذوا حتى الى الساحل السوري في الجنوب بحيث ذُكر ان الامير علي بن طرباي جاء بجميع خيالة عربه وأغار على ساحل عكا ، وأخذ طرشه ، وعاد الى بلاده ماراً على حيفا ، فلاقاه نصوح بلوكباشي مع سكمانيته وبيرقه وحاربه وقصد بذلك أخذ الطرش منه واشخاصه فركضوا عليه وعلى جماعته بالخيل ، وجماعته مشاة ، فقتل نصوح المذكور وهرب جماعته ، ونزلوا في مركب الى عكا ،وصارت عرب الامير أحمد ابن طرباي ، تغير على بلاد كفركنّا وتأخذ طرشها وغلالها ، وصيّرتها دكاً واستمروا على ذلك زمناً[١٤٢] .

ويستمر الخالدي في اخبار سنة ١٠٣٣ هـ . فيذكر الاختلاف بين الأميرين مدلج وحسين من آل الحياري وذلك لأن الأمير فياض لما توفي ، كان الأمير حسين ابنه دون البلوغ ، فأخذ الامير مدلج ابن عمه المنصب ، وما أعطاه شيئاً يعتاض به ، فجاء الليل ليكبس بيت الامير مدلج ليقتله ولم ينجح ، فعاد وتوجه مع قسم من عرب آل حيار الى

بلاد حلب ، وأخذ يقوم بالغارات على عرب مدلج ، وأخذ يزداد قوة على ابن عمه بحيث اضطر هذا الى أن يستعين بالأمير فخر الدين ، فجاء لنجدنه وسار بجمع من خيالته شمالاً وبلغوا قرية مهين ، ونهبوا عرباً من آل بري هناك ، ثم مرّوا بالغنثر ومنها الى الفرقلس وهي المواضع نفسها التي غزا فيها سيف الدولة البدو أيام حكمه كما مرّ معنا في أول هذا الفصل ومنها توجه الى منازل الأمير مدلج ، وهناك استقبله مدلج وقدّم له فرساً شهباء، تسمى سعدى ليستجلب خاطِرَهُ . ولم يسعف فصل الشتاء أن يتوجها لغزو الأمير حسين ابن عم مدلج فتحالف الأمير فخر الدين والأمير مدلج وتعاهدا أن يكونا يداً واحدة وعاد الأمير فخر الدين الى بعلبك بعد أن أعطى مدلج ألفاً من الذهب(١٤٣) .

وفي السنة نفسها تصطدم قبائل من عرب الشام أولاد أبي قيس بالعسكر النظامي في المنطقة الجنوبية من سوريا، فتنكسر ثم ترتد على العسكر وتكسرهم وتأخذ خيلهم وسلاحهم . وفعلت مثل ذلك عرب الجبل حين سيّر عليها حاكم الشام حملة لكثرة أذاهم للقرايا بأطراف الشام، ففعلوا كما فعل أولاد ابي قيس، وأخلوا لهم حتى كسبوا ، ثم ارتدوا عليهم وهزموهم ، وكسروهم وقتلوا منهم كثيرين(١٤٤) . وفيها أيضاً تم القضاء على الأمير حسين بن فياض بحملة من حاكم حلب صديق الأمير مدلج ، إذ دعاه وغدر به ، وغزا عربهم وسلبهم ، فارتدوا عليه وكسروا جنده وقتلوا من خيله ٣٠٠ فرس، ولكنهم بفقدهم لأميرهم رحل القسم الأكبر منهم الى عند الشيخ ناصر ابن مهنا ببلاد العراق والتحق الباقي بمدلج نفسه(١٤٥) .

ونرى في أخبار السنة نفسها أحداثاً كثيرة ووقائع يظهر فيها التفوق للعرب الذين حذقوا فيها يظهر كيف ينكسرون ثم يرتدون ويفتكون بالجند النظامي الذين تشغلهم الغنائم التي كانوا كسبوها(١٤٦) ، ونسمع بعرب آل فضل والسوالمه وعرب عايد وعرب غزة وعرب أحمد ابن طرباي وأحمد ابن حمدان وغيرهم(١٤٧) .

وفي أواخر تلك السنة أطلق الأمير العربي أحمد ابن طرباي اخوته واولاده على بلاد الأمير فخر الدين ابن معن فأخذوا الطرش وأغاروا عليه وخربوا بلاده حتى ساحل عكا وكبسوا تركماناً نازلين على نهر المفشوخ وأخذوا جميع طرشهم. وتصدى لهم كيوان آغا سو- باشي عكا بجميع خيالته الى أرض هناك مع أهالي القرايا القريبة ونازلهم نحو ساعتين من الزمن فانكسر امام خيالتهم وانهزم قسم منهم ، وقسم قتل ، ومنهم من سلبوه ثيابه وسلاحه وكان عدد القتلى كما يذكر الخالدي نحو الثلاثين وبعد ذلك ظلت العرب متجهة في مسيرها جنوباً وأخذت ما كسبته أجمع - وانتهى الأمر بعد مدة أن صارت مكاتبات ومراجعات ومراسلات بين الأمير فخر الدين ابن معن وبين الأمير أحمد

ابن طرباي وحصل الاتفاق بينهما أن الأمير أحمد ابن طرباي يمنع عربانه عن التخريب في بلاد صفد وأن الأمير فخر الدين يرفع سكمانيته (المرتزقة) من برج حيفا. وأرسل الأمير أحمد ابن طرباي فهدم برج حيفا بعد خروج السكمانية ومشت الدروب بين بلاد حارثة وبلاد صفد وما عاد أحد يتعرض الى أحد(١٤٨). ولعله لو كان تاريخ الخالدي للأمير فخر الدين يتناول السنوات الاربعين والخمسين بعد ١٠٣٣ هـ لكنا وقفنا على أخبار كثيرة عن عبث البدو وسلبهم ونهبهم وتهديدهم لمعالم العمران في سوريا الجنوبية والشمالية .

ونعود الى تاريخ « نهر الذهب » فنراه يشير الى فساد العرب في سنة ١٠٨٥ هـ. في نواحي حلب بحيث قطعوا السابلة وكان أميرهم واسمه عسّاف ، وهو غير عساف السابق ، يأخذ راتباً معلوماً من الدولة ، ولما زاد طغيان عربه أراد والي حلب أن يعمل الحيلة في القبض عليه ، وكان يريد أن يعزله عن إمرة العرب ، فخطر له أن يرسل الى عساف رسولاً يدعوه الى ضيافة يصنعها له في حلب على بعد خمس ساعات منها تقريباً ، وسار الوالي واسمه ابراهيم باشا الى المحل الذي عيّنه بالمهمات والعساكر ومعه الهدايا ، وأشاع أن هذه الوليمة هي الى سلطان البر يعني الامير عساف . ولم يقبل عساف الدعوة الا بعد أن استوثق من الرسول على عدم الغدر ، وعاد الرسول وحذّر الوالي من الغدر بالامير عساف . ووفد عساف ومعه جمع غفير من العربان خوفاً من الغدر ، ولكن الوالي حاول الفتك به ، واطلق عليه الرصاص ولم يقتله فهرب وعاد الى أشد ما كان عليه من الافساد وقطع الطريق ، ولما سمعت الدولة بغدر ابراهيم باشا ، وعدم وفائه ، وسوء تدبيره ، عزلته عن حلب وولّت مكانه درويش باشا ، فقدم حلب ، وتلافى خطر العربان ، وارسل الى عساف يدعوه بالرفق واللين الى طاعة السلطان ، وجهز مع الرسول هدايا ثمينة . ووصل الرسول ووبخه على عصيانه بلطف ، وأثنى على عشيرته وعليه ، فأراه عساف موضع الرصاص في درعه وموضع جرحه ، فسلّاه ووعده الأمان وقال له إن الدولة انما عزلت ابراهيم باشا لغدره بك ، فرضي وأهداه خيولاً وجهز معه عدة خيول للدولة وحوالة على حلب بألفي ليرة ذهباً(١٤٩) .

وبعد ذلك العهد بثماني سنوات أي سنة ١٠٩٣ هـ. تغير الوالي وتغيّر الامير البدوي فعاد فساد العرب في برية دمشق وحلب فيما يقول الغزي وعظم ضررهم ، وافحشوا بالسلب والإغارة على القوافل حتى ضجت منهم الولايات ، وصدرت أوامر الدولة الى والي حلب ووالي دمشق ووالي بغداد ووالي طرابلس أن يبذلوا جهدهم بالقبض على أميرهم ملحم . وأحكم والي حلب الحيلة ، وغَدَرَ بِهِ وأسره وقتل عدداً من جماعته ،

وأسر ثمانية عشر آخرين قتلهم صبراً ، وأرسل أميرهم الى أدرنه حيث كان السلطان فأمر بقتله ، وضعب ذلك على رجال الدولة لأنهم كانوا يرجون العفو عنه ليكون كافلاً قمع غارات العرب حسب شجاعته المفرطة(١٥٠) .

واصبحت المواصلات في العهد التركي بين عاصمة الدولة ومركز الولايات العربية تحت رحمة أبناء الصحراء ورجال العشائر ذوي النفوذ ، وحوالي منتصف القرن الثامن عشر حين أخذت قبائل متفرقة جديدة تفد الى الأراضي الشامية كان في الوقت نفسه كثير من قبائل البدو في الفرات الأسفل قد عقدوا صلحاً فيما بينهم واتحدوا معاً تحت اسم « المنتفق » . وأخذوا يسببون متاعب كثيرة لا لباشاوات بغداد وحسب ، بل لسكان المدن انفسهم ، وللقرى التي تحيط بها(١٥١) .

ونلاحظ أخيراً أن القوة التي يتمتع بها البدو وصلت اليهم أولاً بحكم اشتراكهم في الفتوحات العربية في صدر الاسلام وفي العهد الأموي، ثم بسبب ضعف الخلافة العباسية وتنافس الامراء في الدويلات التي حلت محلها بحيث أسسوا هم بدورهم أمارات لهم في الحواضر كما رأينا ، وأخيراً بسبب ضعف الخلافة العثمانية التي ورثت السلطة فيما بعد بحيث تمكن أحد زعماء البدو في القرن الثامن عشر من أن يصبح شيخاً على منطقة صفد ، وقد عينه لتلك المشيخة حاكم لبنان الشهابي ، وأصبح ابن هذا الشيخ البدوي نفسه زعيماً استطاع وهو فتى في حدود سنة ١٧٣٧ م. أن يضم طبرية الى مشيخته، ثم أخضع مدناً أخرى. ولم تأت سنة ١٧٥٠ م. حتى كان هذا الفتى البدوي الأصل قد ثبت مركزه في عكا وهو الشيخ ظاهر العمر المشهور(١٥٢).

وكان في تلك الحقبة أن أخذت الدول الغربية تلتفت ثانية الى الشرق ولكن لا لجهاد ديني أو لحماية الارض المقدسة كما كان يظهر بل لأهميته من الناحية الاقتصادية ، فبعد أن تم اكتشاف اميركا ، واكتشاف طريق الرجاء الصالح ، واحتكار البرتغال للطرق البحرية ، أخذت انكلترا تبرز في الميدان منافسة لها في سبيل الوصول الى الهند مركز كنوز الشرق في نظر الغرب ، وبدأت المحاولات في فتح طريق برّي الى الهند عبر البلاد العربية . وبالفعل أخذ الرواد يظهرون على مسرح الاحداث في الجزيرة ، وخاصة على الخط بين حلب والبصرة . وأخذنا في هذا العهد نسمع بأخبار البدو ومحاولاتهم لقطع الخط التجاري في القرون الثلاثة السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . الى أن شقت ترعة السويس وتحوّل الخط بحراً عبر البحر الأحمر وسُلك طريق بري جديد بعد الحروب الكبرى الأولى بين الشام وبغداد .

ويصعب جمع كل أخبار البدو وأنباء تصديهم لقوافل التجار على خط البصرة مما

خلفه لنا بعض الذين وصفوا هذه الرحلات من الروّاد وغيرهم في القرون الثلاثة الأخيرة ولكن يجب الاشارة هنا الى أن هذه القوافل كانت من القوة والكثرة في أغلب الأحيان بحيث لم يجرُؤ الغزاة على سلبها الاّ اذا كانوا فرساناً وباغتوا القافلة بعيداً عن العمران. وكان التجار يستصحبون معهم لحماية قوافلهم قوماً من زعماء البدو أنفسهم . ويكفي هنا ان أذكر وصف أحد هؤلاء الرواد للبدو الغزاة فهو يقول :

« يبادر القافلة هؤلاء الغزاة دائماً وهم على ظهور الخيل ، ومع أن عددهم لا يزيد عن الثلاثين ، فإن باستطاعتهم أن يسببوا كثيراً من الضرر لقافلة كبيرة مثل قافلتنا ، وأن يفوزوا بالكثير من الغنائم . ذلك أنهم يعمدون الى المباغتة ويهجمون على ذلك القسم من القافلة الذي يرون أن لا قوة كافية تحميه . فتضطرب الجمال المحمّلة ـ ومن طبيعة الجمال الخوف حين تباغت ، فَيَجْري بعضها فزعاً ويندفع بعضها هارباً على وجهه في البادية ، وهو ما يبتغيه الغزاة ، اذ باستطاعتهم أن يقعوا عليها بعدئذ ويأخذوها . ولا يلتفت الذين ينجون من رجال القافلة الى ما فقدوا من قافلتهم خوفاً من أن يقعوا هم بدورهم غنيمة للغزاة[١٥٣] » .

ولم أقع على مرجع يضع تاريخاً محدداً لوفود كلّ من القبائل البدوية من عرب عنزة أو غيرها للبادية السورية ، أو لأحتلالها الأراضي المجاورة للمدن الكبرى في بلاد الشام . والظاهر أن عرب الموالي كانوا من أقدم البداة في سوريا الشمالية ، وأنه في أوائل القرن السابع عشر أخذت تفد قبائل شمّر من نجد وتتنازع مع قبيلة الموالي المقيمة في الشمال ، ثم وفدت بعدها قبائل عنزة من نجد ، وأخذت بدورها تضغط على عرب الموالي وتحاول إزاحتهم من المناطق القريبة من حمص وحماه ، وهي من أغنى البقاع في الكلأ والماء . ويلوح لي أن وفود بعض قبائل عنزة بلغت هذه المناطق في أوائل القرن الثامن عشر ، ثم أخذت تتوافد عشائر أخرى من عنزة بحيث أصبحت منتشرة في مناطق أخرى من البلاد الشامية، وأصبحت منها أكثرية البدو بين عشائر الشام كلّها .

ومن أسبق الروايات ذكراً لتحدّر عنزة من نجد الى بادية الشام ما ورد في كتاب لمحمد بسام اسمه « كتاب الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر » ففيه أخبار كثيرة عن حركة الوهابيين بين سنتي ١١٦٠ و ١١٨٨ هـ. وانها قامت أول الأمر على غزوات قام بها سعود (الأول) بعشرين ذلولاً وسبعة أفراس ، ثم ما زال يتابع غزواته ويزيد جيشه حتى انتهى اخيراً بنحو ثلاثة آلاف بين راكب وماشٍ في هجومه على الرياض . وهنا يشير الى

انه حين تمّ الأمر للسعوديين كان شأنهم مع أهـل الباديـة في نجد انهم أقـروا أمراءهـا القدماء ولم يعـزلوهم الاّ اذا تمـرّد أحد منهم فـإنهم يعزلـونه ويجعلون أخـاه أو ابن عمه شيخاً . ثم يذكـر البسّام أن عبـد العزيـز (الأول) منع الأعـراب من أخذ الخـوة من الحاج . ويشير في ذلك الكتاب الى عرب عنزة فيذكر انها أكبر قبائل العرب في نجـد ، ويستشهد بمثل عندهم هو : « كل قوم دون عنزة » ثم يقول : وليس في أرض نجد أحد يقاومها[١٥٤] . ويشير بعد ذلك الى تحدّر بعض عنزة الى برية الشام وانتقالهم في الشتاء الى وادي سرحان والحماد ، ونزول آخـرين برّيّـة حلب وحماة وحمص ، ويـذكر عـرب الـرولة ويسميهم شجعـان الجزيـرة. وأنهم أهل إبـل كثيـرة ربمـا يملك الشخص منهم أربعمئة أو خمسمئة . ويذكر ان مواطنهم النقرة بين بلقا وحوران[١٥٥] وهذا يدل ان صح على ان الرولة وفدت الى أراضي الشام في هذه الحقبة التي يؤرخها محمد البسّام .

وفي كتـاب آخر اسمـه « تاريـخ الشام » للخـوري مخائيـل بريـك الدمشقي عن السنوات ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ م . انه بلغ مدينة الشام خبر بأن الجردة التي ذهبت لملاقاة الحج نهبها بنو صخر وقتلوا كثيرين منها وان موسى بـاشا والي صيـدا هرب « عـريان حفيـان بالزلط » ، وكان موقع نهبها أرض معـان وذلك في ٢٠ ذي الحجـة سنة ١١٧٠ هـ. ثم يقول : « وفيها دمشق بهذا الحصر والضيم والقلق من عدم أخبار الحجاج ، وقلة من يخبر كيف صار فيهم ، واذا في ليلة ١٦ صفر سنة ١١٧١ هـ. أتت أخبار السـوء بأن الحـج انتهب جميعه، نهبه قعدان الفايز شيخ عرب بني صخر هو وعربه، ومعه بعض عربان، لأن الحجاج لما وصلوا إلى قلعة تبوك ما قدروا يفوتوا لأن بلغهم أن العرب المذكـورين رابطين في الطريق، فقعدوا في تبوك اثنين وعشرين يوماً محاصرين. . . وما عرف الباشا يرضي خاطر العرب ويفوت، بل بجهله حمّـل ومشى، ولما قـرب إلى ذات حاج كبستـه العرب، وقُتل عالم لا يعد من العسكر والحجاج، وقـوي العرب، ونهبـوا الحج جميعـه وأخذوا المحمل، وهرب الباشا برأسه وعاد إلى قلعة تبوك مع ثلاثة انفار فقط، وراح هذا العالم والغنائم جميعها نهباً بيد العرب في صفر سنة ١١٧١ هـ . ومات وقتل عدد لا يحصى وهفي جميعه وما وصل إلى دمشق إلاّ القليل. . . وقد لبست دمشق ثياب الحزن وتبرقعت ببرقع الذل»[١٥٦]. ويشير في كتابه إلى عرب عنزة في أخبار سنة ١٧٧٤ م. فيقول: «في هذه السنة نهب القفل البغدادي وكانت معه ارزاق غير محصيّة وكـانت نهبته من عـرب عنزة، وقد أخذت قبله قافلة مكة، وصار وقوف حال وذل في الشام»[١٥٧].

كذلك نرى في كتاب عن تاريخ المعرّة انه في سنـة ١١٨٩ هـ. أراد حاكم حمص عبد الرحيم بك العظم أن يذهب الى عرب الموالي ومعه شرذمة من الجند ، فوقعت بينهم

وبين العرب حرب فأخذتهم العرب وسلبتهم حتى ثيابهم ، وأسروا الحاكم وقتلوا زميلاً له[١٥٨]. ونرى في تاريخ حلب للغزي «نهر الذهب» في أخبار سنة ١٢٧٦ هـ . وهي من الحوادث الأخيرة في تاريخ البدو الذي ذكره أنه قرأ في أحد مجاميع والده « انه لما كان بعد غروب يوم الاربعاء خامس محرم أقبلت العربان على حلب من فرق شتى كالعنزة والحديديين والبقّارة والعساسنة وغيرهم ما يفوق على أربعة آلاف نجدة للثوار فانكسر العرب »[١٥٩] .

ثم نعود الى تاريخ المعرة للجندي فنرى ما هو احدث عهداً في أخبار ١٣١٧ هـ. « أن أميراً من أمراء الموالي اسمه عِزّو قتله الجند وكانت وطأته قد اشتدت على الناس وكان يأتي القرية فيأمر شيخها أن يقدم اليه ما يطلب من ملبس وقهوة وحنطة وشعير وغير ذلك ، فاذا امتنع أو تأخر أصلى القرية ناراً حامية ، وقتل من وقع عليه بصره من إنسان وحيوان ، وقد قُتل أخيراً وكان قتله راحة لإقليم حماة والمعرة وحلب »[١٦٠] .

ولعلّ أوفى مصدر عربي عن البدو لهذه الحقبة من الزمن التي تلت عهد الأمير فخر الدين ابن معن هو تاريخ الأمير حيدر الشهابي للبنان في عهد الأمراء الشهابيين ـ ما بين سنتي ١٦٩٧ و١٨٣٢ م. (١١٠٩ ـ ١٢٤٨ هـ.) ففيه ذكر لبعض أخبار البداة في القسم الأخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ونراه يشير في أخبار سنة ١٧٦٤ م. (١١٧٨ هـ.) الى ما يدل على أن العرب كانت تأخذ عوايد من القائمين على أمور الحاج ، وأنه في تلك السنة نفسها خرج بالحاج من مصر أمير الحج حسين بك كشكش ، وكان بطلاً شجاعاً يخرج ويرجع دون أن يدفع عوايد للعربان ويذكر عنه انه قتل شيخهم الشيخ هزاع[١٦١] . ثم يذكر في أخبار سنة ١٢٢٣ هـ. (١٨٠٨ م.) رجوع الحاج الى الشام دون الوصول الى البيت الحرام ، وذلك بسبب خوف الناس من الوهابيين ، ويقول : «إنه حضر إلى الشام في تلك السنة عبد من عبيد الشيخ مهنا الفاضل شيخ عرب عنزة يخبر عن قدوم الوهابيين ، وأن شيخ هؤلاء القادمين أرسل كتابات الى العرب الموهبّة مثل بني صخر والغياث والفدعان وولد علي ليوافوه »[١٦٢] .

ونقرأ في أخبار سنة ١٢٢٨ هـ. (١٨١٣م.) ان حرباً وقعت بين عرب عنزة برئاسة شيخهم مهنا الفاضل وعرب الفدعان ، فانكسرت عرب مهنا كسرة عظيمة ، وأخذت حريمهم الفدعان[١٦٣] . ولكن الأمير حيدر لا يذكر مع الأسف أين وقعت هذه الحرب في البلاد الشامية . ويذكر انه وقع في السنة نفسها حرب أخرى ما بين بني صخر والسردية ودوخي السمير وكان مع الأخير عسكر دالاتيه نظفرت بنو صخر والسردية على دوخي وأعوانه وكسرتهم كسرة عظيمة ومات من عسكر الشام ما ينوف عن

النصف[١٦٤] . وفي أخبار سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٤ م .) أنه حضر الى بلاد حماة عربان من نواحي نجد يُكْنونَ بالفدعان ونزلوا في الجانب الشرقي من العاصي ، وهم أكثر من عشرين ألفاً ما بين خيالة ومشاة ، وهم طوائف متفرقة (يقصد عشائر) السبعة ، وآل هذال ، والجربا ، والنبي ، وجملة طواريء[١٦٥] . ولم يكن لهم عادة في القدوم لتلك الأرض لأنها منازل الشيخ مهنا الفضل وعربه والدريعي وعربه ، وبينهم وبين عرب الفدعان عداوة قديمة ، فأقلق نزولهم وزير الشام ، فأمرهم بالرجوع عن بلاد حماة ، فاعتذروا أن سبب قدومهم هو ضيق المعيشة في بلادهم ، وأنهم يقصدون المرعى لشهرين أثناء الربيع إذا سمح الوزير ويعدونه بأن يقيموا ركب الحاج بأقل مما كان يأخذ أعداؤهم ، فلم يرتض الوزير . وجَيّشَ العساكر لصدهم ، واستنجد بوالي صيدا ، وبمتسلّم بلاد عكار ، وبمهنا الفاضل والدريعي وعربها ، وسار نائبه ابراهيم باشا من حلب بثلاثة آلاف ، ونهد نائب عكار بنحو ألف خيال الى مدينة حماة ووقع القتال بينهم وبين العربان الوافدين مدة ١٥ يوماً ، وكانوا يتحاربون قرب مياه سلمية كل يوم من الصباح الى المساء ، فانكسر ابراهيم باشا وعساكره ، وثبت نائب عكار وعرب مهنا ، وقتل شيخ السبعة وجملة من العربان ، وحلّت الفدعان ما بين بلاد حلب وبلاد حماة ثم عادوا فغزوا بعد مدة قبائل مهنا ونهبوا بيوتهم وجمالهم ولم يتركوا لهم عقالاً غير النساء والاولاد[١٦٦] .

وفي أخبار سنة ١٢٣٣ هـ . (١٨١٧ م .) يذكر انتصار ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا على الوهابيين ويذكر قدوم قبيلة عنزة الى حماة ، واتفاقهم مع الملا اسماعيل الدالاتي بوسيلة قوم من العرب القاطنين يومئذ بحماة . ويذكر من أسماء شيوخهم الضويحي والحميدي وناصر المهنا ومشعال الهذال ، فشق على متسلم حماة اتحاد العرب مع الملا اسماعيل ، فشكا أمره الى والي الشام . وفي هذه الأثناء سطا عرب عنزه على حماة ، وسبوا قبائل العرب المقيمين فيها ، ونهبوا منها خمسة وأربعين ألف شاة ، وهم من بني خالد والطوقان والبشاكم ، وكانوا يؤدون مال الميري كباقي الرعايا الحمويين - وجهز وزير الشام عسكراً لمحاربة عنزة فولت العرب من قدامهم هاربين الى زور بغداد[١٦٧] .

وفي اخبار سنة ١٢٣٤ هـ . (١٨١٨ م .) يذكر رجوع صالح باشا والي الشام من القدس ، وعند وصوله حضر الى ملتقاه بعض العرب القاطنين بلد حوران ، وهم قبائل السرحان والمساليخ وبنو صخر ، وعندما تلقوه أمر بالقبض على ثلاثة من أكابرهم وقتلهم ، وكان ذلك اعتداء منه عليهم من غير ذنب تقدم فعله منهم ضدّه . ثم سيّر العساكر عليهم فخلّوا بيوتهم وهربوا الى الوعر ، ونزلت العساكر على بيوتهم طالبة النهب

والسلب ، وانحازت شرذمة نحو ٣٠٠ عسكري الى العرب الهاربين بعيالهم الى الوعر ليغنموهم أيضاً فثار عليهم العربان راجعين اليهم ، وانتصروا عليهم وفتكوا بهم فتكاً عظيماً ، وقوّموا سبيلهم الى العساكر التي كانت في البيوت ، وظفروا بهم وقتلت العرب في ذلك اليوم نحو ٣٠٠ من عساكر الباشا ، وغنموا سلاحهم وخيلهم ، وانكشف الباشا راجعاً الى الشام منخذلاً مكسوراً ، وحسب عليه عاراً عظيماً(١٦٨) .

وفي أخبار سنة ١٢٣٦ هـ . (١٨٢٠ م .) يذكر انه في إقامة درويش باشا والي الشام ونامِبِهِ في جبل حوران وفد عندهم جميع أكابر عرب عنزة، وصار حبٌ زايد بينه وبينهم، وهم دوخي وصالح وحمود الضويحي وخلف الطيار ونايف الشعلان وابن عمه مذود واشترى الأمير ومن معه جملة خيول من عربهم(١٦٩) .

وهكذا كان في هذه الحقبة أن ظهر محمد علي باشا في مصر وقضى على المماليك وأكمل فتوحاتِهِ في بلاد النوبة والسودان ، وحقق نجاحاً في الحملات التي وجّه فيها ابنه ابراهيم باشا لمحاربة الوهابيين بين سنتي ١٨١٦ و ١٨١٨ م . فرأى أن ينفِّذ ابراهيم سنة ١٨٣١ الى سوريا ليحتلها ، وكان الباب العالي قد وعده ولاية سوريا ولكنه لم ينفِذ ذلك العهد . وليس هنا مجال البحث في تاريخ تلك الحملة التي استصحب فيها بعد وصوله قوماً من عرب مصر عرفوا بالهنادي . ولما كانت أهم مواقعه مع بَدُو سوريا وصلاته بهم قد وردت في وثائق الشام في المحفوظات الملكية المصرية التي نشرها الدكتور أسد رستم في ٤ مجلدات (من سنة ١٨١٦ - ١٨٣٩ م . ، ١٢٣١ - ١٢٥٥ هـ .) رأيت أن أتقيّد بنشر هذه الوثائق مشيراً الى أرقامها بالتسلسل مع الوثائق عن البدو التي دوَّنها قناصل الإنجليز في حلب والشام والقدس الذين قويت مصالحهم الدولية والتجارية مع البدو في ذلك العصر(١٧٠) - حسب ترتيبها التاريخي - وأجعلها ملحقة في آخر الكتاب ، ويلاحظ أن في بعضها ما قد ذكر في الاخبار التي نقلناها عن المؤرخين العرب للحقب الأخيرة .

الحواشي

(١) الهيئة الصحية العالمية - صحافة ، المكتب الإقليمي لشرق البحر الأبيض المتوسط، بلاغ صحفي رقم ٢٤، ٢٩، أكتوبر ١٩٦٩ .

(٢) تاريخ العرب ، ص ٤٨ .

(٣) تذكر التوراة العرب وبلادهم باسم قيدار : أشعيا ٢١ : ١٦ ؛ وارميا ٤٩ : ٢٨ . وقيدار هو ابن اسماعيل الثاني، تكوين ٢٥ : ١٣ . أما ابن اسماعيل البكر فاسمه نبايوت . ومن ابنائه الاثني عشر دومة وتيما، تكوين ، ٢٥ : ١٤ و ١٥ ويذكر الطبري قيدر ابن اسماعيل، ويقول ومن نابت ومن قيدر نشر الله العرب ؛ انظر تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٤) تكوين ٣٧: ٢٥ ـ ٢٩.
(٥) خروج ٢: ٢٢.
(٦) اخبار الأيام الثاني ٩: ١٤.
(٧) نشيد الانشاد ١: ٥. ولا تزال خيام البدو تصنع من شعر المعيز الأسود إلى اليوم.
(٨) أخبار الأيام الثاني ١٧: ١١.
(٩) أشعيا ١٣: ٢٠.
(١٠) أرميا ٣: ٢.
(١١) أخبار الأيام الثاني ٢١: ١٦ ـ ١٨.
(١٢) تاريخ العرب، ص ٦٥ ـ ٦٦؛ عن Luckenbill, **Ancient Records,** I, 223, no. 611
(١٣) تاريخ العرب، ص ٦٦.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(١٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(١٦) تاريخ الرسل والملوك، ١: ٨٣٩.
(١٧) يشير ياقوت في معجم البلدان، ٢: ٤٩٤ إلى ديار ربيعة بين الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور وربما جُمِعَ بين ديار بكر وديار ربيعة وسُمِّيَتْ كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة ويقول: «وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديه واسم الجزيرة يشمل الكل». ويجب ان نذكر القبائل العربية التي نزحت قبل الإسلام ونزلت على تخوم سورية والعراق كبني غسان وبكر وتغلب وتنوخ.
(١٨) العقد الفريد، ٥: ١٣٢ ـ ٢٦٨.
(١٩) المصدر نفسه، ٥: ٢٢٥.
(٢٠) C.S. Jarvis, **Arab Command** (St. Albans,1946), p. 61.
(٢١) المقدمة، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٢٤) تاريخ الرسل والملوك، ٢: ٢٨٩.
(٢٥) المصدر نفسه، ٢: ٨٧٨.
(٢٦) كتاب الاعتبار، ص ٢٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٨٢.
(٢٩) لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، لأحمد ابن محمد الخالدي، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بيروت ١٩٣٦، ص ٤١، ٤٢، ١٣٣، ١٥٣، ١٩٠.
(٣٠) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين لحيدر احمد الشهابي، ٣ أقسام، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بيروت ١٩٣٣، انظر الفهرس، ٣: ٨٩٦.
(٣١) كان التنوخيون والغساسنة نصارى كما هو مشهور، ويقال إن التنوخيين أبوا أن يؤدوا الجزية إلى الفاتحين، ولما حاول عمر ابن الخطاب إرغامهم على ذاك، قالوا: خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية فأبى أولاً ثم قبل أن تدفع على اسم الخراج.
(٣٢) فتوح الشام للواقدي، مصر، ١٢٧٨ هـ، ١: ٣ ـ ٨.
(٣٣) وقد ذكر عن الأخطل التغلبي أنه رأى الجحاف القيسي مرة في مجلس عبد الملك ابن مروان فانشد قصيدته التي يفتخر بها على عشيرتي سُليم وعامر القيسيتين وفتك التغلبيين بِهِمْ في إحدى تلك المناوشات، وقال فيها:

«ألا سائـل الجَحّـافَ هَلْ هُوَ ثائرٌ ... بقَتْلَى أُصيبَـتْ مِنْ سُلَيمٍ وَعامِرِ»

وأدى ذلك إلى خروج الجحاف إلى أهله واستنفارهم لغزو تغلب والفتك ببعض رجالها، انظر شعر الأخطل رواية السكري تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي، بيروت ١٨٩١، ص ٢٨٦.
(٣٤) تاريخ الرسل والملوك، ٣: ١٣٣٥ ـ ١٣٣٨.
(٣٥) المصدر نفسه، ٣: ١٣٣٨.
(٣٦) المصدر نفسه، ٣: ١٣٤٢.
(٣٧) الأغاني (دار الكتب)، ١٠: ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٣٨) انظر تاريخ الرسل والملوك، ٣: ١٥١٤.
(٣٩) المصدر نفسه، ٣: ١٥١٦ ـ ١٥١٧.
(٤٠) المصدر نفسه، ٣: ١٦١٨.
(٤١) المصدر نفسه، ٣: ١٥٩٤.
(٤٢) المصدر نفسه، ٣: ٢١٨٣.
(٤٣) المصدر نفسه، ٣: ٢١٨٨ ـ ٢١٨٩.
(٤٤) المصدر نفسه، ٣: ٢٢٧٩.
(٤٥) نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب ١٣٤٢ هـ، ٣: ٤٠.
(٤٦) المصدر نفسه، ٣: ٤٢.
(٤٧) المصدر نفسه، ٣: ٤٤.
(٤٨) ديوان المتنبي، ص ٤١٨ ـ ٤٢٦؛ وانظر قصة مسير سيف الدولة مفصلة في نهر الذهب، ٣: ٥٢ ـ ٥٤.
(٤٩) أي أقبل بخيله على مروج سلمية وخيله معلمات بعلامات تعرف بها وهي ضامرة لا هزيلة ولا سمينة.
(٥٠) تثير غباراً ممتداً تتناكر الخيل تحته ـ أي أصحاب الخيل ـ لولا العلامة التي بها يتعارفون.
(٥١) في الأصل العِثير وفي شرح البيت في الديوان أن ابن جني رواها الغنثر، ويا ليت الشيخ اليازجي قبل رواية ابن جني وأثبتها في النص لا في الهامش لأنها الصواب ولا يزال الموضع معروفا بهذا الاسم حتى اليوم، وكان فيه ماء جار حين زرته آخر مرة منذ سنين. أما المتالي والعشار فهي النياق التي تتلوها أولادها وتلك التي قاربت أن تلد. ويقصد أن هذه المواشي من أبل ترغو وغنم تثاج ومعز تيعر انتشرت في سهل الغنثر وغطت البيداء فتخيرّ منها أصحاب سيف الدولة المتالي والعشار وهي أعز المال عند البدوي.
(٥٢) الجباه ماء لا يزال يعرف بهذا الاسم إلى اليوم وهو يلي الغنثر ويقع على بعد بضعة كيلومترات من القريتين وليس غريباً أن يكون حوله مزرعة أو قرية صغيرة في ذلك العهد، أما اليوم فليس فيه أثر للعمران.
(٥٣) كذا في الأصل الغوير ولكن «ياقوت» يذكر الموضع نفسه في معجم البلدان ٤: ١٦٩ تحت عوير وكذلك في ٥: ٣٢٨ حين يذكر نهيا وليس لكلمة العوير معنى. أما غوير فهي تصغير غار. ولولا كثرة المصادر التي تذكر العوير بدل الغوير لقلت أن الأصل يجب أن يكون «الغدير» بالغين والدال فهناك غدران كثيرة بين الجباه وتدمر بل هناك موضع خاص فيه ماء عين صغيرة يسمى الغدير وردتُ من مائة في الصيف قرب القريتين لا يبعد كثيراً عن الجفار التي ذكرها المتنبي. ومن يدري فلعل سيف الدولة ذكر هذه الأسماء للمتنبي ولم يوردها المتنبي متتابعة بالنسبة إلى مواقعها على طريق تدمر. ويجوز أن يكون الغوير هو ماء قرب البخراء كما أشار موزل في ملحقه لكتاب Palmyrena ص ٢٥٥ أو قرب الباردة كما ذكر في الصفحة نفسها، والظاهر أنه كان في حيرة لأنه لم يعرف الغدير الذي ذكرته.

(٥٤) نهيا والبويضة والجفار اسماء مياه على الطريق إلى تدمر، ويزعم المتنبي أن الأعراب نزحوها لما لحقهم من العطش. وفي معجم البلدان ٥: ٣٢٨ أن نهيا هو ماء لكلب في طريق الشام، ثم يقول: «ورأيت أنا بين الرصافة والقريتين من طريق دمشق على البرية بلدة ذات آثار وعمارة وفيها صهاريج كثيرة وليس عندها عين ولا نهر يقال لها نهيا؛ ذكرها أبو الطيب فقال:

وقَـدْ نزح العَـويرُ فلا عُوير ونِهْيا والبُويضَـةُ والجفَارُ»

(٥٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١١ جزءاً، ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦، ٨: ٤٠١.
(٥٦) المصدر نفسه، ٨: ٤٥٤.
(٥٧) المصدر نفسه، ٩: ١٦٧.
(٥٨) نهر الذهب ٣: ٦٨ وفي ذلك قال المعري:

أرىٰ حلباً حازها صالِحٌ وجالَ سِنانٌ على جِلَّقا
وحَسّانُ في سَلَفَي طَيِّءٍ يُصَرِّفُ من عِزّه أبْلَقا

لزوم ما لا يلزم، جزءان، بيروت ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١، ٢: ٢٠١.
(٥٩) الكامل في التاريخ، ٩: ٤٠٩.
(٦٠) المصدر نفسه، ١٠: ٢٩.
(٦١) تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي، جزءان، دمشق ١٩٦٣ - ١٩٦٤، ١: ١٥٧.
(٦٢) الكامل في التاريخ، ١٠: ٢٨٣.
(٦٣) المصدر نفسه، ١١: ٩٧.
(٦٤) المصدر نفسه، ١١: ١٢٢.
(٦٥) المصدر نفسه، ١١: ١٩٥.
(٦٦) المصدر نفسه، ١١: ٣١١.
(٦٧) المصدر نفسه، ١١: ٣١٧.
(٦٨) المصدر نفسه، ١١: ١٨٥ - ١٩٣ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي، ٢٦ جزءاً، د.ت.، ٥: ١٤٦ و١٦١.
(٦٩) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لعبد الرحمن ابن الجوزي، ١٠ اجزاء، حيدر أباد ١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ، ١٠: ١٤٢ - ١٤٣.
(٧٠) المصدر نفسه،ص ١٨٢.
(٧١) تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد شماع، المجلد الرابع، الجزء الأول، بصرة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧، ص١.
(٧٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٧٣) تاريخ العرب، ص ٧٦٣.
(٧٤) انظر Forty Years in the Wilderness, p. 106 وقد حاول فلبي أن يضع تاريخاً للمملوك عز الدين أيبك فقال في سنة ألف بعد الميلاد فيما يظهر أو قبل ذاك، والواقع أن تاريخ عز الدين يبدأ بسنة ١٢٥٠م كما ذكرت.
(٧٥) تاريخ العرب، ص ٥٦٤.
(٧٦) المصدر نفسه، ص ٧٤٦.
(٧٧) تاريخ ابن الفرات لناصر الدين ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المجلد السابع، بيروت ١٩٤٢، ص ٦.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٩.
(٧٩) المصدر نفسه، ص ١٦٩.
(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(٨١) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٧٧.
(٨٣) المصدر نفسه، ص ١٨٦.
(٨٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥ - ٢٢٢.
(٨٥) تاريخ ابن الفرات لناصر الدين ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق ونجلا عز الدين، المجلد الثامن، بيروت ١٩٣٩، ص ٨. ومن الخير أن نلاحظهنا أن هذه الألقاب حسام الدين لابن الأمير عيسى وشهاب الدين لوالده كان يمنحها ملوك مصر لشيوخ القبائل.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٨٧) نهر الذهب، ٣: ١٧٠ - ١٧٢.
(٨٨) تاريخ معرة النعمان، ١: ١٨٤ و ١٨٥.
(٨٩) تاريخ ابن الفرات، لناصر الدين ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المجلد التاسع، ج ١، بيروت ١٩٣٦، ص ٥٧، ١٠٩، ١١١، ١٣٢.
(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٣٩.
(٩١) المصدر نفسه، ص ٢١٧ - ٢١٩.
(٩٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٣.
(٩٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.
(٩٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.
(٩٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٢.
(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٥.
(٩٧) نهر الذهب، ٣: ٢١٧.
(٩٨) تاريخ العرب، ص ٧٩٣ - ٧٩٤، وانظر تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، ٩: ٣٤٣ وفي شذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي، ٨ اجزاء، بيروت، د.ت.، ٧: ٦٣ أن أم تيمورلنك هي من ذرية جنكيز خان.
(٩٩) تاريخ العرب، ص ٧٩٤.
(١٠٠) شذرات الذهب، ٧: ٦٤ - ٦٥.
(١٠١) تاريخ العرب، ص ٧٩٥.
(١٠٢) تاريخ غزة لعارف العارف، القدس ١٣٦٢ هـ/ ١٩٤٣، ص ٢٣٧.
(١٠٣) اعلام الورى لمحمد ابن طولون، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤، ص ٨٨ - ٨٩.
(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٩٥.
(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٩٦.
(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٩٠.
(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(١٠٨) المصدر نفسه، ص ١٠٢.
(١٠٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(١١٠) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(١١١) المصدر نفسه، ص ١٣٧ - ١٤٣.
(١١٢) المصدر نفسه الصفحات ١٥٤، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٩ - ١٩٣، ١٩٥، ١٩٨ - ٢٠٠.
(١١٣) المصدر نفسه، ص ١٩٥.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ١٩٨ - ٢٠٠.
(١١٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.
(١١٦) المصدر نفسه، ص ٢١٩.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
(١١٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.
(١١٩) المصدر نفسه، ٢٣٠ - ٢٣١.
(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.
(١٢١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.
(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(١٢٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي، ٣أجزاء، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت ١٩٤٥ - ١٩٥٨، ٣: ٢٠١ - ٢٠٢.
(١٢٤) لطف السمر وقطف الثمر لنجم الدين الغزي، سفران، تحقيق محمود الشيخ، دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢، ١: ١٢٣ - ٢٤٠.
(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.
(١٢٦) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، ص ٨ - ١٠.
(١٢٧) المصدر نفسه، ص ١٠ - ١١.
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.
(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٩.
(١٣١) المصدر نفسه، ص ٣١.
(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٤١ - ٤٢.
(١٣٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٨١.
(١٣٥) المصدر نفسه، ص ١٣١. وهنا واحدة من أقدم الاشارات إلى وجود عرب عنزة في أطراف بادية الشام منذ أوائل القرن الثاني عشر للهجرة.
(١٣٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(١٣٨) المصدر نفسه، ص ١١٩.
(١٣٩) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٤٠.
(١٤١) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(١٤٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢ ويقصد بالسكبانية الجنود المرتزقة والكلمة من أصل تركي وردت كثيراً في أخبار حملات الولاة على البدو وغيرهم.
(١٤٣) المصدر نفسه، ص ١٥٦ - ١٥٨.
(١٤٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣.
(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١٦٤ - ١٦٥.
(١٤٦) المصدر نفسه، ص ١٨٧ - ١٩١.
(١٤٧) المصدر نفسه، ص ١٨٥ و ١٩٠.
(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١٩٦ - ١٩٨.
(١٤٩) نهر الذهب، ٣: ٢٨٢ - ٢٨٥.
(١٥٠) المصدر نفسه، ٣: ٢٨٨ - ٢٩٢.
(١٥١) تاريخ العرب، ص ٨٣٥.
(١٥٢) المصدر نفسه، ص ٨٢٩؛ وجاء في تاريخ غزة ص ١٨٣ أن أسرة ظاهر العمر كان يقال لها الزيادنة نسبة إلى جد ظاهر وهو من قبائل عرب الطائف في الحجاز وقد ورد في مجلة الجنان الجزء ٢٤ عدد ١٥ كانون الأول ١٨٧٧ ص ٨٤٧ - ٨٥٣ مقال طويل في تاريخ الزيادنة بقلم نعمان افندي قساطلي وفيه وصف لتاريخ وفودهم إلى فلسطين من منطقة الطائف سنة ١١٠٢ هـ. ثم احتلالهم قرى كثيرة فيها.
(١٥٣) The Desert Route to India, p. 95.
(١٥٤) عن فيلم في مكتبة الجامعة الأميركية عن نسخة عن كتاب الدرر المفاخر في اخبار العرب الأواخر لمحمد ابن حمد البسّام، ص ١٣٤ وانظر ص ٩٦ - ١٣٤.
(١٥٥) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(١٥٦) تاريخ الشام للخوري مخائيل بريك الدمشقي، حريصا ١٩٣٠، ص ٤٥ - ٤٦.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص ١٠١.
(١٥٨) تاريخ معرة النعمان، ٢: ٣٣٦.
(١٥٩) نهر الذهب، ٣: ٣٧٩ - ٣٨٠.
(١٦٠) تاريخ معرة النعمان، ١: ٢١١، ٢١٢.
(١٦١) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ١: ٦٥.
(١٦٢) المصدر نفسه، ٢: ٥٣٤ وفيه الفيات بدل الغياث وهو خطأ.
(١٦٣) المصدر نفسه، ٣: ٥٩٢.
(١٦٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها وفيه سخر بدل صخر والسعير بدل السمير وهو خطأ.
(١٦٥) المصدر نفسه، ٣: ٦٠٧ في الأصل فذعان بدل الفدعان والسباعة بدل السبعة والجريا بدل الجربا.
(١٦٦) المصدر نفسه، ٣: ٦٠٧ - ٦٠٨.
(١٦٧) المصدر نفسه، ٣: ٦٣٦ - ٦٣٨.
(١٦٨) المصدر نفسه، ٣: ٦٤٠ و ٦٤٢ حيث يعيد الخبر نفسه باختصار ويخطىء باسم قبيلة السرحان فيسميها مرة السرحال باللام ومرة السرخان بالخاء وهي قبيلة قديمة في حوران.
(١٦٩) المصدر نفسه، ٣: ٦٧٤.
(١٧٠) انظر تاريخ العرب، ص ٨٣٢.

الفصل العشرون

تطور الحياة البدوية

حدثني مرة الحاج عبدالله فلبي في أمر التطور الذي أخذ يجري على الحياة البدوية اليوم ، وزعم في حديثه انه كان أيام عهده الأولى في الجزيرة العربية ، إذا مرّ بمضرب من مضارب البدو ، أبى أهله أن يسمحوا له بأن يجوزهم دون أن يذوق العيش معهم ، أو على الأقل دون أن يشرب من لبن نياقهم . وكان يشير بهذا الى حبهم للكرم والضيافة . ثم قال : لقد أخذت الحياة تتطور في هذه الأيام بحيث صرنا نرى بعض صبية البدو يعترضونك وأنت عابر ببعض المضارب لتشتري منهم لبن النياق . وفي الغالب يكون هذا اللبن ممزوجاً بالماء . ومع أن هذا الخبر لا يصدق على كل البداة ، ولا يجوز أن يتخذ دليلاً على تخلي البدوي عن حب الضيافة والكرم ، فإن الحاج فلبي قصد منه أن الحياة البدوية آخذة في التطور شئنا أم أبينا .

وليس من شك في أن ذوي السلطة في أكثر الأقطار العربية قد أخذوا يُيَسِّرون السبل لتحضير القبائل البدوية في أقطارهم ، ومنهم من جعل ذلك هدفاً من أهداف السياسة التي تتبعها حكوماتهم . ولكن يجب ألّا نجهل أنه لا تزال بعض القبائل في وسط البوادي على فطرتها الأولى ، وان التطور لم ينلها إلا الى حد قليل .

أما مظاهر التطور فتبدو أوضح ما يكون عند عرب الشوايا الذين فرضت عليهم ظروف خاصة أن ينتقلوا من رعاية الإبل الى رعاية الشياه ، وتتجلى هذه المظاهر قبل كل شيء في وسائل النقل ، فقد أصبحت السيارة أمراً مألوفاً عندهم ، تنقلهم أحياناً الى الحواضر ومنها حين يكونون بعيدين عنها ، وتحمل المياه لماشيتهم اذا كانت بعيدة عن موارد المياه ، أو تنقل أحياناً الماشية وغيرها الى الحواضر إذا لزم الأمر . وقد يسرّت للبدو هذه الوسيلة السبيل لاتصال أوثق بحياة الحضر وأساليب عيشهم والأخذ عن بعضها .

ولعل أعظم مظهر من مظاهر التطور وأشدها أثراً في حياتهم هو انقطاعهم عن العزو ، فقد كان الغزو عند أكثرهم عنصراً هاماً في حياتهم منذ أقدم ازمانهم ، فكانوا يعلمون أبناءهم الرماية وركوب الخيل ليكونوا فرساناً في المغازي . وكانت الفتاة البدوية تعجب بطالب الزواج منها اذا كان فارساً وعرف عنه شدة وبأس في المغازي وشجاعة عند النزال . وظل هذا الأمر مألوفاً الى أوائل الاربعينات ، وذلك حين أخذت السلطات الحاكمة من منتدبة وغيرها تضع المراسيم لمنعها وتعقد المعاهدات بينها وبين جيرانها والاتفاقات بين شيوخ القبائل لوقوف المغازي كلياً . وأخذت كل دولة من الدول العربية بدورها تسنّ القوانين لمنع المغازي ، وتضع في مواد دستورها بنوداً لتحضير البدو كما فعلت سوريا مثلاً حين صدر الدستور السوري الجديد المؤرخ في ٥ أيلول ١٩٥٠ متضمناً في مادته المئة والثامنة والخمسين بنداً يفرض على الحكومة العمل على تحضير البدو وآخر لوضع برنامج على مراحل لضمان ذلك[١]. وكما فعلت في وضعها قانوناً خاصاً للعشائر تطبق أحكامه على العشائر التي ذكرتها في جدول خاص[٢] . ويجب الاشارة هنا الى أنه في سنة ١٩٥٦ حدثت مشادة في مجلس النواب السوري بين بعض أعضائه في أمر تحديد نسبة المتحضرين في العشيرة كي تعتبر متحضرة وفي أمر إعفاء أبناء بعض العشائر التي اعتبرت عشائر متحضرة من الجندية فأقر المجلس ما يوافق العشائر برغم معارضة البعض الذين رأوا في ذلك عاملاً على ارجاع العشائر التي تملك أراضي الى البداوة . حين يعاملون بخلاف أهل الحضر أنفسهم ولا سيما حين أقطعوا أراضي تبلغ مئات الألوف من الدونمات في بقاع مختلفة . وزعمت المعارضة أن كل عشيرة تملك أرضاً يجب ان تعتبر متحضرة ويجب ان تخضع للشرائع والقوانين التي يخضع لها الحضر[٣] .

ويجب الاشارة هنا الى أن أول من سعى الى إيقاف المغازي ومنع القبائل من أن يغزو بعضها البعض ، أو أن تعبث بالأمن وطرق الحجيج ، وهو جلالة الملك عبد العزيز آل السعود ، فقد وطّد الأمن في مملكته وحال دون عبث القبائل النجدية وغيرها في شمال الجزيرة كما كان يتم في القرون السابقة حين تنزح قبائل بأسرها الى مناطق قبائل أخرى بسبب الجدب أو حباً بالغزو ، وأصبح لا يتم الانتقال إذا دعا داع إلا بالاتفاق مع القبائل الأخرى، ومع الدولة التي هم في أراضيها، كما شاهدت بالفعل مرة عشائر نجدية في بادية الشام يُسَرّحون أبلهم في مراعيها بإذن من حكومة سوريا ، وباتفاق مع اخوانهم العرب الآخرين ، وبعده حكومة الأردن كما سنرى .

ومن مظاهر التطور انخراط كثير من شباب البدو المعروفين بالشجاعة وحبّ الحرب في الجندية وخدمة الدولة التي هم فيها ، بحيث أصبح منهم كتائب عشائرية ـ



بداة في الجيش الأردني

على الهجن ـ تساعد الدولة بدورها على حفظ الأمن في البادية وفي غير البادية . فاختلف لباسهم عن لباس إخوانهم الآخرين واختلف مطعمهم ومشربهم الى حدّ كبير عما ألفه اباؤهم وأسلافهم . وسرى الأمر الى عائلاتهم وأبنائهم وأصبح أبناؤهم يشاركون أبناء الحواضر في عيشهم وتربيتهم وفي مدارسهم أيضاً . وصرت ترى في بيوت هؤلاء أنواعاً من الأطعمة التي لم يعرفها البدوي من قبل ، وصار ملبسهم مثل ملبس أبناء الحواضر التي يعيشون قربها أو فيها .

ومن مظاهر التطوّر استقرار بعض البدو في مزارع ، ونزولهم في بيوت من لبن أو حجر ، وأن بعض هذه المزارع كانت مهجورة وفيها بعض الآبار أو الينابيع الصغيرة ـ وقد هجرها أهلوها الأقدمون في القرون السابقة بسبب عبث البدو أنفسهم واستباحتهم لها بحيث اضطروا أهلها الى النزوح الى القرى الكبيرة والتخلي عنها ، فامتلكتها السلطة وأقطعت بعضها لشيوخ البدو ، أو امتلكوها هم أنفسهم حين كان لا ينازعهم في البادية منازع . وقد رأيت في بعضها بيوت الشعر منصوبة قرب بيوت الحجر أو الطين . وعلى سبيل التمثيل أذكر مزرعة الباردة في سوريا حيث زُرع القطن ونُصب شجر ونبت أنواع كثيرة من الخضرة . واختلط فيها مزارعون من البدو والحضر . ويمكن أن أشير الى أكثر من عشرين مزرعة وقرية بين القريتين وحمص . والظاهر أن الحكومات في الدول العربية أخذت تشجع هذا النوع من التطور والاستقرار وأخذت تُقْطع بعض البدو أراضي للزراعة في سبيل تحضيرهم ، وأخذت تساعدهم على أن يبنوا بيوتاً من الحجر. كما شاهدت في شرقي الأردن أيضاً عند إحدى زياراتي لباديتها حيث كنت أرى في بعض المواضع بيوت الشعر منصوبة في فناء الدار الحجرية أو في جوارها .

وحين أخذت أبحث عما فعلته الحكومة الأردنية بهذا الشأن بعث اليّ السيد صيّاح الروسان أحد طلبتي المتخرجين من الجامعة الأميركية في بيروت وهو موظف في مصلحة العشائر بتقرير طويل عن الاجراءات التي اتخذت لتحضير البدو في الاردن وكان ذلك سنة ١٩٥٩ وذكر الاقتراحات التي وضعت للمستقبل مع بيان للعشائر والأفخاذ وأسماء القرى الجديدة التي استحدثوها واستقروا بها ، والجهود التي تبذلها الحكومة ليستقر الآخرون . وفي هذا التقرير أنه تألفت في الأردن منذ عام ١٩٢٧ قوة البادية والصحراء . ولكن حفظ الأمن وامتناع الغزو لم يتمّا الا حين فكرّت الحكومة سنة ١٩٣١ باتخاذ إجراءات صارمة لمنع الغزو بتاتاً وحاولت ايجاد موارد رزق للبدو فادخلت قسماً كبيراً من أبناء العشائر في قوة البادية فساعد هذا على تثبيت الأمن وايقاف المغازي . ثم كانت الخطوة الثانية بأن أقطعت بعض الشيوخ ممن شعروا بالاستقرار والطمأنينة بعض

الأراضي الاميرية لاستثمارها واستيطانهم بها ، وشجعتهم على حرثها وزرعها وحفر الأبار للشرب فيها ، وحين لمس الكثيرون من البدو سلطة الحكم ورأوا ما جناه المستقرون من إخوانهم من منتوج الزرع ومساعدة الحكومة اندفعوا بدورهم تلقائياً يطلبون الحصول على أراض أميرية لاستثمارها في الأعمال الزراعية ، وأخذوا في إنشاء القرى حتى بلغت ما يقارب مئة وخمسين قرية ، وبلغ من حبهم للحصول على الأرض والعيش من محصولها أن وقعت حوادث شغب على قطعة لا تتجاوز دونماً واحداً . وهذا ما شجّع البدو على طلب تسجيل الأرض بأسمائهم واستثمارها والاستقرار بها . وقامت الحكومة بدورها فأنشأت لهم بعض المدارس لتعليم أبنائهم فأقبلوا على إرسال أولادهم اليها وخاصة أن العلم أعطي مجاناً وكانت تعطى لأبنائهم كذلك أحياناً الكتب والأطعمة وبعض الملابس ـ وشقت الطرق بين هذه القرى الجديدة وبينها وبين العاصمة . ورفعت اقتراحات طبق بعضها بشأن حفر آبار ارتوازية بين كل ثلاث أو أربع قرى وبشأن تأمين مياه نظيفة للشرب للأهلين وإصلاح العيون القديمة وتقديم قروض زراعية وآلات حديثة للزرع وانشاء عيادات خاصة وتأمين العلاجات والاسعافات اللازمة ، وقد أرفق تقريره بجدول للعشائر وأفخاذها واحداً واحداً وعدد القرى التي استوطنوها حتى تلك السنة (١٩٥٩) فإذا بها ١١٢ قرية لمئة واثني عشر فخذاً من عشائر بني خالد والسرحان والسردية والمساعيد والعظامات والشرفات والشرعة وبني صخر هذا عدا العشائر التي تسكن لواء معان ، ومنطقة بيت لحم ، ومنطقة الكرك ، ومنطقة الجليل ، ومنطقة نابلس ، ومنطقة عجلون ، ومنطقة البلقاء ، وعدد أفخاذها تسعة وأربعون . إنه حقاً تطوّر عظيم . وقد شهدت بنفسي بعض هذه المظاهر وسلكت الطرقات التي شقت بين تلك القرى وقد حظيت عندها بمرافقة العقيد بركات طراد وهو من عرب الخرشان وكان قد اشترك هو نفسه قبلاً في الغزو هو ووالده وأصبح ابنه حضرياً يحمل شهادة الهندسة واقترن بفتاة من عمان تحمل شهادة « المترك » .

وهكذا فإن قابلية البدو الصناعية أخذت تتطورّ وخاصة في المناطق التي تعمل فيها الشركات فقد ذكر السيد مكي الجميل في كتابه «البدو والقبائل الرحّالة في العراق» أن شركة نفط الكويت تشغل ٣٨٪ من عمالها وموظفيها الفنيين من البدو الذين قهروا الآلة وتحكموا فيها وبرعوا في إدارتها[٤] . وأشار في الوقت نفسه إلى أن ٩٠٠ عامل يسكنون في مساكن مشتركة أو في القرى المجاورة لعملهم[٥] . ولم يفته في كتابه أن يقدّم كثيراً من الاقتراحات الصائبة في الوسائل لتوطين البدو وتحضيرهم وتدريب الاخصائيين لقيادة العمل التربوي[٦] ومساهمة وزارة الشؤون الاجتماعية في عملية التوطين[٧] .



البدويات يعملن في جمع القطن

ومن الأمور التي تيسر على البـدوي التحضر أن شيوخـه عمومـاً أقرب البـدو الى التحضّر وأسبقهم اليه ، فليس من العار اذا قلد شيخه في ذلك ولا سيما إذا كان ذلـك ييسّر له عيشاً أفضل مما كان قبل .

وقد رأيت في بعض القرى عاملات بدويات يعملن في مزارع القرويين الاغنياء في مواسم قطف زهر القطن كما نرى في الرسم في اعلاه ، حيث أغرتهم الأجور فيما يظهر فلم يرين بأساً في العمل وهو كان أمر يندر أن يقع في الأجيال السابقة .

ومن مظاهر التطور عنايتهم بأمور الصحة والمرضى ، وايمـانهم بتقدم الـطبابـة في

الحواضر ، ولجوؤهم الى مصحاتها ومشافيها للطبابة، وقد سبق وذكرت أنه كان في سجل المستشفى الدانمركي ببلدة النبك في أوائل الخمسينات (١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) ما يوازي ثلث المرضى الذين عولجوا في واحدة من تلك السنين . زد على هذا اهتمامهم بما يجري حولهم من أحداث والتفاتهم إلى معرفته، وذلك بفضل وسائل الاذاعات المختلفة، والجهاز الناقل لاستماعها ورخصه وسهولة اقتنائه ، وأذكر أني زرت في الأربعينات من هذا القرن مضرباً من مضارب الرولة فلم أر فيه سوى جهاز لاقط عند الحضري الذي يصلّح لهم الأسلحة وحوائج المنزل المعدنية وغيرها ، وعدت بعد ذلك بسنين فإذا بالكثيرين يحوزون « الترانزستر » الذي يَسّر للبدوي إغناء معلوماته عن العالم وأخباره وما يجري فيه من أحداث واكتشافات ، والبدوي طُلَعة بطبيعته ، يسألك حين تقابله في البادية عمّا عندك من الأخبار. وقد حقق له «الترانزستر» مُخبراً متطوّعاً يمدّه بأنواع من الأخبار، ويوسّع له معرفته وثقافته.

ومن مظاهر التطور في حياة البدوي انصراف أكثرهم عن تربية الخيل حين توقف الغزو كما كان يجري في القرون السابقة ، فقد ورد في تقرير لأحد القناصل الانكليز وضعه في اوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، أن لِقبيلة الرولة في بوادي شمالي الجزيرة كلها نحو ١٢٠٠٠ بيت شعر ، وأن هناك بدواً آخرين تعد بيوتهم بنحو ستين ألفاً ، عدا شمّر العراق ، وقدّر أنه يعيش في البيت الواحد بين الفارس والثلاثة ، وهذا يستدعي برأيه أن يكون لدى البدو من الخيل ما يبلغ عشرات الألوف ـ وقد انخفض هذا العدد اليوم بشكل هائل ، وليس غريباً اذا عرفنا اليوم أن الخيل في شمالي الجزيرة كلها لا تبلغ عُشر ما كانت قبلاً ، وذلك يصدق لا على الخيل وحدها بل على بيوت الشعر وعلى سكان البادية ، وقد يجوز أن تكون بعض الأوبئة قد فتكت بالكثير من أبناء البادية وببعض حيواناتهم حين لم يكن هناك وسائل لاتقاء الأوبئة، ولكن مهما يكن من أمر فإن تربية الخيل أصبحت في هذا الزمن الأخير من حياة البدو أكثر تكليفاً من قبل ، وذلك لغلاء العلف الذي لا بد منه في بعض المواسم وفقر البدوي وعجزه عن شرائها . ومن هنا قد أصبحت الخيل نادرة لأن البدو كانوا يربونها للغزو وقد انقطع الغزو . وقد لاحظت ذلك بنفسي عند ترددي الى مضاربهم سواء منهم عرب الإبل وعرب الشوايا ، فلم أر عند القبيلة التي تعدّ نحو مئة بيت أكثر من بضعة رؤوس خيل لا تزيد على العشرة .

وما يصدق على الخيل يصدق إلى حدّ على الإبل وعلى عدد بيوت الشعر. فقد كان للإبل قديماً سوق رائجة في أكثر بقاع العالم العربي لحمل البضائع والمؤن في القوافل

وللعمل في بعض أمور الزراعة وبخاصة في مصر حيث كانت تباع الذكور أيضاً وتذبح ويوضع للحمِهَا سعر خاص ، كما تسعّر لحوم الحيوانات الأخرى من بقر وغنم وماعز ، ومثلها في دمشق نفسها وغيرها من المدن السورية ـ وقد خفّ الطلب على لحومها في المدن السورية ، وانقطع توريدها الى مصر وزالت الحاجة اليها في سوريا فأخذ مقتنو الإبل يجنحون الى تربية الغنم ، وهذا يدفعهم الى الانقطاع عن التردد الى قلب البادية ، ويفرض عليهم لزوم ضفافها والحواضر التي تقع قريبة منها ـ وهو أمر بدوره يدفع الى سهولة التحضّر وتتطور معه حياة البدوي العريق الى البداوة بحيث يصبح نصف بدوي وأخيراً يصبح حضرياً .

وشيء آخر يجب الالتفات اليه والى أثره في التطور والانتقال تدريجيّاً من حالة البداوة الى بعض التحضر ، وهو أن البادية كانت في السابق غنية بالحيوانات التي ألف البدوي صيدها والاستمتاع بلحومها ، كالغزلان التي كانت منتشرة بأعداد كبيرة في أكثر بقاع الجزيرة ، وبخاصة في الشمال ، وكالمها وكحمار الوحش وكالأيائل التي كانت توجد في أكثر الجبال المحيطة بالبادية ، وكالأرانب والنعام وكثير من أنواع الطيور وخاصة الحبارى والقطا . وكان في صيد هذه الحيوانات والطيور متعة للبدوي وهواية لا تعدلها هواية سوى هواية الغزو ـ وكان لبدو صليب النصيب الأوفر في ممارسة الصيد وكسب بعض عيشهم منه ، أما اليوم فقد انقطع الغزال أو كاد في شمالي الجزيرة كلها ، وانقطع النعام وانقطعت المها الا ما لجأ منها الى الربع الخالي ، وانقطع حمار الوحش ، فصار من الطبيعي للبدوي المستكن بخيمته ان يلتفت الى مورد رزق آخر في الحواضر والعيش في بيئة جديدة والتعلق بأسباب جديدة من الحياة ، وعلى سبيل المثال فإني أعرف عائلات في القرية التي ولدت فيها بعضها من أصل بدوي وبعضها من أصل صُلَيْبِي ـ كبيت صليبي وبيت سَنَد وبيت نزّال هذا عدا زعماء القرية في القرن الماضي الذين تحدّروا من بدو الجوف . وقد أصبح منهم اليوم قادة في الجيش السوري وموظفون كبار في الدولة ، عدا هؤلاء الذين يشغلون مراكز مرموقة في التجارة والتعليم .

وشيء آخر كان له أثر كبير في تطور الحياة عند البدو هو شركات الزيت وخاصة « أرامكو » فقد يسرّت لكثير من البدو الذين انقطعوا عن الغزو وكانوا على صلة ببعض الحواضر في الجزيرة ان يتحضروا ويألفوا سكنى القرى والبيوت الحجرية وعيش المدن ، وقد أوجدت لهم الشركة من الأعمال ما يتفق وأمزجتهم بحيث أخذوا يشعرون انه ليس عاراً ان يقوم المرء ببعض الأعمال البدوية ، أو بمراقبة العمال ، أو سوق السيارات وما الى هذه الألوان من الأعمال ، وقد رأيت بالفعل بعضهم يقوم بأعمال فنية في « أرامكو »



حداد في البادية . لاحظ هوائي الراديو بين عمودي الخيمة

تعلمها دون أن يدرك سرها وعواملها ، هـذا عدا مَنْ تعلم مِنْ أبنـاء الشيوخ والأمـراء الذين هم في الأصل بداة ونالوا أعلى الشهـادات من الجامعـات المختلفة ، وكـان منهم أخيراً ذلك الأمير الذي شارك في رحلة أحد المراكب الفضائية فكان أول عـربي يساهم بمثل هذا الأمر في سبيل العلم .

بقي أمر التربية أو التعليم وقد أخذت أكثر الدول العربية تسن في دساتيرها مـا يهدف الى تعليم البدو ، وأخذت تحاول بشتى الطرق البسيطة أن تنشر شيئاً من ذلك في

المضارب نفسها كبعض المدارس النقالة، أو المعلمين ينتقلون بين المضارب لتعليم أولاد الشيوخ ، وأخذ بعض أبناء الشيوخ أنفسهم ينخرطون في مدارس الحواضر ، ويسكنون في الحواضر ، ويلبسون كأبناء الحواضر محتفظين بلباس الرأس المألوف عند البدو وهو الكوفية والعقال ، أو الشملة دون عقال . وقد شاهدت في خيمة الأمير فواز منذ عهد بعيد استاذاً مرافقاً لابنه متعب يعلّمه الإنكليزية وكان قبلها يتعلم في مدرسة في دمشق وقد أخرجه والده في الصيف الى العيش في البادية لكي يظل على صلة بها وبأهلها البدو . وشاهدت في خيمة الشيخ حديثة في شرقي الأردن أولاد الشيوخ مرتدين البزات الإفرنجية وكلهم يتعلم في المدارس الحكومية في عمان. وكان لي الحظ ان علّمت وأنا في الجامعة طلبة الصف الأخير في الكلية الثانوية منها وكان منهم الشيخ صفوق الياور ابن الشيخ عجيل الياور شيخ قبيلة شمر في العراق الذي أصبح شيخاً بعد والده ، بل قد علمت وأنا في الجامعة طالباً بدوي الأصل أصبح سفيراً لبلاده شرقي الأردن فيما بعد هو المرحوم فرحان شبيلات ، هذا عدا العشرات من أبناء العشائر في الأردن الذين أصبحوا لا يختلفون عن الحضريين في شيء .

ولا بدّ لي في ختام هذا البحث وأنا اتحدث عن التطورات الاخيرة في الحياة البدوية من الإشارة الى انه مهما حاول ذوو السلطة في البلاد العربية أن يقضوا على البداوة ، أو يحضّروا البداة كلياً وخاصة أصحاب الأبل فلن يتم ذلك لهم مادام هناك قسم من الجزيرة العربية بوادي أو صحارى رملية . ولعله من الخير أن يكون هناك بداة يستغلّون هذه البوادي في تربية الإبل التي يزعم الرولة انها لما خُلقت خُلقوا لرعايتها . وليس من شك في أن الحاجة الى اللحم غذاءً للانسان لم تنقص عن قبل وستكبر مع ازدياد السكان في الحواضر كما نشاهد في السنين العشرين الأخيرة في كل البلاد العربية . ومن هنا فإن الذي يحسن بالحكومات العربية أن تفعله هو أن تيسّر للبداة أمثال هؤلاء سبل العيش في البوادي مستعينة بكل الوسائل الحديثة التي يمكن أن تستعين بها كتحريج الجبال القريبة من البادية وحماية المحرّج منها كجبل البلعاس لزيادة معدل سقوط الأمطار في الشتاء وكترميم السدود المهدمة القديمة كسدّ الباردة مثلاً وإنشاء ما أمكن من سدود جديدة لحجز مياه السيول المتحدرة من الجبال المحيطة بالبادية وإنشاء بحيرات واسعة كتلك التي كانت سابقاً في بعض المناطق، وكحفر آبار ارتوازية حيث توجد مياه جوفية .

ويجب ان تُعين في الوقت نفسه حدود تقريبية للقبائل المختلفة في كل قطر وخاصة في البادية الشمالية بحيث لا تتنازع هذه القبائل فيما بينها ، وتُعين حدود اخرى بين المناطق المحددة للرعي والبداة وتلك التي تصلح للزراعة والاستقرار . وعندها لا أرى ما

يمنع أن تصبح بادية الشام كلها وضفافها من أغنى المنطق بالثروة الحيوانية والزراعية وتنعم بموارد جديدة في المناطق التي لا تصلها الأنهار الكبيرة .

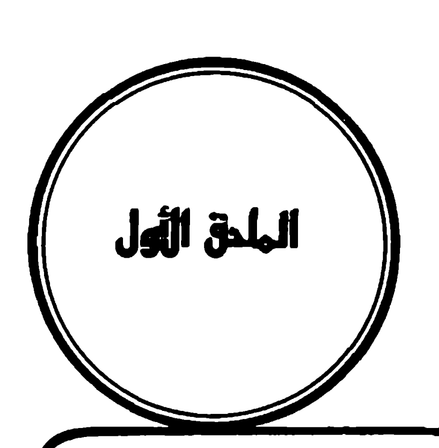
الحواشي :

(١) العشائر السورية وتحضيرها لأحمد العكام، دمشق ١٩٥١، ص ١١٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٣٣ .
(٣) راجع جريدة الرأي العام ٣٠ نيسان ١٩٥٦ العدد رقم ٥٨١ وفيها جدول بالمساحات التي تستثمرها العشائر في سوريا أورده ممثل مديرية العشائر في المجلس النيابي الأستاذ أحمد عكام وفيه تعداد أفراد العشائر ومساحة الأراضي بالدونمات كما يلي. ومنه يتبين أن أفراد العشائر التي تملك أراضي لا تعد أكثر من ٠٠٠ ١٤٠ وتملك نحو ٣ ملايين دونم.

اسم العشيرة	عدد افرادها	المساحة التي تملكها بالدونمات
الرولة	٢٠,٠٠٠	٠٨١٣٢١
السبعة بطينات	٠٦,٠٠٠	٠١٩٤٥٠
السبعة العبدة	١٢,٠٠٠	١٠٠٩٦٥
الفدعان ولد	١٣,٠٠٠	١٢٩٠٩٥
شمر الزور	٠٨,٠٠٠	٥٩٨٤٨٠
شمر الخرصا	١٢,٠٠٠	٦١٤٢٨٠
بني خالد	٠٨,٠٠٠	٢٣٣٨٨٨
الفواعرة	٠٣,٠٠٠	١٤٥١٠٥
الحديديين	٣٠,٥٠٠	٣٨٥٦٤٠
الموالي الشماليين	١٠,٠٠٠	٠٥٥٣٠٠
الموالي القبليين	٦,٠٠٠	٠٨٦١٦٠
البوخميس	٢,٥٠٠	٠٢٠٣٠٠
المهيد	٢,٠٠٠	٠٩١٨٦٥
البيار	٢,٣٠٠	٠٦١٥٠٠
الوها	٤,٣٠٠	٠٤٤٣٤٠

ويذكر عشائر أخرى ليس لها أرض يبلغ عدد أفرادها نحو ١٥,٠٠٠ فقط.
(٤) البدو والقبائل الرحّالة في العراق لمكي الجميل، بغداد ١٩٥٦، ص ١٣٣ .
(٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٦) المصدر نفسه، ص ٦٤.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٢ ـ ١٧٤ .

الملاحق



جدول بأسماء نباتات وشجيرات في البوادي العربية
باللهجة البدوية حسب ترتيبها الألفبائي
مع كيفية تلفظها بالانكليزية
ومسمياتها باللاتينية
ووصفها الموجز بالعربية

No.	Arabic name	Transliteration	Botanical name	Description
1	أَبو نَشْرْ	Abu - Nas͟hr	**Galium ceratopodum** Boiss.	عشبة لها زهر أزرق
2	أَثْل أو إِثْل	At͟hl or It͟hl	**Tamarix articulata** Vahl.	شجر طويل مستقيم الخشب أغصانه كثيرة العقد وورقه دقاق وثمره حب أحمر
3	إِجْدَيَّانْ	Ijdayyān	**Salvia lanigera** Poir.	من فصيلة القصعين
4	أُحَيْمْ	Aḥḥaym	**Silena gallica** L.	نوع من القرنفل
5	إِذْنِ الحْمَارْ	Id͟hn - el - Ḥmār	**Astragalus kahiricus** DC.	شجيرة ثانوية لها أغصان وأوراق بيض شَعْراء وزهر أصفر كبير
6	أَرَاكْ	Arāk	**Salvadora persica** L.	شجيرة تأكلها الجمال والمعزى والغزلان
7	إِرْبِيَّانْ	Irbiyyān	**Anacyclus alexandrinum** Willd.	عشبة مثل البابونج
8	إرجاْ	Irja'	**Helianthemum Lippii** (L.) Pers. see No. 129	عشبة لها أوراق شعراء وشوك وزهر أخضر يميل إلى الصفرة.
9	أَرْطَى	Arṭa	**Calligonum comosum** L'Hér.	شجيرة تكاد لا ترى لها أوراق، أغصانها مفصلة وزهرها أشعر بشكل الجوز
10	أُرَيْنْبَه	Uraynbah	**Bassia muricata** (L.) Murr.	عشبة بيضاء شعراء تَنْبُت على سطح الرمل وتغطيه
11	إِسْلِيح	Isliḥ	**Cakile arabica** Bornm. et Velen.	شجيرة كثيفة الأغصان معمرة، أغصانها معراة خضر ولها زهر قرنفلي طويل

12	إشْنَان	Ishnān.	**Seidlitzia rosmarinus** (Ehrenb.) Solms - Laub.	شجيرة ثانوية ذات رائحة ، لها أغصان بيض وأوراق خضر مروّسة وثمر مجنح ، تستعمل للتنظيف ويصنع منها القلو
13	أَطْيَطَة	Aṭṭayṭah		نبتة لها بصيلات صغيرة تحت الأرض
14	أُمّ رُوَيْس	Umm - Ruways	**Scabiosa palaestina** L.	عشبة فصلية (سنوية) لها زهور شعراء وأغصان وأوراق وزهر أصفر
15	بَخَاتْرِي	Bakhātri	**Erodium cicutarium** (L.) L'Hér.	عشبة رمادية اللون لها زهر أحمر
			Erodium laciniatum (Cav.) Willd.	
16	بُرَّيْد	Burrayd	**Bellevalia bracteosa** Velen.	من فصيلة التريد
17	بَرْوَق	Barwag	**Asphodelus pendulinus** Coss. et Dur.	نوع من البرواق ـ الفصيلة الزنبقية
			Asphodelus tenuifolius Car. var. **micranthus** Boiss.	
			Asphodelus aestivus Brot.	
18	بُرُوكان	Brūkān	**Centaurea camelorum** Velen.	شجيرة معمرة قصيرة لها أغصان شائكة وزهر أصفر
19	بزار السِمَّن	Bzār el - Simman	**Euphorbia rohlenae** Velen.	نبات له عصارة مرّة

20	بِزّ العَنْز	Bizz el - 'anz	**Stapelia** sp.	نوع يشبه الصبّير
21	بَسْبَاس	Basbās	**Echinosciadium arabicum** Zohary	عشبة من فصيلة البقدونس
22	بُصَيْل	Bussayl	**Bellevalia** sp.	نوع من البصل
23	بَعَيْثران	Ba'eithran	**Artemisia judaica** L.	نوع من شجر الافسنتين
24	بَطّوش	Baṭṭush		عشبة لها ثمر أحمر
25	بُطُم	Buṭum	**Pistacia terebinthus** L.	شجر له حب صغير من فصيلة الفستق الحلبي
26	بَنْجي	Banji	**Hyoscyamus arabicus** Velen.	نوع من فصيلة البنج
27	بُوَيْضَة	Bwayḍa	**Paronychia arabica** (L.) DC.	عشبة فضيّة القشرة لها زهر قرنفلي
28	تَرْبَه	Tarbah	**Eremobium nefudicum** (Velen.) Burtt et Rech. f.	عشبة تبكر بالظهور لها أوراق دقيقة وزهر قرنفلي
29	تُمَيْر	Tummayr	**Erodium bryoniaefolium** Boiss.	نوع من فصيلة الشوكران
			Erodium ciconium (L.) L'Hér.	
30	تَنْضُب	Tanḍub	**Capparis decidua** (Forsk.) Edgew.	شجيرة لونها أصفر يميل إلى الخضرة تتساقط أوراقها قبل الازهار
31	ثُمَام	Thmām	**Pennisetum dichotomum** (Forsk.) Del.	عشبة طويلة
32	جُرب (شجرة الجراد)	Jurb	**Onobrychis venosa** Desv.	عشبة من البقول لها وبر وزهر أصفر
33	جِتْيَات	Jityāt	**Francoeuria crispa** (Forsk.) Cass.	عشبة كثيفة الفروع لها رؤوس من الزهر الأصفر

34	جِرْجِير	Jirjīr	**Senecio flavus** (Decne.) Sch. Bip. **Senecio desfontainei** Bruce	نوع من زهرة الشيخ
35	جَرَد أو جِرِّيْذ	Jarad or Jirrayd	**Gymnocarpus decandrum** Forsk.	شجرة لها قشر أبيض رمادي وأوراق دقيقة وتحمل كريات صغيرة من الزهر
36	جُرَّيْس	Jurrays	**Atractylis cancellata** L.	عشبة قصيرة تحمل زهرات أرجوانية كبيرة تحيط بها أوراق فضيّة اللون
37	جُرَيْبَه	Juraybah	**Farsetia aegyptiaca** Turra	شجيرة معمرة لها وبر ناعم أبيض وزهر قرنفلي
38	جَزَر	Jazar	**Prangos arabica** Velen.	شجرة معمرة طويلة لها ساق عمودي وأغصان شعراء بيض وازهرار خيمي أصفر
39	جَعْدَة	Ja'adah	**Teucrium polium** L.	شجيرة بيضاء وبرية معطرة تحمل زهراً يتدلى منها
40	جَفْنَه	Jafnah		شجيرة تشبه العرفج لها فروع محرشفة
41	جَنْبَه	Jambah	**Fragonia brugueri** DC. **Fragonia schimperi** Presl.	شجيرة معمرة قصيرة لها شوك وفروع كثيرة
42	جَمَد	Jamad	**Galium sinaicum** (Decene.) Boiss.	نوع من الحشيش الذي يصير قشاً تحشى به الأسرة
43	حَارَّه	Ḥārrah	**Sisymbrium irio** L.	نوع من خردل السياج

44	حَرْشَف	Ḥarshaf	**Echinops ceratophorus** Boiss.	نوع من الشوك طويل وله أوراق شعراء وأكواز كبيرة وزهر أزرق
45	حَرْمَل أو حَرْجَل	Ḥarmal or Ḥarjal	**Peganum harmala** L.	عشبة لها أوراق مرّة
46	حْرَيْظَة	Ḥrayẓah	**Frankenia hirsuta** L.	شجيرة لها جذور طويلة وفروع منبسطة وأزهار بنفسجية
47	حَزَار	Ḥazār	**Malcolmia crenulata** (DC.) Boiss.	عشبة قصيرة لها أزهار صغيرة حمر تختفي تحت الرمال
48	حَسَك	Ḥasak	**Medicago aschersoniana** Urb. **Medicago laciniata** (L.) Mill.	عشبة مثل البرسيم ولها ثمر شائك
49	حُصْنِيَّة	Ḥuṣniyyah	**Phalaris brachystachys** Link	عشبة كثيفة الفروع وأطرافها شائكة
50	حَلْبَه	Ḥalbah	**Launaea mucronata** (Forsk.) Muschl	شجيرة معمرة كثيفة الفروع ولها جذور طويلة رفيعة وأوراق رمادية ورؤوس صفر
51	حَلْفَه	Ḥalfah	**Imperata cylindrica** (L.) Beauv.	نبتة تشبه القصب لها شوك أشعر أسطواني حريري الملمس
52	حِلِّب	Ḥillib	**Herniaria cinerea** Lam. et DC.	نبتة شعراء قصيرة رمادية تصبغ يد اللامس
53	حَلُولَا	Ḥalūla	**Leontodon autumnalis** L.	هندباء برية خريفية

54	خلَيْوه	Ḫlaywah	**Matricaria arabica** Velen.	عشبة مثل البابونج
55	حَمَاط	Ḥamāṭ	**Lithospermum callosum** Vahl	شجيرة معمّرة شعراء لها أوراق شائكة وزهر أزرق
56	حْباظ أو حُبيظ	Ḥambāẓ or Ḥumbayẓ	**Emex spinosus** (L.) Campd.	نوع من الحمّاض
57	حِمْحِمْ	Ḥimḥim	**Matthiola arabica** Boiss. **Matthiola oxyceras** DC.	عشبة لها ساق طويل أشعر وزهر أصفر
58	حَمْرَا	Ḥamrā	**Pennisetum ciliare** (L.) Link.	نوع من حشيشة النبع ولها شوك محمّر
59	حَمْصِيص	Ḥamṣīṣ	**Rumex pictus** Forsk.	نوع من الحمّاض
60	حَمْض	Ḥamḍ	**Haloxylon articulatum** (Cav.) Bge.	شجيرة صغيرة لها أوراق مثل الإبر وشوك وزهر أبيض تستعمل حطباً للوقود ولها عصير حلو
61	حَمّاء	Ḥammā'	**Erucaria uncata** (Boiss.) Asch. and Schweinf.	عشبة لها أوراق صغيرة وعذق من الزهر الأحمر
62	حَنْظَل	Ḥanẓal	**Citrullus colocynthis** (L.) Schrad.	عشبة مرّة
63	حِنْوَه	Ḥinwah	**Calendula aegyptiaca** Desf. **Calendula micrantha** Tineo et Guss.	نوع من الآذريون
64	حَوْذَان	Ḥawdhān	**Picris radicata** (Forsk.) Less.	عشبة كثيفة لها جذوع شعراء ورؤوس تحمل زهراً عطراً أصفر

65	حَوَّاء	Ḥawwa'	**Lagoseris sancta** (L.) K. Maly	عشبة لها جذع طويل ورفيع وأوراق طويلة وتحمل زهراً أصفر
66	خَافُور	Khāfūr	**Schismus arabicus** Nees.	عشبة كالشوفان كثيفة الفروع
			Schismus barbatus (L.) Thell.	
67	خَالُوله	Khālulah	same as No. 53	نوع من الهندباء البرية
68	خُبَّيْزة	Khubbayzah	**Malva pusilla** Sm.	نوع من الخبيزة
69	خُذْراف	Khudhrāf	**Salsola spissa** Bieb.	عشبة لها ثمر مجنح
70	خَرْبَقَة	Kharbaqah	**Helleborus vesicarius** Auch.	نوع من الخربق جميل الزهر
71	خَرْشَف	Kharshaf	same as Nos 44 and 78	مثل رقم ٤٤ و ٧٨
72	خْرَيْمَة	Khraymah	**Hippocrepis bicontorta** Lois.	عشبة من نوع البقول كالحمص والفول
73	خْزَامَه	Khzāmah	**Malcolmia arabica** Velen.	عشبة لها عصير وزهر عطر أحمر يلصق الرمل بها
74	خَفْش	Khafsh	**Diplotaxis harra** (Forsk.) Boiss.	شجيرة شائكة شعراء لها زهر أصفر
75	خَشْنِنا	Khashshayna	**Carrichtera annua** (L.) Asch.	عشبة شعراء لها تويجات مخططة بلون بنفسجي
76	خُطْمي	Khuṭmi	**Polygonum equisetiforme** Sibth et Sm.	عشبة تشبه ذيل الحصان
77	خُمْصَان	Khumṣan	**Isatis microcarpa** J. Gay	عشبة تشبه الخشب
78	خَشِير	Khashīr	same as Nos 44 and 71	مثل رقم ٤٤ و ٧١

79	دَبْغَه	Dabg͟hab	**Erodium glaucophyllum** (L.) L'Hér.	عشبة معمرة لها ساق أو سيقان منبطحة وأزهار بلون الأرجوان
80	دُرَيْهِمَه	Drayhmah	**A[illegible]um homalocarpum** (Fisch. et Mey.) Boiss.	عشبة شعراء شائكة لها أزهار صفر
81	دَعَاع	Da'a'	**Mesembryanthemum nodiflorum** (L.)	نوع من نبات السمح
82	دَعْلوق الجَمَل	Da'luq el - Jamal	**Scorzonera musili** Velen.	شجيرة معمرة لها جذوع طويلة وأغصان بيض كثيفة ورؤوس شعراء من الزهر الأصفر
83	دْهَمَه	Dhamah	**Erodium laciniatum** (Cav.) Willd.	عشبة لها جذوع طويلة جداً وسداة (العضو الذكري في الزهرة) أو أكثر قصيرة وزهور أرجوانية صغيرة
84	دَيْدهان أو حَيْمَران	Daydahān or Ḥaymarān	**Papaver laevigatum** Bieb.	نوع من الشقائق
85	ذَانون	D͟hānūn	**Cistanche tubulosa** (Schenk) Wight	عشبة طفيلية لها جذع يبلغ نحو مترين وشائكات مزهرة رائعة منبطحة على الرمل
86	ذَنَبْنَب	D͟hanabnab	**Reseda arabica** Boiss.	نوع من البليحاء العطرية
87	ذَيْل الحُصْني	D͟hayl el - Ḥuṣni	**Eremopyrum orientale** (L.) Jaub. et Spach	عشبة كالقمح
88	رْبَحْلَه	Rbaḥlah	**Scorzonera papposa** DC.	نبتة ذات بصل ورؤوس مزهرة ليلكية

89	رَبْل	Rabl	**Pulicaria undulata** (L.) Kostel.	معمرة ذات وبر لها جذع ثخين ورؤوس من الزهر الأصفر
90	رِبْله	Riblah	**Plantago cylindrica** Forsk. **Plantago gintlii** Velen.	نوع من نبات آذان الجدي أو لسان الحمل
91	رَتَم أو رُتُم	Ratam or Rutum	**Lygos raetam** (Forsk.) Heywood	شجيرة معمرة لها أغصان خشنة وأوراق طويلة مروسة وأزهار عطرة تتدلى منها
92	رِجْلةِ الغُراب	Rijlat el - Ghurāb	**Senecio gallicus** Choix	عشبة ذات أوراق متعاقبة ورؤوس بيض شعراء وأزهار صغيرة
93	رَحَاب	Rahạ̄b	**Heliotropium arbainense** Fres.	شجيرة معمرة لها أوراق شعراء وشائكات زهر كبيرة
94	رْخَامَه	Rkhāmah	**Convolvulus reticalatus** Choisy	شجيرة معمرة ذات وبر تشبه اللبلاب ولها جذوع ثخينة خشبية وتحمل زهراً أبيض قرنفلي
95	رَشَاد	Rashād	**Lepidium sativum** (L.)	نوع من البهار الفلفلي
96	رْعيصه أو نايمة	R'ayṣah or Nāymeh	**Pteranthus dichotomus** Forsk.	عشبة طرية قصيرة لها رؤوس مزهرة كثيرة وثمر مجنح
97	رُغْل	Rughl	**Atriplex leucoclada** Boiss.	شجيرة فضية ـ بيضاء ولها عناقيد من الزهر الصغير الأصفر
98	رُغَيْله	Rughaylah	**Atriplex dimorphostegia** Kar. et Kir.	عشبة لها أوراق مرصعة بحلمات بلورية الشكل وأزهار صفر صغيرة

No.	Arabic	Transliteration	Scientific name	Description
99	رَقْمَه	Raqmah	same as No. 83	مثل رقم ٨٣
100	رْقَيجَه	Rqayjah	**Zygophyllum simplex** L.	عشبة منبطحة ذات أوراق صغيرة وأزهار صفر من فصيلة النبات الذي تخلّل أزهاره
101	رْقَيشي	Rqayshi	same as No. 100	مثل رقم ١٠٠
102	رْقَيْطة أو هْلَيْبة	Rqaytah or Hlaybah	**Carduus getulus** Pomel	عشبة شائكة لها رؤوس حمر
103	رِمْث	Rimth	Same as No. 60	مثل رقم ٦٠
104	رَمْرَام	Ramrām	**Heliotropium luteum** Poir. **Heliotropium persicum** Lam.	لها أوراق حافاتها متموجة الأولى وبرية والثانية شائكة وزهرها أصفر
105	رُوثه	Rūthah	**Salsola lancifolia** Boiss.	شجيرة لها أوراق ريشية الشكل وزهر قرنفلي صغير
106	رِيحَان	Rihān	**Ocimum basilicum** L.	عشبة عطرة
107	زبّ الذيخ	Zibb el - Dhīkh	**Orobanche cernua** Loefl.	عشبة طفيلية لا أوراق لها. لها قاعدة كثيفة طرية وزهر مُسَنبل
108	زْرَيقة	Zrayqah	**Lotus angustissimus** L. **Lotus gebelia** Vent.	نوعان أو فصيلتان من برسيم (قرن الغزال)

109	زهر	Zahr	**Brassica tournefortii** Gouan	عشبة تشبه اللفت
110	زَيْتَه	Zaytah	**Lavandula coronopifolia** Lam.	فصيلة من اللاوندة لها زهر أزرق
111	سُبُط	Subuṭ	**Aristida plumosa** L.	فصيلة من العشب وتسمى حين تيبس نَسي أو نَسْيّ
112	سِجّيل	Sijjīl	**Koeleria phleoides** (Vill.) Pers.	عشبة لها أوراق ناعمة منبسطة شعراء بشكل أهلّة
113	سِدْر	Sidr	**Ziziphus spina - christi** (L.) Willd.	شجيرة لها زغبات أو زوائد شائكة
114	سعدان	Sa'dān	**Neurada procumbens** L.	عشبة وبرية منبطحة لها ثمر كروي كبير شوكي
115	سَعَيْد	Sa''īd	**Iris sisyrinchium** L.	سوسنة صغيرة لها أزهار زرق
116	سَفْسوف	Safsūf	same as No. 87	مثل رقم ٨٧
117	سُكُب	Sukub	**Fumaria parviflora** Lam.	بقلة الملك صغيرة وتزهر
118	سِلْع	Sil'	**Convolvulus pilosellifolius** Desr.	فصيلة معمرة من الأعشاب الضارة لها زهر قرنفلي
119	سِلّه	Sillah	**Zilla spinosa** (Turra) **Prantl.**	شجيرة شائكة
120	سْلَيقه	Slayqah	**Scorpiurus subvillosus** L.	شجيرة صغيرة أو عشبة مثل عشبة البنجر لها أوراق خضر صغيرة
121	سْلَيلَة	Slaylah	**Aristida obtusa** Del.	عشبة معمرة قصيرة جدًا

No.	Arabic	Transliteration	Scientific name	Description
122	سِمْح	Simḥ or Semḥ	**Mesembryanthemum forskahlei** Hochst.	نبات قصير، غضّ له أوراق خضر طريّة بنية وزهر أخضر صغير، وحبوبه تستعمل بديلاً عن القمح
123	سَمُر	Samur	**Acacia tortilis** (Forsk.) Hayne	شجيرة قصيرة (واطئة) شائكة
124	سمّاع	Sammā‘	**Bufonia multiceps** Decne.	عشبة قصيرة بساق شجيري وأوراق قصيرة تشبه الخيوط
125	سَمْن	Samn		عشبة لها أغصان طويلة وأزهار بيض طويلة
126	سُنَيسِلة	Sunayslah	**Bupleurum semicompositum** Höjer	عشبة خضراء صفراء تشبه الحشيش
127	سْواس	Swās		نبات طويل يشبه الكلخ
128	سْوَيس	Sways		شجيرة سمراء
129	سْوَيقَه	Swayqah	**Helianthemum lippii** (L.) Pers. (see No. 8) **Helianthemum sessiliflorum** (Desf.) Pers. **Helianthemum ventosum** Boiss.	نوع من فصيلة نبات أشرقت الشمس تشبه الأعشاب الضارة (انظر رقم ٨)
130	سْيَال	Syāl	**Acacia seyal** Del.	نوع من السنط
131	شِبْرع	Shibri‘	**Pergularia tomentosa** L.	عشبة من الأعشاب المتسلقة لها أوراق وبرية وأزهار خضر تميل إلى الصفرة
132	شُبْرُم	Shubrum	same as No. 119	مثل رقم ١١٩

No.	Arabic	Transliteration	Scientific name	Description
133	شَجَره	Shjarah		شجيرة لها أغصان سمر وأوراق مثل أوراق الخوخ
134	شَجْرة النخل	Shajarat el - Nakhl	**Pterocephalus pulverulentus** Boiss. et Bl.	معمرة لها أسفل مكثف يميل إلى البياض وزهر أصفر
135	شَحُّوم	Shahhūm	**Gagea reticulata** (Pall.) A. and H. Schultes	عشبة بصلية صغيرة لها أوراق هلالية وأزهار خضر بحواشٍ صفر
136	شِدّ الجمل	Shidd el - Jamal	**Paronychia arabica** (L.) DC.	شجيرة لها حراشف لمّاعة
137	شَعران	Sha'rān	**Suaeda**	شجيرة تحمل أزهاراً خضراً صغيرة
138	شِقّارة	Shiqqārah	same as No. 61	مثل رقم ٦١
139	شِلْوَه	Shilwah	**Linaria tenuis** (Viv.) Spreng. **Linaria musili** Velen.	عشبة واطئة مثل الكتان
140	شِيخ	Shīh	**Artemisia inculta** Del.	نوع من شجيرات الافسنتين يستعمل حين ييبس للوقود
141	صِرّ	Sirr	**Noaea mucronata** (Forsk.) Asch. and Schweinf.	شجيرة لها أغصان شائكة
142	صْفَار	Sfār	same as No. 143	مثل رقم ١٤٣
143	صُفّاره	Suffārah	**Barbarea arabica** Velen.	عشبة واطئة لها فروع كثيرة وأزهار صفر صغيرة
144	صْليّان	Slayyān	**Aristida ciliata** Desf.	عشبة معمرة واطئة

145	صَمع	Ṣam‘	**Stipa tortilis** Desf.	عشبة لها حسك طويل جداً ومفتول كثيراً
146	ضُريِّط النعام	Ḍurrayt el– Na‘ām	**Cleome arabica** L.	شجيرة بشكل نصف دائرة لها زهر أرجواني
147	ضريع	Ḍarī‘	**Tricholaena teneriffae** (L. F.) Link.	عشبة من فصيلة النجيل
148	ضَمْران	Ḍamrān	**Salsola tetrandra** Forsk.	شجيرة صغيرة لها فروع معقدة وأوراق طرية محرشفة
149	طْحَمَة أو طَحْمَة	Ṯhamah or Ṭaḥmah	**Suaeda vermiculata** Forsk.	شجيرة معمرة لها أوراق طرية خضر وأزهار صغيرة جداً
150	طَرْبه	Ṭarbah	**Malcolmia nefudica** Velen.	عشبة تبكر لها أوراق دقيقة وأزهار قرنفلية
151	طَرْثوث	Ṭarthūth	**Cynomorium coccineum** L. var. **gagantium** Velen.	نبتة طفيلية لها شرش أطول من مترين وزهر كثيرأصفر وقرنفلي بشكل سنبلة كبيرة ينمو على شرش شجر الغضا ويؤكل
152	طَرْفَه أو طرفاء	Ṭarfah or Ṭarfā’	**Tamarix hampeana** Boiss. **Tamarix nilotica** (Ehrenb.) Bunge	عدد من فصيلة الأثل ويعرف بالطرفه

No.	Arabic	Transliteration	Botanical name	Description
153	طَلْحْ	Ṭalḥ	**Acacia raddiana** Savi	واحدة من أنواع الطلح لها تاج مدورٌ غير منتظم وأزهار عطرة بلون القشطة
154	عَذِير	Adhīr		شجيرة عطرة لها أوراق حادة وأزهار صغيرة
155	عاقول	ʿĀqūl	**Alhagi maurorum** Medicus	شجيرة صغيرة شائكة لها أوراق وعناقيد من الزهر الأحمر
156	عُبَيْتِرانْ	ʿBaytrān	same as No. 23	مثل رقم ٢٣
157	عَجْرَم	ʿAjram	**Anabasis setifera** Moq or/and **Anabasis articulata** (Forsk.) Moq.	شجيرة لها فروع طويلة خشنة وأوراق محرشفة رفيعة مثل الإبَر تشبه الرمث
158	عديِّس	ʿAddīs	**Andrachne telephioides** L.	عشبة مثل الدفنة أو عود الغار
159	عَذّام	ʿAdhdhām	**Ephedra alata** Decne. (see No. 179)	شجيرة تشبه العجرم (انظر رقم ١٧٩)
160	عَذُوب	ʿAdhūb		شجيرة لها أوراق صفر ريشية الشكل
161	عَرَاد	ʿArād		شجيرة لها أغصان وأوراق شعراء صفر تشبه الروثة
162	عَرْفَجْ	ʿArfaj	**Musilia arabica** Velen.	شجيرة كثيفة لها فروع بيض وأوراق صغيرة ورؤوس من الزهر العطر الأصفر
163	عِرْق	ʿIrq	**Prosopis farcta** (Banks et Sol.) Macbride	شجيرة من فصيلة السنط لها أوراق ريشية ورؤوس شوكة من الزهر الصغير
164	عَرَنْطَه	ʿAranṭa	**Gaylussacia canescens** Meissn.	عشبة تشبه البليحاء العطرية

No.	Arabic name	Transliteration	Scientific name	Description
165	عِشْبة أم سالم	ʻIshbet umm - Sālem	**Notoceras bicorne** (Ait.) Amo	عشبة واطئة مثل عشبة الرشاد
166	عِشْبةِ الجرو	ʻIshbet el - Jeru	**Tephrosia musili** Velen.	شجيرة لها سدوات وأوراق برية وعناقيد من الزهر الأبيض
167	عِشْبةِ الحَمَام	ʻIshbet el -Ḥamām	**Arnebia hispidissima** (Lehm.) DC.	عشبة شائكة لها شروش طويلة تحتوي على صبغة بنفسجية
168	عشبة الراس	ʻIshbet el - Rās	**Lappula spinocarpos** (Forsk.) Asch ex Ktze	عشبة شائكة شعراء لها زهر صغير
169	عشبة العقرب	ʻIshbet el -Aqrab	**Anagallis arvensis** L. **ssp. latifolia** (L.) Arcangeli	كزبرة الثعلب لها زهر أزرق
170	عشبة الغراب	ʻIshbet el - Ghurāb	**Calendula aegyptiaca** Desf.	نوع من فصيلة الأذريون
171	عَصَنْصل	ʻAṣanṣal	**Colchicum szovitsii** Fischer and C. A. Meyer	عشبة لها بصلة سمراء محرشفة وأزهار بيض مثل زهر الزعفران
172	عَضُو	ʻAḍu		شجيرة لها أوراق شائكة صغيرة وأزهار خضر
173	عَضيد	ʻAḍīd	**Reichardia picroides** (L.) Roth.	عشبة واطئة لها رؤوس زهر خضر صغيرة

No.	Arabic	Transliteration	Botanical name	Description
174	عَفُو	‘Afu		شجيرة كبيرة لها اغصان طرية وأوراق صغيرة
175	عُفَيْنَة	‘Ufaynah	**Cleome arabica** L.	عشبة لها رؤوس من الزهر الأحمر
176	عَقُول	‘Aqūl	**Alhagi maurorum** Medicus	شجيرة شائكة لها أوراق بسيطة ورؤوس من الزهر الأحمر
177	عَكْرِش	‘Akrish		شجيرة شائكة كثيفة لها أوراق خضر
178	عَلْقَة	‘Alqah	**Scrophularia hypericifolia** Wydl.	شجيرة معمرة لها أوراق مشطورة وأزهار أرجوانية صغيرة
179	عَلَنْده	‘Alandah	**Ephedra alata** Decne. See No. 159	شجيرة لها أغصان محرشفة خالية من الأوراق وأزهار صفر صغيرة تشكل رؤوساً مدوّرة. انظر رقم ١٥٩ .
180	عَنْصَلان	‘Anṣalān	**Ornithogalum** sp.	نبتة بصلية من جنس البَرْواق من الفصيلة الزنبقية
181	عَنَمْ	‘Anam	**Alyssum anamense** Velen.	عشبة واطئة لها فروع رفيعة وأزهار صغيرة صفراء
182	عُنَيْبَه	‘Unaybah	**Solanum sinaicum** Boiss.	عشبة تشبه الفصيلة الباذنجانية
183	عَوْسَجْ	‘Awsaj	**Lycium arabicum** Schweinf.	شجيرة شائكة كثيفة تحمل توتاً حلواً أحمر (أو ثمر عليق)
184	غَرَزْ	Gharaz	**Pennisetum ciliare** (L.) Link.	عشبة من فصيلة حشيشة النبع
185	غَسّه	Ghassah	**Ballota luteola** Velen.	ريحانة: شجيرة لها أوراق مكشكشة وعناقيد من الزهر الأبيض

186	غَضْرَف	Gh̲aḍraf	**Salsola baryosma** (Roem. et Schult.) Dandy	شجيرة لها شروش طويلة وفروع كثيفة وأزهار ورديّة
187	غَضَا	Gh̲aḍa	**Haloxylon persicum** Boiss.	شجيرة كالشجرة لها فروع طويلة لدنة وأوراق رقيقة كالابر، وتستعمل حطباً
188	غَزَّال	Gh̲azzāl	**Euphorbia retusa** Forsk.	نوع من الغربيون ـ له عصارة لبنية مريرة
189	فِرس	Firs	**Traganum nudatum** Del.	شجيرة لها رائحة تشبه شجر الافسنتين
190	فُرَيْطَة	Frayṭah	**Haplophyllum blanchei** Boiss.	شجيرة ذات فروع أو أغصان مستقيمة وأوراق صغيرة وأزهار حمر أو صفر
191	فِطر	Fiṭr		الفطر هو من فصيلة الكمأة
192	فليفلة	Flayflah		عشبة واطئة خضراء قاتمة ولها رائحة قوية
193	فنون أو كحيّل	Funūn or Kuḥḥayl	**Echium longifolium** Del.	عشبة شعراء وشائكة لها أشواك منتصبة زرق وصبغة زرقاء
194	قَتَاد	Qatād	**Astragalus spinosus** (Forsk.) Muschl.	شجيرة كثيفة لها أشواك طويلة حادة وزهر أبيض
195	قحعوب	Qaḥ'ūb		شجيرة صغيرة ذات أغصان وعناقيد زهر كثيفة
196	قرب	Qirb	**Linaria aegyptiaca** (L.) Dum. Cour.	شجيرة معمّرة تحمل أزهاراً صغيرة مسنّنة أو مثلّمة وصفراء

197	قُرْظِي	Qurẓi	**Pituranthos triaradiatus** (Hochst.) Asch. et Schhweinf. **Deverra chlorantha** Coss. et Durr.	شجيرة طويلة لها أوراق مشطورة وتحمل أزهاراً خضراً صغيرة
198	قرنا	Qirna	**Hippocrepis ciliata** Willd. **Hippocrepis biconcorta** Lois.	عشبة من الفصيلة البقلية
199	قُرَيطه	Qrayṭah	**Plantago coronopus** L.	نوع من عشبة آذان الجدي
200	قُرَّيص	Qurrayṣ	**Trigonella hamosa** L.	عشبة تشبه فصيلة اللوبياء
201	قُرَيمة	Quraymah	**Jaubertia calycoptera** (Decne.) Täckh	شجيرة لها فروع معرّاة وأثمار مجنحة
202	قَصْبَة أو خشينة الحشيش	Qaṣbah or Khashīnet el - Ḥashīsh	**Astenatherum forskalli** (Vahl) Nevski	عشبة طويلة لها حراشف مغطّاة بالوبر
203	قْصِيص	Qṣīṣ		شجيرة معمرة واطئة لها أوراق شعراء شائكة
204	قَضْقَاض	Qaḍqāḍ	**Salsola inermis** Forsk.	شجيرة ثانوية لها أوراق رمادية وأزهار صغيرة
205	قَطَف	Qaṭaf	**Atriplex** L. sp.	شجيرة ثانوية لها أزهار صفراء صغيرة مُتدليّة
206	قْطَيْط	Qṭayṭ	**Solanum sinaicum** Boiss	عشبة تشبه الفصيلة الباذنجانية

207	قُطَيِّن	Quṭayyin	**Bassia eriophora** (Schrad.) Ktze.	عشبة تشبه فصيلة الخبّازى
208	قَطوح	Qaẓūḥ	**Polygala scoparia** HBK.	شجيرة ثانوية لها فروع شائكة وأزهار خضر تميل إلى البياض وهي من فصيلة المستدرّات
209	قَفْعَة	Qaf'ah	**Astragalus gyzensis** Del.	عشبة واطئة لها أوراق شائكة وقشرة ثمر لدنة
			Astragalus kofensis Velen.	
			Astragalus radiatus Ehrenb. ex Bge.	
			Astragalus tenuirugis Boiss.	
			Astragalus tribuloides Del.	
			Astragalus triradiatus Bge.	
			Astragalus tuberculatus DC.	
210	قُلَيْجلان	Qlayjlān	**Savignya longistyla** Boiss.	عشبة لها زهر قرنفلي صغير وقشرة ثمر مدوّرة
211	قُنَيْفِذة	Qnayfdhah	**Anastatica hierochuntica** L.	وردة جنكو
212	قَيْصوم	Qayṣūm	**Pyrethrum musili** Velen.	عشبة عطرة لها فروع رفيعة وأوراق شعراء ورؤوس كثيرة من الزهر
213	كَحَيْل أو كُحَيل	Khayl Kuḥayl	**Anchusa hispida** Forsk.	عشبة شعراء خشنة لها زهر أصفر وشرش يستخرج منه صبغة

214	كُحَيْل النَّعام	Khayl el - Na'ām	**Astragalus Sanctus** Boiss.	شجيرة معمرة لها أوراق شعراء فضية مجنحة وزهر بنفسجي
215	كَرَّاث	Karrāth	**Allium atroviolaceum** Boiss.	نوع من الثوم له زهر أزرق أرجواني
216	كُرْم	Kurm	**Pimpinella cretica** Poir.	عشبة كعشبة اليانسون
217	كُسَيْبِرَه	Ksaybrah	**Pimpinella cretica** Poir var. **arabica** Boiss. **Pimpinella puberula** (DC.) Boiss.	عشبة كعشبة اليانسون
218	كفّ الكلب	Kaff el - Kalb	**Gymnarrhena micrantha** Desf.	عشبة لها سُدى محرشفة تحمل رؤوساً صفراء تلصق بالتراب وحين تيبس تصبح بشكل ملاعق
219	كَفّ مَرْيم	Kaff Maryam	Same as No. 211	مثل رقم ٢١١
220	كَلخ	Kalkh	**Ferula sinaica** Boiss.	شجيرة معمرة لها أوراق مشطُورة بعمق وتشكيل خيمي من الزهر الأصفر
221	كَلْشَه	Kalshah	**Halimocnemis pilosa** Moq.- Tand.	عشبة صغيرة كثيفة رمادية شعراء ولها أوراق رفيعة حادّة.
222	لُبَّيْنه	Lubbaynah	**Stachys aegyptiaca** Pers. **Stachys musili** Velen.	شجيرة ثانوية لها فروع كثيفة شعراء وعناقيد زهور، وهي من فصيلة النعناع

223	لَحْيَة البِدِن	Laḥyat el - Bidin	**Centaurea eryngioides** Lam.	شجيرة معمرة لها فروع شـائكة ورؤوس من زهـر قرنفلي
224	لَحْيَة التيس	Laḥyat el - Tays	**Koelpinia linearis** Pall.	عشبة لها أكثر من ساق رفيع قائم تحمل رؤوساً صغيرة من الزهر الأصفر
225	لِسان الغْراب	Lisān el - G͟hrāb	**Lycium barbarum** L.	عوسج
226	لْوَيْزة	Lwayzah	**Amygdalus arabicus** Oliv.	شجيرة من فصيلة اللوز
227	متنان	Mitnān	**Astragalus camelorum** Barb. **Astragalus macrobotrys** Bge.	شجيرة ثانوية لها أوراق شائكة ورؤوس زهر صغيرة
228	مْحَروت	Mḥarūt	**Scorodosma arabica** Velen.	عشبة لها رائحة وشرش طويل وساق طويلة وأوراق شعراء مضاعفة، وزهر أصفر كثير
229	مْرَار	Mrār	**Centauria arabica** Velen. **Centauria musili** Velen.	عشبة تعرف بحشيشة القنطريون (الاسطوري) لها رؤوس زهرية شائكة
230	مَرّار	Marrār	**Pyrethrum dumosum** Boiss.	شجيرة معمرة مثل الأقحوان لها رؤوس من الزهر الأصفر

231	مْشَعْ أو مَشَع	M<u>sh</u>a ‘or Ma<u>sh</u>a‘	**Scorzonera** sp.	عشبة لها أوراق طويلة ضيّقة وساق تحمل رأساً مفرداً من الزهر الأصفر
232	مِصَّيْع	Miṣṣay‘	**Cyperus conglomeratus** Rottb.	عشبة لها شروش سمر قوية وأوراق ضيقة محرشفة وشويكات
233	مْصَع أو مَصَع	Mṣa‘ or Maṣa‘	**Nitraria retusa** Forsk. Asch.	شجيرة لها أوراق مشطورة بشكل إسفين، وأشواك قاسية وزهر أصفر صغير، وثمر حلو
234	مْعَسُّله	M‘assalah	**Launaea nudicaulis** (L.) Hook. f.	شجيرة ثانوية لها فروع معراة من الورق رفيعة ورؤوس من الزهر الصغير الأخضر ـ الأصفر
235	مَكْرْ	Makr	**Polycarpaea repens** Forsk. Asch. and Schweinf.	شجيرة ثانوية لها شروش طويلة وأوراق رمادية صغيرة وزهر أبيض
236	مْوَصّلة	Mwassalah	**Anarrhinum orientale** Benth.	عشبة خشنة بصولجان زهري
237	نْبَيْطَه	Nbayṭah	**Reaumuria hypericoides** Willd.	شجيرة ثانوية لها أوراق طويلة رمادية وزهر أحمر
238	نَجيل	Najīl	**Cynodon dactylon** (L.) Pers.	عشبة مثل عشبة الكلبّ ـ إذا اتلعت تأكلها الماشية هي وشروشها
239	نِدُّ	Nidd	**Suaeda salsa** (L.) Pallas	عشبة لها زهر قرنفلي
240	نصّي	Nuṣṣi	**Aristida lanata** Forsk.	عشبة طويلة كثيرة العصارة
241	نَصي	Naṣi	**Aristida plumosa** L.	عشبة ناعمة لها شروش يلصق بها الرمل ولها ثمر مجنّح

242	نَعَظ	Na'az̤	**Ephedra alata** Decne.	شجيرة لها فروع لا أوراق لها وعناقيد من زهر أصفر صغير
243	نَعْمان	Na' mān	**Glaucium arabicum** Fres.	نبات كشقائق النعمان له زهر أصفر
244	نَعَيْمه	Na'aymah	**Pseudocrupina arabica** Velen.	عشبة كثيفة لها أوراق مشطورة ورؤوس صغيرة من الزهر الأحمر
245	نِفِل	Nifil	**Trigonella hamosa** L.	نبات كالبقل أو كالبرسيم
			Trigonella monantha C. A. Mey	
			Trigonella stellata Forsk.	
246	نِقْد	Niqd	**Asteriscus graviolens** Less.	شجيرة لها فروع قاسية شعراء رمادية ورؤوس كثيرة من الزهر الأصفر
247	نُقَيْدة	Nqaydah	**Euphorbia musili** Velen.	عشبة من فصيلة الفَرْبيون (لها عصارة)
248	نيتول	Naytūl		شجيرة معمّرة لها ساق عالٍ وأوراق خضر ذات رائحة
249	هَجين	Hajīn		شجيرة كثيفة لها فروع رفيعة وأوراق وأزهار صغيرة
250	هَرْم	Harm	**Zygophyllum simplex** L.	نوع من البقول التي تخلّل
251	هَزّاع	Hazzā'		شجيرة صغيرة رمادية لها أوراق شائكة
252	هَشْمه	Hashmah		شجيرة ثانوية تشبه العرفج

253	هَوَاء	Hawa'	**Sonchus asper** (L.) Hill	نبتة شائكة
254	وْجِرَّه	Whirrah	**Orobanche aegyptiaca** Pers.	عشبة طفيلية لا ورق لها تعيش على الشروش
255	وَرْدِة الإخوة	Wardit el - Ikhwah	**Sternbergia colchiciflora** Waldst. et Kit.	عشبة بصلية لها سنبلة كبيرة من الزهر الأصفر
256	وْرَقَه	Wraqah	**Fagonia glutinosa** Del.	شجيرة ثانوية لها فروع شعراء شائكة وزهر قرنفلي وقرون خضر
257	وَشْم	Washm		نبات يستدل منه على امكان ظهور الكمأة
258	يَسيح	Yasih	**Erucaria hispanica** (L.) Druce	عشبة كثيفة لها فروع رقيقة وزهر أصفر
259	ينِم أو يَنَمَه	Yenim or Yanamah	**Plantago cylindrica** Forsk.	نبتة كعشب آذان الجديِ



من وثائق الشام في المحفوظات الملكية المصرية عن البدو

- ١ -

الأصول العربية لتاريخ سوريا
في عهد محمد علي باشا
للدكتور أسد رستم
عن البدو
المجلد الأول الأوراق السياسية سنة ١٢٤٧

المجلد الأول رقم ٣٠ ص ٧٨ ـ ٧٩ من إبراهيم باشا إلى الشيخ محمود والشيخ سليمان عبد الهادي :

إلى فخر المشايخ المكرمين محسوبينا الشيخ محمد والشيخ سليمان عبد الهادي قبل الآن أرسلنا هواري باشا حسين آغا قازان وصحبته مئة وثلاثون خيال لأجل محافظة الناصرة وطبريا وأصدرنا إليكم أمرنا لكي تكونوا معه يداً واحدة في أمر المحافظة وتأمين الأهالي ومنع ضرر العربان عنهم والآن مرسلين هواري باشا علي آغا عون الله وصحبته أربعة وتسعون خيال لأجل يقيم في الشيخ بريك لمحافظة المرج وهواري باشا محمد أغا العيناوي وصحبته خمسة وخمسون خيال لأجل يقيم في جسر المجامع لمحافظة البلاد وكذلك من حيث أن النواحي المذكورة بالقرب منكم فيلزم أنكم تكونوا مع الهوارة باشية المذكورين يداً واحدة في أمر المحافظة وتأمين الأهالي ومنع ضرر العربان عنهم فبناء على ذلك قد أصدرنا إليكم مرسومنا هذا من ديوان معسكر عكة تعملوا بموجبه وتعتمدوه في ٢ جمادى الآخرة سنة ٢٤٧ .

الختم سلام على إبراهيم

رقم ٧٤ بشرى باخذ حمص تاريخ الوثيقة ١٢٤٨ هـ ١٠ صفر ص ١٥ ـ ١٦ من المجلد ٢ من الحاج إبراهيم سر عسكر مصر.

يذكر فيه أن الجنود التي كانت معه وانتصرت على العثمانيين في حمص وفتحتها كان بينهم عرب ولاحقوا الفارين في صحراء حمص كما يقول.

- ٢ -
أهم ما في المحفوظات الملكية المصرية
من الأخبار عن البدو في سوريا
في وثائق الشام
نشرها الدكتور أسد رستم في ٤ مجلدات بأرقام
متسلسلة تبعاً لتاريخ ورودها ابتداء من سنة
١٢٣٠ هـ/ ١٨١٦ م حتى ١٢٥٥/ ١٨٣٩

رقم ٤٧ من مجهول إلى محمد علي باشا يذكر له أن عرب عنزة في الشام تعتذر عن تقديم العدد المطلوب من الجمال لأجل الحملة على الحجاز، ويعود مندوب العزيز خائباً ١١ رمضان ١٢٣١/ ١٨١٦.

رقم ٩٢٣ من محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا يأمره بضرب القبائل العربية لأخذ الجمال منها ١٦ ذي الحجة/ ١٢٤٧ ١٨٣١ - ٣٢.

رقم ١٣٧٧ من إبراهيم باشا إلى الديوان الخديوي يذكر إقامة البعض من عرب الهنادي مع شيخهم الحاج علي بركات في غزة ١٩ صفر ١٢٤٨/ ١٨٣٢ - ٣٣.

رقم ١٧٩٠ من إبراهيم يكن باشا إلى إبراهيم باشا عن عرب عنزة واعتدائهم على حجاج إيران وتعيين محمد بك رئيساً على عشائر الموالي ١٦ ربيع الآخر ١٢٤٨/ ١٨٣٢ - ٣٣.

رقم ١٩٢٣ من سليم بك سلحدار الحضرة الخديوية إلى إبراهيم باشا يذكر الشيخ ضاهر كليب شيخ عرب السردية والمقيم في المزيريب وأنه ينفصل عن عرب بني صخر ويقدم الطاعة ويقول إنه عبد أفندينا ٤ جمادى الأولى ١٢٤٨/١٨٣٢ - ٣٣.

رقم ٢٧١٠ في دفتر الخلاصات مكاتبات من الجيش المنصور وفيه أنه يجب إرسال أعيان بني صخر مقيدين بالسلاسل إلى عكة للعمل في السفن ٤، ٥، ٦ شوال ١٢٤٨/١٨٣٢ - ٣٣.

رقم ٢٧٦٥ من محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا يستطلع رأيه في هل يوافق على إرسال الفرسان العرب من مصر إلى الشام لتأديب عرب عنزة ٢٣ شوال ١٢٤٨/ ١٨٣٢ - ٣٣.

رقم ٢٨٠٩ من عبد الله أفندي إلى سامي بك يفيد أن السر عسكر يؤيد الخطة التي تقضي بإرسال ٩٠٠ فارس من فرسان العرب في مصر لتأديب عرب عنزة في بر الشام ٥ ذي القعدة ١٢٤٨/ ١٨٣٢ ـ ٣٣.

رقم ٢٩٧٧ من مجهول إلى إبراهيم باشا يرفع إلى مقر القيادة العليا بياناً بأخبار عنزة وأحوال قبائلها الذين اجتازوا نهر مراد (كذا) [لعله يقصد الفرات] غير مؤرخ ولكنه ورد في الوثائق تحت سنة ١٢٤٨/ ١٨٣٢ ـ ٣٣.

رقم ٢٩٨٣ من أحمد بك قائمقام الشام إلى محمد علي باشا يذكر فيه سبب تأخيره عن تقديم التقارير اللازمة في عصيان دوخي السمير أحد شيوخ عرب عنزة ـ غير مؤرخ أيضاً ولكنه ورد تحت سنة ١٢٤٨/ ١٨٣٢ ـ ٣٣.

رقم ٢٩٩٥ من معاون السر عسكر إلى محمد علي باشا عن قضية الجمال المطلوبة من عرب عنزة.

رقم ٣٣٥٨ من محمد علي باشا إلى محمد شريف بك وفيه يذكر أنه لا يوافق على دفع الصرر من خزينة الشام كما جرت العادة سابقاً إلى عرب عنزة وولد علي وحسن وبني صخر وغيرهم ٢٣ رمضان ١٢٤٩/ ١٨٣٣ ـ ٣٤.

رقم ٣٣٨٧ من محمد شريف بك إلى سامي بك يذكر ما فقد من الجمال التي أخذت من بني صخر ووجوب التحقيق في ذلك ١٩ ذي القعدة ١٢٤٩/ ١٨٣٣ ـ ٣٤.

رقم ٣٤٢٩ من محمد علي باشا إلى محمد رشيد باشا يشكو من تعدي عرب عنزة ١٢٥٠/١٨٣٤.

رقم ٣٥٦٧ من إبراهيم باشا إلى محمد علي باشا وفيه أنه يرى المصلحة تقضي بإرسال قوة بقيادة معجون أغاسي إلى حماة وحلب لضبط عرب عنزة وإسكاتهم ربيع الأول ١٢٥٠/ ١٨٣٤ ـ ٣٥.

رقم ٣٥٦٨ من إبراهيم باشا إلى سليم بك يكلفه أن يكون مع معجون أغاسي ويسيرا بالفرسان إلى حماة لضبط لصوص عنزة (كذا) ١٠ ربيع الأول ١٢٥٠/ ١٨٣٤ ـ ٣٥.

رقم ٣٥٩٥ من سليم بك إلى إبراهيم باشا وفيه يأخذ علماً بمضمون الأمر ويفيد أنه أوفد بعض الناس إلى مرعش للتجسس ويذكر أن عرب عنزة أخلدوا إلى السكينة بعد فرارهم إلى الداخلية ٢٣ ربيع الأول ١٢٥٠/ ١٨٣٤ ـ ٣٥.

رقم ٣٨٣٩ من محمد منيب بك (قائد ألاي الفرسان الحادي عشر) إلى إبراهيم باشا يذكر أخباراً خلاصتها أن عربان عنزة وعربان صفوف (كذا) [يقصد صفوق شيخ شمّر] يتقاتلون في صحراء كربلاء ٢ شعبان ١٢٥٠ / ١٨٣٤ ـ ٣٥.

رقم ٥٥٠٢ من محمد شريف باشا إلى إبراهيم باشا عن عرب السلوط ومسيرهم إلى اللجاه وأن عددهم بين ٢٥٠ و٢٦٠ وأنهم يخشون سطوة عنزة ولهذا فهم لا يغادرون اللجاه فإذا نزلوا على آبار القسطل فإنهم يتسلطون على الطريق بين الشام وحوران وهو يطلب استقدام قوة من الفرسان للمحافظة على الطريق ١٢٥٤ هـ.

رقم ٥٥٠٧ من إبراهيم باشا إلى حسين باشا يفيد أنه بعد أن أخرج عرب السلوط من اللجاه وأرسلهم إلى معسكر شريف بك كتب إليه أن يتولى بنفسه أمر سوقهم إلى مسافة خمس أو ست ساعات ويسلمهم بعد ذلك إلى الفرسان ليأتوا بهم إلى القنيطرة، ويذكر في هذه الرسالة أن شريف باشا لم يستمع إلى ذاك بل أرسلهم مخفورين بخمسين أو ستين فارساً دون أن يقوم هو نفسه معهم، فكان أن نهب العربان أسلحة الفرسان المذكورين واستولوا على أشيائهم جميعها، وعادوا فدخلوا إلى اللجاه، الأمر الذي جعلنا نكتب إلى محمد بك أمير ألاي الغارديا الأول وإلى أحمد بك أمير ألاي المشاة ليقوما بعساكرهما ويستوليا على آبار الماء التي تستقي العربان منها ٢٣ جمادى الآخرة ١٢٥٤ هـ. وتليها رسالة من السر عسكر إلى محمد بك أمير اللواء في التاريخ نفسه بوجوب تنفيذ الأمر ومنع العرب من الماء والتنبيه على الجند أن يكونوا على يقظة وبصيرة ليلاً بل يناموا نهاراً. وتحت الرقم نفسه ٥٥٠٧ تقرير طويل من أحد الضباط الذين أخذت خيلهم واسمه الحاج محمد بلوكباشي قدمه إلى السرعسكر وهذا بدوره رفعه إلى محمد شريف باشا، وفيه يفيد أن السلوط غير خارجين عن الطاعة، وأنهم رهن ما يصدر من الأمر بحقهم، فإذا أمروا أن ينزلوا بالغوطة نزلوا، أو في الرحيل إلى حوران أو إلى البرية فينزلوا، وإذا بقوا في اللجاه فهم تحت الإطاعة ويلبون كافة المطاليب، ولكنهم لا يستطيعون النزول بجهة القنيطرة لأنه ليس فيها مرعى لطروشهم بعد عنزة. وأنه إذا صدر لهم الأمر أن ينزلوا في الغوطة أمانة فينزلوا وبفصل الشتاء إذا كان يصدر لهم الأمر أن يتوجهوا للقنيطرة فيتوجهوا وبالصيف ينزلوا في الغوطة. فهذا الذي فهمته من مشايخهم هنتش وبخيت ورميش ويشير إلى أن الخيل والسلاح الذي نهبوه أبقوه عندهم أمانة حتى نحضر ونعرض لسعادتكم عن التماسهم، فإذا كان يصدر الأمر لهم بالأمان بأحد المحلات المرقومة فهم تحت الأمر، ويؤدوا الخيل والسلاح المذكور.

ويقول أيضاً فهمت من المشايخ والاختيارية أن مرادهم هو أن يهربوا وينزلوا على

عنزة عند منصور الضويحي، واجبتهم أن عنزة ومنصور الضـويحي تحت الاطاعـة فمتى توجهتم عندهم يمسكوكم ويقدموكم لطرف الحكم، فأجابوا نحن العرب لا نقصى (كذا) [ولعله يقصد نقسى] في بعضنا ٢١ جمادى الآخرة.

ومعه تقرير آخر من خليفة آغا البوصيلي يفيد أنه توجه حسب الأمـر لعند عـرب اللجاه لأجل ترحيلهم ويقول: فلما وصلنا بعد أن تفرقت الخيالة كل عشـرة على حمـولة [يقصد جماعة أو فريقاً] فمن الجملة أنا وعشرة خيالة معي توجهت لفريق المداجة فنزلت في بيت الشيخ دوميص فوجدنا العرب المذكورين منقسمين أربعة أقسام فأفهمنا الشيخ أنه حيث العرب مقسومين أربعة أقسام فإذا تركناهم بلا محافظة يهربوا في الليل فالأوفق أن توضع عند كل فرقة ثلاثة خيالة، ففرقنا الخيـالة كقـوله لئـلا يهرب أحـد وبقيت أنا وخيالين في بيت الشيخ ثم غاب الشيخ عني ورجع وأخبر أنه كان عند حمو آغا ورجع وأن حمو آغا طمنهم وأنه إنشاء الله (كذا) تعالى بالصباح يرحلوا معنا فبقينا صاحيـين لبعد طلوع القمر قام الشيخ من عندي ودار على عرب فريقه وصاروا في كورلتي وبعد حصة حضروا علينا وأخذوا خيولنا وسلاحنا ومن جملتهم حضر هنتش ومعه جماعة من العرب أيضاً وقاموا في بيوتهم هم وباقي حمايل العرب ورحلوا وأخذونا معهم وأبقونا صحبتهم نحن وخيالتنا التي كانوا مفرقين على حمايلهم حتى وصلوا إلى الزيتون، وهناك ردوا علينا بعض خيولنا وسلاحنا والبعض بقي عندهم واصل خيـولنا ٥٥ فـردوا علينا منهم ١٨، وبقي عندهم ٣٧، وأخذوا بواريد العسكر ٥٥ بارودة مع باقي طبنجات الخيالة وثلاثة سيوف عدا عن سيف لي ردّوه علينا.

وأما الذي فهمناه منهم أنهم تحت الإطاعة ولو دخلوا اللجاه غير عاصيين وإنما لا ينزلوا في القنيطرة، وأنه لو رُخص لهم ينزلـوا في الغوطـة فينزلـوا، ويذكـر استعدادهم لإرجاع الخيل والسلاح شرط أن يعطوا الأمان وإلا فقالوا: «نحن قاعدين بين الحجارة ونقاتل عن أنفسنا ببارودكم». ٢١ جمادى الآخرة ١٢٥٤.

رقم ٥٧٨٠ من إبراهيم باشا إلى حسين باشا يشير إلى رسالة مؤرخة في ٢٦ جمادي الآخـرة سنة ١٢٥٤ ذكـر فيها البـاشمعاون أن شيـوخ أولاد عـلي [قبيلة الـولـد عـلي] والجميعات يستطيعون أن يقدمـوا خمسة أو ستـة الآف رجل وأنـه إذا اقتضت الظروف وضغط عليهم يقدمون عشرين ألفاً ـ ويشير السرعسكر إلى هذا ـ فيقـول: «الآن وقت حـاجتنا إلى الـرجال ولا نـطلب منهم عشرين ألفـاً بل خمس مئـة نتولى نحن تجهيـزهم بالأسلحة والخيل، إذ من الممكن أن نعد هنا ما يلزم لنحو ستة آلاف فـارس من الخيل والسلاح في خلال بضعة أيام».

رقم ٥٧٨١ من محمد بك [معجون آغاسي] إلى إبراهيم باشا يرفع إلى الاعتاب العسكرية أنباء القبائل البدوية في جهات حلب والجزيرة فيفيد أن الشيخ صفوق شيخ عرب الجربة [شمّر] وجميع رجال عشيرته وعربان الفدعان قاموا من رأس البليخ بالقرب من حلب إلى الرها. . . وإن عربان سبعة [السبعة] وبعض شيوخ فدعان وجماعة من الحورانيين نزلوا في مكان يقع بين عانه وجب دخينه ٢١ صفر ١٢٥٥/ ١٨٣٩ - ١٨٤٠.

رقم ٥٩٥٠ من محمد بك معجون آغاسي إلى إبراهيم باشا يرفع إلى مقر القيادة العليا خبر قيام عشائر صفوق وفدعان وسباغ (كذا) [ولعله يقصد السبعة] على العشائر الشامية فيه خبر الموقعة التي دارت بين «ماوى» (كذا) وجماعته من جهة وبعض هؤلاء العربان من الجهة الأخرى ويفيد أنه يدرس إمكانية الزحف عليهم. وعلى ظهر هذه الرسالة العبارة التالية: «اذهب واضرب» ٢٤ جمادى الأولى ١٢٥٥/ ١٨٣٩ - ١٨٤٠.

رقم ١٩٥١ رسالة أخرى تحمل التاريخ نفسه من محمد بك إلى إبراهيم باشا يذكر فيها: أن عرب عنزة أغاروا على قافلة بغداد بينما كانت سائرة في طريقها إلى حلب.

رقم ٥٩٦٠ وفي المحفظة نفسها وتحت الرقم نفسه (بند ١٢) أمر سرعسكري إلى محمد بك خفتان آغاسي مؤرخ في ٦ جمادى الآخرة. «حينما تصل إلى الشام لا تركن إلى الراحة والكسل بل بمجرد وصولك إليها قم منها لتأديب بني صخر أو غيرهم من القبائل هناك وذلك لتخويف هؤلاء الخنازير (كذا) في حوران».

رقم ٦٠٢٨ في المحفظة نفسها رسالة من امضاء محمد شريف باشا مؤرخة في ٢٥ جمادى الآخرة [١٢٥٥] يشير فيها إلى تعدي العربان في عام مضى على الأرزاق في جبل الدروز وحوران. . . ورسالة أخرى من إمضاء محمد بك خفتان آغاسي مؤرخة في ١٩ جمادى الآخرة تفيد أنه قام من الشام بمعية اسماعيل عاصم بك إلى جبل عجلون لتأديب الاشقياء وأنه في أثناء مروره بحوران علم أن عربان بني صخر رحلوا إلى الكرك وأن أولاد علي والرولة تعدوا على الأهالي فحقّق في ذلك.

ورسالة أخرى من امضاء محمد بك معجون اغاسي مؤرخة في ٢٩ جمادى الآخرة [١٢٥٥] تفيد أن عرب صفوق فروا بعد أن أطلقوا كثيراً من غنمهم بين بعض العشائر القاطنة على مقربة من الخابور وأن معجون بك سيتأثرهم للفتك بهم بعون الله تعالى. وأخرى من إمضاء اسماعيل عاصم في ٢٢ جمادى الآخرة تفيد بأن مسألة عجلون انتهت وأنه سيقوم إلى اللجاه لإنشاء الأبراج وتأديب العربان. وأخرى من إمضاء محمد بك معجون آغاسي في ٢٩ جمادى الآخرة تفيد أنه زحف على الأفاضلة وأخذ منهم ثلاثة آلاف

رأس من الغنم والماعز ومئة وستين كيساً [لعله يقصد كبشاً] وأنه غادر تلك الجهة مولياً شطر الشرق ليقاتل عرب صفوق وأنه علم بعد سير خمسة أيام أنهم نزحوا إلى جهات بغداد. ورسالة ثالثة فيها أمر عسكري مؤرخ في ٧ رجب وموجه إلى محمد بك معجون آغاسي ونصه: إن العشائر التي خضعت إنما خضعت عندما أحست بالضغط فلا يغرنكم كلام من خضع منهم بل قاتلوهم حتى ترهبوا أعين هذه العشائر.

وهناك رسالة أخرى رابعة وهي أيضاً أمر سرعسكري مؤرخ في ٣ رجب موجه إلى محمد بك خفتان آغاسي يوجب شن الغارة على الرولة وسرحان وبني صخر وسلب أموالهم ويبين طرق التنفيذ.

رقم ٦٠٩٢ وهو [في] محفظة أيضاً فيها رسائل منها واحدة بإمضاء محمد بك خفتان آغاسي مرفوعة إلى إبراهيم باشا في ٢٩ شعبان ١٢٥٥ نصها: «سبق أن دمرنا عربان بني صخر عملاً بالإرادة العسكرية ورفعنا واقع الحال إلى الأعتاب السامية ولما رجعنا إلى العين الزرقاء تلقينا أمراً من حضرة شريف باشا قال فيه إنه أرسل ثلاثة من قواد السكبانية إلى جبل عجلون، وأن علي أن أذهب إليه فأخضع الشيخين العاصيين بركات وصلاحاً فامتثلت لأمره» ثم يذكر كيف دبر خطة واستعان بشيخ بلقه وعربان بلقه [يقصد البلقاء] وشيوخ جبل عجلون فأتوه بهما طائعين بعد أربعة أيام فأمنهما مناً عليهما من ولي النعم وطلب منهما تسليم الأسلحة التي لديهما وأخذ منهم واحدة وثمانين بندقية وقرابينة واحدة وغدارتين وأخذ منهم ميثاقهم ولم يبق بحوران ولا بالضواحي أحد يستطيع القيام. ويذكر في آخر الرسالة أن الشيخ الذي يقال له نمر سلام وهو من عشيرة بني صخر استأمن لنفسه وللبيوت التي لديه فأمنه وأمرهم بالاقامة بالشام العتيقة.

وفي الفهرس، تحت الأرقام التالية:

عن دفع الصرر للعربان ٣٣٥٨.

عن عرب السردية: دخول شيخهم في الطاعة ١٩٢٣.

وعن العربان: خيانتهم في غزة ٣٥٠.

وعن عرب الموالي: محمد بك رئيسهم ١٧٩٠.

وعن عرب السبعة: موقفهم من النزاع بين السلطات والباشا ٥٧٨١.

وعن عرب صفوق (شمر): قيامهم على عشائر بر الشام ٩٥٠ فرارهم ٦٠٢٨.

وعن عنزة: حصار يافا ٩٣، وجوب تطمينهم وتقديم المكافأة المالية لهم ٨٣٨، موقفهم من الجيش العثماني ٨٥٠، وجوب ضربهم لأخذ جمالهم ٩٢٣، الاحتلال المصري ١١٦٣، التشديد على الشيخ دوخي بوجوب القيام بتعهداته ١٤٥٢، اعتداؤهم على الحجاج ١٧٩٠، أعمالهم المضرة ٢٧١٠، تأديبهم ٢٧٦٥ و ٢٨٠٩، أخبارهم ٢٩٧٧، عصيانهم ٢٨٩٣، ٤٢٩٥، جمالهم ٢٩٩٥، لا يتقاضون الصرة ٣٣٥٨، تعدياتهم ٣٤٢٩ و ٣٥٦٧ و ٣٥٦٨، اخلادهم للسكينة ٣٥٩٥، قتالهم مع عرب صفوق في صحراء كربلاء ٣٨٣٩، يغيرون على قافلة بغداد ٥٩٥١.

وعن شمر: موقفهم من الحكومة المصرية ٥٣٦٣.

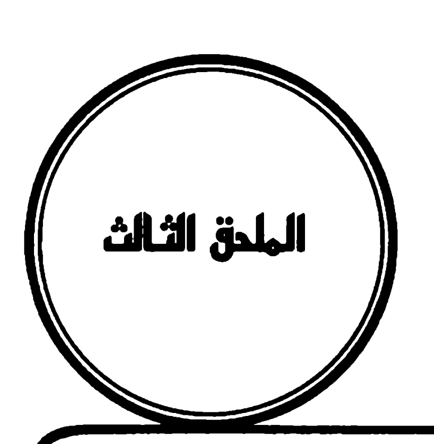
وعن بني صخر: تمرّدهم ٨٩٠، تجريد قوة عليهم ٩٣١، اكتمال الاستعداد لضربهم ٩٤١، نقل ذخائر الجيش ١٥٣٥، حملة سليم آغا السلحدار عليهم ١٧٢٦، انتصار سليم بك السلحدار عليهم ١٨٦٤، سليم بك السلحدار وتأديبهم ١٩٢٨، محمد آغا معجون آغاسي يؤدبهم ٢٧٥٢، الشيخ حميدي الطرشان يلتمس العفو ٢٨٥٧، لا يتقاضون الصرة ٣٣٥٨، جمعهم ٣٣٨٧، مشكلة حوران ٥٩١٥، الزحف عليهم ٦٠٢٨، مطاردتهم ٦٠٨٨، تدميرهم ٦٠٩٢.

وعن بادية الشام: اعتذار عرب عنزة فيها عن تقديم الجمال ٤٧.

وعن عرب الهنادي: الصفح عن شيوخهم ٦٦٢، ترتيب عدد فرسانهم وإرسالهم إلى غزة ٧٨٣، يستوطنون غزة ٧٨٣، يرتاحون إلى الخدمة في الجيش ٩١٢، فرار بعضهم إلى مصر ٢١٦٣ و ٢٢٢٦، الثورة بفلسطين ٣٥٠٧، قائدهم إبراهيم آغا المعجوني ٣٥١٦، نزوحهم إلى غزة ٤٧٣٨.

وعن الرولة: مشكلة حوران ٥٩١٥، الزحف عليهم ٦٠٢٨.

وعن الفدعان: موقفهم من النزاع بين السلطان والباشا ٥٧٨١، قيامهم إلى عشائر الشام ٥٩٥٠.



من وثائق وزارة الخارجية البريطانية
عن البدو

مما نقله المؤلف من
اللغة الانجليزية الى اللغة العربية

F.O. 195 Vol. No. 170

لعلّ أقدم هذه الوثائق التي تهمنا في هـذا الصدد كتـاب من قنصل الإنجليـز في حلب لشيخ قبائل الجبور الشيخ محمد ناصر تاريخه ٢١ آب ١٨٣٥ (١٢٥١ هـ.) يسأله فيه عقد اتفاق ودّي للسماح بمـرور البواخـر في نهر الفرات والـوصول للبصـرة بالمحبـة والصداقة وتسهيـل البيع والشـراء . ويخبره أن الـدولة الإنجليـزية اتفقت مـع السلطة العثمانية ومع إبراهيم باشا(*). غير أن الإنجليز يودون أيضاً أن يكونوا على صلة ودّية مع البدو ولا سيما بعد حـادث جرح إنجليـزي في إحدى رحـلات القوافـل السابقـة ، وامتناع الإنجليز عن تقديم شكوى لإبراهيم باشا ، وتصريحهم أن الحـادث جرى عن خطأ وليس عن تعمّد ، ولولا ذاك لكان الإنجليز والدولة العثمانية والسلطان ومحمد علي انتقموا من مسببي الحادث . ويطلب القنصل من الشيخ في الوقت نفسه أن يكتب إليه وأن يخبره عما يلزمه ليسعى بقضاء ما يرغب فيه .

وفي الوثيقة الثانية وهي كتاب من القنصل الى حكومته يخبرها فيه عن رحيل بعض قبائل عنـزة من جانب الفـرات الشامي إلى العـراق ، وتاريخـه تشرين الأول ١٨٣٥ ، يلحقه بعد أكثر من شهر بكتاب آخر تاريخه ٣ كانون الأول ١٨٣٥ إلى وزارة الخارجية يذكر فيـه أن عرب عنـزة هم في نزاع مـع قبيلة شمّر ، وأن الفـرات هو الحـدّ الفاصـل بين

(*) هو ابراهيم باشا نجل محمد علي الكبير. وقد ورد اسمـه عن تاريخ البـدو، وكان بدء هجـوم الجيوش المصرية على الأراضي السورية في عام ١٨٣١ م، وفي عام ١٨٣٢ تم لها الاستيلاء على أكثر البلاد الشامية، ونفذت إلى تركيا واحتلت قونية، وكادت تحتل القسطنطينية حين بلغت كوتاهية بالقرب من البوسفور.

القبيلتين ، فالعنـزة يستقرون في الجـانب السوري وتستقـر شمّر في الجـانب العراقي . ويشـير في الكتاب نفسـه إلى أن عنزة هي أقـوى قبيلة في الباديـة السوريـة ، وهي أكثر القبائل حبّاً للحرب والغزو ، وقد أخـذت بالفعـل تقوم ببعض الغـارات على المنـاطق المتاخمة للبادية بين حلب والطريق إلى الشام وهي على اتفاق مع الوهابيين .

ويذكر القنصل نفسه في كتاب آخر تاريخه ١٩ كانون الأول ١٨٣٦ ، أي بعد أكثر من سنة من الكتاب السـابق ، أن القافلة التي يرئسها إنكليزي اسمه جيمس تعـرّضت للتفتيش والنهب من قبل العشائر العراقية قرب بلدة الحلّة ، ويشير إلى أن هذه القـافلة كانت قادمة من الخليج بعد وصول الباخرة التي تحمل البريد من الهند ، ويذكر أن رئيس القـافلة كان استـأجر جِمـالاً وسلك بقافلتـه طريق الحلّة ، وهنـاك فتّش البدو صنـاديق البريد .

وقد بلغ أصحاب القافلة أن شُمَّر تحلّ المنطقة التي على طريق هيت فسلكوا طريق عانة ، وتعرّضوا لمطر شديد طيلة أربعة أيام بين ٤ و ٨ كانون الأول ، ثم وصلوا تدمر بعد عشرة أيام من تركهم عانة ، وبعد ثلاثة وعشرين يوماً من تركهم بغداد .

وفي وثيقة أخرى من كتاب من القنصل نفسه إلى وزارة الخارجية تاريخه ١٠ شباط ١٨٣٧ ، ذِكرٌ عن اتفاق بين الحكومـة المصريـة وبين البـدو ، يقدم فيـه هؤلاء الجمال اللازمة لنقل المؤن من الموانىء السورية إلى الجيش في الداخل ، وإشارةٌ إلى أن سوريـا هادئة وذلك لوجود الجيش المصري . ثم يعود القنصل بعد نحو سنة فيذكر في كتاب آخر تاريخه ٢٢ آذار ١٨٣٨ أن إبراهيم باشا سيّر حملة لاكتساح جبل الدروز وإخضاع الدروز الذين كانوا هزمـوا بعض جيشه في السـابق ، وأشار في كتـاب آخر تـاريخ ٢٤ آذار أن إبراهيم باشا انتقم منهم واتجه نحو البدو في اللجاه فأخضعهم واستسلموا .

ويظهر أن عرب عنزة أخذت تعيث فساداً في المناطق التي احتلتها ، فأخذت تنهب المواشي وهي في المراعي ، بحيث نرى في تقرير رفعه القنصل في حلب ف. هـ. س. وَرِي إلى الفيسكونت بالمرستون أن المتسلم الذي سار لرد المنهوبات التي استلبها البدو قد عاد وأرجع الماشية المسلوبة من بعضهم ، ولكنه لم يستـطع أن يرد المـاشية التي أخـذتها عرب عنزة ، وذلك لأنهم ذهبوا بعيداً في قلب الصحراء . ويـذكر في الـوقت نفسه أن قبيلة الحديديين قدّموا خضوعهم للسلطة . وتاريخ هذا التقرير ١٥ شباط ١٨٤١ .

وبعد ثلاثة شهور تقريباً من تاريخ ذلك التقرير أرسل القنصل نفسه كتاباً تاريخه ١٣ أيار ١٨٤١ عن عرب عنزة أنها عاثت فساداً بالبلاد ، وأن الوالي أسعد باشا لما علم

بظهورها في السهول أرسل منعاً لضررها وراء شخصين من شيوخها هما الشيخ حوران والشيخ أدهم واتفق معهما على تعيين شيخ أعلى لمنع تكرار هذا الحادث ، ولكن الشيخ أدهم لأمرٍ ما غادر حلب وألّف قوة من جماعته من نحو ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ رجل وهاجم عرب الحديديين ونهبهم ، وأخذ نحو ثلاثين قطيعاً من الغنم ، ثم اقترب من المدينة عند اندييي وطلب أن يكون هو الرئيس ، لأنه صاحب الحق بين شيوخ الرعايا وأنه المسؤول عن الأمن . فأكّد المتسلم لأدهم أنه سيكون الشيخ ، ولكن عليه أن يأتي إلى حلب لتحقيق هذا الغرض . فرفض الشيخ أدهم أن يأتي .

وفي ٢٥ حزيران ١٨٤١ كتب القنصل نفسه يذكر في تقريره لوزارة الخارجية أن أسعد باشا قرّر الانتقام من أدهم ، فجمع قوة من الجيش ، وسار في ٢٥ أيار إلى قرب جبل عاس(*) على بعد ست أو سبع ساعات من المدينة . ثم يقول القنصل : وقد رأيت ان أتوسّط في الأمر علماً مني بأن الجيش سيقوم بالتخريب ويتضرر الأهلون من وجوده ، فكتبت إلى الشيخ أدهم أن يأتي بنفسه وعلى مسؤوليتي ، فأتى مع خمسين فارساً ولكنه أتى مع رسلي Russly وفي الطريق شاهدوا كميناً من جماعة الشيخ حوران ومن العشائر الأخرى ، وكان الغرض اغتياله لأنهم لا يوافقون على تعيينه شيخاً ، وقد عاد رسلي فأخبرني بالأمر وأنهم كادوا أن يُسْلَبوا لاشتراكهم بدعوة أدهم للمشيخة والزعامة والاتفاق مع السلطة . وعرضت الأمر على السلطة فاعتذر أربابها بأن الأمر مدبّر دون علمهم ، وقرروا إرسال وفد مع رسلي نفسه ليبقوا رهائن عنده في البيت حتى عودته من حلب . وكان مريضاً فأرسل أخاه ليعيَّن بوظيفة مشيخية وانتهى الأمر بقبول عذره . وقد رجعت الحملة دون الوصول الى نتيجة . ويرقب القنصل مجيء أدهم إليه ليأخذه إلى السلطة لتعيينه رسمياً وإنهاء هذه الخلافات .

وفي ١١ تموز من السنة نفسها أي سنة ١٨٤١ يخبر القنصل وزارة حكومته في كتاب أنه لم يجر بعد أي اتفاق بين الشيخ أدهم والسلطة لتأمين حدود البادية والطرق التجارية التي تمر بها ، ولذلك فقد نهبت قافلة من عشرين جملاً محمّلة بضائع لإيصالها إلى الباخرة على الفرات ، وقد نهبها قوم يبلغون نحو ألف من عرب عنزة ، ثم يذكر أنه أخبر أدهم بالأمر فأجابه أن هذه القبيلة ليست حالياً محالفة لنا ، ولكنه سيحاول إرغام الغزاة على إعادة ما نهبوه ، ويشير في الوقت نفسه إلى أن صحته لا تساعده على القدوم إلى حلب ، ويسأل القنصل التوسط لدى السلطة في أمر الانتقال إلى منطقة نهر الذهب التي يحتلها

(*) يقصد جبل البلعاس. وهناك من يظن أن الاسم محرف عن «بعل حث» ويعرف حتى اليوم بالبلعاس، وفيه شجر بطم كثير.

عموماً الشيخ الأكبر ، والتي يحلّها الآن الشيخ حوران وجماعته . ويزعم القنصل أنه بلّغ السلطة هذا الأمر ، ثم يقول ، وقد اقترح الشيخ أدهم أن يذهب ابن أخيه ذياب مع بعض زعماء الحكومة ويسلموه المنطقة من العرب الآخرين ، فإذا تمّ هذا فإنه يكفل حماية المنطقة من الاضطرابات ، وقد أتى ذياب وقدّم طلباً للسلطة كتبه له القنصل ولكن السلطة لم تفعل شيئاً فعاد غاضباً ، وينهي كتابه بقوله : إن قوماً من البدو اعترضوا قافلة عند مجيئها من حماة ونهبوا منها أشياء كثيرة .

ويذكر في كتاب آخر تاريخه ١٣ تموز خبراً عن قافلة أخرى من ٢٢ جملاً لبعثة الفرات نهبها عرب عنزة بقيادة الشيخ سنابي ، وقد حاول القنصل أن يسترد المنهوبات بواسطة المخابرة مع البدو ، ولكن زعيم الغزاة أبى ، ولهذا فهو يكتب إلى الآستانة ، لتكتب السلطة بدورها إلى ممثلها في حلب لتدفع له قيمة المنهوبات وتؤمن المواصلات . وهذا يشير إلى أن الدولة العثمانية كانت كأنها مسؤولة أمام الإنجليز بتأمين قوافل تجارتهم ، وإلاّ فهي تعوّض على التجار خسارتهم .

ثم يعود القنصل فيذكر في كتاب آخر تاريخ ٢ آب ١٨٤١ أن اصطداماً وقع بين السلطة وجماعة الشيخ حوران (من عنزة) ، وأن الشيخ حوران قُتِل ، وقد كان هو الزعيم الذي اتفقت السلطة معه وعيّنته شيخاً على عنزة . ويشير في الكتاب نفسه إلى أن للبدو دائماً التفوّق في الحرب مع السلطة ، وذلك أولاً بسبب سرعة خيلهم ، وثانياً بسبب صبرهم وتحملهم العيش دون طعام مدة أطول من الجند النظامي . وفضلاً عن ذلك فإنهم حين يدركون أنهم غير قادرين على الصمود في القتال يهربون إلى البادية حيث لا تستطيع أن تلحق بهم الجيوش النظامية . ويشير القنصل في الوقت نفسه إلى أنه عرض على أولي الأمر أن يتوسط هو نفسه لدى الفريقين في سبيل حفظ الأمن ، ويذكر أن الكابتن كامبل اقترح إصدار أمر بجلب شيخ عرب الولدة وبناء عنبر للمؤن لإفراغها من البواخر عند وصولها وطلب السلطة منه ومن عربه السماح للمراكب الإنجليزية بتفريغ حمولتها مؤقتاً نظراً لعدم امتلاء النهر ، والسماح بالمبادلة والشراء ، وتحميله هو وعربه المسؤولية .

وبعد ذلك بنحو شهر ونصف كتب القنصل في ١٧ أيلول مشيراً إلى أن قبائل عنزة أخذت تتسرّب بأعداد كبيرة إلى تخوم سوريا ، وأنها باشرت هجوماً على حدود البادية بقوة من نحو ستة آلاف رجل ، فسيّرت السلطة لإخضاعهم جيشاً على رأسه أحمد باشا ، فاحتك بهم في جبول ، ولما أطلق عليهم أول قنبلة من مدفع هربوا وعبروا الفرات ، غير أنهم عادوا يتسللون بأعداد كثيرة وعبروا الفرات إلى سورية ، وتقدموا إلى

جنوب شرقي حلب، وشرعوا يحتلون مناطق كانت تحتلها قبائل أقل بأساً ومكانة منهم تخضع لباشا حلب ، ولهذا أخذت القبائل الضعيفة تنسحب أمام عنزة وتلتجىء إلى الأراضي القريبة من مدينة حلب لحماية نفسها من عنزة . ويخشى القنصل في كتابه أن تتقدم عنزة أكثر قرب حلب ويمتد تقدمها في أول الربيع فيصعب على الباشا صدّها ، وبالتالي يهددون خط المواصلات بين حلب وبغداد ، بل ربما يهددون أيضاً خط طرابلس اللاذقية إسكندرونة . ويزعم أن هؤلاء البدو سينتشرون في كل جهة ويضطر الفلاحون إلى أن يهجروا مزارعهم ويهربوا من أمامهم ويصبح الموسم فريسة للغزاة . ويذكر أن المكاريّة أنفسهم أخذوا يتمنعون من تأجير جمالهم لنقل بعض الحاجيات خوفاً من البدو الذين أخذوا بالفعل يهددون الطريق العام بين طرابلس وحماة، وقد قتلوا بعض المسافرين ، وسلبوا آخرين ، وأصبحت الطرق غير آمنة .

وفي ٨ تشرين الثاني ١٨٤١ كتب مستر مور Moore ، وهو القنصل الذي عين بعد سابقه ، كتاباً إلى وزارة الخارجية عن عرب الشوايا الذين حلّوا في منطقة كفرا على مسيرة أربعة أيام شرقي حلب أنهم رفضوا الخضوع لسلطة أسعد باشا ، ورفضوا دفع الجباية ، ثم يقول : وقد أخبرني شاهد عيان أنه حضر مجلساً عند زعيمهم الشيخ سلامة دندل قرىء لهم فيه « بيولردي » مصدر دفعهم الجباية ، فضحكوا من المندوب ورفضوا الدفع وطردوا الفرسان الذين كانوا معه ونهبوا أمتعتهم .

وكانت الشوايا من قبل خاضعة تطيع الدولة ، ولكنهم بعد اتفاقهم مع عرب عنزة الأقوياء أخذوا يثورون عليها . وقال لي الرسول إن عنزة أخذت تعبر الفرات بأعداد كبيرة من الجمال والمواشي التي غنموها من عرب قيارة (Ghayara) بمنطقة السكرية أعدائهم الذين هم في حالة حرب معهم دون أن يلتفت أحد إلى وجود السلطة التركية أو يهتم بها . ويذكر القنصل في آخر كتابه أن الرسول نهبت أمتعته وثيابه ، ولكن التحارير التي أرسلت معه وصلت .

وفي ١٥ كانون الأول من السنة نفسها يكتب القنصل نيل «Neale» ويشير إلى حملة كتب عنها في تحارير سابقة إلى « إرْل أبردين Earl of Aberdine » سيّرت لإخضاع البدو بأمر من أسعد باشا حاكم أورفة ولا سيما الثائرين منهم شرقي حلب . وكانت الحملة من ١٢٠٠ رجل . ثم يقول وقد بلغني من طرابلس أن الخط التجاري مهدد في طريق حماة، وأنّ المسافرين والقوافل معرّضون للنهب ، وأن عرب عنزة هاجموا عرب الموالي في منطقة تبعد ١٨ ساعة جنوبي حلب وأخذوا ١٥ أسيراً وقتلوا أربعة رجال وغنموا مواشي .

وفي ٣٠ كانون الأول من السنة نفسها يكتب القنصل نفسه من حلب كتاباً يؤكد فيه أن الباشا في حلب لا يستطيع أن يحفظ الأمن بين القبائل البدوية في تلك المنطقة كما سبق وأشار في تحاريره السابقة ، ثم يقول لوزيره : لي الشرف أن أخبرك أن كبتن لنش «Captain Lynch» من بعثة الفرات كتب إليّ أن البعثة اضطرت إلى أن تستخدم بعض البدو من عنزة لحمايتها وحماية أعمالها ، لأن الباشا نفسه لا يستطيع حفظ الأمن بقواته .

F.O. 195. vol. No. 207

وفي ٢٧ كانون الثاني سنة ١٨٤٢ يخبر القنصل نفسه أن عرب عنزة بدأوا يتسللون عبر الفرات ويتقدمون بأعداد كثيرة إلى جنوب شرقي حلب، وأخذوا يحتلون المناطق التي يحتلها بدو أقل أهمية وقوة منهم ممن كانوا يخضعون لباشا حلب ، ولهذا فقد التجأ هؤلاء البدو المستضعفون إلى قرب المدينة لحمايتهم من عنزة . ويخشى القنصل أن تتقدّم عنزة بكثرة حين يبدأ الربيع الى ضواحي حلب ، ويصعب على الباشا صدّهم ، وبالتالي فإنهم سيهددون خط مواصلات حلب بغداد بل سيهددون حتى خط طرابلس اللاذقية إسكندرونة ، لأن هؤلاء البدو سينتشرون ، كما يقول ، في كل جهة ويضطر الفلاحون إلى أن يهربوا من وجههم ، وتصبح المواسم فريسة للبدو ، حتى أن المكارية أخذوا يرفضون أن يؤجّروا جمالهم لنقل الحاجيات خوفاً من البدو (عنزة) ، وقد هددوا بالفعل الطريق العام بين طرابلس وحماة، وقتلوا واحداً ، وسلبوا كثيرين ، وأصبحت الطرق غير آمنة .

وفي كتاب من حلب أيضاً تاريخه ١٣ آب ١٨٤٣ يذكر القنصل أن جماعة من عرب عنزة هاجمت وسلبت أمتعة ثلاثين حاجاً في طريقهم إلى مكة على بعد بضع ساعات من حلب نفسها .

وفي كتاب من حلب في ٢٢ نيسان ١٨٤٣ يذكر القنصل خبر وصول عرب عنزة وقبائل أخرى من البادية بكثرة ، وأن القبائل نصف المتحضرة تتراجع أمامهم إلى منطقة العمران في كنف الجبال ، وقد انكشفت القرى وخطوط التجارة والمواصلات أمام البدو واضطرت السلطة إلى إرسال مئتي فارس لحماية البوسطة بين حلب والشام .

وفي كتاب آخر من حلب أيضاً في ٢٢ أيار ١٨٤٣ يتحدث عن مجيء عنزة أيضاً وعبورهم الفرات ومهاجمتهم لعرب شمّر (تحت مشيخة سفوق بيك) وكيف نهبوا منهم خيلاً وماشية، ويذكر أن قد بلغه أن ١٥٠ من الهنادي الذين يخصون الباشا والسلطة،

ساهموا مع الغزاة . أما عرب الحديديين وغيرهم من البـدو « نصف المتحضرين » فقـد حملوا هدايا للحكومة .

وفي ٧ حزيران من السنة نفسها يعيد القنصل ذكر الحادثة عن سلب الحجاج وبيع المنهوبات في حلب ويشير إلى أن القوة التي أرسلها الباشا لصدّ البدو قرب حماه أرجعتهم إلى حدودهم بين جبول والفرات ، ويذكر أن الشيخ ابن مهيد أتى مقدّماً احترامه للسلطة والحاكم .

أما قوة عنزة فهي كما يقـول القنصل في كتـابه تقـدّر بنحو ألف وخمسمئـة فارس مسلّحين بالرماح والخناجر ، ونحو سبعمئة منهم يحملون بواريد ، وهناك نحو ثمانمئة على الهجن يحملون بندقيات بسيطة «Match lock muskits» . وقد حاولت السلطة ارضاء السيد تحسين الذي كان انضم إلى البدو وذلك كي يعود إلى مركزه لحماية الحدود . غير أن الأمن لم يدم طويلاً ، فقد عادت عرب عنزة كما يقول القنصل في كتاب تاريخه ١٢ آب ١٨٤٣ فعبرت الفرات ثانية ، وهاجمت بعض القرى ، ووقعت معارك بين البـدو وبين الأهلين ، ورجـع الغزاة إلى ما وراء الفرات ، ولكن المنطقة مهددة دائماً .

وفي ١٣ كانون الثاني ١٨٤٤ يذكر القنصل في كتابه الى وزارة الخارجية أن أهالي قرى كثيرة بين حماة وحمص وضواحيها يقدرون بنحو ٤٠٠ عائلة نزحوا من قراهم هاربين والتجأوا إلى قرى أخرى بين سرمين وخان تومان ، وقدموا عريضة للباشا بأنهم فقراء وأن عليهم ديونـاً لأهالي المدينة ، وأن الفائدة عليها هي مئة بالمئة ، فأرسل باشـا حلب إلى علي باشا والي الشام يخبره بشأنهم ، فأجاب هذا مشيراً بأن يردهم إلى قراهم ، فردّ عليه بدوره إنهم تركوا نساءهم وأولادهم بالقرى وتفرقوا هم في المدينة .

وكتب في ٩ آذار ١٨٤٤ أن شيخ عنزة واسمه نايف هو الذي نهب قافلة ـ الشام بغـداد في السنة الفائتة وأنه الآن على بعد عشرين ساعة من حلب .

وكتب في ١٥ حزيران ١٨٤٤ أن عنـزة هاجمت الحـامية التـركية في قـرية جبـول وهزمتها ، وجرحت قائد الحامية ، ونهبت ما لديها ، وكان مع الحامية جماعة من الهنادي الافريقيين ، ويقال إنهم انحازوا مع عنزة وتركوا الحامية . وأشار إلى أنه تعقد مجالس في القصر لوضع خـطة لحمايـة الحدود من هجمـات عنزة والسعي إلى تفـريقهم ، وذلك بدعوة ابن حبـين وعشيرتـه السبعة ، وهم فـرقة من عنـزة ، ويعدّون نحـو ألف خيمة (بيت) ، واجتذابه وكسوه بالكسوة الشريفة وجعله مسؤولاً عن حماية حدود حلب على خط البادية ، وتكليفه أن يعد مئتي فارس لهذا الغرض يأخذون معاشهم وطعـامهم من

الدولة مؤقتاً طيلة هذا الفصل . ولكنه يعود فيقول إنه لا يأمل أن يوفق هـذا الحل لأن البدو لا يركن اليهم - برغم أن دهـام شيخ عنزة السابق قد تـرك قبيلة عنزة ومـال إلى منطقة أخرى . كذلك يذكر القنصل إنه لا يمكن أن يركن إلى الهنادي الافريقيين ولا إلى الجند السوري الذين لا يقابلون بالبدو. وينهي كتابه بالثناء على الحكم التركي ويقول إنه حمى الأرض، أما الآن فلا .

وفي ٢٥ من حزيران ١٨٤٤ يذكر القنصل في كتابه أن عنزة تتـراجع مـع رئيسها دهام وشيوخها الآخرين من جبول متجهة نحو البادية .

وكتب في ١٠ آب ١٨٤٤ يـذكـر أن عـرب عنـزة عـادت فهجمت عـلى عــرب الحديديين عند قرية تل حسن ونهبت خمسة قطعان من الغنم .

وكتب في ٢٤ آب ١٨٤٤ مكتفياً بالإشارة إلى أن كثيراً من القبائل البدوية هي في نزاع فيما بينها .

وكتب في ٤ كـانون الثـاني سنة ١٨٤٥ وتحـدّث مطولاً عن مشـروع لحصر البدو ضمن تلك المنطقة في سوريا القريبة من حلب ، وذلك ببناء أبراج على مسافات معلومة تحـرسها حـاميات، وأن عـلى الأهالي أن يسـاعدوا في حمـايـة هـذه الحـدود هم والبـدو المزارعون . ويضع القنصل الحق في عدم نجاح مثل هذه المشاريع على الحكام الاتراك في المدن وفي القرى . ويذكر أن إبراهيم باشا قد تمكن من حمـاية القـرى لأن حكمه كـان أفضل . ويشير إلى أن البدو لم يفـدوا إلى القرى والمدن إلا مسالمين ليشتروا ويعودوا إلى منازلهم في البقاع التي حولها . وقد أصبح عند بعضهم ميل للزراعة أما اليوم فقد زال كل هذا .

وكتب في ١٠ نيسان ١٨٤٥ عن الجفاف والقحط في الشمـال ثم أشار إلى تحـرّك عرب عنزة إلى المراعي قرب بلدة حماة ونهر العاصي ، وإلى أن قوة من الحكومة هاجمتها وأرغمتها على الرجوع إلى جهـات جبول بعـد أن أخذت منهـا خيلاً وجمـالاً . وذكر في رسالته أن البدو خرّبوا بعض المزارع عند رجوعهم .

وكتب في ١٦ أيلول ١٨٤٥ أن والي حلب حاول بعد عودته من دورة تفتيشية في منطقته أن ينظم القرى ويحميها ، ولا سيما تلك التي هجرت بعد أن كانت عامرة في أيام ابراهيم باشا .

وكتب في ٤ نيسان ١٨٤٦ يصف سوء حال طرق التجارة من حيث الأمن ، ومثلها

حدود الصحراء ، وذلك ناتج عن هجمات البـدو من عنزة في الشـرق والنصيريـة من الجبال .

F.O. 195 Vol. 302

وكتب في ٢٩ نيسـان ١٨٤٧ عن عنزة وأنها كعـادتها تهـدد الأمن وتنهب القـرى والقوافل ، وأشـار إلى أن الحكومـة توجـه أحيانـاً بعض الحملات لتـأديبهم ولكن دون جدوى . فهم أي البدو يتراجعون حين يحرجون ثم لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا ولا سيما حين يعم القحط في البادية .

وكتب في ٨ أيار ١٨٤٧ أن الحالة تزداد سوءاً حتى أن حلب نفسها أصبحت كأنها محاصرة من قبل البدو تقريباً .

وكتب بعد ذلك بأسبوعين بتاريخ ٢٢ أيار عن تـوجّه حملة تـأديبية إلى البـدو من حلب وحماة وغيرهما ، فاصـطدمت مع البـدو في قتال قتـل فيه سبعـة من كل فـريق ، واضطر البدو إلى أن يتراجعوا أمام الجند لعدم رغبتهم في مواجهة المدفعية .

وكتب بعدها في ١٩ حزيران ١٨٤٧ أن الحالة هادئة وأن الحامية في جبول تتسلّم من الشيخ دهام شيخ عرب عنزة الجمال المتفق عليها في المعاهدة .

وتنقطع الأخبار عن البدو في تحارير القنصل نحو ثلاث سنوات يكتب بعدها في ٢ آذار ١٨٥٠ مشيراً إلى فتنة نشبت بين المسلمين والنصارى في حلب ، وأن الباشا أرسل إعلاماً إلى كل أهالي حلب يـدعوهم إلى رمي السـلاح وإيقاف الفتنـة وأرضى المسلمين بكثير من الأمور ، منها عدم السماح للنصارى بدق الناقوس ورفع الصليب واستخدام الجواري والمماليك . والموجود من الآخرين يطلق حالاً .

وفي ٢١ تشرين الأول يُرسل كتاب من نائب القنصل في إسكندرون فيه أن القرى المسيحية حول حلب نهبت وأن هناك خوفاً أن يأتي البدو وينهبوا البـاقي . ثم يذكـر في كتاب آخر تاريخه ٢٠ تشـرين الثـاني ١٨٥٠ أن الخسارة التي سببتهـا الفتنة تقـدّر بنحو خمسين مليون غرش ، وأن قتلى النصـارى ثمانيـة عشر ، والجرحى ستّـون ، وأن عدد البيوت المنهوبة ٤٥٠ ، والمحروقة ١٢ ، وأن هناك ثلاثة أحيـاء منهوبـة واثني عشر بيتاً محروقة وقد استبيح نحو مئة فتاة .

وكتب في ٢٩ تشرين الأول من السنة نفسها أي ١٨٥٠ يذكر تحرّك عنزة من جبول وصفيرة وجهاتها إلى حلب كي ينهبوا ويشتركوا مع مسلمي باب النيـرب . ويقول إن

خسارة المسيحيين عظيمة ، ويشير إلى أن الحكومة أرسلت حملة لتأديب الثائرين المعتدين ، وقتلت عدداً منهم ، وأسرت الزعماء ، وذكرت في بلاغ انها عاقبت المعتدين الأثمة الذين نهبوا بيوت النصارى وفتكوا وقتلوا . . وأشارت إلى أن عدد الموقوفين بلغ نحو ستمئة ، ومن يقرأ عريضة البطاركة والموارنة تاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٨٥١ المرفوعة إلى الوالي بحلب يدرك إلى أي درك بلغ ذل هؤلاء النصارى .

وكتب في ٥ نيسان سنة ١٨٥١ يخبر عن قدوم الشيخ جدعان (شيخ عنزة) الى حلب ، وعن منحه الكسوة الشريفة نظراً لخضوع عرب عنزة للدولة في منطقة جبول ، وقد زعم رجال قبيلته أن الذي كان يحرّكهم ويثيرهم ضد الدولة هو عبدالله بك وملازمه رمضان آغا. أمّا دهّام الذي كان سابقاً شيخ القبيلة المعترف به من الدولة فهو غير مرضيّ عنه ، وقد ترك المنطقة التي كان فيها وتوجه إلى مقاطعة حمص ـ ويذكر في آخر رسالته أن الحالة هادئة .

وكتب في ١٩ تموز ١٨٥١ يذكر أن عرب البادية ثاروا للنهب في جهة جبول ، ولكن عرب الموالي نصف المتحضرين الذين وكّلوا بحماية الطرق ردّوا البدو وذلك بمساعدة الجنود النظامية وأعادوا النظام إلى المنطقة ، ويشير إلى أن ذلك الفصل من السنة هو موسم تعدّيات العرب البدو . ويظهر من هذه التحارير كلها أن الإنجليز يهمهم قبل كل شيء إقرار الأمن وسلامة الطريق بين إسكندرونة وحلب في سبيل حرية التجارة .

وكتب بعد ذلك بنحو سنة في ١٢ حزيران ١٨٥٢ مشيراً ألى أن الشيخ جدعان لا يزال هو الشيخ المعترف به والموكل بحفظ الأمن في الحدود بين القرى والبادية .

وكتب في ١١ أيلول ١٨٥٢ يذكر أن الشيخ دهّام عاد يهدّد مع فرقة من عنزة منطقة اورفة .

ثم كتب بعدها في ٣٠ تشرين الأول يذكر أن عرب عنزة تركت مناطق الشّمال وتحولت إلى جنوبي سوريا في جهات الشام وحوران واللجاه مغتنمة فرصة الخصام بين محمد باشا والدروز وعرب السلوط في اللجاه ، ويرفق مع كتابه صورة خارطة عن المنطقة التي يحتلها البدو باتفاق مع فرحات باشا. وفي الخارطة ذكر لتسع قرى قرب جبول شرقي حلب حتى حصن علي واللهيب جنوبي حلب .

F.O. 195 Vol. 416 (1853- 1957)

يشير القنصل وري N.W. Werry في كتاب من حلب أيضاً تاريخ ١٣ كانون

الثاني ١٨٥٣ أن المواسم جيّدة في ذلك العام، والحالة هادئة، ثم يشير في كتاب ثانٍ بعد ذلك بيومين مرة أخرى إلى أن الحالة هادئة وهو ينتظر أن يدوم الهدوء في المنطقة نظراً للسلطة التي منحها الباب العالي للباشا في حلب .

وكتب في ١٩ كانون الثاني ١٨٥٣ عن المناطق الجبلية في الغرب أن الحالة فيها فوضى ، وكأنها شبه مستقلة وغير خاضعة للحكم التركي ، وأما منطقة الشمال فمع أن الحالة هادئة فيها فإن الأمر يتوقف أخيراً على السلطة التركية ، ولا تستطيع السلطة حفظ الأمن من البدو إلاّ إذا بقي الجيش كله هنا (أي الجيش غير النظامي المعيّن للأمن) وإلاّ فإن البدو سينهبون المسافرين بين القرى من أورفة على طول خط شمال سوريا. ويقول عن الباشا إنه رجل لطيف ولكنه غير حازم ، وهو يحاول أن يعتمد على العلماء ليكسب ثقتهم وثقة المحافظين الرجْعِيِّين بالآستانة .

وكتب في ٢٧ آب ١٨٥٣ مشيراً إلى حوادث إخلال في الأمن قام بها قوم من عرب المحالي Mohali فسيِّرت قوة من الجند لردعهم فتفرّقوا ، واستسلم بعضهم ، ومنهم الشيخ عارف فقد طلب العفو وتبعه كثير من الشيوخ ، ثم أتبعه بكتاب آخر في ٧ أيلول مشيراً إلى احتمال خضوع البدو للسلطة بوساطة الشيخ عارف الذي ذكر خبر استسلامه .

وكتب في ٧ كانون الثاني ١٨٥٤ عن الباشا أنه يتخذ الاحتياطات اللازمة لردع البدو وصد تعدياتهم وحماية الحدود على أطراف البادية . وذكر في كتاب آخر في ٢٧ كانون الثاني أن حدود البادية محروسة ببعض الوحدات من الجيش .

وكتب في ٣٠ آذار ١٨٥٤ أن قبائل التركمان أخذت تهدد المواصلات وتنهب ما يكون مع المسافرين بين حلب وإسكندرونة وأنطاكية واللاذقية ، ولا سيما عند ممرّ بيلان . وأشار في كتاب آخر تاريخه ١٤ نيسان ١٨٥٤ إلى أن منطقة الخور تدفع ضرائب لعنزة وهي لهذا منطقة فقيرة .

وأشار في رسالة تاريخها ١٦ نيسان إلى إرسال مندوب لشراء خيل للجيش البريطاني ، وعيّن العدد المطلوب وهو ٣٠٠ حصان ، وقال إنه لا بد من وقت لإكمال الصفقة ، وذلك بسبب المساومة المألوفة ـ أي المماكسة على الثمن المطلوب . وضمّن كتابه رسالة من الاسكندرونة من الكابتن نولان تتعلّق بأمر شراء الخيل يزعم فيها أن الخيل في حلب أقوى وأكبر حجماً ، وإنه يفضل الخيل العربية إذا كانت كبيرة الحجم ، وإنه سيشتري خيلاً مهجنة ، ويزعم أن المساومة مع العرب تطيل الوقت ، ولهذا فإنه

يفضل أن يؤتى بعدد كبير من الخيل لحلب ليختار منها دفعة واحدة ، والمطلوب خيل بعلو ما يقل عن أربعة أقدام وتسعة قراريط ، وهو يريد أيضاً خيلاً أصيلة ، ويدفع ثمن الحصان والفرس ما بين ثلاثين وأربعين ليرة إنجليزية ، ويذكر أيضاً ما يفيد أن حلب وأورفه وقانا هي أحسن مراكز لشراء الخيل وأفضل الأسواق لذلك .

وكتب في رسالة تاريخها ٢٣ أيار ١٨٥٤ أن هناك هدوءاً في كل البادية ، وأن قبيلة عنزة وشيخها دهام لا تقوم بما يعكّر ذلك الهدوء ، ولكن قبيلة شمّر تضايق القرى عند أورفة ، وتقطع الطرق وتلجىء المزارعين إلى التخلّي عن أراضيهم وزرعهم . ثم لا يلبث أن يكتب في ٢٠ تموز ١٨٥٤ شاكياً عنزة وشيخها « دهام » ، وهو يزعم أن البدو أخذوا يتعدّون على مزارع الفلاحين في القرى على الحدود ويشاركونهم في محاصيلها .

وكتب في ١٦ أيلول ١٨٥٤ عن عرب الموالي وأنهم أخذوا يحدثون بعض الاضطراب في الشمال ، ويقول عنهم إنهم ليسوا مزارعين ، ولكنهم يملكون بعض المزارع ويتنقلون على أطراف البادية ، وكانوا سابقاً حلفاء للحكومة ، يحمون القرى على ضفاف البادية ، ولديهم ما بين ٣٥٠ و ٤٠٠ فارس ، وحيث إنهم كانوا كغيرهم من البدو قد ألفوا النهب ، احتفظت الدولة ، حين تحالفت معهم ، برهائن منهم في الأستانة، ويذكر القنصل أنهم في الأيام الأخيرة أخذوا يطلبون استعادة الرهائن، وشرعوا ينهبون ، وقد صادروا الملّاحة بالجبّولة ، وسيّرت الحكومة كتيبة من الجيش لردعهم وواسطة أيضاً للمصالحة .

وكتب في ١٨ أيلول ١٨٥٤ يذكر عن عرب عنزة وشيخهم دهام أنهم تركوا الحدود وعبروها واتجهوا نحو الجنوب إلى مناطقهم الشتوية.

وكتب في ٢٧ أيلول ١٨٥٤ عن عرب الموالي أنهم أخذوا يهربون أمام جيش الدولة ويلجأون إلى الشيخ عبدالله مطر الجليسي طالبين التوسط لدى الدولة كي تعفو عنهم ، وقد بلغه أن الباشا سيمنحهم العفو شرط أن يعيدوا ما نهبوه .

وكتب في ٤ تشرين الأول ١٨٥٤ يخبر عن كمين أقامه البدو من عرب السبعة لجماعة من جند يوسف باشا غير النظامي قرب تديف ، وأنه قد قُتل في تلك المصادمة شيخ تديف ورئيس الجيش وجرح كرد يوسف آغا ، ووصف كيف تمّ الكمين بنزول بعض البدو وانسحابهم ، ثم مهاجمة المتعقبين لهم من قبل الكمين وفتكهم بهم ، وأشار إلى فشل حملة يوسف باشا المذكور إذ ليس للجند الذين كانوا معه أي اختبار في الحرب أو ذكاء .

وعاد فكتب في رسالة ثانية تاريخها ١١ تشرين الثاني يذكر أن الحكومة سيّرت حملة للانتقام من البدو ، ولكن كانت قبائل عنزة كلها قد انسحبت إلى الجنوب ، فتمكن رئيس الحملة من جمع الضرائب من القرى على الحدود .

وكتب في ١٣ كانون الأول ١٨٥٤ أن يوسف باشا لا يزال مقيماً على حدود الفرات ، وهو يتفاوض مع الشيخ جدعان من عرب عنزة بأمر الأمن في تلك المنطقة ، وعاد فكتب في ٢٠ كانون الثاني ١٨٥٥ أن يوسف باشا عاد من حملته تلك وقد زعم أنه نجح في حمل بعض البدو المعروفين ببدو الرعايا على الزراعة والاستقرار . وأشار في رسالة أخرى تاريخها ١٥ آذار ١٨٥٥ إلى أن المنطقة تعاني فقراً عاماً ويشكو أبناؤها الجوع وأن بعض الناس تعيش على الأعشاب .

وكتب في ٧ أيار يذكر أن الطريق بين حلب ودمشق أصبحت مهددة دائماً من البدو من عنزة وغيرها . وقد انضمت الموالي إلى عنزة وأصبحت القوافل لا تجرؤ على المرور بالطريق المذكور دون أن يرافقها عشرون أو ثلاثون فارساً حتى البريد نفسه فإنه ما أُمِّن إلّا لأنه كان يحرسه عشرون أو ثلاثون من الفرسان . ويشير في رسالة أخرى تاريخها ١٧ تموز ١٨٥٥ إلى أن الأمن لا يزال مضطرباً في الشمال وكذلك بين أنطاكية وبيلان .

وكتب في ٢٧ آب ١٨٥٥ أن البعثة الموكلة بشراء الخيل قد اشترت ٦٥٧ حصاناً وقد وصلت وهي قوية وحسنة وقد فقد بعضها .

وكتب في ٩ تشرين الأول ١٨٥٥ أن عدداً من الموالي وهم مزارعون هربوا يوم الأحد في ٧ تشرين الأول حين هجم عليهم عرب الحدادين(*) ، وهؤلاء هم أيضاً مزارعون وقد التجأ الموالي إلى ضواحي المدينة (أي حلب) ، وذكر أنه يظهر أن بعض هؤلاء الموالي كان قد أهان نساء الحدادين المسالمين فتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة ، وهاجموا الموالي ، وطردوهم حتى أبواب حلب ، وقد أرسل الباشا فرقة من نحو أربعمئة أو خمسمئة من الفرسان والمشاة لمساعدة الموالي ، ولكنهم ما كانوا مسلّحين جيّداً فغُلبوا وقتل منهم عشرة رجال ، وجرح نحو عشرين ، وذكر أن الموالي قليلون ولكنهم خبثاء ونهابون مشهورون وكان القصد من حماية الوالي لهم أن يحضِّرهم ، ولكنهم لم يتحضروا ولم ينقطعوا عن السلب والنهب والتعدي فضاق صبر الحدادين وفعلوا بهم ما ذكره سابقاً .
ثم أشار القنصل إلى أن الفلاحين كانوا مع الحدادين لأنهم من البدو المسالمين ويدفعون الضرائب للدولة .

(*) يقصد الحديديين .

أشار في رسالة في ٨ تموز ١٨٥٦ إلى أن الموالي سلبت بعض الموظفين أمتعتهم وقتلت واحداً منهم . وفي رسالة تاريخها ٢٩ تموز أشار إلى أن عرب عنزة تركت المنطقة وعبرت الفرات جنوباً لتتموّن . وذكر في رسالة أخرى تاريخها ٢ أيلول ١٨٥٦ أن الهدوء شامل في كل المنطقة .

ويظهر أن الهدوء لم يدم طويلاً ، وأن الأمن لم يستتب بعد ذلك ، فقد ذكر في رسالة كتبها في ٢٠ نيسان ١٨٥٧ أن المسؤولين في حلب من حاكم (والٍ) ورئيس جيش وغيرهما اجتمعوا معاً للبحث في أمر الأمن بغية الوصول إلى أفضل حلّ لصدّ هجمات البدو التي طال أمدها نحو قرن . فبعثوا وراء جدعان ودهّام وألقوا عليهما الخلع ، وأعطوا كل واحدٍ سيفاً ، وقدّموا هدايا لأتباعهما محاولين استرضاءهم ومنعهم من النهب ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يرضوا ، وما لبثوا أن تركوا ناقمين فيما يظهر وهاجموا في اليوم الثاني قبيلة اللهيب التي كانت خاضعة للباب العالي ، ونهبوا منها تسعة أفراس وبعض ما طاب لهم من أسلاب في قريتين مجاورتين ، وحملوا الأسلاب مع عددٍ من الخيل والغنم إلى مضاربهم . ويذكر القنصل أنه بلغه بعد ذلك أن هؤلاء البدو أنفسهم نهبوا أيضاً الخيل التي كانت الدولة قد اشترتها للتناسل وهي ترعى في الأراضي على ضفاف البادية. وقد اضطر الوالي عزمي باشا إلى أن يسير مع حملة من ٤٠٠ جندي نظامي و٢٠٠ غير نظامي لمحاربة أولئك البدو.

وكتب في ١٢ أيار ١٨٥٧ عن هذه الحملة التي سارت لقتال عرب عنزة ، وأشار إلى أنها استصحبت معها بعض شيوخ البدو الموالين للسلطة ، منهم اثنان من شيوخ عرب اللهيب واحد اسمه حمادي الشيحة ، وآخر اسمه فارس ابن حسين شباط ، وشيخ على عرب الحدادين اسمه علاوي رجو ، وتفاوض الجميع فيما بينهم واتفقوا على مباغتة عرب عنزة ليلاً ، ولكن عزمي باشا رفض ذلك . وحين سار الجيش في النهار كانت عنزة قد تركت الأرض التي كانت فيها وهربت ، وذلك لأن بطران آغا أرسل فارساً خاصاً أخبرهم بمسير الحملة ، فلم تستطع الحملة مفاجأتهم . واختلف بعد ذلك الشيخ دهّام مع زميله الشيخ جدعان من عرب عنزة وانسحب وأرسل رسلاً يقدم خضوعه لعزمي باشا ، ويذكر له أنه صديق ويسأله السّماح له بالقدوم إلى حلب لتقديم طاعته ، فأخبر أن يظلّ حيث هو ، ويذكر القنصل في هذه الرسالة كيف أن الجند بدورهم سلبوا قافلة لتاجر هندي وزعموا أنها للبدو ، وكيف هاجموا أبناء القبائل الموالية من عرب الحدادين واللهيب لأن أصلهم من عنزة مع أنهم وفدوا لمناطق العمران لاجئين هاربين من عنزة ويخافون شرّها . ومن هنا يزعم القنصل ضعف مركز الباب العالي بسبب ضعف مركز الحكومة في حلب وترددها وتخاذلها .

ثم كتب بعد ذلك بثلاثة أيام أي في ١٥ أيار يذكر كيف كانت تباع الأغنام بالمزاد العلني في حلب ، وهي في الواقع ملك الحلبيين أنفسهم الذين كانوا ودعوها عند البدو المسالمين الذين نهبهم الجيش ، ويذكر أيضاً كيف هاجم الحملة شيخ العنزة جدعان وذلك عند رجوعها وقتل منها جماعة . وهنا يزعم القنصل « باركر » أن هذه السياسة ستؤدي إلى انسحاب الحملة كلها ومهاجمة البدو للقرى ونهبها .

وكتب في ٨ حزيران ١٨٥٧ القنصل سكين «Skene»مشيراً إلى مفاوضات بين الشيخ دهّام والسلطة ، ويذكر أن دهّاماً زاره وأراه صورة الاتفاق المعقود مع الموالي ، وينص الاتفاق على الاعتراف بدهام وحده شيخاً على عنزة ، وعزل منافسه جدعان ، وسأله أن يدعو كل الشيوخ الثانويين إلى الموافقة على هذا الاتفاق وتوقيعه . وينص الاتفاق على أن كل من يحمل توصية من الشيخ دهام يمكنه أن يدخل مدينة حلب وإلّا فلا . ثم يقول « سكين » إن دهاماً أخبره أنه في أثناء الشهر الأخير هاجرت خمس قبائل من العميرات تعرف بالدهامشة ، وفي كل قبيلة منها نحو ٦٠٠ عائلة ، من وسط الجزيرة العربية وحلّت في أراضي تبعد عن حلب نحو ثلاثين ميلاً ، وهذه القبائل هي من عنزة التي تركت نجداً منذ قرن للسبب نفسه ـ أي قحط المراعي ـ وقد وضع هؤلاء الوافدون أنفسهم تحت رعاية الشيخ دهام ، وهم أغنياء بالمواشي ولا سيما الغنم ، ولكنهم أقل عدداً من جماعته الذين يحلّون قسماً من البادية أكثر خصباً .

وكتب أيضاً في ١٦ حزيران ١٨٥٧ أن الموالي أخذت في تلك المدّة تقوم بالتعدي على القرى ، والإخلال بالأمن ، وقد هاجم أبناء هذه القبيلة قريتين قرب سرمين ، ونهبوا ١٥ جملاً وبعض المواشي الأخرى من الغنم ، ثم هاجم بعد ذلك شيخ الموالي كلها أحمد بك قرية خان تومان على بعد عشرة أميال من حلب ونهب « ٥٠ » جملاً ، وذكر القنصل أخيراً أن السلطة تهيىء حملة للاقتصاص من الموالي .

وفي ٣٠ حزيران عاد فكتب يقول إن الوالي اتّخذ قراراً بمنع التعامل مع كل البدو ، وهو قرار غير حكيم ، لأنه بدلاً من أن يتبادل الأهلون مع البدو فيبيعهم هؤلاء الإبل والغنم والصوف ويشتروا منهم قمحاً وغيره من الحاجيات سينهبونهم ، ولهذا فإن القنصل يشكو إلى الحكومة ضعف سياسة الباشا الذي يمثل السلطة التركية .

وفي ١٥ تموز من السنة نفسها كتب القنصل نفسه رسالة يخبر فيها عن معركة كبيرة وقعت في البادية بين الجند والبدو في وادي الدبسلي Dabisli على الضفة اليسرى من نهر الفرات دامت ٣ ساعات ، وكان جيش البدو مؤلفاً من نحو ثلاثة آلاف بين فارس

وراكب هجين ، والجند من نحو ألف وخمسمئة ، وكان شيوخ البدو كلهم متحدين معاً ، وهم جدعان ودهام وجعيّد ، وقد هُزِمَ البدو وهربوا وتركوا بين ثلاثمئة وأربعمئة قتيل في ساحة المعركة ، وغرق كثيرون حين عبروا النهر ، وخسر الأتراك أحد عشر قتيلاً وعشرين جريحاً ، واستولى الجند على ٢٥٠٠ جمل ، ومئة من الغنم ، فوزعت الأغنام على الجند . ويظهر أن البدو عادوا فارتدوا في اليوم الثاني وهاجموا الجماعة التي كانت تسوق الجمال ، فقتلوا الملازم المسؤول واستردوا الجمال . ويظهر أن القنصل نقل أخبار هذه المعركة عن مصادر تركية .

وفي ٢٥ تموز من السنة نفسها أرسل القنصل سكين في حلب إلى السفير في الآستانة وإلى وزارة الخارجية تقريراً ورد إليه من الكولونيل سانكي «Sankey» عن حالة البدو والبادية ، وكتاباً يعرض فيه على القنصل وساطته لإخضاع البدو ، وطلبه قوة من الجند من السلطة العثمانية ، ويقول القنصل إنه عرض الأمر على السلطة فوافقت ، وهو بدوره يثني على الكولونيل ويشيد بمعرفته وخبرته في الشؤون العربية وفهم العقلية الشرقية ، ويتمنى راجياً أن توافق الحكومة الإنجليزية على هذه الخطوة المقترحة . ولما كان هذا التقرير هاماً وطويلاً فقد رأيت أن أورد كل ما فيه مراعياً شيئاً من الإيجاز في بعض الحالات . وتاريخه ١٩ تموز ١٨٥٧ .

F.O. 195 Vol 416

يتحدّث في هذا التقرير سانكي أولاً عن حالة البادية والنزاع الدائم وأنه لا فائدة من استمرار النزاع بين البدو والحضر ، ولا نفع من الحرب والخصام ، لأن البدو إذا غلبوا انتقموا ، وإذا انتصروا طمعوا ، ثم يتكلّم عن قبيلة هنادي التي ورد ذكرها غير مرة في كتب القناصل فيقول إن أصلهم من البربر والمصريين ، وقد جلبهم إبراهيم باشا لحرب البدو ، ولهم رئيس اسمه بطران آغا ، وهم شجعان ومخلصون ومحبّون للأوروبيين ، ويستطيعون دون شك التغلّب على عرب عنزة ، وقد عرف عنهم ذلك في حوادث سابقة وعنزة تخاف زعيمهم .

أما عرب عنزة فهم بدو هاجروا منذ ستين سنة من نجد إلى هذه البلاد لقلة المراعي في أوطانهم، وعددهم الآن في مناطق حلب نحو ١٥٠٠٠ ، لهم أربعة شيوخ: دهّام وجدعان وهما ينزلان مع عشائرهما وراء قلعة جبور إلى اليمين من الفرات، ثم محمد الضلع ابن اسماعيل وينزل مع قبيلته بين الشام وحلب، وأخيراً جلاس ابن فيصل ابن شعلان رئيس قبيلة الجلاس والرولة.

إن هاتين القبيلتين منتشرتان في البلاد بين الشام (في سُوريا) والجوف في نجد ، وهناك أعداد كثيرة من الشيوخ الأصاغر من أقرباء هؤلاء وغيرهم ، وهم يعتمدون على هؤلاء الشيوخ الكبار . ويوجد في كل مضرب من مضارب البدو عموماً ما بين ٥٠ إلى ٢٠٠ خيمة لا أكثر . وذلك لكثرة القطعان من الجمال التي تطلب المرعى . وقد حسبت معدل عشرة جمال لكل رجل ، ولا يبقى البدو أكثر من ٣ أيام إلى ٥ في الموضع الواحد ، وليس لهم خطة معيّنة . خيامهم تتركب من قطع من وبر الجمال الأبيض(*) الممتد على الأعمدة وفي نصف البيت حاجز للمرأة والأولاد . وتمتد بعض البيوت الكبيرة إلى ما بين ٥٠ و ٦٠ قدماً في الطول . ثروتهم هي الخيل والجمال والغنم التي يبيعونها للأهالي ، ويأخذون بدلها قمحاً وثياباً . ويتألف طعامهم في الصيف في الأغلب من التمر الملتوت بالزبدة المذوّبة . هم جهلة إلى آخر حد ، ومقدرتهم العقلية محدودة ، وتنقصهم اللطافة المألوفة في البدو الإفريقيين. إنهم سيئو الظن وخدّاعون غدّارون، ولا يرون عاراً في غدر الأوروبي ، بينما قد يكونون أوفياء بعضهم إلى بعض . ولديّ برهان اليوم ، فقد كنت ضيفاً عند الشيخ دهّام العنزي ، وحين ودّعته أقسم بالصداقة ولم يرسل معي فارساً لحراستي ، وقال إن هذا غير ضروري وفي موضع على ١٢ ميلاً من مضاربه رفض الدليل وهو ابن أخيه أن يستمر ، وقد فهمت من هيئته أنه يريد مني دراهم . ولما كنت مسلّحاً افتكرت أولاً بصدّه بعنف ، ولكنني أدركت حالاً أني محاط بكثير من عرب عنزة الذين تركوا المضارب قبل تركي وسبقوني لقطع طريقي ، وهم مسلّحون بالرماح لهذا الغرض . ولهذا جعلت الدليل يجلس قربي ويخبرني عن شروطه كي أتركهم بهدوء ، فطلب ألف مجيدي ، فرفضت فأظهر لي أن رفضي سيعرّضني للخطر لأن رجاله هؤلاء سيغضبون فأخبرته أن لديّ حياة عشرين واحداً من رجاله هؤلاء في زناري ، وأن إغضاب أوروبي مسلح سيكون أفعل من عشرين عنزياً ، وعرضت عليه ألف غرش (٨ ليرات ذهبية) تدفع له في حلب على شرط مرافقتي لقبض المال ، وأتعهّد بحمايته ، فرضي بهذا العرض (لدهشتي) ، ولست أدري كم كان أثر المسدس في إقناعه .

إنهم فرسان ممتازون ولديهم أحسن الخيول في العالم . وهم لا يستعملون اللجام ولا الركابات بل يركبون على سرج غير محكم الرباط . يعتمدون على خيلهم

(*) لقد أخطأ حين زعم أن الخيام تحاك من وبر الجمال الأبيض، إذ لم أر بين مئات بيوت الشعر طيلة سني ترددي إلى البادية خيمة واحدة حيكت من وبر الجمال. ولعلّ الجزء الوحيد من الخيمة الذي يمكن أن يدخله نسيج من وبر الجمل هو في الرواق أو في جوانبها المتدلية من سقف الخيمة. ولعلّ البياض الذي رآه هو من شعر المعز البيض إذ ليس كل المعيز سوداً ومنها سود ومرقطة بالبياض ومنها ما لون شعرها عسليّ.

ويقدرونها ، ويعزّونها ، ولا يحبون أن يتخلّوا عنها . ويقال إن الخديوي عباس باشا في مصر دفع أموالاً طائلة ثمناً لأفراس من عنزة . إن احتمال هذه الحيوانات لأمر عجيب ، فقد عرف عنها إنها تجري ثلاثين ساعة دون توقف أو استراحة . ولما كان الاتصال بالبدو ممنوعاً من قبل السلطة التركية ، وهم لا يفلحون ولا يحرثون الارض ، فإنهم لذلك لا يشترون شعيراً لخيلهم ، وليس عندهم لها إلاّ العشب اليابس من نبت الشيح ، وهم يعتمدون في طعامهم على حليب الإبل ، ويعزو البدو قوة عظامهم إلى ذلك . وإن قليلاً منهم من يستعمل البنادق ، فسلاحهم المحبب هو الرمح الذي يصدّ أي سيّاف من أعدائهم .

ويعتبر أمراً شريفاً سلب عدوٍ حصانه في الحرب ، ويحفظ عندهم كما لو كان لهم وكما نحتفظ بكأس النصر .

وأن إطاعة الزعيم أمر اختياري ، ومن هنا فإن أي اتفاق معه لا يربطهم . وكانت عرب الموالي قبل مجيء عنزة تحت مشيخة الشيخ محمد حرفان وكانوا أقوى قبيلة ، ولكن بعد منازعات متعددة إضطروا إلى طلب المدنة ، وظلّوا سنين كوسطاء بين عنزة والقرى ، ووكلاء أو سماسرة للقرويين ، أما الآن فإن عنزة تباشر الأمور التجارية رأساً مع حلب وضواحيها حين تسمح لها السلطة .

أن عنزة الآن في حالة تشبه الحرب مع الحكومة وعرب الحديديين والهنادي والموالي وشُمّر . ولكن عدد هذه القبائل قليل بالنسبة إلى عنزة ، بحيث لا يمكن لهم قهرها إلاّ إذا إتحدوا جميعاً . والهنادي هم القبيلة الوحيدة التي تخافها عنزة . وقد أُقصوا عن الطريق بأمر الحكومة لئلا يثوروا وينضموا إلى الثائرين ، لأن السلطة تعلم أنهم غير راضين عنها ولا سيما أنهم لم يدفعوا لها شيئاً من الجباية من سنين .

أما الموالي فهم قبيلة سورية ، وكانت قبل عنزة أقوى قبيلة ، وقد اضطرت إلى أن تؤاخي عنزة زمن محمد حرفان ، ولكن لهم تاريخ غدر ، فقد دعوا ٦٠٠ من عنزة وهم على الطعام ففتكوا بهم ما عدا واحداً منهم هرب لأنه لم يأمنهم ، ومن هنا المثل « بيت الموالي بيت العيب » يعني بيت العار .

وبعد ذلك بسنين حاولت عنزة ثانية الاستقرار في هذه الأراضي ، فوقفت الموالي بوجههم ، ونشبت معركة قرب قلعة جبول . وانتقمت عنزة وقتلت الأسرى لأن وليمة الموالي كانت لا تزال حيّة في نفوسهم (في ذاكرتهم) ، غير أنه لم يطبّق الأمر في حادثة واحدة حيث أسر عنيزي واحداً من الموالي ورضي أن يبقي على حياة أسيره لقاء دية ،

ورضي أن يرافق أسيره إلى موضع يمكن الأسير فيه أن يتصل برفاقه ، ولما وصلوا إلى ذلك الموضع أخبر الأسير آسره أنه ابن محمد حرفان نفسه زعيم الموالي ، فتردد العنيزي هنيهة ثم أمر الأسير أن يـركب ورافقه إلى مـرأى من الموالي في محلّة الصفيـرية Spheria ، ثم صرفه قائلاً لست أحمل لأهلك إلا البغضاء ، ولكن اذهب أنت الآن فقد نجوت ، إن كلمة العربي مقدّسة ولست أرضى أن آخذ بدلاً من ابن محمد حرفان .

وليس لهم مثل هذه الاعتبارات والعهود نحـو الأوروبيين ، إن أكـثر التشليحات والسّلب والقتل حول حلب تنسب إلى الموالي ، وهي بالفعـل من أعمالهم ، وعـددهم نحو ألف خيمة فقط ، أما الحدّادين (الحديديّون) فهم نحو ٨٠٠ خيمة ، ومنازلهم دائماً بجوار حلب ، وهم لطفاء ولا يضرون أحداً ، ويساعدون الآن الجيش على عنزة ، لأن هؤلاء أخذوا منهم أحسن خيولهم . هذا هو السبب الدّائم في الاختلاف بين العرب . إن الحدادين (كذا) هم رعاة لأصحاب الأغنام في حلب ، فيستلمون الأغنام ويموّنون المدينة بالسمن ، وهم مطيعون للحكومة برغم ما عاملتهم بـه الحكومـة أخيراً حـين لم تنجح في إخضاع عنزة فنهبت الحدادين بطريقها وباعت أغنامهم وأغنام الحلبيين بأسواق ووزّعت الأموال على الجند .

أما قبيلة شمّر فهي بزعامة الشيخ عبد الكريم صفوق، وهم ينزلـون في جزيـرة يحيط بها الفرات على بعد ثلاثين ميلاً من قلعة خابور ، وقد أخبرني الشيـخ دهّام زعيم عنزة أن في عزمه أن يطردهم منها ويحتلّ الجزيرة . وعدد شمّر نحـو ١٥٠٠ بيت ، وقد هاجروا إلى هذه المنطقة من جبال شمّر في غربي الجزيرة العربية في الوقت الذي هاجرت فيه عنزة .

إن شيخهم عبـد الكريم لـه صفات حسنـة أحسن من أكـثر أتبـاعهم ، ويحتـرم الأوروبيين ، وقد نهبت قافلة لتّجار بريطانيين ـ نهبها جماعة من قبيلته على الـطريق من الموصل ـ ولما عرف الشيخ أنها للأوروبيين جمعها من بيوتهم وأرجعها كلها إلى أصحابها بأوربا وحملها على جماله الخاصة واعتذر عن عمل قبيلته .

وفي الظروف الحاضـرة لا يمكن للجيش السلطاني أن يعمل شيئاً ضد العنـزة ، ويمكن أن يجري ضرر وشر أكثر منهم إذا استمرّت الحالة السيّئة . فإنه إذا اتّحدت القبائل كلها فإن حلب نفسهـا تنهب ، وآمل أن تتخـذ الخطوات الـلازمة كي لا يحـدث ضرر للتجارة

أما الاقتراح الذي أقترحه لإقرار السلام في البادية فهو هذا : تعينّ منطقة خاصة

لكل قبيلة ونجعلهم يدفعون للحكومة بدلاً (رسماً) عنها ، وبهذا يمكن أن يقرر أمران ، أولاً ملك الحكومة للأرض التي لا يسلّم بها البدو عموماً ، وثانياً سلطة الحكومة أو السلطان ويصبح لهم (بصفة الرسم الذي يدفعونه) حق استعمال الأرض ، ويصبحون مثل الرعايا الأتراك. وهو أمر لم يقبلوه بعد .

وللحصول على خضوعهم ودفع الرسم يجب أن يكون هناك جيش من ألف جندي غير نظامي مسلّحين بالبواريد والمسدسات . ولما كان البدو من عنزة يخافون من السلاح والبنادق الحربية فإن ذلك يكفي . ويمكن لهذه القوة بالوقت نفسه أن نحمي خط الحديد وخطوط التلغراف ، وبمثل هذه القوة يمكن أن تحرر البشالك في منطقة حلب من شر البدو الذين لا يمكن بطريقة أخرى إخضاعهم للتحضير والزراعة . لا لكسلهم الذي لا يقهر ، بل لأنهم علّموا أن يعتبروا من العار كل عمل يدوي ـ ومنه الزراعة التي لا يمكن أن تنشأ تدريجياً حين يقطعون الأراضي دون إرغامهم على التحضير . فإذا تمت هذه النتائج فإن البدو في المدة نفسها ، وحتى تتم ، لا يستطيعون أن يقوموا بشر ويصبحون رعايا نافعين. فإذا رضيت الحكومة التركية بهذا الاقتراح فإني مستعد لتطبيقه لها . Lt. Col. Namik G. Sankey

F.O. 195 595 (1858 - 1860)

تقرير آخر من سانكي إلى القنصلية البريطانية تاريخه ٧ حزيران سنة ١٨٥٨ عن قبيلة قيس . قبيلة تحل بين حرّان والخابور ، وشيخها الأكبر اسمه عبد اللّه العثمان ، وعنده من الفرسان ٤٥٠ فارساً ـ لم يرحل أبناء هذه القبيلة كثيراً منذ سنوات بعيدة وبقوا في ضواحي أورفة ، وهم متحضّرون أكثر من غيرهم ، وقد اشترى شيوخها أراضي ليزرعوها ، ويمكن بسياسة حكيمة أن يكونوا عوناً لرد هجمات البدو الآخرين الذين يعيثون فساداً . إنهم فرسان ممتازون ، ويعدّون أقوى ممن هم في عددهم من عنزة أو من شمر ، كما برهنوا في مناسبات عديدة . لقد سُمح لمنطقة أورفة بـ ٤٥٠ تذكرة للتجنيد للدّفاع عن الحدود الشمالية ، منهم ٧٠ جندياً من الأكراد (الملّو) و ٤٥ لزعماء قيس والباقون غير نظاميين . وهؤلاء يحلّون في خيام قبيلة قيس ويفسدون وفي الحرب يهربون . أما قيس فإنها إذا لم تقو وحدها على الدفاع تراجعت إلى أورفة وضواحيها حيث ترعى قطعانهم وتضر بمصالح المواسم ، فلو تمنح ٤٠٠ من هذه التذاكر لقيس نفسها بزعامة عبد الله العثمان الذي يستطيع تقوية جيشه حتى يصل إلى ألف فارس ، لأمكنه حماية الحدود الشمالية من الرقة على الفرات حتى رأس العين نبع الخابور ، ومتى حلّوا هذه المناطق وسكنوها تزداد المواسم بين خط الحدود وحرّان ، وتزرع الأراضي فتنتج

عشرين ضعفا . والسلطة بدل أن تحاول تحضير قيس للزراعة نراها تفسد بين زعمائها الواحد على الآخر ، فيلجأ الضعيف منها إلى شمّر أو عنزة ، ويصبح من الأشقياء المفسدين . إن وضع قيس في أورفة هي مثل وضع المنادي في حلب وهم خير من يدافع . ويشفع سانكي تقريره بمخطط لتحضير قيس وجعلها تعنى بالزراعة ، ويعين مواضع لمنازل قيس بين رقة ورأس العين لمنع هجمات البدو . وهذا يدل على فهمه للموضوع الذي يبحثه لإحياء الأراضي الداخلية ومنع هجمات البدو .

F.O. 195 595 (1858 - 1860)

في ٨ نيسان سنة ١٨٥٨ يذكر تعرّض البلاد إلى هجمات القبائل البدوية وان عودة الطقس الجميل أرجعهم إلى جوار حلب ثانية وقد ازدادوا بوصول قبائل أخرى من أواسط الجزيرة العربية ، فقصدوا فيما يظهر أن يستفيدوا بالقوة من التجارة التي حرموها ، وهوجمت القرى ، وقتل كثير من الأهالي ، ونهبت قطعان الماشية ، وأتلفت بعض المواسم وأكلتها الخيل والجمال .

إن عرب عنزة يعودون كل سنة إلى دورتهم في الرحلة التي تعيدهم إلى حلب في الصيف ، وتأخذهم إلى أورفة وديار بكر والموصل وبغداد في الشتاء ، وتدور بهم حول القسم الجنوبي من الصحراء قرب الشام وحمص وحماة إلى حلب، ويتمونون بالحبوب والحاجيات المصنوعة هنا ، وبالتمر من بغداد ، ويبيعون صوفهم وسمنهم وجمالهم وخيلهم لشراء هذه الحاجيات ، وكل متطلباتهم وحاجاتهم تقوم بها القطعان التي يربون ، وهي التي تفرض عليهم هذه الرحلة والانتجاع بدائرة كبرى ليتخذوا أواسط الجزيرة القاحلة وليجدوا مراعي جديدة حول ضفافها ينتقلون إليها كلما رعوا مرعى . وتقدّر التجارة التي تجري معهم بخمسة ملايين عرش . وجرت عادة الحكام أن يسمحوا لهم بالتجارة حتى إذا أخذوا يتعدون على القرى بعثت لهم قوة إلى القرى لتردهم عنها ، ولكن دون جدوى ، وفي الربيع الماضي خابروا المدينة للتجارة حسب عادتهم، ولكن الوالي عاملهم بقساوة ، فعادوا حانقين عليه ، وبدأوا تعدياتهم ، فصدرت أوامر بمنع التعاطي معهم . وأرسلت السلطة حملة من الجند لإخضاعهم، فهربوا بسهولة وعادت الحملة بعد أن نهبت، وهي في عودتها، كثيراً من القبائل الموالية، حتى القوافل نفسها التي تحمل بضائع التجار الوطنيين ، وكان منهم أحد الرعايا الإنجليز . وقد سار أيضاً أمين أفندي بنفسه وباغت العنزة وأخذ منهم جمالاً ، ولكنهم عادوا فكروا واستردوها منه بالقوة . وعادت الحملة إلى مراكزها . وقد منع تمركزها هجمات البدو الأخرى ، ولكن المدينة خسرت حين حرمت من التجارة معهم . ولم يتموّن العرب مطلوبهم فحاولوا أن

يتموَّنوا من الموصل ، ولما كان الشيخ عبد الكريم صفوق شيخ شمّر لا يريد مرورهم من أراضيه فإنه أعطى خبراً إلى حكام ديار بكر وماردين والموصل أن عنزة تسير شمالاً ، وتبرّع في الوقوف لصدّهم ومنع سيرهم إذا أعطيت له مساعدة ، لأن رجال قبائله وحدهم لا تكفي لردهم . ولم يقبل اقتراحه ، هكذا سارت عشرة جيوش من عنزة ، كل جيش من ٥٠٠ رجل ، وعبرت الفرات ، وهاجمت شمّر ، وبعد حرب دامت ثلاثة أيام اضطرت شمّر إلى أن تتراجع أمامهم ، وقد خسرت عدا القتلى والجرحى نحو ألف خيمة وستة آلاف جمل وثمانية آلاف رأس غنم أخذتها عنزة . وعندها استطاعت شمّر أن تقنع قبائل الأكراد وأهالي القرى في شمالي العراق بالانضمام إليهم لرد عنزة ، ووقعت الحرب ثانية في الشمال ، فغلبت هذه الجماعات جيوش عنزة ، وافتكوا ما سلب منهم ، واستردوا مواشيهم وأخذوا زيادة على ذلك ٢٧٠ فرساً قُتل فرسانها ، وكان مجموع القتلى في هذه المعارك نحو ٧٠٤ من عنزة ، و ٢١٥ من شمّر ، واضطرت عنزة إلى أن تعود ثانية وتعبر الفرات في شهر كانون الثاني ، وكان عمر باشا في طريقه إلى بغداد عبر البادية مع كتيبتين من المشاة النظاميين ، فسارت عنزة إلى بلدة الدير المحصنة خوفاً من أن يقطع عليها عمر باشا الطريق للجنوب . ويظهر أن عنزة أرغمت سكان الدير على أن يمنعوا المؤن عن الباشا ، فسار الباشا واحتل الحصن ، واستباح الدير للجند كي ينهبوها ، وقد خسر سبعة من رجاله بينهم الكولونيل الهنغاري نوري بك . وعندها غيرت عنزة طريقها وعادت ببطء غرباً فوصلت في هذه الأيام إلى ضواحي حلب بأعداد كبيرة . وربما سيقومون بتعديات كثيرة بعد حوادث السنة الفائتة ومنعهم من التجارة . وقد حاولت إقناع الحاكم بالسماح لهم في التجارة مع حلب وقراها ، وهو يفضل أن ينتظر لكي يرى سلوكهم ، ويعتقد حضرته أن فرسانه يكفون لردهم ، وهكذا بدأت الآن أعمال النهب. وظهر في الأسبوع الماضي نحو ألف فارس من عنزة في بقعة على أقل من عشرين ميلاً عن حلب ، ونهبوا بعض المواشي وقتلوا خمسة من الهنادي غير النظاميين الذين كانوا يحمون الماشية . ولا ينتظر أن تتخذ أي خطوات للتوفيق بين البدو والسلطة لأن البدو لا يثقون بالحكام الأتراك ويطلبون توسطنا ، ووعَدْنا أنه تُحفظ العهود لهم إذا اتفقوا معهم ، ولا أظن الأتراك مستعدين للقيام بأي شيء ـ لا اتفاق ولا يطلبون مساعدة في الوقت نفسه لصدهم وهذا حرر لإعلامكم.

Skene

في ١٧ نيسان سنة ١٨٥٨ تحرير آخر يذكر فيه أن جدعان شيخ عنزة باغته بزيارة مع تاجر وقال: ذُكر لي أنه مبعوث من الحاكم لكسب خضوع جدعان، وتعهد المحافظة على سلامته باسمي، ولولا ذاك لما رضي جدعان أن يأتي معه ، وقد أخبرت جدعان أني

لا أعلم عن هذا التدبير شيئاً ، وقد خدعوه ، وعليه أن يقرر بنفسه ، فذهب وتصالح مع الحاكم وعفي عنه ، وسمح لأهل حلب بتعاطي التجارة مع البدو .

وكتب القنصل سكين أيضاً في حلب في ٢٥ آب ١٨٥٨ يذكر تعدياً على الفلاحين في القرى من قبل قبائل كردية ومن البدو أيضاً الذين كانوا هادئين في الأشهر الأخيرة ، وكتب أيضاً كتاباً آخر بالمعنى نفسه في ٢ أيلول ١٨٥٨ . وآخر في ٣٠ أيلول ذكر فيه أن البدو يهاجمون قرية تديف على بعد ١٥ ميلاً من حلب ، وأن فرسان القرية دافعت عنها وردّت البدو وكبدتهم بعض الخسائر ، حيث قتلت منهم ثلاثة وجرحت أربعة وغنمت بضع أفراس من البدو ، وجرح خمسة من تديف وخسروا بعض الأغنام ، وأشار إلى أنه لم تأت أي نجدة لأهل تديف من الجند غير النظامي الذي وكّل إليهم أمر الدفاع عن القرى ، وتتحمل القرى إعاشتهم وإطعامهم حيث إنه ليس لديهم مؤونة تكفي . ويعين سانكي وكيل قنصل .

وتنقطع أخبار البادية من القنصل في حلب أكثر من سنة ونصف ، فيكتب القنصل في ٣١ نيسان ١٨٦٠ كتاباً يذكر فيه عن ارتياح بعض البدو الذين أخذوا يجنحون إلى الزراعة ، ولكنه يقول هناك ما يحملهم على ترك الزراعة ، ذلك أن أحد الشيوخ واسمه حجي بطران وهو الذي كانت تدفع له الحكومة معاشاً ، رأى أن معاشه انقطع ، فأخذ يدفع جدعان شيخ عنزة على نهب المزارعين ، ولم يرضَ جدعان لحسن الحظ أن يفعل ، فأتى حجي إلى حلب وخوّف السلطة من هجمات ستأتي على الفلاحين ، وأقنعها ، فوضعت بيده قوة على القبائل وسيطرة ، وذكر القنصل إنه يخشى أن يعمد الشيخ حجي بهذه السلطة التي وضعت بيده فيفسد قبيلة « الولدة » الذين بدأوا يتحضرون ويعيدهم إلى البداوة ، ويقف في سبيل تحضير غيرهم ، ولهذا فهو يقترح إبعاده عن المنطقة كلها .

وكتب في أول أيار ١٨٦٠ عن فرنسي اسمه لسكارس دي فنتيميل Lascaris de Vintimille ، بعثه نابوليون الأول سنة ١٨٠٩ إلى البلاد العربية كي يؤلف اتحاداً بين القبائل العربية بحيث يمهّد الطريق أمام نابوليون وتسهل مهمته في احتلال الهند ، ويقول «إن لسكارس قضى ثلاث سنوات في البادية ، وقبل أن يرسل أوراقه وتقاريره مات سنة ١٨١٢ في القاهرة ، حيث أخذ الأوراق القنصل البريطاني السيد صلت Salt ، وكان هناك مواطن حلبي اسمه فتح الله يقوم بالترجمة للسكارس ، وقد أخبرني أنه طلب الأوراق من القنصل ، ولكن القنصل أخبره أنها أرسلت إلى وزارة الخارجية » . ولهذا فإن القنصل في حلب يطلبها تسهيلاً لمهمته .

وكتب في ١٢ أيار ١٨٦٠ عن قبيلة الموالي ، وأنها أخذت تدفع حدودها جنوباً إلى ضفاف نهر العاصي ، ويخشى أن يقع اصطدام بينها وبين المزارعين في القرى . ويذكر أن خراب هذه المناطق يعود إلى نحو ثمانين سنة حين ظهرت قبائل عنزة مطرودة من الجزيرة من الجوع وانتشرت على الحدود الشرقية ، ويقول : منذ ذلك الوقت والقرى تتراجع أمام الخراب بحيث وصلت في بعض المواضع حتى الشاطىء عند عكا وطرابلس واللاذقية . وقد زاد الفساد أخيراً ورأيت خمساً وعشرين قرية تنهب وتخرب ، والحل الوحيد هو تأليف جبهة من القبائل المحلية التي شرعت في الزراعة ووضع خط لها وحمايتها ، وربما تستطيع أن تتوسع شرقاً بحراسة الأراضي . وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يمكن أن ينقذ سوريا وتعود البادية إلى الدولة . ويقترح في الوقت نفسه إنشاء وظائف لوكلاء قناصل على الحدود للتفاهم مع البدو والسلطة .

وكتب في ٨ تشرين الأول ١٨٦٠ عن نزاع شديد انتهى إلى حرب بين القبائل ، سببها التنافس على الزعامة أي المشيخة ، ولا سيما بين قبائل الفدعان ـ الشيخ وابن أخيه ، وفي كتابه أخبار عن جدعان وعمه دهّام ، ويظهر أن جدعَان أقوى وأكرم بحيث استطاع أن ينتزع الزعامة من عمه ، فلجأ هذا إلى عرب شمّر لمساعدته ، فتبعه جدعان مع حلفائه السبعة والموالي وتقابلوا مع شمّر التي كان يساندها حاكم أورفة بجيشه ، ونشبت معركة اشترك فيها كما يقول في كتابه نحو ١٢ ألف فارس ، فغُلب جدعان ، وعبر الفرات راجعاً ، وظهر قرب حلب بعد أن خسر قطعانه . فأعطته القبائل التي قرب حلب مؤونة وخيلاً لإرجاع ما فقده ، فغزا وأرجع بعض المنهوبات ، ويمكن لهذا أن تهدأ الحال الآن .

وكتب في ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٠ عن ظهور قبيلة جديدة أخذت تحل محل عنزة في الجنوب بسبب الحرب مع شمّر ، وكانت هذه القبيلة قرب الشام أيام مذبحة ١٨٦٠ ، وذكر أنه قد بلغه أن النساء المسيحيات الثمانمئة هنّ عند هذه القبيلة .

وفي ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٠ كتب يخبر أن عرب عنزة خسروا ثانية نحو ٣٠٠ رجل في القتال مع شمّر ، وكسروا ، وإنه زار القبيلة التي ذكر أن النساء المسيحيات كن أسيرات عندها ، وقد وجد أن أكثرهن أصبحن مع عشيرة عقيل لأن البدو لم يعد عندهم طعام كاف لهم ولهن ، وكتب من الشام في ١٣ حزيران يخبر عن نزول قبائل بدوية في منطقة حوران هي السبعة والعمارات والفدعان والدهامشة ومعهم الشيخ إسماعيل وعلى رأسهم الشيخ فيصل [الشعلان] .

وفي ١٤ نيسان ١٨٦٢ كتب عن وصول شمّر بزعامة الشيخ عبد الكريم ، ومعه الشيخ دهّام أحد مشايخ عنزة قديماً إلى ضفاف الفرات ، وذكر أنهم أخذوا يتقدّمون نحو حلب . وأشار إلى أن ما يظهر له عن سبب مجيئهم إلى أراضي سوريا في الشمال هو أن السياسة التي اتخذها حكام بغداد وأورفة في التشدّد على عدم السماح لهم في أراضي العراق ألجأتهم إلى التوجه إلى جهات حلب ، وزعم أنه إذا اتبعت السياسة نفسها في سوريا لا يبقى مجال للاتجار مع البدو ، وشراء ما يلزم منهم ، أو بيعهم ما يحتاجون إليه ، ويدفعون عند ذاك إلى النهب والسلب . ويلوم القنصل الحكام الأتراك على جهلهم السياسة الصالحة في شؤون البدو ـ وهو شخصياً يشجع مجيء البدو والاتجار معهم .

وفي ٢ أيار ١٨٦٢ كتب يذكر أن تجارة بريطانيا مهددة ، ومن هنا اهتمامه بأمر البادية ، لأن بريطانيا تستورد كثيراً من الصوف من أغنام البدو ، وهو لا يرضى عن سياسة العنف التي يطبقها الحكام والعسكريون ، وقد بلغه أن حملات عسكرية تتجه إلى البادية لمحاربة البدو ، فاستاء من ذلك . وهو يشكو في كتابه حاكم حلب لأنه بنى حصوناً لرد البدو الذين بعثوا يطلبون السماح لهم بالوصول إلى منطقته ، فرضي أول الأمر بعد أن اشترط عليهم ألاّ يقوموا بالغزو ، وقبلوا ، ولكنه طلب أن يبقى عنده رهائن منهم ، وقبل الوصول إلى اتفاق لاحظ أن هناك حملات موجهة ضدهم في كل من بغداد والشام ، فخشي أن يقبل دخولهم إلى جهات حلب ، ومكث ينتظر ورود أوامر من الآستانة، ثم ينهي القنصل كتابه بإبداء رأيه فيقول ، وأنا أقترح السماح لهم شرط أن يظلوا هادئين وتكون هناك قوة قريبة لردعهم إذا ثاروا .

وكتب في ٣٠ أيار يذكر أن حاكم حلب العام تفاهم مع عرب عنزة ، وقد يسرت الطرق للتجارة معهم ثم يقول : وإني مسرور أن عصمت باشا فعل هذا وهو يستحق الثناء والإعجاب والتشجيع ، وقد فعل ما هو حسن وضروري واتبع سياسة الحكمة بخلاف زملائه في بغداد والشام .

وفي ١٥ أيلول ١٨٦٢ أخذت القبائل تترك منطقة حلب ، ولم يحدث أي حادث نهب أو تعكير للأمن وقد ظهر إلى الوجود نحو ٢٨ قرية يسكنها بدو كانوا يخافون في العهد السابق العيش في المزارع والقرى . ثم يقول إن الحاكم يهنأ على سياسته في السماح للبدو بالقدوم إلى أراضي حلب والاتجار معهم .

F.O. 195 Vol. No. 761 (1863)

كتب القنصل سكين رسالة في ٣٠ حزيران ١٨٦٣ يذكر فيها أن البدو عادوا إلى جوار القرى القريبة من البادية ، ويرى أن ذلك الصيف فيما يظهر له سوف لا يمر دون وقوع بعض الحوادث . ولكن لم يجر شيء حتى تاريخ كتابه . وكانت المواسم سيئة للغاية ، ولا سيما موسم القطن ، وذلك بسبب الجراد ، ويظهر أن البلاد كانت كما يقول على حافة الفاقة والفقر .

وهنا يبعث قنصل بريطانيا في القدس برسالة خاصة تاريخها ٧ تموز ١٨٦٣ يذكر فيها أن قبائل بني صخر وبني حسن دخلت المناطق الآهلة حوالي بحيرة طبرية وأخذوا يعيثون فساداً في الأرض ، وترعى ما شيتهم المواسم التي ينتظرها الفلاحون ، وهم حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف بيت شعر . أما عقيل آغا حامي المنطقة العسكري فقد توجّه لملاقاة شيوخهم الذين يعرفهم فلم يتفقوا على الانسحاب ، فقرر عقيل آغا طردهم بالقوة . وطلب من حاكم عكا معونة عسكرية ، فوفدت ، وساروا جميعاً لطرد البدو ، فهرب هؤلاء حين سمعوا بوصول الجند . وينهي كتابه بقوله : وقد برهنت السلطة عن عزم وإرادة .

F.O. 195 No. 800 Vol. I
(1864 - 1867)

وفي رسالة من قنصل بريطانيا في حلب تاريخها ٣٠ حزيران ١٨٦٤ يخبر وزارة حكومته عن مسير قوة من جيش السلطة إلى البادية لمنع المنازعات والتنافس بين شيخي عرب العنزة جدعان ودهّام المتنازعين دائماً على المشيخة العامة والزعامة في القبيلة كلها . ويذكر أن دهّاماً جمع ألفي فارس وتقدم إلى جهات حلب ليدافع عن حقه في المشيخة الذي انتزعته منه السلطة وأعطته لجدعان . وقد تمكن جدعان في المناوشة الأولى برغم قلة عدد رجاله من ردّ دهّام إلى الفرات مخلّفاً وراءه خمسين قتيلاً من رجاله . ولكن جدعان أخبر سريا باشا أن دهّاماً سيأتي مرة أخرى بقوة أكبر قد لا يستطيع جدعان وحده صدّها ، ولهذا يطلب مساعدة ، فأرسل جُند لمساعدته ، وقد حاول دهّام مهاجمة المنطقة مراراً ولكنه لم يفلح في التّغلب على المدافعين عنها فتركها وظلّت الجنود تحت إمرة عمر بيك وهو قائد ممتاز .

وكتب في ٣ أيلول ١٨٦٤ يذكر عن مسير حملة برئاسة سريا باشا حاكم المنطقة ومرافقة عمر باشا (كذا) القائد العسكري للبادية لإخضاع القبائل وتأمين حياة هادئة

وجمع الضرائب من العشائر التي أخذت تتحضر وتزرع ، ولفتح طريق جديد للقوافل بين حلب وبغداد . ويشير إلى أن مسألة القبائل مسألة حيوية لهذه البلاد ويرى أن القوة وحدها لا تكفي لأن البدو يهربون ثم يعودون لتفوّق خيلهم .

وكتب القنصل سكين في ٣٠ كانون أول ١٨٦٤ يذكر أن حملة سريا باشا نجحت في إخضاع القبائل المزارعة، ولكن عنزة تراجعت إلى نجد وأواسط الجزيرة، ويعتقد أنها ستعود في الربيع ، ولهذا فهو يرى من الأفضل أن يجري اتفاق مع عرب عنزة فيسمح لهم بالعودة للتجارة والمبادلة وتأمين الطرق إلى بغداد ، ولا يبقى سوى مشكلة بدو بغداد .

وكتب في ٣١ آذار ١٨٦٥ يذكر أن جدعان وهو أحد شيوخ عنزة موكل من قبل باشا حلب في حماية القرى الواقعة على حدود البادية من هجمات البدو الآخرين من عنزة وغيرهم ، ويشير إلى أن توظيفه في هذه المهمة قلّل من مكانته بين أتباعه من عنزة الذين يحبون النهب والغزو ، ولهذا فقد انسحب قسم منهم وانضموا إلى خصومه ومنافسيه ، فضعفت قوته ولم يعد قادراً على رد هجمات البدو ، ومن هنا فقد هاجم بعضهم القرى قرب مضارب جدعان ، ونهبوا منها أغناماً لأهل حلب ، ولم يستطع جدعان تخليصها منهم . فاتهمه الباشا بالتواطؤ معهم . ومن الواضح أن البدوي لا يمكن أن يخضع بالكلية أو يقبل بأنصاف الحلول كالتي تستعملها السلطة . ثم يقول : وإني أرى أن الطريقة الوحيدة هي منع البدو من سهول سوريا المجاورة للبادية ، وذلك بإقامة جدار على الحدود من القريتين إلى تدمر إلى منبج حتى الفرات ، ووضع طوق حول الفرات ، فتبقى السهول الخصبة دون إفساد ، ويطرد البدو الرحّل إلى مواطنهم في الجزيرة ، أو لا يسمح لهم بزيارة سهول سوريا إلّا لقاء ضمانات وعلى أن يكونوا خاضعين للسلطة .

وكتب من حلب أيضاً في الثاني من آذار ١٨٦٦ يخبر أن الشيخ دهّام وهو الشيخ الذي حاول الوالي إخضاعه في السنة الفائتة نهب البوسطة التركية بين بغداد وحلب ، ونهب ما قيمته عشرون ألف ليرة لتجار حلب ، وقد احتفظ بالتحارير المرسلة بالبريد لإزعاج السلطة التركية .

وجاء في كتاب له تاريخه ٢٢ تشرين الأول ١٨٦٦ أن القبائل كلها ثائرة ، وهي تتحدى الحكومة ، وليس هناك من يتصدى لصدها ، وقد سُلِب أحد التجار الهنود قرب دير الزور ، وذكر أن الشيخ دهّام حلّ محل جدعان في المشيخة على عنزة ، فثار جدعان بدوره وأخذ يقطع الطرق ، حتى أن دهّاماً لم يستطع أن يفعل شيئاً لصدّه ، بل نُهِبَ بعض من جماعته .

وتنقطع الإشارة إلى البدو في تحارير القنصل نحو سنة ، ثم يكتب في ٢١ تشرين الثاني ١٨٦٧ أن والي حلب هو جودت باشا . وكتب في ٣ كانون الأول ١٨٦٧ أن ألفاً من الفرسان البداة هاجموا في ٢٩ تشرين الثاني عرب الرعية (أي أصحاب الأغنام) ، قرب قرية قيارة دير حافر وهي على خمسة وعشرين ميلاً شرقي حلب ، ونهبوا أكثر من ألف رأس غنم وثلاثين فرساً ، وقتلوا سبعة رجال وجرحوا اثني عشر رجلاً . وكان قائد الحملة الغازية ابن مرشد رئيس القمصة وهم فرع من عرب السبعة ، وهي من عنزة ، ولم يجرح من الغزاة سوى واحد هو عبد أسود للشيخ ، وقد رجع مع سيّده ، وهكذا فإن المصاريف التي تكبدتها الدولة لشراء الهجن والبغال لحمل المحاربين الموكلين على صد هجمات البدو لم تنفع شيئاً . وقد سار نحو خمسين فارساً بقيادة نايف بن حجي بطران لقتال ابن مرشد فردهم خائبين لاجئين إلى حصن في قرية مجاورة .

F.O. 195 Vol. No. 902 (1868)

وكتب تقريراً في ٢ نيسان ١٨٦٨ عرض فيه لذكر أسماء القبائل في شمالي سوريا من عرب وأكراد وتركمان وفروعها ، وذكر عدد نفوسها بالتقريب ، وذكر كذلك أسماء المدن والقرى الهامة التي تؤلف أكثرية السكان في الشمال ، وأشار إلى حدود المنطقة الشمالية التي يتردد إليها البدو في ولاية حلب فجعلها في الشمال مرمى الماء في جبال طورس عند بوغاز جولق (بوابة كيليكيا قديماً) إلى وراء أورفة في ما بين النهرين ، ثم تنحدر جنوباً إلى الفرات عند دير الزور ، وغرباً منها إلى تدمر ، حتى البحر تحت جبل كاسيوس ثم شمالاً منها إلى بومبيابولس . ومن الخير أن أذكر هذه الجداول هنا ففيها فائدة تاريخية عدا أنها تظهر النسبة بين عدد سكان القرى والمدن في كل الولاية وبين عدد أفراد القبائل في المنطقة نفسها في تلك السنين .

عدد السكان في المدن:

حلب	١١٠٠٠٠	عينتابْ	٢٥٠٠٠
أنطاكية	٠٢٠٠٠٠	روم قالة	٠٩٠٠٠
بيلان	٠٠٣٥٠٠	نزيب	٠٦٠٠٠
أطنة	٠٤٠٠٠٠	بيرادجك	١٥٥٠٠
طرسوس	٠١٦٠٠٠	أورفة	٢٧٠٠٠
كلس	٠١٨٠٠٠	القرى كلها	٧٥٠٠٠٠
إدلب	٠١٢٠٠٠	سكان البادية	١٤٠٠٠٠

عدد النصارى في حلب ٢٠٠٠٠

عدد أفراد القبائل :

بدو عرب	١٠٠٠٠٠	
بدو تركمان	٣٠٠٠٠	= ١٤٠٠٠٠
بدو أكراد	١٠٠٠٠	

تفصيل عدد أفراد البدو العرب :

حديديون	١٦٠٠٠	
ولده	٨٠٠٠	
شمّر	٢٥٠٠٠	= ١٠٠٠٠٠
عنزة	٤٠٠٠٠	
قبائل صغيرة	١١٠٠٠	

ويذكر في تقريره أن عرب الحديديين والولدة لا يتركون الأراضي التي ينزلونها إلّا قليلاً ، وليس لهم فروع ، بينما هناك فروع كثيرة لعنزة وشمّر في منطقة حلب وفي مناطق أخرى من البادية السورية والجزيرة العربية . ويذكر الجدول الآتي فروع القبائل :

فروع شمّر : ١ ـ فدغة ٢ ـ طي ٣ ـ عبيد ٤ ـ عتيبة . ولهم فروع أخرى في العراق .

فروع عنزة: أهمها: السبعة وهي ١ ـ القمصة ٢ ـ المواتجة ٣ ـ العبادات ٤ ـ الدوام ٥ ـ الشفوجة ٦ ـ الموينة ٧ ـ الفهجة .

ومنها الفدعان وهي : ١ ـ المهد ٢ ـ العجاجرة ٣ ـ الخرصة ٤ ـ الروسس .

وهناك أيضاً ست قبائل كبرى من عنزة تتردد إلى قرى ولاية حلب في الربيع لبيع منتوجاتها من اللبن والمواشي ولتشتري الحبوب وهي : ١ ـ العمارات ٢ ـ الارفضة ٣ ـ عرب ابن هذال ٤ ـ الجلاس ٥ ـ الرولة ٦ ـ الشميلات .

أما القبائل الصغرى المشار إليها في أعلاه وعدد نفوس أبنائها ١١٠٠٠ فقد حُمِلَ أعضاؤها على أن يصبحوا مزارعين يحرثون الأرض تدريجياً ويستغلونها ، وأسماء عشائرها هي :

١ ـ القبيس ٢ ـ الموالي ٣ ـ الفردون ٤ ـ اللهب ٥ ـ بني سعد ٦ ـ الشهيمي ٧ ـ الفضيلي ٨ ـ ولد علي ٩ ـ القتيار ١٠ ـ العقيدات .

وذكر في تقريره القبائل التركمانية والقبائل الكردية بأسمائها ، وقال عن البدو

والاكراد إنهم يحرثون الأرض ولكنهم أكثر القبائل قسوة وشراً .

وكتب في ١٢ نيسان ١٨٦٨ عن عزم الحكومة على محاربة البدو وصدهم ومنعهم من الدخول إلى الأراضي المعمورة، وعن بدء هجمات البدو على الحدود ، وأشار إلى أنه دخل من عرب الفدعان جماعة وسلبوا خمسة آلاف رأس غنم آتية من الموصل إلى الشام ، وذلك على بعد ستين ميلاً من حلب ، وكانت هذه الجماعة بقيادة دهّام شيخ الفدعان .

وكتب في ١٢ أيار ١٨٦٨أن حاكم البادية بدأ العمليات العسكرية ضد البدو مستعيناً بفرقة الهجانة وغيرها من الفرق النظامية ، وكان بدأ العمليات العسكرية ضد البدو مستعيناً بفرقة الهجانة وغيرها من الفرق النظامية ، وكان بدء الحملة التي قام بها في ٣ أيار فهاجم عند حنتة وهي على بعد ٤٥ ميلاً من حلب مضرباً آمناً لعرب العجاجرة كان حالاً هناك بقصد المرعى والتجارة، ولم يكن أهل ذلك المضرب ينتظرون أن يفاجأوا بقتال أو حرب ، فحالما رأوا الجيش قادماً نحو مضربهم عمدوا إلى نسائهم وأولادهم فأركبوهم على الخيل وفرّوا ، وخلّفوا وراءهم خيامهم وجمالهم وآثاثهم ، فنهبها الجيش كلها هي وغنمهم التي كانت في المراعي القريبة ، وأتوا بها إلى حلب علامة على النصر ، وهكذا فعلوا دون أن يميزوا بين القبائل المعادية والقبائل المسالمة التي لا تتعدّى وتكتفي بالدفاع عن نفسها . وقد جرى تعدّي الجيش على هذه القبيلة دون استفزاز . أما الخمسة آلاف رأس غنم التي أشرت من قبل إلى أنها نهبت فقد نهبها عرب الخرصة وليس العجاجرة ، والخرصة هم الآن ما بين النهرين في العراق ، أمّا حوادث السلب الأخرى التي كنت ذكرتها فقد قامت بها قبيلة شمّر ، وهكذا فإن الحاكم العسكري قد انتقم من غير المعتدين وجعل منهم كبش التضحية . والعجاجرة بدو مسالمون ولا يشتركون مع السبعة والفدعان في الغزو والنهب ، ولا أستغرب بعد هذا أن تحتشد القبائل لمهاجمة القرى والاقتصاص منها فتسوء الحال ، ويزول الأمن ، وتتوقف التجارة ، ويكون هذا كلّهُ باستفزاز الحكومة نفسها للبدو .

وكتب في ١٦ أيار أي بعد كتابه الأول بأربعة أيام يذكر أنّه تم ما تنبأ به فقد هجمت العجاجرة على الحديديين واستاقت أربعين ألف رأس غنم، وقتلت عشرة رجال، وكانت أكثر هذه الأغنام لتجار من حلب، وهكذا تكون الدولة باعتدائها على العجاجرة قبلاً قد سببت خسائر للحلبيين، وجعلت الأمن مضطرباً، والحالة فوضى، وأوقعت بالبدو المسالمين كالعجاجرة ودفعت بهم إلى أن يصبحوا أشقياء مفسدين.

وليس غريباً أن يكون قد بحث الأمر نفسه مع والي حلب، أو أن السفير الإنجليزي في الآستانة الذي كانت تصل إليه هذه الرسائل مثل ما كانت تصل إلى وزير الخارجية قد أوعز إلى السلطة في الآستانة بتعيين قائد عسكري جديد لحماية البادية، حيث نرى في كتاب تاريخه ٢٢ أيار يرسله القنصل ويشير فيه إلى تعيين قائد عسكري جديد لحماية البادية، ويذكر عنه أنه فيما يبدو عاقل وحكيم، وينتظر أن تصطلح الأمور في عهده

F.O. 195 Vol. No. 927 (1869)

ويظهر أن الحالة هدأت إلى حد ما في بادية حلب ، حيث لم يرد في رسائل القنصل طيلة المدة التي انقضت بين ٢٢ أيار ١٨٦٨ و ٨ آذار ١٨٦٩ تاريخ الرسالة التي تتضمن خبر هجمات من البدو أي شيء عن البدو في تلك المنطقة، أما رسالته هذه التي أشرت اليها وهي أول رسالة سنة ١٨٦٩ فيها أخبار عن البدو، فإنه يذكر فيها خبر هجوم قام به في الثالث من آذار الشيخ جدعان زعيم عرب الفدعان من عنزة على عدد من القرى على بعد نحو عشرين ميلاً من حلب، ونهب منها نحو خمسة آلاف نعجة من الغنم، وعدداً كبيراً من الثيران التي يقتنيها الفلاحون للحراثة، فأرسلت السلطة حملة من خمسمئة مقاتل مسلحين بالبنادق (البواريد) كي تقف في سبيل تقدم الغزاة من البدو، ولكن هؤلاء كانوا أكثر عدداً ويخشى القنصل في كتابه من أن تقهر الحملة الموجهة ولا تنجح . ثم يقول لقد كان جدعان أميناً ومخلصاً للحكومة عدة سنوات، ويرجع عمله الآن إلى أنه لم يُقَابل أو يُعامَل بعطف على يد الحاكم العام (يقصد الوالي) في المدة الأخيرة.

ولكنه يعود فيذكر في رسالة أخرى بعد أربعة أيام تاريخها ١٢ آذار أن شيخ عنزة أي جدعان أصبح مكشوفاً في قرية على بعد عشرين ميلاً من حلب وعرضة لأن يقهر، ويقول إن الأتراك يزعمون أنهم حاربوا فرسان جدعان وقتلوا ابن أخيه، واتوا برأسه إلى المخيم ونصبوه على عمود عبرة لغيره، أما البدو القادمون من جوار المنطقة فقد اخبروني أن الرأس هو رأس بدوي مجهول وجد مريضاً في الطريق. ويذكر في رسالة أخرى كتبها في اليوم نفسه أي ١٢ آذار أنه ورد إليه كتاب من زعماء البدو المخاصمين للأتراك يلتمسون فيه منه أن يقابلهم في نقطة تبعد نحو أربعين ميلاً عن حلب، ثم يقول: ولا أظن أنهم يريدون استغلال شيء بهذه الزيارة لأني أعرفهم وآمل أن أتمكن من إقناعهم أن يتوقفوا عن حركاتهم العدائية ضد المدن والقرى. ولهذا فسأذهب غداً صباحاً إلى البادية وأبذل جهدي في نصحهم واقناعهم، ومن المهم أن أشير هنا إلى ان زعيم الحركة هوسليمان ابن

مرشد نفسه، وهو الذي حارب معه الكولونيل أوريلي قرب حماة، وهو ليس من الزعماء الذين يريدون مقابلتي، وسأسعى لفصلهم عنه، وإذا لم أنجح في الحصول على خضوعهم للسلطة فسأنسحب مكتفياً بإسداء النصح لهم فقط.

وكتب سكين في ٢٣ آذار ١٨٦٩ يذكر أن الاجتماع المشار إليه لم يتم، وذلك لأن الجيش سبق فهاجم البدو ولا سيما قبيلة «الرسالي» قرب الموضع المعين للمقابلة مع زعماء البدو (الشيوخ)، فقد تراجع هؤلاء الشيوخ، أما القبيلة التي هاجمها الجيش فهي نفسها التي غلبها الثائر سليمان ابن مرشد بمساعدة الكولونيل أوريلي O'reilly وخضعت بعد ذلك للحكومة، وكانت نتيجة هذه الحملة التي أخذت فيها مواشي البدو دون أن يكونوا قد استفزوا أحداً أن اتحد بدو قبيلة الرسالي مع الثائرين . وقد مررت في مسيري بقرى كثيرة كانت عامرة وهي الآن خربة لا بسبب هجمات البدو بل خوفاً من متطلبات الجند، وهكذا فإن السياسة السيئة التي تتخذها الحكومة والتي تفرض على الفلاحين القيام بالتزام أصحاب العقود أي الملتزمين من قبل الدولة جمع الضرائب، هي التي تدفع الآن بعض الفلاحين إلى اللجوء إلى البداوة. لقد أخذ البدو لا يخشون الجند، وفي إحدى المصادمات هوجمت فرقة من الجند وقتاً طويلاً وأخذت الجنود تلتزم الدفاع فقط ولم يرتد البدو إلا بفضل شجاعة بعض الضباط. وفي هذه الرسالة يثني القنصل على الكولونيل التركي عمر بك وعلى محمود آغا البرازي قائد الجند غير النظاميين من أجل خدماتهما في الجيش المعين لحماية البادية، ويطلب متمنياً لو أمر الباب العالي بنقلهما من حماة إلى حلب حيث الحاجة إليهما أمسّ، ويرتأي تسليمهما القيادة في الحملات التي تسير على القبائل البدوية، وذلك لأن الأتراك في تلك المنطقة هم لصوص أكثر من البدو أنفسهم، وهم ينهبون من البدو المسالمين قطعان ماشيتهم ومن الفلاحين المزارعين مواسمهم، ويسلبون التجار الوطنيين والأجانب الذين سوف لا يبقى لهم رغبة في المتاجرة مع البدو.

وكتب في ٣١ آذار ١٨٦٩ وذكر أن الحملة عادت من البادية وهي تهلل لنصر عظيم ثم قال: وتشير الحقائق إلى أن الحملة لم تصادف البدو الثائرين أبداً، وقد جلبت معها ٣٠٠ خيمة و٣٥٠ جملاً و٢٥٠٠٠ رأس غنم، وقد أمر قائد الحملة عمر بك وهو الكولونيل الذي أثنيت عليه في رسالة سابقة بالمسير معه واصطحب معه من الجند النظامي ومن غير النظامي فرسان قبيلة مهادنة صديقة، فأتت الحملة من حلب إلى مضارب هذه القبيلة التي لم يكن فيها سوى النساء والأولاد ونهبت خيامهم، وساقت مواشيهم، وهي تباع الآن في الأسواق. وقد احتج عمر بك على نهب أصحابه، وزعم

أن المواشي هي بالأصل منهوبة من أهالي أورفة، ومودوعة عند بدو عمر بك، وكل واحد يعلم ما هو العداء بين القبيلتين، فلا يمكن أن يكون البدو العصاة وضعوا عند هؤلاء البدو المسالمين المنهوبات التي نهبوها. أما المواشي المنهوبة من قبل العصاة فهي في جبل بشري وراء تدمر التي لا يمكن أن يصلها الجند.

وكتب في ٣ نيسان ١٨٦٩ يقول إنه في اليوم الذي عادت فيه الحملة ظهر جدعان وهو من الزعماء الثائرين في دير حافر على بعد ٢٥ ميلاً من حلب، ومعه تسعمئة فارس، وتهدد السلطة بكتاب يقول فيه إنه سيمحق المقاطعة من طرف إلى طرف، وإن كان باستطاعتهم أن يردوه فليفعلوا. فعادت الحملة إلى البادية للتصدي له، ولكن جدعان كان في هذه الأثناء، قد نهب ١٥٠٠٠ نعجة من عرب التويمات والبوخميس، وهما عشيرتان من عرب الحديديين المخلصين للحكومة والموكلين بغنم الفلاحين والمزارعين وسكان حلب. ونهب أيضاً ٣٠ خيمة من التويمات، و ٢٠ من البوخميس، وهاجم عشيرة أخرى وأخذ خيلها ونقودها، وأسر أربعة من شيوخ بدو شمّر، ومنهم عبد الكريم الذي كان في خدمة السلطة، وفي الوقت نفسه ظهر زعيمان من شيوخ العجاجرة وهما طلال بن حماجم وخريمس واقتربا من جوار المنطقة ومعهما ٣٥٠ فارساً فنهبوا ٢٣٥٠ نعجة من قبيلة القيار مما يخص أهالي حلب.

وكتب في ١٢ نيسان ١٨٦٩ يخبر أنه في ٦ نيسان هاجم جدعان وابن عيدة شيخ قبيلة «الرسالى» من عنزة، قبيلة غناصة من الحديديين التي هي موالية للحكومة، واستاقا عدداً كبيراً من الغنم والجمال ومن الغد جاءا على بعد ثلاثين ميلاً من حلب، وقد لحقهما ما بين ألفين وثلاثة آلاف فارس من قبيلة غناصة فنجحوا في استرداد مواشيهم، وكان مع عرب غناصة أسلحة نارية فقتلوا بعض المهاجمين من عنزة، ولم يقتل أحد من غناصة، لأنهم لم يقتربوا من خصومهم حين التقوا بهم، ولم يكن مع عرب عنزة سوى الرماح. ولم يشترك الجند في أي من المعركتين، وفي هذه الحادثة درس للسلطة أنه من الخير أن تترك للبدو أن يهاجموا زملاءهم حين لا يكون هناك أمن.

وكتب في ٢٢ نيسان ١٨٦٩ يذكر أن الجند التركي هاجم محلة اسمها الهنيدي حيث وجدوا قطيعاً من الإبل فيه نحو ٨٠٠ جمل وبعض قطعان من الغنم التي كانوا يوردونها من الفرات مما يخص قبيلة البوخميس التي تؤتمن على غنم أهل حلب بالشركة، فنهبوها وساقوها أمامهم، فظهر بغتة جدعان مع عشرين فارساً وهاجم الجند واسترد منهم ٧٣٠ جملاً، أما الغنم وبقية الجمال فقد أتى بها الجند إلى حلب حيث تباع في السوق. وإن هذه المصادمات مع عرب عنزة تسيء إلى سمعة الجيش والسلطة، ولعل

الحالة ستهدأ الآن بعد أن أخذ عثمان بك القائد القدير يخابر زعماء البدو للاتفاق معهم على شروط ترضي الجهتين.

وكتب من حلب أيضاً في ٢٢ تموز ١٨٦٩ يذكر أن البدو كلهم مجمعون على مخاصمة الحكومة التركية، ومع هذا فإنه لم تحدث حوادث، وبما أن الضابطين هما الآن ممتازان وقديران، وهما حسني باشا في الدير وعمر بك في حماة، فلا أظن أن البدو يستطيعون أن يفسدوا في الأرض أو يفعلوا شيئاً.

F. O. 195 Vol. No. 976

(1871)

وكتب القنصل سكين في ١٠ أيار ١٨٧١ يخبر عن ظهور القبائل قرب حلب بعد أن قضوا الشتاء في البادية، وكانت سنة قحط وماتت أكثر المواشي والبهائم ولم يبقَ لدى البدو سوى قليل من التمر، والقمح في القرى غالٍ وحليب النياق قليل بسبب الجفاف والقحط، وليس هناك من يساعد البدو. وأشار في رسالته إلى أن أصلان باشا حاكم البادية (كما يسميه) متغيب، والحالة سيئة، لأن أكثر المسؤولين الأتراك متغيبون. ثم يقول: وقد بلغت أن عرب الخرصة وهم من عنزة قاموا بهجوم على عرب الحديديين والموالي (نصف المتحضرين) وقد قتل الشيخ دهّام بعد أن قتل ثلاثة من الموالي برمحه، أما جدعان ابن أخيه وهو مشهور بين العنزة فقد جدد النزاع انتقاماً لعمه، ولما كان الحديديون والموالي غير قادرين على مقابلة الفدعان الكثيرين فإن الحالة أصبحت سيئة.

ثم إن جدعان يطلب تعيينه على الخرصة والفدعان (من عنزة)، غير أن هناك ابناً لدهّام اسمه نايف، وله سمعة حسنة في قبيلته، يطلب المشيخة أيضاً، ومع أن الزعامة في القبيلة هي بالاختيار أكثر مما هي وراثية، فهناك اختلاف الآن فيمن يتولاها، وربما أدّى هذا الاختلاف إلى نزاع وقتال بين قبائل عنزة، وبالتالي إفساد الشؤون الزراعية وحياة القرويين. وينهي كتابه في أن يقترح عدم تشجيع البدو أو إعطائهم امتيازات لقاء تعدّيهم.

وفي ٣١ أيار ١٨٧١ كتب يذكر أن السلطة التركية منحت جدعان المشيخة على عربه في البادية حول حلب، وهذا يسيء إلى الحالة لأن الموالي لا يرضون. وقد حدث بالفعل أن تعقب نحو عشرين فارساً من جماعة جدعان أربعة من الموالي، فهرب اثنان، ولجأ اثنان إلى قبيلة صغيرة اسمها فردون، فحمتهم ومنعت جدعان من أخذهم ، فلجأ إلى السلطة التركية فأخذتهما، وحاول أحدهما الهرب فقُتل وسُجن الثاني وهو أمر مغاير

لشريعة الحماية في البادية، كذلك سجن الأتراك ١٥ رجلاً من الحديديين المسالمين، وهكذا فإن البدو المسالمين يسجنون ويمرح المعتدون.

وكتب في ١٢ حزيران ١٨٧١ عن معركة بين عرب عنزة وعرب شمّر، وعن قتلى كثيرين، وأشار إلى أن الخصام يقع غالباً في الربيع حين تتقدم عنزة إلى الشمال طلباً للمرعى. وقد حاولت عنزة عبور الفرات فتصدّى لها نحو ٤٠٠ فارس [من شمّر] وأرجعتها وطاردتها، وحين استعان الماربون من السبعة وهم فرع من عنزة بجدعان بصفته شيخ عنزة كلها سيَّر جيشاً من عنزة كلها على هؤلاء الفرسان الأربعمئة، وقتل وجرح منهم نحو ١٥٠. وبالطبع إن هذا يجدد العداء لأن الدم يطلب عند البدو ثأراً للقتيل حتى القرابة الخامسة. وطلب القنصل إنهاء هذه الحالة وتمنى أن تصدق الإشاعة عن تعيين سري باشا لأنه برهن عن جدارة ومعرفة بأحوال البدو مدة حكمه سابقاً.

وكتب في ٨ تموز ١٨٧١ مشيراً إلى محاكمة البدو الذين شكاهم جدعان وسُجنوا، وذكر أنهم نالوا البراءة، ولكن يقال إنهم أخذوا اثنين منهم بالحديد لجدعان وهذا من سيئات تعيين شيخ واحد مسؤول عن البادية من فئة واحدة ـ إن سمعة الحكومة تتدنى.

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٨٧١ تحدث عن فرقتين من عنزة تعبران الفرات (هما من عرب الخرصة) وقد أتتا من العراق وهاجمتا مركز الحكومة في مسكنة (بالس)، فردتها الحامية بمساعدة نجدات وردت إليها. ثم قال: ويظهر أن هذه الحركة هي بدء التعديات المعهودة. وأشار في آخر رسالته إلى أن الشيخ عبد الكريم شيخ شمّر أصابته حمى وأخذوه إلى الأستانة.

وكتب سكين أيضاً في ١٧ تشرين الثاني ١٨٧١ عن هجوم آخر من عرب الخرصة على قرية دبسة، وهي على بعد ١٢ ميلاً من حامية «أبو هريرة»، وقد ردّهم الجند وأوقعوا بهم بعض القتلى، وهرب الباقون عائدين. وذكر تعذيب الأتراك للبدو ولاسيما الموالين منهم، وهو أمر سينفّر البدو كلهم من الأتراك. ويقترح تعيين حاكم للبادية يعرف أمور البادية.

وكتب في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧١ يخبر عن شنق الشيخ عبد الكريم بالموصل، وعن هجوم قبيلة جديدة هي قبيلة العمور مع الخرصة على الحامية التركية في البادية. ويقول إن العمور كثيرون وأقوياء، ثم يشير إلى قرية تدعى السخنة قرب تدمر يعيش أهلها على حرق الأشنان Brushwood ليصبح قلواً وبيعه إلى معامل الصابون في حلب ليستعمل بدل الصودا في صناعة الصابون. وقد عدّ أهل السخنة من أغنى القبائل.

ويذكر كيف أن عرب العمور سلبوا متاع قافلة لأهل السخنة مع جمالهم وأحمال الطحين التي أتوا بها بدل الاشنان أو القلو. كذلك يذكر أن للاتراك قوة في الصفيرين على بعد ٨٠ ميلاً من الموضع الذي سلبت فيه رجال القافلة، وأن أحد الجمالين في القافلة تمكن من الهرب وأخبر رجال الحامية، فأتى ٢٠٠ فارس لصد العمور، وهنا وفدت عرب الخرصة لمساعدة العمور، ونشبت معركة قرب سلمية وهي على بعد ثلاثين ميلاً من حمص. وأشار في آخر كتابه إلى مقالة وردت في جريدة لفنت هرلد Levant Herald تذكر أن ثورة البدو مرتبطة بحملة الأتراك على نجد وقال لا أظن هذا صحيحاً.

وفي ٢٧ كانون الأول ١٨٧١ كتب سكين أيضاً معقباً على أخبار الحامية التركية التي استنفرت، فذكر أنها عادت إلى صفيرين دون خسارة لأن رجالها يحملون (البواريد) وقد ردّوا البدو من بعيد برغم ملاحقتهم إياهم عند رجوعهم مدة أربعة أيام.

F.O. 195 Vol. No. 1027

(1873)

لم يذكر القنصل سكين فيما يظهر شيئاً هاماً عن شؤون البدو في سنة ١٨٧٢ سوى أن صبحي باشا كسا شيوخ البدو بكسوة الشرف وأصبحوا عندها شيوخاً لمزارع أيضاً، لأنه وزع عليهم مزارع كانت مأهولة من قبل وأصبحت خراباً في منطقة العلا. وكتب جدولاً بالواردات والصادرات ومعه تقرير زراعي يذكر فيه البقر الشامي والمعيز الشامية والحمام الزاجل البغدادي، ويقول عن البدو حيث أنهم قدموا خضوعهم أخيراً للحكومة برضاهم، ووضعوا مراكزهم بيدها، فإنه يمكن لمن يريد الالتحاق بالزراعة أن يستفيد من الوضع إذا أعطته الحكومة آلات للحراثة وثيراناً وحبوباً وغيرها، وبهذا يتخلّون عن عاداتهم ونهبهم وخوتهم. وقد اكتفى في سنة ١٨٧٣ بشيء بسيط ذكره في كتاب أرسله في ١٨ نيسان عن اختلاف على المراعي بين أهالي قريتي حدر وعيش الست، وقد أرفق مع كتابه عدداً من جريدة الأخبار السنة السادسة عشرة يوم الخميس في ١٠ شعبان ١٢٩٠ من أربع صفحات، اثنتان بالعربية واثنتان بالفرنسية.

F.O. 195 Vol. No. 1067

(1875)

وكتب القنصل سكين أيضاً في ١٢ كانون الثاني ١٨٧٥، وفي ١٤ منه، بصدد شرائه سبعة رؤوس خيل عربية وقد طلب الحصول على أمر وزاري من السلطة العثمانية لأجل شحنها.

وفي ١٨ آذار كتب قنصل جديد، هو مستر نيوتن، عن شراء أرض لكنيسة انجيلية في بلدة عينتاب ولم يذكر شيئاً عن حركات البدو، وقد أشرت إلى كتابه هذا لأن الكتب التي سترد فيما بعد من حلب هي منه ويظهر أنه استلم العمل بعد مستر سكين. وأول كتاب منه فيه شيء عن البادية وعلاقة الانجليز بها أرسل في ١٧ آب ١٨٧٥. وفيه يذكر عن رحلة له إلى البادية لشراء خيل، وهو كتاب طويل يذكر فيه محاولة الاتراك إخضاع البدو، ويتحدّث عن انشاء ادارة حكومية في دير الزور منذ ست سنوات مستقلة عن حلب، وذلك لإرغام البدو الرّحل على الاستقرار والتحضر بحيث يصبحون مزارعين وحراثاً يحرثون الأرض ويستغلونها. وقد أفلحت الادارة بحمل بعض فقراء البدو بطريق الاقناع على ذلك، ولكنها حين أخذت تعمد إلى القوة فشلت، وأصبح الكل بدواً، وهم يعارضون جمع أي ضريبة أو زكاة منهم، ويقولون إن الأرض أرضهم قبل أن يظهر الأتراك من منطقة بحر قزوين، وأن البادية لم تفتح ولم تخضع من قبل. ويذكر في كتابه هذا أن جدعان شيخ الفدعان بعد موت عمّه دهّام أصبح شيخ الخرصة، وبما أن جميعان شيخ العجاجرة غير قدير فإن جدعان أصبح بالفعل شيخ عنزة كلها، والشيخ الآخر هو سليمان ابن مرشد، وزعامته هي على قبائل السبعة، وهي تتألف من: القمصة، والعويجة، والموسنة، والعمور، والأشجعة، والدوام، والعبادات، وكلا الشيخين قدير وذكي، ويقدّر عدد أتباعهما بنحو أربعين ألفاً من العائلات، ويستطيعان أن ينزلا في أي لحظة إلى الميدان بقوة تناهز عشرة آلاف فارس منتخب، ويتركان نحو نصف هذا العدد في المضارب لحمايتها أو للنفير إذا لزم الأمر. ويذكر أن عدد جمالهم وغنمهم مدهش، وقد عددت حول مضرب من مضارب القمصة مؤلف من مئة خيمة نحو عشرين ألف جمل بوجه التقريب، وهي إذا ثُمّنت بثمن بخس أي بنحو خمس ليرات للجمل الواحد تكون كل عائلة كأنما هي تملك ألف ليرة انجليزية هذا عدا الخيل وعدا الغنم التي عددها أكثر من الجمال.

إن قبائل عنزة قبائل تحب الغزو والحرب، وهي دائماً في نزاع مع قبيلة شمّر من أجل المراعي في المنطقة التي تقع في ما وراء النهرين. وتكاد تقارب قوة شمّر قوة عنزة أيضاً، وإذا أضفنا إلى عنزة قبيلة الرولة وقبيلة بني صخر وقبيلة ولد علي الذين يمكنهم أن يقدموا فيما بينهم مثل هذا العدد من الفرسان، يصبح العدد مدهشاً حقاً، ولكن هذه القبائل ليست موجهة أو منظمة لنهب القرى والقوافل كالقبائل الصغيرة المجاورة للمدن والقرى كالموالي والولدة والحديديين واللهيب وغيرهم ممن أساءوا إلى سمعة البدو سكان البادية. لقد ذهب جدعان وسليمان بن مرشد إلى الدير برضا أتباعهم، ولكن البدو لما

شعروا أن الغرض هو جمع الجباية فقط، رحلت القبائل كلها إلى نجد في وسط الجزيرة، وأخبر جدعان وسليمان بانسحاب قبائلهم وأُمرا بإرجاعهم، وذهب سليمان وظلّ جدعان رهينة. ولما تبين أن سليمان لم يرجع ولم ترجع القبائل ربط جدعان إلى فوهة مدفع، وأُخبر أنهم سيطلقون المدفع لنسفه وتمزيقه إرباً إرباً. وقد لوحظ أن المدفع لم يكن محشواً. وبعد بضع ساعات من ربطه ـ وكان ينظر إلى من حوله باحتقار ـ فُكّ رباطه وأخذ إلى السجن.

لقد كان هذا داعياً إلى أن تتنبه عرب عنزة فلا تقترب من دير الزور في رحلتها الشمالية لبيع منتوجاتها عند عودة الطقس الجيد ونمو العشب في البادية. وقد رأت الحكومة أن تمنح الشيخ سليمان عفواً عاماً إذا هو قدُم ورعاياه من القبائل إلى المنطقة حول حلب، ولكنه رفض، وظلّ يتردد إلى مراعيه قرب حماه، وأخبر عن مجيئه إلى جوار حماه حاكم المنطقة وطلب إذناً للتجارة مع أهلها، وعرض حاكمُ حماه الأمر على رئيسه والي دمشق فاقترح الوالي أن يأتي سليمان إليه للمخابرة والاتفاق بهذا الشأن، ولكن سليمان أبى وقفل راجعاً إلى جنوبي الدير، وظلّ يتراسل مع جدعان بوسائله الخاصة. وقد نتج عن هذا كله نتائج غريبة، فقد تعين الأخير أي جدعان رائداً في الجيش التركي، ورضي كلاهما أن يدفع ضريبة الغنم للدولة، وأعطي الإذن لقبائلهما بالتجارة مع المدن، وأرسل جدعان مع فرقة من الفرسان على البغال لجمع الضريبة (وتسمى العداد) من القبائل ، وكان في ذلك الوقت أن وصلت إلى المضارب مع الكابتن أبتون «Apton». وجرى الاتفاق أن تدفع العرب جمالاً بدل المال بمعدل ٥ ليرات للجمل، غير أنهم لما شرعوا بجمع الضريبة هربت قبيلتا المسكة والشويحة في الليل، وساق عرب هاتين القبيلتين حلالهم أمامهم، فوكل ضابط تركي بملاحقتهم، ورافقه الشيخان جدعان وسليمان، وكان معهم أيضاً الشيخ صالح ابن شرح شيخ الحديديين ومحمد بك شيخ الموالي، وكان الأخير لا يترك جوار حلب إلا في النادر لأنه موكل بحماية القطعان التي تخص أهالي المدن، وهو لا يحب الأتراك، مع أنه كان في الآستانة ضابطاً مدة سنتين مع حرس السلطان، وعاد بعدها إلى البداوة.

ولو رغبت القبيلتان المنسحبتان في الهرب كلّياً لما صعب عليهما، لأنهما سبقتا بانسحابهما وتعرفان أن سرعة الجيش بطيئة، ولكن عرب القبيلتين رأوا الأفضل أن يتباطأوا ويلحقوا بهم. واستولى الأتراك على قطيع من الجمال كان في طريقهم، وسلّمت تلك الجمال لعرب الحديديين والموالي لحراستها، وذلك بنصيحة شيخي هاتين القبيلتين المذكورتين سابقاً اللذين كانا مع القائد وتركا قبيلتيهما ترقبان مصير الأمر من الوراء. وهنا

ظهرت بغتة عرب الفدعان والخرصة والعجاجرة في الميدان، وهي قبائل جدعان وحمل رجالها على الحديديين والموالي وأخذوا الجمال منهم دون أن يقتلوا أو يجرحوا أحداً منهم. وبعد هبوط الليل استلمت كل قبيلة من عنزة جمالها من قبيلة جدعان وذهبوا بعيداً في البادية بحيث أصبح من العسير طلبهم واللحاق بهم.

أما الجيش التركي الذي لم يتضرر منه أحد فقد ظهر أنه حارب قبيلتين من قبائل السبعة يرافقه في حربهما الشيخ سليمان ابن مرشد، بينما حارب الفدعان والخرصة والعجاجرة قبائل الموالي والحديديين الذين كانوا في الظاهر مع الأتراك. وكان في الوقت نفسه شيوخ القبائل المتحاربة وهم جدعان وصالح ومحمود مرافقين للقائد التركي، وأداروا المناورات في هذه الحرب المزيفة أو المزورة بواسطة الفرسان، وتمّت المهزلة البدوية التي ظهر فيها جدعان وهو يقبل الوظيفة التركية وسليمان وهو يرضى أن يدفع الضرائب، وأسدل الستار على جماعة الفرسان البغالة من الأتراك، وهم يعودون فارغي اليد، ليدّعوا على الأرجح انهم احرزوا انتصارات رائعة. ورجع الشيخان إلى مضاربهما وأهلهما ورجال قبائلهما الذين كانوا باعوا نتاجهم في هذه الأثناء.

تقارير قنصل الانجليز في دمشق فيما يتعلّق بالبداوة والبدو في ولاية الشام ابتداء من سنة ١٨٦١

كتب السيد روجرز E.T. Rogers من دمشق في ١٣ حزيران ١٨٦١ يخبر عن نزول قبائل بدوية في حوران وهي أربع: السبعة والفدعان والعمارات والدهامشة، ومعهم الشيخ اسماعيل، وعلى رأسهم الشيخ فيصل، وذكر أن عددهم فيما يقال نحو مئة ألف، ولكن يجب أن يحترس المرء بأمر قبول مثل هذا العدد، ويقال إنهم متفقون مع الدروز وإنهم سيساعدونهم ضد الحكومة. ثم قال: وأظن أن للأمر علاقة بزيارة حليم باشا لمصر وكان أرسل تحارير مشجعة وهدايا لشيوخ الأردن في حوران.

وكتب في ٢٠ حزيران ١٨٦١ يخبر عن دعوة فؤاد باشا لشيوخ البدو كي يتفق معهم على اقطاعهم أراضي عامرة لرعي مواشيهم تكون معينة لهم بحيث لا يتعدى عليها أحد. وعليهم أن يصبحوا رعايا صالحين، دون أن ينظر أو يبحث بأمر تحضيرهم، ولكن لفؤاد باشا أن يأخذ منهم جنداً، إذا سمحوا. ويشترط على الشيوخ الاّ تتعدّى قبائلهم على الأهالي في المزارع والقرى، وأن يبقى منهم رهائن عنده يكونون مساعدين له في شؤون الاختلافات وغيرها، وذكر القنصل أن الشيوخ امتنعوا أول الأمر عن قبول

الدعوة ثم ما لبثوا أن قبلوا ووفدوا إلى الشام، وذهبوا معه إلى بيروت. وانتهى في رسالته إلى القول إنه يأمل أن يفيد هذا الوضع في تأمين الهدوء المرغوب وتيسير أمر التجارة.

وكتب في ١٠ تموز ١٨٦١ عن اصطدام وقع بين قبيلتين هما قبيلة الشيخ محمد دوخي (ولد علي) وقبيلة فيصل الشعلان (الرولة) وسقوط بعض القتلى، وذكر أن السلطة العسكرية تدخلت وحالت بين الفريقين. وذكر أيضاً أنه جرى شيء من النزاع بين اسماعيل الأطرش والشيخ محمد دوخي بسبب خلاف قديم، وأن بعض دروز حوران مالوا مع الشيخ فيصل في نزاعه مع محمد دوخي، ولكن عقّال الدروز قرروا الحياد التام.

ثم كتب في ١٢ تموز يذكر أن العداء بين الشيخ فيصل الشعلان زعيم الرولة وبين الشيخ محمد الدوخي زعيم «ولد علي» ازداد أخيراً بسبب اختلافهم على المراعي لمواشيهم، ويظهر أنه لسنوات خلت كان فيصل هو الذي يحتل الأراضي غير المزروعة في بلاد حوران، وأن الشيخ محمد الدوخي كان يكتفي بالحدود وحواشي الأراضي، حتى تلك كان يدفع عنها ضريبة، ولكي يتوقف النزاع بينهما عيّن فؤاد باشا مقاطعة لكل قبيلة كما يظهر فيما قال في تقريره الذي كتبه في ٢٠ حزيران، ولكن هذا التدبير لم يرق الشيخ محمد دوخي إذ اعتبره تعدياً على حقوقه وانتقاصاً من أراضي مراعيه، فاحتج على ذلك، فغيّرت الحكومة ذلك التدبير، وزادت في منطقته، وأنقصت من مقاطعة فيصل التي لم يكن فيها أيضاً مراع خصبة وليس فيها سوى نبع ماء واحد، فرجا فيصل من السلطة أن تعيد إليه الأراضي حسب التقسيم الأول، فأبت السلطة أن تلبي طلبه، وقيل له إذا لم يرض فليرجع إلى البادية، ولما رأى أن الباشا في مزيريب يضمر له العداء تراجع إلى البادية إلى مسافة نحو ساعة على الراكب. ثم قال ان المراعي هامة جداً عند هؤلاء البدو، وأخشى الآن أن ينشأ نزاع بسببها ـ ويقال إن السلطة أرغمت الشيخ فيصل على الرجوع إلى البادية نظراً إلى صداقته مع الدروز وتحالفه معهم، وأنها أبقت الشيخ محمد لإخضاع الدروز حين يلزم الأمر. وهكذا فإن المنطقة شرقي الشام وجنوبها هي في حالة اضطراب. وأن قرية القنصل الروسي مهددة، وكذلك قرية عقربا التي تبعد نصف ساعة عن الشام فقد هاجمها جماعة من البدو ونهبوا طرشها (مواشيها) وكان مع الغزاة قوم من الأكراد فيما بلغني من جماعة رسول آغا.

وكتب من دمشق في ٢٣ كانون الأول ١٨٦١ أن المشاة من الجيش التركي ألقوا القبض على شيخين من شيوخ البدو وقطعوا رأسيهما وعرضوهما في الشام.

وكتب في ٩ آذار أن مسز دكبي Mrs.Digby وهي سيدة انكليزية اشترت ٢٥٠ جملاً وتركتها مع الرعيان حول تدمر فنهبها شيخ العرب محمد الدوخي ـ وهي تطالب بثمنها الذي قدرته بـ ٢٥٠ ٠٠٠ غرشاً وذكر القنصل أن والي الشام زعم أنه كتب للشيخ الدوخي أن يرد الجمال ولكنه لم يردها ولهذا فالسيدة تعيد شكواها. ثم ذكر أن الجند هاجموا قبيلة الدوخي ونهبوا جمالاً بينها البعض عليها وسم هو وسم جمال السيدة دكبي.

وكتب في ١٠ آذار عن وفاة الشيخ فيصل الشعلان الذي يقول عنه إنه ذكره مراراً في رسائله، وكان أذكى الشيوخ وأكثرهم اعتدالاً في البادية، وهو زعيم على رأس واحدة من أقوى القبائل، ويذكر أنه قتل من قبل جماعة من أقربائه الأبعدين من قبيلة مشهور، وكان فيصل قد ساعد على قتل واحد منهم بيد أحد عبيده، وبعد قتل فيصل هرب القاتلون على خيولهم وهم الآن عند عرب الرشيد والوهابيين.

وكتب أيضاً من دمشق إلى السفير في الآستانة في ١٢ آذار ١٨٦٤ يخبر أن رشدي باشا القائد العام في الجزيرة العربية قد اعتزل العمل وحلّ محله حليم باشا الذي كان يشغل هذه الوظيفة قبله وقد استقبل استقبالاً ودياً.

وكتب في ١٤ آذار عن هندي أتى إلى حوران لشراء الخيل ومعه تحارير إلى شيوخ واحة قدموس والمجيدية في البادية، ولكنه لم يشتر شيئاً بعد.

وكتب في ٢٩ آذار ١٨٦٤ عن مفتش عسكري اسمه سميح باشا يزيل كثيراً من المساوىء في قسم جيش الجزيرة العربية، وينظّف المستشفيات، ويحسّن أحوال الجيش، وقد رأى سرقات في الحسابات تبلغ ٣٦ ألف ليرة انجليزية.

وكتب في ٦ نيسان ١٨٦٤ عن حادثة سلب جرت لأحد التجار حول دمشق قام بها الأمير سلمان من جماعة الحرافشة (بني حرفوش).

وكتب في ١٠ أيار ١٨٦٤ يذكر عن ازدياد عدد المسافرين الانجليز ورعايا الدولة، وأن النهب اصبح أقل، وقد اقتصر الأمر على حادثة سلب واحدة قريباً من دمشق ، وقد ساعدت الحكومة في الحادثة المذكورة واستخلصت المال من البستاني، واعادته إلى السيد بلنت (مستر Blunt) في بيروت وهو بقيمة ٧٠٠٠ غرش.

وكتب في ١٦ آب ١٨٦٤ عن امرأة من راشيا، من الطائفة الإنجيلية القليلة العدد، وأنها اضطهدت وضربت ودهن وجهها بالعسل، ووضعت في الشمس ليأتيها

النحل والذباب، ووصف العمل بأنه بربري، وقال إن الباشا أوصى بأبناء هذه الطائفة لكي يساعدهم، ولكنه في الوقت نفسه أخبرهم أنه لا يستطيع حمايتهم رسمياً لأنهم ليسوا رعايا بريطانيين.

وكتب في ١١ تشرين الأول ١٨٦٤ يخبر عن اجتماع الحكام الأتراك وعن سفر قائد دمشق لجيوش عربستان إلى منطقتي حمص وحماة، وذلك لتدبير حملة لإخضاع بعض القبائل.

وكتب في ٢٧ كانون الثاني ١٨٦٥ أن دروز حوران واللجاه الذين اخذوا على أنفسهم اخضاع القبائل العاصية اجتمعوا وذهبوا حيث زعم أن هناك بدواً، ولكنهم لم يروا أحداً، ولعلها خطة مدبرة، فإنهم عند عودتهم نهبوا القرى المسيحية في مناطقهم قرب خبب والبصير.

وكتب في ١٨ آذار ١٨٦٥ كيف أن البدو يجمعون الخوّة ويحلّون ضيوفاً على الأهالي في قرى حوران، ويذكر أن اللجاه هي موقع العصاة ومعتصم بشير بك أبو نكد اللاجىء في الجبل لاشتراكه في حوادث سنة ١٨٦٠.

F. O. 195 Vol. No. 806

كتب القنصل ويري N. W. Werry في دمشق تقريراً في ١٥ كانون الثاني ١٨٦٦ عن الحالة بوجه عام في سنة ١٨٦٥ ذكر فيه أن الطريق بين دمشق وبغداد هي مقطوعة من سنوات، وأنه في نيته أن يقابل بعض شيوخ البدو في سبيل فتح الطريق ثانية. وأشار إلى أن الطريق الذي تسلكه القوافل إلى العراق في السنوات المشار اليها هو - الموصل - ديار بكر - حلب - الإسكندرون، ثم إما بيروت بحراً أو الشام براً. وتستغرق الرحلة في هذا الطريق بين ثلاثة وأربعة أشهر، بينما لا تستغرق أكثر من أربعين يوماً لو تم الاتصال رأساً بين دمشق وبغداد. ويذكر القنصل أن التجار استوردوا من الأناضول إلى دمشق ٢٢٠ ألف رأس غنم، منها ٨٠ ألف لدمشق نفسها، والباقي لمدن أخرى في سوريا ولمصر.

وكتب في ١٦ أيار ١٨٦٦ يذكر أن عرب الفضل يتعدّون على مراعي مجدل شمس ومزارعها، وأن هناك نزاعاً بين عرب العدوان المتحالفين مع قسم من بني صخر ورئيسهم نمر ابن الشيخ رباح السعيد، وبين بقية بني صخر وشيخهم المعترف به واسمه مطلق السعيد، وقد قتل في هذا النزاع الشيخ مطلق حين فوجئت جماعته ليلاً، ووقع قتلى كثيرون من الفريقين، وأرسلت الحكومة قوة لمنع وقوع أي اصطدام آخر بين هؤلاء الفرقاء.

وكتب في ٢٩ حزيران ١٨٦٦ يذكر وقوع حوادث سلب في البادية شرقي حوران، وغزوات كثيرة على القرى، ويشير إلى أن الجند الذين عادوا من مرافقة الحجاج أمر أن يبقوا في بلدة مزيريب للحماية.

وكتب في ٣٠ آب ١٨٦٦ أن حملة تأديبية وجّهت لملاحقة البدو قرب صلخد، ولكن البدو عرفوا بتوجهها اليهم فهربوا إلى البادية، وهاجم الجند الرعاة الذين كانوا يرعون غنم الدروز ونهبوها، ففزع الدروز للنجدة من مختلف القرى وخلّصوا غنمهم وقتلوا وجرحوا عدداً من الجند يبلغ نحو ستين، وأشار إلى غزوات متبادلة بين البدو والجند.

وكتب في ٢٧ تشرين الأول ١٨٦٦ ينبىء عن هجرة عدد كبير من العائلات الدرزية من حاصبيا وراشيا ومناطقها إلى حوران في الأسابيع الأخيرة قبل تاريخ رسالته، وأن السبب في هجرة هؤلاء الناس هو فقر المناطق التي كان الجراد قد اجتاحها، وغنى منطقة حوران التي تكثر فيها القرى المهجورة. وذكر أن الدروز أخذوا يعمرون هذه القرى. وقد نشب نزاع بينهم وبين قبيلة ولد علي وقتل درزي وهاجم الدروز القبيلة انتقاماً له. وأشار أيضاً إلى أن سبب الهجرة أيضاً هو امتيازات الدروز في الجبل وقلة الضرائب التي تضرب فيه عليهم.

وكتب في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٦ أن الأهالي في جبل حوران طردوا حاكم الجبل لأن الحكومة لم تعد تحمي أحداً، ولأن الضرائب توضع عليهم بحجة حمايتهم من البدو في الوقت نفسه، ولأن الجمرك يؤخذ من الفلاحين عن حاجات يشترونها من الشام لأنفسهم. وهو أول احتجاج على الضرائب بصورة واضحة يبديه الحوارنة من مسلمين ومسيحيين. ويذكر هؤلاء انهم مستعدون لغزو عرب السلوط. ثم يعود فيخبر أنهم قتلوا النصارى الذي آووهم في قرية خبب.

وكتب في ٢١ أيار ١٨٦٧ كتاباً مطوّلاً عن اجتماع رشيد باشا ودرويش باشا في حمص وحماة بجواد باشا حاكم حلب للبحث في انشاء قوة ضاربة من الفرسان والهجانة لصد البدو وحماية القرى والمزارع يكون مركزها تدمر، ويمتد ذراعها بشكل طوق أو سياج حتى حلب لمنع البدو من المرعى غربي ذلك الخط، ثم يقول وقد عُرضت هذه القرارات على القنصل البريطاني في بيروت، عرضها رشيد باشا حاكم سوريا العام، فأشار القنصل إلى أنه يحسن بالسلطة أن تربح البدو بدلاً من أن تخيفهم وأن تشجع العلاقات بينهم وبين الفلاحين وذلك بإقامة معارض في تدمر وغيرها من القرى التي تكون في طريق

البدو يبيع فيهـا الحضر المؤن والثياب إلى البـدو، أو يبدلـونها بالسمن والغنم والجمـال والخيل مما ينتجه البدو، ويقول أخيراً: وقد أبديت المـلاحظة نفسهـا إلى درويش باشـا وقبلوها.

وكتب في ١٢ حزيران ١٨٦٨ عن بعض الحوادث والاضطرابات التي وقعت بين الدروز وعرب السلوط. وذكر أن الدروز يتهمون الحكومة أنها مواليـة لعرب السلوط، ويظهر من كتابه أنه يؤيد وجهة نظر الدروز، وقد أشار إلى أنه قُتل من الدروز عـدد، وهم ارادوا الانتقام، وساروا لغـزو السلوط، ولكنهم في السابق قتلوا النصارى الذين آووهم في خبب.

وكتب في ٧ تموز ١٨٦٨ يذكـر أن حاكم الشـام رشيد بـاشا طمعـاً منه أن يحكم حوران أيضاً أخذ يغذّي العـداء بين عـرب السلوط وبين الـدروز، وأخذ يسمـح لبدو السلوط أن ينزلوا قرب القرى ويخربوا المزارع، وذلك بواسطة قريبه يـوسف ضيا بـاشا متصرف حوران. وقد لاحظ الدروز أنهم مهددون فأخذوا يدعـون أنسبائهم من وادي التيم لحمايتهم. وقد زعم الدروز أن عرب السلوط قتلوا ١٢ شخصاً منهم في الشفرى وأن الحكومة لم تردعهم ولم تنتقم منهم.

وكتب في ١٦ تموز ١٨٦٨ إثر هذه الحوادث السابقة أن اسماعيل الأطـرش بعث بكتاب إلى شيخ عرب الرولة يسأله التحالف معهم ضد عرب السلوط. وذكر في كتابه أن اسماعيل الأطرش يتزعم الدروز.

وكتب في آخـر رسالـة فيها ذكـر عن البدو تـاريخها ٣١ آب ١٨٦٨ مـدافعـاً عن مصطفى باشا حاكم القوة العسكرية بعربستان الذي استبدل فيها يظهر بحاكم آخر.

F. O. 195 Vol. No. 927 (1869)

جاء في كتاب بتوقيع السيد تشارلـز ودّ تاريخـه ٣ نيسان ١٨٦٩، ولكنـه ورد مع تحارير قنصل حلب، يتحدّث فيه عن هجوم عرب الغياث وعرب الحسن شمالي حوران على خط بغداد التجاري، واعتراضهم لقافلة نهبوا منها ١٨٠ جمـلاً محمّلة بضائع، ويذكر أن الحـاكم العام أمـر الدروز بـواسطة هـولو بـاشـا حـاكم حـوران أن يهـاجمـوا البـدو لاستخـلاص المنهوبـات منهم ومجازاتهم، فهـرب البـدو إلى اللجـاه واستعـانـوا بعـرب السلوط، ولكن الدروز تهددوا السلوط إن هم حـموهم، فأذعن عـرب الغياث والحسن وسلّموا المنهوبات إلى الشيخ اسماعيل الاطرش الذي سمح لهم أن يرجعوا دون وضع

أي جزاء أو غرامة عليهم. ويذكر تشارلز ودّ أن تأخر دمشق تجارياً يعود إلى اضطراب الأمن على خط بغداد.

وكتب في ١٦ تموز ١٨٦٩ يخبر أن الشيخ فندي الفايز شيخ بني صخر سار على رأس ١٥٠ مقاتلاً من قبيلته، ومعه الشيخ علي دياب على رأس ٥٠٠ من عرب العدوان إلى قرية الرنتة في سهل حوران، فنهبوها، وذلك لأن أهلها قد امتنعوا عن دفع الخوّة التي كانت أُلغيت بعد حملة شنّتها الحكومة على البدو سنة ١٨٦٧. فلما بلغ الأمر إلى الحاكم أرسل حملة من الجند، ومعها أيضاً الشيخ الدوخي شيخ عرب «ولد علي» مع ٨٠٠ فارس من قبيلته، وأوعز إلى اسماعيل الأطرش أن ينضم إلى الحملة وتقدّمت الحملة على ثلاثة خطوط إلى حدود البادية، ودعي القنصل لمرافقة الحملة مع فرقة الاحتياط، وهي مؤلفة من فرسان ومشاة دروز وبعض قبائل البلقاء ومعها مدفعان. ثم يقول القنصل وقد بلغني أن فندي الفايز انكسر حين تلاقى مع الشيخ دوخي، وأن الأخير غنم منه ومن جماعته ٢٠٠٠ غنمة، و ٣٠٠ جمل، و ١٤٠ ثوراً، ويقال إن أكثر الغنائم أخذتها جماعته قبل أن يسلّمها للدولة. ثم قدّم رئيس العدوان خضوعه فقبل على شرط أن يدفع ٢٥٠٠٠ غرش، وهي قيمة حصة القبيلة من منهوبات القرية. أما بنو صخر فلم يستسلموا والتجأوا إلى مضارب عرب الحميدي الذين ينزلون الممرات بين حسبان وكرك.

ويتابع القنصل فيقول: وقد تابعنا مسيرنا وراء فندي في تلك المنعرجات التي لم يصلها من قبل جيش تركي، ونزلنا على ماء فاضطر فندي إلى طلب الأمان، فأعطي الأمان على شرط أن يدفع ٢٠٠ ٠٠٠ غرش وأن يسلّم ابنه رهينة. وانتزعت حقوق حماية خط الحج من بني صخر، وأعطيت لعرب ولد علي. أما قبيلة الحميدي التي حمت بني صخر فقد ذكر أبناؤها أنهم بحياتهم لم يعرفوا أنهم تحت حكم حكومة، بل إن أرضهم منذ الأزل هي لهم، أما الآن فهم يعترفون بحكومة السلطان، ويدفعون الضرائب للدولة. وقد سلّم أمر جمع الضرائب لعقيلي آغا الذي انضم إلينا مع ٥٠٠ من فرسانه وعدنا. غير أنه قبل أن نفترق ونترك، جمع رشيد باشا والي دمشق كل شيوخ القبائل في البلقاء، وأعلن أمامهم وهم حاضرون، أن كل إخلال بالأمن سيؤدي إلى حملة يدفعون تكاليفها هم أنفسهم.

وجاء في كتاب طويل من قنصل الشام أيضاً تاريخه ٢٦ تشرين الأول ١٨٦٩ يذكر فيه كيف أن الأهالي يتسلحون في موسم الحصاد لحماية مواسمهم، وكيف أن بني صخر لا يزالون يفرضون الخوة والمال على الفلاحين، ويذكر خبر خضوع قلعة السلط للحكومة سنة ١٨٦٧، وكيف احتلتها ووضعت فيها حامية، وجعلت بلدة السلط نفسها

قائمقامية. أما كرك فهي أيضاً لم تكن تعترف بسلطة الحكومة فخضعت بدورها، وألغى سعادة الوالي الخوّة في كل منطقة البلقاء، وضم جبل عجلون ومنطقة نابلس إلى البلقاء، ورفع درجة الحاكم الذي أصبحت السلط مركزاً له. وتحدّث القنصل عن الأراضي فقال إنها صالحة للزرع وليست صحارى، وأشار إلى آثار قرى كثيرة اندثرت مما يدل على حالة ازدهار سابقة أهم من ازدهار حوران. أما مناطق عجلون فهي كما يقول مثل حدائق انجلترا. ويقول عن البدو انه ليس باستطاعتهم الوقوف أمام الجيوش النظامية ثم صنف البدو إلى بدو حقيقيين وهم السبعة والرولة وولد علي، ونصف بداة وهم الآخرون. وقدّم اقتراحاً في انشاء قلاع أو حصون على حدود البادية، ووضع حاميات فيها. ونصح أن تضم تدمر إلى ولاية حلب، وأن توضع حامية في القريتين. وذكر أن رشيد باشا هو أيضاً اقترح انشاء حاميات في حصون على طول خط الحج حتى الجوف حيث تشتو قبائل عنزة في فصل الشتاء، وحامية في البتراء، فيظل البدو في وسط هذه الحلقة لا يتعدونها. وقال أخيراً إنه يعتقد انه في مثل هذه الحالة يأخذ البدو بالاستقرار تدريجياً. وإلا فإن الدروز ايضاً القريبين من اللجاه لا يخضعون إذا لم يخضع البدو. وذكر في آخر تقريره جدولاً مفصلاً بقبائل البدو وعدد خيامهم نرى من الخير أن نورده للمقابلة مع الجداول التي ذكرت في عصر بعد هذا لمن يريد الاطلاع على اسماء القبائل وعدد بيوتها وأبنائها.

عشائر صغيرة:

القبيلة	البيوت	الشيخ
الخرشة	٤٦٧٠	
البلادية	١١٠	
المساعيد	١٠٠	الدريع أبو حميد
الحويطات	٣٠٠	أبو حازي
النعيم	١٠٠	
بني فهد	٥٠	
الجربند	٥٠	
	٥٣٨٠	

عرب البلقاء:

اسم القبيلة		عدد البيوت	مواقعهم
العدوان	الصالح، القايد	٤٥٠	السلط وعمان وجرش
عباد		٥٠٠	
حسن		١٠٠٠	جبل عجلون
الوعجة		١٠٠	
العجارمة		١٥٠	
الغنم	(بنو)	٦٠٠	جنوبي حصبان وهي بلد حارثي بن الفايز وله سلطة وتأثير على أكثر من ١٥٠٠ بيت وله خوة من بني حميدة
الحميدة	(بنو)	١٠٠٠	
الصقر		٢٠٠	
الغزاوية		٢٠٠	
بنو صخر		٢٠٠	
سليط		١٠٠	
الحجايا		٢٧٠	

يعيش في البيت الواحد بين الفارس والثلاثة.

عرب حوران :

القبيلة		عدد البيوت	الشيخ	المواقع
السلوط		٥٣٠		وهم فروع : الحجازة، المراشدة، الفواخرة، الشرعة، العوارات، الزوف — حول اللجاه
عنزة	ولد علي	١٥٠٠	محمد ابن سمير	غربي بصرى
	الرولة	٣٠٠٠	هزاع وطلال	شرقي بصرى
المعجل		٠٣٠٠	حمود الصالح	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
السوالمة		٠٢٠٠	ابن جندل	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
البلاعيس		٠٣٠٠	شيحان	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
الغياث		٠٢٠٠	مطلق الهوّاش	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
الحسن		٠١٥٠	توهان الخطير	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
المساعيد		٠٢٥٠	فريوان السرور	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
العظيمات والفواعرة		٠٢٠٠		شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
السردية		٠٢٠٠		شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
العجيلية		٠١٠٠		شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
الفضل		١٠٠٠	حسن الفاعور	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
التركمان		٠٤٠٠	ابن دياب آغا	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
العيسى		٠١٥٠	خطاب	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
السرحان		٠٥٠٠	نهار ونكار	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
النعيم		٠٣٠٠	بركيس النادر	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز
بكر		٠٠١٥	حسني العجلوف	شمالي وشرقي وجنوبي جبل الدروز

القبائل التي تتردد إلى سورية ومناطقها الأصلية في العراق قرب بغداد

	القبيلة	عدد البيوت	الشيخ	مواقعهم
عنزة	الرواة	٦٠٠٠	ابن شعلان	
	الحسنة	١٠٠٠	فارس المزيد	حول الحماد وتدمر
	الشايعة	١٠٠٠	ابن محجن	
	السويلحة	٠٤٠٠	ابن جندل	
	العبد الله	٠٥٠٠	ابن مجيد	
الرعية	العمارات	٨٠٠٠	ابن هذال	
	السبعة	٦٠٠٠	سليمان المرشد وغيره	
	الفدعان	٤٠٠٠	ابن مهيد وابن غبين	
	الفواعرة والقماقم	٢٠٠٠	أحمد بيك (والأمير فياض)	
	الحديديين	٤٠٠٠	الشيخ ابراهيم	
	بني خالد	٢٠٠٠	الزواف	
	العمور	١٠٠٠	طلي	
	ابن شنبان	٤٠٠٠	الناصر	
	العقيدات	٣٠٠٠	الظاهر	
شمرّ	شمر	١٠٠٠٠	فرحان باشا عبد الكريم	حول بغداد
	الجبور	٧٠٠٠	محمد أمين وعبد ربه	
	الديم	٤٠٠٠	عيسى وشاوشي	
	العبيد	٤٠٠٠	سعدون المصطفى	
	الظفير	٤٠٠٠	ابن سويط	
	مطر	٦٠٠٠	الدويس	
	الكستليم	١٠٠٠	ديوس	

F.O. 195 Vol. No. 965

(1870)

Richard F. Burton

ويظهر من الوثائق أن قنصلاً جديداً اسمه رتشرد برتن عين في صيف ١٨٧٠ ليحل محلّ تشارلز ودّ وقد جاء في رسالة أرسلها في ١١ أيلول ١٨٧٠ رقم F.O. 195 Vol. No. 965 إحصاء عن عدد سكان دمشق من الطوائف المختلفة من مسلمين ونصارى ويهود هو ٨٧ ألفاً ، منهم ٤ آلاف يهود ، و ١٣ ألف نصارى ، و ٧٠ ألفاً مسلمون ، وفيها إشارة إلى محاولة اليهود زرع الشقاق بين النصارى والمسلمين ، وذلك برسم صلبان على الجوامع ليلاً . ويقول في آخر رسالته تلك أن اليهود نفعيّون ويستغلون كل شيء لمصلحتهم ، ويتبعها برسالة أخرى في ٩ حزيران ١٨٧١ يذكر فيها أن غارات البدو على المزارعين مستمرة ، ولكنه لا يذكر أي شيء عن حادثة من هذه الغارات ، ولا يشير بين الرسالتين إلى أمور البداوة وحياة البادية طيلة سنة كاملة تقريباً ، حين عيّن بعده قنصل جديد إسمه طوماس جاكو ذكر في رسالة تاريخها ٢٨ أيلول ١٨٧١ أن الحالة في البادية هادئة ، وذلك بسبب إدارة رشيد باشا وحملاته فيها ، وأشار إلى أن الباشا أخذ من البدو رهائن بعد تخريبهم الحدود في البادية ومحاولاتهم للنهب وتعدّياتهم ، وطرد البدو أنفسهم إلى داخل البادية ثم دخلت سنة ١٨٧٢ .

F.O. 195 Vol. No. 994

(1872)

وفي سنة ١٨٧٢ عين قنصل جديد هو مستر جرين وقد جاء في كتاب أرسله في ٢٨ شباط ١٨٧٢ أن الباشا في الشام يقترح ألاّ يجري ضغط على البدو من ناحية مصر والأردن لإخضاعهم . وفي كتاب آخر تاريخه ٦ نيسان ١٨٧٢ يذكر أن صبحي باشا والي الشام أظهر مقدرة تذكر في صدّ البدو والتغلّب عليهم في غزواتهم المتعددة في ضواحي تدمر ، وأنه مستعدّ أن يفهم البدو مقدرة تركيا على ردعهم وأنها لا يمكن أن ترضى عن هذه الغارات والضرر بأراضيها الزراعية .

وكتب في ٢٨ أيار ١٨٧٢ يذكر أن صبحي باشا نفسه رأى من الخير أن يوزع على البدو بعض أراضي الدولة وبالفعل أعطاهم ٢٨ موضعاً ليحرثوها ويستغلّوها .

ثم كتب بعد ذلك بشهر في ٢٨ حزيران أن عرب الرولة دعت الوالي إلى زيارة مضاربهم ، وأن الوالي دعاه لمرافقته ـ وقال فقضينا ثلاثة أيام وهو أول استقبال يناله حاكم

تركي ، وأول إذن رسمي لرؤيـة قبائلهم ، وتقـع مضاربهم عـلى بعد ٣٥ ميـلاً شرقي دمشق وشيخهم هزاع الشعلان وكـان في استقبال الـوالي ما بـين المئتين والثـلاثمئة من الفرسان حاملي الرماح ـ طول الرمح نحو ١٥ قدماً، وقد تدرّع بعضهم بالدروع أما المشاة فقد كانوا يحملون بنادق صغيرة Match L'ocks ودبابيس Scimitars وخناجر Scimitars ولديهم فيما يـزعمون من الفـرسان مـا بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ فـارس ، ومن المشاة نحـو ٦٠٠٠ راجل . ثم يقول إن أهم ثروة عند الرولة هي الجمال ، ويقال إن قبيلتهم تملك ما لا يقل عن مئة ألف جمل ، وقد رأينا منها بالفعل نحو ثلاثين ألفاً من مضاربهم ، وقد أهدى الوالي شيوخهم مسدسات فأخـذ أحد الشيـوخ يطلق الـرصاص في واحـد منها فجرح إصبعيه وجرح جندياً . وقد أخذ البدو منذ تلك السنة يعتبرون أن المغازي انتهت أو ستنتهي ويتأسفون لذلك .

واستقبلنا كذلك الشيخ محمد الدوخي زعيم عنزة في مضاربه قرب مزرعة عدره ، ولم يقلّ احتفاله بنا عن الاحتفال الذي لقيناه من زعيم الرولة ، وذلك لوجود قسم من قبيلته في عدره ، واستفاد الوالي كثيراً من الأخبار والمعلومات عن قوتهم الحربية ، ويظهر أنه يمكنهم أن يدفعـوا إلى ميدان الحـرب نحو ستـين ألف فارس ، ومئـة وثمانـين ألف راجـل ، ورأى الـوالي أنـه لـو وضعت الضـرائب عنهم وجنّدوا لأمكن إنشـاء جيش مثل جيش القوازاق.

وكتب في ١١ تشرين الثاني يذكر أن الوالي أخبره أنه نجح في التوفيق بين القبائل التي تسكن في معان والجوف وكرك والغور وجبل شهبه وطفيلة ووادي موسى ، وجعلهم يتخلّون عن استقلالهم وينزلـون في ولايته ، وأخبـره أيضاً أنـه عيّن محمـد سعيد بـاشا متصرّفاً عليهم . ثم قال : إن المتحضرين في هذه المنطقة يعدّون نحو ٤٠٠٠٠ ومعهم ١٠٠٠٠٠ من البدو، وبناء على هذا الاتفاق سيضع حاميات في قلاع خاصة في المدن من مئتي نظامي في كل بلد ، وهو يتمنى أن ينجح مشروعه لأن هذا المشروع يحقق الأمن عند السفر والسياحة للأجانب .

F.O. 195 Vol. No. 1027

(1873)

وكتب القنصـل جرين من دمشق في ٢٧ كـانون الثـاني ١٨٧٣ عن قتل الـدروز لبعض البدو الذين كانوا كثيراً ما يتعدّون على الفلاحين والمزارع ، وذكر كيف تجمع نحو أربعة آلاف من عرب البادية في منطقة مؤاب للانتقام ، واحتشدوا قرب صلخد ، وهي

تابعة للطرشان ، فاحتشد قبالتهم نحو أربعمئة فارس درزي بقيادة إبراهيم الأطرش ، وباغتوا البدو وغنموا منهم ٦٠٠٠ نعجة و ٨٠ جملاً ، ثم جرت بعدها مفاوضات أعيدت إثرها الغنائم التي نهبت كلها . ولما عاد الدروز إلى صلخد وكانوا غير مستعدّين للقتال هاجمهم البدو وأخذوا يطلقون عليهم النار فقتلوا بعض خيلهم ، ولكن الدروز تأهبوا حالاً وصمدوا وردوا العدو وقتلوا منهم ١٣ رجلاً ، ويخشى الدروز أن تكون السلطة التركية هي التي تشجع البدو .

وكتب في ٢٠ شباط ١٨٧٣ يشير إلى أن السلطة التركية قررت أن تخضع كل القبائل ، ثم كتب أيضاً في ١١ آذار وذكر أن القبائل البدوية أخذت تقوم بغاراتها على المزارع والقرى ، وبعض هذه الغارات كانت على نطاق واسع ، وكتب أيضاً في ١٦ نيسان عن الجوف وإمكان ضمّها إلى معان ، وأشار إلى أن السلطة التركية أهملت الأمر لأنها رأت أن مصاريف الضم باهظة . وذكر أن في الجوف واحتين في الواحدة سبعمئة نفس وفي الثانية أربعمئة والمورد الأساسي في الواحة الكبرى هو البلح .

وفي رسالة تاريخها ٥ أيار من السنة نفسها ذكر أن هناك خبراً يفيد أن المشير في الشام أرسل الشيخ محمد الدوخي رئيس قبيلة الولد علي المشهور بذكائه في بعثة سرية إلى مسلمي حوران الذين كانوا ثائرين على الدولة بسبب الخدمة العسكرية التي فرضت على أبنائهم ، ولم يزد على ذلك .

وكتب في ٣ حزيران ١٨٧٣ يقول إنه ليس للحكومة سلطة حتى على ضبط الأمور بمعان وكرك والجوف ، بحيث اضطر الحاكم إلى أن يطلب فرقتين للحماية ، ومدفعين جبليين ، فلم تلب الحكومة طلبه ، فدفعه هذا إلى أن يلجأ إلى الأهالي ويجنّد منهم نحو ٤٥٠ فارساً غير نظامي . وقبل أن يصل إلى معان تخلّى عنه قسم منهم . وقد لاقى مقاومة في الجوف من قبل فرقة من البدو فيها نحو ٤٠٠ فارس تصدّى لها بحزم فأخضعها حالاً ، وقتل منها نحو ثلاثين فارساً ، وبلغت أخبار انتصاره وفتكه ببدو الجوف إلى كل أنحاء الجزيرة فقدمت القبائل خضوعها . كذلك وفد ابن رشيد نفسه حاكم شمّر وقدم خضوعه للحاكم بعد أن ظهر له أن ادعاءه لملكية الجوف لم تنفعه شيئاً ، وقدّم للدولة بعد رجوعه إلى قبيلة شمّر خيلاً وجمالاً عن الضريبة التي عليه خلافاً لما ذكر من قبل . وفي منطقة الجوف ست مدن ويمكن أن تجنّد ٤٨٠٠ رجل ، والمدن هي سكاكة والجوف وقارة وطوير وعيصرية وكاف . وفي العيصرية معدن نحاس . وعرب الجوف هم : بنو عطية، ابن جازي، الحويطات، الهجاية، الدعنين، ابن رشيد، المنين، المحمدين. وأبناء هذه العشائر يزورون الجوف للتموين من التمر وللماء وللمرعى في أراضيها .

وتستطيع الدولة أن تجمع من الضرائب التي تجبيها من البدو ما يكفي لسد مصاريف الحملة والقوة التي تحتاجها . ومنذ أكثر من سنتين لم تستطع الحكومة أن تجهز حرساً لزائري تدمر ، وكان على الزائر أن يتولى أمر حماية نفسه ، وأن يشتري حق المرور من البدو ، وقد يكلف هذا جماعة الزائرين بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ليرة إنجليزية ، أما الآن فإن بعض الجند غير النظامي يحمي الطرق ، وأن الطريق إلى بغداد آمن أيضاً ، وذلك بفضل حزم محمد سعيد باشا وفضل تنظيمه .

أما الكرك ففيها نحو عشرة آلاف محارب . ويستمر القنصل في الثناء على محمد سعيد باشا ويقول إنه كان مدة وظيفته في جهات سيناء والبتراء يؤمن للمسافرين الغربيين التنقل بأمان . ولعلّه يؤمن لهم الأمن في الجوف أيضاً ولا سيما أنه يقول إنه أمر البدو بالمحافظة على الأمن ويأمل أن يفعلوا .

وجاء في رسالة من القنصل نفسه من مصيفه في بلودان في ٨ آب ١٨٧٣ يذكر فيها عن عرب حوران أنهم يتمردون على السلطة ، وقد قتل البدو في الأيام الثلاثة الأخيرة ثلاثة من عساكر الأتراك ، ويشير إلى تحرّك كتيبة من الجند إلى حوران ونزولها في دانون .

وفي رسالة أخرى من دمشق في ١٢ آب يذكر أنه أرسلت قوة أخرى من الهجّانة إلى حوران لأن البدو لم يخضعوا ، وقد طلب خالد باشا من رجال الحملة ألّا يلتفتوا إلى الغنائم وكسب الجمال والغنم بل يريد أن يرسلوا له رؤوس بعض المتمردين .

وفي رسالة أخرى في ٣ تشرين الأول ١٨٧٣ يذكر القنصل أن الأمن لا يزال مضطرباً في منطقة حوران وأن النهب منتشر ، وقد نُهبت البوسطة (البريد) الإنجليزية المرسلة على الهجين (الذلول) إلى بغداد .

وفي رسالة عن دمشق أيضاً في ٢٩ تشرين الأول يشير إلى أن البدو لا يزالون مستمرين في إخلالهم بالأمن وتعرضهم إلى المسافرين والبريد المرسل إلى بغداد ، وإنهم قد نهبوا أمتعة الرسول حامل البريد ومزقوا أكياس البريد وأخذوا هجينه ، ويقول : إذا لم يعاقب البدو فإن الحالة ستصبح أسوأ ويفقد الأمن .

وكتب القنصل رسالة من بلودان في ٣١ آب ١٨٧٤ يذكر فيها أن نحو مئتي بدوي من عرب السلوط والحسن هاجموا بلدة أذرع في حوران التي كانت انتقلت إليها حامية مزيريب ، حيث كان هناك بعض زعماء هؤلاء البدو محجوزين كرهائن فتغلّبوا على الحامية ونهبوا ٣٥٠٠٠ غرش من صندوق الخزنة ، وجرح ثلاثة من ضباط الحامية وقتل واحد في المحاولة لردع البدو . وقد دعا الحاكم العام في دمشق شيوخ الدروز ليكلّفهم

ألاّ يقبلوا انسحاب البدو إلى الجبل ولكن لم يُقبل دعوته سوى شيخ واحد من الدروز . ويأمل القنصل أن تسير حملة تأديبية لحفظ هيبة السلطة وإعادة مالها المنهوب .

ثم كتب في ١٩ أيلول ١٨٧٤ يذكر عدم استخفاف السلطة بهذه الحادثة المذكورة في أعلاه ويشير إلى عزل الحاكم في الشام وتعيين أسعد باشا محلّه .

ثم كتب من دمشق في تشرين الثاني ١٨٧٤ يذكر أن أسعد باشا أخبره عن عزمه في السفر إلى اللجاه ليرى الأمور بنفسه ، وأن قوة من الجيش ستلاقيه اليها ، لأن البدو لا يزالون يعيثون فساداً في الأرض حتى جوار دمشق، وعلى خط بغداد، ثم يذكر أن أسعد باشا سافر وحصل على خضوع عرب اللجاه ومساعدة شيوخ عقل الدروز . وذكر أن الدروز يثقون بالإنجليز ويطيعون نصائحهم ، ويعدون الحكومة بمساعدتها على مهاجمة البدو وإخضاعهم .

وكتب في ٧ كانون الأول ١٨٧٤ يذكر مرور أسعد باشا والي الشام عائداً من حماة ومارّاً بالقلمون التي كانت في الأيام الأخيرة عرضة لهجمات البدو المتواصلة ونهبهم مواشيها ، ويثني على أسعد باشا لتطوافه في أطراف البلاد وتفتيشه ، ويذكر النتائج الحسنة من هذا السلوك .

وكتب في ٨ كانون الأول ١٨٧٤ أن عرب الغياث تعدّوا على Earl of Derby ونهبوا كثيراً مما كان يحوزه ، ويشير إلى أن حملة سارت لإخضاع عرب السلوط ، ولكن العرب الذين كانوا المتعدين والمزعجين هم عرب الغياث والشطي والحسين والعمور، ومنطقتهم الصفا ، وهي منطقة بركانية مثل اللجاه ، وحولها أرض قاحلة صحراوية . والحملة عليهم تكلّف كثيراً ، ولهذا فقد أرسل أسعد باشا إليهم رسالة بواسطة الشيخ محمد دوخي من قبيلة « ولد علي » ، وبواسطة بعض الدروز ، وقد عرض القنصل خدماته ، ولهذا أتى الشيخ مطلق الهوّاش والشيخ سلامة وديجل ابن صوينة للاستماع إلى الرسالة المرسلة مع محمد الدوخي ، ولما أتى شيوخ الغياث كان أسعد باشا في طرابلس ، فأبقيت الشيوخ ضيوفاً عندي عشرين يوماً ، وعند رجوع أسعد باشا اتفق معهم على أن يرجعوا جميع المنهوبات، ويمتنعوا عن الغارات. وقد تمكن الوالي من إقناعهم أن بإمكانه إخضاع الصفا كلها وأسرهم في مراعيهم . وقد شكر لي أسعد باشا مساهمتي في إعداد هذه المقابلة .

المصادر

أ - المصادر التي وضعت باللغة العربية أو نقلت إليها من لغة أجنبية مرتبة تبعاً لأسماء الكتب :

- الأب أنستاس ماري كرملي حياته ومؤلفاته ، لكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٦٦ .

- أدب النديم، لمحمود ابن الحسين المعروف بكشاجم ، القاهرة ، ١٢٩٨هـ.

- الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا. لأسد رستم ، ٥ مجلدات ، بيروت ، ١٩٣٣ .

- اعجب العجب في شرح لامية العرب. للزمخشري ، القاهرة ، ١٣٠٠هـ.

- أعلام الورى، لمحمد ابن طولون ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤ .

- امبراطورية العرب. للسير جون باجوت جلوب ، تعريب خيري حماد ، بيروت ، ١٩٦٦ .

- أنساب الخيل، لابن الكلبي ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

- البادية، لعبد الجبار الراوي ، بغداد ، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩ .

- البداوة والبدو في البلاد العربية. لمكي الجميل ، سرس الليان ، ١٩٦٢ .

- «البدو» بقلم سليمان البستاني في مجلة المقتطف، ج ١٢ ، القاهرة ، ١٨٨٧ - ١٨٨٨ ، ص ١٤١ - ١٤٧.

- البدو والبداوة، لمحيي الدين صابر ولويس كامل مليكة، سرس الليان، ١٩٦٦.

- البدو والعشائر في البلاد العربية، لعبد الجليل الطاهر، القاهرة، ١٩٥٥.

- البدو والقبائل الرحالة في العراق، لمكي الجميل، بغداد، ١٩٥٦.

- البدوي، لاسكندر يوسف الحايك، بيروت، د. ت.

- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق وداد قاضي، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤.

- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو الجاحظ، ٣ أجزاء، تحقيق حسن السندوبي، القاهرة، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢.

- تاريخ بئر السبع وقبائلها، لعارف العارف، القدس، ١٩٣٤.

- تاريخ الخيول العربية، لعبدالله ابن حمزة وشرح ابنه أحمد، صنعاء، ١٩٧٩.

- تاريخ الرسل والملوك، لمحمد ابن جرير الطبري، ٥ أقسام، تحقيق م. ي. دي خويه وزملائه، ليدن، ١٨٧٩ - ١٩٠١.

- تاريخ الشام، للخوري مخائيل بريك الدمشقي، حريصا، ١٩٣٠.

- تاريخ العرب، بقلم فيليب حتى وأدورد جرجي وجبرائيل جبور، طبعة جديدة منقحة، بيروت، ١٩٦٥.

- تاريخ غزة، لعارف العارف، القدس، ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣.

- تاريخ ابن الفرات، لناصر الدين محمد ابن عبدالرحيم ابن الفرات، تحرير حسن محمد الشماع، بصرة، المجلد الرابع، ج ١، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧، و ج ٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩.

- تاريخ ابن الفرات، لناصر الدين ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المجلد السابع، بيروت، ١٩٤٢ والمجلد التاسع، ج ١، بيروت، ١٩٣٦. تحقيق قسطنطين زريق ونجلا عز الدين، المجلد الثامن، بيروت، ١٩٣٩، والمجلد التاسع، ج ٢، بيروت، ١٩٣٨.

- تاريخ معرة النعمان، لمحمد سليم الجندي، جزءان، دمشق، ١٩٦٣، ١٩٦٤.
- تقرير، لمنير الشريف، في جريدة الحياة، عدد ٢٠٩٤، بيروت، ١٩٥٣.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد ابن جرير الطبري، ٣٠ جزءاً، القاهرة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤.
- الجامع الصحيح، للبخاري، تحقيق لودلف كريل و ت. ف. يوينبل، ليدن، ١٨٦٢ - ١٩٠٨.
- جزيرة العرب في القرن العشرين، لحافظ وهبه، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦.
- الحب والشريعة والتقاليد عند البدو، لعارف العارف، القدس، ١٩٤٤.
- حسن المحاضرة، لجلال الدين السيوطي، جزءان، القاهرة، ١٣٢١ هـ.
- حياة الحيوان الكبرى، للشيخ كمال الدين الدميري، جزءان، مطبعة محمد علي صبيح عن نسخة المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٢٧٤هـ.
- خطط الشام، لمحمد كرد علي، ٦ أجزاء، دمشق، ١٣٤٣ - ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٥ - ١٩٢٨.
- خمس رسائل، لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري، تحقيق وترجمة يوسف شخت وماكس مايرهوف، القاهرة، ١٩٣٧.
- خمسة أعوام في شرقي الأردن، للأرشمندريت بولس سلمان، حريصا، ١٩٢٩.
- الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك، لنبيل محمد عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٧٦.
- ديوان أبي ماضي، بيروت، ١٩٨٢.
- ديوان أبي نواس، جزءان، تحقيق ايفالد فاغنر، بيروت ١٣٧٨ - ١٣٩٢هـ/ ١٩٥٨ - ١٩٧٢.
- ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٨.
- ديوان البحتري، ٤ أجزاء، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، ١٩٦٣ - ١٩٦٤.
- ديوان جرير، جزءان، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة، ١٩٦٩ - ١٩٧١.
- ديوان حسان ابن ثابت، جزءان، تحقيق وليد عرفات، لندن، ١٩٧١.

- ديوان حسان ابن ثابت، تحقيق محمد عناني وشرحه، مصر، ١٣٣١هـ.

- ديوان الحماسة، لأبي تمام، جزءان، القاهرة، ١٣٣٥هـ.

- ديوان حميد ابن ثور الهلالي، القاهرة، ١٣٧١هـ.

- ديوان ذي الرمّة، تحقيق كارليل هنري هيس مكارتني، كمبردج، ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩.

- ديوان الطرماح، تحقيق ف. كرنكاف، لندن، ١٩٢٧.

- ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، بغداد، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦.

- ديوان عروة ابن حزام العذري، مخطوطة في حوزة المؤلف نقلاً عن مخطوطة قديمة، د. ت.

- ديوان الفرزدق، جزءان، تحقيق عبدالله الصاوي، القاهرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦.

- ديوان القطامي، تحقيق يعقوب بارت، ليدن، ١٩٠٢.

- ديوان كثيّر عزّة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١.

- ديوان كشاجم، تحقيق خيرية محمد محفوظ، بغداد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠.

- ديوان المتنبي، تحقيق الشيخ ناصيف اليازجي، بيروت، ١٨٨٧.

- ديوان مجنون ليلى، تحقيق عبدالستّار أحمد فرّاج، القاهرة، د. ت.

- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق شكري فيصل، بيروت، ١٩٦٨.

- ديوان الهذليين، ٣ أقسام، تحقيق دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥.

- رسائل بتوقيع فتى البادية (اسم مستعار)، لجبرائيل جبور، جريدة الأحرار، بيروت، ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦.

- رسوم دار الخلافة، لهلال الصابي، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤.

- الريف السوري، لأحمد وصفي زكريا، جزءان، دمشق، ١٣٧٤ ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧.

- زهر الآداب، للحصري، جزءان، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣.

- سجلات المستشفى الخطية في النبك، النبك، ١٩٥٣ - ١٩٥٥.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن عماد الحنبلي، ٨ أجزاء، بيروت، د. ت.

- شرح التنوير على سقط الزند، لأبي العلاء المعري، جزءان، القاهرة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤.

- شرح القصائد العشر، للتبريزي، تحقيق كارلس يعقوب لايل، كلكته، ١٨٩٤.

- شرح المعلقات، للزوزني، بيروت، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣.

- شعر الأخطل، رواية السكري، تحقيق الأب انطوان صالحاني اليسوعي، بيروت، ١٨٩١.

- شعر عمر ابن أبي ربيعة، تحقيق بول شفارتز، ٣ مجلدات، ليبسك، ١٣١٨ - ١٣٢٧هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٩..

- الشعر عند البدو، لشفيق الكمالي، بغداد، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤.

- شعر الكميت، لابن زيد الأسدي، ٣ أجزاء، تحقيق داود سلوم، بغداد، ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

- صفحات من التاريخ الأردني ومن حياة البادية، للأب جورج سابا وروكز ابن رائد العزيزي، عمان، ١٩٦١.

- «الصلبة»، بقلم سليمان البستاني، دائرة المعارف، لبطرس البستاني، بيروت، مجلد ١١، ١٨٧٦ - ١٩٠٠، ص ٢ - ٩.

- «الصليب»، بقلم انستاس الكرملي، في مجلة المشرق، بيروت، ١٨٩٨، ج ١، عدد ١٥، ص ٦٧٣ - ٦٨١.

- صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، لجورج أوغست فالين، ترجمة سمير سليم شبلي، بيروت، ١٩٧١.

- العالم، مجلة، لندن، أيار ١٩٥٩.

- عامان في عمان، لخير الدين الزركلي، القاهرة، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥.

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، لزكريا القزويني، بيروت، ١٩٧٨.

- العشائر السورية وتحضيرها، لأحمد العكام، دمشق، ١٩٥١.

- عشائر الشام، لأحمد وصفي زكريا، جزءان، دمشق، ١٣٦٣ ـ ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧.

- عشائر العراق، لعباس العزاوي، ٤ أجزاء، بغداد، ١٩٣٧ ـ ١٩٥٦.

- عمر ابن أبي ربيعة، لجبرائيل جبور، ٣ أجزاء، بيروت، ج ١ عصره، ١٩٣٥، ج ٢ حياته، ١٩٣٩، ج ٣ حبه وشعره، ١٩٧١.

- العقد الفريد، لابن عبد ربه ٦ أجزاء، تحقيق احمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري، ١٣٥٩ ـ ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠.

- عيون الأخبار، لابن قتيبة، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٤٣ ـ ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠.

- فتوح البلدان، للبلاذري، تحقيق م. ي. دي خويه، ليدن، ١٨٦٦.

- فتوح الشام، للواقدي، مصر، ١٢٧٨هـ.

- الفهرست، لابن النديم، جزءان، تحقيق غوستاف فلوجل، ليزغ، ١٨٧١ ـ ١٨٧٢.

- «في همزة ابن»، لجبرائيل جبور، المقتطف، ج ٨٧، ١٩٣٥، ص ٦٣٣.

- قاموس الكتاب المقدس، بيروت، ١٩٦٤.

- القرآن الكريم.

- قصير عمرة، لمارتيه الماغرو ولويس كابليرو وخوان شوشايا وانطونيو الماغرو، مدريد، ١٩٧٥.

- القضاء بين البدو، لعارف العارف، القدس ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣.

- قلب جزيرة العرب، لفؤاد حمزة، القاهرة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣.

- الكامل، للمبرد، جزءان، تحقيق وليم رايت، ليبزغ، ١٨٦٤ ـ ١٨٩٢.

- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ١١ جزءاً، ليدن، ١٨٥١ ـ ١٨٧٦.

- كتاب الاعتبار، لأسامة ابن منقذ، تحقيق فيليب حتي، برنستون، ١٩٣٠.

- كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني (الأصفهاني)، طبعة بولاق، ٢٠ جزءاً، القاهرة، ١٢٨٥هـ، وطبعة دار الكتب، ٢٤ جزءاً، القاهرة، ١٩٢٦ ـ ١٩٧٨.

- كتاب البيزرة، لبازيار العزيز بالله الفاطمي، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢.
- كتاب الخيل، لأبي عبيدة، حيدر آباد، ١٣٥٨هـ.
- كتاب الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر، لمحمد ابن حمد البسام، عن صورة مخطوط رقم ٧٣٥٨ في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.
- كتاب سيرة رسول الله، لابن هشام، تحقيق فردينانـد فستنفلـد، ٣ أجـزاء، غوتنجـن، ١٨٥٨ - ١٨٦٠.
- كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد، ٩ أجـزاء، تحقيق ادوارد سـخو، ليدن ١٩٠٤ - ١٩٤٠.
- كتاب العيد، لجماعة من المؤلفين، تحرير جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٦٧.
- كتاب القضاء البدوي، لعودة القسوس، عمان، ١٩٣٦.
- الكتاب المقدس، في طبعتيه الانجيلية والكاثوليكية.
- الكواكب السائرة في مناقب أعيان المئة العاشرة، لنجم الدين الغزي، ٣ أجزاء، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٥ - ١٩٥٨.
- لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، لحيدر أحمد الشهابي، ٣ أقسام، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٣٣.
- لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني، للشيخ أحمد ابن محمد الخالدي، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٣٦.
- لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري، جزءان، بيروت، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١.
- لسان العرب، لابن منظور، ١٥ مجلداً، بيروت، ١٣٧٤ - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٥ - ١٩٥٦.
- لطف السمر وقطف الثمر، لنجم الدين الغزي، سفران، تحقيق محمود الشيخ، دمشق، ١٩٨١ - ١٩٨٢.
- ما رأيت وما سمعت، لخير الدين الزركلي، القاهرة، ١٩٢٣.

- متخيَّر الألفاظ، لأحمد ابن فارس، تحقيق هلال ناجي، بغداد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠.
- محافظة حماة، لمؤيد الكيلاني، دمشق، ١٩٦٤.
- المحفوظات الملكية المصرية في وثائق الشام، ٤ أجزاء، تحقيق أسد رستم، بيروت ١٩٤٠ - ١٩٤٣.
- محيط المحيط، لبطرس البستاني، جزءان، بيروت، ١٨٦٧ - ١٨٧٠.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، ٧ أجزاء، تحقيق شارل بيلا، بيروت، ١٩٦٦ - ١٩٧٩.
- مسند أحمد ابن حنبل، ٦ أجزاء، القاهرة، ١٣١١ - ١٣١٣هـ.
- المصايد والمطارد، لأبي الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم، تحقيق محمد أسعد طلس، بغداد، ١٩٥٤.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٥ أجزاء، بيروت، ١٣٧٤ - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٥ - ١٩٥٧.
- معجم الحيوان، لأمين معلوف، القاهرة، ١٩٣٢.
- معجم قبائل العرب، لعمر رضا كحالة، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٤٩.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، د. ت.
- ملخص تاريخ الزيادنة، لنعمان قساطلي، في مجلة الجنان، جزء ٢٤، بيروت ١٥ كانون الأول ١٨٧٧، ص ٨٤٧ - ٨٥٣.
- ملوك العرب، لأمين الريحاني، جزءان، بيروت، ١٩٢٤ - ١٩٢٥.
- منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، لميخائيل مشاقة، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا، بيروت، ١٩٥٥.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لعبد الرحمان ابن الجوزي، ١٠ أجزاء، حيْدر آباد، ١٣٥٧ - ١٣٥٨هـ.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، ٢٦ جزءاً، د. ت.

- نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار، ۳ أجزاء، لعبد الرحمن ابن درهم، بيروت، ١٣٤٥هـ.

- نهر الذهب في تاريخ حلب، لكامل ابن حسين الغزي، حلب، ١٣٤٢هـ.

- الهيئة الصحية العالمية - صحافة، المكتب الاقليمي لشرق البحر الأبيض المتوسط، بلاغ صحفي رقم ٢٤ - ٢٩، أكتوبر، ١٩٦٩.

- الوضع القبلي في سورية، أطروحة خطية لياسين مُغير، في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، بيروت، ١٩٤٦.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ٨ مجلدات، تحقيق احسان عبّاس، بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٧٢.

ب - المصادر الأجنبية (تبعا لأسماء المؤلفين ما عدا تلك التي الفها لجان أو وردت في تقارير فوضعناها في آخر الجدول)

- Albright, William Foxwell. *From the Stone Age to Christianity,* Baltimore, 1940.
- Allen, Mark. *Falconry in Arabia,* London, 1980.
- Brickwood, E.D. «Horse: History» in *Encyclopaedia Britannica,* 11th ed., Cambridge, XIII, 1910 - 1911, pp. 717 - 23.
- Bietenholz, Peter G. *Desert and Bedouin in the European Mind,* Khartoum, 1963.
- Blunt, Lady Anne. *Bedouin Tribes of the Euphrates,* New York, 1879.
- ——— *A Pilgrimage to Nejd,* (2 volumes), 2nd edition, London, 1881.
- Boris, G. *Le Chameau chez les Maraziq,* Tunis, 1951.
- Boucheman, Albert de. *Matériel de la vie Bédouine,* Gerardmer, 1934.
- Brown, William R. *The Horse of the Desert,* New York, 1929.
- Bulliet, Richard W. *The Camel and the Wheel,* Cambridge, Mass., 1975.
- Burckhardt, John Lewis. *Travels in Arabia,* London, 1829.
- ——— *Notes on the Bedouins and Wahabys,* (2 volumes), London, 1831.
- Burton, Sir Richard F. *Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah,* (2 volumes), memorial edition, London, 1893.
- Carruthers, Douglas (ed.). *The Desert Route to India,* London, 1929.
- ——— *Arabian Adventure,* London, 1935.
- Cheesma, R.E. *In Unknown Arabia,* London, 1926.

- Cole, Donald Powell. *Nomads of the Nomads* Arlington Heights, Illinois, 1975.
- Dickson, H.R.P. *The Arab of the Desert,* London, 1949.
- Dostal, W. «The Evolution of Bedouin Life» in *Ancient Bedouin Society,* ed. Francesco Gabrieli, Roma, 1959.
- Doughty, Charles M. *Travels in Arabia Deserta,* (2 volumes), new and definitive edition, London, 1936.
- Euting, Julius. *Tagbuch einer Reise in Inner - Arabien,* (2 volumes), hgbn, Enno Littmann, Leiden, 1896 - 1914.
- Feilberg, C.G. *La Tente Noire,* Copenhagen, 1944.
- Field, Henry. *An Anthropological Reconnaissance in the Near East, 1950,* Cambridge, Mass., 1956.
- ——— *Among the Beduins of North Arabia,* Chicago, 1931.
- Gauthier - Pilters, Hilda and Dagg, Anne Innis. *The Camel,* Chicago and London, 1981.
- Glubb, John Bagot. *Handbook of the Nomad, Semi - nomad, Semi - sedentary and Sedentary Tribes of Syria,* British Ninth Army, 1942.
- ——— *The Story of the Arab Legion,* London, 1948.
- ——— *Peace in the Holy Land,* London, 1971.
- Grant, Christina Phelps. *The Syrian Desert,* New York, 1938.
- Guarmani, Carlo. *Northern Najd,* translated by Lady Capel - Cure with introduction and notes by Douglas Carruthers, London, 1938
- Guary, Gerald de, *Arabian Journey and Other Desert Travels,* London, 1950.
- Hall, H. R. *The Ancient History of the Near East,* seventh edition, revised, London, 1927.
- Hamilton, R.W. *Khirbat Al - Mafjar,* Oxford, 1959.
- Hardy, M.J.L. *Blood Feuds and the Payment of Blood Money in the Middle East.* Beirut, 1963.
- Harrison, David L. *The Mammals of Arabia,* (3 volumes), London, 1964 - 1972.
- Hitti, Philip K. *History of Syria,* London, 1951.
- ——— *Lebanon in History,* London, 1957.
- Hogarth, David George. *The Penetration of Arabia,* London, 1905.
- ——— *The Nearer East,* New York, 1915.
- Huber, Charles. *Journal d'un voyage en Arabie, 1883 - 1884,* Paris, 1891.
- Jabbur, Jibrail. «Abu - al - Duhur, The Ruwalah Utfah» in *The World of Islam: Studies in Honour of Philip K. Hitti,* ed. James Kritzeck and R. Bayly Winder, London, 1960, pp. 195 - 198.
- Jarvis, C.S. *Arab Command,* St. Albans, 1946.
- ——— *Three Deserts,* cheap edition, London, 1941.
- Kiernan, R.H. *The Unveiling of Arabia,* London, 1937.

- Lammens, H. «Mecca» in *Encylopaedia of Islam*, Leiden and London, III. 1936, pp. 437 - 442.
- Lancaster, William. *The Rwala Bedouin Today*, Cambridge, 1981.
- Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom*, Aylesbury, 1926.
- Leonard, Arthur G. *The Camel*, London, and New York, 1894.
- Leopold, A. Starker. *The Desert*, New York, 1961.
- Luckenbill, Daniel D. *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, (2 volumes), Chicago, 1926 - 1927.
- McClure, Harold A. *The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations*, Miami, 1971.
- Merrill, Selah. *East of the Jordan*, London, 1881.
- Montagne, Rebert. *La Civilisation du désert*, Paris, 1947.
- Müller, Victor. *En Syrie avec les Bedouins*, Paris, 1931.
- Musil, Alois. *The Northern Hegaz*, New York, 1926.
- ——— *Arabia Deserta*, New York, 1927.
- ——— *The Middle Euphrates*, New York, 1927.
- ——— *Nortern Negd*, New York, 1928.
- ——— *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York, 1928.
- ——— *Palmyrena*, New York, 1928.
- ——— *In the Arabian Desert*, New York, 1931.
- Nicholson, Reynold A. *A Literary History of the Arabs*, London, 1907.
- Niebuhr, Karsten, *Travels Through Arabia*, (2 volumes) translated by Robert Heron, Edinburgh, 1792.
- Oppenheim, Max F. von. *Vom Mittelmeer zum Persichen Golf*, (2 volumes), Berlin, 1899 - 1900.
- ——— *Der Tell Halaf, Leipzig, 1931.*
- Palgrave, William Gifford. *Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia, 1862 - 1863*, (2 volumes), 3rd edition, London, and Cambridge, 1866.
- Philby, H. St. John. *The Heart of Arabia*, (2 volumes), London, Bombay and Sydney, 1922.
- ——— *The Empty Quarter*, New York, 1933.
- ——— «The Land of Midian», in *The Middle East Journal*, vol. 9, no. 2, 1955, pp. 117 - 29.
- ——— *The Land of Midian*, London, 1957.
- ——— *Forty Years in the Wilderness*, London, 1957.
- Pieper, W. «Sulaib» in *Encyclopaedia of Islam*, 1934, vol. IV, pp. 511 - 15.
- Podhajsky, A.W. «Horse» in *Encyclopaedia Britannica*, 15 th ed., Chicago, Macropaedia, VIII, 1978, pp. 1088 - 1092.
- Poidebard, A. *La Trace de Rome dans le désert de Syrie*, Paris, 1934.
- Raswan, Carl R. *Black Tents of Arabia*, Boston. 1935.

- Ripinsky, Michael. «Camel Ancestry and Domestication in Egypt and the Sahara» in *Archaeology, vol. 36, no. 3, May - June, 1983 pp. 21 - 27.*
- ——— «The Camel in Ancient Arabia» in *Antiquity,* vol. 49, no. 196, 1975, pp. 295 - 98.
- ——— «Pleistocene Camel Distribution in the Old World» in *Antiquity,* vol. 56, no. 216, 1982, pp. 48 - 50.
- Romer, Alfred Sherwood. *Vertebrate Paleontology,* 2nd ed., Chicago, 1945.
- Schmidt - Nielsen, Knut. «The Physiology of the Camel» in *Scientific American,* vol. 201, no. 6, December 1959, pp. 140 - 51.
- Seabrook, William. *Adventures in Arabia,* London and Aylesbury, 1941.
- Shanklin, William M. «The Anthropology of the Rwala Bedouins» in *The Journal of the Royal Anthropological Institute,* vol. LXV, London, July - December 1935, pp. 375 - 95.
- Simpson, George G. *Horses,* New York, 1951.
- Talbot, Lee Merriam. *Time Magazine,* vol. 66, 21 November 1955, p. 32.
- Thesiger, Wilfred. *Arabian Sands,* London and Colchester, 1959.
- ——— *Desert, Marsh and Mountain,* London, 1979.
- Thomas, Bertram. *Arabia Felix,* London, 1932.
- Twitchell, K.S. *Saudi Arabia,* Princeton, 1947.
- Varthema, Ludovico di. *The Travels,* translated from the original Italian edition of 1510 by John Winter Jones and edited by George Percy Badger, New York, 1963.
- Volney, M.C. - F. *Travels Through Syria and Egypt, 1783 - 1785,* translated from French in 2 volumes, London, 1787.
- Wilson, R.T. *The Camel,* London and New York, 1984.
- Wright, William. *Palmyra and Zenobia,* London, 1895.

- *Arabia,* Published by British Foreign Office, Report no. 61, London, 1920.
- *Embassy and Consular Archives,* published by the British Foreign Office, F.O. 195, volumes 170 - 1027, London, 1835 - 1874.
- *Kingdom of Iraq,* published by Committee of Officials, Baltimore, 1946.
- *Les Tribus nomades de L'Etat de Syrie,* published by French Offices, Damas, 1943.
- *Locust,* published in Encyclopaedia Britannica 15th ed., Chicago, 1978, Micropaedia, VI, p. 293.
- *News Review,* reports, Beirut, vol. VII, no. 32 and vol. X, no. 42, 1959, p. 4.

فهرس الأعلام

لقد اعتمدنا في هذا الفهرس الأسماء الأولى في الأعلام العربية إلاّ أصحاب الكنى المشهورة مثل ابن خلدون وابن النديم وأبي عبيدة وأبي نؤاس وأهملنا أسماء العشائر لأن ذكرها يتردد في أكثر صفحات الكتاب . وأما الأعلام الأعجمية فقد دوناها في موضعين في أغلب الأحيان : واحد للاسم الأول وآخر لاسم العائلة ليسهل على القارىء الرجوع إلى موضعها في الكتاب . وألحقنا حرف «ك» بأسماء الكتب .

- ب -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ض -

- ط -

- غ -

ـ ف ـ

- ن -

فهرس المحتويات

الركن الأول: البادية

الركن الثاني: الجمل

الركن الثالث: الخيمة

الركن الرابع: البدوي العربي

الملاحق

